

# المختصة

المجلس  
الأعلى  
للثقافة

## مجلة

تأليف: مارجريت أتوود

ترجمة: سحر توفيق



\*\* معرفتي \*\*

مجلة  
الابن ساهان



المشروع القومي للترجمة

786



المشروع القومي للترجمة

# المُذْنِبَةُ

(رواية)

تأليف: مارجريت أتوود  
ترجمة: سحر توفيق



٢٠٠٥



**المشروع القومي للترجمة  
إشراف : جابر عصفور**

- العدد : ٧٨٦

- المذنبه ( رواية )

- مارجريت أتوود

- سحر توفيق

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

**هذه ترجمة رواية :**

**Alias Grace**

**by : Margaret Atwood**

**© O. W. Toad Ltd 1996**

---

**حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة ودار الفارابي  
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤**

**El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo**

**Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com**



تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.



أياً كان ما حدث طوال هذه السنوات  
يعلم الله أنى أقول الحق، إذ أقول أنك كاذب

ويليام موريس

“The Defence of Guenevere”

ليس لى منبر للقضاء

إميلى ديكنسون

*Letters*

لا يمكننى أن أخبرك ما هو الضوء، لكن  
يمكننى أن أعرف ما هو ليس بضوء ...  
ما الذى يحرك الضوء؟ ما هو الضوء؟

أيوجين مارايس

*The Soul of The White Ant*







# المحتويات

9	.....	مقدمة
19	..... الحافة الصخرية	الفصل الأول
25	..... الطريق الصخري	الفصل الثاني
37	..... فتاة في أزمة	الفصل الثالث
75	..... أحلام طبيب شاب	الفصل الرابع
151	..... أطباق مكسورة	الفصل الخامس
211	..... درج الأسرار	الفصل السادس
283	..... سياج الأفاعى	الفصل السابع
359	..... الثعلب والإوز	الفصل الثامن
435	..... قلوب وأحشاء	الفصل التاسع
503	..... سيدة البحيرة	الفصل العاشر
533	..... أشجار متهاوية	الفصل الحادى عشر
565	..... معبد سليمان	الفصل الثانى عشر
603	..... صندوق باندورا	الفصل الثالث عشر
641	..... الحرف المجهول	الفصل الرابع عشر
675	..... شجرة الفردوس	الفصل الخامس عشر
713	.....	كلمة أخيرة
721	.....	شكر وتقدير





## مقدمة

الكاتبة الكندية مارجريت أتوود، روائية وشاعرة وناقدة أدبية أيضاً، تهتم في أعمالها بالمرأة، التي تشغل في رواياتها مكاناً بارزاً، وخاصة ما تتعرض له المرأة من القهر البدني والنفسي الذي يمارس عليها من أقرب الناس كما من المجتمع بكامله. ولذا كان من الطبيعي أن تهتم بنساء الطبقات الأدنى في المجتمع، وبتفاصيل حياتهن المليئة بالمشقة والتعاسة.

وعندما نتناول في هذه الرواية موضوعاً تاريخياً، فهي لا تخرج عن هذا الخط الذي تعطيه اهتمامها، فالرواية حول امرأة، خادمة. وفي القرن التاسع عشر، ربما كانت النظرة إلى المرأة مختلفة عنها اليوم، إلا أنها كانت أكثر قهراً، مهما غلفت بأردية ملونة وأزياء بديعة تجعلها في شكل طائر البجع أو أميرات القصص الخيالية. لكنها نفس هذه الأردية هي "أقفاص" تحبسها. إنها نظرة المجتمع إلى المرأة، طريقة الملابس، طريقة المشي التي يعلمونها للفتيات الصغيرات، إقناع المرأة بأنها كائن ضعيف معرض للإغماء والوقوع لأقل سبب. ولكن هذا بالنسبة للطبقات الأرقى من المجتمع، أما نساء الطبقات الدنيا فهن على العكس يعاملن على أنهن قادرات على تحمل جميع صنوف القهر، العمل ٢٤ ساعة في اليوم، إن ما ترويه بطلة الرواية عن عملها في يوم كامل يثير الذعر، ففترة الراحة التي تتمناها هي الجلوس في الشمس بعد الظهر لرتق الثياب.



تأخذنا مارجریت أتوود فى رحلة عبر الزمن، لندخل إلى دهاليز حياة وعقل واحدة من أشهر نساء القرن التاسع عشر فى القارة الأمريكية. أدينّت جريس ماركس بتهمة التورط فى جريمة قتل بشعة، راح ضحيتها مخدمها الثرى، توماس كينير، ومدبرة منزله وعشيّته نانسى موننجومرى. شغلت هذه الجريمة الصحف والرأى العام طويلاً فى كندا والولايات المتحدة، بل وطارت أخبارها والنقاش حولها إلى أوروبا، خاصة بريطانيا، وظلت الصحف تكتب عنها حتى نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فالفتاة التى شاركت فى ارتكاب الجريمة كانت صغيرة جداً، مما أثار نقاشاً طويلاً وانقسامًا كبيرًا فى الرأى حول دورها الحقيقى فى الجريمة، هل كانت شريكًا فعليًا فى الجريمة؟ هل كانت هى المجرم الحقيقى المحرض على ارتكاب الجريمة؟ وما دلالات ذلك على أنها شيطانة فى صورة آدمية؟ وما هى الدلالات الأخرى الخاصة بجنس المرأة بشكل عام؟ ثم هناك الرأى الآخر الذى رأى أنها كانت مجرد شخصية ساذجة استطاع الخادم القاتل أن يثير فيها الرعب إلى درجة أنها أطاعت أوامره خوفًا على حياتها.

صدر الحكم على جريس فى البداية بالإعدام، ثم تم تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة. وبدلاً من الإعدام، حولوها فى حياة السجن والمصحة العقلية إلى امرأة صامتة، مغلقة، يملؤها الخوف والهواجس، لا تتكلم إلا إذا وجه إليها الكلام، وفى هذه الحالة لا تقول إلا الإجابة المختصرة المهذبة: "نعم يا سيدتى، لا يا سيدتى، نعم ولا يا سيدتى!". تعرضت جريس ماركس إلى كل أنواع القهر، القهر البدنى، الجنسى، والقهر النفسى، حتى أصبحت رمزًا صامتًا للقهر البدنى والنفسى.

إن مواجهتها الأولى مع الطبيب الذي يقيس الرؤوس معبرة للغاية عما وصلت إليه حالتها النفسية تجاه الأطباء الذين التقت بهم في حياتها.

ويأتى د. سايمون چوردان، الطبيب النفسى الشاب الواعد الملىء بالآمال الكبيرة فى مستقبل باهر للطب النفسى، والذي يحلم بالإنجازات العلمية الكبيرة، يأتى د. چوردان ليحاول فتح هذه الصدفة المغلقة. وبعد محاولات عديدة، تبدأ فى الانفراج، لتحكى لنا قصة حياتها الأليمة على مدى ثلاث أو أربع سنوات قبيل هجرتها مع عائلتها إلى كندا حتى دخولها السجن. وتلفت الكاتبة النظر فى ثنايا الرواية بشكل صريح إلى أن القصة التى تحكيها جريس للطبيب هى صورة من رواية شهرزاد إلى شهر يار. والواقع أن المؤلفة تغزل قصة جريس مع قصة هذا الطبيب بطريقة تجعلنا نرى نظرة المجتمع إلى المرأة بشكل أوضح، من ناحية، والسجن الذى يمكن أن يعيش فيه الإنسان، السجن الحقيقى والسجن الافتراضى المصنوع من نظرة المجتمع إلى تصرفات الآخرين، من ناحية أخرى. وفى مقابلة بين قصة جريس وقصة سايمون، فإن الكاتبة تضع القارئ فى موقف لا يمكن معه أن يتغاضى عن المقارنة بينهما، فكلاهما وحيد، كلاهما يعيش فى سجن، هى تتعرض لمضايقات المساجين والسجناء على السواء، وهو يتعرض لمضايقات صاحبة البيت التى تؤثر عليه حتى "تأسره" فلا يستطيع منها فكاكاً، وتتحول قصته مع صاحبة البيت إلى صورة هزلية مما يفترض الكثيرون أنه حدث مع جريس، امرأة تحاول حث عشيقها على قتل زوجها، وتدفعه إلى ذلك بالجنس، فهل كانت جريس محرصة لعشيقها (!! ) على ارتكاب جريمة القتل؟ إن كلاً منهما يبحث عن الحقيقة من وجهة نظره،



والتي نكتشف في النهاية إنها حقيقة شبحية، غامضة، أشبه بحالة التتويم المغناطيسي، أو الحق أنها نوع من تحضير الأرواح.

أما مسألة هل ارتكبت جريس ماركس الفعل المجرم حقاً أم أنها بريئة منه، فقد وضعتها الكاتبة في غموض شديد، فالمسألة ليست ارتكابها للفعل أو براءتها منه، فالواقع أنها كانت أقرب إلى طفلة في ذلك الوقت. كما أن الهدف الرئيسي من الرواية لم يكن عملية كشف هذا الغموض، فهي ليست رواية بوليسية وإنما كان كشف ما أدى إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة من أوضاع اجتماعية وظلم طبقي وحياة قاسية، وكشف ما كان يمارس ضد المرأة في زمان آخر غير زماننا، وكذا عرض بانوراما نرى فيها تفاصيل الحياة اليومية للقرن التاسع عشر، لكل من طبقة السادة وطبقة الخدم، والبون الشاسع بينهما. إن الطبيب وهو يسمع من جريس حكايتها تتراءى له مقاطع منها في حياته نفسها، كواحد من أبناء الطبقة "الأخرى"، يرى نفسه وهو يستكشف حياة الخادمت في بيت أسرته، ويتذكر اكتشافاته الأولية للمشاعر الجنسية مع هؤلاء الفتيات، وربما يكون قد ظلم واحدة أو أكثر منهن كما ظلمت ماري هويتني؟

تستخدم الكاتبة اقتباسات من القصائد، وروايات الجرائد، والكتب والرسائل، لتملأ الرواية بالحيوية وتنقل لنا صورة دقيقة للحياة اليومية في ذلك العصر، حتى يمكنك أن ترى تفاصيل هذه الحياة المليئة بالعمل الشاق من الصباح الباكر حتى الليل بالنسبة للخادمة. أما بالنسبة للطبقات الأرقى من المجتمع، فهي الحياة المليئة بالملل والرتابة وعدم القدرة على الرؤية الواضحة إلى درجة البحث عن شاغل يدعى الالتصاق بعلوم العصر، لكنه

ينتهي إلى الدخول في الدجل والشعوذة لقضاء الوقت، مع إضفاء صورة علمية، والتعلل بأسباب دينية، للإيحاء بالجدية والصدق.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتناول الأدب فيها هذه القصة الواقعية، بل إن المؤلفة نفسها سبق لها أن قدمتها في عمل تليفزيوني، ولكن ذلك كان قبل أن تقرأ تفاصيل القصة من أطراف أخرى بحيث يمكنها الحصول على نظرة مختلفة عن النظرة السائدة في قراءتها الأولى. وفي الخاتمة التي تقدمها الكاتبة، تحدثنا عن تفاصيل النظرتين المختلفتين للرواية.

وفي كتابتها للقصة هذه المرة، تدخل مارجريت أتوود إلى القرن التاسع عشر، لتلقى نظرة على الحياة الاجتماعية للخدم في ذلك الوقت. لقد كانت التفاصيل الكثيرة للحياة اليومية التي يخوضها أبناء هذه الطبقة من الكثرة والإرهاق لدرجة يصعب تصديقها اليوم بعد أن أصبح كل بيت يحتوى من الأدوات والآلات الكهربائية ما يغنى عن عدد كبير من الخدم، وأحياناً عن الخدم جميعاً.

إن التغيير الذى طال حياة النساء فى الغرب فى القرن العشرين، خاصة فى أمريكا الشمالية وأوروبا، هو ظهور أدوات الغسيل الكهربائية التى جعلت من غير المهم وجود كثير من الخدم. فهم ليسوا بحاجة إلى تضييع اليوم بكامله فى أعمال البيت. وهذا جعل من الممكن للمرأة أن تقوم بالعمل خارج البيت. وكان التغيير الاقتصادى فى ذلك العصر هو الباعث على هذا التغيير الجذرى فى حياة المرأة. فكثير من العائلات أصبحت

بحاجة إلى وجود دخل إضافي. بالإضافة إلى حاجة الاقتصاد إلى المزيد من الأيدي العاملة لملاحقة التطورات الجارية في التصنيع.

وقد استطاعت الكاتبة أن تصور لنا حياة هذه الطبقة العاملة الصعبة بكثير من التفاصيل اليومية البالغة الدقة. لقد كان التمايز الطبقي، والثورة المطالبة بإلغاء العبودية حينذاك، والتي كانت ضمن الأسباب الرئيسية للحرب الأهلية في الولايات المتحدة، وهو أمر تلمسه الكاتبة بقوة في خلفية الرواية لأن الغالبية من الخدم كانوا ما يزالون في نفس الوضع الطبقي المتدنى. لكن جريس عند خروجها من سجنها بعد ٢٨ عامًا تقول أنه لم يعد هناك فرق كبير في الملابس بين الطبقات المختلفة، دلالة على بداية تغير الأوضاع في ذلك الوقت.

تستغل الكاتبة خيطاً آخر مثيراً، التطور العلمي الحادث في القرن التاسع عشر، على عدة مستويات، فالأم لا تكل من الحديد عن "ماكينة الخياطة المنزلية"، الاختراع الحديث الذي سيوفر الكثير من المجهود، في نفس الوقت لا تتوقف جريس عن الخياطة اليدوية طوال الجلسات التي تتحدث فيها إلى الطبيب. ومن ناحية أخرى، هناك الأبحاث الطبية النفسية الحديثة في ذلك الوقت، وفي مقابل ذلك، هناك الهوس المنتشر بالروحانية والروحانيين، والذي يتجلى في جلسات تحضير الأرواح وغيرها من وسائل الدجل والشعوذة. هناك أيضاً الجدل الدائر بين المذاهب الدينية المسيحية، وخاصة البروتستانتية، والذي كان أيضاً من سمات ذلك العصر. وقد تمكنت الكاتبة من غزل كل ذلك في روايتها ليكون متسقاً ومعبراً عن روح العصر.



كان الاعتقاد الشائع في القرن التاسع عشر أن النساء مخلوقات غامضة ولا يمكن سبر غورها. ومن المؤكد أن هذا الشعور يتضاعف عندما تكون المرأة متهمة في جريمة قتل. والواقع أن كثيراً من النساء اللاتي اتهمن بارتكاب جرائم قتل في ذلك العصر تمت إدانتهم لأنهن فعلن أشياء لم يكن المجتمع يوافق عليها. فإذا تورطت امرأة في قضية ما، وظهر أن في الأمر علاقة آثمة، فإن أملها في النجاة ضعيف مهما كانت بريئة من الجريمة الأصلية. وتقول مارجريت أتوود في حوار معها حول الرواية إن ما ورط جريس شينان:

أولهما أنها وجدت في فندق مع رجل، رغم أنها كانت في الواقع في غرفة أخرى، ولكن مجرد وجودها في الفندق كان معناه تدمير سمعتها. والأمر الثاني أنها كانت ترتدي ملابس ناعسة في المحاكمة، وقد وجه ذلك المشاعر ضدها بشدة، ولكن لماذا ارتدت هذه الملابس؟ لأنها جيدة، وتؤدي الغرض، ولم تعد ناعسة بحاجة إليها. والواقع أنها لم يكن لديها خيال الطبقة الوسطى أو العليا، والذي قد يقول: "لا يمكن أن أرتدي هذه الثياب، إنها ثياب الشخصية الميتة.."، ليس لديها هذا النوع من التفكير. فالشال هو شال، والفستان هو فستان. ومثل هذه الأشياء لا تلقى إلى عرض الطريق. عندما تسافر إلى الهند ستجد أن كل شيء يستخدم، كل شيء. لن تجد أكياس بلاستيك في

الشارع، فلا أحد يلقى بها، لأنها يعاد استخدامها مراراً ومرات. وعندما لا يمكن أن تستخدم أكثر من ذلك، سوف يتم تقطيعها وتحويلها إلى أنواع من الديكورات. ومن هنا تأتي فكرة الأغطية المصنوعة من قطع الأقمشة.

إن صورة المرأة الضعيفة أو الممتدة كانت هي الصورة المثيرة للمرأة في نظر الرجال، كانت هي صورة المرأة في ذلك العصر، في اللوحات، في الأوبرات، في الشعر. والحقيقة أن من الأشياء الجذابة جداً للفنان في تلك الفترة إنقاذ النساء المغمى عليهن، المرأة المجنونة المغشى عليها. نستطيع أن نرى ذلك في تراث ذلك العصر. إذن، فالنظرة إلى المرأة كمخلوق غامض وضعيف، بالإضافة إلى النظرة المتدنية إلى المرأة كأداة للجنس، ثم ما يحمله المجتمع من تناقض في هذه النظرة التي نتيجتها أن السادة الأثرياء يرون أن من حقهم الاعتداء على خادمت البيت وكأنهن ملك لهم. هذه النظرة التي عانت منها صديقة جريس معاناة أودت بحياتها، ثم يتردد صداها في ذكريات سايمون نفسه. وهناك النظرة إلى المرأة التي تنتمي إلى علية القوم بأنها ينبغي أن تكون ضعيفة، حتى أن الجدل العلمي يردد بعض الآراء القائلة بأن بنية عمودها الفقري ضعيف بطبيعته، وأنها لا بد أن تربطه حتى تستطيع أن تقف بشكل مستقيم، ولا بد أن يعيد ذلك إلى ذاكرتنا الوسائل التي اتبعتها الحضارات الأخرى لقمع المرأة مثل ربط القدمين في الصين، والاختباء تحت خيمة سوداء طوال الوقت عند العرب.

استطاعت مارجریت أتوود رسم شخصياتها ببراعة متناهية، حتى أن الشخصيات تكاد تنطق بالحياة، في كل تصرفاتها وكلامها ولهجتها. والواقع أن هذا أوجد مشكلة لي في الترجمة، فمعظم كلام جريس يقترب كثيراً من العامية، بل إن معظم العبارات هي عامية صريحة، وفي الترجمة يصعب أن ننقل ذلك إلى العامية، لأسباب عديدة، أولها أن اللغة العربية بها عاميات كثيرة ومختلفة، ومن الصعب أن نقرر أية عامية هي الأنسب، لذلك حاولت استخدام لغة عربية مبسطة في حوار جريس، خصوصاً في الأجزاء التي تقوم فيها بدور الراوي، وأحياناً اضطررت لاستخدام بعض الألفاظ العامية حين رأيت أنه من الصعب التعبير بالفصحى عن مثل هذه المعاني. أما سايمون چوردان والمبجل قرينجر وزوجة المحافظ ومسز كوينل، وغيرهم من شخصيات الرواية، فيمكن ببساطة أن نرى في سلوكياتهم وموضوع حديثهم ولغتهم المعقدة، الفصحى في الغالب، ما يدل على اهتماماتهم الشخصية، وهو ما يزيد من اقتناعي ببراعة المؤلفة في رسم الشخصيات وفي وضع الحوار على شفاههم.

هناك مشكلة أخرى قابلتني في الترجمة، فالكاتبة تستخدم الاستعارات والكنائيات بكثرة بالغة، وكذلك تستغل الأمثال الشعبية وأغلبها من الأمثال القديمة المعبرة عن العصر، خاصة في حوارات جريس، وكان من الصعب ترجمة مثل هذه الأشياء حرفياً، لأنها قد تكون بلا معنى في اللغة العربية، وقد حاولت أن أترجمها كما هي مع إضافة كلمة أو عبارة توضح المعنى المقصود، أو تغييرها بما يقابلها في الأمثال والتعبيرات العربية الكثيرة المعبرة عن نفس المعنى. وفي بعض الأماكن، حين أعبتني



الحيلة، لجأت إلى كتابة المعنى المقصود مباشرة، وأرجو ألا أكون قد أسأت التقدير.

أما بالنسبة لما استخدمته الكاتبة من نصوص دينية، فقد بحثت عن مقابلها في الكتاب المقدس باللغة العربية، وأشرت إلى أماكنها في هامش أسفل الصفحة. ومن ناحية أخرى، فإن جميع الهوامش أسفل الصفحة ترجع للمترجمة، ولذا فلم أجد ما يدعو إلى الإشارة إلى ذلك على كل هامش.

وأخيراً، تعتبر هذه الرواية أحد النماذج الروائية التي تتخذ من التاريخ مادة لها. وقد استطاعت الكاتبة أن تعبر بصدق عن روح العصر، في وصفها للأزياء، وطرائق الحياة، وطرق العناية بالمنزل، والمواصلات المستخدمة وتطورها على مدى السنوات التي تمثل زمن الرواية، والتطور العلمي الحادث في ذلك الوقت من الناحيتين النظرية والمادية، ونظرة المجتمع بفئاته المختلفة إلى المرأة، وإلى العلاقات الاجتماعية بشكل عام، بالإضافة إلى شكل السجون والمصحات العقلية في ذلك العصر، والأساليب المتبعة فيها، وتضع الكاتبة في مقدمة الفصل الثاني اقتباساً من "كتاب العقوبات" يوضح أنواع العقوبة المستخدمة في الإصلاحية للمذنبين الذين يرتكبون، داخل السجن، ما يستحقون عليه التأديب.

سحر توفيق

المعادي ، ٢٠٠٥

## الفصل الأول

### الحافة الصخرية



فى وقت زيارتى للإصلاحية، لم يكن فيها  
إلا أربعون امرأة . وهذا يفصح عن التربية  
الأخلاقية الرفيعة للجنس الضعيف. كان الهدف  
الرئيسى من زيارتى لقسم النساء أن ألقى نظرة  
على القائلة الشهيرة جريس ماركس، التى سمعت  
عنها الكثير، ليس فقط من الصحف العامة، ولكن  
أيضا من الرجل المحترم الذى دافع عنها أثناء  
محاكمتها، والذى كان دفاعه القدير منقذا لها من  
حبل المشنقة التى أنهى شريكها البائس حياته  
الإجرامية عليها.

سوزانا مودى

***Life in the Clearings, 1853***

تعال، انظر

سترى الزهور الحقيقية

لهذا العالم الموجه

باشو



بين الحصى، تنمو بعض أزهار الفاونيا. تنبثق من بين الحصى الرمادية المتقلبة، براعمها تتشمم الهواء كقرون الحلزون، ثم تنتفخ وتتفتح وروداً حمراء قانية، تتألق وتلمع كالساتان. ثم تنفجر وتتأثر على الأرض.

وفي اللحظة التي تسبق انتشارها، تبدو أشبه بأزهار الفاونيا في الحديقة الأمامية لبيت السيد كينير. وفي اليوم الأول، لم تكن هذه الأزهار إلا باللون الأبيض. كانت نانسي تقطفها وهي ترتدى ثوبا فاتح اللون به براعم وردية وله ثلاث طبقات من الحواشي الهدبية، وتضع على رأسها قبعة من القش تخفي وجهها. كانت تحمل سلة منبسطة لتضع الزهور فيها؛ وعندما تتحنى كانت تنثى أردافها محتفظة بوسطها مستقيماً، كما تفعل سيدات الطبقة الراقية. عندما سمعنا والنقنت لترانا، رفعت يدها نحو عنقها وكأنما فوجئت بنا.

عندما أسير، أخفض رأسي، وأحافظ على خطواتي مع الآخرين، عيناى لأسفل، نسير اثنتين اثنتين بصمت حول الفناء، داخل المربع الذى بُنيت حوله الجدران الحجرية العالية. أضمت يديّ أمامي؛ مشققتان، وقد احمرت مفاصل الأصابع. لا أذكر أنهما كانتا فى أى وقت على غير هذه الحال. أرى طرفى حذائى، يظهران ويختفيان بالتبادل تحت حافة ثوبى،

أبيض وأزرق، صوت خطواتهما يصنع جلبة على الممشى. هذا الحذاء يناسبني أكثر من أى حذاء آخر كان عندي من قبل.

نحن فى العام ١٨٥١. سأبلغ الرابعة والعشرين فى عيد ميلادى القادم. وأنا سجينه هنا منذ السادسة عشرة من عمري. سجينه مثاليه، لا أثير متاعب. هذا ما تقوله زوجة المحافظ، سمعتها خلسة تقول ذلك، فأنا ماهرة فى استراق السمع. وإذا كنت حسنة السير والسلوك، فقد يفرجون عنى؛ لكن حسن السير والسلوك ليس سهلاً، إنه أشبه بأن تكون معلقاً بحافة الجسر بعد أن تقع من عليه؛ لا يبدو أنك تتحرك أو تبذل أى مجهود، وإنما تبقى متدلياً منه، ومع ذلك فهذا الوضع يستغرق كل قواك.

أراقب أزهار الفاوانيا بطرف عيني. أعرف أن هذا ليس أوانها، فنحن فى أبريل، ولا تزهو الفاوانيا فى أبريل. والآن، توجد ثلاث أخرى، أمامى مباشرة، تنمو على الطريق نفسه. أمد يدي خلسة لألمس إحداها. وأحس بها جافة، وأكتشف أنها من القماش.

أمامى مباشرة أرى نانسي، على ركبتيها، شعرها منسدل والدم يسيل على عينيها. وحول عنقها منديل قطنى أبيض مطبوع بزهور زرقاء، حب فى الضباب، إنه منديلى. ترفع وجهها، تمد يديها إلى طلباً للرحمة؛ فى أذنيها القرط الذهبى الصغير الذى طالما حسدتها عليه، لكننى لم أعد أريده الآن، يمكن لنانسى أن تحتفظ به، فى هذه المرة سيكون كل شىء مختلفاً، فى هذه المرة سأسرع لنجدتها، سأرفعها وأمسح الدم عنها بأطراف ثوبى، سأمزق تنورتى لأضمد بها جراحها، ولن يحدث ما حدث أبداً. سوف يعود السيد كينير إلى بيته بعد الظهر، يدخل بالعربة إلى الممشى، وسوف يمسك مكدموت الجواد. سيدخل السيد كينير إلى الردهة وأصنع

له بعض القهوة، وستأخذها نانسي إليه على الصينية كما تحب أن تفعل، وسوف يقول ما أجود هذه القهوة؛ وفي الليل ستخرج اليراعات المضيئة إلى بستان الفاكهة، وسنسمع صوت الموسيقى تحت ضوء المصباح. جيمي وولش، عازف الناي الصغير.

أكاد أصل إلى نانسي، إلى حيث تركع. لكنني لا أخطو، لا أجرى، أظل أسير في الطابور، اثنين اثنين؛ ثم تبتسم نانسي، فمها فقط يبتسم، أما عيناها فيغطيها الشعر والدم، ثم تتناثر إلى رقع من الألوان، إلى ركاب من بتلات القماش الحمراء المتناثرة على الحصى.

أضع يديّ فوق عيني، لأن الدنيا أظلمت فجأة، وثمة رجل يقف هناك حاملاً شمعة، معترضاً الدرجات المتجهة لأعلى، وجدران القبو تلتف حولي من كل ناحية، وأعرف أنني لن أخرج أبداً. هذا ما قلته لدكتور چوردان، عندما وصلنا إلى هذا الجزء من القصة.

## الفصل الثانی

### الطریق الصخری





فى حوالى الثانية عشرة وعشر دقائق من  
يوم الثلاثاء، فى سجن المدينة الجديد، نُفذ حكم  
الإعدام فى جيمس مكدرموت، قاتل مستر كينير.  
واجتمع حشد هائل من الرجال والنساء والأطفال  
متلهفين لمشاهدة النزاع الأخير لإنسان آثم.  
ولا نستطيع أن نخمن أى نوع من المشاعر يمكن  
أن تطويها صدور أولئك النسوة اللاتى تجمهن من  
كل حدب وصوب، رغم الأحوال والأمطار، لحضور  
مثل هذا المشهد المفزع. لكننا نجد الجرأة لنقول  
أنهن لسن فى غاية الرقة أو الدماثة. وفى اللحظة  
البشعة، بدأ المجرم التعيس على نفس حالة البرود  
والجرأة التى ميّزت سلوكه منذ القبض عليه.

*Toronto Mirror*

٢٣ نوفمبر ١٨٤٣

## الذنب

الضحك والكلام .

الكلام في المغسلة .

التهديد بكسر دماغ سجين .

توجيه الحديث إلى الحراس في  
مسائل خارجة عن  
اختصاصهم .

ادعاء وجود عيوب في الجراية  
عندما يطلب الحراس من  
السجين الجلوس

البحلقة في شرود على مائدة  
الإفطار .

ترك العمل والذهاب إلى دورة  
المياه أثناء وجود سجين  
آخر هناك .

## العقوبة

٦ جلدات؛ بمجلدة متعددة  
السياط .

٦ جلدات؛ بسوط مفرد .

٢٤ جلدة، بمجلدة متعددة  
السياط .

٦ جلدات، بمجلدة متعددة  
السياط .

٦ جلدات؛ بسوط مفرد، ولا  
يقدم له سوى خبز وماء

لا يقدم له سوى خبز وماء .

٣٦ ساعة في زنزانة مظلمة،  
ولا يقدم له سوى خبز وماء.

كتاب العقوبات

سجن كنجستون، ١٨٤٣



Grace Mark and Mary Whitney James M'Donnell  
as they appeared at the Court-Martial (Court-Martial) at  
St. John's, New Brunswick, New Brunswick.

جریس مارکس

جیمس مکدرموت

المدعوة ماری هویتنی

كما ظهرا في قاعة المحكمة متهمين بقتل

توماس كينير و نانسى مونتجومرى



جرمنا قتل توماس كينير، المحترم ومدبرة منزله نانسي  
مونتجومري في ريتشموند هيل ومحاكمة جريس ماركس  
وجيمس مكرموت وإعدام جيمس مكرموت شنقاً في  
السجن الجديد بتورنتو، ٢١ نوفمبر ١٨٤٣

كانت جريس ماركس خادمة  
عمرها ستة عشر عاماً  
وكان مكرموت سانس الخيل  
وكلاهما يعمل في بيت توماس كينير

كان توماس كينير رجلاً من علية القوم  
يعيش حياة مرفهة  
وقد أحب مدبرة منزله حباً حقيقياً  
وكان اسمها نانسي مونتجومري

أه، يا نانسي العزيزة، لا تحزني،  
فسوف أذهب إلى المدينة،  
لأحضر، من البنك في تورنتو،  
بعض النقود من أجلك

ما كانت نانسى من أصل كريم  
وما كانت نانسى ملكة  
لكنها ترفل في الحرير والديباج  
أروع ما يمكن أن تراه العين .

لم تولد نانسى سيدة من علية القوم  
لكنها تعاملنى كما لو كنت جارية  
تلزمنى بالأعمال الشاقة من الفجر حتى الليل،  
وستظل تفعل ذلك حتى فى قبرى.

أحبت جريس الرجل الطيب توماس كينير،  
أما مكدموت فقد أحب جريس،  
وكان هذا النوع من الحب فى رأى،  
هو ما أدى بهما إلى الهاوية.

أوه يا جريس، كونى حبيبتى المخلصة!  
أوه لا، هذا غير ممكن،  
إلا إذا قتلت من أجل خاطرى،  
نانسى مونتجومرى.

نزل بضربة فأس، بكل قوته،  
على رأس نانسى الجميلة،  
وجرها إلى باب القبو،  
ورماها من فوق سلم القبو.

أرجوك، دعنى أعيش يا مكدموت.  
قالت: دعنى أعيش

نعم، قالت نانسي مونتهجومري: دعني أعيش،  
وسوف أعطيك فساتيني الثلاثة.

دعني أعيش، ليس لأجل خاطري أنا،  
ولا لخاطر طفلي الذي لم يولد بعد،  
بل من أجل حبيبي، توماس كينير،  
دعني أعيش لأرى الصباح.

شدها مكرموت من شعرها،  
وجريس ماركس من رأسها،  
هذان المجرمان المتوحشان،  
خنقاها حتى الموت.

ماذا فعلت، ضلت روعي،  
وأخشي على حياتي!  
إذن، ولكي ننفذ أنفسنا،  
يجب أن نقتل توماس كينير عندما يعود.

أوه، لا، أتوسل إليك، لا،  
أتضرع إليك أن تبقى على حياته!  
بل، لا بد أن يموت، لأنك أقسمت،  
أن تكوني عشيقتي.

عاد توماس كينير إلى البيت راكباً جواده،  
وعلى أرض المطبخ،  
قتله مكرموت، بطلقة اخترقت قلبه،  
فوقع مضرجاً في دمه.

جاء البائع المتجول إلى البيت،  
هل تشتريين ثوباً منى؟  
اذهب عن البيت أيها البائع،  
فعندى ثياب تكفى ثلاثة.

جاء الجزار إلى البيت،  
كان يأتى كل أسبوع،  
اذهب أيها الجزار،  
فلدينا ما يكفى من اللحم الطازج!

جردا كينير من أشياءه الفضية،  
وجرداه من أشياءه الذهبية،  
وسرقاً حصانه وعربته،  
وانطلقا إلى تورنتو.

عندما هربا إلى تورنتو،  
كان ذلك فى منتصف الليل،  
وظنا أنهما سيعبران البحيرة،  
ويهربان إلى الولايات المتحدة.

يدها فى يد مكرموت،  
بجراًة لا مثيل لها،  
ووقفت عند فندق لويستون،  
واتخذت اسم مارى هويتنى.

عُثِرَ على الجثتين في القبو،  
وجهها كالله السواد،  
كانت تحت حوض الغسيل،  
وكان هو راقداً على ظهره.

أسرع بيليف كينجسميل للمطاردة،  
أخذ مركباً،  
يبحر بأسرع ما يمكن،  
إلى لويستون، عبر البحيرة.

لم تكد تمر ست ساعات عليهما في الفراش،  
ست ساعات، أو ربما أكثر،  
عندما وصل إلى فندق لويستون،  
ودق الباب.

قالت جريس بصوت واضح: من هناك؟  
ماذا تريد مني؟  
أوه، أنت قتلت السيد توماس كينير،  
ونانسي مونتجومري.

وقفت جريس ماركس في قفص الاتهام،  
وأنكرت كل شيء.  
لم أرها مخنوقة،  
ولم أسمعها وهو يقع.

هو أرغمني علي صحبته،  
وقال إذا أخبرت أحداً،



سوف يرسلنى، بطلقة واحدة،  
من بندقيته النافذة، إلى الجحيم.

وقف مكرموت فى قفص الاتهام،  
لم أفعل ذلك وحدى،  
ولكن من أجل شخص واحد،  
جريس ماركس، هى المخطط والمحرض.

وقف الشاب جيمى وولش فى قاعة المحكمة،  
وأقسم أن يقول الحقيقة،  
نعم، جريس ترتدى ثوب نانسى،  
وترتدى قبعتها أيضاً!

علقوا مكرموت من رقبته،  
عالياً على المشنقة،  
ووضعوا جريس فى سجن كئيّب،  
حيث ينبغى أن تعانى الحسرة ويصيبها الهزال.

تركوه معلقاً ساعة أو اثنتين  
ثم أنزلوا جسده،  
وقطعوه إرباً ...  
فى الجامعة.

على قبر نانسى نمت شجيرة ورد،  
وعلى قبر توماس كينير نمت كرمة،  
كبرتتا وارتفعتا والتفت كل منهما حول الأخرى،  
وبهذا تواصل الجسدان معا.

لكن جريس ماركس، ستقضى حياتها التعسة،  
كلها، حبيسة في السجن،  
بسبب إثمها وجريمتها البشعة،  
في إصلاحية كينجستون.

لكن، لو تابت جريس ماركس في النهاية،  
وكفرت عن آثامها،  
فعندما ستحين ساعتها،  
ستقف عند عرش الإله التواب.

سوف تقف عند عرش التواب،  
وسوف تبرأ من محنتها،  
وسوف تغسل يداها المضرجتان بالدماء،  
وتعود بيضاء كالثلج.

ستعود بيضاء كالثلج،  
وسوف تعبر إلى السماء،  
وتسكن الفردوس،  
في الفردوس أخيراً.

## الفصل الثالث

### فتاة فى أزمة



هي امرأة متوسطة الحجم، ولها جسد يميل إلى الجمال. يثير  
وجهها الأسى العميق بما يشيع فيه من كآبة لا حل لها. بشرتها  
بيضاء، ولا بد أنها كانت شديدة التألق قبل أن تشحب بفعل  
الأسى واليأس. عيناها زرقاوان لامعتان، وشعرها كستنائي،  
وكان يمكن أن يكون وجهها جميلاً إلى حد ما لولا تلك الذقن  
الطويلة المقوسة التي توحى، مثلما هو الحال مع كل من تتميز  
وجوههم بهذا العيب، بالمكر والقسوة.

وتنظر جريس ماركس إليك نظرة جانبية مختلصة، لا تلتقي  
عيناها بعينيك أبداً، وبعد أن تتأملك خفية، تنحني بنظراتها إلى  
الأرض ولا تتحول عنها. وهي تبدو شخصية أرقى من حقيقة  
مكانتها المتواضعة...

سوزانا مودي

*Life in the  
Clearings, 1853*

رفعت الأسيرة وجهها، وكان ناعماً  
ولطيفاً،

كوجه قديس منحوت من المرمر،  
أو رضيع نائم،

كان ناعماً ولطيفاً، كان حلواً رائقاً،

لم يتمكن الألم من حفر خط،  
ولم يتمكن الحزن من إلقاء ظل عليه.

رفعت الأسيرة يدها وضغطت بها  
على حاجبها،

وقالت "لقد وقعت في الأسر، والآن  
أعاني،

لكن ذلك لا قيمة له، قد تكون قيودك  
وأسلحتك قوية:

وحتى لو كانت من الفولاذ، فلن تقدر  
على حبسى طويلاً."

إميلي برونتي

*"The Prisoner", 1845*



.١٨٥٩

أجلس على الأريكة المخملية الأرجوانية، فى قاعة بيت المحافظ، قاعة بيت زوجة المحافظ. لقد كانت دائماً قاعة زوجة المحافظ رغم أنها لم تكن دائماً نفس الزوجة، فهم يغيرون المحافظين دائماً وفقاً للسياسات. أضع يدي مضمومتين فى حجرى بالطريقة اللائقة، رغم أننى لا أرتدى قفازاً. القفاز الذى أتمناه سوف يكون ناعماً وأبيض، ويناسب يدي تماماً دون تجعيدة واحدة.

أنا دائماً فى هذه القاعة، أرفع أدوات الشاي وأزيل الأتربة عن المناضد الصغيرة والمرآة الطويلة ذات الإطار المزخرف بعناقيد العنكب وأوراقه، وعن البيانو، وعن الساعة الطويلة التى جاءت من أوروبا، ولها شمس ذهبية وقمر فضى يخرجان ويدخلان وفق أى ساعة من اليوم تكون، وأى أسبوع من الشهر. هذه الساعة تعجبني أكثر من أى شىء آخر فى القاعة، رغم أنها تحسب الوقت الذى لدى الكثير منه بالفعل.

لكنى لم أجلس أبداً على الأريكة من قبل، فهى للضيوف. وقد قالت مسز ألدرمان باركنسون أن السيدة المحترمة يجب ألا تجلس أبداً فى مقعد قام عنه للتو أحد السادة، رغم أنها لم تذكر السبب؛ لكن مارى هويتتى قالت لى لأنه أيتها الإوزة الغبية، ما يزال دافناً مطرح عجيزته؛ وكان ذلك

قولاً غير مهذب. ولهذا لا يمكننى الجلوس هنا دون أن أفكر فى أرداف النساء من كل شكل، تلك الأرداف التى جلست على هذه الأريكة، ناعمة وبيضاء، ورجراجة كبيض نصف مسلوق.

ترتدى الزائرات أزياء ما بعد الظهر بصفوف من الأزرار على الصدر، وتحتها بطانة عبارة عن تتورة كرينولين منفوخة بإطار من السلك الصلب. وإنها لأعجوبة أن يستطعن الجلوس أصلاً، وعندما يسرن، لا يلمس أرجلهن تحت التتورات المنفوخة إلا القمصان الداخلية والجوارب. وكأنهن طيور البجع، يتهادين على أقدام خفية، أو هن أشبه بقناديل البحر فى مياه المرفأ الصخرى الذى كان قريباً من بيتنا عندما كنت صغيرة، وقبل أن أقوم بالرحلة الطويلة الحزينة عبر المحيط. كانت هذه القناديل جميلة، تشبه الأجراس، مكشكشة، تتماوج برقة تحت مياه البحر؛ لكن إذا ألقاها الموج على الشاطئ فجفت تحت الشمس لا يبقى منها شىء. والسيدات كن يشبهنها فى ذلك: منفوخات بالمياه.

عندما أحضرونى هنا لأول مرة لم يكن هناك كرينولين، وإنما كن يستخدمن شعر الخيل فى ذلك الوقت، حيث لم يكن أحد قد فكر بعد فى التتورات ذات السلك. وقد رأيتها معلقة فى الدواليب عندما كنت أدخل لترتيبها وإفراغ صناديق الثياب. وهى أشبه بأقفاص الطيور، لكن ما الذى يحبس فيها؟ السيقان، سيقان السيدات، سيقان محبوسة لكى لا تستطيع الخروج من محبسها والتحرر لتحتك ببنتلونات السادة. ولا تقول زوجة المحافظ كلمة سيقان أبداً، رغم أن الصحف قالت سيقان عندما تحدثت عن نانسى، وساقىها الميتين ظاهرتين تحت حوض الغسيل.

لم تكن تأتي فقط السيدات الشبيهات بقناديل البحر. ففي أيام الثلاثاء تكون قضية المرأة، وتحرير هذه أو تلك، رجال ونساء ذوو عقليات إصلاحية؛ وفي أيام الخميس تكون الجلسة الروحية، لشرب الشاي وتبادل الحوار مع الموتى، وفي ذلك راحة لزوجات المحافظ التي فقدت ابنها طفلاً. ولكن السيدات هن الزائرات الرئيسيات. يجلسن وهن يرتشفن من الكؤوس الرقيقة، وتدق زوجة المحافظ جرساً صغيراً من الصينى. وهى لا تحب كونها زوجة المحافظ، وتفضل أن يكون محافظاً لشيء آخر غير السجن. كان للمحافظ أصدقاء قادرين على أن يجعلوه ينال منصب محافظ، لكنهم لم يكونوا قادرين على أن يجعلوه محافظاً على أى شيء آخر.

وهكذا فهى هنا، وعليها أن تستفيد لأقصى ما يمكن من وضعها الاجتماعى وإنجازاتها، وأنا أيضاً أحد هذه الإنجازات رغم أنى موضع خشية، كعنكبوت، لكنى فرصة لعمل الخير كذلك. أدخل إلى الغرفة، وأنحنى احتراماً، وأتحرك فى المكان، فمى مغلق، رأسى محنية، وأرفع الكؤوس أو أضعها حسب الحالة، وهم يحدقون فىّ دون أن يظهر ذلك عليهم، يحدقون من تحت قبعاتهم.

يرغبون فى رؤيتى لأننى قاتلة مشهورة، أو أن هذا ما كتب عنى. عندما رأيت هذا التعبير لأول مرة دهشت، لأنهم يقولون مغنية مشهورة وشاعرة مشهورة ووسيلة روحية مشهورة وممثلة مشهورة، لكن ماذا فى القتل ليكسب الإنسان شهرة؟ وعلى أية حال فكلمة "قاتلة" قوية جداً إذا اتصلت بك. إن لها رائحة، تلك الكلمة، رائحة عطرية ثقيلة الوطأة، كرائحة زهور مية فى قازة. أحياناً فى الليل أهمس بها لنفسى مرة بعد

مرة: قاتلة، قاتلة. إن لها حفيفاً، كصوت احتكاك تتورة من التافتاه بالأرض.

لكن كلمة 'قاتل' ليس فيها إلا القسوة والوحشية. إنها أشبه بمطرقة، أو كتلة معدنية ثقيلة. والحقيقة أنني أفضل أن أكون 'قاتلة' لا 'قاتلاً'، إذا لم يكن أمامي خيار ثالث.

أحياناً أنظر إلى نفسي في المرآة المزدانة بزخارف عناقيد الكروم أثناء قيامي بإزالة الأتربة عنها، رغم أنني أعرف أن ذلك عبث. وتبدو بشرتي، في ضوء ما بعد الظهر في القاعة، مائلة إلى البنفسجي الباهت، مثل كدمة بدأ لونها يتلاشى، وأرى أسناني مخضرة. وأفكر في كل الأشياء التي كتبت عني - أنني شيطان أنثوي لا آدمي، وأني ضحية بريئة لوغد أرغمني على ارتكاب ذلك رغماً عني وهدد حياتي نفسها، وأني على درجة من الجهل تجعلني لا أعرف كيف أتصرف، وأن شنقي هو نوع من "القتل القانوني"، وأني مغرمة بالحيوانات، وأني جميلة متألفة البشرية، وأن لي عينين زرقاوين، وأن لي عينين خضراوين، وأن شعري كستنائي، وأنه بني أيضاً، وأني طويلة وأيضاً لا أزيد عن الطول المتوسط، وأني أرتدى ثياباً جيدة ولائقة، وأني سرقت امرأة مينة لأظهر بهذا المظهر، وأني سريعة الحركة ونشيطة في عملي، وأني جهمة وأميل للشجار بطبيعتي، وأن لي مظهراً أعلى من مكانتي المتواضعة، وأني بنت طيبة ذات طبيعة طيبة ولم يتحدث أحد عني بأى سوء، وأني لئيمة ومراوغة، وأني بليدة العقل وأقرب إلى البلاهة. وأتعجب، كيف أكون بكل هذه الصفات المختلفة في وقت واحد؟

كان المحامي الذي تولى الدفاع عني، السيد كينيث ماكنزي، المحترم، هو الذي أخبرهم بأنني أقرب إلى البله. وقد أغضبني قوله هذا، لكنه قال أنها أفضل فرصة لي وأنني لا يجب أن أبدو شديدة الذكاء. وقال أنه سوف يترافع في قضيتي بأقصى ما يستطيع، لأنه مهما كانت حقيقة الأمر، فقد كنت لا أزيد كثيرًا عن طفلة في ذلك الوقت. وقد رأى أن الأمر يتعلق بالإرادة الحرة وبكون الإنسان يوافق على الفعل أم لا. كان سيديًا طيبًا رغم أنني لم أفقه حرفًا من أغلب كلامه، لكن لا بد أنها كانت مرافعة جيدة. وكتبت الصحف أنه خاض صراعًا بطولياً ضد التناقضات السائدة. ومع ذلك، فأنا لا أعرف لماذا يسمونها مرافعة، فهو لم يكن يدافع عني وإنما كان يحاول أن يجعل كل الشهود يظهرن بمظهر فاسدى الأخلاق أو ذوى النوايا الخبيثة، أو على الأقل مخطئين.

وأشك أنه صدق حرفاً مما قلت.

وعندما أخرج بالصينية من الغرفة، تنظر السيدات إلى سجل قصاصات الجرائد الخاص بزوجة المحافظ. وتقول السيدات ياه، تخيلي، إننى أكاد أفقد الوعي، تتركين هذه المرأة تتحرك بحرية تامة فى منرك، لا بد أن أعصابك من حديد، أنا لا يمكن أن أتحمل ذلك. أوه، حسناً، لا بد أن يتعود المرء على مثل هذه الأشياء فى حالتنا، فى الواقع نحن أنفسنا أشبه بالسجناء كما تعلمين، رغم أن المرء لا بد أن يشعر بالإشفاق نحو هذه المخلوقات المسكينة المصابة بالجهل. ومع ذلك، فهى مدربة على أعمال الخدمة، ومن الأفضل أن نجعلهم فى حالة شغل، إنها بارعة فى الخياطة، ماهرة وتتجز العمل بسرعة، وهى من هذه الناحية تساعدنى حقاً، خاصة

فى أردية البنات؁ ولها نظرة فى الزركشة؁ وفى ظروف أفضل من هذه كان يمكن أن تصير مساعدة ماهرة لأحد صانعى القبعات النسائية.

ورغم أنها؁ بطبيعة الحال؁ لا يمكن أن تكون هنا إلا خلال النهار؁ إلا أنني لا أرغب فى وجودها فى البيت أثناء الليل. تعلمن أنها قضت بعض الوقت فى مستشفى الأمراض العقلية فى تورنتو؁ كان ذلك منذ حوالى سبع أو ثمانى سنوات. ورغم أنه يبدو أنها شفيت تمامًا؁ إلا أن المرء لا يمكن أن يعرف متى يمكن أن تصيبهم النوبة مرة أخرى؁ وهى أحياناً تكلم نفسها وتغنى بصوت عال بطريقة غريبة للغاية؁ لا يمكن للمرء أن يجازف. يأتى الحراس فى المساء لاقتيادها وحبسها كما يجب؁ وإلا ما غمض لى جفن. إننى لا أؤمن؁ فلا بد أن يكون هناك حد لما يقدر عليه الإنسان من فعل الخير؁ فلا يمكن للنمر أن يغير جلده؁ ولكنك تفعل ما تقدر عليه فلا يأخذ أحد عليك أنك لم تؤد واجبك ولو بإظهار مشاعر طيبة.

يوضع سجل قصاصات زوجة المحافظ فوق المائدة المستديرة المغطاة بمفرش حريرى؁ تتشابك عليه أفرع كأفرع الكروم وزهور وثمار حمراء؁ وطيور زرقاء؁ وهى فى الحقيقة شجرة واحدة كبيرة. وإذا دقت النظر؁ تبدأ الأفرع فى التلوى وكان الريح تهب عليها. هذا المفرش أرسلته ابنتها الكبرى من الهند؁ ابنتها التى تزوجت من أحد المبشرين؁ وهو أمر لا أتمناه لنفسى؁ فهو يضمن لك موتاً مبكراً؁ فإن لم تمت بسبب الأهالى المشاغبين — كما حدث فى كاونبور؁ وارتكبت فظائع فى حق السيدات المحترمات؁ وكان من رحمة الله بهن أن ذبحوهن ووضعوا نهاية لتعاستهن؁ فيا له من عارٍ كان يمكن أن يجللهن — فإنك ستموت بالمalaria؁



التي تحولك إلى مخلوق أصفر اللون وتنتهي حياتك مع نوبات الهذيان المتتالية. وعلى أية حال، فقبل أن تتمكن من التراجع، ربما تصبح مدفوناً تحت جذع نخلة في أرض قصية. وقد رأيت صور هذه المشاهد في كتاب صور شرقية تخرجه زوجة المحافظ عندما تشعر بميل لذرف بعض الدموع.

وعلى نفس المائدة المستديرة، رُصَّت أعداد "كتاب جودي للسيدات" – التي تحتوى خطوط الموضة، والتي تأتي من الولايات – وأيضاً ألبومان يحتويان تذكارات ابنتيها الصغيرتين. تقول الأنسة ليديا أنني شخصية رومانتيكية، لكنهما صغيرتان جداً ولا تعرفان ما تقولان. وأحياناً تتطفلان عليّ، وتغيظانني، تقول الواحدة منهما: يا جريس، إنك لا تضحكين أو تبتسمين أبداً، لم نرك تبتسمين أبداً، وأقول أظن يا آنستي أنني نسيت كيفية الابتسام، وما عاد وجهي قادراً على التعبير بهذه الطريقة. لكنني إذا ضحكت بصوت عال فقد لا أستطيع التوقف، كما أن ذلك سيفسد فكرتهما الرومانتيكية عني. فالمفترض أن الرومانتيكيين لا يضحكون، أعرف هذا جيداً من النظر إلى الصور.

تضع الفتاتان كل شيء ومن أي نوع في ألبوميهما، قصاقيص قماش من أثوابهما، قطعاً صغيرة من الشرائط، صوراً قصت من المجلات – أطلال روما القديمة، الأديرة الرائعة في جبال الألب الفرنسية، كوبري لندن القديم، شلالات نياجرا في الصيف وفي الشتاء، وهو مشهد أتمنى أن أراه، إذ يقول الجميع أنه رائع جداً، وكذلك بورتريهات السيدة فلانة واللورد علان من إنجلترا. وتكتب صديقاتهما كلمات بخط رشيق، "إلى ليديا العزيزة من صديقتك إلى الأبد، كلارا ريتشاردز"؛ "إلى العزيزة

ماريان لذكرى نزهتنا الرائعة على شواطئ بحيرة أونتاريو الزرقاء.  
وقصائد أيضاً:

كما يلتف اللباب العاشق

حول جذع السنديانة القوي

عربون محبتي، بكل صدق،

لن يكون لي أبداً إلا أنت،

المخلصة: لورا.

أو أيضاً:

رغم أنني لا بد أن أرحل بعيداً من حين لآخر

لا تحزنى

فاتنا في الحقيقة لا نفترق أبداً

لأننا روح واحدة في جسدين،

صديقتك: لوسى

وهذه السيدة الشابة غرقت بعد فترة قصيرة من كتابة هذه الأبيات في البحيرة عندما غاصت مركبها في العاصفة، ولم يجدوا شيئاً إلا صندوقها، وقد ثبتت عليه مسامير من الفضة تحمل الحروف الأولى من اسمها؛ وكان ما يزال مغلقاً، ولذلك احتفظ بكل ما كان فيه رغم تسرب البلل إليه، وقد أعطيت مس ليديا وشاحاً منه كتذكار:

عندما أموت، ويفلق على القبر

وتصاب عظامي كلها بالعفن،

عندما يحدث ذلك، اذكريني،

وإلا فسوف يطويني النسيان.

وهذه القصة موقعة كالاتى: سوف تكون روى دائماً معك، المحبة: نانسي. وعندما رأيت ذلك لأول مرة، أنا وهانا إدموندز، أصابني الرعب، رغم أنها بالطبع "نانسي" أخرى. لكن، العظام المتعفنة ... لا بد أنها كذلك الآن. كان وجهها كله أسود عندما وجدوها، ولا بد أن الرائحة كانت بشعة، فقد كان الجو حاراً جداً في ذلك الوقت من شهر يوليو، ولذلك فقد فسدت في وقت سريع جداً، وقد يظن المرء أن وجودها تحت في مخزن الألبان والجبن كان لا بد أن يحفظها لوقت أطول، فالجو فيه بارد في العادة. ومن المؤكد أنني ارتحت لأننى لم أكن موجودة، فلا بد أن الأمر كان مؤلماً للغاية.

لا أعرف لماذا يريدون كلهم أن نتذكرهم، فبماذا تتفهم الذكرى؟  
بعض الأشياء يجب أن ينساها الجميع، وألا يذكرها أحد أبداً.

أما ألبوم زوجة المحافظ فهو مختلف تماماً. فهي بالطبع امرأة ناضجة وليست فتاة شابة، ورغم ذلك فهي مغرمة بالذكريات بنفس القدر، إلا أن ما ترغب في تذكره ليس الزهور والرحلات. وليس في ألبومها عزيزتى والمخلصة والمحبة، ولا أصدقاء إلى الأبد، فلا شئ من ذلك يناسبها، لكن لديها بدلا من ذلك

كل المجرمين المشهورين - الذين وصلوا إلى حبل المشنقة أو أحضروا هنا ليتوبوا، فهذه إصلاحية، ويجب أن تتوب وأنت هنا، والأحسن أن تقول أنك تبت، سواء فعلت ما يستحق التوبة أم لم تفعل.

تقص زوجة المحافظ هذه القصصات من الجرائد، وتلصقها في الألبوم، وقد ترسل لطلب صحف قديمة تحدثت عن جرائم ارتكبت منذ زمن. هذه هي "مجموعتها"، فهي سيّدة، وكلهن يجمعن أشياء هذه الأيام، ومن ثم فهي أيضاً يجب أن تجمع أشياء، وهي تجمع قصصات الجرائم بدلا من أن تقتلع السراخس أو تجفف الزهور، وهي على كل حال تحب أن ترهب معارفها.

ومن ثم فأنا قرأت ما وُضع في هذا الألبوم عنى. لقد أرتنى بنفسها سجل القصصات، وأظن أنها كانت تريد أن تعرف رد فعلى، لكننى تعلمت أن أحافظ على هدوء تعبيرات وجهى، فتحت عينى على وسعهما، كبومة في ضوء المصباح، وقلت إننى تبت بدموع مريرة، وأصبحت الآن شخصا مختلفا، وسألته إن كانت تريد منى أن أرفع طقم الشاي الآن، لكننى منذ ذلك الوقت طالعت صفحات هذا الألبوم مرات عديدة، كلما كنت في القاعة وحدى.

وأكثر ما فيه كذب. قالوا فى الصحف أننى كنت لا أعرف القراءة، لكننى حتى فى ذلك الوقت كنت أستطيع بعض القراءة. أمى علمتتى فى سن مبكرة، قبل أن ينتابها التعب والمرض ويمنعها عن ذلك. وقد طرزت أول نموذج لى فى طفولتى ببقايا الخيوط - أ: أرنب، ب: بطة. مارى هويتتى أيضاً كانت تقرأ معى عندما كنا فى بيت مسز ألدرمان پاركينسون، عندما كنا نصلح الثياب؛ وتعلمت الكثير منذ جئت هنا، فهم

يعلمونك عن عمد، لأنهم يريدونك أن تكون قادرًا على قراءة الكتاب المقدس، وبعض النصوص الأخرى، فالقراءة والجلد بالسوط هما العلاجان الوحيدان لطبائعنا المنحرفة، حيث يجب الالتفات إلى علاج أرواحنا الأبدية. وقد صدمت لكثرة الجرائم التي يضمها الكتاب المقدس، جرائم تستحق أن تقصها زوجة المحافظ وتلصقها في ألبومها.

وقالت الصحف أيضًا بعض الحقائق. قالوا أن لي شخصية قوية، وهذا صحيح، فلم يحدث أن استطاع شخص أن يستغلني، رغم أنهم حاولوا. لكنهم قالوا أن جيمس مكرموت عشيقى. كتبوا ذلك فى الصحيفة مباشرة. وأعتقد أن كتابة مثل هذه الأشياء فى الصحيفة أمر يثير الغثيان.

هذا هو ما يثير اهتمامهم فى الواقع – السادة والسيدات كلهم. فلا يهمهم إن كنت قد قتلت أحدا، وحتى لو قطعت عشرات الرقاب، أليس هذا هو ما يعجبهم فى الجندي؟ لن يطرف لهم جفن. بل إن همهم الرئيسى هو هل كنت عشيقة حقًا، لكنهم حتى لا يعرفون إذا كانوا يرغبون فى أن تكون الإجابة بنعم أو لا.

إننى لا أنظر فى ألبوم القصاصات الآن، فقد يأتون فى أية لحظة. أجلس ويداى الخشتان مطويتان، وعيناي منكستان، أهدق فى الزهور المرسومة فى السجادة التركىة. أو ما يفترض أنه زهور. إن لها بتلات أشبه بالدينارى على ورق اللعب، مثل أوراق اللعب المتناثرة على المنضدة فى بيت مستر كينير، بعد أن يكون السادة قد قضاوا الليلة السابقة فى اللعب. وحدات الدينارى مستقيمة الأضلاع، حادة الزوايا، لكنها حمراء، حمرة قانية ثقيلة، السنة ثقيلة مخنوقة.

نحن لا ننتظر السيدات اليوم، وإنما ننتظر طبيبًا. وهو يؤلف كتابًا؛ وزوجة المحافظ تحب أن تعرف الناس الذين يؤلفون كتبًا، كتبًا ذات أهداف مستقبلية، هذا يعطيها مظهر شخصية ذات عقلية ليبرالية ووجهات نظر متقدمة، والعلم يتقدم هكذا، وما الذى حدث للمجتمع بفضل المخترعات الحديثة والقصور البلورية الأسطورية والمعرفة الواسعة الهائلة، من يعرف أين سنكون بعد مائة عام!

إن وجود الطبيب فى مكان ما علامة سيئة. فرغم أنهم لا يقتلون بأنفسهم إلا أن وجودهم معناه أن الموت قريب، وهم فى هذا أشبه بالغربان. لكن هذا الطبيب لن يؤذيني، هكذا وعدتني زوجة المحافظ. إن كل ما يريده هو أن يقيس رأسى. وهو يقيس رؤوس كل المجرمين فى السجن، ليعرف إن كان يمكنه — من شكل النتوءات فى رؤوسهم — تحديد أى نوع من المجرمين هم، نشالون أو نصابون أو مختلسون أو مجانين ذوو نزوع إجرامى، أم قتلة، ولم تقل لى "متلك يا جريس!"، ومن ثم يمكنهم حبس هؤلاء الناس قبل أن تتاح لهم فرصة لارتكاب أية جريمة، تخيل كيف سيؤدى ذلك إلى تحسين العالم!

بعد شق جيمس مكرموت، صنعوا قالبًا جصيًا على رأسه، قرأت ذلك أيضًا فى ألبوم القصاصات. ولا بد أنهم أرادوا هذا القالب لنفس السبب، من أجل تحسين العالم.

كما شرحوا جسده أيضًا. عندما قرأت ذلك لأول مرة، لم أكن أعرف معنى 'التشريح'، لكننى سرعان ما فهمت. فالأطباء هم الذين قاموا بذلك. قطعوه إلى أجزاء كالذبيحة لكى يتم تملیحه وحفظه، وربما رأوا

تحويله إلى لحم مدخن أيضاً. ذلك الجسد الذى سمعت تنفسه، ودقات قلبه، يقطعه السكين شرائح، لا أستطيع تحمل الفكرة.

ماذا فعلوا بقميصه يا ترى؟ أكان واحداً من القمصان الأربعة التى اشتراها من جيرميا، البائع المتجول؟ ربما كانت ثلاثة، أو خمسة، فالأرقام الفردية تجلب الحظ، وكان جيرميا دائماً يتمنى لى حظاً طيباً، لكنه لم يكن يتمنى ذلك أبداً لچيمس مكرموت.

لم أر الشنق. شنقوه أمام السجن فى تورنتو، ويقول لى الحراس: "كان يجب أن ترى هذا المشهد يا جريس، إذن لكان درساً لك". لكننى تخيلت ما حدث مرات عديدة، چيمس المسكين واقف، يداه مقيدتان ورقبته عارية، وهم يضعون القلنسوة على رأسه كقطة يريدون إغراقها. ولا بد أنه كان معه قسيس على الأقل، فلم يكن وحده تماماً. قال لهم لولا جريس ماركس لما حدث شيء من ذلك كله.

كانت تمطر، جمهور غفير من الناس يقفون فى الوحل، بعضهم جاء من على مبعده أميال. وإذا لم يكن الحكم بإعدامى قد ألغى فى اللحظة الأخيرة، لشاهدونى أشنق بنفس الاستمتاع الشره. كان هناك الكثير من النساء والسيدات، جاء الجميع رغبة فى المشاهدة، أرادوا أن يشموا رائحة الموت كما لو كانت نوعاً من العطر الجيد، وقد فكرت عندما قرأت ذلك، إذا كان درساً لى، فما الذى يفترض أن أتعلمه من هذا الدرس؟

الآن، يمكننى سماع خطواتهم. أقف بسرعة وأشد مريلتى لتبدو لائقة. كان هناك صوت رجل غريب، هذا عطف كبير منك يا سيدتى،



وتقول زوجة المحافظ إننى أشعر بالسعادة لأننى أستطيع المساعدة. ويقول مرة أخرى، عطف كبير جدًا.

ثم يدخل من الباب، كرش كبير، معطف أسود، صديري مغلق، أزرار فضية، وملابسه محشوة بجسده مثل مجموعة من أوراق اللعب مربوطة بإحكام، لا أرفع عيني لأعلى من الذقن، وهو يقول إن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلًا، ولكنى سوف أكون شاكراً يا سيدتى إذا بقيت فى الغرفة، لا يكفي أن يكون المرء فاضلاً، بل يجب أن يتمسك بمظاهر الفضيلة أيضاً. ويضحك كما لو كانت هذه نكتة، وأسمع فى صوته رنة تدل على خوفه منى، فامرأة مثلى دائماً مصدر للغواية، إن كان ممكناً تدبير الأمر بعيداً عن الرقابة، ولن يصدقنا أحد مهما حاولنا أن نقول فيما بعد.

ثم أرى يده التى تشبه قفازاً، قفازاً محشواً بلحم نئى، تغوص داخل الفم المفتوح لحقييته الجلدية، وتخرج متلألئة، وأعرف أنى رأيت يداً كهذه قبلاً، وهنا، أرفع رأسى وأحلق مباشرة فى عينيه، وينقبض قلبى ويدق بشدة داخلى، ثم أبدأ فى الصراخ.

إنه هو نفس الطبيب، هو بعينه، ذلك الطبيب لابس المعطف الأسود بحقييته المليئة بالسكاكين اللامعة.

أفقت على كوب من الماء البارد يلقي في وجهي، لكنني واصلت الصراخ رغم أن الطبيب كان قد اختفى، ومن ثم قامت فتاتان من المطبخ بالسيطرة علىّ بمساعدة ابن البستاني الذي جلس على رجلي. وكانت زوجة المحافظ قد أرسلت للمشرفة الصحية بالإصلاحية التي جاءت مع اثنين من الحراس، ووجهت إلى وجهي لكمة سريعة، فتوقفت فوراً. لم يكن هو نفس الطبيب على الإطلاق، وإنما كان يشبهه فقط. نفس النظرة الباردة الجشعة، ونفس الكراهية.

قالت المشرفة الصحية أؤكد لك يا سيدتي أنها الطريقة الوحيدة مع حالات الهستيريا، فلنا خبرة كبيرة مع هذا النوع من النوبات، وهذه الفتاة كانت عادةً ما تتعرض لها، لكننا لم نهاودها أبداً بل عملنا على تقويم الحالة ووظننا أنها تخلت عنها. ربما تكون هذه علامة على عودة مرضها القديم، لأنه رغم ما قالوه عنها في تورنتو فقد كانت مصابة بجنون مطبق منذ سبع سنوات، ومن حسن حظك أنه لم يكن في تناولها مقص أو أية آلة حادة.

ثم جرّني الحراس إلى مبنى السجن الرئيسي، وحبسوني في هذه الغرفة، حتى أستعيد سيطرتي على نفسي مرة أخرى كما قالوا، رغم أنني

أخبرتهم أنني أفضل الآن، حيث أن الطبيب رحل بسكاكينه. قلت إننى أشعر بخوف من الأطباء، هذا كل ما فى الأمر، أخشى أن يفتحوا بطنى، مثلما يشعر البعض بالخوف من الثعابين؛ لكنهم قالوا كفاك الأعيب يا جريس، لم يكن بك إلا الرغبة فى لفت الانتباه، فلم يكن الطبيب سيفتح بطنك، ولم تكن معه سكاكين على الإطلاق، وما رأيته كان مجرد فرجار يستخدمه فى قياس حجم الرأس. لقد أصبت زوجة المحافظ برعب حقيقى، ولكنها تستحق ذلك، فقد كانت تدلك كثيراً ولم يكن ذلك لمصلحتك، لقد حولتك إلى "دلوعة"، أليس كذلك، ولم تعد صحبتنا تطيب لك. حسنا، ذنبك على جنبك، ستضطرين إلى احتمال هذه الصحبة لأنك منذ الآن ستلقين معاملة من نوع آخر لفترة من الوقت، حتى يقرروا ما الذى يجب فعله معك.

هذه الغرفة ليس بها إلا نافذة واحدة صغيرة مرتفعة ذات قضبان من الداخل، ومرتبّة محشوة بالقش. وتوجد كسرة من الخبز فى طبق معدنى، وإناء فخارى للماء، ودلو خشبى فارغ يستخدم للتبول. سبق أن وضعت فى غرفة كهذه قبل أن يرسلونى إلى المصحة. قلت لهم إننى لست مجنونة، لست أنا المجنونة، لكنهم لم يستمعوا لى.

وعلى أية حال، لم يكونوا يعرفون المجنون عندما يرونه، فجزء كبير من النساء فى المصحة لسن أكثر جنونا من ملكة بريطانيا. وكثيرات كن فى غاية العقل عندما يُفقن، إذ كان جنونهن بسبب الثمل، وهو نوع من الجنون أعرفه جيداً. أحدهن كانت تدخل المصحة هرباً من زوجها، الذى كان يضربها بقسوة، كان هو المجنون، ولكنهم ما كانوا ليحبسوه؛ وقالت أخرى إنها تدعى الجنون فى الخريف لأنها بلا منزل والمصحة دافئة، وإن لم تمثل دور المجنونة جيداً فسوف تتجمد حتى الموت، وعندما يأتى الربيع

تعود إلى عقلها، فالجو لطيف ويمكنها التجول والتسكع في الغابات وصيد السمك، وقد كانت خبيرة بهذه الأشياء لأنها نصف هندية. وأنا نفسى أتمنى أن أفعل نفس الشيء لولا أنني لا أعرف كيف، كما أنني أخشى الدببة فى الغابات.

لكن البعض كن مجنونات بالفعل. ومنهن امرأة أيرلندية توفى أفراد أسرتها جميعا، نصفهم ماتوا جوعاً فى المجاعة الكبرى، والنصف الآخر ماتوا بالكوليرا على المركب الذى جاءوا عليه من هناك؛ كانت تسير على غير هدى وتنادى بأسمائهم. وأنا سعيدة لأننى تركت أيرلندا قبل ذلك الوقت العصيب، فالمعاناة التى حكت عنها كانت قاسية، كانت الجثث تتكوم فى كل مكان ولا تجد من يدفنها. وامرأة أخرى قتلت طفلها، وكان يتبعها حيثما تذهب، يشد طرف تنورتها، وأحياناً كانت تحمله وتحتضنه وتقبله، وفى أحيان أخرى كانت ترعق فيه وتضربه بيديها لتبعده عنها. وكنت أخاف من هذه المرأة.

وكانت امرأة أخرى شديدة التدين، دائماً تصلى وتردد الترانيم. وعندما اكتشفت ما قالوا أننى فعلته، كانت "تكفر سيئاتى" كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً. وحينئذ كانت تقول اركعى على ركبتيك، يجب ألا تقتلى، لكن رحمة الله واسعة للخاطئين، توبى، توبى الآن وإلا فسوف يضيع أوان التوبة ولا تجدين إلا اللعنة الأبدية. كانت مثل واعظ الكنيسة تماماً، وذات مرة حاولت أن تعمدنى بالحساء، كان حساء خفيف القوام وبه كرنيب، وصبت ملء ملعقة منه فوق رأسى. وعندما شكوت ما حدث نظرت لى المشرفة نظرة قاسية وهى تزم شفتيها فبدا فمها مشدوداً فى خط مستقيم كغطاء صندوق، وقالت ربما يحسن أن تستمعى لها يا جريس، لم أسمع أبداً

أنك تقومين بما يدل على توبة حقيقية رغم أن قلبك القاسى فى أشد الحاجة لذلك؛ حينئذ شعرت فجأة بغضب شديد ورحت أصرخ، لم أفعل شيئاً، لم أفعل شيئاً! إنها هى، هى التى أخطأت!

قالت من تقصدين يا جريس، تمالكى نفسك وإلا فالدش البارد والقيد بالصديرى التقويمى، وألقت نظرة إلى المشرفة الأخرى: رأيت ماذا قلت لك؟ إنها مجنونة جنوناً مطبقاً.

كانت كل المشرفات فى المصحة العقلية بدينات وقويات، أذرعهن كبيرة وثقيلة، وذقونهن غارقة فى رقابهن الغليظة وياقات معاطفهن البيضاء المحتشمة، وقد رفعن شعورهن المبرومة كالحبال الداوية. لكى تكون مشرفة، يجب أن تكون قويّاً، فقد تقفز أى مجنونة على ظهرك وتأخذ فى شد شعرك وتقطيعه، ولكن لا شىء من ذلك يجعلهن أفضل خلقاً. كن يلجان إلى استفزازنا، خاصة قبيل قدوم الزائرين، بغرض إظهار مدى خطورتنا، ولكن فى نفس الوقت إظهار مقدرتهن على التحكم فىنا، فهكذا يعرف الزائر أنهن ذوات قيمة ومهارة.

لذلك، توقفت عن قول أى شىء لهن. وتوقفت عن قول أى شىء للدكتور بانرلينج، الذى يدخل إلى الغرفة المظلمة ويبدأ مقيدتان، لا تتحركى، أنا هنا لفحصك، ولا فائدة من الكذب. ولا للأطباء الآخرين الذين قد يأتون للزيارة ويرددون، يا للغرابة، يا لها من حالة عجيبة، كأننى عجل برأسين. وتوقفت فى النهاية عن الكلام كله، فيما عدا الرد المهذب جداً عندما يوجه إلى الكلام، نعم يا سيدتى، لا يا سيدتى، نعم ولا يا سيدتى. ثم أعادونى إلى الإصلاحية بعد أن جلسوا جميعاً فى معاطفهم السوداء، احم، آها، فى رأى، وزملائى الأجلء، واسمح لى يا سيدى أن أختلف

معك. وبالطبع، لا يمكن أن يسمحوا أبدًا بالاعتراف بأنهم كانوا مخطئين منذ البداية بإدخالِ المصحة العقلية.

الناس الذين يلبسون نوعًا معينًا من الثياب لا يخطئون أبدًا. وهم أيضًا لا يحدثون ربحًا أبدًا. اعتادت ماري هويتتي أن تقول، إذا حدثت ريح في غرفة وهم موجودون فتأكدى أنك أنت التي فعلتها. وحتى لو لم تفعلها أبدًا، فالأحسن لك ألا تقولى ذلك وإلا فاللعنة على وقاحتك، وركلة فى مؤخرتك، ويلقى بك إلى الشارع.

كانت عادة تتحدث بطريقة غير مهذبة، كانت تقول أنت فعلت هذا أو ذاك ولا تقول حضرتك، فلم يعلمها أحد آداب الحديث. وكنت أنا الأخرى أتحدث بهذه الطريقة، لكننى تعلمت آداب الحديث بشكل أفضل فى السجن.

أجلس على حشية القش، فتصدر خشخشة كصوت الماء على الشاطئ. أتقلب على جنبى من ناحية لأخرى لأتسمع لهذا الصوت. أستطيع أن أغمض عيني وأتخيل نفسى على شاطئ البحر، فى يوم هدأت فيه الرياح وكف المطر. وبعيدًا، خارج النافذة، هناك شخص يقطع الأخشاب، ينزل بالفأس .. ينبعث بريق لا يرى .. ثم ذلك الصوت الكئيب، لكن من أين لى أن أعلم أنه خشب؟

البرد شديد فى هذه الغرفة، وليس لى شال، ألف ذراعى حول جذعى محتضنة نفسى، فمن هناك ليحتضننى؟ عندما كنت أصغر سنًا، كنت أظن أننى إذا استطعت أن أحتضن نفسى بقوة يمكن أن أجعل نفسى أصغر حجمًا، فلم يكن هناك مكان يكفى لى أبدًا، لا فى البيت ولا فى أى مكان آخر، لكن إذا كنت أصغر حجمًا، لربما وجدت فسحة تناسبنى.

ينسدل شعري من تحت القلنسوة، شعر أحمر كشعر الغول،  
حيوان متوحش ... وحش بشري، كذا قالت الصحيفة. عندما يأتون لي  
بالغذاء سأضع الدلو الخشبي على رأسي وأختبئ خلف الباب، وسوف  
يخيفهم هذا. إذا كانوا يريدون وحشاً، يجب تقديمه لهم.

لكنني لا أفعل مثل هذه الأشياء أبداً، أفكر فيها فقط. إذا فعلت شيئاً  
كهذا سيتأكدون أن عقلي قد ذهب مرة أخرى. "ذهب عقلها"، هكذا يقولون،  
وأحياناً يقولون "طار عقلها"، وكأن الجنون مكان يذهب إليه العقل، كأن  
الجنون بيت آخر تخطو إليه عقولنا، أو بلد آخر تماماً نذهب إليه. لكنك  
عندما تجن لا يذهب عقلك إلى أي مكان، يظل حيث هو، بل يدخل إليه  
شخص آخر.

لا أحب أن أظل وحيدة بهذه الغرفة. الجدران خالية تماماً،  
لا صور عليها، ولا ستائر على النافذة الصغيرة المرتفعة، لا شيء يمكنك  
النظر إليه، ومن ثم تنظر إلى الجدران، وعندما تفعل ذلك لفترة من الوقت  
تبدأ صور في الظهور عليها، وتتمو زهور حمراء.

أظن أنني أنام.

إنه الصباح الآن، ولكن أي صباح؟ الثاني أم الثالث. هناك ضوء  
جديد خارج النافذة، وهذا ما أيقظني. أجاهد للقيام، أضغط بقبضتي على  
جسدي وأرمش بعيني، أقوم بأعضاء متييسة من أثر الحشية المخشخة.  
ثم أغني أغنية، لا شيء إلا لأسمع صوتاً وأسلي نفسي:

إلهي العظيم القدوس القدوس القدوس

فى البكور نرفع إليك ترنيمتنا

العظيم، الرحيم، القدوس، القدوس، القدوس

الله واحد ثلاثة، الثالوث المقدس

لا يعترضون أبداً إذا كانت ترنيمة، ترنيمة للصباح، وقد كنت دائماً مغرمة بشروق الشمس.

ثم أشرب آخر ما لدى من ماء، وأسير حول الغرفة، ثم أرفع ملابسى الداخلية وأبول فى الدلو. بعد بضع ساعات سوف تفوح هنا رائحة كريهة كرائحة المجارى.

النوم بنفس ثياب الصحو يشعر الإنسان بالتعب، فالثياب تتكرمش، وكذلك جسدك تحتها. أشعر وكأننى كنت ملفوفة فى ضمادة وأقيت أرضاً.

أتمنى لو كان عندى مريلة نظيفة.

لا أحد يأتى. يتركوننى لكى أعود إلى نفسى، أتأمل خطاياى وذنوبى، وأفضل ما يكون ذلك فى وحدة الإنسان مع نفسه، أو "هذا رأينا القائم على الخبرة والتفكير يا جريس، بعد طول التجربة فى هذه الأمور". فى الحبس الانفرادى، وأحياناً فى الظلام. توجد سجون يحبسونك فيها وحدك لسنوات، دون نظرة لشجرة أو حصان، أو وجه إنسان، ويقول البعض أن هذا مفيد لبشرة الوجه.

جربت الحبس الانفرادى قبلاً، قال د. بانرلينج: "غير قابلة للتقويم، مخادعة مراوغة. ابقى هادئة، أنا هنا لفحص شكل مخك، وسأبدأ



بقياس ضربات قلبك وتتنفسك"، لكننى عرفت ما يهدف إليه. لو كانت مارى هويتنى لقاتت أبعد يدك عن ثدىي أيها الوغد القذر، لكن كل ما استطعت أن أقوله هو أوه، لا، أوه... لا، ولا سبيل للاستدارة أو اللف فى القيد الذى قيدونى به، كتفونى على المقعد، أكمأى متقاطعة من الأمام ومقيدة إلى الخلف؛ فلا سبيل إلا أن أغرز أسنانى فى أصابعه، ثم تكرر الأمر، نتراجع على الأرض، نولول معا كقطين داخل زكية، كان له طعم سجع نئ وملابس داخلية صوفية رطبة. كان يمكن أن يكون جلده أفضل بالغلى، ثم بالنشر فى الشمس لتبييضه.

لم أتناول عشاء الليلة الماضية، ولا الليلة التى قبلها، لا شىء إلا الخبز، ولا حتى بعض الكرنب، حسناً، هذا هو المتوقع. الجوع يهدئ الأعصاب. اليوم أيضاً سيكون خبز وماء، فاللحم يثير المجرمين والمهوسين، إنهم يشعرون برائحته فى أنوفهم مثل الذئاب، ومن ثم فلا تلومن إلا نفسك. لكن ماء أمس انتهى كله وأشعر بعطش شديد، أكاد أموت من العطش، أشعر بمرارة فى فمى وبتورم فى لسانى. هذا ما يحدث للمنبوزين، وقد قرأت عنهم فى المحاكمات القانونية، يضعون فى البحر ويشربون دماء بعضهم. وقد رسموا مصاصات تستخدم فى ذلك. فظائع أكلى لحوم البشر ملصقة فى ألبوم القصاصات. إننى واثقة بأنى لن أفعل مثل ذلك أبداً مهما بلغ بى الجوع.

هل نسوا وجودى هنا؟ لابد أن يحضروا لى مزيداً من الطعام، أو على الأقل ماء، وإلا سأموت جوعاً، سوف أذبل، ستجف بشرتى، وتصبح صفراء اللون كالقماش القديم، سأتحول إلى هيكل عظمى، وسوف

يجدوننى بعد شهر، سنوات، قرون، وسيقولون من هذه، لابد أننا نسيناها!  
طيب، اكنسوا كل هذه العظام والبقايا إلى الركن، ولكن احتفظوا بالأزرار،  
لا معنى لتضييعها، فالأمر خرج من أيدينا.

ما أن تشعر بالرتاء لنفسك، يكونون قد نالوا منك ما يريدون، ثم  
يرسلون إلى قسيس الإصلاحية.

تعالى بين ذراعى أيتها الروح المسكينة الهائمة، فى السماء فرح  
أكثر للضائع المسكين. أريحى عقلك المتعب. اركعى تحت قدمى،  
واعترضى يديك فى لوعة، وصفى كيف يعذبك ضميرك ليلاً ونهاراً،  
وكيف تتبعك عيون ضحاياك فى أنحاء الغرفة وهى تتقد كفحم متوهج.  
اذرفى دموع الندم، اعترفى، اعترفى. دعينى أسامحك واشفق عليك.  
دعيني أحصل لك على عفو، أخبريني بكل شىء.

ثم ماذا فعل؟ يا لها من صدمة، ثم ماذا؟

اليد اليسرى أم اليمنى؟

رفعها إلى أى مدى بالضبط؟

أرينى أين!

أظن أننى أسمع همساً. والآن، هناك عين، تنظر لى من خلال  
الشق فى الباب. لا أستطيع رؤيتها لكنى أعرف أنها هناك. ثم نقر على  
الباب.

وأفكر، من يا ترى؟ المشرفة؟ المأمور، جاء ليعطيني "الطريحة"؟  
ولكن لا يمكن أن يكون أيًا منهما، فلا أحد هنا يتعامل معك بالرقعة التي  
تجعله يدق الباب، إنهم ينظرون إليك من خلال الشق الصغير، ثم يدخلون  
مباشرة. قالت لي ماري هويتتي: "دقي الباب أولاً، دائماً، ثم انتظري حتى  
يأذنوا لك. فلا يمكنك أن تعرفي على أية حال يكونون، وفي الأغلب هو  
أمر لا يريدونك أن تطلعي عليه. ربما يضعون أصابعهم في أنوفهم أو في  
مكان آخر، فحتى السادة يشعرون برغبة في الهرش في أي مكان، وإذا  
رأيت كعبين بارزين من تحت السرير فكأنك ما رأيت شيئاً. فربما يكونون  
في غاية اللطف نهاراً، لكنهم جميعاً أذان خنازير بالليل.

كانت ماري شخصية ذات آراء ديمقراطية.

الطرق على الباب ثانية، وكأنما يمكنني السماح أو عدم السماح  
بالدخول.

أدفع شعري إلى الخلف تحت قلنسوتي، وأقوم من فوق حشية  
القش، وأسوي ثوبي ومريلتى، ثم أتحرك إلى أبعاد أركان الغرفة، وأقول،  
بحزم بالغ، في محاولة للتمسك بكرامتي إذا كان ذلك ممكناً:

"ادخل من فضلك".

ينفتح الباب، ويدخل رجل. إنه شاب في مثل سنى أو ربما أكبر قليلاً، وهو سن يعتبر شاباً للرجال وليس للنساء، فمن تكون في مثل سنى من النساء هي عانس، لكن الرجل لا يعتبر كذلك حتى سن الخمسين، وحتى في هذه السن لا يزال ثمة أمل للسيدات، كما كانت تقول مارى هويتى. إنه طويل، يتسم بطول الذراعين والساقين، لكنه ليس بالوسامة التى تعجب ابنتى المأمور؛ فهما تميلان إلى الشباب المترخين المصورين فى المجلات، شديدى الأناقة والمتسمين بالبرود حتى أن الزبد قد لا يذوب فى أفواههم، لهم أقدام رفيعة ويرتدون أحذية مدببة. هذا الرجل فيه ما يوحى بالرشاقة وسرعة الحركة، وهو ما لا يتناسب مع الموضة، كما أن قدميه كبيرتان نوعاً، رغم أنه من علية القوم أو أقرب ما يكون إلى علية القوم. ولا أظن أنه إنجليزى، من الصعب أن أجزم بجنسيته.

شعره بنى ومتموج بطبيعته - يمكن أن نقول أنه شعر صعب المراس، بدا كما لو أنه لا يستقر بتمشيطة بالفرشاة. معطفه جيد، قصّة جيدة وإن لم تكن جديدة، فثمة رقع لامعة على الأكمام عند الكوع. وكان يرتدى "صديرى" من قماش التارتن الأسكتلندى، التارتن الذى انتشر

استخدامه منذ استأنفت الملكة اهتمامها بإسكتلندا وبنيت هناك قلعة مليئة برؤوس الغزلان، أو هكذا يقولون، ولكنى الآن أرى أن الصديري ليس من التارتن الأصلي، إنه فقط كاروهات أصفر فى بنى. ولديه ساعة بسلسلة ذهبية، وعلى ذلك فهو، رغم ثيابه غير المعتنى بها، ليس فقيراً.

وليست له سوائف كما هى الموضة فى أيامنا هذه، أنا عن نفسى لا تعجبنى السوائف، فلتكن لحية أو شارباً، وإلا فلا. كان چيمس مكدرموت ومستر كينير كلاهما حليق الذقن، وكذلك كان چيمى وولش، إلا أنه لم يكن لديه الكثير ليحلقه، ولكن مستر كينير كان له شارب. وعندما كنت أفرغ حوض حلاقته فى الصباح، كنت أحياناً آخذ بعض رغاوى الصابون – كان يستخدم نوعاً جيداً يأتى به من لندن – وكنت أضع الرغوة على بشرة يدي، فتظل رائحتها معى طوال اليوم، على الأقل حتى موعد تنظيف الأرضيات.

يغلق الشاب الباب خلفه، لا يغلقه بالترباس، لكن شخصاً آخر يحكم غلقه من الخارج، فنصبح محبوسين فى الغرفة معاً.

يقول لى: صباح الخير يا جريس، أعرف أنك تخشين الأطباء. ولا بد أن أخبرك منذ البداية أننى طبيب. اسمى د. چوردان، د. سايمون چوردان.

أنظر إليه بسرعة، ثم أنظر لأسفل. أقول: هل سيعود الطبيب الآخر؟

يقول .. الطبيب الذى أخافك؟ لا، لن يعود.

أقول: إذن أظن أنك أتيت لقياس رأسي.

يقول باسمًا: هذا شيء لا أحلم به.

لكنه، رغم ذلك، ينظر إلى رأسي بنظرة تقيسها، ولكنى أضع قلنسوتي، فليس هناك ما يمكن أن يراه. وأظن الآن، بعد أن تكلم، أنه أمريكي. له أسنان بيضاء ولا ينقص شيء منها، على الأقل في مقدمة الفم، ووجهه طويل ونحيف تمامًا. تعجبنى ابتسامته، رغم أن شفثيه ترتفعان من أحد جانبي فمه أكثر من الآخر، مما يوحي بأنه يمزح.

أنظر إلى يديه، إنهما فارغتان. لا شيء فيهما على الإطلاق.

لا خواتم في أصابعه. أقول: هل عندك حقيبة بها سكاكين؟ حقيبة جلدية؟

يقول: لا، فأنا لست طبيبًا عاديًا. أنا لا أجرى جراحات. هل أنت

خائفة مني يا جريس؟

لا أستطيع أن أعرف حتى الآن إن كنت أخاف منه. هذا لم يحن

أوانه بعد، لم يحن الأوان لمعرفة ما يريد. فلا أحد يأتي ليراني هنا إلا إن كان يريد شيئًا.

أرجو أن يقول أي نوع من الأطباء هو إذا لم يكن طبيبًا عاديًا،

ولكنه بدلاً من ذلك يقول "أنا من مساتشوستس. أو هذا هو المكان الذي ولدت فيه. وسافرت كثيرًا منذئذ، تجولت في أنحاء الأرض، أسير فيها ذهابًا وإيابًا"، وينظر لي ليري إن كنت أفهم.

أعرف أن هذا أشبه بـ قصة أيوب، قبل أن يلقي الأمرين وتدور عليه الدوائر، قبل أن يبسط الرب يده ويمس كل ما له ليمتحنه. هذا ما يقوله الشيطان للرب. لا بد أنه يقصد أنه جاء ليختبرني، رغم أن أوان ذلك قد فات، كما أن الرب امتحنني كثيرًا فعلاً، ولا بد أنه تعب من ذلك الآن.

لكنني لا أقول هذا، وإنما أنظر إليه بغباء، فقد تمرنت جيداً لأبدو بهذه النظرة الغبية.

أقول: هل ذهبت إلى فرنسا؟ إن كل الموضوعات تأتي من هناك.

وأرى أنه يشعر بالإحباط. يقول: نعم، وذهبت إلى إنجلترا وأيضاً إلى إيطاليا، وكذلك إلى ألمانيا وسويسرا.

إنه لأمر غريب أن أكون واقفة في غرفة مغلقة، في إصلاحية، مع رجل غريب يحادثني عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا. رحالة. لا بد أنه جوّاب، مثل جيرميا البائع المتجول. لكن جيرميا كان يرتحل ليكسب عيشه، وهذه الأصناف من الرجال الآخرين أثرياء بالفعل ولا يحتاجون لذلك. إنهم يرحلون لأنهم فضوليون. فهم يتبخترون حول العالم ويحلقون في الأشياء، يبحرون في المحيط وكان ذلك شيء عادي، وإذا ساءت الأمور معهم في مكان لا يتجشمون سوى حمل متاعهم والرحيل إلى مكان آخر.

جاء الآن دوري لأقول شيئاً. أقول: لا أعرف كيف تدبر أمورك يا سيدي بين كل هؤلاء الأجانب، فلا تعرف ما يقولون أبداً. عندما يأتي هؤلاء المساكين هنا فإنهم يرطنون في البداية كالإوز، هذا رغم أن الأطفال سرعان ما يتمكنون من الكلام بشكل معقول.

هذا صحيح، فالأطفال من أي جنس يتعلمون بسرعة.

بيتسم، ثم يفعل شيئاً غريباً، يضع يده اليسرى في جيبه، ويخرج  
تفاحة. يسير ناحيتي ببطء، حاملاً التفاحة أمامه كما لو كان يحمل عظمة  
لكلب شرس ليكسب وده.

يقول: هذه لك.

وأنا أشعر بعطش شديد، وتبدو التفاحة لي قطرة ماء كبيرة، باردة  
وحمراء، يمكنني شربها في "شفطة" واحدة. أتردد، لكنني أفكر، لا ضرر  
في تفاحة، فأخذها. لم أحصل على تفاحة لنفسي منذ وقت طويل. ولا بد أن  
هذه التفاحة، منذ الخريف الماضي، حُفظت في برميل في القبو، ولكنها  
تبدو طازجة تماماً.

أقول له: أنا لست كلباً.

أغلب الناس سوف يسألونني ماذا أقصد بذلك، لكنه يضحك.  
تخرج ضحكته في نفس واحد، هاه، كأنه وجد شيئاً فقد منه، ويقول:  
لا يا جريس، أعرف أنك لست كلباً.

ماذا يظن؟ أقف أمسك التفاحة بكلتا يديّ. أشعر بها غالية، مثل  
كنز ثقيل. أرفعها وأشمها. إن لها أريج الحياة في الخارج، وأشعر برغبة  
في البكاء.

يقول: ألن تأكليها؟

أقول: لا، ليس الآن.

يسألني: ولم لا؟



أقول: لأنها ستختفى بعد أن أكلها.

الحقيقة أنني لا أريده أن يرقبني وأنا أكلها. لا أريده أن يرى جوعى. فإن كنت بحاجة لشيء واكتشفوا ذلك فسوف يستخدمونه ضدك. وأفضل طريقة هي أن تتوقف عن احتياج أى شيء.

يخرج ضحكته الواحدة. يقول: هل يمكنك أن تخبريني ما هي؟

أنظر إليه، ثم أنظر بعيدًا. أقول: تفاحة. لا بد أنه يظننى بلهاء؛ أو أنها خدعة من نوع ما، أو هو مجنون ولهذا أحكموا غلق الباب — لقد حبسونى هنا مع رجل مجنون. لكن الرجال الذين يرتدون ثيابًا كهذه لا يمكن أن يكونوا مجانين، خاصة مع الساعة ذات السلسلة الذهبية. فلو كان الأمر كذلك لأخذها منه أقرباؤه فورًا، أو الحراس على الأقل.

يبتسم ابتسامته المائلة، يقول: بأى شيء تذكرك التفاحة؟

أقول: عفواً يا سيدى، لا أفهم ماذا تعنى؟

لا بد أنه لغز. أفكر فى مارى هويتتى، وقشور التفاح التى رميناها خلفنا فى تلك الليلة، انرى من سنتزوج. لكنى لن أخبره بذلك.

يقول: أظن أنك تفهمين جيدًا.

أقول: نموذج التطريز الخاص بى.

والآن جاء دوره فى عدم الفهم. يقول: ماذا؟

أقول: النموذج الذى قمت بتطريزه لأول مرة فى طفولتى.

أ: أرنب، ب: بقرة، ت: تفاحة.

يقول: آه، ولكن ماذا أيضًا؟

أستعير نظرتى الغبية قائلة: فطيرة التفاح.

يقول: آه، شىء تأكلينه.

أقول: طيب، أتمنى لك أن تأكلها يا سيدى، فنحن نصنع فطيرة التفاح من أجل أن تؤكل.

يقول: وهل هناك أى نوع من التفاح لا يجب أكله؟

أقول: أظن التفاح المعطوب.

إنه يلاعبنى لعبة التخمين، مثل د. بانرلينج فى المصحة. هناك دائماً إجابة صحيحة، وهى صحيحة لأنها الإجابة التى يريدونها، وستعرف من وجوههم هل استطعت أن تخمن ما يريدون، مع د. بانرلينج كل الإجابات كانت خطأ. أو ربما هو دكتور فى علم اللاهوت، إنهم هؤلاء الآخرون الذين يميلون إلى هذا النوع من الاستجواب. وقد نلت منهم ما يكفينى لزمى طويل.

تفاحة شجرة المعرفة، هذا هو ما يقصده. الخير والشر، أى طفل يمكنه الإجابة، لكننى لن أرغم على قولها.

أعود إلى نظرتى الغبية، وأقول: هل أنت واعظ؟

يقول: لا، لست واعظاً. أنا طبيب، لكننى لا أعمل مع الأجساد وإنما مع العقول. الأمراض العقلية والنفسية والعصبية.

أضع يدي والتفاحة خلف ظهري. إننى لا أثق به إطلاقاً. أقول: لا، لن أعود هناك، لن أعود إلى المصحة. لن أحتمل ذلك أبداً.

يقول: لا تخشى. أنت لست مجنونة، صحيح، هل أنت مجنونة  
يا جريس؟

أقول: لا يا سيدى، لست مجنونة.

إذن ، فلا سبب لعودتك إلى المصحة، أليس كذلك؟

أقول: إنهم لا يستمعون لصوت الحق يا سيدى.

يقول: طيب، هذا ما جئت من أجله. أنا هنا لأستمع لصوت الحق،  
ولكن إذا كنت سأستمع إليك فعليك أن تتكلمى معى.

أفهم ما يسعى إليه. إنه "لاقط"، يظن أن كل ما عليه أن يفعل هو  
أن يعطينى تفاحة، وبهذا يستطيع أن "يلتقطنى". ربما يكون من إحدى  
الصحف، أو هو رحالة، يقوم بجولة. إنهم يأتون هنا ويحلقون، وعندما  
ينظرون إليك تشعر بأنك صغير فى حجم النملة، ثم يلتقطونك بين الأبهام  
والسبابة، ويديرونك ليتأملوك من كل ناحية. ثم يضعونك أرضاً ويذهبون.

أقول: أنت لا تصدقنى يا سيدى، وعلى أى حال فكل شىء قد  
تقرر، المحاكمة انتهت منذ زمن طويل وتم الحكم فى القضية، ولن يغير  
ما أقوله شيئاً. الأفضل أن تسأل المحامين والقضاة ورجال الصحافة، فيبدو  
أنهم يعرفون قصتى أفضل منى أنا شخصياً. وعلى أى حال، فأنا لا أتذكر،  
أستطيع أن أتذكر أشياء أخرى ولكن ذلك الجزء فقد من ذاكرتى تماماً،  
لابد أنهم أخبروك بذلك.

يقول: إننى أحب أن أساعدك يا جريس.

هذه هي الطريقة التي ينفذون بها من الباب. يعرضون المساعدة، ولكنهم يريدون العرفان بالجميل، يتدحرجون إلى هدفهم كما تتقلب القطعة في السلة التي تنام فيها. إنه يتمنى أن يعود إلى البيت ويقول لنفسه لقد قمت بالأمر بكل جدية، وقطفت الثمرة، يا لى من فتى طيب. لكننى لن أكون ثمرة أى أحد. ولن أقول شيئاً.

يكمل قائلاً: إذا حاولت أن تتكلمى فعلاً، فسوف أحاول أن أسمع. إن اهتمامى ينصب على الناحية العلمية. فلا يجب أن نهتم بالقتلة وحدهم. إنه يستخدم صوتاً رقيقاً، رقيقاً على السطح، ولكن ثمرة رغبات أخرى تختفى تحته.

أقول: ربما أخبرك بأكاذيب.

إنه لا يقول: جريس، أى فكرة شريرة هذه، إن لك خيالاً مفعماً بالخطيئة. بل يقول: نعم، ربما. ربما تقولين أكاذيب دون أن تقصدى. وربما تكذبين عامدة، ربما أنت كذابة.

أنظر إليه قائلة: بعضهم قال عنى ذلك.

يقول: حسناً، ليس علينا سوى أن نجرب.

أنظر إلى الأرض، وأقول: هل سيعيدوننى إلى المصححة؟ أو يضعوننى فى الحبس الانفرادى دون طعام إلا الخبز؟

يقول: أعدك بأنك طالما تستمرين في الكلام معي، ولا تفقدين التحكم في نفسك أو تلجئين إلى العنف، فسوف تظلين كما كنت. لقد وعدني المحافظ بهذا.

أنظر إليه، ثم أنظر بعيداً. أنظر إليه مرة أخرى. وأنا أمسك التفاحة بيدي الاثنتين. ينتظر.

وفي النهاية، أرفع التفاحة وأضغط بها على جبهتي.

## الفصل الرابع

### أحلام طيب شاب



بين هؤلاء المجانين المهوسين، تعرفت على الوجه  
الغريب لجريس ماركس - ذلك الوجه الذي لم يعد يحمل  
تعبيرات الحزن واليأس وإنما يشتعل فيه الجنون ويتوهج  
بمرح شيطاني عنيد. وعندما أدركت أن ثمة غرباء  
يراقبونها، هربت وهي تصرخ كشبح إلى إحدى الغرف  
الجانبية. ويبدو أنها، حتى في أسوأ حالات مرضها  
المرعب، تظل تكرر الماضي تلاحقها. الفتاة العصاة!! متى  
ينتهي عقابها وطول ندمها؟ متى ستجلس عند قدمي يسوع،  
وقد اكتست بكسوة مطهرة من الصفح، وغسلت يداها من  
آثار الدماء، وتحررت روحها، وغُفر لها، وعادت إلى  
صوابها؟ ...

فلنأمل أن تكون أسباب كل ذنوبها السابقة راجعة إلى  
بدايات ما فعله بها هذا المرض الكريه.

سوزانا مودي

*Life in the Clearings, 1853*



مما يدعو للأسف الشديد أننا لا نملك المعرفة التي ترشدنا لكيفية علاج هؤلاء المرضى التعساء. فالجراح يمكنه فتح البطن وتأمل الطحال، والعضلات يمكن فصلها وعرضها على الطلبة الصغار. لكن النفس البشرية لا يمكن تشريحها، ولا يمكن وضع أفعال العقل على المنضدة لاستعراضها.

عندما كنت طفلاً، كنت أعب لعبة أضع فيها غمامة تحجب الرؤية. وأنا الآن مثل ذلك الطفل، فثمة غمامة تحجب عنى الرؤية، أتحسس طريقى، لا أعرف إلى أين أذهب، ولا إذا ما كنت فى الاتجاه الصحيح. ويوماً ما، سيرفع عنى شخص ما هذه الغمامة.

د. جوزيف ووركمان

المدير الطبى

المصحة العقلية المحلية، تورنتو،

رسالة إلى "هنرى"، باحث شاب لوح فى أسئلته ، ١٨٦٦

لا ضرورة لأن يكون المرء غرفة ... لتسكنه الأشباح  
لا ضرورة لأن يكون بيتا ...

فالعقل له ممرات ..

تتجاوز الأماكن المادية.

نفوسنا، خلف نفوسنا، محجوبة

والمفروض أن تبأغت بشدة

القاتل المختبئ في شقتنا

فلتكن، على الأقل... بيتاً للفرع.

إميلى ديكنسون، حوالى ١٨٦٣

- ٦ -

إلى دكتور طبيب سايمون چوردان، بيت لابورنام، لومسفيل،  
ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية؛ من د. جوزف ووركمان،  
المدير الطبى للمصحة النفسية الإقليمية (المحلية)، تورنتو، غرب كندا.

١٥ أبريل ١٨٥٩

عزيزى د. چوردان

أبلغكم بأننى تسلمت رسالتكم المؤرخة فى ٢ الجارى، وأشكركم  
على رسالة التقديم التى وصلتتى من زميلى الذى أكن له بالغ الاحترام  
والتقدير، د. بينسوانجر من سويسرا، الذى تابعت باهتمام بالغ إنشاء عيادته  
الجديدة. واسمح لى أن أقول أنك، نظرًا لكونك من معارف د. بينسوانجر،  
سوف تلقى غاية الترحيب فى أى وقت إذا حضرت لتفقد المعهد الذى أقوم  
بإدارته. ولسوف أكون فى غاية السعادة أن أصحبك بنفسى لأريك الدار،  
وأشرح لك طرقنا العلاجية.

وبما أنك تتوى بناء مؤسسة خاصة بك، فإنه يجب أن تؤكد أن المرافق الصحية والصرف الجيد لهما أهمية قصوى، فمن العبث محاولة رعاية عقل مريض بينما الجسد مصاب بصنوف العدوى. وهذا الجانب غالبًا ما يهمل. وفي وقت قدومي لهذا المكان، عانينا من تفشى الكوليرا، والدوسنتاريا، والإسهال الشديد، وكل عائلة التيفوئيد المميتة، وكلها كانت أوبئة تهاجم المصحة. وأثناء بحثي عن مصدر كل ذلك اكتشفت شبكة كاملة للمجارى تمر تحت جميع المخازن والسراديب، وفي بعض الأماكن كان ينز سائل قوى فى كثافة الشاي الأسود، وفى أماكن أخرى كان ينز سائل مثل حساء لزج ناعم لم يتم تصريفه بسبب فشل البنائين فى وصل مواسير الصرف بالشبكة؛ وبالإضافة لذلك كان مصدر الماء المستخدم فى الشرب أو الغسيل يأتى من خلال ماسورة تستمد مياهها من خليج راكد فى البحيرة، ومن مكان قريب من مكان الصرف الرئيسى العفن لمياه المجارى. وليس غريبًا أن النزلاء كانوا دائمى الشكوى من أن مياه الشرب بها طعم منفر حتى أن معظمهم لم يكن يشعر بأى رغبة فى شربها.

ويقسّم النزلاء هنا حسب النوع، وحسب الأعراض المرضية على السواء. وثمة تنوع كبير، فالهوس الدينى يمكن أن يكون سببًا مثيرًا للجنون مثله مثل الإدمان، لكننى أميل إلى الاعتقاد بأنه لا الدين ولا الإدمان يمكن أن يحمل عقلاً سليمًا على الجنون – وأعتقد أن هناك دائمًا سببًا مهينًا يجعل الفرد قابلاً للمرض عندما يتعرض لأى عامل مشوش عقليًا أو عضويًا.

أما بالنسبة للمعلومات التي طلبتها بخصوص الموضوع الرئيسي لتساؤلاتك، فمع الأسف يجب أن تبحث عنها لدى مصدر آخر. فالسجينة جريس ماركس، والتي كانت مدانة بالقتل، قد أعيدت إلى الإصلاحية في كينجستون في أغسطس ١٨٥٣، بعد قضاء خمسة عشر شهرا هنا. وحيث أنني عيّنت هنا قبل رحيلها بثلاثة أسابيع فقط، لم تكن لدى فرصة لعمل دراسة متفحصة لحالتها. ومن ثم، فقد وجهت رسالتك إلى د. صمويل بانرلينج الذي كان يعتنى بها تحت إدارة من سبقني. وليس بمقدوري أن أتحدث عن درجة الانحراف العقلي التي كانت مصابة بها في الأساس. وكان انطباعي أنها، ولوقت كافٍ قبل ذلك، كانت على درجة من التعقل تكفل لها الخروج من المصحة. وأنا أؤكد على التوصية بوجوب المعاملة الرفيعة معها أثناء فترة عقابها؛ وأعتقد أنها الآن تقضى بعض اليوم كخادمة في بيت محافظ السجن. وفي أواخر مدة إقامتها بالمصحة كانت تلتزم السلوك اللائق؛ وفي نفس الوقت كانت، في مثابرتها وعطفها على المرضى، تعتبر نزيلة مفيدة ونافعة. وهي تعاني أحيانا من نوبات عصبية ونشاط زائد مؤلم في القلب.

إن إحدى المشكلات الرئيسية، التي تواجه مدير مؤسسة تمويلها الدولة مثل هذه، هي ميل سلطات السجون إلى توجيه الكثير من المجرمين المثيرين للمشاكل إلينا، ومن بينهم قتل بشعون ولصوص ونصابون، حالات ليس مكانها بين المجانين الأبرياء غير الفاسدين، وذلك لمجرد أن تخرجهم من السجن. ومن المستحيل أن يكون مبنى أنشئ بهدف راحة وعلاج المجانين مكانا لائقا لسجن مجرمين معتوهين؛ ومن المؤكد أنه أقل

لياقة لاستقبال المحتالين الذين يدعون الجنون؛ وأنا أميل بشدة للاشتباه في أن هذه الفئة الأخيرة أكثر عددًا مما يُفترض بشكل عام. وبالإضافة إلى العواقب الوخيمة التي لا مفر من حدوثها للمريض بسبب الخلط بين الأبرياء ومجانين المجرمين، ثمة سبب للخشية من وقوع تأثير يتسبب في إفساد طباع وعادات حراس المصحة وموظفيها، مما يجعلهم غير مناسبين لمعاملة الفئة الأولى معاملة إنسانية ولائقة.

ولكن حيث أنك تعرض إقامة منشأة خاصة، فإنني أثق بأنك لن تكابد الكثير من هذا النوع من المتاعب، ولن تعاني الكثير من التدخل السياسي المقلق الذي كثيرًا ما يمنع تقويم المرضى . وفي هذا الشأن، وبشكل عام، أتمنى كل النجاح لجهودك. ومن سوء الحظ أن الحاجة لمثل هذه المؤسسات في الحاضر أصبحت ملحة، في بلدي وبلادك على السواء، وذلك نتيجة لزيادة القلق في حياتنا المعاصرة، وما يتبعه من ضغوط على الأعصاب، فإن معدلات إنشاء مثل هذه المؤسسة لا تتماشى مع الأعداد التي تتقدم إليها؛ وأتمنى أن أقدم لك أية مساندة ولو صغيرة يكون بمقدوري أن أمنحها.

المخلص

چوزيف وركمان، دكتور طبيب

من حرم ويليام ب. چوردان، لابورنام هاوس، لومسڤيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية؛ إلى د. سايمون چوردان، طرف الميچور س. د. همفري، شارع لوآر يونيون. كينجستون، غرب كندا

## ابنى العزيز

وصلتني اليوم رسالتك القصيرة التي انتظرتها طويلاً، وبها عنوانك الحالي وإرشاداتك باستخدام مرهم الروماتيزم. وقد أسعدني أن أرى خط يدك الحبيب مرة أخرى، حتى ولو القليل منه، وكان لطيفاً منك أن تهتم بأمك المسكينة، وبحالتها الصحية الضعيفة.

إنني أنتهز هذه الفرصة لأكتب لك بضعة أسطر، وأرفق الرسالة التي وصلت إليك هنا بعد رحيلك بيوم واحد. كانت زيارتك الأخيرة لنا قصيرة للغاية، فمتى نتوقع أن نراك بين أسرتك وأصدقائك مرة أخرى؟ لا يمكن لهذا السفر الكثير أن يكون مفيداً، لا لسلامك النفسي، ولا لصحتك. إنني أتشوق لليوم الذي تختار فيه الاستقرار بيننا، وتبنى فيه نفسك جيداً بطريقة لائقة.

لم أستطع أن أتمالك نفسي من ملاحظة أن الرسالة المرفقة من المصحة العقلية في تورنتو، وأظن أنك تتوى زيارتها، رغم أنك من المؤكد قد رأيت كل منشأة مماثلة في العالم ولا يمكن أن تفيدك رؤية واحدة أخرى. لقد امتلأت رعباً من وصفك لمثل هذه المنشآت في فرنسا وإنجلترا، وحتى في سويسرا التي هي أكثر نظافة بكثير. ويجب علينا جميعاً أن ندعو الله أن يحفظ عقولنا؛ لكنني أشعر بقلق عظيم فيما يخص

احتمالات مستقبلك، إذا واصلت السعى فى هذا المضمار. ولا بد أن تسامحنى يا بنى العزيز إذ أننى لم أستطع أبداً أن أفهم اهتمامك بمثل هذه الأشياء. لم يحدث من قبل أن وجه أحد أفراد العائلة اهتمامه للمجانين، رغم أن جدك كان قسيساً شديداً التدين بل وممن يحضرون جلسات التأمل. إن الرغبة فى محو المعاناة عن البشرية جديرة بالثناء، لكن من المؤكد أن السبب فى حالة فاقدى العقل والبلهاء والمعوقين يرجع إلى إرادة الله، ولا يجب أن يحاول الإنسان تغيير أمر الله لأنه هو العدل ذاته، حتى لو كان غامضاً على أفهامنا.

وبالإضافة إلى ذلك، لا يمكن أن أصدق إمكان إقامة مصحة عقلية خاصة يدفع الناس لها، فمن المعروف أن أقارب المجانين يتهاونون ما أن يبتعد المريض عنهم، ولا يريدون رؤيته أو سماع أى شىء عنه، ويمتد التهاون إلى تسوية فواتيره. ثم لديك تكاليف الطعام والوقود وأجور الموظفين الذين سوف يعتنون بهم. وثمة اعتبارات كثيرة يجب مراعاتها، ومن المؤكد أن العشرة اليومية للمجانين لا يمكن أن توصل إلى حياة هادئة. كما أنك يجب أن تفكر فى زوجتك المستقبلية، وأطفالك الذين يجب ألا تضعهم على مقربة من زمرة من المجانين الخطرين.

أعلم أنه ليس لى أن أقرر طريقك فى الحياة، لكننى أله بشدة على أن مصنعاً سيكون أفضل كثيراً، ورغم أن مصانع النسيج لم تعد كما كانت بسبب سوء إدارة السياسيين للأمر، هؤلاء السياسيون الذين يسيئون استعمال ثقة عامة الناس بلا رحمة، ويزدادون سوءاً كل عام، إلا أن هناك فرصاً كثيرة أخرى فى الوقت الحالى، وبعضهم أمكنه الاستفادة منها جيداً، فأنت تسمع عن رجال يصنعون ثروات جديدة كل يوم، وأنا واثقة أنك



لا نقل عنهم حيوية وذكاء. ويتحدثون عن ماكينة جديدة للخياطة تستخدم في المنزل، وسوف تكون رائعة لو أمكن إنتاجها بتكلفة أرخص، فكل امرأة تتمنى أن تمتلك مثل هذه الآلة، التي ستوفر ساعات كثيرة من العمل الشاق الرتيب والكدح الذي لا يتوقف، وسوف تكون ذات فائدة عظيمة لمساعدة الخياطات المسكينات. ألا يمكنك استثمار ما بقى لك من ميراث صغير بعد بيع أعمال أبيك رحمه الله في مثل هذه المغامرة المأمونة والمثيرة للإعجاب؟ إننى متأكدة أن ماكينة الخياطة سوف تخفف من معاناة البشر بما يوازي مائة مصحة نفسية، وربما أكثر كثيرًا.

لقد كنت بالطبع مثاليًا دائمًا، وتملؤك الأحلام المتفائلة، لكن الواقع أحيانًا لا يد له أن يبرز للعيان، وقد بلغت الآن الثلاثين من عمرك.

ولا أقول ذلك بدافع من التطفل أو التدخل، وإنما بلهفة الأم على مستقبل أفضل لابنها الوحيد الحبيب. فإننى أتمنى أن أراك وقد أسست نفسك جيدًا قبل أن أموت – ولقد كانت هذه رغبة والدك العزيز أيضًا – وأنت تعرف أن حياتي كلها مكرسة لسعادتك ورفاهيتك.

لقد ساءت صحتي بعد رحيلك – فوجودك دائمًا له تأثير يرفع من معنوياتي. وقد أخذت أسعل بشدة بالأمس، حتى أن مورين المخلصة لم تستطع إلا بالكاد مساعدتي على صعود السلم – فهى تقريبًا مثلي، عجوز واهنة، ولا بد أننا بدوننا كساحرتين عجوزين تعرجان أثناء صعودهما التل. ورغم ما تعدّه لى فى المطبخ يوميًا سامانتا، طبختي الطيبة، من تركيبات ذات طعم كريه ككل الأدوية، وتقسم أن أمها شفيت بها – فإن حالتي لا تتحسن، ولكننى كنت اليوم فى حال أحسن حتى استطعت أن

أستقبل الزائرين في قاعة الاستقبال. وقد جاءني عدد من الزائرين ممن سمعوا عن توقعك صحتي، وبينهم مسز هنري كارتر ايت، والتي تتميز بطيبة القلب، رغم أن سلوكياتها ليست دائماً باللياقة المناسبة، وهذا هو في العادة حال أولئك الذين اكتسبوا ثروات حديثة، لكن سلوكياتهم ستتحسن بمرور الوقت. وكان بصحبتها ابنتها فيث التي قد تذكرها عندما كانت فتاة خرقاء في الثالثة عشرة من عمرها، لكنها الآن كبرت وعادت حديثاً من بوسطن، حيث كانت تقيم مع خالتها لإكمال تعليمها. وقد أصبحت شابة ساحرة يتمناها أي إنسان، وأصبحت تبدو كياسة وعطفاً رقيقاً يعجب بهما الكثيرون، وهي أخلاق تساوي أكثر كثيراً من المظاهر المبالغ فيها. وقد أحضرتا معهما سلة من الطعام الشهي – فقد بالغت مسز كارتر ايت العزيزة في تدليلي – وقد عبرت عن امتناني العميق بهذه الهدية رغم أنني قد لا أتمكن من تذوق أي شيء حيث لا شهية لي في الوقت الحالي.

من المحزن أن يكون المرء مريضاً، وأدعو الله كل ليلة أن يعفبك من ذلك، وأن تأخذ حذرِك بألا تتعب نفسك بشدة بالكثير من الدراسة والضغط العصبي، وبالسهر طوال الليل إلى جانب المصباح، فتؤذي عينيك وتشوش عقلك، وأرجو أن ترتدي ملابس داخلية من الصوف حتى يدفأ الجو تماماً. لقد ظهرت أولى بشائر الخس عندنا، وظهرت البراعم على شجرة التفاح؛ وأظن أن المكان عندك لا يزال مغطى بالثلوج. لا أظن أن كينجستون التي تقع في هذا الشمال القصي وعلى شاطئ البحيرة يمكن أن تكون جيدة للرئتين، فلا بد أنها شديدة البرد والرطوبة. هل غرف منزلك بها تدفئة جيدة؟ أرجو أن تأكل طعاماً جيداً يقويك، وأن يكون عندهم تاجر لحوم جيد.

بنى العزيز، أرسل إليك كل حبي، وترجو مورين وسامانثا أن  
أذكرهما لديك، وكلنا بانتظار الأخبار — التي نتمنى أن تصلنا سريعاً —  
بموعد زيارتك القادمة، وإلى ذلك الحين سأظل دائماً ...

والدتك المحبة جداً

من د. سايمون چوردان، طرف الميجور س. د.  
همفري، شارع لواريون، كينجستون، غرب  
كندا، إلى د. إدوارد مورشي، دورشستر،  
ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية

عزيزي إدوارد

يوسفني أنني لم أقدر على زيارة دورشستر لأرى كيف تمضي  
بك الأحوال، الآن وقد وضعت الأساس لمكانة جيدة في عملك، وأصبحت  
مشغولاً بحماية المعوقين والعميان المحليين، في حين كنت أنا أتسكع في  
أوروبا، أبحث عن طريقة لطرد الشياطين. وأنا، بيني وبينك، لم أتعلم هذا  
السر بعد، ولكن كما ترى، كان الوقت منذ وصولي إلى لوميسفيل حتى  
رحيلتي منها مشغولاً للغاية بالإعدادات، وكنت مضطراً لتكريس الأمسيات  
لوالدتي. لكن، بمجرد عودتي، لا بد أن نرتب لقاء، نشرب فيه نخباً أو اثنين  
معاً في صحة أيام الصبا القديمة، ونتحدث عن مغامراتنا الماضية،  
وأحوالنا الجارية.

بعد رحلة مريحة إلى حد ما عبر البحيرة، وصلت سالمًا إلى  
مقصدي، لم ألتق بعد بالشخص الذي ترأسل معي، والذي يعتبر "صاحب

العمل"، إذا جازَ هذا التعبير، المبجل ثرينجر، فهو في زيارة لتورنتو، ومن ثم لا أزال أتمتع بفضيلة التوقع؛ رغم أنه كما يبدو من رسائله — وككل القساوسة الإنجليكانيين — يفتقر إلى الكياسة بدرجة تدعو للأسى، ويشعر برغبة في معاملتنا جميعا كالشياه السائمة، على أن يكون هو الراعى. ورغم ذلك، فالفضل يرجع إليه، وإلى د. بينسوانجر الطيب، الذى قدمنى له كأفضل رجل للقيام بهذه المهمة فى كل الجانب الغربى من المحيط الأطلنطى — فى منحى هذا الأجر، رغم أنه ليس مرتفعاً — إذ أن أتباع الإنجليكانيين معروفون بالافتصاد الشديد. لكننى أدين لهذا الرجل بهذه الفرصة الرائعة، والتي آمل أن أتمكن من استغلالها لصالح تقدم المعرفة، فالعقل وأفعاله لا يزالان من فروع المعرفة التى لم تستكشف بعد رغم التقدم المعتبر فى هذا المجال.

وأما بالنسبة لوضعى، فإن كينجستون ليست مدينة تستهوى الألباب، فقد أصيبت بحريق هائل أتى عليها منذ عشرين عاماً، وأعيد بناؤها بسرعة لا اهتمام فيها بالجمال. والأبنية الجديدة من الحجر أو الطوب، وهو ما آمل أن يجعلها أقل عرضة للحرائق. أما الإصلاحية نفسها فهى مبنية على طراز "معبد إغريقى"، وهم فخورون بها هنا للغاية؛ لكن أى إله وثنى تتجه النية لعبادته فيها، ... فهذا ما لم أكتشفه بعد.

وقد استأجرت جناحاً فى منزل ميچور يدعى س. د. همفرى، ورغم أنه ليس مترقياً، لكنه سوف يفى بحاجتى. إلا أننى أخشى أن صاحب البيت مصاب بتعطش لا يقاوم نحو الكحوليات؛ ففى المرتين اللتين صادفته فيهما كان يجد صعوبة فى لبس قفازيه أو خلعهما، وبدا غير متأكد من

الأمر، وحملق فيّ بعينين حمرأوين، وكأنه يفكر ماذا أفعل في منزله بحق الشيطان. وأنا أتنبأ بأنه سينتهى إلى نزيل في المصححة الخاصة التي ما أزال أحلم بإنشائها؛ رغم أنني يجب أن أكبح جماح نفسي من النظر إلى كل شخص أتعرف عليه كنزيل يدفع أجراً في المستقبل لمصحتي. ومما تجدر ملاحظته أن العسكريين المتقاعدين على نصف الراتب كثيراً ما تسوء أحوالهم، فهم يبذون وكأنهم – وقد اعتادوا التعرض للكثير من الإثارة الشديدة والمشاعر القوية – ينبغي أن يمارسوا نفس القدر من الإثارة في الحياة المدنية. ولكن إجراءات السكن تمت، ليس مع الميجور – الذي من المؤكد أنه سوف ينسى إجراءاتها – ولكن مع زوجته التي عاشت طويلاً مع المعاناة.

وأنا أتناول وجباتي – ما عدا الإفطار الذي أصبح حتى الآن أسوأ كثيراً من الإفطار الذي كنا نتناوله سوياً ونحن ندرس الطب في لندن – في فندق قدر يقع في الجوار، حيث كل وجبة عبارة عن شيء محترق، ولا يمكن أن تكون أسوأ من ذلك حتى لو أضفنا بعض الوحل والقذارة وتوابل من الحشرات. أما سبب بقائي هنا، رغم هذه الصور الساخرة من فنون الطبخ، فأنا أثق بأنك ستعرف أنه دلالة على صدق إخلاصي في سبيل العلم والمعرفة.

أما بالنسبة للمجتمع، فلا بد أن أخبرك عن وجود فتيات جميلات كما في كل مكان، لكنهن يلبسن موضة باريسية مرت عليها ثلاث سنوات، وهي نفس الموضة في نيويورك من سنتين. ورغم الاتجاهات الإصلاحية للحكومة الحالية، فإن المدينة يكثر فيها المعارضون الساخطون، وكذلك المتملقون المحليون التافهون، وأنا أتوقع أن صديقك الفظ ذا الملابس

المهملة، بل، ولأوضح ما أعنيه، الديمقراطية الشمالى، سوف ينظر إليه أهل المدينة الأكثر تحزباً ببعض الارتياب.

ومع ذلك، فإن المحافظ – وأظن أن ذلك بايعاز من المبجل فرينجر – قد خرج عن الخط الذى رسمه لنفسه ليكون مجاملاً، ودبر مسألة وضع جريس ماركس تحت تصرفى لعدة ساعات بعد الظهر يومياً. ويبدو أنها تعمل فى بيته كنوع من الخادمة غير مدفوعة الأجر، أما نظرتها لهذه الخدمة، كمنحة أو عقاب، فهو أمر لم أتأكد منه بعد؛ ولن تكون مهمة سهلة، فجريس الرقيقة قد اخشوشنت بعد خمسة عشر عاماً من المعاناة، وسوف يصبح من الصعب التعامل معها. والتساؤلات من النوع الذى أقوم به غير مؤثرة، إلا إذا أمكن الحصول على ثقة الشخص؛ ولكن معرفتى بالمؤسسات العقابية تجعلنى أشك أن جريس ماركس لديها سبب واحد للثقة فى أى إنسان لفترة طويلة من الزمن.

ولم تتوفر لى إلا فرصة واحدة لاستعراض موضوع بحثى، ومن ثم فإن من العجلة أن أعبر عن انطباعاتى. ولكن يمكن أن أقول أننى أشعر بالأمل؛ وكما تكلمت وعبرت عن رغبتك فى سماع أخبار عن تقدمى، فسوف أبذل كل جهدى لأعلمك بانتظام. وحتى ذلك الحين، سأظل، يا عزيزى إدوارد...

صديقك القديم وزميلك السابق

سايمون

يجلس سايمون إلى منضدة الكتابة، يقرض طرف قلمه، وينظر من النافذة إلى مياه بحيرة أونتاريو الرمادية المتلاطمة. عبر الخليج تقع بحيرة وولف. وفكر سايمون أنها ربما سميت كذلك على اسم الجنرال الشاعرى الشهير (\*). إنه مشهد لا يعجبه، فهو أفقى بلا هوادة، لكن الرتابة البصرية تكون أحياناً قادرة على إثارة الأفكار.

عاصفة من المطر تدمم على زجاج النافذة، وتسوق الرياح السحب المنخفضة فوق البحيرة. والبحيرة نفسها تجيش وتصطبب بالأمواج، تندفع الأمواج إلى الشاطئ، وترتد، ثم تندفع مرة أخرى، وأشجار الصفصاف تحته تتمايل بشدة كرؤوس ذات شعور طويلة خضراء، وتنحنى، وتتقلب. وشيء باهت يهب عابراً، يشبه وشاحاً أبيض لامرأة، لكنه يكتشف أنه مجرد طائر سمان يجاهد الريح. ويفكر أنها غضبة الطبيعة المجنونة، الأسنان والمخالب التى تحدث عنها تتيسون.

---

(\* الجنرال جيمس وولف James Wolfe (1727-1759)، كان قائداً إنجليزياً ساهم فى تأكيد سيطرة الإنجليز على أمريكا الشمالية عندما قاد حملة ضد الفرنسيين الذين كانوا يحاولون تأسيس إمبراطورية لهم فى المنطقة المعروفة الآن باسم كندا، وقد أصيب فى المعركة ثم مات متأثراً بجراحه. ويقال أنه، فى إحدى مراحل الصراع، كان فى حالة حزن فألف أغنية ينعى فيها على الجنود التصرف بجنون فى القتال مما يؤدى بهم إلى الموت.

وهو لا يشعر بأى مرح متفائل من ذلك الذى عبر عنه لتوه. وعلى العكس، فهو يشعر بالقلق. وبما هو أكثر من الشعور بالكآبة. إن مبرر وجوده هنا يبدو مشكوكاً فيه، لكنها أفضل فرصة له فى الوقت الحالى. كان طيش الشباب هو الذى جعله يلتحق بالدراسات الطبية. كان أبوه حينئذ مالك مصنع ثرياً، وكان يتوقع أن يتولى سايمون أمر المصنع كاملاً فى الوقت المناسب، حتى سايمون نفسه كان يتوقع نفس الشيء. لكنه فى البداية سوف يتمرد قليلاً، وقد ينحرف بعض الشيء عن الخط المرسوم له، يسافر، يدرس، يختبر الحياة وتختبره، ويجرب أيضاً فى عالم المعرفة والطب، الذى كان دائماً مغرباً بالنسبة له. ثم سيعود إلى الوطن بمهنة يمارسها كهواية، مع تأمين مريح يشعره بأنه ليس مضطراً لممارستها لكسب المال. فهو يعلم أن الغالبية العظمى من أفضل العلماء لهم دخول خاصة تسمح لهم بإمكانية البحث النزيه بلا هموم.

لم يكن يتوقع انهيار والده، ولا انهيار مصنع النسيج الخاص به، ولم يستوثق أبداً أى الانهيارين جاء أولاً. وبدلاً من التجديف بقاربه فى مجرى مائى هادئ، بوغت بعاصفة فى البحر تركته متعلقاً بصارية مكسورة. وبعبارة أخرى، ألقته العاصفة على شاطئ مصادره الخاصة، والتي ادعى أثناء مجادلاته مع والده فى فترة المراهقة أنها هى ما يرغب فيه أكثر من أى شىء آخر.

بيع المصنع، وكذلك البيت المهيب الذى عاش فيه طفولته، بهذا العدد الكبير من الخدم – الوصيفات، وخادمات المطبخ، وخادمات الردهة، هذه الجوقة دائمة التغير من الفتيات أو النساء الباسمات اللاتى يحملن



أسماء من نوع أليس أو إيفى، واللاتى دللنه، وأشرفن وهيمن على طفولته وشبابه، واللاتى يفكر دائماً أنهن بطريقة ما تم بيعهن مع البيت. كانت روائحهن تشبه الفراولة والملح، وكانت لهن شعور طويلة متموجة عندما تترك مسدلة، أو على الأقل إحداهن كان لها هذا الشعر، ربما كانت إيفى. أما ميراثه فهو أقل مما تعتقد والدته؛ وأكثر ما يدخل من هذا الميراث يذهب إليها، وهى ترى أنها تعيش فى ظروف متدنية، وهى الحقيقة بالنسبة لما كانوا عليه. كما أنها تعتقد أنها تبذل تضحيات من أجل سايمون، وهو لا يريد أن يحررها من هذا الوهم. لقد بنى أبوه نفسه بنفسه، لكن أمه بناها الآخرون، ومثل هذه الصروح معروفة بالهشاشة.

وهكذا، فإن المصحة الخاصة بعيدة عن متناوله فى الحاضر، ولكى يجمع نقوداً لها عليه أن يقدم شيئاً جديداً لم يسبقه إليه أحد، اكتشافاً أو دواءً جديداً، فى حقل مزدحم بالفعل، هذا بالإضافة إلى أنه مثير للخلاف. ربما، عندما يكتسب شهرة واسعة، يتمكن من بيع أسهم فى مصحته، ولكن دون أن يفقد سيطرته عليها. لا بد أن يكون حراً، حراً تماماً، فى اتباع طرائقه الخاصة متى قرر بالضبط ما هى هذه الطرائق. سوف يكتب نشرة تمهيدية لعرض مشروعه؛ غرف واسعة ومبهجة، تهوية جيدة وصرف صحى، حدائق ممتدة، يمر فيها جدول، فصول الماء يهدئ الأعصاب. ولكنه لن يذهب إلى حد استخدام الآلات والبدع، لن يضع فيها أدوات للعلاج بالكهرباء، ولا علاج بالمغناطيس. صحيح أن عامة الأمريكين يعجبون بهذه الأفكار إعجاباً شديداً – فهم يفضلون العلاجات التى يمكن أن تتم بجذب ذراع آلى أو ضغط زرار – ولكن سايمون

لم يكن يعتقد في تأثير هذه الطرائق. ورغم الإغراء، لا بد أن يرفض القبول باللجوء إلى وسائل تخل بأمانته العلمية.

كل هذا مجرد أوهام في الوقت الحاضر. لكن ينبغي أن يكون لديه مشروع من نوع ما، يلوح به أمام والدته، فهي بحاجة للاطمئنان على أنه يعمل باتجاه هدف أو آخر، حتى لو كانت لا توافق عليه. وبالطبع يمكنه أن يتزوج الثروة، كما فعلت هي نفسها، فقد باعت اسم عائلتها وعلاقاتها مقابل الثروة التي كان يملكها زوجها الذي كان قد أثرى حديثاً، وهي مصممة بشدة على ترتيب شيء من نفس النوع له: وليس سرّاً الانتشار المتزايد لما سُمي بـ "تجارة الخيل"، وهو التزاوج بين الأرستقراطيين الأوروبيين الذين أصابهم الفقر، والمليونيرات الأمريكيات حديثي النعمة، وحتى على مستوى أضيق كثيراً في لوميسفيل - مساتشوستس. لكنه ما أن يتذكر السنّتين الأماميتين البارزتين للأنسة فيث كارتر ايت، ورقبتها الشبيهة برقبة البط، حتى يصاب بقشعريرة.

ينظر إلى ساعته. تأخر الإفطار مرة ثانية. كل صباح يأتيه الإفطار ليتناوله في شقته، تحمله دورا في صينية خشبية. ودورا هي الخادمة التي تقوم بكل شيء لصاحبة البيت. وهي تضع الصينية، بجلبة وقعقة وخشخشة، على المنضدة الصغيرة في الجانب البعيد من غرفة معيشته، حيث يجلس بمجرد ذهابها ليزدرده، أو ليزرد بعض ما يظنه صالحاً للأكل منه. وقد عود نفسه على قضاء بعض الوقت في الكتابة قبل الإفطار على المنضدة الأخرى والأكبر، لكي ترى أنه مشغول فلا يضطر للنظر إليها.

ودورا امرأة بدينة ذات وجه أشبه بالجيلي، ولها فم صغير مقوس لأسفل كفم طفل خائب الرجاء، ويتلاقى حاجباها الأسودان الكبيران فوق أنفها مما يضيف عليها عبوساً دائماً يعبر عن نوع من الرفض الحسانق. ومن الواضح أنها تمقت عملها كخادمة تقوم بكل المهام، ولكنه سوف يتعجب إذا كان ثمة شيء آخر تفضله. وقد حاول أن يتخيلها كبغي – وهو كثيراً ما يلعب هذه اللعبة العقلية الخاصة مع نساء كثيرات يلتقى بهن – لكنه لم يستطع أن يتصور رجلاً يدفع لها في مقابل خدماتها. سيكون الأمر كما لو كان المرء يدفع لقاء أن تدوسه عربة، ومثل هذه التجربة قد تكون تهديداً خطيراً للصحة. دورا مخلوق ضخم وقوى، وقد تكسر العمود الفقري لرجل نصفين بفخذيها، اللذين يتخيل سايمون أنهما يميلان إلى اللون الرمادي مثل سجق مسلوقة، ولهما شعر خشن كديك مذبوح لم ينظف ريشه جيداً، وضخمين، كل منهما في حجم خنزير صغير.

وترد دورا عليه قلة تقديره لها. ويبدو أنها تشعر أنه لم يؤجر هذه الشقة إلا بهدف واحد: خلق المتاعب لها. فهي تفرم مناديله، وتفرط في تشية قمصانه، كما تضيع أزرارها، التي من المؤكد أنها تنتزعها بشكل روتيني. حتى أنه يشك أنها تحرق خبزه وتسلق له البيض سلقاً زائداً عن عمد. وبعد أن "ترزع" الصينية على المنضدة، تخرج صوتاً كالخوار قائلة "إفطارك"، وكأنها تدعو خنزيراً، ثم تمشي بنتأقل إلى الباب وتغلقه خلفها بعنف أقرب إلى الصفق.

كان سايمون قد لقي تدليلاً بالغاً من الخادمت الأوروبيات اللاتي يعرفن مقامهن بالفطرة؛ فهو لم يتعود بعد على الاستعراض المفعم

بالاستياء للمساواة، والتي كثيراً ما تستخدم في هذا الجانب من المحيط،  
فيما عدا في الجنوب، طبعاً، لكنه لا يذهب هناك.

وهناك أماكن أخرى للسكنى في كينجستون، لكنه لا يود دفع  
إيجارها المرتفع. وهذا المكان مناسب للفترة القصيرة التي ينوي بقاءها.  
كما أنه لا يوجد مستأجر غيره، وهو يعتبر الخصوصية ذات قيمة كبيرة،  
وكذلك الهدوء الذي يمنحه الفرصة للتفكير. البيت مبنى بالحجارة، بارد  
ورطب. وبطبيعته – ولا بد أنه الشعور القديم لقاطن "نيو إنجلاند" داخله –  
يشعر سايمون بنوع من الازدراء لإطلاق العنان للشهوات المادية.  
وكدارس للطب، أصبح معتاداً على تقشف رهباني، وعلى العمل ساعات  
طويلة في ظروف صعبة.

يعود ويلتفت إلى مائدته، ويبدأ الكتابة:

أمي الغالية، أشكرك على رسالتك الطويلة والمليئة بالمعلومات  
المفيدة. أنا في خير حال، وأقطع يومياً تقدماً معتبراً في دراستي للأمراض  
العصبية والعقلية بين العناصر الإجرامية، وهو ما يمكن أن يكون –  
إذا ما استطعت النفاذ إلى دواخلهم – طريقاً طويلاً للتخفيف عن ....

لا يستطيع أن يكمل، فهو يشعر بأن هذا اختيال مغالي فيه. لكنه  
لا بد أن يكتب شيئاً، وإلا افترضت أمه أنه غرق أو أصيب بالسل فجأة  
ومات، أو هاجمه قطاع الطرق. الحديث عن الجو موضوع جيد دائماً،  
ولكنه لا يستطيع أن يكتب عن الجو ومعدته خالية.

من درج مكتبه أُخرج كُتُبًا يرجع إلى زمن ارتكاب الجريمتين،  
والذى كان المبجل فرينيجر قد أرسله إليه، ويحتوى اعترافات جريس  
ماركس وجيمس مكدرموت، بالإضافة إلى صيغة مختصرة من المحاكمة.  
فى الصفحة الأولى بورتريه منفذ بطريقة الطباعة اليدوية لجريس، يسهل  
الظن بأنه لإحدى بطلات الروايات الرومانسية، كانت لا تزيد عن السادسة  
عشرة فى ذلك الوقت، لكن البورتريه يجعلها تبدو أكبر من ذلك بخمس  
سنوات. يلتف كتفاها بشال موسى، وتحيط برأسها حافة قلنسوة نسوية تبدو  
كهالة معتمة. أنف مستقيم، وفم وسيم، وتعبير عاطفى يشعرك بالألفة  
— الشجن والتأمل الذى يوحى بمريم المجدلية — وعينان كبيرتان تحقدان  
إلى لا شىء.

إلى جوار ذلك صورة مماثلة لجيمس مكدرموت، يرتدى قميصا  
بياقة منتفخة كأزياء تلك الأيام، وقد سرح شعره بشكل يذكر بنابليون،  
وبطريقة توحى بأنه فى عاصفة، سكون مكتئب، على طريقة الشاعر  
بايرون، لابد أن الفنان الذى رسم الصورة كان معجبا به.

وتحت الرسمين كُتب بلون نحاسى:

جريس ماركس، المعروفة باسم مارى هوييتى؛ جيمس  
مكدرموت، عند ظهورهما فى قاعة المحكمة متهمين بقتل مستر توماس  
كينير ونانسى مونجومرى. والصفحة كلها تتشابه بطريقة مزعجة مع  
بطاقات دعوة الزفاف، أو هى كذلك بدون الصورتين.

تجاهل سايمون تماما إحياءات هذا البورتريه وهو يعد نفسه للقاء  
جريس. فقد فكر أنها ولايد مختلفة تماما الآن، أكثر إهمالا لمظهرها، وأقل

قدرة على ضبط النفس، ربما تكون في حالة أقرب إلى الضراعة، ومحمّل جدًا أن تكون فاقدة العقل. وقد اقتاده إلى زنزانتها المؤقتة حارس سوف يغلق عليه معها، بعد أن حذره من أنها أقوى مما تبدو، ويمكن أن تعضه عضة مؤلمة، ونصحه بأن ينادى بطلب المساعدة إذا تحولت إلى العنف.

. ما أن رآها حتى عرف أن ذلك لن يحدث. وقع ضوء الصباح مائلاً من خلال النافذة الصغيرة في أعلى الجدار ليضيء الركن الذي وقفت فيه. كانت صورة أقرب لصور القرون الوسطى في بساطة خطوطها ووضوح زواياها: راهبة في أحد الأديرة، فتاة في برج محصّن، تنتظر الحكم بإعدامها في الصباح حرقاً وهي مقيدة إلى الوتد، أو يصل البطل في آخر لحظة لإنقاذها. كانت المرأة المنزوية في الركن، وثوب العقاب الذي ترتديه ينسدل مستقيماً ليخفي قدمين حافيتين بالتأكيد، وحشية القش على الأرض. الانحناءة الهيابة للكتفين، الذراعان الملتفان حول الجسد النحيل، خصلات الشعر الكستنائي الطويلة التي تهرب مما بدا في الوهلة الأولى إكليلاً من الزهور البيضاء – والعينان بخاصة كبيرتان في الوجه الشاحب وملينتان بالخوف أو بالرجاء الصامت – كل شيء على ما يجب أن يكون. لقد رأى كثيراً من المصابين بالهستيريا في "سال باتريير" في باريس بنفس هذه الحالة.

اقترب منها بوجه هادئ باسم، ليقدم لها صورة ودية – والتي كانت صورة حقيقية، رغم كل شيء، فقد شعر بالود نحوها. كان من المهم أن تقنع هذا النوع من المرضى بأنك، على الأقل، لم تصدق أنهم مجانيين، فهم أنفسهم لم يصدقوا ذلك أبدًا.

لكن جريس، فى تلك اللحظة، تقدمت خطوة، وخرجت من الضوء، وفجأة لم تعد المرأة التى رآها فى اللحظة الماضية موجودة، وبدلاً منها، كانت امرأة أخرى، أكثر استقامة فى وقفها، أطول، متمالكة لنفسها بشكل أوضح، ترتدى ثوب الإصلاحية العقابى، ذا التتورة المخططة أزرق وأبيض، وتحتها قدمان ليستا حافيتين على الإطلاق وإنما داخل حذاء عادى. حتى أن الشعر المنفلت من تحت القنسوة بدا أقل مما ظنه، وكان أغلبه معقوصاً تحت غطاء قنسوة بيضاء.

وصحيح أن عينيها كانتا كبيرتين للغاية، ولكنهما أبعد ما تكونان عن الجنون. وعلى العكس، كانتا تحاولان بوضوح تقييمه. وبدا الأمر كما لو كانت تتأمل موضوع تجربة جديدة لم تُستكشف بعد، وكأنه هو — وليست هى — الموضوع تحت الفحص.

أجفل سايمون وهو يتذكر المشهد. وفكر: "لقد ورطت نفسى فى خيالات وأحلام. لابد أن ألتزم بالملاحظة المدققة، لابد أن أتقدم بحذر. إن التجربة الفعالة لابد لها من نتائج يمكن إثباتها، يجب أن أقاوم الميلودراما والانفعال الزائد.

ثمة جلبة خارج الباب، ثم صوت ضربات مكتومة. لابد أن إفطاره وصل. يدير ظهره ويشعر برقبته تتكمش داخل ياقته كسلحفاة تتسحب داخل درقتها. "أدخل"، ما أن يقولها حتى ينفتح الباب فجأة، وتزعق دورا "ها هو طعامك". ترتطم الصينية بالمنضدة، وتسير دورا خارجة، ثم ينصفق الباب منغلقاً وراءها. وتمر بخاطر سايمون صورة سريعة لها رغماً عنه، معلقة من كاحليها فى فاترينة جزار، وقد غرست فيها فصوص

الثوم والقرنفل، ملفوفة كفخذ خنزير مجهز. ويفكر أن تداعى الخواطر شيء رائع ما أن يبدأ المرء بملاحظة فعلها في العقل. وعلى سبيل المثال، دورا: خنزير: فخذ خنزير مجهز، فلكى تقفز من التعبير الأول إلى الثالث لابد من المرور بالثانى، فالتعبير الثانى أساسى، رغم أنه ليس ثمة فرق كبير بين الأول والثانى، ولا بين الثانى والثالث.

لابد أن يسجل هذه الملحوظة "التعبير الأوسط أساسى". ربما يكون المجنون شخصا تعبر عنده هذه الحيل العقلية المتصلة ببعضها، الخط الفاصل بين ما هو واقعى وما هو مجرد خيال، كما قد يحدث تحت تأثير الحميات، أو نوبات السير أثناء النوم، أو تحت تأثير بعض العقاقير. لكن ما هى الآلية التى يحدث بها ذلك؟ لابد أن ثمة آلية ما. هل يوجد مفتاح هذه الآلية فى الأعصاب أم فى المخ نفسه؟ وما الذى يصاب بالتدمير أولاً لينتج حالة الخروج عن العقل؟ وكيف؟

لابد أن إفطاره يبرد، إن لم تكن دورا قد بردته أصلاً مقدماً، وعن عمد. يرفع نفسه عن مقعده، يهز ساقيه الطويلتين، ويشد جسده متثائباً، ويذهب إلى المنضدة الأخرى التى عليها الصينية. بالأمس كانت البيضة أشبه بالمطاط الهندى، وقد ذكر ذلك لربة البيت، مسز همفرى الشاحبة، ولابد أنها عاتبت دورا، لأن البيضة اليوم أقل نضجاً لدرجة تقترب من السيولة التامة، مع وجود مسحة زرقة فيها أشبه بمقلة العين.

يفكر: "لعنها الله، نكدية حمقاء، منتقمة، عقل ما زال فى مرحلة ما قبل التفكير، لكنه يتسم بالمكر والمخادعة والمراوغة. لا سبيل لوضعها فى موقف حرج، فهى كالخنزير المشحّم".



تتكسر قطعة من الخبز أشبه بالحجارة بين أسنانه، ويفكر ماذا سيكتب لو الدته، والدتي العزيزة، الجو هنا جميل جدًا، الثلج انتهى تقريبًا، وبدأت روائح الربيع تسرى في الهواء، والشمس تدفئ البحيرة، وقد بدأت بالفعل البراعم الخضراء النضرة لـ....

لأى شيء؟ إنه لم يعرف الأزهار جيدًا أبدًا.

أجلس فى غرفة الخياطة، الواقعة على رأس السلم فى بيت زوجة المحافظ، فى المقعد المعتاد أمام المنضدة المعتادة، ومع أدوات الخياطة فى السلة كالمعتاد، ما عدا المقص، فهم مصرون على إبعاد هذا عن متناولى، فإذا أردت قص خيط أو تسوية طرف يجب أن أسأل د. چوردان، فىخرج المقص من جيب جاكته، ثم يستعيده بعد أن أنتهى. وهو يقول أنه لا يشعر بضرورة مثل هذا الهراء، فهو يعتبرنى مسالمة تماماً وقادرة على التحكم فى نفسى. يبدو أنه أهل للثقة.

رغم أننى أحياناً لا أفعل أكثر من قطع الخيط بأسنانى.

أخبرهم د. چوردان أن ما يريده هو جو من الاسترخاء والهدوء، وأن هذا هو أفضل ما يساعده على الوصول لأهدافه، أيًا كانت هذه الأهداف، ومن ثم فقد أوصى بأن أبقى فى نفس الروتين اليومى بقدر الإمكان. وهكذا أستمر فى النوم فى نفس الزنزانة المخصصة لى، أرتدى نفس الملابس، وأكل نفس الطعام، فى هدوء، إن كان يمكن تسمية ذلك هدوءاً، أربعون امرأة، معظمهن هنا لا لذنب يزيد عن السرقة، يجلسن يمضغن الخبز بأفواه مفتوحة، ويشربن الشاى بأصوات من أجل أن يصدرن أى نوع من الضجة حتى لو لم تكن كلاماً، مع فقرة تهذيبية من الإنجيل تقرأ يومياً بصوت مرتفع على الجميع.

وهنا يمكنك أن تترك نفسك لأفكارك، لكن إذا ضحكت فيجب أن تتظاهر بأنك تسعل أو أن بك غصة؛ والغصة أفضل، ففي هذه الحالة سوف يضربونك على ظهرك، لكن الكحة تجعلهم يطلبون الطبيب. كتلة من الخبز وكوب من الشاي الخفيف، لحم عند الغداء ولكن القليل منه، لأن أكل الأطعمة المغذية بكثرة يثير الجوارح الإجرامية في المخ، أو هكذا يقول الأطباء، ويكرر الحراس والسجانون كلامهم علينا. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا تثار جوارحهم "هم" الإجرامية وهم يأكلون اللحم والدجاج والضأن والبيض والجبن، يأكلون منها بكثرة قدر ما يستطيعون. ولهذا فهم في غاية البدانة. وفي رأي أنهم أحياناً يأخذون الطعام المخصص لنا، وهو أمر لن يدهشني على الإطلاق، ففي هذا المكان كلاب تأكل كلاباً، وهم الكلاب الأكبر.

بعد الإفطار يحضرونني إلى بيت المحافظ كالعادة، بصحبة اثنين من الحراس، رجلان، ولا يتورعان عن السخرية فيما بينهما ما أن يبتعدا عن أسماع رؤسائهما. يقول أحدهما: "طيب يا جريس، أرى أن لك حبيباً جديداً، ودكتور بحاله، ألم يركع على ركبتيه أمامك بعد؟ أم رفعت أنت ركبتك له؟ الأفضل له أن يأخذ حذره جيداً وإلا أرسلتني ممدداً على ظهره". يقول الآخر: "نعم، ممدداً على ظهره في القبو وقد خلع عنه حذاؤه، وطلقة رصاصة في قلبه". ويضحكان، فهما يعتبران ذلك مضحكاً للغاية.

أحاول أن أفكر ماذا قد تقول ماري هويتني، وأحياناً أستطيع أن أقوله، قلت لهما: "لو كان هذا ما تظنان بي، فالأفضل لكما أن تمسكا لسانيكما القدرين، وإلا سوف أنتزعهما ذات ليلة في الظلام من جذورهما

بالكامل، لن أحتاج سكينًا، فلن أفعل سوى القبض عليهما بأسناني وأشدهما، ولن أتوقف على مجرد أن أشكركما لإبعاد أيديكما السجانة القذرة عني".

يقول أحدهما: "ألا يمكنك أن تتحملي بعض المداعبة، لو كنت مكانك لرحبت بها. لن تجدى طوال حياتك رجلاً غيرنا يمكن أن يضع يده عليك، فأنت سجينه طوال الحياة كالراهبة، تعالى الآن، اعترفي بأنك تشناقين لشقلبة، لقد كنت على أتم استعداد مع ذلك القزم الصغير جيمس مكدرموت قبل أن يعلقوه من رقبتهم، القاتل الشرير". ويقول الأول: "وهذه هي الطريقة يا جريس، هيا اركبي أعلى خيلك كما لو كنت فتاة طاهرة نقية لم يضع رجل ساقيه عليك أبدًا، أنت نقية كملاك، كلام فارغ، كما لو لم تكوني قد رأيت غرفة نوم رجل في الحانة في لويستون، لقد سمعنا عن ذلك، عندما اعتقلوك كنت ترتدين جواربك ومشدك، لكنني سعيد بأن أرى أنه ما زالت فيك بعض السخونة، لم يتمكنوا من إطفائها داخلك بعد". ويقول الآخر: "تعجبنى المرأة بعد أن تشرب كأسًا أو اثنتين، أو زجاجة كاملة، الخمر تسوق إلى الخطيئة، باركها الله، ليس أفضل من بعض الوقود لإشعال النار". ويقول الأول: "كلما سكرت أكثر كلما كان ذلك أفضل، وهنا فوق الأرض الباردة أفضل شيء، ولا ينبغي أن تستمعي إليهم، ليس ما هو أسوأ من عاهرة تصرخ". ويقول الآخر: "هل كنت تثيرين ضوضاء يا جريس؟ هل كنت تثنين وتتأوهين؟ هل كنت تتلوين تحت ذلك الفأر الصغير القزم؟". يقول ذلك ناظرًا نحوي ليري ماذا أقول. أحيانًا أقول أنني لن أقبل مثل هذا النوع من الحديث، وهو ما يجعلهما يضحكان بشدة، ولكنني في الغالب لا أقول شيئًا.

وهكذا نمضى الوقت، حتى نصل إلى بوابة السجن، من يذهب هناك غيرك، طاب يومك يا جريس، والشابان تأخذينهما معك، مربوطين بشرائط مريلتك، نظرة وإيماءة ثم إلى الشارع، كل منهما يتعلق بأحد ذراعيك، إنهما ليسا بحاجة لإمساكك هكذا لكنهما يحبان ذلك، يميلان على ويقتربان أكثر وأكثر حتى يعتصراننى بينهما، ونحن نخوض فى الوحل، وفوق البرك، وحول روث الجياد المتكوم، وعبر الأشجار المزهرة فى الأراضى المسورة، أشجار شراباتها وأزهارها تتدلى مثل فراشات خضراء مصفرة، والكلاب تنبح، والعربات تمر، تنثر الماء المتراكم فى الطريق حولها، والناس يحدقون، فهم يعلمون من أين جئت، يمكنهم معرفة ذلك من الزى الذى أرتديه. حتى نصل إلى الممشى الطويل المؤدى إلى البيت وتحفه الأعشاب، نلف لنصل إلى مدخل الخدم، ويقول الأول: ها هى لديكم سليمة وصحيحة، لقد حاولت الهرب، أليس كذلك يا جريس؟ حاولت أن "ترحلنا"، إنها مأكرة وتشهد على ذلك عيناها الزرقاوان الواسعتان، طيب يا فتاتى، حظاً سعيداً فى المرة القادمة. كان يجب أن ترفعى تنورتك أكثر وترينا قدميك وبعضاً من كاحلك لتتمكنى من الجرى، ويقول الآخر: أوه، لا، بل أعلى من ذلك، اجعلها مرفوعة كالشراع حتى رقبتك، هكذا كان يمكنك أن ترحلى كسفينة ترفع أشرعتها كلها أمام الريح، وهكذا كان يمكن أن تفتنينا بسحرك الطاغى، فنصبح وكأن رءوسنا مضروبة كحملان فى المجرر، وكأن البرق ضربنا فتجمدنا، هكذا كان يمكنك الهرب بسهولة. بيتسمان لبعضهما ويضحكان، كان كل ذلك تمثيلاً. كانا يتحدثان إلى بعضهما كل هذا الوقت، وليس إلى.

إنهما شخصان من طبقة وضيعة.

ليست لي حرية الحركة في المنزل كما في السابق، فزوجة المحافظ لا تزال خائفة منى، تخشى أن أصاب بنوبة أخرى، وهي لا تريد أيًا من أكواب الشاي الجميلة التي تملكها أن تتكسر؛ حتى أنك قد تظن أنها لم تسمع أحدًا يصرخ من قبل. ومن ثم فأنا لا أقوم بإزالة الأتربة هذه الأيام، ولا أحمل صينية الشاي لتقديمه، ولا أفرغ مياول غرفة النوم أو أرتب الأسرة. وبدلاً من ذلك أعمل في المطبخ، أغسل الأواني والمقالي في غرفة الآنية، أو أعمل في غسيل الثياب. وهذا لا يضايقتني، بالإضافة إلى أنني أحب الغسيل منذ زمن. إنه عمل شاق ويسبب خشونة لليدين، لكنني أحب رائحة النظافة في الغسيل بعد الانتهاء منه. وأنا أقوم بمساعدة الغسالة العجوز كلارى. وهي نصف ملونة، وكانت يوماً جارية قبل أن تلغى العبودية هنا. وهي لا تخاف منى، ولا يهملها ولا يعنيتها ما قد فعلت، حتى لو كنت قتلت أحد السادة المحترمين؛ إنها لا تفعل سوى أن تومئ برأسها، وكأنها تريد أن تقول أحسن، فالآن هم أقل بواحد. وهي تقول أنني عاملة مثابرة أقوم بنصيبي من العمل ولا أبدد الصابون، وأنسى أعرف كيف أتعامل مع الأقمشة الجيدة، فعندى هذه المهارة، وكيف أزيل الأوساخ حتى من الدانتيل الأبيض، وهو أمر ليس سهلاً؛ وأنى ماهرة في التنشية أيضاً، ويمكن الاطمئنان إلى عدم احتراق أى شيء معى أثناء الكي، وهذا يكفيها.

عند الظهر ندخل إلى المطبخ، وتعطينا الطباخة بقايا الطعام من الخزانة، أقل ما يمكن من الخبز والجبن وحساء اللحم، لكن في العادة ثمة مزيد، لأن كلارى هي المفضلة لديها، ومعروف عنها أنها تغضب

إذا تجوهلت، كما أن زوجة المحافظ تقسم بها، خاصة من أجل الأقمشة الرقيقة والمكشكشة، وتقول أنها كنز ولا مثل لها، وسوف يضايقها أن تفقدها، ولهذا فهي لا تبخل عليها ولا على، لأنني معها.

إنه طعام أفضل مما يمكن أن أناله داخل السجن. بالأمس أكلنا هيكل الدجاجة، وكل البقايا العالقة به. هناك جلسنا على المائدة كتغلبين داخل حظيرة الدجاج يقرضان العظام. إنهم يصنعون جلبة لا داعي لها حول المقصات بالطابق العلوي، لكن المطبخ مليء بالسكاكين والأسياخ من أعلاه لأسفله مثل حيوان الشبهم المليء بالأشواك، ومن الممكن أن أفسد واحدة في جيب مريمتي بسهولة دحرجة أسطوانة خشبية، لكنهم طبعًا لا يفكرون في ذلك أبدًا. فشعارهم البعيد عن العين منسى، والطابق الأسفل، حيث يعيش ويعمل الخدم، بعيد عن اهتمامهم، وما أقل ما يعرفون من أن الخدم يحملون بملقعة إلى الخارج من الباب الخلفي أكثر مما يدخله السيد بجاروف من الباب الأمامي؛ والحيلة هنا هي أن يحدث ذلك حبة بحبة. سكين صغيرة واحدة لن ينتبه إليها أحد أبدًا، وأفضل مكان أخبئها فيه هو شعري، تحت قلنسوتي، ملتصقة جيدًا بالقلنسوة، فقد تكون المفاجأة خطيرة لو سقطت السكين في وقت غير مناسب.

قطعنا هيكل الدجاجة بإحدى السكاكين، أكلت كلارى البيضتين الصغيرتين اللتين في القاع، بالقرب من البطن كما يمكن أن تقول، وهي تحب أن تأخذهما إذا تركتا، ولأنها الأكبر سنًا ومقامًا بيننا، فلها حق الاختيار أولاً، لم نتبادل كلامًا فيما بيننا، لكننا جميعًا كنا نبتسم ابتسامة عريضة، لأن أكل هذه الدجاجة كان أمرًا طيبًا للغاية. وأنا أكلت الجلد

والدهن من الظهر، ومصصت عظام القفص، ثم لعقت أصابعي كالقطة، وبعد أن انتهينا أخذت كلاري نفساً سريعاً من غليونها على العتبة، ثم عدنا إلى العمل. الأنستان ليديا وماريان توسخان كثيراً من الثياب، رغم أن أكثرها لا يمكن أن أقول أنه قذر بالمرّة، وأعتقد أنهما تجربان بعض الملابس في الصباح ثم تلقيان بها على الأرض بإهمال وتدوسان عليها، ومن ثم لا بد أن تعود إلى الغسيل.

بعد أن تمر الساعات، وتتحرك الشمس في الساعة الموجودة في الطابق الأعلى لتصبح حوالي العصر، يصل د. چوردان إلى الباب الأمامي. أسمع طرقه على الباب، ثم أقدم الخادمة تتحرك بجرس وقعقة، ثم يأخذونني لأعلى من السلم الخلفي، يداي مغسولتان وبيضاوان كالثلج من صابون المغسلة، وكل أصابعي مكرمشة بسبب الماء الساخن كشخص غرق حديثاً، لكنهما حمر اوان وخشنتان في نفس الوقت، وهنا يأتي موعد العمل في الخياطة.

يجلس د. چوردان في المقعد المقابل لي، ولديه دفتر يضعه على المنضدة. ودائماً ما يحضر شيئاً لي معه، في اليوم الأول أحضر زهرة مجففة من نوع ما، وكانت زرقاء، وفي اليوم الثاني جاء بحبة كمثرى شتوية، وفي اليوم الثالث بصلة، لا يمكنك أن تخمن أبداً ماذا سيحضر، رغم أنه يتمسك بالخضر والفاكهة؛ وفي بداية كل جلسة يسألني ماذا يدور في عقلي حول الشيء الذي جاء به، فأقول شيئاً فقط لأسعده، فيكتب ما أقول. ولا بد أن يظل الباب مفتوحاً في كل المرات لكي لا يكون ثمة ريبة، أو شيء غير لائق مما يجري وراء الأبواب المغلقة، كم يكون مضحكاً لو علموا فقط بما يجري كل يوم في طريقي إلى هنا. تمر الأنسة



ليديا والأنسة ماريان على السلم، وتختلسان النظر، تريدان أن تلقيا نظرة على الدكتور، فهما فضوليتان كالطيور. أوه، أظن أنني تركت كسيتباني هنا، طاب يومك يا جريس، أرجو أن تكوني قد استعدت نفسك ثانية، نرجو المعذرة يا د. چوردان، إننا لا نقصد إزعاجك. وتمنحانه ابتسامات فاتنة، فقد عُرف أنه غير متزوج، وأنه يملك بعض المال، رغم أنني أعرف أن أيًا منهما لن تقبل الاستقرار مع طبيب أمريكي شمالي إذا استطاعت الحصول على شخص أفضل؛ لكنهما تحبان تجربة جاذبيتهما وسحرهما عليه. لكنه بعد أن بيتسم لهما تلك الابتسامة المائلة، يعبس. فهو لا يهتم بهما، إنهما مجرد فتاتين سخيقتين، وهو لا يأتي هنا من أجلهما.

هو يأتي من أجلى أنا، ولهذا لا يريد أن يقاطع حديثنا أحد.

فى اليومين الأولين، لم يكن هناك حديث كثير يستحق المقاطعة. ظلت رأسى محنية، ولم أنظر إليه، كنت أعمل فى قطع اللحاف الذى أصنعه لزوجة المحافظ، لم يبق إلا خمس قطع لأنتهى منه. كنت أراقب إيرتى فى دخولها وخروجها، رغم أنني يمكن أن أقوم بهذا العمل وأنا نائمة، فأنا أؤديه منذ كان عمري أربع سنوات، غرز صغيرة كأنها من صنع فأر، ولا بد أن تبدأ صغيراً لكى تتمكن من فعل ذلك، وإلا فلن تصل أبداً إلى البراعة. الألوان الرئيسية هى اللون القرنفلى الغامق، مع فرع وزهرة بالقرنفلى الفاتح، وأزرق نيلى به يمامات بيضاء وكروم.

وأحياناً كنت أتجاوز بنظرتى أعلى رأس د. چوردان، إلى الجدار خلفه، حيث توجد صورة ذات إطار، زهور فى قازة، وفواكه فى طبق، طرزتها زوجة المحافظ بغرزة صليبية غير متقنة، فثمار الخوخ والتفاح تبدو مربعة وخشنة، وكأنما نحتت من الخشب. وليست هذه اللوحة من

أفضل أعمالها، ولا بد أن هذا هو السبب في تعليقها هنا بدلاً من وضعها في إحدى غرف النوم المخصصة للضيوف. حتى أنا يمكنني صنعها بشكل أفضل بعينين مغمضتين.

كان من الصعب أن أبدأ الكلام، فلم أتحدث كثيراً طوال الأعوام الخمسة عشر الماضية لم أتحدث حديثاً حقيقياً كما كنت أفعل مع ماري هويتتي وچيرميا البائع المتجول، ومع جيمي وولش أيضاً قبل غدره بي، كنت أتحدث بطريقة نسيتهما الآن. قلت للدكتور چوردان أنني لا أعرف ماذا يريدني أن أقول، فقال أن المسألة ليست مسألة ما يريدني أن أقول، لكن ما يهمله هو ماذا أريد أنا نفسي أن أقول. فقلت أنه ليست لدى رغبات من هذا النوع حيث أنني في وضعية لا تسمح بأن تكون لدى رغبة في قول أي شيء.

قال: والآن يا جريس، يجب أن تحاولي أكثر من ذلك، لقد اتفقنا.

قلت: نعم يا سيدى. لكننى لا أستطيع التفكير في شيء.

قال: طيب، فلنتحدث عن الطقس؛ لا بد أن لديك بعض الملاحظات عليه، حيث أن هذه هي الطريقة التي يبدأ بها الجميع.

جعلنى ذلك أبتسم، لكننى كنت ما أزال خجولة، فلم أعتد أن يسألنى أحد رأبى فى أى شيء، حتى لو كان الطقس، وخاصة إذا جاء السؤال من رجل معه دفتر. لم أقابل رجالاً من هذا النوع إلا المحامى، مستر كينيث ماكنزى المحترم، وكنت أخاف منه؛ والذين كانوا فى قاعة المحكمة أثناء المحاكمة، وفى السجن؛ وكانوا من رجال الصحافة، وكتبوا أكاذيب عني.

وإذ لم أستطع الكلام فى البداية، تحدث د. چوردان. وأخبرنى كيف يمدون خطوط السكك الحديدية فى كل مكان الآن، وكيف يضعون القضبان، وكيف تعمل الآلات المحركة، بالغلاية والبخار. وكان تأثير ذلك أن جعلنى أشعر بمزيد من الطمأنينة والألفة، فقلت أننى أتمنى أن أستقل قطاراً كذلك الذى يتحدث عنه؛ وقال أنه ربما فى يوم ما يحدث ذلك. قلت أننى لا أظن ذلك، لأننى محكوم على بالسجن مدى الحياة، لكن على أية حال لا يمكن أن تعرف ما تخبئه لك الأيام.

ثم حدثنى عن المدينة التى يعيش فيها، والتى تسمى لوميسفيل، فى الولايات المتحدة الأمريكية، وقال أنها مدينة صناعية وإن لم تعد مزدهرة كما كانت قبل أن تأتى الثياب الرخيصة من الهند. وقال أن والده كان يملك مصنعاً فى يوم من الأيام، وكانت تعمل به فتيات يأتين من الريف، وكن متأنقات وأقمن فى بنسيونات وفرتها سيدات حكيمات محترمات، ولم يكن مسموحاً بالشرب فيها، وأحياناً كان يتوفر بيانو فى الردهة، وكان العمل اثنتى عشرة ساعة يومياً فقط، وصباح يوم الأحد إجازة للذهاب إلى الكنيسة. كانت عيناه تندى وتتوه فى ذكريات، ولن أدهش إذا عرفت يوماً أنه كانت له حبيبة له بين هؤلاء الفتيات.

ثم أخبرنى أن هؤلاء الفتيات تم تعليمهن القراءة، وقد أصدرن جريدة خاصة بهن، كانت تقدم مواد أدبية، وسألت ماذا يعنى بمواد أدبية؟ فقال أنهن كن يكتبن قصصاً وقصائد وينشرنها فيها، قلت: بأسمائهن؟ قال نعم. قلت تلك جراًة منهن، ألم تبعد الشباب عنهن؟ فمن يرغب فى زوجة كهؤلاء تكتب أشياء لكل من يقرأ وتختلق أشياء فى كتابتها، وأننى لن أكون

بهذه الوقاحة أبدأً. فابتسم، وقال إن ذلك لم يكن فيما يبدو يضايق الشباب، فقد كانت الفتيات يدخرن أجورهن للدوطة، وكانت الدوطة دائماً مرضية. وقلت أنه على الأقل بعد الزواج لن تترك مشاغل الأطفال لأى منهن وقتاً لاختلاق القصص.

ثم شعرت بالحزن، فقد تذكرت أنني لن أتزوج أبدأً، ولن أنجب أطفالاً، رغم أنه يمكنك أن تقول أن ثمة أشياء طيبة كثيرة، وأنتى لا أحب أن أنجب تسعة أو عشرة أطفال وأموت بسبب ذلك، كما يحدث للكثيرات. ولكن يظل هذا أمراً مؤسفاً.

وعندما تشعر بالحزن، فمن الأفضل أن تغير الموضوع. سألته إن كانت والدته لا تزال حية فأجاب نعم لكن صحتها ليست على ما يرام، فقلت أنه محظوظ لأنه والدته حية، فأنا والدتى توفيت. ثم غيرت الموضوع مرة أخرى، وقلت أنني مغرمة بالجياد، فحدثنى عن حصانه "بس"، الذى كان يملكه فى صباه. وبعد قليل، لا أعرف كيف سارت الأمور، لكن شيئاً فشيئاً، وجدت أنني أستطيع الحديث معه بسهولة أكثر، وأفكر فى أشياء أقولها.

ويسير الأمر بهذه الطريقة: يسأل سؤالاً فأجيب عنه، ويكتب ذلك. فى قاعة المحكمة كانت كل كلمة تخرج من فمى وكأنها تحترق على الورق الذى يكتبون عليه، وعرفت أنه ما أن أقول شيئاً فلا يمكننى استعادته أبدأً، إلا أن الكلمات كانت خطأ، فكل ما قلته كان يتم فهمه بشكل معكوس، حتى لو كانت الحقيقة المجردة فى البداية. وحدث نفس الشئ مع د. بانرلينج فى المصحة. أما الآن فأنا أشعر كما لو كان كل ما أقول

صحيحًا. فما دمت أقول شيئًا، أى شيء على الإطلاق، بيتسم د. چوردان ويكتبه. ويقول لى أننى أتقدم.

وهو يكتب، أشعر كأنه يرسمنى، أو لا يرسمنى وإنما يرسم على — يرسم على بشرتى — ليس بالقلم الذى يستخدمه، وإنما بريشة إوز تقليدية، وليس بنهايتها المدببة وإنما بالطرف الريشى. فأشعر وكأنما مئات من الفراشات استقرت على وجهى كله، تفتح أجنحتها وتغلقها بنعومة بالغة.

ولكن شعورًا آخر يغمرنى تحت هذا، شعور بأننى متيقظة تمامًا، وقادرة على الملاحظة، كما لو أيقظتك — فجأة فى منتصف الليل — يد تمتد إلى وجهك، فتجلس شاعرًا بقلبك ينبض بسرعة، ولا أحد هناك. وخلف هذا الشعور شعور ثالث، شعور بأنك تفتح، ليس كما لو كنت جسدًا من لحم، لا، ليس الأمر مؤلمًا هكذا، ولكن كما لو كنت ثمرة خوخ، ولكنها تفتح لا لأن أحدًا يشقها ليفتحها، وإنما النضج وصل بها لدرجة أنها تفتح من تلقاء نفسها.

وداخل الخوخة توجد حصوة.

من دكتور طبيب صمويل باترلينج، مابلس، فرونت  
ستريت، تورنتو، غرب كندا؛ إلى دكتور طبيب  
سايمون چوردان، عناية مسز وليام ب. چوردان،  
لابورنام هاوس، لوميسفيل، ماساتشوستس،  
الولايات المتحدة الأمريكية. يعاد توجيه الرسالة إلى  
عناية الميجور س. د. همفري، شارع لوار  
يونيون، كينجستون، غرب كندا.

٢٠ أبريل ١٨٥٩

عزيزى د. چوردان:

لقد تسلمت طلبكم الموجه إلى د. ووركمان، المؤرخ ٢ أبريل،  
بخصوص المذنبه جريس ماركس، كما تسلمت مذكرة منه يطلب منى  
إمدادك بأية معلومات أخرى فى حيازتى.

ويجب أن أعلمك مباشرة أنني لم أكن دائماً على وفاق في الرأي مع د. وركمان. وفي تقديري - وأنا قضيت في المصحة حتى الآن سنوات أكثر مما قضاه حتى الآن - أن سياساته المتساهلة قد قادتته للشروع في مهمة متعذرة التحقيق، أشبه بمحاولة تحويل التراب إلى ذهب. إن معظم من يعانون من الاضطرابات الشديدة في الأعصاب أو الخلل المخي لا يمكن علاجهم، وإنما يمكن فقط السيطرة عليهم. وقد أثبتت وسائل الكبح العضوي، والتقويم، وتحديد الوجبات، والحجامة، والفصد - للتقليل من الطاقة المفرطة للأرواح الحيوانية - أثبتت هذه الوسائل فاعليتها في الماضي. ورغم أن د. وركمان يزعم أنه قد توصل لنتائج إيجابية في حالات عديدة كانت تعتبر في الماضي ميئوساً منها، فلسوف يثبت بمرور الوقت أنها نتائج مزيفة ومؤقتة. إن وصمة الجنون موجودة في الدم، ولا يمكن محوها بليفة وقليل من الصابون الناعم.

لم تكن لدى د. وركمان فرصة لفحص جريس ماركس لأكثر من أسابيع قليلة، في حين أنها كانت تحت رعايتي لأكثر من عام، ومن ثم فإن آراءه في موضوع شخصيتها لا تفيد كثيراً. ولكنه كان من الفطنة بحيث تمكن من اكتشاف حقيقة موضوعية، وهي أن جنون جريس ماركس مفتعل - وهي حقيقة سبق لي التوصل إليها قبله - رغم أن السلطات في ذلك الوقت رفضت العمل بمقتضاها. فقد قادتني المراقبة المستمرة لها ولحركاتها الاحتياالية المضحكة إلى استنباط أنها في الحقيقة تتظاهر

بالجنون، وليست مجنونة، وإنما تحاول أن تخدعني بطريقة مدروسة وفاضحة. وبصراحة، كان جنونها غشاً وتدليساً اتبعتهما بهدف أن تطلق العنان لنفسها ويتم التساهل معها، فالنظام الصارم في الإصلاحية التي وضعت فيها كعقاب عادل على جرائمها المروعة لم يكن يناسب أهواءها.

إنها ممثلة بارعة وكذابة ماهرة للغاية. وعندما كانت هنا، كانت تسلي نفسها بمجموعة من النوبات المرضية المفتعلة، وادعاء الهلوسة، ونوبات القفز المرح والغناء وما إلى ذلك. ولا ينقص التمثيل البارع لهذا الدور سوى أن تضفر زهور أوفيليا البرية في شعرها؛ لكنها كانت تقوم بالدور بمهارة كافية بدونها، فقد استطاعت أن تخدع، ليس فقط مسز مودي الفاضلة، وهي مثل الكثيرات من راجحات العقل من نوعها لديها استعداد لتصديق أي هراء مسرحي يقدم لها بشرط أن يكون باعثاً على الشفقة بما يكفي. ولا شك أنك قرأت روايتها الهستيرية غير الدقيقة للأمر المحزن كله. ولكن جريس استطاعت أيضاً أن تخدع الكثيرين من زملائي، وهو أمر يعتبر مثلاً بارزاً على القاعدة القديمة المعروفة والتي تقول أنه عندما تدخل امرأة جميلة من الباب تهرب القدرة على الحكم الصحيح من النافذة.

فإذا قررت رغم كل ذلك أن تفحص جريس ماركس في مكان إقامتها الحالي، فتكرّم باعتبار أنك قد تلقيت تحذيراً وافراً. فكثير من العقول الأكبر والأكثر حكمة قد وقعت في شرك أحابيلها، وسوف يكون من الحكمة أن تسد أذنيك بالشمع، كما جعل أوليس جنوده يفعلون للنجاة من



شراك الجنيات الفاتنات. إن جريس ماركس مجردة من الأخلاقيات كما هي مجردة من الإحساس بوخز الضمير، وسوف تستخدم أية أداة في متناول يدها.

ومن واجبي أن أنبهك إلى أنه من الممكن – بمجرد أن تضطلع بقضيتها – أن تجد نفسك محاصرًا بحشد من الرجال والنساء ذوى النوايا الحسنة، ولكنهم بلهاء، وكذلك رجال دين ممن شغلوا أنفسهم بها، وقد أضجروا الحكومة بالتماساتهم للإفراج عنها، وسوف يحاولون باسم فعل الخير أن يترصدوا لك ويجندوك. وقد حاولت مرارًا وتكرارًا طردهم وإبعادهم وأنا أخبرهم أن جريس ماركس محبوسة لسبب وجيه جدًا ألا وهو الجرائم الشريرة التي ارتكبتها، والتي ألهمت إياها شخصيتها الخبيثة وخيالها المريض. إن إطلاق سراحها بين الناس الذين لا يعرفون حقيقتها هو عمل غير مسئول إلى أقصى درجة، ولن يفيد إلا في منحها الفرصة لإرضاء ميولها الدموية.

وإننى لعلى ثقة من أنك، إذا اخترت بحث الأمر أكثر، فسوف تصل إلى نفس النتائج التى توصل إليها بالفعل.....

خادمك المطيع

دكتور طبيب/ صمويل بانرلين ج

هذا الصباح سيلتقى سايمون بالمبجل فـرينجر. وهو لقاء لا يتطلع إليه: فالرجل تلقى تعليمه في إنجلترا، ومن المحتمل أن يتكلف العظمة. ليس ثمة أحمق مثل الأحمق المتعلم، وسيضطر سايمون لاستعراض أوراق اعتماده الأوروبية، وإظهار سعة اطلاعه، وتبرير نفسه. سوف يكون لقاء مضجراً، وسيجد سايمون نفسه تغويه بالتشدد والتكلف، ويقول "في ظني أن...."، وبالتصرف حسب الطبعة الكولونيالية الإنجليزية للأمريكي الشمالي الأخرق التافه العنيد، لمجرد "جرّ الشكّل". ولكنه لابد أن يكبح نفسه، فالكثير يتوقف على سلوكه الطيب. وهو ينسى أنه لم يعد ثرياً، ولذا لم يعد حراً في التصرف وفق هواه.

يقف أمام مرآته، محاولاً ربط لفاعه. وهو يكره اللفاعات وأربطة العنق، ويتمنى أن تذهب هذه الأشياء جميعاً إلى الجحيم؛ كما يحتقر البنطلون أيضاً، وكل الملابس الضيقة "الشيك" بشكل عام. لماذا يرى الرجل المتحضر أن من اللائق تعذيب جسده بحشره داخل جاكيت ضيق كما هي الموضة الرجالي؟ ربما يكون الأمر نوعاً من كبح الجسد، كغطاء الشعر. يجب أن يولد الرجال داخل بدلة صوفية تنمو معهم على مر السنوات، ومن ثم يتجنبون التريزية بكل ما لهم من جلبه وحذقة.

ولكنه على الأقل ليس امرأة، من ثم فليس مضطراً للبس الكورسيهات، وتشويه جسده بالأربطة الضيقة. إن الفكرة الشائعة أن العمود الفقري للنساء ضعيف، وأن أجسادهن كالجيلي بطبيعتها، وأن المرأة يمكن أن تتهاوى إلى الأرض كالجبن السايح إن لم تُلف جيداً. وأمام هذه الأفكار، لا يملك إلا الازدراء. عندما كان يدرس الطب، قام بتشريح عدد لا بأس به من أجساد النساء – في غرف المعامل بالطبع – وكانت الأعمدة الفقرية وتشريح العضلات كلها، في المتوسط، ليست أضعف من مثيلتها عند الرجال، لكن الكثير منها كانت مصابة بالكُساح.

جاهد طويلاً مع لقاعه ليصل إلى ما يشبه القوس، إنه مائل، لكن هذا أفضل ما يستطيعه؛ ولم يعد في مقدوره أن يدفع أجر "لبّيس". يسرح شعره المتمرد، والذي يعود إلى التموج فوراً. يلتقط معطفه الفضفاض، ثم مظلته بعد لحظة من التفكير. هناك ضوء شمس ضعيف يشق طريقه من خلال النوافذ، ولكن الأمل في يوم خال من المطر سيكون نفاؤلاً مبالغاً فيه، فكينجستون بلد ممطر في الربيع.

يشق طريقه خلسة نازلاً السلم الأمامي، ولكنه لم يستطع إتقان التسلل، فسيدة الدار آتية لتوقفه وتحادثه في بعض الأمور التافهة، والآن تتسل من الردهة في ردائها الحريري باهت السواد ذي الياقة الدانتيل، تقبض على منديلها المعتاد في إحدى يديها الهزيلتين، وكأنما الدموع قريبة دائماً. ومن الواضح أنها كانت جميلة في يوم غير بعيد، ويمكن أن تكون جميلة بالفعل لو بذلت بعض الجهد لتبدو كذلك، وأيضاً لو كان المفرق الذي يقسم شعرها الأشقر أقل استقامة ووضوحاً. وجهها يأخذ شكل القلب،

وبشرتها كاللبن، وعيناها واسعتان ولا يمكن مقاومتها، ولكن وسطها، رغم أنه نحيل، يبدو أشبه بشيء معدني، وكأنها تستخدم بعض أنابيب المواعد القصيرة بدلاً من الكورسيه. واليوم يبدو على وجهها نفس التعبير المعتاد من القلق المتكلف، وتتبعث منها رائحة البنفسج، والكافور أيضاً. — ولا شك أنها عرضة للصداع — ورائحة أخرى لا يستطيع تحديدها. رائحة جافة دافئة. هل هي رائحة كي ملاءة كتانية بيضاء؟

وبشكل عام، يتجنب سايمون هذا النوع من النساء الواهنيات وشديدات الارتباك، رغم أن هذا النوع بالذات يجذب إلى الأطباء كما لو كان بمغناطيس. ولكن ثمة نوعاً من الجمال البسيط والصعب في هذه المرأة — كما في بيت اجتماع طائفة الكويكرز الدينية من أجل التأمل والعبادة — جمال له جاذبيته، وهي جاذبية خاصة بالذوق الجمالي فيه، والمرء لا يمارس الحب مع صرح ديني صغير للغاية.

تقول: "د. چوردان، أريد أن أسألك..." وتتردد قليلاً. بيتسم سايمون ليشجعها على المضي. "بيضتك، هذا الصباح، هل كانت كما تحب؟ هذه المرة سلقتها بنفسى".

يكذب سايمون، ولو لم يكذب لكان ذلك وقاحة لا تغتفر. يقول: "لذيذة جداً، أشكرك". والواقع أن البيضة كان لها قوام ورم مستأصل وضعه ذات مرة أحد زملائه في دراسة الطب خلسة في جيبه كنوع من المزاح — كلاهما جامد وإسفنجي في نفس الوقت. إن الأمر بحاجة إلى موهبة عنيدة لإساءة معاملة البيضة حتى تصل إلى هذه الحالة.

تقول: "إننى سعيدة جداً، إنه لمن الصعب الحصول على مساعدة مفيدة. هل أنت خارج؟"

الأمر واضح جداً، لدرجة أن سايمون لا يجيب بأكثر من هز رأسه.

تقول: "توجد رسالة أخرى لك، والخادمة وضعتها فى مكان خطأ، لكنى وجدتتها مرة أخرى. وقد وضعتها على منضدة الردهة". تقول ذلك بصوت مرتعش، وكأن أى رسالة لسايمون لابد أن تحتوى على مأساة. شفتاها مليئتان، ولكنهما هشتان كزهرة على وشك الانهيار.

يشكرها سايمون ويقول إلى اللقاء، ويلتقط رسالته — إنها من والدته — ويغادر البيت. إنه لا يحب تشجيع حوارات طويلة مع مسز همفري، فهى تشعر بالوحدة كما هو الحال مع زوجة ميچور ثمل ضال — وشعور المرأة بالوحدة كشعور الكلب بالجوع، وهو لا يرغب فى أن يكون الشخص الذى يتلقى أسرار الحسرة بعد الظهر خلف الستائر المسدلة فى الردهة.

ورغم ذلك، فهى مثيرة للاهتمام إذا نظر إليها كموضوع للدراسة. ومثلاً فكرتها عن نفسها أرقى كثيراً مما تآذن به ظروفها الحالية. ومن المؤكد أنه كانت لها مربية فى طفولتها: يدل على ذلك وضع كتفها الذى يدل على التكبر. وعندما كان يجرى الاتفاق معها بخصوص تأجير جناحه، كانت متجهمّة وشديدة الحساسية، حتى أنه شعر بأن سؤالها عما إذا كان الغسيل ضمن الاتفاق أمر محرج. وقد أوحى سلوكها بأنها ليست معتادة

على مناقشة الرجال في أشياءهم الشخصية وأحوالها، والأفضل ترك مثل هذه الأمور الشاقة للخدم.

تحدثت بوضوح، وإن بشكل غير مباشر، قالت أنها مرغمة على تأجير جزء من منزلها رغم أن ذلك ضد إرادتها. وهذه هي المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك بسبب عبء خاص بالمنزل، ولكنه من المؤكد أمر مؤقت. وفوق ذلك، كان طلبها محددًا: "سيد مهذب، هادئ الطبع، ينوى تناول وجباته في مكان آخر"، هكذا كان إعلانها. وعندما رأى سايمون الغرف التي ينوون تأجيرها وقال أنه يريد لها، بدا عليها التردد، ثم طلبت شهرين من الإيجار مقدمًا.

كان سايمون قد رأى الأماكن الأخرى المعروضة للإيجار، والتي كانت إما مرتفعة الثمن بالنسبة له، أو أكثر قذارة، ومن ثم فقد وافق. وكان المبلغ جاهزًا معه. وراقب باهتمام ما ظهر عليها من إحجام وإقبال معًا، والاحمرار العصبى الذى سببه هذا التناقض لوجنتيها. كان الأمر منفردًا بالنسبة لها، بل أقرب إلى الفضيحة، ولم تكن ترغب فى لمس النقود مباشرة، كانت تفضل أن تقدم لها فى مظروف، لكنها فى نفس الوقت كبتت نفسها عن خطفها من بين يديه.

هذا الموقف نفسه — الحياد أمام التبادل المالى، والتظاهر بأنه لم يحدث فى الواقع، ادعاء ينطوى على نهم إلى هذا التبادل — هو إلى حد بعيد نفس الموقف المميز للطبقة الأحسن من البغايا الفرنسيات، رغم أن البغايا كن أقل خرقًا فى تصرفهن. وسايمون لا يعتبر نفسه حجة فى هذه المنطقة، ولكنه ربما كان يفشل فى واجبه المهنى لو كان قد رفض

الاستفادة من الفرص التي قدمتها له أوروبا - فرص لم تكن إطلاقاً بهذه الوفرة ولا بهذا التنوع في نيو إنجلاند. فلكي يساهم في شفاء جراح البشرية، لابد أن يكون المرء على معرفة بها، ولا يمكن أن يعرفها المرء من بعيد، لابد أن يحتك بها، إذا جاز القول. وهو يعتبر سبر أعماق أغوار الحياة واجباً على من يمتهن مهنته، وهو لم يسبر الكثير جداً من هذه الأغوار بعد، لكنه على الأقل بدأ في ذلك. وبالطبع فقد اتخذ كل الاحتياطات اللازمة ضد المرضى.

خارج المنزل، يلتقى بالميجور الذي يبخلق فيه، وكأنما من خلف ضباب كثيف. عيناه ورديتان، ولفاعه معوج، وإحدى يديه عارية من قفازها. يحاول سايمون أن يتخيل نوع حفلة المجون التي كان فيها، وكم ساعة طالت. لابد أن يكون ثمة نوع من الحرية في اختيار عدم وجود سمعة طيبة يخشى المرء فقدانها. يومئ برأسه، ويرفع قبعته، ولكن رد فعل الميجور يبدو وكأنه تلقى إهانة.

يغذ سايمون السير إلى مقر المبجل ثرينجر والكائن بشوارع سيدنهام. لم يستأجر عربة، ولا حتى جواداً؛ رغم أن التكلفة لن تكون مبالغاً فيها، فكينجستون ليست بهذا الاتساع. الشوارع طينية ويتراكم في أنحائها روث الجياد، لكنه يرتدي حذاءً عالي الساق من نوع جيد.

فُتح باب المقر الرائع للمبجل ثرينجر عن امرأة لها وجه يشبه جذع الصنوبر؛ فالمبجل غير متزوج، وبحاجة لمديرة منزل لا مأخذ عليها. وأدخل سايمون إلى المكتبة. إنها نوع من المكتبة المفرطة في التأنيق حتى أن سايمون يشعر برغبة في إحراقها.

يقوم المِجَل قَرِينَجَر من مقعده المكسو بالجلد والمزود بذراعين وامتكاً للرأس، ويقدم له يدا للمصافحة. رغم أن شعره وجلده كلاهما خفيف وشاحب بنفس الدرجة، إلا أن يده قوية في المصافحة بدرجة مذهشة. ورغم فمه غير المناسب - لصغره وتدلى شفثيه - يفكر سايمون أنه يشبه فرخ الضفدع - إلا أن الأنف الروماني يدل على شخصية قوية، وكذا فإن الجبهة العالية المقببة تدل على الألمعية، وله عينان بهما بعض الجحوظ، ولكنهما تتطقان بذكاء ونظر ثاقب. لا يمكن أن يتعدى الخامسة والثلاثين، ويفكر سايمون أنه لابد ذو حسب ونسب لكي يتمكن من الصعود بهذه السرعة في المجمع الميثودي المقدس، ولكي يتوفر له مثل هذا الجمهور الكبير. وإذا أخذنا الكتب في الاعتبار، فمن المؤكد أن له مصادره المالية الخاصة. كان والد سايمون لديه مثل هذه الكتب.

"يسعدني أنك استطعت الحضور يا دكتور چوردان"، قال ذلك بصوت أقل تكلفاً مما خشى سايمون، وأكمل: "إنني ممتن لتكرمك بالحضور، لابد أن وقتك ثمين جداً". يجلسان، وتظهر القهوة، تحضرها مدبرة البيت ذات الوجه السميك على صينية بسيطة التصميم، لكنها من الفضة. صينية تنتمي للمجمع المقدس: غير مبهرجة، لكنها تدل جيداً على قيمتها.

يقول سايمون: "الأمر ذو أهمية مهنية عظيمة بالنسبة لي، فمثل هذه الحالة لا تظهر كثيراً، بكل هذه الخصائص المثيرة للاهتمام". يتكلم سايمون لو عالج شخصياً مئات الحالات. المهم هو أن يبدو مهتماً، ولكن بدون لهفة بالغة، وكأنه هو الذي يقدم معروفًا. وتتمنى أن لا يكون وجهه مضرَجًا.



يقول المبجل فرينجر: "إن تقريراً منك سوف يكون مساعدة كبيرة للجنة، إذا كان هذا التقرير يحبذ نظرية البراءة. سوف نرفقه بالتماسنا، فالسلطات الحكومية أكثر ميلاً هذه الأيام لأخذ آراء المختصين في الاعتبار". ويضيف: "وبالطبع سوف تتلقى المبلغ المتفق عليه، أيًا كانت استنتاجاتك".

"مفهوم تمامًا". يقول سايمون ذلك، وكل ما يأمل فيه أن تظهر على وجهه ابتسامة مهذبة، "أظن أنك تلقيت دراستك في إنجلترا!"

يقول المبجل فرينجر: "لقد بدأت ممارسة مهنتي كعضو في الكنيسة الرسمية، لكنني تعرضت لأزمة في الوعي. من المؤكد أن ضوء كلمة الله ورحمته متاحان لمن هم خارج الكنيسة الإنجليزية، ومن خلال وسائل أكثر مباشرة من الخدمة الكنسية".

يقول سايمون بأدب: "إنني أتمنى ذلك بكل تأكيد".

"لقد اتبع المبجل الشهير إيجرتون رايرسون من تورنتو نفس الطريق تقريبًا. وهو أحد قيادات الحملة المقامة من أجل حرية الدراسة ومن أجل إلغاء المشروبات الكحولية، وأنت طبعًا سمعت عنه".

لم يسمع عنه سايمون، فيصدر مهمة غامضة يأمل أنها تقوم مقام الموافقة.

"أنت نفسك، نا هو مذهبك؟"

يتملص سايمون: "كانت عائلة أبي تنتمي لطائفة الكويكرز،  
أما أمي فهي من اليونيتاريين". يقول المبجل قرينجر: "آه نعم، طبعًا، كل  
شيء مختلف في الولايات المتحدة". ويسود الصمت برهة، بينما يفكر  
كلاهما في الأمر. "لكنك تؤمن بخلود الروح؟"

هذا سؤال مربك، إنها المصيدة التي ربما تتسبب في إخفاق كل  
فرصة له. يقول سايمون: "أوه، نعم، بالطبع، إنه أمر لا شك فيه".

يبدو الارتياح على قرينجر: "كثير من رجال العلم يكيلون  
الشكوك. أنا أقول دائمًا دع الجسد للأطباء، ودع الروح لله. أو كما يمكن  
أن تقول اعط ما لقيصر لقيصر...".  
"طبعًا، طبعًا".

"دكتور، لقد أثنى بينسوانجر عليك كثيرًا. وكان لي شرف مقابلته  
أثناء سفرى إلى أوروبا - إن سويسرا تشد اهتمامي للغاية لأسباب  
تاريخية - وتحدثت معه عن عمله، ومن ثم كان من الطبيعي أن أستشيرهُ،  
عند بحثي عن متخصص يعتبر حجة في هذا الجانب من الأطلنطي.  
حجة... "يتردد قليلاً، "ولكن في متناول مصادرننا المالية. وقال أنك ملم  
إلمامًا كاملاً بأمراض المخ والأعصاب، وأنتك بسبيلك لأن تصبح خبيرًا  
رائدًا في فقدان الذاكرة. وهو يقول أنك ستصبح من أهم وأشهر الرجال".

يقول سايمون بصوت خافت: "إنه لكرم منه أن يقول هذا، إنها  
منطقة بحثية محيرة. لكنني نشرت ورقتين أو ثلاث ورقات في هذا  
الموضوع".

"فلنأمل أنك، بالوصول إلى نتائج في هذا البحث، سوف تزيد عدد هذه الأوراق، وسيمكنك أن تلقى ضوءًا على قضية غامضة محيرة؛ وهو أمر أثق أن المجتمع سيعترف لك به، خاصة في مثل هذه القضية الشهيرة".

يعترف سايمون لنفسه أن المجلد ثرينجر، رغم فمه الشبيه بفرخ الضفدع، إلا أنه ليس غيبًا، ومن المؤكد أنه يشم رائحة طموحات الآخرين جيدًا. هل يمكن أن يكون تحوله من الكنيسة الإنجليزية إلى المذهب الميثودي قد تصادف أن يكون في نفس وقت هبوط النجم السياسى للأولى في بلاده، وصعود نجم الثانى؟

"هل قرأت ما أرسلته لك؟"

يومئ سايمون قائلاً: "أفهم سبب حيرتك. من الصعب أن تعرف أى الروايات صادقة. وقد أدلت جريس فيما يبدو برواية أثناء التحريات، وبرواية أخرى فى المحاكمة، وبعد صدور الحكم بإعدامها أدلت برواية ثالثة. لكنها فى الروايات الثلاث أنكرت مجرد وضع إصبع على نانسى مونجمرى. ولكن أيضاً، بعد عدة سنوات، لدينا رواية مسز مودى، التى تشير إلى اعتراف جريس بارتكاب الجريمة، وهذه الرواية تتوافق مع الكلمات التى قالها جيمس مكدرموت قبل إعدامه مباشرة. ورغم ذلك، فإنك تقول أنها منذ عودتها من المصحة تنكر ذلك".

يرتشف المجلد ثرينجر من قهوته، ويقول: "إنها تنكر أنها تتذكرها".

يقول سايمون: "آه، نعم، تنكر أنها تتذكرها! المعنى يختلف".

ويقول المبجل قرينجر: "من الممكن أن يكون آخرون قد أقنعوها بأنها فعلت شيئاً هي بريئة منه. وهذا أمر حدث مثله من قبل. لقد جاء ما يسمى بالاعتراف في الإصلاحية، والذي وصفته مسز مودي وصفاً أضفى عليه واقعية بعد عدة سنوات من السجن، وخلال الفترة الطويلة التي كان فيها سميث هو المحافظ. وكان الرجل مشهوراً بالفساد، وبعدم صلاحيته لموقعه. وقد اتهم بتصرفات صادمة للغاية ومتسمة بالقسوة، وعلى سبيل المثال، سمح لابنه باستخدام المحكوم عليهم كهدف للتدريب على الرماية، وفي إحدى المرات فقأ عين أحدهم بالفعل. وهناك كلام حول مضايقاته للسجينات أيضاً، بطرق يمكنك أن تتخيلها، وأخشى أن لا يكون هناك شك في هذا الأمر؛ فقد أجرى تحقيق كامل. وأعتقد أن فترة خروج جريس ماركس عن العقل ترجع إلى إساءة معاملتها على يديه."

يقول سايمون: "هناك من ينكر أنها كانت مجنونة جنوناً حقيقياً."

بيتسم المبجل: "لأبد أنك سمعت رأي د. بانرلينج على ما أظن. لقد كان ضدها منذ البداية. لقد ناشدناه نحن أعضاء اللجنة أن يكتب تقريراً يؤيدنا فيه — فمثل هذا التقرير منه كان يمكن أن يكون نقيساً للغاية بالنسبة لقضيتنا — لكنه لا يلين. فهو من مؤيدي حزب المحافظين — من أكثرهم تشدداً — ولو ترك لأهوائه لكان ممكناً أن يسلسل كل المجانين المساكين لأنفه الأسباب، وأن يشنق من ينظر إلى جانبه. يؤسفني أنني اعتبره جانباً من النظام الفاسد الذي كان مسئولاً عن تعيين شخص قذ دس مثل ائمحافظ سميث. وأعرف أنه أيضاً كانت هناك مخالقات للنظام في المصلحة — مخالقات تصل لدرجة أن جريس ماركس عند عودتها منها كان ثمة شك في أن تكون حاملاً، ثم ثبت أنها إشاعة كاذبة. ولكن، يا له من جبان، يا له

من فظ! أن يحاول استغلال من لا يملكون أمرهم في يدهم! لقد قضيت وقتنا طويلاً في صلاة مع جريس ماركس، محاولاً شفاء الجراح التي تسبب فيها هؤلاء المومون غير المؤمنين، هؤلاء الذين خانوا ثقة الناس."

يقول سايمون: "أمر يدعو للثناء". وخشى أن يعتبره المبجل فرينجر شديد التلهف إذا سأل عن معلومات أخرى.

وفجأة تبرق في ذهنه فكرة أن المبجل فرينجر واقع في حب جريس ماركس! هذا يفسر نغمته وحماسه المتقد، ومثابرتة، والتماساته الدعوية ولجانه المجتهدة؛ وفوق كل ذلك، رغبته في تصديق براءتها. هل يرغب في تخليصها من السجن، مع التدليل على براءتها بلا شائبة، ثم يتخذها زوجة لنفسه؟ إنها لا تزال امرأة جذابة، وسوف تكون بلا شك ممتنة لمنقذها. ممتنة لدرجة الذل. والعرفان الذليل في الزوجة هو، بلا شك، صفة أساسية في تبادل المشاعر الروحية عند فرينجر.

يقول المبجل فرينجر: "من حسن الحظ أنه حدث تغيير في الحكومة، ولكننا، مع ذلك، لا نرغب في الاستمرار في التماسنا الحالي حتى نثق بأننا على أرض ثابتة؛ ولهذا اتخذنا هذه الخطوة باستقدامك. ويجب أن أخبرك بصراحة أن أعضاء اللجنة ليسوا جميعاً محبذين لهذه الخطوة، لكنني نجحت في إقناعهم بحاجتنا لرأى علمي وموضوعي، أو تشخيص بحالة من الجنون المستتر وقت ارتكاب الجريمة مثلاً - ومع ذلك، يجب تحري غاية الحذر والأمانة المطلقة. الناس ما زال ينتشر بينهم شعور معاد لجريس ماركس، وهذا بلد شديد التحزب. ويبدو أن المنتمين لحزب المحافظين يخلطون بين جريس والقضية الأيرلندية، رغم أنها بروتستانتية، ويعتبرون قتل سيد واحد ممن ينتمون إلى المحافظين

– بصرف النظر عن قيمة هذا السيد، وبصرف النظر عن مدى بشاعة الجريمة – مساوياً لعصيان عرقى مسلح".

يقول سايمون بلباقة: "الصراع الحزبي بلاء في كل البلدان".

فيقول المبجل ثرينجر: "حتى بعيداً عن ذلك، نجد أننا نقع فريسة بين فكرة أن هناك امرأة بريئة يعتقد الكثيرون أنها مذنبه، أو امرأة مذنبه يعتقد البعض أنها بريئة. ونحن لا نريد أن نعطي أعداء الإصلاح فرصة للشماتة بنا. ولكن، كما يقول المسيح: "تعرفون الحق والحق يحرركم". (\*)

يقول سايمون: "ربما يظهر أن الحقيقة أغرب مما نظن. وربما نكون أقرب لما اعتدنا على تسميته بالشر، والاختيار الحر للشر هو على العكس مرض يرجع إلى علة في الجهاز العصبي، وربما يتضح أن الشيطان نفسه هو مجرد تشوه في المخ".

ويبتسم المبجل ثرينجر قائلاً: "أوه، أشك أن الأمر يمكن أن يصل إلى هذا الحد، مهما بلغ العلم من تقدم في المستقبل، فالشيطان عموماً سيظل موجوداً. أعتقد أنك قد دُعيت إلى منزل المحافظ بعد ظهر الأحد؟"

يقول سايمون بأدب: "لقد نلت هذا الشرف"، وكان يتهاى للاستئذان.

فيقول المبجل ثرينجر: "إنني أتطلع لرؤيتك هناك. لقد أعددت بنفسى بطاقة الدعوة لك. إن زوجة المحافظ سيدة ممتازة، وهي عضو ثمين في لجنتنا."

---

(\*) يوحنا، ٨: ٣٣.

فى بيت المحافظ، تم توجيه سايمون إلى الردهة التى كانت كبيرة بما يكفى لتسميتها غرفة استقبال. لم يكن هناك سطح إلا وقد تمت تغطيته بقماش منجد، وبألوان تماثل الألوان الداخلىة للجسم - الأحمر الداكن بلون الكلى، والأرجوانى الضارب إلى الحمرة كلون القلوب، والأزرق المعتم كلون الأوردة، واللون العاجى كلون الأسنان والعظام. يتخيل سايمون الإحساس الذى قد يثيره إعلان مثل هذه الرؤية على الملأ.

استقبلته زوجة المحافظ بالتحية. إنها سيدة وسيمة فى حوالى الخامسة والأربعين، وواضح أنها جديرة بالاحترام، لكنها تلبس بالطريقة الصاخبة المنتشرة فى الأقاليم، حيث يبدو أن النساء يشعرن بأنه لو كان صف من الدانتيل والكشكشة جميلاً، فإن ثلاثة صفوف لابد أن تكون أجمل. ولها تلك النظرة الحذرة من عينين بهما بعض الجحوظ، النظرة التى تميز طبيعة عصبية صارمة أو مرضاً فى الغدة الدرقيّة.

تقول له: "يسعدنى أنك استطعت الحضور". وتخبره بأن المحافظ بكل أسف قد اضطر للخروج إلى عمل، وأنها هى نفسها مهتمة للغاية بالعمل الذى يقوم به. إنها تكن احتراماً عظيماً للعلم الحديث، وخاصة الطب الحديث الذى حدث فيه تقدم كبير. وخصوصاً مادة الإتيير، التى كفت

الناس شرورًا كثيرة. تحقق إليه بنظرة عميقة مليئة بالمعاني، ويتهدد سايمون في سره، فهذا التعبير مألوف لديه: إنها على وشك أن تقدم له هدية لم يسع إليها عن أعراض حالتها.

في بداية حصوله على شهادته الطبية، لم يكن مُعدًّا لمواجهة تأثيرها على النساء، نساء الطبقات الأرقى، خاصة السيدات المتزوجات ذوات السمعة الطيبة. فقد بدا أنهن ينجذبن إليه كما لو كان يمتلك كنزًا لعينا وإن كان لا يقدر بثمن. وكان اهتمامهن بريئًا — فلم يكن لدى أي منهن نية التضحية بعفافها له — ومع ذلك فقد كن تواقات لجذبه نحو ركن خافت الضوء، والحديث إليه بأصوات خفيضة، وأن يمنحنه ثقتهم، بهيبة وبرعشة، لأنه أيضًا يخلق فيهن خوفًا. فماذا كان سر فتنته؟ إن الوجه الذي يراه في المرأة ليس قبيحًا ولا جذابًا، ومن الصعب أن يكون هو سبب هذه الفتنة.

بعد مرور وقت خيّل إليه أنه يعرف. إنها المعرفة التي يشتهينها، ولكنهن لا يستطعن السماح لأنفسهن بأشتهائهن، لأنها معرفة محرمة — معرفة لها وهج صارخ، معرفة لا سبيل إليها إلا بالنزول في بئر عميق. إنه في المكان الذي لا يمكنهن الوصول إليه أبدًا، ورأى ما لا يمكنهن رؤيته أبدًا، لقد فتح أجساد نساء، ونظر بداخلها. ويده التي رفع بها حالاً أيديهن إلى فمه ليقبلها، ربما حملت يوما قلبًا أنثويًا نابضًا.

وهكذا، فهو واحد من الثالوث الغامض: الطبيب، القاضي، الجلاد. وهو يشترك مع هذا الثالوث في امتلاكه لقوى الحياة والموت. الاستسلام بلا وعي، الرقود في حالة عرى بلا خجل، تحت رحمة الآخرين. لمس أجسادهن، شقها، سلبها، إعادة تشكيلها — هذا هو ما يفكرن



فيه عندما ينظرن إليه، بعيون مفتوحة على آخرها، وشففتين متباعدين بعض التباعد.

يبدأ صوت زوجة المحافظ يصل إلى سمعه: "إننى أعانى بشدة". وبخجل، وكأنها تكشف له عن كاحلها، تروى له أعراض معاناتها - سرعة فى التنفس، وشعور بضيق حول ضلوعها - ثم تلمح إلى أعراض أخرى أقوى تلى ذلك، فهى تشعر بألم - حسنا، إنها لا تحب أن تقول موضعه بالتحديد. فماذا يمكن أن يكون السبب.

يبتسم سايمون، ويقول أنه لم يعد يمارس الطب العام.

بعد لحظة عبوس محبط، تبتسم زوجة المحافظ أيضا، وتقول أنها تريد تقديمه إلى مسز كوينل، الروحانية الشهيرة والمدافعة عن قضايا المرأة على نطاق واسع، والضوء الهادئ لدائرة النقاش الأسبوعية كل ثلاثاء، وكذلك للجلسات الروحانية كل خميس، وهى شخصية مهذبة ومتقفة سافرت كثيرا، إلى بوسطن وغيرها. وتبدو مسز كوينل، والتي ترتدى تنورة ضخمة منقوشة بالكرينولين، أشبه بكريم بافارى بلون اللافندر، وتغطى رأسها بقبعة تشبه كلب كانيش رمادى صغير. وهى بدورها تقدم سايمون إلى د. جيروم دو بونت، من نيويورك، الذى يزور البلدة فى الوقت الحالى، والذى وعد بعمل استعراض لقواه الفريدة. تقول مسز كوينل أنه معروف جيدا، وأنه كان فى ضيافة العائلة الملكية فى إنجلترا. أو، ليس العائلة الملكية بالضبط، ولكن العائلات الأرستقراطية، ولا فرق.

يتساءل سايمون بأدب: "قوى فريدة؟". إنه يرغب فى معرفة ماهية هذه القوى الفريدة. ربما يدعى الرجل أنه قادر على رفع الأشياء فى الهواء، أو أنه يمكنه بعث روح هندى ميت، أو أن يسمعنا طرقات

الأرواح، مثل أخوات فوكس الشهيرات. فالروحانيات هي جنون الطبقات الوسطى، خاصة النساء؛ يجتمعن في الغرف المظلمة ويلعبن بالورق على مائدة مائلة، بنفس الطريقة التي كانت تفعلها جداتهن، أو يصدرن كتابات آلية بحروف كبيرة الحجم أملاها عليهن مونتسارت أو شكسبير. ويفكر سايمون أن الموتى، على أية حال، لهم تأثير موهن للغاية على أسلوب كتابة المرء، وإذا لم يكن هؤلاء الناس موسرين للغاية لاعتبرت سلوكياتهم إدامة. والأسوأ من هذا أنهم يملأون غرف استقبالهم بالدرابيش والمشعودين كلهم ملفوفون في أردية قذرة تعلن عن شبهة قداسة في ذاتها، ورغم ذلك فإن آداب المجتمع تملى على المرء أن يكون مهذبًا معهم.

والدكتور جيروم دو بونت لديه عينان صافيتان عميقتان ونظرة حادة كما هو الحال مع دجال محترف؛ لكنه يبتسم بأسى، ويهز كتفيه بلا مبالاة. يقول: "أخشى ألا تكون هذه القوى فريدة جدًا"، ويحمل صوته أثر لكنة أجنبية "مثل هذه الأشياء هي مجرد لغة أخرى إذا كان المرء على إلمام بها، فهي أمر مسلم به، لكن الآخرين هم الذين يجدونها فريدة".

يسأل سايمون، وشفته تخرجان: "هل تتحدث مع الموتى؟"

يبتسم د. دو بونت قائلاً: "لست أنا، أنا شخص يمكنك أن تسميه "ممارس طبي"، أو "باحث علمي"، مثلك أنت. أنا ممارس للتويم العصبى من مدرسة جيمس بريد."

يقول سايمون: "لقد سمعت به، إنه إسكتلندى، أليس كذلك؟ وأعتقد أنه حجة في التسواء القدم وحول العينين. لكن من المؤكد أن الطب لا يعترف بادعاءاته الأخرى. أليس هذا التويم العصبى هو مجرد إحياء

الذاكرة الميتة سينة السمعة الخاصة بالمغناطيسية الحيوانية، أو بعبارة أخرى، التتويم المغناطيسي عند "مِسْمَر"؟ (\*)

يقول د. دو بونت: "لقد وضع مِسْمَر مجالاً مغناطيسياً يحيط بالجسد، وكان ذلك خطأ بالتأكيد. لكن طرق بريد تختص بالجهاز العصبى وحده. ويمكننى أن أضيف أن أولئك الذين يعترضون على طريقته لم يجربوها. وهذه الطرق مقبولة أكثر فى فرنسا، حيث الأطباء أقل عرضة لهجوم المعتقدات الجامدة. وهى طرق أكثر نفعاً فى حالات الميسترىا عن غيرها من الحالات، وبالطبع لن تفيد كثيراً فى حالة كسر فى الساق، لكن فى حالة فقدان الذاكرة ...". - ويبتسم ابتسامة واهنة وهو يواصل - "فقد جاء بنتائج مذهلة، بل وسريعة جداً".

يشعر سايمون أنه سيخسر النقاش، فيغير الموضوع: "دو بونت - اسم فرنسي؟"

يقول دو بونت: "العائلة كانت بروتستانتية فرنسية، ولكن هذا من جانب الأب فقط، أبى، الذى كان من هواة الكيمياء. أما أنا نفسى فأمرىكى. ولكننى بالطبع زرت فرنسا لدواعٍ مهنية".

تقول مسز كوينل مقاطعة: "ربما يود د. چوردان أن يكون عضواً فى مجموعتنا، فى جلسات الخميس الروحية. إن زوجة المحافظ العزيزة تجد راحة نفسية كبيرة فى هذه الجلسات، حيث تعرف أن صغيرها،

---

(\*) "مِسْمَر" Mesmer (1734-1815) عالم عاش فى نهاية القرن التاسع عشر، آمن بالتتويم المغناطيسى كطريقة لعلاج الأمراض النفسية، واشتهر بشدة حتى أطلق اسمه على التتويم المغناطيسى فى ذلك الوقت (المسمرية mesmerism)، وكان من المراجع التى استفاد منها فرويد.

الذى فى العالم الآخر الآن، سعيد وفى خير حال. إننى واثقة أن د. چوردان ذو فلسفة تميل إلى الشك، لكننا دائماً نرحب بأصحاب فلسفة الشك". وتتألق العينان الصغيرتان المرحتان تحت الشعر المزدان بقبعة الكلب الكانىش.

يقول سايمون: "لست شكاكاً، أنا فقط طبيب". فليست لديه النية لأن يُجرَّ إلى هراء سخيّف كحل وسط. ويتعجب فيم يفكر فرينجر عندما يقبل مثل تلك المرأة ضمن لجنته. من المؤكد أنها ثرية.

يقول دو بونت: "أيها الطبيب، عالج نفسك". ويبدو كما لو أنه يحاول المزاح.

تقول مسز كوينل: "ما هو موقفك من قضية تحرير العبيد يا د. چوردان؟". تتحول المرأة الآن لتمثيل دور المتفكّة، وسوف تصر على خوض مناقشة حامية فى السياسة، ومما لا شك فيه سوف تأمره بإلغاء العبودية فى الجنوب حالياً. ويرى سايمون أن اعتباره متهمًا، بشكل شخصى، بكل آثام بلاده أمر متعب، خاصة عندما يكون الاتهام موجهاً من هؤلاء المرتدين لعباءة إنجلترا، الذين يبدو أنهم يظنون أن إحساساً جيداً عليهم بصحوة الضمير يعفيهم من انعدام الضمير تماماً قبل ذلك. فمن أين جاءت ثرواتهم الحالية إلا من تجارة العبيد؛ وعلى أى نحو كان من الممكن أن تصبح مدنهم الكبرى دون قطن الجنوب؟

يقول: "كان جدى ينتمى لجماعة الكويكرز الدينية، وعندما كنت طفلاً، علمونى ألا أفتح أبواب الدواليب، فربما يكون أحد الهاربين الفقراء قد لجأ إلى الاختباء بها. وكان يؤمن دائماً أن الأفضل له أن يجازف بسلامته الشخصية ولا يكون ككلب يعوى على الآخرين من خلف سور يحميه".

تقول مسز كوينل بمرح: "إن جدارًا حجريًا ليس بالضرورة سجنًا".

يقول دو بونت: "لكن يجب على العلماء أن يكونوا ذوى عقلية متحررة." ويبدو أنه عاد إلى المناقشة السابقة.

تقول مسز كوينل: "أنا متأكدة أن عقل د. چوردان منفتح كالكتاب، لقد قيل لنا أنك تفحص فتاتنا جريس، من وجهة نظر روحية."

أدرك سايمون أنه لو حاول شرح الفارق بين الروح، بالمعنى الذى تفهمه هي، والعقل الباطن بمفهومه الشخصى، سوف يتورط تورطاً لا حل له، ولذا فهو يبتسم ويومئ برأسه.

يقول د. دو بونت: "وما السبيل الذى تتخذه لاستعادة ذاكرتها المفقودة؟"

يقول سايمون: "لقد بدأت بطريقة تعتمد على الإيحاء ووصل الأفكار. وأحاول، برقة وعلى درجات صغيرة، أن أعيد ترتيب تسلسل الأفكار الذى حدث به انقطاع وتشوش، ربما بسبب الصدمة الناتجة عن الأحداث العنيفة التى عاشتها."

ثم يقول د. دو بونت بابتسامة متعالية: "آه، البطاء مع الثبات يكسب السباق!". ويتمنى سايمون لو يركله.

وتقول مسز كوينل: "إننا جميعًا، أعضاء اللجنة، واثقون من براءتها! إننا مقتنعون بهذه البراءة! ويقدم المبجل فرينجر التماسًا، وهو ليس الأول، لكننا نأمل أن ننجح هذه المرة. إن شعارنا هو 'دقة أخرى على الشق يفتح'". وتهتز بطريقة صبيانية وهى تكمل: "قل أنك فى جانبنا!"

يقول د. دو بونت بوقار: "إذا لم تتجح من البداية..."

فيقول سايمون: "إنني لم أصل إلى نتائج بعد، وعلى كل حال فلست أهتم كثيراً بكونها مذنبة أو بريئة... بل..."

يقول د. دو بونت: "بل باليات العمل".

فيقول سايمون: "لا أقصد ذلك بالضبط".

"ليس النغمة التي تخرج من الصندوق الموسيقي بل التروس والعجلات التي بداخله هي ما يهيك".

يقول سايمون، الذي بدأ يجد د. دو بونت مثيراً للاهتمام: "وأنت؟"

فيقول دو بونت: "آه، بالنسبة لي ليس حتى الصندوق هو المهم، بكل ما تحمله جوانبه من صور جميلة. بالنسبة لي، المهم فقط هو الموسيقى. الموسيقى يصدرها جسم مادي ملموس، ولكنها ليست ملموسة. كما يقول الكتاب المقدس: "الريح تهب حيث تشاء". (\*)

تقول مسز كوينل: "ويقول القديس يوحنا 'والمولود من الروح هو روح'، ويقول دو بونت: "و'المولود من الجسد جسّد هو'". (\*) يتمن فيه الاثنان بشعور متدفق من الانتصار وإن كان انتصاراً لا يُرد، ويشعر سايمون كما لو كان يختنق تحت حشية ثقيلة.

(\*) يوحنا، ٨:٣.

(\*) الأصل في الكتاب المقدس "المولود من الجسد جسّد هو"، والمولود من الروح هو روح"، يوحنا، ٣ : ٦ .

ويأتى صوت ناعم من تحت إبطه: "د. چوردان...."، إنها الأنسة ليديا، إحدى ابنتى زوجة المحافظ، "ماما أرسلتني لأسألك إن كنت رأيت دفتر قصاصاتها".

يشكر سايمون مضيفته فى داخله، ويقول أنه لم يحظ بهذه المتعة. إن صور الحفر الداكنة للمناظر الجميلة فى أوروبا، وقد زينت حوافها بورق مزين بأوراق السرخس، ليست شيئاً جذاباً له فى العادة، ولكنها فى اللحظة الراهنة تشير إلى مهرب. يتسم ويومئ برأسه، وتقوده الفتاة بعيداً عنهما.

تجلسه الأنسة ليديا على مقعد ذى لسان ملون، ثم تحضر له كتاباً ثقيلاً من فوق المنضدة المجاورة وتجلس بجانبه: "إنها تعتقد أنك ستجده ذا أهمية، بالنسبة لما تفعله مع جريس".

يقول سايمون: "حقاً؟"

تشرح الأنسة ليديا: "إنه يحتوى على كل جرائم القتل الشهيرة، تقصها والدتى من الصحف وتلصقها فيه، وكذلك تنفيذ أحكام الشنق". يتساءل سايمون: "صحيح؟". لابد أن المرأة غولة، فضلاً عن وساوسها المرضية.

تقول ليديا: "إنه يساعدها على معرفة مَنْ من السجناء يستحقون أن يكونوا موضع عطفها ... ها هى جريس". تفتح الكتاب على حجريهما وتميل ناحيته، لتمده بالمعلومات الخطيرة "إننى أجدها مثيرة للاهتمام؛ فلديها قدرات فريدة".

فيقول سايمون: "مثل د. دو بونت؟"

تحقق الأنسة ليديا في دهشة: "أوه، لا، أنا لا أهتم بأى من هذه الأشياء، ولن أسمح لنفسى أبداً بأن أنوم مغناطيسيًا، إنه نوع من الادعاء! إننى أقصد أن جريس لديها قدرات فريدة فى صناعة الملابس."

يفكر سايمون: إنها تتصف ببعض الطيش، وعندما تبتم تبدو أسنانها العلوية والسفلية معًا. ولكنها على الأقل تتميز بعقلية صحية، على عكس أمها. حيوان صغير موفور الصحة. وينتبه سايمون إلى عنقها الأبيض، المحاط بشريط متواضع تزينه جوهرة صغيرة كبرعم ورد بشكل يناسب فتاة غير متزوجة. يضغط ذراعها على ذراعه، من تحت طبقات من الأقمشة الرقيقة، وهو ليس كتلة جامدة بلا مشاعر. ورغم أن الأنسة ليديا تتصف حتمًا بشخصية طفولية ولم تتشكل بعد، مثل قريناتها من الفتيات، فإن لها خصرًا نحيلًا جدًا. وتفوح منها سحابة عطرية تغلفه بغلالة رقيقة من عطر "زنبق الوادى".

ولكن الأنسة ليديا لا تعي، حتمًا، تأثيرها عليه، فلا بد أنها تجهل طبيعة مثل هذا التأثير. يعقد ساقيه.

تقول الأنسة ليديا: "ها هو مشهد إعدام جيمس مكدرموت. لقد نُشر فى جرائد عديدة، وهنا كما نشرته جريدة "ذا إجازامينر".

يقرأ سايمون:

لابد أن المجتمع يتسم بشهية مريضة لمثل هذه المشاهد. عندما يجتمع مثل هذا الحشد الكبير،



والشوارع فى هذه الحالة السيئة، ليشاهد آلام  
احتضار إنسان سيئ الحظ رغم أنه مجرم! هل  
يمكننا أن نفترض أن مثل هذه المشاهد قد حسنت  
من أخلاقيات العامة، أو أنها أخدمت الاتجاه إلى  
ارتكاب الجرائم البشعة؟

يقول سايمون: "إننى أميل إلى الاتفاق مع هذا الكلام."

وتقول الأنسة ليديا: "لو كنت موجودة لحضرت، ألا تفعل نفس

الشيء؟"

بُهِت سايمون بهذه الصراحة. إنه لا يوافق على الإعدام العلنى  
أمام العامة، فهو نوع من الإثارة غير الصحية، وينتج عنه خيالات مريضة  
متعطشة للدماء فى بعض العامة ذوى العقول الضعيفة. لكنه يعرف نفسه؛  
وإذا أتاحت له الفرصة فإن الفضول سيتغلب على وخزات ضميره. ويقول  
بحذر: "فى نطاق اهتمامى المهنى، ربما أذهب. لكننى إذا كانت لى أخت،  
فما كنت لأسمح لها بالحضور."

تتسع عينا الأنسة ليديا: "ولم لا؟"

يقول: "يجب ألا تحضر النساء مثل هذه المشاهد المخيفة، فهى  
تمثل خطراً على طبائهن المهذبة الرفيعة". ويشعر بما فى قوله من  
سخافة.

طالما التقى بنساء فى أسفاره من الصعب إصاق تهمة "الطبائع  
المهذبة الرفيعة" بهن. رأى نساء فقدن عقولهن يمزقن ثيابهن ويعرضن  
أجسادهن عارية؛ ورأى عاهرات وضيعات للغاية يفعلن نفس الشيء.  
ورأى نساء ثملات يتلفظن بأقبح السباب، ويتعاركن معاً كالمصارعين، تشد

الواحدة شعر الأخرى. تمتلئ شوارع لندن وباريس بهذه النسوة؛ عرف أن الواحدة منهن قد تدمر أطفالها، وتبيع بناتها للرجال الأغنياء الذين يظنون أن اغتصاب طفلة يجنبهم الأمراض الجنسية. إنه لا يعيش في وهم أن الطبائع المهذبة متأصلة في النساء، لكنه من باب الحذر يفكر أن يصون نقاء من لا تزال نقية. وفي هذه الحالة، فإنه يرى الرياء مبرراً: على المرء أن يقدم ما يجب أن يكون على أنه الواقع.

تسأل الأنسة ليديا: "هل تعتقد أن لي طبعاً مهذباً ربيعاً؟"

يقول سايمون: "أنا واثق من هذا". ويتساءل في نفسه إن كان هذا فخذها الملتصق به أم هو فقط بعض ثوبها.

وتقول الأنسة ليديا: "أحياناً لا أشعر بهذه الثقة في نفسي. وهناك من يقولون أن الأنسة فلورنس نايتجيل لا تتصف بهذه الطبائع المهذبة، وإلا ما استطاعت أن تنظر إلى مثل هذه المشاهد البشعة دون أن تؤذي صحتها، لكنها بطلة".

فيقول سايمون: "ما من شك في هذا".

ويشعر بالارتياح في أنها تناغشه، وهو أمر ليس كريهاً بالمرّة، لكنه على عكس المطلوب، يذكره بوالدته. كم من بنات لطيفات ساقتهن أمامه بدهاء، كطعوم صيد سمك مغطاة بالريش للتمويه. ودائماً ما كانت تعد المكان بحيث تجلس الفتاة المقصودة بجوار إناء مليء بالزهور البيضاء. لا يمكن أن يرى في أخلاقهن عيباً، سلوكياتهن تتصف بالإخلاص والبراءة كميّاه الينابيع، وتقدم إليه عقولهن كقطع من العجين من حقه وحده صياغتها وتشكيلها. فما أن تتقدم حصيلة موسم واحد من الفتيات إلى

مرحلة الخطبة والزواج، حتى تبدأ البنات الأصغر بالتبرعم والتفتح مثل زهور التيوليب في شهر مايو، وهن في الوقت الراهن صغيرات بالنسبة لسايمون حتى أنه لا يستطيع الحديث معهن؛ فالأمر يبدو وكأنك تتحدث إلى سلة مليئة بالقطيطات.

لكن أمه كانت دائماً تخطط بين الشباب والقابلية للتطويع، إن ما تريده في الواقع هو زوجة ابن يمكن أن تشكلها هي بنفسها، وليس سايمون؛ ولهذا تستمر الفتيات في المرور متهاديات أمامه، ويستمر هو في التلفت بلا مبالاة، وتستمر أمه، برقة، في اتهامه بالكسل وعدم العرفان. وهو يؤنب نفسه على هذا، فهو كلب حزين وسمكة باردة – ويهتم بأن يشكر أمه على الأمها، وأن يؤكد لها المرة تلو المرة أنه سوف يتزوج في النهاية، غير أنه ليس مستعداً بعد. فهو لا بد أن يستكمل أبحاثه أولاً، لا بد أن يحقق لنفسه قيمة ما، أن يكتشف شيئاً يستحق الذكر، أن يصنع اسمه.

تنتهد أمه لائمة، إن له اسماً بالفعل، اسم جيد للغاية، وهو ينوى فيما يبدو أن يبده برفضه الزواج بدلاً من نقله إلى ابن له. وهنا تسعل قليلاً، في العادة، لتذكره بأن ولادته كانت صعبة، كادت تقتلها، وتسببت في ضعف شديد لرئتيها – وهو أمر غير مقنع طبيياً، ولكنه أثناء طفولته كان يسبب له شعوراً عميقاً بالذنب. وتستمر قائلة أنه لو أنجب ابناً واحداً فحسب – بعد أن يتزوج أولاً بالطبع – فسوف تموت سعيدة. ولكنه يمزح معها قائلاً أنه في هذه الحالة سوف يكون مذنباً لو تزوج في يوم من الأيام، حيث أن زواجه سيكون نوعاً من القتل لأمه؛ ويضيف – ليرقق من فظاظة

تعبيره - أن وجود الأم أفضل كثيراً بالنسبة له من الزوجة، وخاصة إذا كانت أمًا كاملة الأوصاف مثلها؛ ولدى هذا القول ترمقه بنظرة حادة يفهم منها أنها تعرف حيلًا كثيرة كل منها تساوى ضعف حيلته هذه، فهي لن تتخدع بها. وتقول أنه أذكى كثيرًا من أن يعرفه أحد بمصلحته، ولكنه يتعين عليه ألا يظن أنه يستطيع اللف والدوران عليها. لكنها تلين.

أحيانًا يميل للاستسلام. يمكنه اختيار واحدة من السيدات الشابات المعروضات عليه، أكثرهن ثراء، سوف تصبح حياته اليومية منظمة، وسيكون إفطاره صالحًا للأكل، وسيكون له أطفال محترمون. وسوف يقومان بفعل التنازل في سرية، مستترًا ومتحفظًا - هي، مطيعة ولكن مع التمتع وإظهار عدم الرضا؛ وهو، باعتباره صاحب الحقوق - ولكنهما لن يحتاجا لذكر ذلك أبدًا. وسوف يكون في بيته كل وسائل الرفاهية الحديثة، وهو نفسه سيعيش في رغد. على أية حال، هناك مصائر أسوأ من ذلك.

وتقول الأنسة ليديا: "هل تظن أن جريس تتمتع بطبائع لطيفة مهذبة؟ إنني واثقة من أنها لم ترتكب جريمتي القتل رغم أنها تشعر بالندم لأنها لم تخبر أحدًا عنهما بعد حدوثهما. لابد أن جيمس مكرموت كذب بشأنها، لكنهم يقولون أنها كانت عشيقته، هل هذا صحيح؟"

يشعر سايمون بوجهه يحمر. إذا كانت تحاول مغالته، فهذا عن غير وعي منها. إنها شديدة البراءة حتى أنها لا تفهم ما يفنقذ البراءة. ويتمتم قائلاً: "لا أعرف."

تقول الأنسة ليديا: "ربما اختطفها عنوة". يبدو صوتها حالماً فى الكتب دائماً ما تختطف امرأة عنوة، لكننى لم أقابل شخصياً امرأة حدث معها ذلك، هل قابلت أنت؟"

يقول سايمون أنه لم يمر أبداً بهذه التجربة.

تقول الأنسة ليديا بصوت خفيض: "إنهم يقطعون رأسه، أعنى مكرموت. وهم يحتفظون بها فى زجاجة بالجامعة فى تورنتو".

يقول سايمون وقد عاد إليه ارتبائه وتحيره: "لا بالتأكيد. ربما يمكنهم حفظ الجمجمة، أما الرأس كله فلا!"

تقول الأنسة ليديا باقتناع: "مثل قطعة كبيرة من المخلل". ثم تضيف "أوه، ماما تريدنى أن أذهب وأتحدث مع المبجل فرينجر. إننى أفضل الكلام معك، فهو تربوى للغاية. وهى تظن أن الحديث معه أفضل لتربيتى الأخلاقية."

والواقع أن المبجل فرينجر قد دخل لتوه إلى الغرفة، وبيتسم لسايمون ابتسامة خيرة بشكل يغيظ، وكأنه يتصدق عليه. أو ربما هو يقصد ليديا بابتسامته.

يتأمل سايمون ليديا وهى تنساب عبر الغرفة؛ إن لها تلك المشية الزلقة التى يعلمونها للبنات. وإذ بقى مع نفسه على الأريكة، يجد نفسه يفكر فى جريس، كما يراها فى كل يوم من أيام الأسبوع جالسة أمامه فى غرفة الخياطة. وجهها يبدو أكبر سناً من الحقيقة، ولكنها الآن تبدو أصغر. بشرتها شاحبة، ناعمة وخالية من التجاعيد، وتبدو شديدة النعومة، ربما

لأنها ظلت حبيسة لا تخرج، أو ربما كان السبب هو وجبات السجن القليلة. إنها الآن أكثر نحافة، وجهها أقل امتلاء، ورغم أن الصورة تظهرها امرأة جميلة، فهي الآن أكثر جمالاً. أو هو شيء آخر غير الجمال. إن لخطوط وجنتيها بساطة مرمرية فريدة؛ والنظر إليها يقنع المرء بأن المعاناة تطهر النفس بالفعل.

ولكن، في تقارب المسافة في غرفة الخياطة، يمكن لسايمون أن يشم رائحتها كما ينظر إليها، ويحاول ألا يهتم، لكن الرائحة تسرى في تيار خفي يربكه. تفوح منها رائحة الدخان، وصابون المغسلة، وعرقها المملح، تفوح منها رائحة البشرة نفسها مع إحياء بالرطوبة، والاكتمال، والنضج — أية روائح؟ نباتات الفوجير والفطر، الفواكه المسحوقة والمتخمرة. ويتسائل في نفسه كم مرة يُسمح للسجينات بالاستحمام. ورغم أن شعرها مضاف ومعقوص تحت القنسوة، فإن له رائحة قوية أيضاً، رائحة مسك قوى لفروة رأس. إنه في حضرة أنثى حيوان، أشبه بأنثى ثعلب متأهبة للخطر. ويشعر بتأهب مقابل يسرى تحت جلده، وكأن شعره يقف، وأحياناً يشعر وكأنه يمشى على رمال متحركة.

في كل مرة كان يضع شيئاً صغيراً أمامها، ويسألها ماذا يثير ذلك في خيالها. وفي هذا الأسبوع اقترب منها بعدة أنواع من جذور الخضر، أملاً في وجود صلة تؤدي إلى تداعيات: البنجر — جذر تحت الأرض — يذكر مثلاً بالجثث؛ أو اللفت — تحت الأرض — بالقبر. فوفقاً لنظرياته، من المفترض أن يؤدي الشيء المناسب إلى استثارة سلسلة من الأفكار المتصلة المثيرة للقلق لديها، لكنها حتى الآن تعاملت مع الأشياء التي

يقدمها لها ببساطة وفقاً لقيمتها الظاهرة، وكل ما استطاع استخلاصه منها هو سلسلة من طرائق الطهي.

فى يوم الجمعة، جرب طريقة مباشرة جداً، فقال لها: "يمكنك أن تكونى صريحة تماماً معى يا جريس، لا داعى لحبس أى شىء".

قالت: "ليس لدى سبب لأن أكون غير صريحة معك يا سيدى، إن السيدة قد تخفى أشياء، فهى لها سمعة تريد الحفاظ عليها، لكننى تجاوزت ذلك."

قال: "ماذا تقصدين يا جريس؟"

"لا أقصد أكثر من أننى لم أكن أبداً سيدة يا سيدى، وأننى فقدت بالفعل أية سمعة قد أكون تمتعت بها يوماً. فيمكننى أن أقول ما أرغب، وإذا كنت لا أريد، فلن أقول شيئاً على الإطلاق."

"ألا يهملك أن أكون عنك رأياً طيباً يا جريس؟"

ألقت إليه نظرة سريعة حادة، ثم استمرت فى خياطتها: "لقد تم الحكم علىّ بالفعل يا سيدى، وأياً كان رأيك عنى، فالأمر سواء."

"حكماً عادلاً، يا جريس؟". لم يستطع مقاومة السؤال.

قالت: "عادل أو ظالم، لا يهم. الناس يريدون مذبناً. وإذا حدثت جريمة، يريدون أن يعرفوا من ارتكبها. فهم لا يحبون ألا يعرفوا."

"إنن فقدت الأمل؟"

سألت بأدب: "الأمل فى أى شىء يا سيدى؟"

شعر سايمون بأنه أحمق، وكأنه ألقى موعظة فى الإتيكيت:  
"حسنًا، الأمل فى الإفراج عنك."

قالت: "ولماذا يفعلون ذلك يا سيدى؟ القاتلة ليست شيئًا يحدث كل يوم. أما عن الأمل فإننى أحتفظ به لأمر أصغر، إننى أعيش بأمل أن يكون إفطارى غدًا أفضل من اليوم". وابتسمت قليلاً "لقد قالوا حينها أنهم يصنعون منى عبرة، ولهذا حكموا علىّ بالموت، ثم بالسجن مدى الحياة."

وفكر سايمون، ولكن ما فائدة العبرة بعد ذلك؟ لقد انتهت قصتها. القصة الرئيسية، أى الشىء الذى حدد كينونتها كعبرة. فما الدور الذى يفترض أن تؤديه فى باقى الوقت؟ قال: "ألا تشعرين أن المحاكمة كان فيها ظلم لك؟"

"لا أعرف ماذا تعنى يا سيدى."

كانت تلضم الإبرة حينذاك؛ بللت طرف الخيط فى فمها لتجعل اللضم أسهل، وفجأة بدا له ذلك حركة طبيعية للغاية وشديدة الحميمية إلى درجة لا تُحتمل. شعر وكأنه ينظر إليها من ثقب فى الجدار وهى تخلع ملابسها، وكأنها تغسل نفسها بلسانها، كالقطة.





الفصل الخامس

أطباق مكسورة



اسمى جريس ماركس، ابنة جون ماركس الساكن في مدينة تورنتو،  
ومهنته البناء بالحجر، جننا من أيرلندا إلى هذه البلاد منذ ثلاثة أعوام؛ لى  
أربع أخوات وأربعة إخوة، منهم أخ وأخت أكبر منى، بلغت ١٦ سنة فى  
يوليو الماضى. وعملت خادمة فى أماكن مختلفة طوال السنوات الثلاث  
التي قضيتها فى كندا...

اعتراف طوعى لجريس ماركس  
إلى السيد جورج والتون، فى السجن،  
فى ١٧ نوفمبر ١٨٤٣،  
*Star and Transcript* — تورنتو

طوال الأعوام السبعة عشر  
لم يدر بخلى، مرة واحدة  
كم هو جد مختلف، نصيبى ...  
.. عن نصيب أية امرأة أخرى فى العالم،  
لابد أن يكون السبب، أن هذا النصيب أخذ ينمو  
خطوة بخطوة، حتى أصبح بهذا القدر من الغرابة والهول  
تسللت تلك الويلات الغربية على أطراف الأصابع،  
إذا كان لها أصابع  
إلى .. داخل الحى حولى، وداخل خصوصيتى  
وجلست حيث أجلس، ورقدت حيث أرقد،  
ووجدوا أننى قد ألفت الخوف،

عندما دخل الأصدقاء، حملوا مصباحا وصرخوا  
"ماذا؟ أنت يا بومبيليا، فى الكهف هكذا؟  
"كيف حدث أن ذراعك هذا .. ذئب؟  
"وهذا الطول الناعم – فى قدميك، داخلهما، خارجهما  
"ويلف من حول الركبتين، ثعبان هو!"  
وهكذا...

روبرت براوننج

**The Ring and the Book, 1869**

هذا تاسع يوم أجلس فيه مع د. چوردان فى هذه الغرفة. لم تكن الأيام متوالية، فهناك أيام الأحاد، ولم يأت فى أيام أخرى. كنت قد اعتدت حساب الأيام بدءاً من أعياد ميلادى، ثم بدأت أحسب من أول يوم لى فى هذا البلد، ثم منذ آخر أيام مارى هويتى على هذه الأرض، وبعد ذلك منذ ذلك اليوم فى يوليو الذى حدثت فيه أسوأ الأمور، ثم أخذت أحسب منذ أول يوم لى فى السجن. ولكنى أحسب الآن منذ أول يوم لى فى غرفة الخياطة مع د. چوردان، فمن الصعب أن تحسب منذ نفس المناسبة، لأن الأمر يصبح مثيراً للملل ويمتد الوقت أطول وأطول، ويكاد يستحيل احتمالاه.

يجلس د. چوردان أمامى، تتبعث منه رائحة صابون الحلاقة من النوع الإنجليزى، ورائحة أذنيه، ورائحة حدائه الجلدى ذى الرقبة. إنها رائحة مطمئنة أتطلع دوماً إليها، فرائحة الرجال الذين يستحمون أفضل من رائحة الآخرين. أما ما وضعه أمامى اليوم على المائدة، فهو حبة بطاطس، لكنه لم يسألنى بعد عنها، فهى لا تزال فى مكانها بيننا. لا أعرف ماذ يتوقع منى أن أقول عنها، إلا أن أخبره بأننى قشرت كثيراً جداً منها فى الماضى، وأكلتها أيضاً، إن حبة بطاطس جديدة مسلوقة ممتعة مع قليل من الزبد والملح، والبقدونس لو كان متاحاً، وحتى البطاطس القديمة الكبيرة يمكن

سلقها جيدًا؛ لكنها ليست بالشىء الذى يمكن إجراء حوار طويل حوله. بعض حبات البطاطس تشبه وجوه الأطفال، وبعضها يشبه الحيوانات، وقد رأيت واحدة تشبه القطة. لكن هذه لا تبدو إلا كحبة بطاطس، لا أكثر ولا أقل. أحياناً أفكر أن د. چوردان به نوع من الخبل. لكن إذا كان يحب الحديث عن البطاطس فهذا أفضل عندى من عدم الحديث معه على الإطلاق.

اليوم يرتدى رباط عنق مختلفاً، أحمر وبه نقط زرقاء، أو أزرق وبه نقط حمراء، إنه فاقع إلى حد ما بالنسبة لذوقى، لكننى لا أستطيع النظر إليه بإمعان لأتمكن من التأكد. إننى أحتاج المقص ولذا أطلبه، ثم هو يريدنى أن أبدأ الكلام، فأقول اليوم سأنتهى من آخر قطعة فى هذا اللحاف، بعد ذلك سوف أخيط كل القطع معاً، ثم يُحشى، وهو مخصص لإحدى ابنتى المحافظ ومصمم على نموذج "الكوخ الخشبى".

نموذج "الكوخ الخشبى" فى الأغطية هو شىء لا بد أن تحصل عليه كل فتاة قبل الزواج، فهو يعنى البيت، ولا بد من وجود مربع أحمر فى الوسط، وهو يمثل نار المدفأة. أخبرتنى مارى هويتنى بذلك، لكننى لا أقول هذا لدكتور چوردان، فلا أظن أنه يمثل أهمية بالنسبة له، لأنه أمر عادى جداً، رغم أنه ليس عادياً أكثر من البطاطس.

يسألنى: وماذا ستخيطين بعد ذلك؟

أقول: لا أعرف، أظن أنهم سيطلبون منى، إنهم لا يشغلوننى فى حشو اللحاف، فقط فى عمل المربعات لأنها تحتاج لدقة وعناية، وتقول زوجة المحافظ أننى كنت مُهملة ملقاة فى الخياطات العادية مثل ما يُصنع فى الإصلاحية، أكياس البريد وأزياء السجن وما إلى ذلك، ولكن على أى

حال حشو اللحاف يكون فى المساء، ويتم بنوع من الاحتفال، وأنا لا أدعى للاحتفالات.

فيقول: إذا أمكنك صنع لحاف لنفسك، فما هو النموذج الذى ستفدينه؟

أعرف الإجابة، لا شك فيها، سوف أنفذ نموذج شجرة الجنة كذلك المنفذ فى الصندوق ذى الغطاء المبطن عند السيدة الدرمان پاركينسون. كنت فى العادة – إعجاباً به – أخرجته متظاهرة بأنى أرى إذا ما كان بحاجة إلى إصلاح، كان شيئاً جميلاً، مصنوعاً كله من مثلثات، بألوان داكنة للأوراق وألوان فاتحة للتفاحات، والشغل جميل جداً، الغرز صغيرة جداً كتلك الغرز التى أستطيع صنعها بنفسى، ولكن فى لحافى سوف أجعل الحواشى مختلفة. هنا الحاشية تمثل مطاردة الإوز البرى، أما لحافى فسوف تكون حواشيه أفرعاً مضفرة، أحدها بلون فاتح والآخر بلون غامق، يسمونها حواشى فروع الكرم، وفروع الكرم تلتف حول بعضها كما فى المرأة الموجودة فى الردهة. سوف يحتاج الكثير من العمل، وربما يستغرق وقتاً طويلاً، لكنه إذا كان لحافى ولن يمتلكه غيرى، فسوف أصنعه بكل سرور.

لكن ما أقوله له يختلف. أقول: لا أعرف يا سيدى، ربما يكون نموذج "دموع العمل"، أو "شجرة الجنة"، أو "سور الأفعى"؛ أو ربما نموذج "حيرة العانس"، لأننى عانس، أليس كذلك يا سيدى؟ ومن المؤكد أننى عانيت الكثير من الحيرة. قلت هذه العبارة الأخيرة كنوع من المداورة. لم أعطه إجابة مباشرة، لأن الكلام عما تتمناه بصوت مسموع يجلب سوء الحظ، ومن ثم لا يحدث ما نتمنى من خير أبداً. وربما لن يحدث ما تتمناه



على أية حال، ولكن الحذر واجب، يجب أن تحذر إعلان ما تريده أو حتى أنك تريد شيئاً، فهو أمر يمكن أن تعاقب بسببه، وهذا ما حدث لماري هويتى.

يكتب أسماء النماذج، ويسألنى: أشجار الجنة أم شجرة الجنة؟

أقول: شجرة يا سيدى. ويمكن أن يكون اللحاف مرسوماً عليه أكثر من شجرة، رأيت واحداً عليه أربع شجرات رؤوسها تميل فى اتجاه الوسط، ولكن يظل اسمه نموذج "شجرة الجنة".

يقول: لماذا هذا فى رأيك يا جريس؟ أشعر أحياناً أنه طفل، فدائماً يسأل لماذا.

أقول: لأن هذا هو اسم النموذج يا سيدى. وهناك أيضاً شجرة الحياة، ولكنه نموذج مختلف. كما يمكن أيضاً أن تنفذ شجرة الخروج من الجنة، وأيضاً هناك شجرة الصنوبر، وهو نموذج جميل جداً أيضاً.

يكتب هذا، ثم يلتقط حبة البطاطس وينظر إليها. ويقول: أليس من المدهش أن تنمو هذه الأشياء تحت الأرض، يمكن أن تقولى لى أنها تنمو وهى نائمة، بعيداً عن الأعين، فى الظلام، مخبأة عن الأنظار.

حسناً، لا أعرف أين يتوقع أن تنمو البطاطس، فلم أرها أبداً مدلاة على فروع الأشجار. لا أقول شيئاً. فيقول: وماذا أيضاً تحت الأرض يا جريس؟

أقول: البنجر، والجزر أيضاً يا سيدى، إنها طبيعة هذه الأشياء.

تبدو عليه خيبة الأمل من هذه الإجابة، ولا يكتبها. ينظر لى، ويفكر. ثم يقول: هل ترين أحلاماً يا جريس؟

وأقول: ماذا تقصد يا سيدي؟

أظن أنه يقصد هل أحلم بالمستقبل، هل لدى أية خطط لما يمكن أن أفعله بحياتي، وأظن أنه من القسوة أن يسألني هذا السؤال وهو يرى أنني حبيسة هنا حتى الموت، ليست لي آمال كثيرة أحلم بها. أو ربما هو يقصد أحلام اليقظة، أو هل لي أحلام تدور حول رجل ما، مثل الفتيات الصغيرات، وهي فكرة بنفس القسوة، أو ربما أشد قسوة؛ وأقول ببعض الغضب واللوم: ماذا أفعل بالأحلام، ليس لطيفاً منك أن تسأل.

ويقول: لا، أرى أنك أسأت فهمي. إنني أريد أن أسألك هل ترين أحلاماً في منامك؟

أقول، ببعض الحدة لأن هذا السؤال نوع من الكلام الفارغ الذي يتحدث به السادة، ولأنني لا أزال غاضبة: كل الناس تحلم يا سيدي، أو أظن ذلك.

يقول: نعم يا جريس، ولكن أنت، هل ترين أحلاماً؟ لم يلاحظ لهجتي الغاضبة، أو أنه اختار التغاضي عنها. يمكن أن أقول له أي شيء، ولن يجعله يصدم أو يرتبك، أو حتى يندهش بشدة، كل ما سيحدث أنه سيكتبه. وأعتقد أنه يهتم بأحلامي لأن الحلم يمكن أن يكون له معنى، أو هذا ما ورد في الإنجيل، مثلما في قصة فرعون والبقرات سمينة اللحم والبقرات رقيقة اللحم، ويعقوب مع الملائكة الصاعدة والنازلة على السلم. ويوجد نموذج لحاف اسمه على هذه القصة، "سلم يعقوب".

وأقول: نعم يا سيدي، أرى أحلاماً.

يقول: فماذا رأيت في الحلم ليلة أمس؟

رأيت أننى واقفة عند باب المطبخ فى منزل السيد كينير. كان المطبخ الصيفى، وقد انتهيت لتوى من تنظيف الأرض، أعرف هذا لأن تنورتى كانت لا تزال مبللة وقدمى لا تزالان مبللتين وحافيتين، لم أكن قد ارتديت نعلى بعد. كان ثمة رجل، فى الخارج على العتبة، كان أحد الباعة الجائلين، مثل جيرميا البائع الجوال الذى اشتريت منه الأزرار ذات مرة لفستانى الجديد، واشترى منه مكرموت القمصان الأربعة.

لكن هذا لم يكن جيرميا، كان شخصاً مختلفاً. كانت الصرة التى يحملها مفتوحة، والأشياء مبعثرة على الأرض، الشرائط والأزرار والأمشاط وقطع من الأقمشة، كانت زاهية جداً فى حلمى هذا، حرائر وشيلان من الكشمير وأقمشة قطنية مطبوعة تتألق فى الشمس، لأن الوقت كان فى عز النهار وفى عز الصيف.

كنت أشعر أنه شخص عرفته يوماً ما، لكنه كان يبعد وجهه عن ناظرى حتى لا أعرف من هو. وأدركت أنه كان ينظر لأسفل، ينظر إلى قدمى الحافيتين، كانتا عاريتين حتى الركبتين ومتسختين من تنظيف الأرضية، لكن الساق هى الساق، وسخة أو نظيفة، ولم أنزل تنورتى. وقلت فى نفسى دعيه ينظر، فالمسكين لا يرى شيئاً كهذا فى المكان الذى جاء منه. لابد أنه أجنبى من نوع ما، وربما قطع مسافة طويلة، وقد بدت نظرتة سوداوية وجائعة، هكذا فكرت فى الحلم.

لكن حينئذ لم يعد ينظر إلى ساقى، وكان يحاول أن يبيع لى شيئاً ما. كان لديه شىء يخصنى وكنت أريد استعادته، لكن لم يكن معى نقود ولذا لم أستطع شراءه منه. قال إذن يمكننا أن نساوم، تعالى، ماذا تمطينى؟ قال ذلك بنوع من المزاح.

الشيء الذي كان لديه هو إحدى يدي. الآن أراها، كانت بيضاء ومتغضنة، كانت تتدلى من يده كفردة قفاز. لكنني عندما نظرت إلى يدي وجدت الاثنتين موجودتين في مكانهما، خارجتين من كمّي ردائي كالعادة، وعرفت أن هذه اليد الثالثة تخص امرأة ما. ولا بد أنها ستأتي بحثاً عنها، وإذا كانت موجودة عندي ستقول أنني سرقتها، لكنني لم أعد أريدها، فلا بد أنها مقطوعة. والحق أن الدم ظهر الآن، يتساقط ثقيلًا كالحساء؛ لكنني لم أشعر بأى رعب لرؤيته كما يمكن أن يحدث إذا رأيت دمًا حقيقيًا وأنا مستيقظة، كنت في غاية القلق، ولكن حول شيء آخر. ومن خلفي، كنت أسمع صوت فلوت جعلني عصبية للغاية.

قلت للبائع اذهب، لا بد أن تذهب من هنا في الحال، لكنه ظل ورأسه ملتفت إلى الناحية الأخرى ولم يتحرك، وارتبت في أنه يضحك سخرية مني.

وكان ما فكرت فيه هو أن الدم سوف ينزل على الأرض النظيفة. أقول: لا أتذكر يا سيدي. لا أستطيع أن أتذكر ما رأيته في منامي ليلة أمس. كان شيئاً مشوشاً وغير مفهوم. ويكتب هذا.

أحتفظ بالقليل لنفسى، ليس لى ما أملكه أو أحوزه ولا لى خصوصية إلا بقدر ضئيل جداً، لكنني أريد أن أحتفظ بشيء لنفسى. وعلى أية حال، ماذا يمكن أن يستفيد من أحلامى.

حينئذ يقول: حسناً، هناك أكثر من طريقة لسلخ القطة.

وأرى أنها طريقة غريبة في اختيار الكلمات، فأقول: أنا لست قطة يا سيدي!

فيرد قائلاً: نعم، أنا أذكر ذلك، ولا أنت كلب، وبيتسم قائلاً:  
المسألة يا جريس هي أي نوع أنت؟ سمك أم نين أم تمر هندی؟

أقول: عفواً يا سيدي؟

لا أحب أن يقال لي سمكة، وأفضل أن أغادر الغرفة لولا أنني  
لا أجرؤ.

يقول: فلنبداً من البداية.

فأسأل: أي بداية يا سيدي؟

يقول: بداية حياتك.

أقول، وما زلت أشعر بضيق منه: ولدت يا سيدي كأى شخص  
آخر.

يقول: اعترافك معي هنا، دعيني أقرأ لك ما قلت فيه.

أقول: هذا ليس اعترافى فى الحقيقة، إنه ما طلب منى المحامى  
أن أقوله، بالإضافة إلى ما اختلقه رجال الصحافة، وربما تصدق أيضاً  
الصحائف التافهة التى كانوا يدورون ويتجولون لبيعها، كهذه الصحيفة. فى  
أول مرة وقعت عيني فيها على أحد الصحفيين، خطر ببالي أن أسأله  
هل يا ترى تعرف أمك أنك خرجت من البيت؟ كان تقريباً فى مثل سننى،  
لم يكن له الحق فى أن يعمل بالكتابة للصحف، حيث كان أصغر من أن  
يطلق ذقنه. كانوا جميعاً هكذا، صغار تنقصهم الخبرة، وربما لا يعرفون  
الحقيقة حتى فى مواجهتها. كانوا يقولون أننى فى الثامنة عشرة أو التاسعة  
عشرة أو ما لا يزيد عن العشرين، فى حين أننى كنت قد أتممت السادسة

عشرة لتوى، ولم يكونوا قادرين على كتابة الأسماء بطريقة صحيحة، كانوا يكتبون اسم جيمى وولش بثلاث طرق مختلفة، وولش، وويلش، ووالش، وأيضاً اسم مكدرموت، أحياناً مك، وأحياناً ماك، وكانوا يطلقون على نانسى اسم آن، وهو اسم لم يطلق عليها أبداً فى حياتها، فكيف تتوقع أن يكتبوا أى شىء آخر صح؟ سوف يخلقون أى شىء يريحهم.

وهنا يقول: "جريس، من هى مارى هويتتى؟"

أوجه إليه نظرة سريعة، وأقول: "مارى هويتتى؟ من أين لك بهذا الاسم يا سيدى؟"

يقول: إنه مكتوب تحت البورتريه المرسوم لك فى مقدمة اعترافك، "جريس ماركس المدعوة مارى هويتتى".

أقول: آه، نعم. البورتريه لا يشبهنى تماماً.

ويقول: ومارى هويتتى؟

"إنه فقط الاسم الذى أعطيته لهم يا سيدى، فى الحانة فى لويستون عندما كان جيمس مكدرموت هاربياً معى. قال أننى لا يجب أن أقول اسمى الحقيقى، فقد يأتون باحثين عنا. وكان وهو يقول ذلك يقبض على ذراعى بعنف، على ما أذكر، لكى يتأكد أننى سوف أفعل ما يقول.

ويقول: وهل أعطيتهم أى اسم خطر برأسك؟

أقول: لا يا سيدى. كانت مارى هويتتى ذات يوم صديقة مقربة لى. وكانت قد ماتت قبل ذلك، وظننت أنها لن تمنع إذا استخدمت اسمها، فقد كانت أحياناً تعبرنى ثيابها أيضاً.

أتوقف لدقيقة، لأفكر فى الطريقة الصحيحة لتوضيح ذلك.  
أقول: كانت دائماً كريمة معى، وبدونها، كان يمكن أن تكون  
قصتى مختلفة تماماً.

قصيدة قصيرة أحفظها منذ الطفولة:

الإبر والدبابيس، الإبر والدبابيس

عندما يتزوج الرجل، تبدأ المتاعب

ولا تقول القصيدة متى تبدأ متاعب المرأة. أما متاعبي فيبدو أنها بدأت بمولدي. فهم يقولون يا سيدى ليس بيدك اختيار والديك، وأنا ما كنت لأختار أبدًا بإرادتى الحرة الأبوين اللذين كتب الله لى أن أكون ابنتهما.

إن ما جاء فى بداية "اعترافى" صحيح جدًا. فأنا بالفعل جنّت من شمال أيرلندا؛ رغم أننى أظن أن ما كتبه ظالم للغاية إذ يقول "كلا المتهمين من أيرلندا باعترافهما". وكان ذلك جريمة، وأنا لا أعرف أنها جريمة أن يكون المرء من أيرلندا، رغم أننى دائماً أراه يُعامل على أنه جريمة. لكن عائلتى كانت بالطبع بروتستانتية، وهذا أمر مختلف.

كل ما أذكره عن أيرلندا ميناء صخرى صغير على البحر، الأرض خضراء ورمادية، أشجارها قليلة؛ ولهذا شعرت بالخوف عندما رأيت هذا النوع من الأشجار الضخمة هنا، فلم أكن أعرف كيف يمكن للأشجار أن تكون عالية هكذا. لا أذكر المكان جيدًا، فقد غادرناه وأنا لا أزال طفلة، أتذكر فقط صورًا مقطعة، كما لو كانت على طبق مكسور.



وعندما أحاول جمعها سوياً، أجد أن بعض القطع تبدو وكأنها من طبق آخر تماماً؛ ثم هناك تلك المساحات الفضاء، حيث لا يمكنك أن تجد ما يمكن أن يناسبها من بين القطع.

كنا نعيش في كوخ مثقوب السقف، على أطراف قرية تقع بالقرب من مدينة لم أذكر اسمها للصحف، فربما لا تزال خالتي بولين على قيد الحياة، ولا أريد أن أجلب لها العار. كانت دائماً تحسن الظن بي، رغم أنني سمعتها تقول لأمي ما تتوقعه لي في الحقيقة، مع دلائل مستقبل لا تبشر بالكثير، ومع أب كهذا. كانت ترى أن أمي تزوجت رجلاً أقل من مستواها؛ وقالت أن عائلتنا سوف تكون هكذا، وافترضت أنني سينتهي بي الحال إلى نفس الشيء، لكنها قالت لي أنني يجب أن أجاهد حتى لا يحدث ذلك، وأن أقدر لنفسي ثمناً مرتفعاً، وألا أقع في غرام أول من يبدي الوداد نحوي، كما فعلت أمي، دون أن أنظر لعائلته أو مستواه، وأنتى يجب أن أحذر الغرباء. ولم تكن لدى فكرة، وأنا بنت الثامنة، عما تتحدث عنه، رغم أنها كانت نصيحة طيبة على أية حال. قالت أمي أن خالتي بولين تقصد خيراً ولكن لديها مقاييس جاهزة، وهي مقاييس جيدة جداً لمن يقدر عليها.

خالتي بولين وزوجها، عم روي، رجل نحيف الكتفين وصريح للغاية، كان لديهما متجر في المدينة القريبة، يبيعان فيه مع البضائع المعتادة أدوات الحياكة وقطع الدانتيل، وبعض الأقمشة القطنية من بلفاست، وكانا يكسبان جيداً. وكانت أمي هي الأخت الصغرى لخالتي بولين، وأجمل منها، فخالتي كانت بشرتها خشنة كالصنفرة، وكانت نحيفة للغاية، حتى بدت جلداً على عظم، وقد برزت عظام مفاصلها مثل ركب الدجاج، لكن أمي كان لها شعر طويل كستنائي، وهو ما ورثته منها، وكان لها عينان

زرقاوان مستديرتان كعيني دمية، وقبل زواجها كانت تعيش مع خالتي بولين وعم روى وتساعدهما في المتجر.

كان والدهما المتوفى قسيساً إنجليكانياً – ويتبع المذهب الميثودي، وقيل أنه فعل شيئاً غير متوقع بنقود الكنيسة، وبعد ذلك لم يستطع الحصول على وظيفة، وعندما مات كانوا مفلسين، واضطرت البنات للعمل لإعالة نفسيهما. كانت كلتاها قد حصلت على قدر من التعليم، وكان يمكنهما التطريز والعزف على البيانو، ولهذا كانت خالتي بولين ترى أنها هي نفسها تزوجت دون المستوى، فالعمل في المتجر ليس هو الطريقة المناسبة للسيدات المحترمات، لكن العم روى كان رجلاً طيباً رغم سلوكه الفظ، وكان يحترمها، وكان هذا أمراً له قيمته؛ وفي كل مرة تنتظر فيها داخل دولاب ثيابها أو تحصى فيها طقمى الأطباق اللذين تملكهما، طقم للاستخدام اليومي، وطقم من الصيني الأصلي للمناسبات، كانت تشكر الله والحظ الطيب لأن المرأة يمكن أن تقع فيما هو أسوأ، وكانت تقصد أن هذا ما حدث لأمي.

ولا أظنها كانت تقول ذلك للإساءة إلى أحاسيس أمي، رغم أن هذا ما كان يحدث، وأحياناً كانت تبكي بعد ذلك. لقد بدأت حياتها تحت سيطرة الخالة بولين. واستمرت بنفس الحال، لكن أضيفت سيطرة أبي أيضاً عليها. كانت الخالة بولين دائماً تقول لها أن تقوى في مواجهة أبي، وكان أبي يطلب منها أن تقوى في مواجهة الخالة بولين، كانا يسحقانها بينهما، فقد كانت مخلوقاً هلوغاً خجولاً، مترددة وضعيفة ورقيقة، وكان ذلك يثير غضبي، كنت أريدها أن تكون أقوى حتى لا أضطر لأن أكون قوية هكذا أنا نفسي.

أما أبى فلم يكن أيرلندياً، كان إنجليزياً من شمال إنجلترا، وليس معروفاً سبب مقدمه إلى أيرلندا، فكل من لجأوا إلى السفر كانوا يذهبون فى الاتجاه المعاكس. قالت خالتى بولين لآبد أنه كان واقعا فى متاعب فى إنجلترا واضطر للهروب بسرعة فلجأ إلى هذه الناحية. وقالت أنه ربما يكون قد انتحل اسم ماركس، الذى ربما لا يكون اسمه الحقيقى، ولآبد أنه "مارك"، أى العلامة التى وضعها الله على قابيل قاتل هابيل،(\*) كما أنه كانت له نظرات قاتلة. لكنها لم تقل ذلك إلا فيما بعد، عندما أصبحت الأمور فى أسوأ حالاتها.

قالت أمى أنه فى البداية بدا شاباً طيباً، واثقاً، وحتى خالتى بولين اعترفت أنه كان وسيماً، طويلاً وأصفر الشعر، وأسنانه كلها كانت سليمة. وعندما تزوجا، كان لديه مال فى جيبه، كما كان يوحى بمستقبل مبشر، فقد كان حقاً بناء بالحجر، كما كتبت عنه الصحف. ورغم ذلك، قالت خالتى بولين أن أمى لم تكن لتتزوجه إلا لأنها اضطرت، وتم تغطية الأمر، رغم أنه كان هناك كلام حول أن أختى الكبرى مارثا ولدت أكبر كثيراً مما يمكن لطفل ابن سبعة أشهر؛ وذلك لأن أمى كانت طيبة أكثر من اللازم، وكثير من النساء الشابات كن يقعن فى هذه المشكلة؛ وكانت تقول لى ذلك لكى لا أفعل نفس الشيء. قالت أن أمى كانت محظوظة للغاية لأن أبى وافق على الزواج بها، وكانت تعترف له بهذا الفضل، حيث أن الأغلبية كانوا يخرجون من بلفاست على أول قارب بمجرد أن يسمعوا من فتياتهم مثل هذا الخبر، تاركين إياهن على الشاطئ مهجورات وحيدات، وماذا كان باستطاعة خالتى بولين أن تفعله لها حينذاك وعليها أن تنظر بعين الاعتبار لسمعتها ودكانها؟

---

(\*) "وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده". (سفر التكوين، ٤: ١٥).

وهكذا، كان أبى وأمى يشعران أن كلا منهما وقع فى مصيدة الآخر.

وأنا، أولاً وقبل كل شىء، لا أعتقد أن أبى كان رجلاً سيئاً؛ لكنى أعتقد أنه كان رجلاً يسهل تضليله، وأن الظروف كانت ضده. ولأنه كان إنجليزياً، لم يكن يلقى ترحيباً حتى بين البروتستانت، فلم يكونوا يحبون الغرباء. كما أنه اتهم عم روى بأنه قال أنه خدع أمى ليتزوجها ليقضى وقتاً ممتعاً وليعيش حياة سهلة ويبيعثر أموالهم التى يكسبونها من الدكان، وكان ذلك صحيحاً إلى حد ما، فلم يكونوا يستطيعون رفضه من أجل أمى والأطفال.

أدركت كل هذا فى سن مبكرة. لم تكن الأبواب فى منزلنا سميكة بما يكفى، وكنت طفلة تتسمع جيداً لما يقوله الكبار، وكان صوت أبى عالياً عندما يكون سكران؛ وعندما يبدأ فى الكلام، لم يكن يلاحظ أن ثمة من يقف قريباً منه عند الركن، أو خارج النافذة، بهدوء فأر صغير.

شىء واحد قاله، أن أطفاله عددهم كبير جداً، وأن ذلك يناسب رجلاً أكثر ثراءً. وكما كتبوا فى الصحف، وصل عددنا إلى تسعة، أى تسعة على قيد الحياة. فهم لم يكتبوا من ماتوا، وكانوا ثلاثة، ولم يحصوا الطفل الذى "ضاع قبل أن يولد"، ولم يكن له اسم أبداً. كانت أمى والخالة بولين يطلقان عليه "الطفل الضائع"، وعندما كنت صغيرة كنت أتساءل أين أضاعوه، لأننى ظننت أن ضياع الطفل يشبه ضياع قطعة نقود؛ وإذا كان قد ضاع، فربما يمكن أن نجده فى يوم من الأيام.

أما الثلاثة الذين ماتوا فقد دفنوا فى فناء الكنيسة. ورغم أن أمى ظلت تصلى وتصلى، فقد قل ذهبنا إلى الكنيسة بمرور الوقت، لأنها قالت

أنها لن تسمح باستعراض أطفالها الفقراء بثيابهم المهلهلة أمام كل من هب ودب، مثل خيالات المآتة، وبدون أحذية. كانت مجرد أبرشية صغيرة، لكن أمي رغم طبيعتها الضعيفة كان لها كبرياؤها، ولأنها كانت ابنة قسيس إنجليكاني، فقد كانت تعرف آداب السلوك في الكنيسة. وكانت تتوق بشدة لأن تعود بمظهر لائق من جديد، ولأن نكون نحن أيضاً في مظهر لائق. لكن من الصعب يا سيدي أن يكون المرء في مظهر مناسب دون أن يكون لديه ثياب لائقة.

ورغم ذلك، كنت أذهب إلى فناء الكنيسة. كانت الكنيسة لا تزيد مساحتها عن حظيرة بقرة، وكان فناؤها قد تزايدت مساحته للغاية. كانت قريتنا أكبر ذات يوم، ولكن الكثيرين غادروها، إلى المصانع في بلفاست، أو عبروا المحيط؛ وغالبًا لم يبق من أبناء العائلات من يهتم بالمقابر. كان فناء المقابر أحد الأماكن التي كنت آخذ إخوتي الأصغر إليها عندما كانت أمي تطلب مني إخراجهم من المنزل؛ ومن ثم كنا نذهب لنلقى نظرة على إخوتنا الثلاثة الذين ماتوا، وعلى المقابر الأخرى أيضاً. بعضها كان قديماً جداً، وكانت لها شواهد حفرت عليها رؤوس الملائكة، رغم أنها كانت أكثر شبهاً بكعكات مسطحة لها أعين محدقة، ويخرج من كل ناحية منها جناح مكان الأذنين. ولم أكن أفهم كيف يمكن أن تطير الرأس دون جسد، كما لم أكن أفهم كيف يمكن أن يكون شخص في السماء، وهو في فناء الكنيسة في نفس الوقت؛ لكن الجميع كانوا يجمعون على أن هذه هي الحقيقة.

لم يكن لأطفالنا الثلاثة شواهد حجرية، ولكن مجرد صلبان خشبية. ولو عاشوا لكانوا الآن كباراً بالغين.

عندما بلغت التاسعة، غادرتنا أختي الكبرى مارثا لتعمل بالخدمة، ومن ثم كان عليّ أن أقوم بكل أعمال المنزل التي كانت تقوم بها مارثا؛ ثم بعد عامين ذهب أخي روبرت إلى البحر على مركب تجارية، ولم نسمع عنه أبدًا بعد ذلك؛ لكن لأننا نحن أيضًا غادرنا بعد ذهابه بقليل، فإنه حتى لو أرسل إلينا، لم يكن من الممكن أن يبلغنا شيء.

وبقى الصغار الخمسة وأنا في البيت، وكان طفل آخر في الطريق. لا أذكر أن أمي كانت يومًا في غير ما يسمونه "حالة مرهفة"؛ رغم أنه لم يكن هناك ما يمكن اعتباره مرهفًا في رأيي. يسمونها أيضًا حالة غير سعيدة، وهذا أقرب للحقيقة — حالة تعسة يتلوها حادث سعيد، رغم أن الحادث ليس دائمًا سعيدًا بأي حال.

كان أبونا في هذا الوقت قد فاض به. كان يقول لأمي لأي غرض تأتين بشقي آخر إلى هذا العالم، ألم تكنفى بكل هؤلاء، لكنك لا تستطيعين التوقف، فم آخر نطعمه، كان يقول ذلك كأنما هو نفسه ليس مسئولاً عن هذا الحمل على الإطلاق. عندما كنت صغيرة جدًا، في السادسة أو السابعة، كنت أضع يدي على بطن أمي، التي كانت مدورة وجامدة، وكنت أقول ماذا يوجد هنا، فم آخر لنطعمه، وكانت أمي تبتسم ابتسامة حزينة وتقول نعم، أخشى ذلك، وأتخيل صورة فم ضخم للغاية، في رأس يشبه رؤوس الملائكة الطائرة على شواهد القبور، ولكنه مليء بالأسنان، يأكل أمي من الداخل، وبدأت في البكاء لأنني ظننت أنه سوف يقتلها.

كان أبي معتادًا على الذهاب بعيدًا، إلى أماكن تبعد مسافات مثل بلفاست، للعمل لدى البنائين الذين يستأجرونه؛ وعندما ينتهي العمل كان يعود إلى البيت أيامًا قليلة، ثم يعود إلى الخروج بحثًا عن عمل آخر.

وعندما كان يعود إلى البيت كان يخرج إلى الحانة ليبتعد عن صراخ الأطفال. كان يقول أن الرجل لا يستطيع أن يفكر مع نفسه وسط كل هذه الجلبة، وأنه مضطر للبحث عن عمل بسبب عائلة كبيرة كهذه، وأنه ليس في مقدوره أن يحفظ عليهم الروح والجسد معًا. ولكن معظم بحثه عن العمل كان "في قاع كأس". وكان هناك دائمًا من لديهم الاستعداد لمساعدته في ذلك، ولكنه عندما كان يسكر، كان يغضب ويسب الأيرلنديين، ويسيء إليهم قائلاً أنهم طغمة من اللصوص الأنذال الوضيعين عديمي الفائدة، وتحدث مشاجرة. وقد كان قوى الذراع، لكنه سرعان ما فقد معظم أصدقائه، فرغم أنهم كانوا سعداء بالشرب معه، إلا أنهم لم يكونوا يريدون أن يتعرضوا لقبضته عندما يحين أوانها. وهكذا كان يشرب وحده، أكثر وأكثر، وكلما كان الشراب أقوى، كلما سهر وقتًا أطول وفقد ما لديه من أعمال في النهار.

وهكذا انتشرت عنه سمعة بأنه لا يعتمد عليه، وأصبحت الأعمال التي تسند إليه أقل وأكثر تباعدًا. وأصبحت الأمور أسوأ وهو في البيت، ففي تلك الأيام لم تعد حالات غضبه وقفًا على الحانة. كان يقول أنه لا يعرف لماذا أثقل الله كاهله بمثل هذه النفايات، وأن العالم لم يعد بحاجة للمزيد منا، كان ينبغي إغراقنا جميعًا في شوال كالقبط. وكان الصغار يصابون بالخوف، فكنت أخذ الأربعة الأكبر القادرين على مشى كل هذه المسافة، وكنا نمسك أيدينا سويًا في صف، ونذهب إلى فناء المقابر ونقطف الأعشاب، أو ننزل إلى الميناء، ونزحف على صخور الشاطئ ونعابت قناديل البحر بالعصى، أو نبحت في البرك المتجمعة عن مياه المد عن أي شيء يحتمل أن نجده.

وقد نذهب إلى الميناء الصغير حيث ترسو قوارب الصيد. لم يكن من المفترض أن نذهب إلى هناك لأن أمانا كانت تخشى أن ننزلق ونغرق، لكنى كنت أخذ الصغار إلى هناك رغم ذلك، لأن الصيادين أحياناً كانوا يعطوننا سمكة، رنجة أو ماكريل طازجة، وأى نوع من الطعام كان البيت فى أشد الحاجة إليه؛ فأحياناً كنا لا نعلم ما إذا كنا سنأكل غداً. وكانت أمانا تمنعنا من أن نمد أيدينا، ولم نكن نفعل، أو لم نكن نطلب بكلمات كثيرة؛ ولكن مشهد خمسة أطفال صغار بثياب رثة وعيون جائعة من الصعب مقاومته، أو كان الأمر كذلك فى قريتنا. وهكذا كنا نحصل على سمكتنا غالباً، ونذهب إلى البيت بها فخورين وكأننا اصطدناها بأنفسنا.

سوف أعترف بأننى كانت لى أفكار شريرة، عندما كنت أخذ الصغار معاً إلى الميناء يتعثرون بأرجلهم الحافية. كنت أفكر أننى يمكن أن أرفع واحداً أو اثنين منهم من فوق الحافة، وهكذا ستكون الأفواه التى يجب إطعامها أقل، وستكون الملابس التى تحتاج للغسيل أقل. فى ذلك الوقت كنت أنا التى أقوم بمعظم الغسيل. ولكنها كانت مجرد أفكار وضعها الشيطان فى رأسى بلا شك. أو، على الأرجح، وضعها أبى فى رأسى. فقد كنت، فى تلك السن، لا أزال أحاول إرضاءه.

بعد قليل، اعتاد أبى صحبة يحوطها الشك، وشوهد مع بعض أعضاء الجماعات البروتستانتية ذوى السمعة السيئة. وحدث أن احترق منزل على بعد عشرين ميلاً، منزل رجل محترم، بروتستانتى ولكنه أخذ جانب الكاثوليك، ثم وجد رجل آخر مخبوط فى رأسه. وكان هناك كلام عن هذه الأمور بين أمى وأبى، وقال كيف بحق الشيطان تتوقع أن يأتى بنقود، وأن أقل ما يمكن أن تفعله هو أن تحفظ الأمر سرّاً، ليس لأن من الممكن بأى حال أن تثق بامرأة بقدر ما يمكنك أن تقذف بها، فالمرأة تخون



أى رجل أسرع من طرفة عين، إن الجحيم قليل على الكثيرات. وعندما سألت أمى ماذا كان السر، أحضرت الإنجيل، وقالت أننى أنا أيضاً لا بد أن أقسم عليه على أن أحفظ السر، وأن الله سوف يعاقبنى إذا لم أبر بهذا القسم المقدس؛ وكان ما أُرعبنى بشدة أننى معرضة لخطر أن أفلت السر دون أن أدري، لأننى لم تكن لدى أية فكرة عن ماهية هذا السر. ولا بد أن فكرة عقاب الله كانت شيئاً مريعاً، فهو أكبر كثيراً من أبى؛ وبعد ذلك كنت دائماً شديدة الحرص على حفظ أسرار الآخرين، مهما كانوا أو كانت أسرارهم.

كانت هناك نقود لبعض الوقت، لكن الأحوال لم تتحسن، وتحولت الكلمات إلى لكلمات، رغم أن أمى المسكينة لم تفعل شيئاً لتستحق ذلك؛ وعندما جاءت خالتي بولين لزيارتنا، كانت أمى تتهامس معها وتريها الكدمات على ذراعيها، وتبكي، وتقول أنه لم يكن هكذا طوال الوقت؛ وتقول خالتي بولين، لكن انظري إليه الآن، إنه ليس أكثر من حذاء مثقوب، كلما زاد ما تملئينه به من أعلى زاد ما يخرج من القاع، إنه لأمر مهين وفاضح.

كان عمى روى يأتى معها فى عربتهما الصغيرة التى يجرها حصان واحد، ويحضر بعض البيض من دجاجاتهما وشريحة لحم، فنحن لم يعد لدينا دجاجات أو خنزير منذ وقت طويل؛ وكانوا يجلسون فى الغرفة الأمامية، التى كانت تمتلئ بالملابس المنشورة لتجف، لأنه ما أن تنتهى من الغسيل وتشره ليحجف فى يوم مشمس فى ذلك الطقس، حتى تتجمع السحب وتبدأ القطرات تنزل؛ وكان العم روى، الذى كان يتحدث ببساطة وغشومية شديدتين، يقول أنه لم يكن يعرف أن هناك رجلاً يمكن أن يحول النقود الطيبة إلى روث أسرع من أبى. وجعلته خالتي بولين

يعتذر بسبب الألفاظ؛ رغم أن أمي سمعت ما هو أسوأ من ذلك، فعندما يشرب أبي كان فمه ينثال بالسياب المتدفق كبالوعة جارئة.

وفي ذلك الوقت، لم تكن نعيش على النقود القليلة التي يأتي بها أبي إلى البيت. كانت أمي تقوم بخياطة القمصان، وكنت أساعدها في ذلك، وكذلك أختي الأصغر كاتي؛ وكانت خالتي بولين هي التي أرشدتها إلى هذا العمل، وكانت تحضر لها الأقمشة وتأخذها قمصاناً مرة أخرى. ولا بد أن ذلك كان أمراً مكافئاً لها بسبب الحصان وضياع الوقت وتجشم مشقة الذهاب والإياب. كما أنها كانت دائماً تأتي معها ببعض الطعام. ورغم أنه كان لدينا قطعة أرض صغيرة نزرعها بالبطاطس والكرنب، إلا أنها لم تكن كافية على الإطلاق؛ ولذلك فقد كانت تحضر قطعاً من بقايا الأقمشة من الدكان، وكانت ثيابنا تصنع من هذه القطع كما هي.

كان أبونا قد توقف عن التساؤل من أين تأتي هذه الأشياء. ففي تلك الأيام يا سيدي، كان الرجل يتفاخر بقدرته على إعالة عائلته، مهما كان رأيه في هذه العائلة؛ ورغم أن أمي كانت ضعيفة الشخصية، إلا أنها كانت من الحكمة بحيث أنها لم تخبره بأي شيء عن ذلك. والشخص الآخر الذي لم يكن يعرف عن ذلك إلا أقل القليل كان العم روي، رغم أنه لا بد قد حدس الأمر، ورأى أن أشياء معينة اختفت من منزله لتظهر في منزلنا. لكن خالتي بولين كانت امرأة قوية الشخصية.

جاء الطفل الجديد، وأصبح الغسيل الملقى على عاتقي أكثر، كما هو الحال دائماً عندما يأتي طفل، وظلت أمي مريضة وقتاً أطول من المعتاد؛ وكان عليّ أن أقوم بإعداد وجبات الغداء إلى جانب الإفطار الذي كنت أعده عادة؛ وقال أبونا أننا يجب أن نخبط الطفل الجديد على رأسه

ونلقيه في حفرة في حقل الكرنب، فسوف يكون أكثر سعادة بكثير تحت الأرض مما لو كان فوقها. وهنا قال أن مجرد النظر إليه يجعله يشعر بالجوع، وأن منظره سيكون أحلى إذا وضع على طبق كبير وحوله بطاطس مقلية وفي فمه تفاحة. ثم سأل لماذا نحملق فيه كلنا.

في ذلك الوقت حدث شيء مدهش. كانت خالتي بولين يائسة من إنجاب الأطفال، ولذا كانت تعتبرنا كلنا أطفالها؛ أما الآن، فقد كانت هناك علامات تدل على أنها بسبيلها لإنجاب طفل. وكانت سعيدة جداً بهذا، وكانت أمي سعيدة من أجلها. لكن العم روى قال لخالتي بولين أنه يجب أن يحدث تغيير، فهو لا يستطيع أن يعول أسرنا الآن، ولديه طفل يجب أن يفكر فيه، ولا بد من تغيير خطط حياتهما. قالت الخالة بولين أنها لا يمكن أن تتركنا نموت جوعاً، مهما كان أبي سيئاً، فأختها هي لحمها ودمها، والأطفال لا ذنب لهم؛ لكن العم روى لم يكن يتحدث عن الموت جوعاً، لقد كان يفكر في الهجرة. كان الكثيرون يهاجرون، وكانت كندا بها أراضٍ كثيرة لا يملكها أحد، وكل ما يحتاجه أبي هو أن يبدأ صفحة جديدة. كانت تلك البلاد بحاجة كبيرة إلى بنائى الحجر، بسبب كل أعمال البناء القائمة هناك على قدم وساق، وقد عرف من مصدر موثوق أنه سرعان ما ستبنى محطات سكك حديدية كثيرة، والرجل يستطيع أن يفعل خيراً كثيراً إذا كانت لديه صنعة.

قالت خالتي بولين أن هذا جيد جداً، ولكن من يدفع تكاليف الرحلة؟ قال العم روى أن لديه بعض المدخرات، وسوف يصرف كل ما في جيبه، وسوف يدبر ما يكفي لدفع تذاكرنا بالإضافة إلى الطعام الذى نحتاجه طوال الرحلة؛ وكان يضع عينه على رجل سيدبر كل شيء لقاء

أجر. كان العم روى قد خطط لكل شيء قبل أن يفتح المناقشة، فهو يحسب أن يعمل لكل أمر حسابه.

وهكذا تقرر الأمر، وجاءت الخالة بولين خصيصاً فى عربتها رغم حملها، لتكرر كل ذلك على مسامع أمى، وقالت أمى أنها يجب أن تتحدث مع ابى وتحصل على موافقته، لكن هذا لم يكن إلا تظاهراً. فالمحتاجون لا يمكنهم الاختيار، ولم يكن مفتوحاً أمامهما أى طريق آخر؛ وكذلك كان بالقرية بعض الرجال الغرباء يتحدثون عن البيت الذى احترق والرجل الذى قتل؛ ويستفسرون ويسألون؛ وبعد ذلك كان أبى فى عجلة للخروج من الطريق.

وهكذا، تظاهر أبى بأن الحكاية جيدة بالنسبة له، وأضاف أنها ستكون بداية جديدة للحياة، وأن هذا كرم من العم روى، وسوف يعتبر نقود الرحلة قرصاً يعيده بمجرد أن تنتعش أعماله؛ وتظاهر العم روى بأنه يصدقه. لم يكن يريد أن يهين أبى، وإنما أراد فقط أن يختفى عن ناظره. وأما عن كرمه، فأظن أنه فكر أن الأفضل له أن يدفع مرة واحدة مبلغاً كبيراً، عن أن يظل يُستنزف بنساً بنساً على مر السنوات حتى الموت؛ وإذا كنت مكانه لفعلت نفس الشيء.

ومن ثم بدأ التنفيذ. تقرر أننا سوف نبحر فى نهاية أبريل، لنصل إلى كندا فى بداية الصيف، ونستمتع بالجو الدافئ حتى نستقر جيداً. وأخذت خالتي بولين وأمى تضعان الكثير من الخطط، والكثير من الخزين وحزم الأمتعة؛ وحاولت كلتاها أن تكون مبتهجة، لكنهما كانتا مكتئبتين. لقد كانتا أختين رغم كل شيء، وخاضتا معاً الحياة بحلوها ومرها، وعرفتا أنهما، بمجرد أن تبحر السفينة، لن نلتقيا على الأرجح مرة أخرى فى هذه الحياة.

وأحضرت خالتي بولين من الدكان ملاءة من قماش قطنى جيد ليس بها إلا عيب صغير، وشالاً ثقيلاً يجلب الدفاء، لأنها سمعت أن الجو بارد فى الناحية الأخرى من المحيط؛ وسلّة صغيرة من الخوص، وفى داخلها براد شاي من الصينى وفنجانان وطبقان، كلها مزدانة برسوم الورود وملفوفة فى القش. وشكرتها أمى كثيراً، وقالت أنها دائماً كانت طيبة معها، وأنها سوف تحتفظ بهذا البراد إلى الأبد ككنز، لأنه تذكّار منها. وكان هناك الكثير من البكاء الصامت.

ذهبنا إلى بلفاست في عربة استأجرها العم روى، وكانت رحلة طويلة متعبة للغاية، لكنها لم تمطر كثيرًا. كانت بلفاست مدينة كبيرة ذات بيوت حجرية، أكبر مكان رأيته في حياتي، وتضج بالعربات والخيول. كان بها بعض المباني الكبيرة، لكن كان بها أيضًا فقراء كثيرون، يعملون في مصانع النسيج ليلاً ونهارًا. كانت مصابيح الغاز قد أوقدت عندما وصلنا في بداية المساء، وكانت شيئًا أراه لأول مرة في حياتي؛ كانت المصابيح تعطي ضوءًا أشبه بضوء القمر ولكن مع اخضرار.

نمنا في فندق كان مليئًا بالبراغيث حتى تظنه بيتًا للكلاب؛ وأخذنا كل الصناديق داخل الغرفة معنا لكي لا يسرق شيء من أمتعتنا. ولم تكن لدى فرصة لرؤية الكثير، ففي الصباح كان يجب أن نصعد إلى ظهر السفينة في الحال، وكان على أن أحث الأطفال على الإسراع. لم يكونوا يفهمون إلى أين نذهب، وأقول لك الحق يا سيدي، لا أظن أن أحدًا منا كان يفهم.

كانت السفينة راسية بطول رصيف الميناء؛ كانت وحشًا هائل الحجم قادمًا من ليفربول، وقيل لي فيما بعد أنها كانت تحمل جذوع أشجار ضخمة من كندا في طريقها شرقًا، ومهاجرين إلى الناحية الأخرى في طريقها غربًا، وكان الأمران ينظر إليهما في ضوء واحد، كحمولة شحن.

فقد كان الناس يسافرون بكل أربطتهم وصناديقهم بالفعل، وبعض النساء كن ينتحبن بشدة؛ لكننى لم أفعل، فلم أكن أرى فائدة للبكاء، وكان أبى يبدو متجهماً وبحاجة للصمت، ولم يكن فى حالة تجعله يمسك عن صفعى بظهر يده.

كانت السفينة تتأرجح أماماً وخلفاً تحت ضخامة الحمل، ولم أشعر بالثقة فيها على الإطلاق. كان الصغار فى حالة انفعال، خاصة الصبيان، لكن قلبى غاص بين ضلوعى لأننى لم أركب سفينة أبداً من قبل، ولا حتى قوارب الصيد الصغيرة فى ميناء بلدتنا، وكنت أعرف أننا سنعبّر المحيط، بعيداً عن مشهد أى أرض، وإذا تحطمت السفينة أو وقع أحدنا من فوقها، فليس منا من يستطيع السباحة.

ورأيت ثلاثة غربان تقف صفاً على عارض الصارية، ورأتها أمى أيضاً، وقالت أن هذا فال سيئ، لأن ثلاثة غربان فى صف واحد تعنى موتاً. وأدهشنى قولها هذا، فلم تكن تعتقد فى الخرافات؛ لكننى أظن أنها كانت فى حالة انقباض، فقد لاحظت أن الذين يشعرون باكتئاب يلتفتون فى الغالب لنذر الشؤم. لكن هذا أخافنى بشدة، رغم أننى لم أظهر ذلك لاهتمامى بالأطفال الصغار: فإذا رأوا رد فعلى فقد يفعلون مثلى، وكان هناك ما يكفى من الضجيج والجلبة بالفعل.

كان والدنا يحاول الظهور بمظهر شجاع، وشق طريقه صاعداً السقالة، حاملاً أكبر ربطة من الثياب والأمتعة، ويحملق حوله وكأنه يعرف كل شىء ولا يشعر بأدنى خوف؛ لكنى أمى صعدت حزينة، وقد لفت شالها حولها، وانهمرت دموعها غزيرة، وشبكت قبضتيها أماً وقالت لى: ما الذى ساقنا إلى هنا. وعندما خطونا على ظهر السفينة قالت: لن نلمس

قدمای الأرض مرة أخرى. قلت: يا أمی، لماذا تقولین ذلك؟ قالت: أشعر بذلك فی قرارة نفسی.

وهذا ما حدث.

دفع والدنا نقودًا لكي تحمل الصناديق الكبيرة فوق السفينة وتُشون؛ كان من المعيب إنفاق النقود هكذا في حالتنا، لكن هذه الطريقة كانت هي الوحيدة الممكنة، فلم يكن يمكنه أن يحمل كل شيء بنفسه، فقد كان الحمالون يلحون بغلظة وفضاظة، وكان من الممكن أن يعطلوه. كان ظهر السفينة شديد الازدحام، والكثيرون في حالة حركة ذهابًا وإيابًا، وكان الرجال يزعقون لكي نبتعد عن طريقهم. وأخذت الصناديق التي لن نحتاجها فوق السفينة إلى غرفة خاصة تظل مغلقة لمنع السرقة، وكان خزين الطعام الذي أحضرناه معنا للرحلة له مكانه أيضًا؛ لكن الملاءات والأغطية أنزلت إلى أسفل لنعطي بها أسرتنا؛ وأصرت أمی على الاحتفاظ ببراد الخالة بولين معها، فلم تكن تريده أن يغيب عن عينيها؛ وربطت السلة الخوص إلى عمود السرير بحبل من القنب.

كان مكان نومنا تحت السطح، أسفل سلم قذر يؤدي إلى ما يسمونه العنبر، والذي كان يغص كله من الداخل بالأسرة، وكانت عبارة عن ألواح خشبية صلبة وخشنة ممسرة إلى بعضها بشكل سيئ وطول كل منها ستة أقدام وعرضها ستة أقدام، ومخصص لفردين، وثلاثة أو أربعة إذا كانوا أطفالًا؛ وكانت من طابقين، واحد فوق الآخر، وكان بين الواحد والآخر مساحة لا تكفي للمرور إلا بالكاد. وعندما تكون في السرير السفلي لا تجد مساحة للجلوس بشكل سوى، فإذا حاولت سوف تخبط رأسك في السرير العلوي، وإذا كنت في السرير العلوي فإن احتمال الوقوع كبير،



وإذا وقعت فالمسافة كبيرة. كان الجميع معًا، متكديسين كالرنجة في الصندوق، ولم يكن ثمة نوافذ أو أى وسيلة لدخول الهواء، إلا فتحات الأرضية التى تؤدى إلى أسفل. وصحيح أن الهواء كان فاسدًا وخانقًا، ولكن ليس أبدًا مثل الحالة التى أصبح عليها فيما بعد. كان علينا أن نسرع باحتجاز أسرّتنا وأن نضع أشياءنا عليها فى الحال، فقد كان الدفع والتزاحم على قدم وساق، ولم أكن أريد أن نفترق عن بعضنا البعض، تاركين الأطفال وحدهم خائفين فى مكان غريب بالليل.

أبحرت السفينة فى الظهيرة، عندما تم شحن كل شىء. وما أن رفعوا المرساة حتى تيقنت أنه لا عودة إلى الأرض، وتم استدعاؤنا بالجرس ليتحدث القبطان إلى الناس، وكان أسكتلنديًا جنوبيًا وذا بشرة أشبه بالجلد. قال لنا أننا يجب أن نطيع قواعد السفينة، وأن أى نار طهى ممنوعة، فكل طعامنا سيطبخه طبّاخ السفينة إذا جىء به بمجرد سماع الجرس؛ وممنوع تدخين الغليون، خاصة فى قاع السفينة، فقد يؤدى ذلك إلى إشعال الحرائق، ومن لا يستطيعون الاستغناء عن الدخان يمكنهم مضغه ثم لفظه. ولن يكون هناك غسل للثياب إلا فى الأيام التى يكون فيها الجو مناسبًا، وهو الذى سوف يحدد ذلك؛ لأنه إذا كان الجو عاصفًا فقد نفقد أشياءنا المنشورة فوق السطح، وإذا أمطرت سيكون العنبر فى حالة رطوبة عالية بالليل، وأكد لنا أن هذا سيكون شيئًا غير ممتع إطلاقًا.

كان ممنوعًا أيضًا إحضار فرش النوم إلى ظهر السفينة لتهويته بدون استئذان، وكان على الجميع إطاعة أوامره هو والضابط الأول، وأى من الضباط الآخرين، فسلامة السفينة تتوقف على ذلك، وفى حالة أى خروج عن النظام فسوف يتم حبسنا فى حجرة صغيرة، ولذا فهو يأمل ألا يحاول أحد أن يختبر مدى صبره. وفوق ذلك، قال أنه لا تسامح مع

الشرب حتى الثمالة، فهو يؤدي إلى السقوط من فوق ظهر المركب؛ ويمكننا أن نشرب كما نشاء بمجرد أن ننزل إلى البر، ولكن ليس على سفينته؛ ومن أجل سلامتنا، لن يسمح لنا بالصعود إلى ظهر المركب بالليل، فقد نتوه فوق السفينة. وليس بمقدور البحارة أن يقوموا بأمر أخرى فوق واجباتهم، ولا أن تتم رشوتهم من أجل خدمات معينة؛ وأن لديه عينين خلف رأسه، وسوف يعرف أي محاولة لذلك في الحال. وكما يشهد رجاله، فهو يدير سفينة محكمة القيادة، وفي عرض البحر كلمة الكابتن هي القانون.

وفي حالة المرض، يوجد طبيب على السفينة، لكن من المتوقع أن الأغلبية سوف يشعرون بأنهم ليسوا على مايرام حتى يعتادوا على الحياة في البحر، ولا يجب إزعاج الطبيب بالتوافه، مثل حالات دوار بحر بسيط؛ وإذا سار كل شيء على ما يرام فسوف نكون على الأرض مرة أخرى في خلال ستة إلى ثمانية أسابيع. وفي النهاية، تمنى أن يقول أن كل سفينة عائمة فيها فأر أو اثنان على سطحها، وأن هذه علامة حظ، لأن الفئران قادرة على أن تعرف أن سفينة ما سوف تغرق، ومن ثم فهو لا يريد إزعاجًا بهذا الشأن إذا صادف أن امرأة طيبة المنبت وقعت عينها على أحد الفئران. وافترض أن لا أحد منا قد رأى فأرًا من قبل – وسرت ضحكات بين الجمع – ولكن في حالة ما إذا كنا نرغب في الاطلاع عليها، فإن لديه واحدًا قتل حديثًا، وهو مثير للشهية إذا كنا نشعر بالجوع. وازداد الضحك، فقد كان يقول نكتة ليشعرنا بمزيد من الألفة.

وعندما توقف الضحك، قال أنه سيلخص المسألة: ليست سفينته قصر باكينجهام، ونحن لسنا ملكة فرنسا، ومثل كل شيء في الحياة، يأخذ المرء لقاء ما يدفع. وتمنى لنا رحلة سعيدة ثم انسحب إلى كابينته، وتركنا

لنهيئ أنفسنا على أفضل ما نستطيع. والأرجح أنه غي نفسه كان يتمنى أن نذهب جميعاً إلى قاع البحر، طالما استطاع أن يحتفظ بنقود الرحلة. ولكن على الأقل كان يبدو أنه يعرف ما هو مقدم عليه، وجعلنى ذلك أشعر براحة. ولا أحتاج لأن أخبرك أن كثيراً من تعليماته لم تتبع، خاصة التعليمات بشأن التدخين والشرب؛ ولكن الذين فعلوا ذلك كانوا يفعلونه على حذر.

فى البداية لم تكن الأمور سيئة جداً. خفت السحب وكانت الشمس تظهر من حين لآخر، وبقيت على السطح أراقبهم يخرجون بالسفينة من الميناء، ولم أشعر بقلق من الحركة طالما كنا لا نزال فى حماية الأرض. لكن بمجرد أن خرجنا إلى البحر الأيرلندى ومدوا أشرعة أكثر، بدأت أشعر بالغثيان وبأنى لست على ما يرام، وسرعان ما تقيأت إبطارى داخل بالوعة السفينة، وأنا أمسك اثنتين من أخوتى الصغار كلاً فى يد، وكانا يفعلان نفس الشيء. ولم أكن وحدى على الإطلاق فى ذلك، فقد وقف كثيرون مثل الخنازير أمام المسقاة. واستلقت والدتنا أرضاً، وأبى كان أكثر غثياناً منى، فلم يكن أحدهما يمكنه فعل شىء للأطفال. ومن حسن الحظ أننا لم نتناول غداء أو أى شىء يمكن أن يجعل الحالة أسوأ. وكان البحارة مستعدين لهذه الحالة، فقد رأوها من قبل، فوقفوا يحملون جرادل من المياه المالحة لغسل كل شىء.

بعد قليل، أحسست بأننى أفضل، ولا بد أن هواء البحر المنعش أفادنى، أو أننى كنت قد بدأت التعود على الحركة المترنحة المتأرجحة للسفينة. وبالإضافة إلى ذلك، وسامحنى أن أصف الأمر بهذه الطريقة يا سيدى، لم يكن لدينا شىء يسبب الغثيان؛ وطوال الفترة التى قضيتها على السفينة لم أشعر بالمرض كهذه المرة. لم تكن هناك إمكانية أى عشاء

لعائلتنا، فقد كان الجميع فى حالة توعك؛ لكن أحد البحارة قال لى إذا استطعنا أن نشرب بعض الماء ونأكل قطعة من بسكويت السفينة فسوف يكون أفضل لنا؛ وحيث أننا كنا نحمل مئونة من البسكويت حسب تعليمات العم روى، فقد فعلنا ذلك بقدر ما استطعنا.

وتحسنّت الأمور قليلاً حين دخل الليل، ثم كان علينا أن ننزل إلى أسفل، وساعتها ساءت الأحوال كثيراً. وكما قلت قبلاً، كان المسافرون جميعاً محشورين معاً، لا جدران تفصل بينهم، وأغلبهم مرضى كالكلاب، وهكذا لم نكن فقط نسمع آهات جيراننا الذين يتجشأون ثم يتقيأون، والتي تصيبنا بالغثيان بمجرد سماعها. ولكن أيضاً لم يكن هناك أى هواء يدخل المكان، ومن ثم ازداد جو العنبر فساداً ورداءة على مر الوقت، وكانت الرائحة كافية لأن تقلب ما بداخل أمعائنا.

واعذرني يا سيدى إذ أقول هذا، لم تكن هناك طرق ملائمة لإراحة الأمعاء. كانت هناك جرادل معدة لذلك، ولكن على مشهد من الجميع، أو أنها كانت تصبح كذلك لو كان هناك أى ضوء؛ لكن ما كان هو أننا نسمع أصوات من يتعثرون فى الظلام، ولعنات، وبعض الجرادل تتقلب خطأً، ويندلق ما فيها، وحتى لو لم تتقلب الجرادل فإن ما اندفع من القيء خارجها كان يتساقط على الأرض. وحمدًا لله أنها لم تكن أرضاً شديدة الصلابة، فقد كان كل هذا يمكن أن يتسرب إلى أسفل حيث يوجد خزان السفينة. كان هذا يا سيدى يجعلنى أتأمل، أنه فى بعض الأوقات كانت النساء مع تنوراتهن أفضل حالاً من الرجال بينطلوناتهم، فعلى الأقل كان يمكننا أن نجعل التنورة حولنا كنوع من الخيمة الطبيعية، بينما كان الرجال المساكين عليهم أن يترنحوا فى الظلام بينطلوناتهم وقد نزلت حتى كواحلهم. لكن، كما قلت لك، لم يكن هناك ضوء فى الغالب.

ماذا يمكن أن يكون مع تأرجح السفينة واندفاعها وصرير أخشابها، وتلاطم الأمواج، والضوضاء والروائح النتنة، والفئران تجرى ذهابًا وإيابًا بمنتهى الجراءة كالسادة والسيدات، كنا في حالة أشبه بالأرواح الشقية في جهنم. فكرت في يونس في بطن الحوت، ولكنه كان أفضل حالاً، فلم يبق فيها إلا ثلاثة أيام، وكان أمامنا ثمانية أسابيع؛ وكان في البطن وحده، ولم يكن مضطراً للاستماع إلى أنين الآخرين وتقيئهم.

بعد عدة أيام، تحسنت الحال، فقد شفى الكثيرون من دوار البحر؛ لكن الهواء كان دائماً متقلاً بالليل، ودائماً كان هناك ضجيج. ومن المؤكد أن أصوات الغثيان كانت أقل، لكن أصوات الكحة والغطيط كانت أكثر؛ وكذلك كان هناك كثير من البكاء والصلوات، وهو أمر يمكن فهمه في هذه الظروف.

أنا لا أقصد الإساءة إلى مشاعرك يا سيدي، لقد كانت السفينة رغم كل شيء مجرد بيت حقير متداع في حالة حركة، ولكن دون خمارات مجاورة، وأنا أسمع أن السفن أصبحت أحسن حالاً الآن.

هل تحب أن تفتح النافذة؟

كان لكل هذه المعاناة تأثير واحد طيب. كان الركاب خليطاً من الكاثوليك والبروتستانت، وبعض الإنجليز والإسكتلنديين الذين جاءوا من ليفربول فوق البيعة؛ ربما لو كانوا بصحة جيدة لتشاجروا وتتأحروا، فلا حب يجمع بينهم. لكن لا يوجد شيء مثل نوبات دوار البحر القوية لإزالة أي رغبة في الشجار. وكثيراً ما رأيت أولئك الذين كان يمكن أن يقطعوا رقاب بعضهم على الأرض بكل سرور، وهم يمسكون بأيدي بعضهم فوق البالوعات، مثل أكثر الأمهات حناناً؛ وقد لاحظت نفس الشيء في السجن، فالضائقة تجعل الغرباء ينامون سوياً في فراش واحد. وربما

تكون الرحلة البحرية والسجن هي تذكرة من الله لنا بأننا جميعاً لحم ودم، وأن كل اللحم والدم كالعود الأخضر، وكل اللحم والدم ضعيف. أو هذا ما اعتقده.

بعد عدة أيام اعتدت على حركة السفينة، وهكذا استطعت أن أنزل على السلم، وأن أصعد إلى السطح وأتولى إعداد الوجبات. كانت كل عائلة تحمل معها مؤننها، وكان الطعام يعطى لطباخ السفينة ويوضع فى كيس من الشبك، ويغطس فى مرجل من الماء المغلى ويغلى مع وجبات الآخرين جميعاً؛ ومن ثم فأنت لا تأخذ طعامك وحده، وإنما من طعام كل ما يأكله الآخرون أيضاً. أكلنا لحم الخنزير المملح، ولحم البقر المملح؛ أخذنا بعض البصل وبعض البطاطس، رغم أننا لم نأت معنا إلا بالقليل من ذلك بسبب الوزن؛ وكذلك بسلة مجففة، والكرنب الذى انتهى بسرعة، لأننى شعرت بأنه يجب أن نأكله قبل أن يفسد. أما الشعير فلم يكن من الممكن غليه فى المرجل الرئيسى، ولكنه كان يخلط بالماء الساخن ويترك منقوعاً فيه، وكذلك الشاي. وكان معنا بسكويت كما قلت من قبل.

كانت خالتي بولين قد أعطت أمى ثلاث ليمونات تساوى وزنها ذهباً، قالت أنها معروفة جيداً بفائدتها فى مقاومة الإسقربوط؛ وقد حفظتها جيداً لتتفع عند الحاجة إليها. وبوجه عام، كنا نأكل ما يكفى للإبقاء على قوانا، وكان هذا يعنى أننا نأكل أكثر من بعض أولئك الذين أنفقوا نقودهم الأساسية على الرحلة؛ وكان لدينا بعض الفائض، أو هكذا شعرت، لأن أبويننا لم يكونا فى حالة طيبة تجعلهما يأكلان نصيبهما من الطعام. ومن ثم كنت أعطى بعض البسكويت لجارتنا، التى كانت امرأة عجوزاً اسمها مسز فيلان، وقد شكرتني كثيراً وقالت باركك الله. كانت كاثوليكية، وتساfer مع طفلى ابنتها اللذين بقيا بعد أن هاجرت العائلة؛ والآن كانت تأخذهما إلى مونتريال، بعد أن دفع زوج ابنتها تكاليف الرحلة؛ وساعدتها

فى العناية بالطفلين. وفيما بعد شعرت بأن ذلك كان شيئاً طيباً. فالخبز المقسوم فوق المياه يعود إليك عشرة أضعاف، أنا واثقة أنك سمعت ذلك كثيراً يا سيدى.

وعندما قيل لنا أنه يمكننا أن نغسل ثيابنا، لأن الجو كان صافياً، والريح جافة وطيبة – وكنا فى أشد الحاجة لذلك بسبب كل حالات الغثيان – صنعت غطاء لملابسها كما فعلت لملابسنا. لم يكن الأمر غسلاً حقاً، فكل ما كان يمكننا استخدامه دلاء من مياه البحر قدمت لنا، ولكنها كانت كافية للتخلص من أسوأ القاذورات على الأقل، رغم أن الملابس بعد ذلك كانت لها رائحة الملح.

وبعد عشرة أيام فى عرض البحر، هاجمتنا عاصفة هوجاء، وتقاذفت الأمواج السفينة كما لو كانت سداة من الفلين فى حوض الغسيل، وأصبحت الصلوات أشد حرارة، والصرخات أشد عنفاً. ولم يكن ثمة مجال لأى طبيخ. وفى الليل كان النوم مستحيلًا، فقد تتجرف من فوق السرير إن لم تتمسك جيداً. وأرسل الكابتن الضابط الأول ليطلب منا الهدوء، فهى مجرد نوة عادية ولا شىء يمكن فعله، كما أنها تقذف بنا فى الاتجاه الذى نريده. لكن المياه كانت تتسرب إلى فتحات الأرضية، ومن ثم فقد أغلقوها؛ وأصبحنا جميعاً محبوسين فى العنبر المظلم والهواء أقل حتى مما كان لدينا من قبل، وفكرت أننا جميعاً سوف نخنق. ولكن لا بد أن الكابتن كان يعرف ذلك، لأن الفتحات كانت تفتح من وقت لآخر. وأصيب الذين يجلسون بقرب الفتحات ببلى شديد، وجاء دورهم ليدفعوا ثمن كمية أفضل من الهواء تمتعوا بها قبل ذلك.

انتهت النوة بعد يومين، وأقام البروتستانت صلاة شكر عامة، وكان هناك كاهن على السفينة تلا صلاة للكاتوليك؛ وكان من المستحيل تجنب حضور الصلاتين، إذا صح هذا، بسبب حالة التكديس؛ ولكن أحدًا لم يعترض على ذلك؛ فكما قلت، تعامل الناس بقدر من التسامح أكثر مما كانوا يفعلون على الأرض. أنا نفسي كنت أتعامل بوجد شديد مع السيدة فيلان العجوز، وكانت أكثر نشاطًا في حركتها في ذلك الوقت من أمي التي استمرت في حالة ضعف.

بعد النوة، أصبح الجو أكثر برودة. وبدأنا نرى الضباب، ثم قطعًا طافية من الثلج، والتي قيل أنها أكثر من المعتاد في هذا الوقت من العام، وصرنا نتحرك ببطء خوفًا من أن نصطدم بها؛ فقد ذكر البحارة أن الجزء الأكبر منها يختفي تحت المياه. ومن حسن الحظ أنه لم يكن ثمة رياح شديدة، وإلا اصطدمت المركب بواحد منها، وتحطمت؛ لكنني لم أتعب أبدًا من النظر إليها. كانت جبالاً عظيمة من الجليد، ولها قمم وذراء، بيضاء لامعة عندما يقع عليها ضوء الشمس، وفي مركزها أضواء زرقاء؛ وفكرت أن هذا لا بد أن يكون الشيء الذي صنعت منه جدران السماء، ولكن لا بد أنها أكثر دفئًا.

وفي هذا الوقت، والمركب تتهادى وسط قطع الثلج الطافية، وقعت أمي فريسة مرض شديد. كانت ترقد في فراشها معظم الوقت بسبب دوار البحر، ولم تأكل إلا البسكويت والمياه وقليلًا من العصيدة المصنوعة من الشعير. ولم يكن أبي أفضل كثيرًا، وإذا كنا نحكم على قدر التأوهات، فقد كان أسوأ حالًا؛ وكان كل شيء في حالة مؤسفة، ففي فترة العاصفة لم نكن نستطيع الغسيل أو تهوية الفرش. ولذا فلم ألاحظ في البداية الحالة السيئة التي أصبحت عليها أمي. لكنها قالت أنها تعاني من صداع عنيف



حتى أنها لا تستطيع الرؤية تقريبًا، وأحضرت أقمشة مبللة ووضعتها على رأسها، ووجدت أنها تعاني من الحمى. ثم بدأت تشتكى من آلام شديدة في بطنها. وضعت يدي عليها. كان هناك تورم متحجر. فكرت أنه ربما كان لديها فم صغير آخر لنطعمه رغم أنني لم أعرف كيف حدث ذلك بهذه السرعة.

من ثم، فقد أخبرت السيدة فيلان التي قالت لى أنها قامت بالتوليد ست عشرة مرة، منها تسع مرات لنفسها؛ وجاءت على الفور، وتحسست الشيء، وهى تنخس وتزغد، وصرخت أُمى؛ وقالت السيدة فيلان أنني يجب أن أرسل لطبيب السفينة. ولم أكن أحب ذلك، لأن الكابتن قال أنه يجب ألا نزعجه على توافه؛ لكن السيدة فيلان قالت أن هذا لم يكن شيئًا تافهًا، وأنه لا يوجد طفل أيضًا.

سألت أبى، لكنه قال أن لى أن أفعل ما يعجبني بحق الشيطان، فهو مريض لدرجة أنه لا يستطيع التفكير فى الأمر؛ وأخيرًا أرسلت إلى الطبيب. لكنه لم يأت، وكانت حالة أُمى تسوء ساعة بساعة. وفى هذا الوقت، كانت قد أصبحت غير قادرة على الكلام تقريبًا، اللهم إلا كلمات لا معنى لها.

قالت السيدة فيلان أن هذا عار، وأنها لو كانت بقرة لاهتموا بها أكثر من ذلك، وقالت أن أفضل طريقة لإحضار الطبيب هى أن نقول أنه قد يكون التيفوس أو الكوليرا، فلا شيء على الأرض يخافه البحارة أكثر من هذين المرضين. وفعلت ذلك، وجاء الطبيب فورًا.

ولكن ذلك الطبيب لم يكن أكثر فائدة – ومعدرة يا سيدى – من صياح الديك، كما كانت مارى هويتتى تقول، لأنه بعد أن جس الطبيب

نبضها وتحسس جبينها، وسأل أسئلة لم يكن ثمة إجابة عليها، كان كل ما قاله هو أن الحالة ليست كوليبرا، ولم أكن بحاجة لمعرفة ذلك، فقد اختلقت الأمر بنفسى. أما ماذا كانت تعاني، فلم يكن يعرف بالضبط؛ الأرجح أنه ورم، أو حويصلة، أو ربما انفجار الزائدة الدودية؛ وأنه سيعطيها شيئاً مخففاً للآلام، وقد فعل ذلك فعلاً. وأظن أنه كان مستحضراً قوياً، من الأفيون، وجرعة كبيرة منه بكل تأكيد، لأن أمى سرعان ما هدأت، ولا شك أن هذا كان هدفه. قال أننا ليس أمامنا إلا الأمل فى أن تتخطى الأزمة؛ لكن لم يكن من سبيل لتحديد المرض دون فتح بطنها، وهذا سوف يقتلها بكل تأكيد.

سألت إذا كان يمكن أن نحملها إلى ظهر المركب، للحصول على بعض الهواء، لكنه قال سوف يكون من الخطأ أن نحركها. ثم ذهب بأسرع ما يستطيع، وهو يلقي بملاحظة غير موجهة لشخص معين بأن الهواء ثقيل جداً، وأنه كاد يخنق. ولم أكن بحاجة إلى معرفة ذلك أيضاً.

ماتت أمى فى تلك الليلة. وأتمنى لو كنت أستطيع أن أقول لك أنها رأت رؤيا ملائكية فى النهاية، وأنها قالت لنا كلمات طيبة وهى على فراش الموت، كما يقال فى الكتب؛ لكن إذا كانت قد رأت أى رؤيا فقد احتفظت بها لنفسها، لأنها لم تقل كلمة واحدة عنها أو عن أى شىء آخر. أما أنا فقد وقعت نائمة، رغم أننى كنت أريد أن أظل مستيقظة لأرهاها، وعندما استيقظت فى الصباح كانت ميتة كسمكة الماكريل، عيناها مفتوحتان ومحدقتان. ووضعت السيدة فيلان ذراعها حولى، ولفتنى بشالها، وأعطتنى شراباً من زجاجة خمر كانت تحتفظ بها كدواء؛ وقالت أن البكاء يمكن أن يفيدنى، وأنها على الأقل ارتاحت من المعاناة، وسوف تكون الآن فى السماء مع القديسين المباركين، حتى رغم أنها من البروتستانت.

قالت السيدة فيلان أيضاً أننا لم نفتح نافذة لتخرج الروح منها، كما هي العادة؛ لكن ربما لن يؤخذ ذلك على أمى المسكينة، لأنه لا توجد نوافذ أصلاً في قاع السفينة، ومن ثم لا شيء يمكن فتحه. ولم أسمع في حياتي عن مثل هذه العادة.

لم أبك. شعرت كما لو كنت أنا من مات وليس أمى؛ وجلست كما لو أصبت بشلل، ولم أكن أعرف ماذا يجب أن أفعل بعد ذلك. لكن السيدة فيلان قالت أننا لا يمكن أن نتركها راقدة هناك، وسألتني إن كان عندي ملاءة بيضاء لتكفينها. وهنا بدأت أشعر بقلق طاغ، لأنه لم يكن لدينا سوى ثلاث ملاءات. كانت اثنتان منها قديمتين وبليتا من الوسط، فتم قصهما وقلبهما، وهناك الملاءة الجديدة التي أعطتها لنا خالتي بولين؛ ولم أعرف أيها أستخدم. بدا أنه من غير اللائق أن نستخدم ملاءة قديمة، ولكن إذا استخدمنا الجديدة فسوف يكون نوعاً من التبديد بالنسبة للأحياء. وتركز كل حزني، إذا صح التعبير، على موضوع الملاءات. وأخيراً سألت نفسي ماذا كانت أمى تفضل، وما دامت عاشت تضع نفسها في المقام الثاني، قررت أن أستخدم الملاءة القديمة، وقد كانت على الأقل نظيفة نوعاً.

وإذ تم إخطار الكابتن، جاء بحاران لحمل أمى إلى سطح المركب؛ وجاءت السيدة فيلان معي، وأعددناها وأغلقتنا عينيها وأسدلنا شعرها الجميل، لأن السيدة فيلان قالت أن الجسد لا يجب أن يدفن بشعر معقوص. وتركتها في نفس الثياب التي كانت تلبسها، ما عدا الحذاء. احتفظت بحذائها وشالها أيضاً، فلن تكون بحاجة إليهما. كانت تبدو شاحبة وواهنة، مثل زهرة ربيعية، ووقف الأطفال يبكون؛ وجعلت كلاً منهم يقبلها على جبينها، وهو ما كنت لأفعله لو كنت أشك أنها ماتت من مرض معد. وقام أحد البحارة، الذي كان خبيراً بهذه الأشياء، بلف الملاءة حولها جيداً،

وربطها بقوة في سلسلة حديدية قديمة عند قدمها؛ لجعلها تغرق. وقد نسيت أن أقص خصلة من شعرها لأحتفظ بها، وهو ما كان يجب أن أفعله، لكنني لم أتذكر ذلك وسط اضطرابي.

وما أن غطى وجهها بالملاءة، انتابتنى فكرة أنها لم تكن أمي الموجودة تحتها حقًا، بل امرأة أخرى؛ أو أن أمي قد تغيرت، وأنني إذا كشفت الملاءة عنها الآن، فسوف تكون شخصًا آخر تمامًا. ولا بد أن صدمة هذه الأحداث هي التي جلبت مثل هذه الأفكار إلى رأسي. ومن حسن الحظ أنه كان هناك قس أنجليكاني على المركب، وكان يقوم بالتصليب في إحدى الكبائن، وهو نفس القس الذي أقام صلاة الشكر بعد النوبة؛ وقرأ صلاة قصيرة، واستطاع أبي أن يصعد السلم من العنبر، ووقف هناك ورأسه محية، وبدا في حالة سيئة وغير حليق الذقن، ولكنه كان موجودًا على الأقل. ثم أنزلت أمي المسكينة، وقطع الثلج طافية حولنا، والضباب يلفنا، إلى البحر. لم يكن لدى فكرة أين ستذهب حتى هذه اللحظة، وكان إحساسي مريعًا، أن أراها تغوص لأسفل في ملاءة بيضاء بين كل الأسماك المحدقة. كان هذا أسوأ من الدفن في الأرض، لأننا، عندما يُدفن الناس في الأرض، نعرف على الأقل أين ذهبوا.

انتهى كل شيء بهذه السرعة، ومضى اليوم التالي كما مضت الأيام السابقة، ولكن فقط بدون أمي.

في تلك الليلة، أخذت إحدى الليمونات وقطعتها، وجعلت كل واحد من الأطفال يأكل جزءًا منها، وأكلت قطعة منها أنا أيضًا. كانت شديدة الحمضية حتى أنك تشعر بأنها لا بد أن تفيدك بشيء. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطعت أن أفكر في فعله.

والآن، لم يبق إلا شيء واحد أخبرك به عن هذه الرحلة. عندما هداً البحر تماماً، وتوقفت الرياح، ووسط أكثر الضباب كثافة، وقعت السلة الخوص ومعها براد الخالة بولين على الأرض، وانكسر البراد. وقد ظلت السلة مكانها طوال العاصفة، طوال التآرجح والتخبط؛ مربوطة في عمود السرير.

قالت السيدة فيلان أنها ولا بد قد فُكَّت، وأن أحداً كان يحاول سرقتها ولكنه توقف عندما وجد نفسه معرضاً لأن يراه أحد، وأنها لم تكن أول شيء يسرق بهذه الطريقة. لكنى لم أفكر في ذلك. لقد فكرت أنها كانت روح أمى، محبوسة في قاع السفينة لأننا لم نستطع أن نفتح نافذة، وأنها غاضبة منى بسبب الملاءة. والآن، ربما تظل محبوسة هنا إلى الأبد، أسفل السطح في محبس، مثل فراشة في زجاجة، تبحر ذهاباً وإياباً عبر المحيط المظلم الكئيب، مع المهاجرين في الذهاب، ومع ألواح الخشب في العودة. وجعلتني تلك الفكرة أشعر بتعاسة شديدة.

كما ترى، كم من أفكار غريبة يمكن أن يفكر فيها المرء. لكننى، فى ذلك الوقت، لم أكن إلا فتاة صغيرة، وشديدة الجهل.

كان من حسن الحظ أن الريح لم تهدأ بعد ذلك أبدًا، وإلا لنفذ الطعام والماء؛ لكن الريح عصفت وانقشع الضباب، وقالوا أننا قد عبرنا نيوفاوندلاند بسلام، رغم أن هذه لم تمر بناظري، ولم أكن واثقة هل هي مدينة أم بلد؛ وسرعان ما وصلنا إلى نهر سان لورنس، رغم أننا لم نر أي أرض قبل وقت طويل. وعندما رأينا الأرض، نحو الجانب الشمالي من السفينة، كانت كلها صخورًا وأشجارًا، وبدت معتمة ومنيعة، ولا تصلح لسكنى الإنسان على الإطلاق؛ وكانت هناك أعداد هائلة من الطيور تصرخ كأرواح هائمة، وكنت أمل أننا لن نضطر للحياة في مثل هذا المكان.

لكن، بعد بعض الوقت، بدأت المزارع والبيوت تظهر على الشاطئ، وبدت الأرض أكثر هدوءًا، أو أكثر ألفة كما يقولون. وكان مطلوبًا منا أن نقف عند جزيرة وأن يتم فحص الناس ضد الكوليرا، فقد حدث من قبل مرات عديدة أن جاءت إلى البلاد على ظهور السفن؛ لكن ما حدث على سفينتنا من وفيات كان لأسباب أخرى - مات أربعة غير أمي، اثنان من سل الرئة، وواحد بالسكتة، وواحد قفز من فوق السطح - ومن ثم سمح لنا بالمرور. وقد سنحت لي فرصة لتنظيف الأطفال جيدًا في

مياه النهر، رغم أنها كانت شديدة البرودة – ولكنني على الأقل غسلت لهم وجوههم وأذرعهم، فقد كانوا في أشد الحاجة لذلك.

وفي اليوم التالي، رأينا مدينة كويبيك، كانت تشرف على النهر من فوق سفح شديد الانحدار. كانت البيوت من الحجر، وكان هناك باعة متجولون عند المرفأ في الميناء يبيعون بضائعهم، وأمكنتني أن أشتري بعض البصل الطازج من بائعة منهم لم تكن تتكلم إلا الفرنسية، لكننا استطعنا أن نتم البيع بالعد على أصابعنا؛ وأعتقد أنها أعطتني سعراً أفضل بسبب الأطفال ووجوههم النحيفة. كنا في أشد الحاجة لهذا البصل لدرجة أننا أكلناه نيئاً، كالتفاح، وهو ما سبب لنا غازات فيما بعد، لكنني لم أكن أعرف أن طعم البصل لذيذ إلى هذه الدرجة.

نزل بعض المسافرين من السفينة في كويبيك، ليجربوا حظهم هناك، ولكننا واصلنا.

لا أستطيع تذكر شيء آخر يمكن ذكره عن باقي الرحلة. كانت مزيداً من السفر، وأغلبها متعباً، وأحياناً كنا نسير على الأرض لتجنب التيارات النهرية السريعة، ثم ركبنا سفينة أخرى في بحيرة أوننتاريو، التي كانت أقرب إلى أن تكون بحراً لا بحيرة. كانت هناك أسراب من الذباب الصغير القارص، وبعوض كبير كالفران؛ وكنت أخشى أن يظل الأطفال يحكون جلودهم حتى الموت. كان والدنا في حالة من الاكتئاب والحزن، وكثيراً ما كان يقول أنه لا يعرف كيف سيدبر أموره بعد موت أمي. وفي تلك الأوقات كان أفضل شيء هو السكوت.

أخيراً وصلنا إلى تورنتو، والتي كانت حيث قيل لنا أننا يمكن أن نحصل على أرض بلا ثمن. لم تكن المدينة في حالة طيبة، رطوبة

ومسطحة؛ وفي ذلك اليوم كانت تمطر، وكان هناك الكثير من العربات والناس يسرعون، وكميات كبيرة من الوحل، إلا في الشوارع الرئيسية التي كانت معبدة. كان المطر ناعماً ودافئاً، وكنا نشعر بالهواء كثيفاً كهواء المستنقع، كما لو كان زيتاً يلتصق بالبشرة، وهو ما عرفت فيما بعد أنه كان أمراً عادياً في هذا الفصل من السنة، ويتسبب في العديد من أمراض الصيف وحمياته. كان هناك بعض الإضاءة الغازية، ولكن ليست كثيرة كما في بلفاست.

وبدا أن الناس خليط من أنواع كثيرة، كثير من الإسكتلنديين، وبعض الأيرلنديين، وبالطبع الإنجليز، وكثير من الأمريكيين، وقليل من الفرنسيين، والهنود الحمر، رغم أنهم لا يضعون ألبسة الريش؛ وبعض الألمان؛ ناس من جميع الألوان، وكان هذا شيئاً جديداً تماماً بالنسبة لى؛ ولا يمكن لك أن تعرف أبداً أى لهجة أو لغة ستسمعها. كان بالمكان كثير من الحانات، وكثير من السكارى حول الميناء، بسبب البحارة، وكان كل شيء أشبه ببرج بابل.

لكننا لم نرى شيئاً من المدينة في ذلك اليوم الأول، فقد كنا بحاجة للحصول على سقف يؤوينا بأقل تكلفة ممكنة. وضرب والدنا صحبة مع رجل من السفينة، وكان لديه بعض المعلومات؛ وتركنا مع بعض من مشروب التفاح، متكديسين مع صناديقنا في غرفة من حانة كانت أكثر قذارة من حظيرة خنازير، وذهب ليحصل على مزيد من المعلومات.

عاد أبى فى الصباح، وقال لنا أنه وجد مكاناً للإيجار، ومن ثم ذهبنا إليه. كان إلى الشرق من الميناء، متفرعاً من شارع لوت، وفي خلفية بيت عاش أياماً أفضل. كانت صاحبة البيت اسمها مسز بيرت، أرملة



محترمة كان زوجها بحرياً، أو هكذا قالت لنا، لها وجه يتميز بالحمرة والاستدارة، ولها رائحة السمك المدخن؛ وكانت تكبر أبى ببضع سنوات. كانت تعيش فى الجزء الأمامى من البيت الذى كان بحاجة شديدة للدهان. وسكنا فى غرفتين تقعان فى خلفية المبنى وتبدوان كمبنى خارجى. لم يكن ثمة قبو تحته، وأسعدنى أننا لم نكن فى الشتاء، وإلا لعصفت الريح داخله. كانت الأرضيات من ألواح خشب عريضة، قريبة من الأرض للغاية، وكانت الخنافس وغيرها من المخلوقات الصغيرة يمكن أن تتفد من خلال الشقوق فيما بينها، وبعد المطر كان الحال أسوأ، وفى صباح أحد الأيام وجدت دودة حية.

لم تكن الغرفتان مؤثنتين، لكن السيدة بيرت أعارتنا سريرين عليهما مرتبتان محشوتان بالقش إلى أن يتمكن أبى من الوقوف على قدميه مرة أخرى، كما قالت، بعد الظروف المؤلمة التى عاناها. كانت توجد طلمبة ماء خارج البيت فى الفناء؛ وأما بالنسبة للطعام، فقد كان يمكننا استخدام موقد حديدى، موجود فى الممشى الذى يصل بين جزأى البيت، ولم يكن موقد طهى بالفعل، وإنما كان يستخدم فى التسخين، ولكننى فعلت أقصى ما أستطيع معه، وبعد قليل من الصراع تعلمت كيف يعمل، واستطعت أن أجعله يغلى الأشياء. وكان هذا أول موقد حديدى أتعامل معه، ويمكنك أن تتخيل أنه كانت هناك لحظات من القلق، إذا تغاضينا عن الدخان. ولكن الوقود كان متوفراً، فقد كانت البلاد كلها مغطاة بالأشجار، والتى كان الناس هناك يبذلون غاية جهدهم لقطعها وإخلاء الأراضى منها. كما كان هناك الكثير من بقايا الألواح المتبقية من الأبنية التى تقام، ويمكنك الحصول على هذه البقايا لقاء ابتسامة ومشقة حملها إلى المنزل.

ولكن يا سيدى، لم يكن هناك، فى الواقع، الكثير مما يمكن طبخه، فقد قال أبى أنه يريد أن يوفر بعض النقود التى معنا، حتى يعد نفسه بشكل لائق بمجرد أن تتوفر له الفرصة للبحث عن عمل؛ ومن ثم فقد كنا فى البداية نعيش غالبًا على العصيدة. لكن السيدة بيرت كان لديها عنزة فى حظيرة فى خلفية فنائها، وكانت تعطينا لبنًا طازجًا منها. وإذ كنا فى أواخر يونيو، كانت تعطينا أيضًا بعض البصل من حديقة مطبخها لقاء أن نلتقط الحشائش الغريبة من الزرع، وكان هناك الكثير من هذه الحشائش؛ وعندما كانت تصنع خبزًا كانت تصنع رغيفًا زائدًا لنا.

كانت تقول أنها تشعر بالأسف من أجلنا لأن أمنا ماتت. لم يكن لديها أطفال، فطفلها الوحيد مات بالكوليرا فى نفس الوقت الذى رحل فيه زوجها العزيز، وكانت تشتاق لصوت الأقدام الصغيرة، أو هكذا قالت لوالدنا. كانت تحددق فىنا بحنين حزين، وتقول أننا حملان مساكين يتامى الأم، أو ملائكة صغار، رغم أننا كنا نرتدى أسمالاً، كما لم نكن ننعم بالنظافة التامة. وأعتقد أنها كانت تفكر فى الارتباط بأبى؛ فقد كان يظهر أفضل صفاته، ويعتنى بنفسه إلى حد ما؛ ومثل هذا الرجل، الذى ترمل حديثاً ولديه أطفال كثيرون هكذا، لابد أنه كان يبدو للسيدة بيرت مثل فاكهة على وشك السقوط من الشجرة.

واعتادت أن تدعوه إلى الجزء الأمامى من البيت لتواسيه؛ قالت أنه لا يعرف معنى فقد العزيز إلا أرملة مثلها، فهو أمر يهد الحيل، والمصاب به بحاجة إلى صديق حقيقى عطوف، صديق يمكنه مشاركته فى أحزانه؛ وأوحت أنها أفضل من يقوم بهذه المهمة، وربما كان عندها حق فى ذلك، فلم يكن هناك غيرها يحاول القيام بها.

أما بالنسبة لو الدنيا، فقد رأى الإيحاء ولعب دوره فيه، وجعل يعيش كرجل نصف ذاهل، ومنديله على استعداد دائماً؛ وقال أن قلبه قد تمزق وانتزع من جسده، وأنه لا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل بدون وجود حبيبته إلى جانبه، فهي الآن في السماء، لأنها كانت أفضل كثيراً من أن تعيش على هذه الأرض، وكل هذه الأفواه الصغيرة يجب أن يطعمها. كنت أسمعه يستمر في هذا الموآل في ردهة السيدة بيرت، فلم يكن الجدار الفاصل بين جزأى البيت سميكاً جداً، وإذا أسندت قدحاً إلى جدار، ووضعت أذنك على فوهته، فسوف تسمع أيضاً بشكل أفضل. وكان لدينا ثلاثة أقذاح أعارتها لنا السيدة بيرت، وجربتها جميعاً بالدور، وسرعان ما وجدت أفضلها لهذا الغرض.

كنت أجد المسائل غاية في الصعوبة عندما ماتت والدتنا، ولكنى حاولت أن أحتفظ برباطة جأشى طوال الوقت، وأن أستمر في العمل؛ وكان سماع أبى يتباكى بهذه الطريقة كافياً لقلب معدتى. وأعتقد أننى فى هذا الوقت فقط بدأت أكرهه بالفعل، خاصة عندما أتذكر كيف كان يعامل أمى فى حياتها، فلم يكن يعاملها أفضل مما لو كانت خرقة يمسح بها حذاءه. وكنت أعرف – ولكن مسز بيرت لم تكن تعرف – أن كل هذا تمثيل، وأنه كان يستغل مشاعرها لأنه كان متأخراً فى دفع الإيجار، فقد أخذ نقود الإيجار إلى الحانة القريبة؛ ثم باع أكواب الصينى ذات الورود الخاصة بأمى، ورغم أننى رجوته أن يبقى فقط على البراد المكسور، إلا أنه باعه أيضاً، فقد قال أنه كسر شديد ولا يمكن إصلاحه. ولقى حذاء أمى نفس المصير؛ والملاءة الأفضل، ويا ليتنى استخدمتها فى دفن أمى المسكينة، يبدو أن هذا كان هو الفعل الأصوب.

كان يخرج من البيت متبخرًا كالديك، متظاهرًا بأنه ذاهب للبحث عن عمل، ولكنى كنت أعلم أين يقصد، كنت أعرف من رائحته عندما يعود. وكنت أراقبه يسير بخيلاء عبر الممشى، ويدس منديله فى جيبه؛ ولكن سرعان ما ينست السيدة بيرت وتخلت عن خطتها فى المواساة، ولم تعد هناك حفلات شاي فى الردهة، وتوقف إمدادنا باللبن والخبز، وطلبت إعادة أقذاحها، ودفع الإيجار، وإلا طردتنا جميعًا، نحن وما نملك.

هنا بدأ أبى يخبرنى بأننى أصبحت الآن امرأة بالغة تقريبًا، وأننى كنت أقضى على ما فى البيت من أكل حتى لا يتبقى للآخرين شىء، وأنه أن الأوان لأن أخرج إلى العالم وأكسب عيشى، كما فعلت أختى قبل ذلك، رغم أنها لم ترسل أبدًا ما يكفى مما تكسبه، تلك القذرة ناكرة الجميل. وعندما سألته من سيعتنى بالصغار، قال أنها أختى كاتى، التى تلىنى. كانت فى التاسعة، أو تخطتها بنصف عام. ورأيت أنه لا حيلة لى.

لم تكن لدى أية فكرة عن كيفية العثور على عمل، لكننى سألت السيدة بيرت، لأنها الوحيدة التى أعرفها فى المدينة. وكانت فى ذلك الوقت تريد التخلص منا، ومن يمكن أن يلومها؛ لكنها رأت بهذا أملًا فى سرعة حدوث ذلك. كان لها صديقة تعرف مدبرة منزل السيدة ألدرمان پاركينسون، وسمعت أنهم يحتاجون إلى خادمة، فأخبرتتى أن أهدم نفسى، وأعارتتى غطاء رأس خاص بها، وأخذتتى بنفسها إلى هناك، وقدمتتى إلى مدبرة المنزل. وقالت أننى قوية الإرادة وعاملة مجدة ذات شخصية طيبة، وأنها تضمن ذلك بنفسها. ثم أخبرتها بأن أمى ماتت على السفينة ودفنت فى البحر، ووافقت مدبرة المنزل على أن ذلك صعب، ونظرت إلى بتدقيق أكبر. ولاحظت أنه ليس هناك ما يساعد على وضع قدمك فى مكان مثل الحديث عن الموت.

كانت مدبرة المنزل اسمها مسز هنى، لكن حلاوتها لم تزد عن اسمها، فقد كانت امرأة شديدة النحافة وكان أنفها مدبباً مثل مقص فتيلة الشمعة. وكانت تبدو وكأنها عاشت على كسر الخبز البائت وما يتبقى من قلامة الجبن، وهو ما أرجح أنها فعلته في حياتها، فقد كانت سيدة إنجليزية محترمة، اضطرت للعمل كمدبرة منزل عندما مات زوجها وانقطعت وحدها في هذا البلد، ولم تكن تملك نقوداً خاصة بها. أخبرتها مسز بيرت أننى فى الثالثة عشرة، ولم أناقضها فى ذلك — فقد حذرتنى قبل ذلك بأن هذا سيجعل لى فرصة أكبر فى العمل؛ ولم تكن كذبة بالمعنى، حيث أننى سوف أبلغ الثالثة عشرة فعلاً فى خلال شهر.

نظرت مسز هنى إلى بغم مزمووم، وقالت أننى شديدة النحافة والهزال، وأنها تتمنى ألا أكون مصابة بأى مرض، وسألت ماذا كان سبب موت أمى، لكن مسز بيرت قالت أنه لم يكن مرضاً مُعدياً، وأننى فقط صغيرة الحجم بالنسبة لسنى فلم أصل لنموى الكامل بعد، وأننى مع ذلك قوية، وأنها رأتنى أحمل أكياساً مليئة بالخشب بقوة كما لو كنت رجلاً.

أخذت مسز هنى هذا الكلام على علاته، وتتحننت، وسألت إذا ما كنت سيئة الطباع، كما يكون أصحاب الشعر الأحمر فى الغالب، وقالت مسز بيرت أننى صاحبة أفضل طبع فى الدنيا، وأننى تحملت كل المشاق برضا مسيحي مثل القديسين. وعلى ذكر ذلك سألت مسز هنى إذا كنت كاثوليكية، كما يكون الأيرلنديون عموماً؛ وإذا كنت كذلك فلن تتعامل معى، فالكاثوليك يميلون إلى الإيمان بالخرافات، ومتمردون بابويون يدمرون البلاد؛ لكنها ارتاحت عندما عرفت أننى لست كاثوليكية. وسألت مسز هنى هل يمكننى أن أقوم بالحيافة، وقالت مسز بيرت أننى أستطيع الحيافة مثل الريح، وسألتنى مسز هنى مباشرة عن صحة ذلك؛ وتكلمت

عن نفسى، رغم أننى كنت عصبية، وقلت أننى كنت أساعد أمى فى عمل القمصان منذ سن صغيرة، وكان أفضل ما أفعله عراوى الزراير، وإصلاح الجوارب، وتذكرت أن أقول يا سيدتى.

وترددت مسز هنى قليلاً، وكأنما تدير عملية حسابية فى عقلها؛ ثم طلبت أن تنتظر إلى يدى. ربما أرادت أن تعرف إذا ما كانت ستجد يدين عاملتين؛ ولكنها ما كانت تحتاج أن تتعب نفسها، فقد كانت يداى حراوين خسنتين كما يجب أن يكون، وبدا عليها الرضا. وربما يتخيل الإنسان أنها تشتري حصانا، وأدهشنى أنها لم تطلب أن ترى أسنانى، ولكنى أظن أنك إذا كنت ستدفع أجرًا، فلا بد أن تضمن الحصول على عمل جيد فى مقابله.

وفى النهاية كان لابد لمسز هنى أن تستشير مسز ألدرمان پاركينسون، وأرسلت فى اليوم التالى بأن أحضر. وأن أجرى سيكون الإقامة والطعام ودولارًا واحدًا شهريًا، وهو أقل أجر يمكن دفعه؛ لكن مسز بيرت قالت لى أنه يمكننى أن أطلب زيادة بمجرد أن أحصل على بعض التدريب وأنمو قليلاً. وكان الدولار يشتري فى ذلك الوقت أشياء أكثر مما هو اليوم. وبالنسبة لى، كنت سعيدة لأننى سأكسب نقودًا، وفكرت أنها ثروة.

وفكر أبى أننى يمكن أن أذهب بين البيتين وأنام فى البيت، الذى كان يدعو حجرتينا الأيلتين للسقوط، وأستمر فى الاستيقاظ مبكرًا وأشعل الموقد المتوحش، وأغلى الماء، وفى نهاية اليوم أقوم بترتيب المنزل، وأغسل الثياب فوق البيعة، أى ثياب كنا نقدر على غسلها، فلم يكن هناك أى غلاية للثياب، كما يئست من مطالبة أبى بإنفاق نقود حتى على أسوأ

أنواع الصابون. لكن في بيت مسز ألدرمان پاركينسون أرادوا منى الإقامة؛ وأن أعود في بداية الأسبوع.

ورغم أنني كنت أسفة لفراقى عن إخوتى وأخواتى، فقد شكرت الله لأننى مضطرة للابتعاد، لأننى لو لم أفعل، لوصلت الحال بينى وبين أبى إلى أسوأ الأحوال. فكلما كنت أكبر، كلما قلت قدرتى على إرضائه، وأنا نفسى فقدت كل إيمان الطفولة الطبيعى بالآباء، فقد كان يشرب ويحرم أطفاله من الخبز، وسرعان ما سوف يجبرنا على التسول أو السرقة، أو ما هو أسوأ. كما أن حالات غضبه عادت أقوى مما كانت قبل موت أمى. فذراعى بالفعل كانتا مليونتين بالرضوض، ثم في إحدى الليالى ألقى بى إلى الجدار، كما كان يفعل أحياناً مع أمى، صارخاً بأننى قذرة وعاهرة، وأغمى علىّ؛ وبعد ذلك كنت أخشى أن يكسر عمودى الفقرى يوماً ويجعلنى عاجزة. ولكن بعد حالات الغضب هذه كان يستيقظ فى الصباح ويقول أنه لا يتذكر شيئاً مما حدث، وأنه لم يكن فى حالة طبيعية، وأنه لا يعرف ماذا حدث له.

ورغم أنني كنت أصبح متعبة لأقصى حد فى نهاية كل يوم، فقد كنت أستلقى مستيقظة فى الليل، أفكر فى الأمر. كان من المستحيل معرفة متى يفقد أعصابه بهذه الطريقة ويبدأ فى الهياج والشغب، ويهدد بقتل هذا الشخص أو ذاك، وأطفاله أنفسهم من ضمن، لا لسبب واضح فيما عدا الشرب.

بدأت تتتابنى أفكار حول الحلة الحديدية، وكم هى ثقيلة؛ وإذا حدث أنها وقعت عليه وهو نائم، ربما تحطم رأسه، وتقتله، وسوف أقول أن الأمر مجرد حادث؛ ولم أكن أريد أن أنقاد إلى ارتكاب إثم بهذه

البشاعة، رغم أنني كنت أخشى أن يقودنى الغضب العنيف الذى يشتعل فى قلبى منه إلى مثل ذلك.

ومن ثم فقد استعددت للذهاب إلى منزل السيدة ألدرمان پاركينسون، وشكرت الله لإخراجى من طريق الغواية، ودعوته أن يحفظنى فيما يأتى من أيام.

ودعتنى مسز بيرت وقبلتتى، وتمنت لى حظاً طيباً. ورغم وجهها البدين الأبقع، ورائحة السمك المدخن التى تفوح منها، كنت سعيدة بذلك، لأنه فى هذا العالم يجب أن تغتتم فرصة أى مشاعر طيبة يمكنك أن تجدها، فهذه المشاعر لا تنمو على الأشجار. بكى الصغار وأنا ذاهبة، وهم يحملون لفافتى الصغيرة، والتى تحتوى شال أمى. وقلت. أننى سوف أعود وأزورهم، وكنت أعنى ما أقول فى ذلك الوقت.

لم يكن أبى فى البيت عندما غادرتة. وربما كان هذا أفضل، ويؤسفى أن أقول أن الأرجح أنه لو كان موجوداً لتبادلنا اللعنات، رغم أنها ستكون فى صمت من جانبى. فمن الخطأ دائماً أن ترد اللعنات علناً على من هم أقوى منك، إلا إذا كان هناك سور يفصل بينك وبينهم.



من د. سايمون چوردان، عناية الميجور س. د.  
همفري، شارع لواريون، كينجستون، غرب  
كندا؛ إلى د. إدوارد مورتيشي، دورشستر،  
ماساتشوستس، الولايات المتحدة الأمريكية.

١٥ مايو، ١٨٥٩.

عزيزي إدوارد

أكتب هذا على ضوء مصباح زيتي في منتصف الليل، والذي  
طالما كنا نستضيء به في هذا البيت اللعين شديد البرودة، وفي مثل برودة  
المنزل الذي كنا نستأجره في لندن. ولكن سرعان ما سوف يصبح شديد  
الحرارة، وسوف تهاجمنا مشاكل الوخم وأمراض الصيف، وسوف أشتكى  
من هذه الأشياء عندما يأتي دورها.

أشكرك على رسالتك، وعلى الأخبار اللطيفة التي تحتويها. إذن  
فقد تقدمت لخطبة كورنيليا الجميلة، وتم قبولك! سوف تسامح صديقك القديم  
لأن ذلك لا يدهشني على الإطلاق، فالموضوع كان مكتوبا بحروف كبيرة  
بين سطور رسائلك، ولم يكن القارئ بحاجة للكثير من الفطنة للتكهن به.  
أرجو أن تتقبل خالص تهنئتي. ومما أعرفه عن الأنسة رذرفورد، أجد أنك

محفوظ للغاية. وفي مثل هذه اللحظات، أشعر بالحسد لهؤلاء الذين وجدوا سرفاً يودعون قلوبهم لديه، أو ربما أحسدهم لأن لديهم قلوباً تحتاج إلى مرفاً. فكثيراً ما أشعر أنني أنا نفس ليس لي قلب، وأن مكانه لا يوجد إلا حجر على شكل القلب، ولهذا فقد قدر على أن "أهيم وحدي مثل سحابة"، على حد تعبير وردزورث.

ومما لا شك فيه أن أخبار خطبتك ستتعش أمي العزيزة وتستحثها على مزيد من الجهود من أجل تزويجي؛ وليس لدى شك في أنها ستستخدمك ضدّي كلما سنحت الفرصة، كمثال أعلى في استقامة الخلق، وكعصا تضربني بها. حسناً، لا شك في أنها على حق. وإن عاجلاً أو آجلاً سوف ألقى بوساوسي جانباً، وأطيع الأمر الإنجيلي "فأثمروا أنتم واكثروا وتوالدوا"<sup>(\*)</sup>. لا بد أن أضع قلبي الحجري في عناية غادة طيبة لا تهتم كثيراً بأنه ليس قلباً حقيقياً من لحم ودم، وتعرف الطرق الضرورية للعناية به؛ لأن القلوب الحجرية تشتهر بأنها صعبة الإرضاء، كما أن مطالبها أكثر منها عند النوع الآخر من القلوب.

ورغم هذا العيب في، فإن والدتي لا تتوقف عن تدبير المكائد الزوجية. وهي حالياً تتغنى بفضائل الأنسة فيث كارترايت، التي تذكر أنك قابلتها منذ سنوات عديدة أثناء إحدى زيارتك لنا. ومن المفترض أنها تحسنت كثيراً بعد إقامة في بوسطن، ووفقاً لمعلوماتي الخاصة – ولمعلوماتك أيضاً، يا عزيزتي إدوار، فأنت كنت معي في دراستنا بهارفارد – لم يحدث أن كان لبوسطن أي تأثير حسن على أي شخص آخر؛ ومن الطريقة التي تترنم بها أمي أنشودة الفضائل الأخلاقية للسيدة

---

(\*) التكوين، ٧:٩.

الشابة، أخشى أن التعديل لا يتناول نقائصها في النواحي الأخرى. وبكل أسف، فهي نوع مختلف من الفتيات، لا ترقى إلى فيث النقية والجديرة بكل احترام، والتي يمكن أن تكون لديها المقدرة على تحويل صديقك القديم المستهتر إلى نموذج مثالي للمحب.

ولكن كفانى تدمراً وتبرماً. أنا سعيد من قلبى لك يا رفيقى العزيز، وسوف أرقص فى حفل عرسك بأعظم همة فى العالم، طبعاً إذا كنت موجوداً بالقرب من المنطقة يوم زواجك.

كان كرمًا كبيرًا منك – فى وسط انشغالك بأفراحك – أن تسأل عن مدى تقدمى مع جريس ماركس. وليس لدى الكثير من الأخبار، فالطرائق التى أتبعها تدريجية وتراكمية فى تأثيرها، ولا أتوقع نتائج سريعة. إن هدفى هو إيقاظ ذلك الجزء النائم فى عقلها، أن أسبر غور عتبة الوعى لديها، وأن أكتشف الذكريات التى بالضرورة ترقد مدفونة هناك. إننى أقترّب من عقلها وكأنه صندوق مغلق علىّ أن أجد له المفتاح الصحيح؛ ولكن يجب أن أعترف أننى حتى الآن لم أقترّب كثيرًا من هذا المفتاح.

وكان من الممكن أن يفيدنى كثيرًا أن أجدّها مجنونة حقًا، أو على الأقل أكثر جنونًا مما تبدو عليه، ولكنها حتى الآن أظهرت رباطة جأش تحسدها عليها أرقى السيدات. فلم أعرف أبدًا امرأة معتدة بنفسها إلى هذه الدرجة. وفيما عدا الحادث العرضى الذى جرى وقت وصولى إلى هنا – والذى تأخرت بكل أسف عن مشاهدته – لم يحدث لها أى انفجار عصبى. صوتها خفيض ومنغم، وأكثر تهذيبيًا وصقلًا مما هو معتاد مع الخادِمات – وهو أمر لا بد أنها تعلمته من خدمتها الطويلة فى بيوت

السادة؛ وهي تحتفظ بوضوح بأثر من لهجة شمال أيرلندا التي لا بد أنها جاءت بها، رغم أنها غير ملحوظة، فقد كانت مجرد طفلة عند قدومها، وقد قضت الآن أكثر من نصف عمرها في هذه القارة.

إنها: "تجلس على حشية، وتدرز بغرزة جميلة"، هادئة رابطة الجاش، وبفم مزموم كأي حاكمة، وأضطر إلى الانحناء مستنداً على كوعى على المنضدة أمامها، أقدح زناد فكرى، وأحاول بلا فائدة أن أفتح دواخلها النفسية المغلقة كالمحارة. ورغم أنها تتحدث بطريقة تبدو صريحة للغاية، فإنها تقدر على أن تخبرني أقل ما يمكن، أو أقل ما يمكن مما أريد أن أعرفه؛ رغم أنني تمكنت من التحقق من كثير من المعلومات عن حالة عائلتها في فترة طفولتها، وعنهما وهي تعبر المحيط الأطلنطي كمهاجرة؛ ولكن لا شيء من ذلك بعيد عن العادى — ليس إلا الفقر العادى والمصاعب، إلى آخره. إن من يعتقدون فى أن الجنون ينتقل بالوراثة ربما تريحهم حقيقة أن أباهما كان سكيراً، وربما كان مجرمًا ارتكب جريمة حرق أحد البيوت أيضاً؛ ولكن رغم النظريات الكثيرة المناقضة، فأنا لا أقتنع إطلاقاً أن مثل هذه الاتجاهات وراثية بالضرورة.

أما بالنسبة لى، لولا الافتتان بما تقدمه لى حالتها، فإننى يمكن أن أجن أنا نفسى من الملل المطلق؛ فالمجتمع هنا ضيق للغاية، ولا أحد يشاركنى أحلامى واهتماماتى، فيما عدا رجل يسمى د. دو بونت، وهو الاستثناء الوحيد الممكن. وهو زائر هنا مثلى؛ ولكنه شخص متعصب لبريد، الطبيب الأسكتلندى المعتوه غريب الأطوار، وهو نفسه شخص غريب للغاية. أما بالنسبة للمتعم والترويح عن النفس، فلا يمكن الحصول إلا على القليل منها، وقد قررت أن أسأل صاحبة البيت إذا كان من الممكن أن أحرث حديقته الخلفية — والتي أهملت ووصلت إلى حالة محزنة —

وأزرع بعض الكرنب وما إلى ذلك، لمجرد التسلية والحركة. وهما أنت  
تري ما أنا منساق إليه، أنا الذي لم أرفع مجرفة في حياتي من قبل!  
الوقت تعدى منتصف الليل الآن، ولا بد أن أنهى رسالتي إليك  
وأذهب وحيداً إلى فراشي البارد. أرسل لك أحلى أمنياتي، وأتمنى أن تعيش  
حياة أكثر إثماً، وأقل ارتباكاً.

صديقك القديم  
سايمون

الفصل السادس

درج الأسرار

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesamh.com/vb](http://www.ibtesamh.com/vb)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

الهيستيريا: تحدث هذه النوبات، في أغلب الأحوال، للنساء الشابات العصبيات غير المتزوجات ... والنساء الشابات المعرضات لهذه النوبات، عرضة للظن بأنهن يعانين من "كل الأمراض التي يرثها الإنسان"؛ وتتشابه الأعراض الزائفة التي تبدو عليهن مع الأعراض الحقيقية إلى أبعد الحدود، حتى أنه من الصعب للغاية أن نعرف الفرق. والنوبات نفسها غالباً ما يسبقها هبوط كبير في الروح المعنوية، وبكاء بدموع غزيرة، وغيثان، وخفقان القلب، وما إلى ذلك... ثم تفقد المريضة الوعي ويغمى عليها، ويرتمى الجسد ممدداً في جميع الاتجاهات، ويتدفق الزبد من الفم، وتنطق المريضة بعبارات غير مفهومة، وتحدث نوبات من الضحك، أو البكاء، أو الصراخ. وعندما تبدأ النوبة في الزوال، تبكي المريضة في الغالب بكاء مريراً، وأحياناً تكون على علم بكل ما حدث، وأحياناً أخرى لا تعرف شيئاً مما حدث.

إيزابيلا بيتون،

*Beeton's Book of Household Management, 1859-61*



سوف يسمعها قلبى وتتعالى دقاته  
حتى لو كان ترابًا على فراش من التراب،  
سوف يسمعها ترابى، ويخفق،  
هل رقدت ميتًا منذ قرن مضى؛  
هل يمكن أن أنتفض، وأن أرتعش تحت قدميها،  
وأزهر بألوان حمراء وأرجوانية.

ألفريد، لورد تنيسون،

*Maud, 1855*

فى الحلم يرى سايمون ممرًا. إنه ذلك الممشى فى سقيفة منزله، منزله القديم، منزل طفولته؛ ذلك المنزل الكبير الذى كانوا يملكونه قبل إفلاس أبيه ووفاته. كانت الخادمتان ينمن هنا. كان عالمًا سرّيًا، عالمًا لم يكن من المفترض عليه كصبي أن يستكشفه، لكنه فعل، كان يزحف فى صمت كجاسوس وقدماه عاريتان إلا من الجورب. يتسمع من الأبواب نصف المفتوحة. ماذا كانت تقول الخادمتان عندما يساورهن الظن بأن لا أحد يستطيع سماعهن؟

عندما كان يشعر أنه فى غاية الشجاعة، كان يتجول فى هذه الغرفات، وهو يعلم أنهن فى الطابق السفلى. كان يفتش أشياءهن برعشة الإثارة، أشياءهن الممنوعة؛ كان يفتح الأدراج، ويلمس المشط الخشبى الذى كسرت منه سنتان، والشريط الملفوف بعناية؛ ويفتش فى الأركان، وخلف الباب: التتورة الداخلىة المكرمشة، والجوارب القطنية، فردة واحدة. كان يلمسها ويشعر بها دافئة.

أما فى الحلم فكان الممشى هو، ولكنه أكبر. وكانت الجدران أطول، وأكثر اصفرارًا: تبرق وكأنما الشمس نفسها تسطع من خلالها. ولكن الأبواب كانت مغلقة، بل كانت أقفالها موصدة. حاول بابًا بعد باب، يرفع المقبض ويدفع برفق، ولكن لا باب يستجيب. ورغم ذلك فهو يحس بأن ثمة أشخاصًا بالداخل، نساء، خادمتان، جالسات على حواف أسرتهن

الضيقة، في قمصانهم الداخلية القطنية البيضاء، شعورهن مسدلة ومتماوجة على أكتافهن، وشفاهن مفترقة، وأعينهن تلمع. إنهن في انتظاره.

ينفتح الباب الأخير، وداخله البحر. ويندفع إليه قبل أن يستطيع التوقف، وتغلق المياه فوق رأسه، ويخرج خيط من الفقاعات الهوائية منه. ويسمع في أذنيه رنيناً، ضحكة ناعمة ومرتعشة؛ ثم أياد كثيرة تداعبه. إنهن الخاديات؛ لكنهن يستطعن السباحة. ولكن الآن بدأن يسبحن بعيداً عنه، يتخلين عنه. يناديهن طالباً النجدة، لكنهن ذهبن.

يتعلق بشيء، كرسى مكسور. الأمواج ترتفع وتتنخفض. ورغم هذا الاضطراب ليس هناك ربح، الهواء في حالة صفاء تام. وتمر به، ولكن بعيداً عن متناوله، وهناك أشياء كثيرة طافية: صينية فضية، زوج من الشمعدانات؛ مرآة، صندوق سعوط منقوش؛ ساعة ذهبية، وهي تسبب ضوضاء بصريها، أشبه بصري صرصار الليل. أشياء كانت لأبيه، ولكنها بيعت بعد موته. ترتفع من الأعماق وكأنها فقاعات هوائية، ويزداد عددها؛ وعندما تصل إلى السطح تتقلب ببطء على ظهرها، مثل سمك منتفخ. ولا تبدو هذه الأشياء صلبة مثل المعدن، بل ناعمة؛ ويبدو أن لها بشرة زلقة، كجلد ثعبان البحر. يتفرج على كل هذا في رعب، لأنها الآن تتجمع، وتتجاور مثنى مثنى، وتغير من شكلها، تنمو لها لوامس. يد ميتة. والده، في عملية معقدة للعودة إلى الحياة. ولديه شعور طاغ بأن حرمانه قد انتهكت.

يستيقظ. قلبه يدق بعنف؛ والملاءة والأغطية مبعثرة حوله، والوسائد على الأرض، وهو غارق في العرق. وبعد أن رقد بهدوء لبعض

الوقت، يتأمل، يفكر أنه يفهم سلسلة الصلات التي قادت إلى هذا الحلم. إنها قصة جريس، بما فيها من عبور للأطلنطي، ودفن في البحر، وتفاصيل الأمور المنزلية؛ والأب المتعطرس، بالطبع، أب يستدعي أبًا آخر.

يعرف الوقت بالنظر إلى ساعة الجيب الموضوع على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، لقد تأخر في الاستيقاظ لأول مرة. ومن حسن الحظ أن إفطاره متأخر؛ لكن دورا الحريصة سوف تصل في أية لحظة، وهو لا يريد أن تفاجئه وهو بثياب النوم، متلبسًا بالبلادة والكسل. أسرع بلبس ثيابه، وجلس بسرعة إلى منضدة الكتابة، وأعطى ظهره للباب.

سوف يسجل الحلم الذي رآه توأ في دفتر اليوميات الذي يخصصه لهذه الأغراض. إحدى المدارس الفكرية من الأخصائيين النفسيين الفرنسيين توصي بتسجيل الأحلام كأداة تشخيصية، أحلام الأطباء بالإضافة إلى أحلام المرضى، من أجل المقارنة. وهم يعتبرون الأحلام، مثل المشي أثناء النوم، من تجليات الحياة الحيوانية التي استمرت في اللاوعي، بعيدًا عن الأنظار، وبعيدًا عن متناول الإرادة. ربما تكون المشابك – المحاور، أو الأقطاب، إذا جاز التعبير – في سلسلة الذاكرة، ربما تكمن هناك؟

لابد أن يعيد قراءة كتاب توماس براون عن التداعيات والإيحاء، وأيضًا نظرية هيربرت عن عتبة الوعي، الخط الذي يفصل الأفكار التي تدرك في ضوء النهار عن تلك الأفكار التي تكمن منسية في الظلال السفلى من العقل. يعتبر مورو دي تورز أن الحلم هو مفتاح معرفة المرض العقلي، ويعتبر مين دي بيران أن الحياة التي نعيشها هي مجرد جزيرة تطفو فوق بحر واسع للغاية من اللاوعي، وتستدعي الأفكار من هذا البحر

كما لو كانت سمكاً تصطاده. إن ما ندركه بصفته "المعروف" هو مجرد جزء ضئيل مما قد يكون مخزوناً في هذا المستودع المظلم. والذكريات الضائعة ترقد هناك مثل الكنز الغارق، وإذا أمكن استعادتها فلا بد أن يحدث ذلك تدريجياً، وفقدان الذاكرة نفسه قد يكون في الواقع نوعاً من الحلم ولكن مع انعكاس الوضع؛ فالتذكر هو الغارق، الغائص تحت ...

ينفتح الباب خلف ظهره: إن إفطاره يتفضل بالدخول. وبدأب، يغمس قلمه وكأنه بسبيله للكتابة. ينتظر ارتطام الصينية، وجلجلة الأواني الخزفية فوق الخشب، لكنه لا يسمع شيئاً.

يقول، دون أن يلتفت: "فقط اتركه على المنضدة!"

ويسمع صوتاً كأنه هواء يندفع من منفاخ صغير، ويتلوه أصوات تحطم وأشياء تنكسر وتتناثر شظايا. كان أول ما فكر فيه سايمون أن دورا قذفته بالصينية — فقد أوحى لخياله دائماً بأنها تتطوى على غيظ مكبوت وعنف إجرامى كامن. ويصرخ رغماً عنه، وينتفض قائماً، ويلتفت بسرعة. وإذا بصاحبة البيت، مسر همفري، ممددة بكامل طولها على الأرض وسط مجزرة من الأواني المكسورة والطعام المبعثر.

يسرع إليها، يركع إلى جوارها، ويقيس نبضها. لم تمت والحمد لله. يقلب أحد جفنيها، ويرى العين تحته بيضاء. يسرع بفك شريطى المريلة غير النظيفة التى تلبسها، والتي يعرف أنها ما كانت ترتديه دورا فى هيئتها المهملة، ويفك الأزرار الأمامية لردائها، ملاحظاً أن هناك زراراً ناقصاً، ومكانه لا تزال بقايا من الخيوط القصيرة. يفتش داخل طبقات ثيابها، وينجح فى قطع أربطة المشد بسكين جيبه، فتنبعث رائحة من عطر

البنفسج، وأعشاب الخريف، وجسد ندى. إن هذه المرأة محملة بأكثر مما كان يفترض، رغم أنها أبعد ما تكون عن البدانة أو الامتلاء.

يحملها إلى غرفة نومه — فالأريكة في غرفة الجلوس صغيرة جدًا لهذا الغرض — ويمدها على فراشه، واضعًا وسادة تحت قدميها ليندفع الدم إلى رأسها. ويفكر في خلع حذائها — الذي لم ينل نظافة اليوم بعد — لكنه يقرر أن هذا يمكن أن يكون نوعًا من الألفة الزائدة غير المستساغة.

إن لمسز همفري كاحلين دقيقين، يحول بصره عنهما، ليقع على شعرها الذي تبعثر بسبب الوقوع. إنها تبدو في هذا الوضع أصغر سنًا مما ظن؛ وبسبب هذا الإغماء، اختفى تعبير اللهفة المصطنع الذي تتكلفه، فبدت أكثر جاذبية بكثير. يضع أذنه على صدرها، ويتسمع، القلب ينبض نبضًا منتظمًا. إذن هي حالة إغماء بسيطة. يبلى طرف منشفة بالماء من الدورق ويضعه على وجهها ورقبتها. يختلج جفناها.

يملاً سايمون نصف كوب بالماء من زجاجة على المنضدة المجاورة لفراشه، ويضيف عشرين نقطة من سال فولاتيل — ملح طيار — علاج يحمله دائماً معه في زيارته بعد الظهر، تحسباً لأي إغماء واهٍ مشابه من جريس ماركس، التي قيل له أنها معرضة للإغماء — ويحمل الكوب إلى شفيتها وهو يسندها بذراعه الأخرى.

"اشربي هذا."

تزدرد بصعوبة، ثم ترفع يداً إلى رأسها. يلاحظ الآن فقط وجود علامة حمراء على جانب وجهها. ربما يكون زوجها النذل متوحشاً إلى جانب إيمانه الخمر. رغم أن هذه تبدو أكثر شبهاً بصفعة قوية، ومن المؤكد أن رجلاً مثل الميجور سوف يلجأ لاستخدام قبضته. يشعر سايمون بموجة من الشفقة المفعمة بالرغبة في الحماية تجاهها، شعور خارج عن مقدرته في الواقع. فالمرأة هي صاحبة البيت، وفيما عدا ذلك فهي غريبة تماماً عنه. وليست لديه أية رغبة في تغيير هذه الحالة رغم الصورة التي تقفز إلى ذهنه – والتي بعثها ولا شك منظر السيدة وهي ممددة بلا حول ولا قوة على فراشه المبعثر، والتي لا يمكنها تعديله وهي لا تملك إلا نصف وعيها، ورغم دناءة المنظر الذي يتخيله – صورتها وذراعاها تتحركان بيأس، مشدداً المخلوع وقميصها المفتوح عنوة، على حين أن قدميها – ويا للغرابة لا يزالان داخل الحذاء – تتخبطان في تشنج، وتصدر عنها أصوات أنين خافت وهي تتعرض لهجوم شرس من شخص غليظ لا يشبهه في أي شيء؛ إلا أن منظر رداءه الليلي المحشو الذي غطاها به، من أعلى ومن ظهره يبدو، من الواجهة التي ينظر منها إلى هذا المشهد، مطابقاً له.

طالما حيرته تجليات التخيل هذه وهو يراقبها في نفسه. من أين تأتي؟ وإذا كانت تحدث له، فلا بد أنها تحدث أيضاً عند معظم الرجال. وهو يعرف أنه طبيعي وعاقل، وقد تمكن من تطوير ملكات عقله إلى درجة عالية؛ لكنه لا يستطيع دائماً التحكم في مثل هذه الصور. ربما يكمن الفارق بين الرجل المتحضر والبربري الغاشم – ولنقل شخص مجنون مثلاً – في مجرد قشرة رقيقة من التحكم الإرادي في كبح جماح النفس.

يقول لها بعطف: "إنك فى أمان تام. لقد وقعت، لابد أن تستريحى حتى تجدى نفسك أفضل حالاً."

تحقق حولها: "ولكن - أنا فى سرير."

"هذا سريرى، يا مسز همفرى. لقد اضطررت إلى حملك إليه حيث لا يوجد مكان آخر مناسب."

بدأت بشرة وجهها تحمر الآن. لاحظت أنها تتغطى بردائه الليلى. "لابد أن أرحل فى الحال من هنا."

"أرجو أن تتذكرى أننى طبيب، وأنت فى الوقت الحالى مريضتى. إذا حاولت القيام الآن، ربما يتكرر ما حدث."

"يتكرر؟"

لقد حدث لك انهيار، بينما كنت تحضرين" - يبدو أنه من غير اللائق ذكر ذلك - "صينية إفطارى. هل لى أن أسأل ماذا حدث لدورا؟"

وفجأة، بدأت تبكى، وهو ما أثار ذعره وإن لم يثر دهشته: "لم أستطع أن أدفع لها. كنت أدين لها بثلاثة أشهر من أجرها؛ وقد استطعت أن أبيع بعض... بعض الأشياء الشخصية، لكن زوجى أخذ النقود منى منذ يومين ولم يرجع من حينها. ولا أعرف أين ذهب". كانت تبذل مجهودًا واضحًا للتحكم فى دموعها.

"وماذا حدث اليوم؟"



"لقد تبادلنا... كلمات. وأصرت أن أدفع لها. قلت لها أنني لا أستطيع، وأن هذا من غير الممكن. فقالت أنه في هذه الحالة سوف تأخذ أجرها بنفسها. وبدأت تفتش في أدراج المكتب، أظن أنها كانت تبحث عن مجوهرات، ولما لم تجد شيئاً، قالت أنها سوف تأخذ خاتم زواجي. وهو خاتم ذهب ولكنه بسيط للغاية. حاولت أن أدافع عنه، لكنها قالت أنني غير أمينة. ... ضربتني. ثم أخذته، وقالت أنها لن تكون جارية غير مدفوعة الأجر لي بعد ذلك أبداً، وغادرت المنزل. بعد ذلك أعددت إفطارك بنفسى وصعدت به. ماذا يمكن أن أفعل غير ذلك؟"

إنن، لم يكن الزوج، فكر سايمون في نفسه. إنها تلك الخنزيرة دورا. وتبدأ مسز همفري في البكاء ثانية، برقة، وبدون جهد، كما لو كانت التهديدات نوعاً من زقزقة الطيور.

"لابد أن تكون لديك صديقة قريبة يمكنك اللجوء إليها. أو، من يمكن استدعاؤه؟" يحاول سايمون تحويل حمل مسز همفري من كتفيه إلى كتفى أحد غيره. النساء يساعدن بعضهن البعض، والاهتمام بالمصابين هو دائرتهم. إنهن قادرات على عمل الطعام والشاي والجيلي، وهن يصنعن شيلاناً مريحة. إنهن يربتن على الظهر ويطيبين الخواطر.

"ليس لي أصدقاء هنا. لقد جئنا إلى هذه المدينة حديثاً، بعد أن عانينا ... تعرضنا لبعض المصاعب المالية في مقامنا السابق. وزوجي لا يشجع الزيارات. ولم يكن يريدني أن أخرج."

ويفكر سايمون في فكرة مفيدة: "لابد أن تأكلى شيئاً. سوف تشعرين بأنك أفضل."

هنا ابتسمت مسز همفري ابتسامة واهنة. "لا يوجد شيء يؤكل فى البيت يا د. چوردان. كان إفطارك هو آخر ما فى البيت. أنا لم أكل منذ يومين، منذ ذهب زوجى. كان هنا القليل جداً من الطعام، ودورا أكلت بعضه. أما أنا فلم أتناول إلا الماء."

وهكذا يجد سايمون نفسه فى السوق، يشتري أشياء للعناية الصحية بصاحبة البيت الذى يسكن فيه، بنقوده هو. أصرت مسز همفري أن يساعدها حتى تنزل السلم إلى قسم المنزل الخاص بها؛ قالت أنها لا تتحمل أن يجدها أحد فى غرفة نوم المستأجر فى حالة عودة زوجها. ولم يدهشه أن يجد غرفاتها خالية تقريباً من الأثاث: كان كل ما تبقى فى الردهة منضدة وكرسيين. لكن ما زال هناك سرير فى غرفة النوم الخلفية، وضع مسز همفري عليه وهى فى حالة من الإجهاد العصبى والجوع القاتل أيضاً، لا عجب أنها كانت بهذه النحافة. أدار عقله بعيداً عن الفراش، وعن مشاهد البؤس الزوجى التى لا بد أن تكون قد حدثت على مسرحه.

ثم عاد يصعد إلى شقته، يحمل دلوًا استطاع أن يجده بالمطبخ الذى كان فى حالة من الفوضى الشديدة. نظف الأرضية من الإفطار المبعثر والأطباق المكسرة، ملاحظاً أن البيضة التى ضاعت الآن كانت مطهوة جيداً.

ويفكر أن من المفروض أن يبلغ مسز همفري بأنه مضطر إلى تغيير المسكن، وأن ذلك سيكون أمراً مزعجاً؛ رغم أنه الإجراء الأفضل لمواجهة التدهور الذى سيصيب حياته وعمله، وهو الأمر الذى يمكن أن

يكون النتيجة الأكيدة إذا استمر في المكان. فلا شك في أن تسود الفوضى، والنشوش، وأن يفاجأ بأصحاب الكمبيالات آتين لأخذ الأثاث من الغرف التي يسكنها. ولكنه إذا رحل، فماذا سيحدث للمرأة المحطمة؟ إنه لا يريد تأنيب الضمير الذي سيصيبه إذا ماتت جوعاً على ناصية أحد الشوارع.

يشترى بعض البيض، واللحم والجبن، وبعض الزبد القذر من فلاح في أحد أكشاك السوق؛ واشترى من أحد الدكاكين شايًا ملفوفًا في ورقة، كان يرغب في شراء خبز، لكنه لم ير خبزًا. والواقع أنه لا يعرف كيف يتصرف في هذه الأشياء. لقد سبق له زيارة السوق، ولكنها كانت مجرد زيارة عابرة لشراء الخضر التي كان يأمل في استئثاره ذاكرة جريس بها. والآن، هو هنا على أساس مختلف تمامًا. من أين يمكنه شراء لبن؟ لماذا لا يرى أي تفاح؟ هذا عالم لم يستكشفه أبدًا من قبل، فلم يكن به رغبة في استكشاف المكان الذي يأتي طعامه منه، طالما كان الطعام يأتي على أية حال. كان المشترون الآخرون في السوق من الخدم، يحملون سلال سيداتهم على أذرعهم؛ وهناك نساء من طبقات فقيرة يرتدين قلنسوات متراخية وشيلانًا متسخة. ويشعر أنهم يضحكون عليه من خلف ظهره.

وعندما يعود، يجد أن مسز همفري قد قامت من فراشها. تجلس بجوار الموقد — من حسن الحظ أن الموقد مشتعل، فهو نفسه ما كان ليعرف كيف يشعله — وقد لفت نفسها ببطانية ومشطت شعرها، تفرك يديها معًا وترتعش. ينجح في صنع بعض الشاي لها، ويقلى بعض البيض واللحم، ويسخن رغيفًا بآنتًا وجدته في السوق في النهاية. يأكلان ذلك سويًا على المنضدة الوحيدة المتبقية. ويتمنى لو كان هناك بعض المربي.

"هذا كرم كبير منك، يا د. چوردان."

"لا تفكرى فى الأمر. ما كان يمكن أن أتركك تموتين جوعاً".  
يقول ذلك بصوت بدا أكثر عطفاً مما كان ينتوى؛ صوت عم بشوش وغير  
مخلص لا يكاد يصبر على الإنعام بالربع دولار الذى تنتظره ابنة أخ فقيرة  
ذليلة، يقرصها فى خدها ويسرع إلى سهرته فى الأوبرا. ويتعجب سايمون  
ماذا يفعل هذا الميجور همفرى الآن، ويلعنه فى سره، ويحسده. أيا كان  
الأمر، فلا بد أنه الآن فى حال أكثر متعة مما هو فيه.

تنتهد مسز همفرى. "كنت أخشى أن تصل الأمور إلى هذا الحد.  
لقد وصلت إلى حد الإفلاس". إنها الآن هادئة تماماً، وتتنظر بموضوعية  
إلى حالتها. "لابد من دفع إيجار البيت، وليس هناك نقود. وسرعان  
ما سيأتون كالطيور الجارحة يلتقطون الفتات، وسوف أطرده من البيت.  
بل قد يصل الأمر إلى اعتقالى مقابل الدين. الموت أفضل من هذا."

يقول سايمون: "لابد أن هناك شيئاً يمكنك فعله لتكسبى بعض  
المال". إنه معجب بمحاولتها التعلق بكرامتها.

تحقق فيه. عيناها، فى هذا الضوء، تكتسبان ظلاً غريباً من  
خضرة البحر. "ماذا تقترح يا د. چوردان؟ أعمال إبرة خيالية؟ النساء  
اللاتى على شاكلى ليس لديهن إلا مهارات ضئيلة يمكن أن يتكسبن منها".  
وثمة تلميح يحمل سخرية مريرة فى صوتها. هل كانت تعرف ما كان يفكر  
فيه وهى راقدة فاقدة لوعيتها فوق فراشه غير المرتب؟

ويجد نفسه يقول: "سوف أعطيك شهرين من الإيجار مقدماً". إنه  
غيبى، أبله طيب القلب؛ إذا كان لديه أى عقل فإنه لابد أن يخرج من هنا

وكان الشيطان في أعقابه. "أظن هذا سيكون كافيًا لإبعاد الذئاب، على الأقل حتى يكون لديك وقت للتفكير فيما يمكن عمله."

تمتلئ عيناها بالدموع. وبدون كلمة، ترفع يده من فوق المنضدة، وتضغطها برقة على شفتيها. ولم يكن لذلك من تأثير سوى بعض النداوة من أثر ما تبقى على فمها من الزبد الذي أكلته.

اليوم يبدو د. چوردان أقل عناية من المعتاد، كما لو كان هناك ما يشغل باله؛ ويبدو أنه لا يعرف بالضبط من أين يبدأ. ولذلك أستمر فى تطريزى حتى يكون لديه الوقت لتجميع شتات نفسه؛ ثم إنه يقول لى: هل هذا غطاء جديد يا جريس؟

أقول: نعم يا سيدى، إنه نموذج صندوق باندورا،<sup>(\*)</sup> أصنعه للأنسة ليديا.

ويجعله هذا يدخل فى حالة إرشادية، وأرى أنه بسبيله لأن يعلمنى شيئاً، وهو أمر يغرم السادة بفعله. كان مستر كينير هكذا أيضاً. ويقول: وهل تعرفين من هى باندورا يا جريس؟

---

(\*) باندورا، فى الأسطورة اليونانية، هى المرأة الأولى فى الخليقة، صنعها هيفايستوس، بأمر أبيه كبير الآلهة، زيوس، من طين وماء، وأمدتها أثينا بيد تجيد الحياكة، وأعطتها أفروديت الجمال والرقّة، وملاها هيرميس بالشر والخداع ثم ساقها ليتزوجها إبيميثيوس رغم تحذير أخيه (بروميثيوس)، الذى كان قد أغضب زيوس بسرقة النار من السماء وإحضارها إلى البشر. وكانت باندورا قد أحضرت معها هدية الآلهة، وهى عبارة عن صندوق مُنعت من فتحه. ولكنها، بسبب فضولها، فتحت الصندوق، فتدافعت منه الأمراض والآثام لتنتشر بين البشر. وسرعان ما أغلقت الصندوق لتحول دون خروج شىء واحد فقط، هو "الأمل".

أقول: نعم، كانت شخصية إغريقية من أيام زمان، ونظرت فسى صندوق قيل لها ألا تنتظر فيه، وخرج من الصندوق الكثير من الأمراض، والحروب، والبلايا التي أصابت الناس؛ لقد تعلمت هذا منذ زمن، فى منزل السيدة پاركينسون. وكان لمارى هويتى رأى سئى فى القصة، قالت لماذا تركوا مثل هذا الصندوق عرضةً لأن ينظر فيه أى شخص، إذا كانوا لا يريدون فتحه.

ويدهشه أن يجدنى أعرف هذا، ويقول: ولكن هل تعرفين ماذا كان فى قاع الصندوق؟

أقول: نعم يا سيدى، كان الأمل. وهذه القصة يمكن أن توحى بنكته تقول أن الأمل كان هو ما حصلت عليه عندما "هرشت" قاع البرميل"، كما يقول البعض إذا اضطر شخص للزواج أخيراً بعد يأس. أو يمكنك أن تقول أنه كان صندوق الأمل. ولكنها على أى حال، كلها حواديت؛ ومع ذلك فإن نموذج الغطاء جميل جداً.

يقول: حسناً، أظن أننا كلنا بحاجة لبعض الأمل من حين لآخر.

وكان على طرف لسانى أن أقول أننى قد عشت لفترة من الزمن بدون الأمل، لكننى أحجمت عن هذا القول؛ ثم قلت إنك تبدو قلقاً اليوم يا سيدى، أرجو ألا تكون مريضاً.

ويبتسم تلك الابتسامة المائلة، ويقول إنه ليس مريضاً، ولكنه مشغول البال فقط؛ ولكن إذا واصلت حكاية قصتى، فسوف يساعده ذلك، فقد تنتزعه من متاعبه وقلقه؛ ولكنه لا يقول ماذا يمكن أن تكون هذه المتاعب.

وهكذا أستمر فى حكائتى.

أقول، الآن يا سيدى سوف أصل إلى جزء من قصتى أكثر سعادة؛ وفى هذا الجزء، سأحكى لك عن مارى هويتتى؛ وسوف تدرك لماذا استعرت اسمها عندما كنت بحاجة إليه؛ لأنها ما كانت أبداً لتخذل صديقاً فى وقت الحاجة، وكنت أتمنى أن أقف بجانبها أيضاً، عندما كانت بحاجة إلى ذلك.

كان بيت مخدومى الجديد كبيراً جداً، وكان معروفاً أنه من أجمل البيوت فى تورنتو. كان يقع على طريق الشاطئ، ويشرف على البحيرة، فى منطقة كان يوجد بها العديد من البيوت الكبيرة الأخرى؛ وكان بمدخله رواق مقوَّس بأعمدة بيضاء. وكانت غرفة الطعام على شكل بيضاوى، وكذلك غرفة الاستقبال، وكان رائعاً للناظرين، رغم أنه معرض لتيارات الهواء. وكانت به مكتبة فى اتساع قاعة رقص، بها أرفف ترتفع إلى السقف مليئة بكتب فى أغلفة جلدية، وبها من الكلمات أكثر مما يتمنى أى إنسان أن يقرأ طوال حياته. وكانت غرف النوم بها أسرة ذات أعمدة يعلق عليها ناموسية للحماية من الذباب والناموس فى الصيف، ومناضد التزيين ذوات المرايا، وخزائن من الماهوجنى، وصناديق بالأدراج، كانت كاملة من جميعه. وكانوا يتبعون كنيسة إنجلترا، كما كان الحال مع أرقى الناس فى تلك الأيام، وأيضاً مثل من يريدون أن يكونوا الأرقى، حيث أنها كانت الكنيسة الرسمية.

كانت العائلة تتكون أولاً من مستر ألدرمان پاركينسون، الذى كان نادراً ما يرى، فقد كان مشغولاً جداً بالأعمال والسياسة؛ وكان يبدو على



شكل تفاعلة ركبت بها عصوان مكان الساقين. وكان لديه الكثير جدًا من الساعات الذهبية ذوات السلاسل، والدبابيس الذهبية، وصناديق السعوط الذهبية، وغير ذلك من التحف الصغيرة، ولو أمكن أن نصهره لخرجت منه خمس قلائد ذهبية، بالإضافة إلى الأقراط. ثم مسز ألدرمان پاركينسون، التي قالت ماري هويتتي أنه كان يجب أن تكون هي السيد، فقد كانت الأفضل. كانت شخصية امرأة تبعث على الاحترام والمهابة، وكان شكلها يختلف تمامًا بدون الكورسيهات التي ترتديها؛ ولكنها عندما كانت تربط نفسها جيدًا، كان صدرها ناتئًا تمامًا مثل رف يمكنها أن تحمل طاقم شاي كامل عليه، دون أن تقع منها قطرة واحدة. كانت من الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت أرملة ثرية قبل أن يستولى مستر ألدرمان پاركينسون على عواطفها، كما قالت؛ والذي من المؤكد أنه كان فتى تتمناه جميع الفتيات، وقالت ماري هويتتي أيضًا كانت أعجوبة أن ينجو مستر ألدرمان پاركينسون بحياته.

كان لديها صبيان بالغان يدرسان في الجامعة في الولايات المتحدة؛ وكلب من نوع الإسبانيل، اسمه بغيلينا، والذي كنت أعتبره أحد أفراد العائلة لأنه كان يعامل على هذا الأساس. وأنا في العموم مغرمة بالحيوانات، ولكن هذا الكلب كان يأخذ مجهودًا منا.

ثم الخدم، وكانوا كثيرين؛ وبعضهم ذهب وجاء البعض الآخر وأنا هناك، ولذا فلن أذكرهم كلهم. هناك وصيفة مسز ألدرمان پاركينسون، والتي كانت تدعى أنها فرنسية ولكننا كنا نشك في ذلك، وكانت منغلقة على نفسها؛ وهناك مسز هني مديرة البيت، التي كان لها غرفة كبيرة في خلفية

الطابق الأرضي، وكذلك كان رئيس الخدم؛ أما الطاهية وعاملة المغسلة فكانتا تسكنان بجوار المطبخ. وكان البستاني وعمال الاسطبل يسكنون في المباني الخارجية، وكذلك كانت عاملتا المطبخ، بالقرب من الإسطبل مع الجياد والبقرات الثلاث، وكنت أذهب هناك أحياناً للمساعدة في حلب الأبقار.

وكنت أنا أسكن في السقيفة العلوية، عند أعلى قمة السلم الخلفي، وكنت أشارك ماري هويتى، التي كانت تعمل في الغسيل، في فراش واحد. لم تكن غرفتنا كبيرة، وكانت حارة في الصيف وباردة في الشتاء، حيث كانت تحت السقف مباشرة وبدون مدفأة أو موقد؛ وكان السرير مفروشاً بمرتبة محشوة بالقش، وكان يوجد صندوق صغير، وحامل حوض بسيط عليه حوض مكسور طرفه، ومبولة، كما كان يوجد مقعد مستقيم الظهر، مدهون بلون أخضر فاتح، وكنا نطوى ملابسنا ونضعها عليه في الليل.

وفي الممر الذي أمامنا كانت عاملتا الغرف، أجنس وايفى. كانت أجنس لها طبع ديني، رغم أنها كانت طيبة وتساعد الآخرين. وكانت في شبابها قد استخدمت مستحضراً طبيياً يزيل اللون الأصفر من الأسنان، لكنه أزال اللون الأبيض أيضاً، وربما لهذا السبب كانت نادراً ما تبسّم، وإذا ابتسّمت، كانت تحرص على أن تظل شفاتها مغلقتين. كانت ماري هويتى تقول إنها تصلى كثيراً لأنها تدعو الله أن يعيد إليها بياض أسنانها، لكن لا نتيجة حتى الآن. أما ايفى فقد أصيبت باكتئاب شديد عندما نفى حبيبها إلى أستراليا لأنه كان مشاركاً في التمرد قبل ثلاث سنوات؛ وعندما

وصلتها رسالة تقول أنه مات هناك، حاولت أن تشنق نفسها بأربطة  
مريلتها؛ لكن الأربطة انقطعت، ووجدوها على الأرض نصف مختنقة  
وفاقدة لعقلها، وكان لابد من إعادها.

لم أكن أعرف شيئاً عن التمرد، فلم أكن في البلاد في ذلك الوقت،  
لكن ماري هويتني أخبرتني بكل شيء عنه. كان هذا التمرد ضد عليّة  
القوم، الذين يديرون كل شيء، ويحتفظون بكل الأموال والأرض لأنفسهم؛  
وكان بقيادة مستر ويليام ليون ماكنزي، الذي كان راديكاليًا، وبعد فشل  
التمرد هرب وسط الثلج والجليد متخفيًا في ثياب امرأة، وعبر البحيرة إلى  
الولايات المتحدة، وكان من الممكن أن يوشى به عدة مرات، ولكن ذلك  
لم يحدث، لأنه كان رجلاً صالحًا يقف دائمًا إلى جوار الفلاحين العاديين؛  
ولكن الكثير من الراديكاليين قبض عليهم ونفوا خارج البلاد أو شنقوا،  
وفقدوا أملاكهم؛ أو ذهبوا إلى الجنوب؛ وأغلب الذين بقوا هنا كانوا من  
المنتسبين لحزب المحافظين البريطاني، أو قالوا أنهم كذلك؛ ولهذا كان  
الأفضل عدم الحديث في السياسة إلا بين الأصدقاء.

قلت أنني لا أفهم شيئاً في السياسة، وأن الأحسن ألا أفكر في  
ذكرها على أية حال؛ وسألت ماري هل هي راديكالية. وقالت أنني لا يجب  
أن أخبر آل پاركينسون، الذين سمعوا حكاية مختلفة، والدها فقد مزرعته  
بهذه الطريقة بعد أن قام بمجهود كبير في إخلائها من الأشجار وإعدادها  
للزراعة؛ وأنهم أحرقوا البيت الخشبي الذي بناه بيديه، وهو يطارد الدببة  
وغيرها من الحيوانات البرية، ثم فقد حياته أيضًا بسبب مرضه وهو يختبئ  
في الغابات في الشتاء، وأن أمها ماتت كمدًا، ولكن الدائرة ستدور عليهم

فى الوقت المناسب، وسىتم الانتقام منهم؛ وكانت تبدو فى حالة غضب عنيف وهى تقول هذا.

أسعدنى أن أكون مع مارى هويتى، فقد أعجبت بها على الفور. كانت أصغر واحدة بعدى هناك، إذ كان عمرها ستة عشر؛ وكانت جميلة ومرحة، وذات شخصية متأنقة، ولها شعر أسود وعينان سوداوان لامعتان، ووجنتان ورديتان بهما غمازتان، وكانت تتبعث منها رائحة كرائحة جوزة الطيب أو زهور القرنفل. وقد سألتنى عن نفسى، وأخبرتها عن الرحلة على السفينة، وعن موت أمى وإغراقها فى البحر وسط قطع الثلج الطافية. وقالت مارى أن هذا محزن للغاية. ثم أخبرتها عن أبى، رغم أننى أخفيت عنها أسوأ الأشياء، لأنه ليس من الصواب أن يتحدث إنسان بشرًا عن أحد الوالدين؛ وقلت لها أننى أخشى أن يأخذ كل راتبى؛ فقالت أننى يجب ألا أعطيه نقودى، فهو لم يعمل من أجلها، وأنها لن تفيد إخوتى وأخواتى، فسوف ينفقها كلها على نفسه وغالبًا على الخمر. وقلت أننى خائفة منه، فقالت أنه لا يستطيع أن يصل إلى هنا، وإذا حاول، فسوت تتحدث مع جيم الذى يعمل فى الإسطبل، وكان شخصًا ضخمًا وله أصدقاء. وبدأت أشعر بارتياح أكبر.

قالت مارى أننى ربما أكون صغيرة جدًا وجاهلة وغشيمة، لكن ذكائى لامع كلمعان قطعة نقد جديدة، وأن الفرق بين الغبى والجاهل هو أن الجاهل يمكن أن يتعلم. وقالت أننى أبدو عاملة جيدة يمكن أن أقوم بكل ما هو مطلوب منى، وأنا سوف نكون على وفاق معًا؛ وأنها عملت من قبل فى مكانين آخرين، وإذا كنت مضطرة لتأجير قوة عمك كخادمة،

فإن الأمر سيان عند آل پاركينسون أو عند غيرهم، فهم لا يبخلون بالطعام. وكان هذا صحيحًا، فسرعان ما بدأ جسدى يمتلئ وينمو طولاً. كان الطعام يمكن الحصول عليه فى كندا أسهل مما كان عليه الحال فى الناحية الأخرى من المحيط، وكان هناك تنويعات أكبر منه؛ وحتى الخدم كانوا يأكلون كل يوم لحمًا، حتى ولو مجرد لحم خنزير مقدد أو مدخن؛ وكان يوجد خبز جيد، من القمح وأيضًا من الذرة الهندية؛ وكان للبيت ثلاث بقرات، وحديقة للمطبخ، وأشجار فاكهة، وفراولة، وأعناب، وأحواض زهور أيضًا.

كانت مارى هويتى فتاة لطيفة وضاحكة، وشقية جدًا، وجريئة فى ألفاظها عندما نكون وحدنا. أما مع الكبار والسادة فإن سلوكها كان يحمل الاحترام والاحتشام. ولهذا، ولأنها كانت سريعة الحركة فى شغلها، كانت مفضلة بشكل عام. لكنها من خلف ظهورهم كانت تتكت عليهم، وتقلد وجوههم ومشية كل منهم وأسلوبه. ودائمًا ما أصابتنى الدهشة من الكلمات التى تخرج من فمها، فكثير منها كانت كلمات شديدة الفظاظ، وليس السبب أننى لم أسمع أبدًا مثل تلك الألفاظ، فقد كان فى المنزل مخزون وفير منها عندما كان أبى يسكر، وعلى السفينة ونحن قادمون، وعند الميناء بالقرب من الحانات والفنادق الصغيرة؛ لكن ما أدهشنى هو سماعها من بنت، وشابة جميلة كهذه، فتاة تلبس بهذه الأناقة والنظافة. ولكن سرعان ما اعتدت عليها، وأرجعتها إلى أنها كندية المولد، كما أنها لم تكن تحترم المقامات كثيرًا. وأحيانًا، عندما كنت أبو مصدومة بكلماتها، كانت تقول أنتى سرعان ما سوف أغنى ترانيم جنائزية مثل أجنس، وأسير بفى وقد

تدلى كآبة فى وجه كالح، وظهر منحن مثل عانس عجوز؛ وكنت أعترض، لكن مثل هذه المناقشة كانت تنتهى ونحن نضحك.

ولكن كان يغضبها أن بعض الناس لديهم الكثير جداً، وأن الآخرين لديهم القليل جداً، فلم تكن ترى أية حكمة إلهية فى ذلك. وكانت تدعى أن أمها كانت من الهنود الحمر، وأنها لهذا لديها شعر أسود حالك؛ وأنها لو كانت لديها أقل فرصة لهربت إلى الغابات، ولهامت حاملة قوساً وسهاماً، ولن تضطر لتدبب شعرها أو لبس المشدات؛ وأنى يمكننى أن أتى معها. وعندئذ نتوه فى تخطيط كيف سوف نختبئ فى الغابة، ونقفز على المسافرين، ونسلخ رؤوسهم، وهو أمر قرأت عنه فى الكتب؛ وقالت أنها تتمنى لو تسلخ رأس مسز الدرمان پاركينسون، إلا أن هذا لا يستحق التعب، لأن شعرها لم يكن شعرها، فثمة لفائف وخصلات منه محفوظة فى غرفة ملابسها؛ وأنها ذات مرة شاهدت الوصيفة الفرنسية تمشط كمية كبيرة من هذه الخصلات، وظنت أنها كانت تمشط الكلب الإسباني. لكن هذا لم يكن إلا الطريقة التى تتكلم بها، ولم تكن تعنى أى ضرر.

أخذتني ماري تحت جناحها من البداية. وسرعان ما خمنت أننى أصغر من السن الذى قلته، وأقسمت أنها لن تخبر أحداً؛ ثم أخذت تنتظر إلى ثيابى، وقالت أن معظمها صغير جداً على مقاسى، وأفضل مكان له هو سلة النفايات، وأننى لن أتمكن من احتمال الشتاء بشال أمى وحده، لأن الريح سوف تتخلله كما لو كان غربالاً؛ وأنها سوف تساعدنى على الحصول على الثياب التى أحتاج إليها، فقد أخبرتها مسز هنى أننى أشبهه بـغلام مهلل الثياب، وأنه لابد من مساعدتى على أن أظهر بمظهر لائق،

حيث أن مسز ألدرمان پاركينسون تهتم بسمعتها فى المنطقة. ولكن لابد فى البداية من فرك جسدى وتنظيفه مثل حبة البطاطس، فقد كنت شديدة القذارة.

وقالت أنها ستقترض من مسز هنى طست استحمام، ولكنى خشيت لأننى لم أستحم بهذه الطريقة من قبل، كما أننى كنت خائفة من مسز هنى؛ ولكن مارى قالت أنها تتبح ولا تعض، وعلى أية حال يمكن أن نسمعها وهى قادمة دائماً، فهى تققع مثل عربة مليئة بالحلل القديمة بسبب ما تحمله من مفاتيح كثيرة؛ وإذا كان هناك أى اعتراض فسوف تهددها بتحميمى فى الخارج، عارية تماماً، تحت الطلمبة فى الفناء الخلفى. وصدمنى ذلك، وقلت أننى لن أسمح بهذا؛ فقالت أنها بالطبع لن تفعل مثل ذلك أبداً، لكن مجرد ذكر الأمر سوف يجعل مسز هنى توافق فوراً.

عادت سريعاً، وقالت أننا يمكن أن نحصل على طست الاستحمام بشرط أن نقوم بتنظيفه جيداً بعد ذلك؛ وأخذناه إلى غرفة الغسيل، وقمنا بضخ الماء ووضعناه فوق الموقد ليدفأ، ثم صببناه فى الطست. وجعلت مارى تقف عند الباب وظهرها ناحيتى لتمنع دخول أى شخص، فلم أكن خلعت كل ثيابى مرة واحدة من قبل، رغم أننى احتفظت بقميصى الداخلى خجلاً. لم يكن الماء دافئاً بما يكفى، فعند نهاية حمامى كنت أرتعش برداً، ومن حسن الحظ أننا كنا فى الصيف، وإلا لمت من البرد. قالت مارى أننى كان يجب أن أغسل شعرى أيضاً؛ وأضافت أنه رغم حقيقة أن كثرة غسل الشعر تسحب كل ما فى الجسد من قوة، وأنها كانت تعرف فتاة أغمى عليها وماتت من كثرة غسل شعرها، إلا أنه بحاجة للغسل كل ثلاثة

أو أربعة أشهر؛ ونظرت إلى رأسي، وقالت أنه على الأقل لا يوجد عندي  
أى قمل، ولكن إذا ظهر أى قمل فى رأسي لكنت فى حاجة إلى وضع  
كبريت وجاز، وأنها فعلت ذلك مرة وظلت رائحتها كريهة البيض الفاسد  
لأيام عديدة.

وأعارتنى مارى قميص نوم حتى يجف قميصى، لأنها غسلت كل  
ثيابى؛ ولفتنى فى ملاءة لكى أستطيع الخروج من غرفة الغسيل وأصعد  
السلام إلى الغرفة؛ وقالت أننى أبدو مضحكة، مثل امرأة مجنونة.

وطلبت مارى من مسز هنى أن تعطينى قرصاً من أجرى،  
لأشتري به ثوباً لائقاً؛ وأخذنا إذنا بالخروج إلى المدينة فى اليوم التالى.  
وأعطتنا مسز هنى خطبة من المواعظ قبل أن نخرج، وقالت أننا يجب أن  
نتصرف بأدب، وأن نذهب ونعود مباشرة، ولا نتكلم مع أى غريب، خاصة  
الرجال؛ ووعدنا بأن نفعل كما قالت.

غير أننا، فى الواقع، سرنا نتسكع فى الطريق الطويل، وأخذنا  
نتأمل الزهور فى الحدائق المسيجة حول المنازل، وتلكأنا عند المحلات،  
التي لم تكن بالكثرة أو الاتساع كما فى بلفاست، رغم أننى لم أرَ هناك  
إلا القليل. ثم سألتنى مارى إذا ما كنت أود أن أرى الشارع الذى تعيش فيه  
العاهرات؛ وشعرت بالخوف، لكنها قالت أنه لا خطر هناك. وبالطبع كنت  
أشعر بفضول لرؤية النساء اللاتي يكسبن من بيع أجسادهن، لأننى كنت  
أفكر أنه إذا وصلت الأحوال إلى الأسوأ، وإذا وصلت إلى الموت جوعاً،  
ربما يكون لدى شىء لبيعه؛ وأردت أن أرى كيف كان شكلهن. وهكذا  
ذهبنا إلى شارع لومبارد، ولكن الوقت كان فى الصباح فلم يكن هناك



الكثير مما يستحق الرؤية. وقالت ماري أنه يوجد هناك عدة بيوت دعارة، رغم أنك لا تستطيع أن تعرفها من الخارج؛ لكن من الداخل قيل أنها رائعة، مفروشة بالسجاد التركي والثريات الكريستالية وستائر المخمل، وتعيش فيها العاهرات في غرف نومهن، ومعهن خادמות لإحضار الإفطار لهن، وتنظيف الأرضيات وترتيب الأسرة، وغسل الثياب، وكل ما عليهن هو لبس ثيابهن ثم خلعهما مرة أخرى، والرقاد على ظهورهن، وهو عمل أسهل من العمل في مناجم الفحم أو المصانع.

كانت العاهرات اللاتي في هذه البيوت هن الطبقة الأعلى من العاهرات، والأعلى ثمنًا، والرجال كانوا من السادة، أو على الأقل زبائن يدفعون جيدًا. ولكن النوع الأرخص من العاهرات كن يتسكن بالخارج، ويستخدمن غرفًا مؤجرة بالساعة؛ وكثير منهن يصبن بالأمراض، ويصلن إلى الشيخوخة في سن العشرين، وبالتالي فهن مضطرات لتغطية وجوههن بالأصباغ، ليخدعن البحارة السكارى. ورغم ما يبدو عليهن من جمال المنظر على البعد، مرتديات الريش والساتان، فإنه يمكنك عن قرب أن ترى أن ثيابهن متسخة ولا تتاسبهن، فكل قطعة يرتدينها مؤجرة باليوم، ونادرًا ما يبقى لهن ما يكفي لشراء الخبز؛ فهن يعشن حياة تعسة، وتساءلت لماذا لا يلقين بأنفسهن في البحيرة؛ وهو أمر فعلته بعضهن، وكانوا يجدونهن طافيات في الميناء.

وتساءلت كيف عرفت ماري كل هذا؛ لكنها ضحكت، وقالت أنني يمكن أن أسمع الكثير إذا أرهفت أذني، خاصة في المطبخ؛ لكن هناك أيضًا

فتاة من الريف كانت تعرفها وصلت بها الحال إلى الأسوأ، وكانت تقابلها في الشارع؛ ولكنها لا تعرف ماذا حدث لها، وتخشى ألا يكون شيئاً طيباً.

ثم ذهبنا إلى شارع كينج، ودخلنا دكان ملابس تباع فيه باليات الثياب البواقي بسعر رخيص؛ وهناك كانت أقمشة من الحرائر والأقطان والجوخ والفانيلا، والساتان، والتارتز، وكل ما تتمناه؛ لكننا كان يجب أن نضع السعر في اعتبارنا، والشئ المناسب الذي نضع فيه نقودنا. وفي النهاية، اشترينا نسيجاً قطنياً مقلماً بالأزرق والأبيض، وقالت ماري أنها ستساعدني في حياكته؛ رغم أنها دهشت، وقتها، عندما وجدت أنني أستطيع الحياكة بمهارة وبغرز صغيرة للغاية، وقالت أن مهاراتي ضائعة للعمل كخادمة، ويجب أن أعمل بوظيفة صانعة ثياب.

اشترينا الخيط اللازم للثوب، وكذلك الأزرار، من بائع جوال جاء في اليوم التالي، وكان معروفاً جيداً للجميع. وكانت الطباخة تعامله بود شديد، وصنعت له كوباً من الشاي وقدمت له قطعة من الكيك، بينما فتح صرته، ونشر أشياءه. كان اسمه جيرميا، وعندما جاء إلى الباب الخلفي كان يتبعه عصاية من خسة أو ستة من الصبيان المتشردين ذوى الثياب الرثة، كما لو كان في موكب، وكان أحدهم يضرب إناء بملعقة، وكانوا جميعاً يغنون:

انفخ النار يا جيرميا

بوف، بوف، بوف

انفخ النار برقة

ثم انفخ بقوة!

هذه الأصوات جذبتنا جميعاً إلى النافذة، وعندما وصلوا إلى الباب الخلفي أعطاهم بنساً لينفقوه، فأخذوه وجروا بعيداً؛ وعندما سألته الطباخة ما كل هذا، قال أنه يفضل أن يتبعوه وهم تحت إمرته، من أن يقذفوه بقبضات من الطين وروث الخيل، وكانت هذه عاداتهم مع الباعة الجائلين، الذين ما كان بمقدورهم أن يطاردوهم دون أن يتركوا أحمالهم؛ وإذا فعلوا هذا، فمن الممكن أن تنهب في لمح البصر على يد هؤلاء الأشرار الصغار، ولهذا اختار الطريق الأكثر حكمة، ووظفهم لديه، وعلمهم الأغنية بنفسه.

كان جيرميا هذا رجلاً ماهراً، رشيق الحركة، وله أنف طويل وساقان طويلتان، وبشرة لוחتها الشمس، ولحية سوداء متموجة، وقالت ماري أنه على الرغم من أنه كان يبدو أشبه باليهود أو العجر، كمعظم الباعة الجائلين، فقد كان أمريكياً شمالياً، وكان أبوه إيطالياً جاء ليعمل في المصانع في ماساتشوستس؛ وكان اسمه بونتيلي، ولكنه كان محبوباً. ويتكلم إنجليزية جيدة، مع لكنة ضعيفة في صوته؛ وكانت له عينان سوداوان نفاذتان، وابتسامة واسعة وجذابة، وكان يرفع الكلفة مع النساء بلا خجل.

كانت لديه أشياء جميلة كثيرة رغبت في شرائها، لكني لم أكن أستطيع دفع ثمنها، حتى رغم أنه قال أنه يمكن أن يأخذ نصف الثمن ويترك الباقي للمرة القادمة التي يأتي فيها؛ ولكني لا أحب أن أكون مدينة. كانت لديه شرائط ودانتيل، وكذلك خيط وأزرار، كان منها المعدنية واللؤلؤية، والخشبية والمصنوعة من العظم، واخترت الأزرار العظمية؛

وكان لديه أيضاً جوارب قطنية بيضاء، وكولات وأساور للقمصان، وكرافات، ومناديل؛ وقمصان داخلية عديدة، وزوجان من المشدات، مستخدمة ولكنها مغسولة وجيدة كما لو كانت جديدة؛ كما كان لديه قفازات صيفية ذات ألوان هادئة، جميلة الصنع جداً؛ وأقراط، ذهبية وفضية، لونا فقط، رغم أن ماري هويتى قالت أنها سوف تذهب منها طبقة اللون؛ وصندوق سعوط من الفضة الحقيقية؛ وزجاجات عطر رائحتها كرائحة الورد، قوية جداً. واشترت الطباخة بعضها، وقال جيرميا أنها لا تكاد تحتاج إليها، لأن رائحتها هي نفسها كروائح الأميرات؛ واحمر وجهها وضحكت جذلاً رغم أنها كانت تقارب الخمسين وليست جميلة الشكل، وقالت الأغلب أنها رائحة البصل؛ فقال إن رائحتها جميلة جداً حتى أنها تفتح الشهية، وأن الطريق إلى قلب الرجل معدته، ثم ابتسم وظهرت أسنانه الأمامية الكبيرة البيضاء، والتي بدت أكبر وأكثر بياضاً نتيجة اللحية السوداء، ونظر إلى الطباخة نظرة تعبر عن الجوع، ولعق شفثيه، كما لو كانت هي نفسها كعكة لذيذة يتمنى أن يلتهمها؛ وقد جعل ذلك وجهها يزداد احمراراً.

ثم سألنا إذا كان لدينا شيء لبيعه، لأنه كما نعلم، سوف يعطى أسعاراً جيدة؛ وباعت أجنس قرطاً مرجانياً كانت ورثته من إحدى خالاتها، قائلة إنه بهرجة باطلة، لكننا كنا نعرف أنها بحاجة إلى النقود لأختها التي كانت تعاني من مصاعب؛ وجاء جيم من الإسطنبول، وقال أنه يريد مبادلة قميص لديه، وكذلك منديل كبير ملون، بقميص آخر أفضل ويعجبه أكثر؛ ومع إضافة سكين جيب خشبية المقبض تمت المبادلة.

وعندما كان چيرميا فى المطبخ، كان الأمر أشبه بالحفل، وجاءت مسز هنى لتعرف ماذا يسبب كل هذا الهرج. وقالت، حسناً يا چيرميا، أرى أنك عدت إلى مزاحك الغث، وتستغل النساء مرة أخرى. ولكنها ابتسمت وهى تقول ذلك، وهو مشهد نادر. قال نعم، وأن هذا هو ما يفعله، فقد كانت هناك جميلات كثيرات لا يستطيع مقاومتهن، لكن لا توجد واحدة فى جمالها؛ واشترت منه مندولين من القماش الخفيف، ومع ذلك فقد طلبت منه أن يسرع فى الأمر ولا يأخذ اليوم كله، فالبنات لديهن عمل يجب أن يقمن به. ثم راحت تقف خارجة من المطبخ.

وأرادت البعض أن يرى لهن الحظ بالنظر فى أكفهن؛ لكن أجنس قالت أن هذا يدخلنا مع الشيطان، وأن مسز ألدرمان پاركينسون لن توافق على كلمة واحدة من أعمال الغجر هذه فى مطبخها. ومن ثم لم يفعل. ولكن بعد الكثير من الرجاء، وافق على تقليد أحد السادة، الصوت والسلوك وكل شىء، وهو الأمر الذى صفقنا له بمرح، فقد كان شديد التماثل مع الواقع؛ وجعل عملة فضية تخرج من أذن الطباخة، وأرانا أنه يستطيع أن يبتلع شوكة طعام، أو بدا كأنه فعل ذلك. وقال أنه تعلم هذه الألعاب السحرية أيام كان شاباً خبيثاً، عندما كان فتى شريراً يعمل فى الأسواق الموسمية والمعارض، قبل أن يتحول إلى تاجر أمين وتسرق الفتيات الجميلات من مثيلاتها جيوبه ويحطمن قلبه خمسين مرة؛ وضجت الحاضرات كلهن بالضحك.

ولكن عندما أخفى كل شىء داخل جواله مرة أخرى، وانتهى من شرب كوب الشاي، وأكل شريحة الكيك، قال لا أحد يستطيع عمل كعكات

لذيذة مثل طاهيتنا، وكان بسبيله للذهاب، أشار لى أن أقترّب منه، وأعطاني زراراً عظيماً زيادة على الأربعة التي اشتريتها. ووضعه في يدي ولف أصابعي عليه، وكانت أصابعه خشنة وجافة، مثل الرمل؛ لكنه حدق في يدي بسرعة أولاً ثم قال، خمسة من أجل الحظ؛ فالناس من هذا النوع يعتبرون الرقم أربعة لا يجلب الحظ، والأرقام الفردية أكثر جلباً للحظ من الأرقام الزوجية. ونظر لى نظرة سريعة وذكية بعينيه السوداوين اللامعتين، وقال بصوت خافت جداً حتى لم تسمعه الأخريات، توجد صخور حادة في الطريق. وهو ما كنت أعرف أنه موجود دائماً يا سيدى، وكان من المؤكد أن هناك ما يكفى منها خلفى، وقد تمكنت من عبورها؛ ولذا لم يروعنى هذا القول كثيراً.

لكنه عندئذ قال أغرب شيء سمعته. قال: أنت واحدة منا.

ثم حمل حمليه وأخذ أغراضه وسار مبتعداً؛ وتركنى أتعجب مما قد يعنيه بذلك. ولكن بعد أن تأملت في الأمر ملياً، اقتنعت أنه كان يعنى أننى أيضاً كنت بلا بيت، مشردة وجوالة، مثل البائعين الجوالين والعاملين في الأسواق الموسمية؛ لأننى لم أكن أتخيل أنه يمكن أن يفكر في شيء آخر.

بعد ذهابه، شعرنا كلنا بالتعب والفتور؛ لأنه لم يحدث كثيراً أننا ساكنات الغرف الخلفية والمكاتب كان يتاح لنا قضاء وقت طيب كهذا، وأن ننظر ملياً إلى مثل هذه الأشياء الجميلة، وفرصة للضحك والمرح في وسط اليوم.

ولكن الثوب جاء جيدًا للغاية، ولأن الأزرار كانت خمسة وليست أربعة، استخدمنا ثلاثة عند الرقبة، وواحدًا عند كل أسورة؛ وحتى مسز هنى قالت يا له من فرق أضفاه على مظهرى، وكم أننى بدوت أنيقة ومحترمة، بعد أن لبست ما يليق.

جاء والدى قرب آخر الشهر الأول، وكان يريد كل راتبي؛ لكنى لم أستطع أن أعطيه إلا الربع، حيث أنى كنت قد أنفقت الباقي. فبدأ يسب ويلعن، وأمسكنى من ذراعى؛ لكن مارى أطلقت رجال الإسطبل عليه. وعاد فى آخر الشهر الثانى، وأعطيته الربع مرة أخرى، وقالت له مارى ألا يعود مرة أخرى، فأخذ يسبها، فردت عليه بما هو أسوأ، وصفرت ليأتى الرجال، فطاردوه. كنت منقسمة على نفسى فى هذا الأمر، فقد شعرت بالأسف من أجل إخوتى الصغار؛ وحاولت أن أرسل إليهم بعض النقود بعد ذلك، مع مسز بيرت؛ لكنى لا أظن أنها وصلتهم.

فى البداية كنت أعمل فى الأوفيس، أقوم بتنظيف الأوانى والقذور، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن القذور الحديدية ثقيلة جدًا على يدي؛ وبعد ذلك رحلت الغاسلة إلى وظيفة أخرى، وجاءت واحدة لم تكن فى سرعتها ونشاطها، وقالت مسز هنى أننى سأقوم بمساعدة مارى فى الشطف والعصر وتعليق الثياب والتطبيق والتجفيف والإصلاح، وقد أسعدنا ذلك نحن الاثنتين. وقالت مارى أنها سوف تعلمنى كل ما أحتاج لتعلمه، وأننى سأتعلم بسرعة لأننى ذكية.



عندما كنت أرتكب خطأ وأقلق على ذلك، كانت ماري تطيب خاطرى وتقول لا يجب أن تأخذى الأمور بهذه الجدية، وإذا لم ترتكبى خطأ أبدًا فلن تتعلمى أبدًا؛ وعندما تكلمنى مسز هنى بحدة وأجد نفسى على حافة البكاء، كانت ماري تقول لى أننى لا يجب أن ألقى بالاً، فهذه طريقتهما، والسبب أنها بلعت زجاجة من الخل فأصبح لسانها لاذعًا مثله. وأننى يجب أن أتذكر أننا لسنا عبيدًا، وأن العمل كخادمة ليس مكتوبًا علينا ولا ولدنا من أجله؛ وأنا غير مضطرات للاستمرار فيه إلى الأبد وإنما هى وظيفة لنعمل بها. قالت أن العادة فى هذا البلد أن البنات الصغيرات يعملن لكى يكسبن نقودًا تنفعهن فى دوطاتهن؛ ثم يتزوجن، وإذا راجت أعمال الأزواج فسرعان ما تستأجر الواحدة منهن الخدم، وعلى الأقل خادمة واحدة لكل المهام؛ وفى مثل هذا اليوم ربما أكون سيدة لمنزل ريفى منظم ومرتب، ومستقلة، وسوف أنظر إلى المحن والشدائد التى تحدث على يد مسز هنى كمنكته لطيفة. إن كل إنسان له نفس القيمة التى لغيره، وفى هذا الجانب من المحيط يكبر الناس عمومًا بالعمل الشاق وليس بناء على المكانة التى كان عليها أجدادهم، وهكذا يجب أن تكون الأمور.

قالت أن الخادمة مثلها مثل أى شخص آخر، وأن ثمة أسلوبًا لهذا العمل لا تتعلمه الكثيرات أبدًا، وأن المسألة تكمن فى طريقة النظر إلى الأمور. ومثلاً، دائماً ما يقال لنا أن نستخدم السلالم الخلفية لنكون بعيدًا عن طريق العائلة، لكن الواقع أن الأمر بالعكس: فالسلالم الأمامية جعلت هناك لكى تظل العائلة بعيدًا عن طريقنا. يمكنهم أن يتسكعوا من أعلى لأسفل وبالعكس على السلالم الأمامية فى ملابسهم الرائعة وحليهم التافهة، بينما يسير العمل الحقيقى فى المكان خلف ظهورهم، دون أن يعقدوا سير العمل، ويتدخلوا، ويزعجوا العاملين. فهم مجرد مخلوقات جاهلة وواهية، رغم

ثرائهم، وأغلبهم لا يستطيع إشعال النار حتى لو كادت أرجلهم تتجمد بردًا، لأنهم لا يعرفون كيف، ومن العجيب أنهم يستطيعون أن يتمخطوا ويمسحوا مؤخراتهم، فهم بالطبيعة لا فائدة لهم، كشجرة عقيمة – ولا تؤاخذنى يا سيدى، فهذا كان تعبيرها – وإذا حدث أن فقدوا كل نقودهم غدًا وألقوا إلى الشوارع، لن يمكنهم حتى أن يعيشوا بالعمل بالبغاء، فهم لن يعرفوا ماذا يدخل أين، وسينتهى بهم الحال إلى أن يأخذوا – لن أقول الكلمة – فى الأذن، ومعظمهم لا يعرف الفرق بين إسته وأى حفرة أخرى فى الأرض. وقالت شيئاً آخر عن النساء، وكان شديد القباحة حتى أننى لن أكرره يا سيدى، لكنه جعلنا نضحك كثيرًا.

وقالت أن اللعبة تكمن فى إنجاز العمل دون أن ينتبه أحد إلى عملية الإنجاز؛ وإذا فاجأك أحد وأنت تعملين، فإن عليك أن تختفى على الفور من المكان، وفى النهاية قالت أن لنا الغلبة عليهم، لأننا نغسل ثيابهم القذرة ومن ثم فنحن نعرف الكثير عنهم؛ لكنهم لا يغسلون ثيابنا، وبالتالي لا يعرفون أى شيء عنا على الإطلاق. وما أقل الأسرار التى يمكنهم إخفاؤها عن الخدم؛ وإذا عملت يومًا خادمة غرف، فسوف أضطر لأن أتعلم كيف أحمل دلوًا مليئًا بالأقذار كما لو كان إصيص زهور، فأشدد ما يكرهون هو أن يذكرهم أحد بأن لهم أجساد مثلهم مثل غيرهم، وأن برازهم نتن الرائحة مثل براز أى أحد آخر، وربما أسوأ. ثم أخذت تتلو أبياتًا من الشعر:

عندما كان آدم يعزق الأرض،

وحواء تغزل

فمن حينئذ كان عليه القوم؟

وكما قلت يا سيدى، كانت مارى سليطة اللسان، ولم تكن تتكلف فى عباراتها؛ وكانت لها أفكار ديمقراطية جدًّا، وقد استغرق هذا منى بعض الوقت لأتعود عليه.

فى أعلى البيت كانت هناك علية كبيرة، منقسمة؛ فإذا صعدت السلالم، ثم سرت أمام الغرفة التى كنا ننام فيها، ثم نزلت بضع درجات أخرى، تجد غرفة التجفيف. كانت مزودة بحبال مصفوفة خطوطًا، وكان لها نوافذ صغيرة عديدة تفتح تحت طُنف السقف. وكانت المدخنة الآتية من المطبخ تمر من خلال هذه الغرفة إلى السطح. وكانت تستخدم لتجفيف الملابس فى الشتاء، وفى أوقات المطر.

وفى الغالب لم نكن نقوم بالغسيل إذا كان الجو منذرًا، ولكن، خاصة فى الصيف، كان اليوم يبدأ صافيًا، ثم تتجمع السحب فجأة، وترعد وتمطر؛ وكانت العواصف الرعدية عنيفة للغاية، ولها رعد قاصف وبرق كومضات النار، برق ورعد كثير حتى نظن أن نهاية العالم قد أزفت. فى أول مرة حدث ذلك أصابنى الرعب، وجريت لأختبئ تحت منضدة وبدأت أبكى، وقالت مارى هذا لا شىء، مجرد عاصفة رعدية؛ لكن بعد ذلك حكّت لى حكايات عديدة عن رجال كانوا بالخارج فى حقولهم أو مخازن غلالهم، وضربتهم الصاعقة فقضت عليهم، كما كان من الممكن أن تصيب بقرة واقفة تحت شجرة.

وعندما يكون هناك غسيل منشور بالخارج، كنا نندفع بالسلالم عند أول قطرة، ونجمع كل الغسيل بأسرع ما يمكننا، ونسرع به فوق السلالم، ونعيد نشره فى غرفة التجفيف، فلا يمكن تركه فى السلالم فترة

طويلة وإلا فإنه يكمم. كنت أحب رائحة الغسيل المجفف بالخارج، كانت رائحة جميلة منعشة؛ وكانت القمصان وملابس النوم التي ترفرف في نسيم يوم مشمس تشبه طيورًا بيضاء كبيرة، أو ملائكة مبتهجة، رغم أنها بلا رؤوس.

ولكن، عندما كنا ننشر نفس الثياب بالداخل، في الإضاءة الخافتة لغرفة التجفيف، كانت تبدو مختلفة، أشبه بأشباح باهتة تحوم وتومض في العتمة؛ وكان منظرها، وهي ساكنة بلا جسد، يصيبني بالخوف. وسرعان ما فهمت ماري الأمر، فقد كانت سريعة الفهم، فكانت تختبئ خلف الملاءات، وتلتصق بها حتى يظهر الخط الخارجي لوجهها، وتصدر صوت أنين؛ أو قد تختبئ خلف قميص نوم وتجعل ذراعيه يتحركان. كان قصدها إخافتى، وكانت تتجح أحيانًا، فأصرخ؛ ثم نطارد بعضنا بعضًا ذهابًا وإيابًا بين صفوف الغسيل، ونحن نضحك ونصيح، ولكننا كنا نحاول ألا نرفع أصواتنا كثيرًا، وإذا أمسكت بها كنت أندفع في دغدغتها، فقد كانت سريعة التأثير بالدغدغة، وأحيانًا كنا نجرب مشدات مسر الأدرمان پاركينسون، فوق ثيابنا، ونسير بصدرينا ناتئين وننظر من طرف أنفينا؛ وقد ننساق بالانفعال فنقع على ظهورنا في سلال الثياب، ونجلس هناك نلهث مثل سمكتين حتى نستعيد نفسي مرة أخرى.

ومن المؤكد أنك تلاحظ يا سيدى أن هذا لم يكن إلا لأننا كنا ممثلتين بالروح المعنوية المرتفعة للشباب، والتي لا تلتف دائمًا بكثير من الرزانة.

كانت مسز ألدرمان پارکینسون تمتلك من الأغطية المصنوعة من قطع الأقمشة المشغولة عددًا أكثر مما رأيت طوال حياتي، فلم تكن هذه الأغطية من الأشياء المألوفة كثيرًا في الجانب الآخر من المحيط، كما لم يكن القطن المطبوع كثيرًا ورخيصًا هكذا. وقالت مارى أن البنات لا تعتبر نفسها مستعدة للزواج حتى يكون لديها ثلاثة أغطية، صنعتها بيديها؛ وأجمل الأغطية جميعًا أغطية الزواج، التي تصنع على نماذج مثل شجرة الجنة، وسلّة الزهور. أما النماذج الأخرى مثل مطاردة الإوز البرى وصندوق باندورا، فيستخدم في صنعها قطع كثيرة جدًا من القماش المشغول وتحتاج مهارة كبيرة؛ لكن النماذج من نوع الكوخ الخشبي، والرقع التسع، فهي نماذج للاستخدام اليومي، وأسرع في صنعها. لم تكن مارى قد بدأت في صناعة غطاء زواجها بعد، فلم يكن لديها وقت وهي تعمل كخادمة؛ ولكنها انتهت بالفعل من صناعة واحد على نموذج الرقع التسع.

وفي يوم جميل من أيام أواسط سبتمبر، قالت مسز هنى أن الوقت حان لأخذ الأغطية والبساطين الشتوية للخارج، لتهوئتها، استعدادًا للشتاء؛ وإصلاح ما بها من فتوق وتمزقات؛ وأسندت هذه المهمة لمارى ولى. كانت الأغطية مخزنة في العلية، بعيدًا عن غرفة التجفيف لتفادى الرطوبة، وموضوعة في صندوق من خشب الأرز، مع ملاءة من الموسلين بين كل غطاء وآخر، وكمية من الكافور تكفى لقتل القطة، وقد دوختنى رائحتها بالفعل. كان علينا أن نحمل هذه الأغطية إلى الأسفل وننشرها بالخارج على الحبال، وننظفها بالفرشاة، ونبحث إذا ما كان يوجد بها عتة؛ فرغم صناديق الأرز والكافور، كانت العتة تتمكن أحيانًا من الوصول إليها،

وأغطية الشتاء تكون محشوة بالصوف، بدلاً من القطن في الأغطية الصيفية.

كانت الأغطية الشتوية مصنوعة من ألوان أغمق من ألوان الأغطية الصيفية، منها الأحمر والبرتقالي والأزرق والبنفسجي؛ وبعضها كان بها قطع حريرية وقطيفة وقطع موشاة بالقصب. وعلى مر السنوات، وأنا في السجن، عندما كنت وحدي، فأنا معظم الوقت وحدي، كنت أغمض عيني وأدير رأسي نحو الشمس، وكنت أرى بريقاً أحمر وبرتقالياً في مثل بريق تلك الأغطية؛ وعندما كنا نعلق ستة منها على الحبل، كلها في صف واحد، كنت أفكر أنها تبدو مثل الأعلام التي يحملها جيش ذاهب إلى الحرب.

ومنذ ذلك الحين، كنت أفكر لماذا اختارت النساء أن يصنعن مثل هذه الأشياء المضجرة، ثم يفرشنها فوق الأسرة؛ لأنها تجعل السرير أكثر الأشياء بروزاً في الغرفة. ومن ثم فكرت أنه نوع من الإنذار. ربما تظن أن السرير مكان سلام يا سيدي، وبالنسبة لك فإنه ربما يعنى الراحة والاسترخاء والنوم اللذيذ. لكنه ليس كذلك بالنسبة للجميع؛ فكثير من الأشياء الخطرة يمكن أن تحدث في السرير. ففي السرير نولد، وهذه أول مخاطرة في الحياة؛ وفي السرير تلد المرأة، وكثيراً ما يكون في ذلك نهايتها. وفي السرير يحدث ذلك الشيء بين الرجل والمرأة وهو أمر لن أذكره لك، لكنني أظن يا سيدي أنك تعرف ما هو؛ ويسميه البعض الحب، والبعض يسمونه اليأس، أو يسمونه المهانة التي لا بد عليهن احتمالها.

وأخيراً السرير هو مكان النوم، ومكان الحلم، وغالبًا هو المكان الذى نموت فيه.

ولكنى لم أصل لكل هذه التأملات عن الأغطية إلا بعد أن أصبحت فى السجن بالفعل. فالسجن هو المكان الذى يتوفر لك فيه الكثير من الوقت للتفكير، ولا تجد أحدًا لتفضى إليه بأفكارك؛ ومن ثم فأنت تفضى بها لنفسك.

وهنا يطلب منى د. چوردان أن أتوقف قليلاً ليستطيع مجاراتى فى الكتابة، ويقول أنه مهتم جدًا بما رويته لتوى. وأسعدنى ذلك، فأنا أحب الحكاية عن تلك الأيام، وإذا سئلت ماذا أتمنى لتمنيت أن تستمر هذه الأيام لأقصى ما أستطيع. وهكذا أنتظر، وأراقب يده تتحرك فوق الورق، وأفكر أنه من اللطيف أن تكون للإنسان براعة الكتابة بهذه السرعة، وهو الأمر الذى لا يمكن الحصول عليه إلا بالممارسة، مثل لعب البيانو. وأتساءل إن كان له صوت جميل فى الغناء، وإن كان يغنى أغانى ثنائية مع السيدات الشابات فى الأمسيات عندما أكون محبوسة وحدى فى زنزانتى. والاحتمال الغالب أنه يفعل ذلك، فهو وسيم ولطيف وغير متزوج.

يقول وهو يرفع رأسه: وهكذا يا جريس، تعتبرين أن السرير مكان خطر؟

ثمة نغمة مختلفة فى صوته؛ ربما هو يضحك منى فى داخله. لا يجب أن أتحدث معه بهذه الحرية، وقررت ألا أفعل، إذا كان سيستمر فى هذه النغمة.

وأقول: طبعًا ليس في كل وقت يا سيدي، فقط في المناسبات التي ذكرتها. ثم ألوذ بالصمت، وأستمر في الخياطة.

يقول: هل ضايقتك في شيء يا جريس؟ أنا لم أقصد.

أستمر في الخياطة في صمت لحظات قليلة. ثم أقول: سوف أصدقك يا سيدي، وأصدق ما تقوله؛ وأرجو أن هذا يكون له مردود في المستقبل.

يقول بحرارة: بالطبع، بالطبع، من فضلك استمري في قصتك. لم يكن من المناسب أن أقاطعك.

أقول: من المؤكد أنك لا تريد الاستماع إلى مثل هذه الأشياء العادية وتفاصيل الحياة اليومية.

يقول: أريد أن أسمع أي شيء تقولينه لي يا جريس. إن أقل تفاصيل الحياة اليومية كثيرًا ما تخبئ أشياء غاية في الأهمية.

لست متأكدة مما يعنيه بذلك، لكني أستمر.

وأخيرًا، حملنا كل الأغطية إلى أسفل، ونشرناها في الشمس، ونظفناها بالفرشاة؛ وعدنا باثنتين منها إلى الداخل لإصلاحهما. وجلسنا في غرفة الغسيل، فلم يكن هناك غسيل منتظر، وكان المكان أطف جواً من العلية؛ كما كان بها منضدة كبيرة يمكن أن نفرد الأغطية عليها.

كان أحد الغطاءين غريب الشكل جدًّا؛ كان مرسومًا عليه في كل ركن من أركانه أربع جرار تنمو فيها أربع شجرات صفصاف، ويمامة



بيضاء، أو أظن أن من قامت بعملها كانت تقصد اليمام، ولكنها كانت أكثر شبيها بالدجاج؛ وفي الوسط كان اسم امرأة مطرزًا بلون أسود: فلورا. قالت ماري أن هذا الغطاء صنعته مسز ألدرمان پاركينسون في ذكرى صديقة لها توفيت، وكانت هذه هي الموضة في ذلك الوقت.

أما الغطاء الآخر فكان يسمى "شبابيك العلية"، وكان مكوناً من قطع كثيرة جداً، وإذا نظرت إليه من اتجاه ترى صناديق مغلقة، وإذا نظرت من اتجاه مختلف تراها مفتوحة، وأظن أن الصناديق المغلقة هي العلية، والمفتوحة هي النوافذ؛ وكل الأغطية هكذا، يمكنك أن ترى كلاً منها بطريقتين مختلفتين، بالنظر إلى القطع ذات الألوان الغامقة، أو القطع ذات الألوان الفاتحة. ولكن ماري قالت الاسم بطريقة لم أسمعها جيداً، وظننت أنها قالت "أرامل العلية"، وقلت: أرامل العلية، هذا اسم غريب لمفرش سرير. فأعادت ماري الاسم الصحيح لي، وانتابتنا نوبة من الضحك، لأننا تصورنا علية مليئة بالأرامل، في أثوابهن السوداء، وقلنسواتهن والبكاءات جالسات، وقد اكتست وجوههن بالأسى، ويعتصرن أيديهن، ويكتبن رسائل على أوراق سوداء الحواشي، ويمسحن عيونهن بمناديل سوداء الحواشي أيضاً، وقالت ماري أن الصناديق والعلب في العلية لا بد أن تكون محشوة لقمته بخصلات شعر أزواجهن الأعراء الراحلون، فقلت: وربما يكون الأزواج الأعراء الراحلين في الصناديق أيضاً.

وقد جعلنا هذا نغرق في الضحك، ولم نستطع التوقف، حتى عندما سمعنا مسز هني ومفاتيحها تصلصل عبر الردهة. دفنا وجوهنا في الأغطية، وعندما فتحت الباب، كانت ماري قد تماكنت نفسها تماماً، لكنني

كنت أخفى وجهى لأسفل وأكتافى تهتز وأنا أحاول أن أكتم ضحكى. قالت مسز هنى: ما الأمر يا بنات، فوقفت مارى وقالت: المعذرة يا مسز هنى، إن جريس تبكى على أمها المتوفاة. فقالت مسز هنى: حسناً، خذوها إلى المطبخ لتتناول كوباً من الشاي، ولكن لا تأخذا وقتاً طويلاً، وقالت أن الفتيات الصغيرات يبكين دائماً لأتفه شىء، وأنه يتعين على مارى ألا تهاودنى وتتركنى أصل إلى حالة يتعذر فيها ضبط النفس. وعندما ذهبت تماسكنا وضحكنا كثيراً حتى كدت أموت من الضحك.

ربما تظن أن هذا غير لائق منا يا سيدى، أن نتخذ من الأرامل مادة للضحك؛ وأنه مع وجود موتى فى عائلتى، كان يجب أن أعرف أن هذا أمر لا يجب اتخاذه مادة للضحك. وإذا كانت هناك أية أرملة قريبة منا لما فعلنا ذلك أبداً، فمن الخطأ أن تتدر بالأم الآخرين. ولكن لم تكن هناك أرامل يمكن أن نسمعنا، وكل ما أستطيع قوله يا سيدى هو أننا كنا فتيات صغيرات، والفتيات الصغيرات كثيراً ما يكنّ حمقاًوات بهذه الطريقة، والأفضل أن نضحك بدلاً من أن ننفجر.

ثم فكرت فى الأرامل – وهن منحنيات الظهر، وطريقة سيرهن، وفلس الأرملة فى الإنجيل<sup>(\*)</sup>، وهو ما كانوا يحثوننا دائماً نحن الخدم على منحه للفقراء من رواتبنا؛ كما فكرت كيف أن الرجال يغمزون بعيونهم ويهزون رؤوسهم عند ذكر أرملة شابة غنية، وكيف أن الأرملة لا تكون محترمة إلا إذا كانت عجوزاً وفقيرة، وهو أمر غريب للغاية إذا فكرت فيه.

---

(\*) "فجاءت أرملة فقيرة وألقت فلسين قيمتهما ربع"، إنجيل مرقص، ٤٣:١٢.

فى سبتمبر كان الجو جميلاً، وبعض أيامه كانت أشبه بأيام الصيف، وفى أكتوبر تحولت كثير من الأشجار إلى اللون الأحمر والأصفر والبرتقالى، وكأنا وسط حريق مشتعل، ولم أكن أستطيع أن أتوقف عن النظر إليها. وفى عصر أحد الأيام كنت بالخارج مع مارى نجمع الملاءات من فوق الحبال، وسمعنا أصواتاً جشة كثيرة وكأنها تتنادى معاً. قالت مارى: انظرى، إنه الأوز البرى يطير نحو الجنوب لقضاء الشتاء. كانت السماء فوقنا معتمة من كثرة هذه الطيور. وقالت: سوف يخرج الصيادون غداً صباحاً. وأحزنتنى فكرة أن هذه المخلوقات البرية سوف تقتل.

وفى إحدى الليالى، أواخر أكتوبر، حدث شىء مخيف بالنسبة لى. ولكنى ما كنت لأخبرك بهذا يا سيدى إلا لأنك طبيب، والأطباء يعرفونه بالفعل، ولذا فلن يصدرك. كنت أستخدم مبلولة الغرفة، حيث أننى كنت أرتدى بالفعل قميص النوم وعلى وشك الذهاب إلى الفراش، ولم أرد الخروج إلى دورة المياه فى الظلام؛ وتصادف أن نظرت لأسفل، وفوجئت بوجود دم، وبيعض الدم على ثوبى أيضاً. وكان هناك دم ينزل من بين ساقى، ففكرت أننى على وشك الموت، وانفجرت فى البكاء.

وعند عودة مارى وجدتنى فى هذه الحالة، قالت ماذا حدث؟ قلت أننى مصابة بمرض خطير، ومن المؤكد أننى سأموت؛ وأننى كنت أشعر بألم فى بطنى ولكنى تجاهلته متصورة أنه بسبب الخبز الكثير الذى أكلته، فقد كان يوم الخبيز. لكنى تذكرت حينذاك أن أمى بدأ معها مرض الموت بالأم فى البطن، وبكىت بشدة.

نظرت ماري، والحق أنها لم تضحك مني، ولكن شرحت كل شيء. وسيدهشك أنني لم أكن أعلم ذلك، رغم أن أمي ولدت الكثير من الأطفال؛ لكن الحقيقة أنني كنت أعرف الأطفال وكيف يخرجون من أمهاتهم، وحتى كيف يدخلون، فقد رأيت الكلاب في الطرقات؛ لكن هذا الشيء لم أكن أعرفه. وأظن أنه لو كان لي أصدقاء من سني لعلمت به.

وقالت ماري، أنت امرأة الآن، وقد جعلني هذا أبكى مرة أخرى. ولكنها أحاطتني بذراعيها، وطيبت خاطري، أفضل مما يمكن أن تفعله أمي لو كانت موجودة، لأنها كانت دائماً مشغولة بشدة، أو متعبة، أو مريضة. وأعارتني ماري قميصها التحتي القطني الأحمر إلى أن أحصل على واحد لنفسي، وأرتتي كيف أطوى القماش وأدبسه، وقالت إن البعض يسميها لعنة حواء، ولكنها تعتقد أن هذا غباء، وأن اللعنة الحقيقية لحواء هي أنها مضطرة لاحتمال تهامة آدم، هذا الذي ما أن تحدث مشاكل حقيقية حتى يلقي باللوم عليها. وقالت أيضاً إذا أصبح الألم شديداً فسوف تأتيني ببعض من لحاء الصفصاف لألوكه، فهو يفيد في هذه الحالة، وأنها سوف تسخن لي قالب طوب على موقد المطبخ، وتلفه بغطاة، ليخفف الألم. وشعرت بالامتنان الشديد لها، فقد كانت حقا صديقة طيبة وعطوفة.

ثم أجلسنتي ومشطت لي شعري، برقة ولطف، وقالت: جريس، سوف تكونين جميلة جداً، وسرعان ما سوف تديرين رءوس الرجال. وأسوأ الرجال هم رجال الطبقة العليا الذين يظنون أن من حقهم الحصول على ما يريدون، وعندما تذهبين إلى دورة المياه ليلاً يكونون في حالة سُكر، يقفون بانتظارك ويكون هناك شد وجذب، ولا يمكن التعقل معهم،

وإذا اضطررت فإن عليك أن تصوبى ركلة بين الساقين حيث يمكن أن تؤلمهم؛ والأفضل أن تغلقى بابك دائماً بالمزلاج، وأن تستخدمى مبولة الغرفة. لكن أى رجل من أى نوع قد يحاول نفس الشيء، وسوف يبدأون ببذل الوعود، سيقولون أنهم سيفعلون أى شىء تريدين؛ ولكنك يجب أن تكونى حذرة جداً فيما تطلبين، فلا تحققى لهم مطالبهم قبل أن يفوا بوعودهم، وإذا كان هناك خاتم فلا بد أن يكون معه رجل.

وسألتها ببراءة لماذا كل هذا، فقالت لأن الرجال كذابون بطبيعتهم، وقد يقولون أى شىء ليحصلوا على ما يريدون منك، ثم يفكرون ويتراجعون ويرحلون على أول مركب. هنا وجدت أننا نتحدث عن نفس القصة التى كانت الخالة بولين تقولها عن أمى، فهزرت رأسى بحكمة وقلت إن عندها حق، رغم أننى لم أكن أفهم تماماً ما تعنيه. وضمتى إلى صدرها وقالت أننى بنت صالحة.

فى ليلة ١٣ أكتوبر، التى هى كما تعلم يا سيدى عشية عيد القديسين، التى يقولون أن أرواح الموتى تعود فيها من القبور — رغم أن هذه مجرد خرافة — فى تلك الليلة جاءت مارى إلى غرفتنا ومعها شىء تخبئه فى مريلتها، قالت انظرى لقد جئت لنا بأربع تفاحات، لقد رجوت الطباخة أن تعطىها لى. وكان التفاح كثيراً فى ذلك الوقت من العام، وكان فى القبو براميل مليئة منه. قلت، أوه، أهى لناكلها نحن، قالت إننا سوف نأكلها فيما بعد، ولكن هذه هى الليلة التى يمكن فيها أن تعرفى من سنتزوجين. وقالت أنها أحضرت أربعة ليكون لكل منا فرصتان.

وأرتنى سكيناً صغيراً، قالت إنها أخذته من الطباخة أيضاً. والواقع أنها كانت أحياناً تأخذ أشياء دون أن تستأذن، وكان هذا يضايقنى، رغم أنها قالت أن ذلك ليس سرقة ما دامت تعيدها بعد ذلك. لكنها أحياناً لم تكن تعيدها أيضاً. فقد أخذت نسخة من رواية "سيدة البحيرة" لسير والتر سكوت من المكتبة، حيث كان يوجد خمس نسخ، وكانت تقرأها لى بصوت مرتفع؛ وكان لديها كمية من أعقاب الشموع التى كانت تأخذها واحدة واحدة من غرفة الطعام. وكانت تخبئها تحت لوح متقلقل من ألواح الأرضية؛ وإذا كانت قد استأذنت لتحصل عليها لما خباتها. وكان يُسمح لنا بشمعة لتغيير ثيابنا ليلاً، لكن مسز هنى قالت أننا يجب ألا نستخدمها بإسراف، ويجب أن تكفينا الشمعة الواحدة أسبوعاً، وهذا ضوء أقل مما تريده مارى. وكان لديها بعض الثقاب الذى كانت تخبئه أيضاً، فإذا ما أطفئت شمعتنا المسموح بها لتوفيرها، كان يمكنها أن تشعل غيرها متى أرادت، وهكذا أمكنها أن تشعل اثنتين من أعقاب الشموع حينذاك.

قالت إليك السكين والتفاحة، قشريها قشرة واحدة طويلة، ثم يجب أن تقذفى بها من فوق كتفك الأيسر دون أن تنظرى ورائك، وسوف تقع على شكل الحرف الأول من اسم الرجل الذى سوف تتزوجينه، والليللة سوف تحلمين به.

كنت أصغر من أن أفكر بالزواج، لكن مارى كانت تتحدث طويلاً عنه. وعندما توفر ما يكفى من راتبها، سوف تذهب لتتزوج من فلاح شاب لطيف لديه أرض جاهزة أخليت من الأشجار والنباتات البرية، وبيت جميل مبنى، وإذا لم تستطع أن تحصل على مثل هذا البيت، فسوف ترضى

بمنزل خشبي، وسوف يبنيان بيتًا أفضل فيما بعد. بل إنها كانت تعرف نوع الدجاجات والبقرة التي ستكون لديها – كانت تريد دجاجات بيضاء وحمراء، من نوع اللاجهورن، وبقرة حلوب من نوع جرسى لإنتاج الجبن والزبد والتي قالت أنه لا يوجد أفضل منها.

وهكذا أخذت التفاحة وقشرتها، وأخرجت القشرة قطعة واحدة. وألقيتها خلفي، ونظرنا إليها، ولم نعرف أى ناحية هي أعلى الحرف، لكن على الأقل قررنا أنه حرف (جيه). وبدأت ماري تشاكسني، وتذكر أسماء الرجال الذين تعرفهم وتبدأ أسماءهم بحرف (جيه)؛ وقالت أنني ربما أتزوج جيم الذي في الإسطنبول، والذي كان أحول العين، ورائحته فظيعة؛ أو جيرميا البائع المتجول، الذي كان أكثر وسامة بكثير، رغم أنني سوف أضطر للصياغة في البلاد ولن يكون عندي بيت إلا البقجة التي سوف أحملها على ظهري، مثل الحلزون. وقالت أنني ربما أعبر الماء ثلاث مرات قبل ذلك، وقلت أن كل شيء من اختراعها، وابتسمت لأنني عرفت أنها كانت تحتال عليّ.

ثم كان الدور عليها، فبدأت تقشر التفاحة. لكن قشرة التفاحة الأولى انكسرت، والثانية أيضًا. وأعطيتها تفاحتي الأخرى، لكنها كانت عصبية للغاية، وكسرت قشرتها بمجرد أن بدأت في تقشيرها. ثم ضحكت وقالت إنها قصص العجائز الغبية، وأكلت التفاحة الثالثة، ووضعت الاثنتين الأخريين على حافة النافذة لتحتفظ بهما حتى الصباح، وأكلت أنا تفاحتي؛ ثم أخذنا نتندر على مشدات مسز ألدرمان پاركينسون، ولكن ماري رغم ضحكها كانت مكتئبة.

ويمكننى أن أقول أنها لم تتم بعد أن ذهبنا إلى الفراش. كانت ترقد على ظهرها بجوارى، تحديق فى السقف. وعندما استغرقت فى النوم، لم أحلم بأى زوج، لكننى حلمت بأمى فى ملاءتها التى كانت تطيرها الرياح، وتغطس فى المياه الباردة، تلك المياه التى كان لونها أزرق مخضراً؛ وبدأت الملاءة تتكشف من أعلى، وتموجت كما لو كان بفعل الرياح، وطفا شعرها خارجاً، يتموج كأعشاب البحر، لكن الشعر كان يغطى وجهها فلم أستطع رؤيته، وبدا الشعر بلون أغمق مما كان عليه شعر أمى؛ وعرفت أن تلك لم تكن أمى على الإطلاق، ولكن امرأة أخرى، ولم تكن مينة داخل الملاءة، كانت حية.

شعرت بالخوف، واستيقظت وقلبي يدق بشدة، والعرق البارد ينضح منى. لكن مارى كانت فى تلك اللحظة نائمة، تتنفس بعمق، وقد بدا ضوء الفجر الرمادى والوردى، وبدأت الديكة فى الخارج تصيح، وكل شىء على ما يرام، فشعرت بأننى أفضل حالاً.



وهكذا مضى الحال فى نوفمبر، سقطت الأوراق عن الأشجار، وأصبح الليل يزحف مبكرًا، وأصبح الجو رماديًا كثيبًا، والأمطار كثيفة مدرارة؛ ثم جاء ديسمبر، وتجمدت الأرض تمامًا كالصخر، وتساقط ثلج خفيف. وكانت غرفتنا فى العلية باردة حينذاك للغاية، خاصة فى الصباح، عندما كنا نضطر للاستيقاظ فى الظلام ونخطو بأرجلنا الحافية على ألواح الأرضية المثلجة؛ قالت ماري أنها عندما يكون عندها بيتها الخاص سوف تضع سجادة من الأقمشة المصفورة بجوار كل سرير، وأنها سيكون لديها خف منزلى من المخمل الدافئ. كنا نأخذ ثيابنا معنا فى الفراش لتدفنتها قبل أن نرتديها، ونلبس تحت غطاء السرير، وفى الليل كنا نسخن قوالب الطوب على الموقد ونلفها بالأقمشة القطنية ونضعها فى الفراش لكى تحفظ أطراف أقدامنا من التجمد. وكان الماء فى الحوض باردًا جدًا حتى أن غسل يدي كان يبعث الألم حتى أعلى ذراعي؛ وكنت سعيدة لأننا بنام نحن الاثنين فى فراش واحد.

ولكن ماري كانت تقول أن هذا كله لا شيء، حيث أن الشتاء الحقيقى لم يأت بعد، وأن الجو سيصير أكثر برودة؛ وأن الشىء الوحيد

الجيد في الشتاء أنهم سيضطرون إلى تقوية النيران في البيت وإبقائها مدة أطول، وأنه من الأفضل أن نكون خدماً، على الأقل أثناء النهار، حيث يمكننا دائماً أن نستدفئ في المطبخ، بينما تكون غرف الاستقبال مليئة بتيارات الهواء كما لو كانت مخزن غلال ولا يمكن الحصول على تدفئة من المدفأة إلا إذا وقفت أمامها مباشرة، وأن مسز ألدرمان پاركينسون كانت ترفع تنورتها أمامها عندما تكون وحدها بالغرفة لتدفئ مؤخرتها، وفي الشتاء الماضي أمسكت النار بقميصها الداخلى، وسمعت أجس الوصيفة الصراخ فاندفعت إلى الغرفة وأصابها زعر هستيرى، وأسرع جيم فتى الإسطل بلقاء بطانية على مسز ألدرمان پاركينسون، ودفعها ودحرجها بالبطانية على الأرض. ولحسن الحظ أنها لم تحترق وإنما أصيبت بلفحات خفيفة.

وفي منتصف ديسمبر، أرسل أبى أختى المسكينة كاتى لتطلب منى مزيداً من أجرى، ولم يُرد أن يأتى بنفسه. شعرت بالأسف من أجل كاتى، فقد انتقل إليها الحمل الذى كنت أنوء به؛ وأدخلتها إلى المطبخ، وأجلستها بجوار الموقد لتتدفأ، وطلبت قطعة خبز من الطباخة التى قالت أنه ليس من عملها أن تطعم كل اليتامى الجائعين فى المدينة، لكنها أعطتني الخبز رغم ذلك، وبكت كاتى، وقالت أنها تتمنى أن أعود إلى البيت. أعطيتها ربع دولار، وقلت لها أن تخبر أبانا أن هذا هو كل ما معى. وأنا أسفة لأننى كنت أكذب، لكنى شعرت أننى لست مضطرة لإخباره بالحقيقة. وأعطيتها عشرة سنتات لنفسها، وقلت لها أن تحتفظ بها لوقت الحاجة، رغم أنها كانت فى حاجة إليها بالفعل فى ذلك الوقت. وأعطيتها قميصاً داخلياً كان قد ضاق ولم يعد مناسباً لى.

وأخبرتني أن والدنا لم يجد عملاً ثابتاً، مجرد أعمال متفرقة بين الحين والآخر، لكنه يأمل في الذهاب إلى الشمال في هذا الشتاء لقطع الأشجار، ووصلته أنباء بوجود أراضٍ خالية نحو الغرب، وقد يرحل إلى هناك بمجرد أن يأتي الربيع. وقد فعل ذلك، وفجأة، لأن مسز بيرت جاءت وقالت إن والدي قد رحل إلى مكان لا تعرفه دون أن يدفع أيًا من ديونه. وفي البداية أرادت أن أدفع بدلاً منه، لكن ماري أخبرتها أنه لا يمكن إجبار فتاة في الثالثة عشرة على دفع ديون رجل بالغ، ولم تكن مسز بيرت سيئة في داخلها، وفي النهاية قالت إنها ليست غلطى.

ولا أعرف ماذا حدث لأبى ولالأطفال، فلم يرسلوا لى رسالة واحدة، كما لم يصلنى منهم أى شىء أثناء المحاكمة.

وعندما جاء الكريسماس، ارتفعت الحالة المعنوية، وزيدت نيران التدفئة، وكانت السلال تأتي من البقالة، وقطع ضخمة من لحم البقر، وخنزير ذبيح من الجزائر، والذي كانوا يبنون شئيه بكامله، وأقيمت استعدادات كبيرة فى المطبخ، وجىء بمارى وبنى من الغسيل للمساعدة، فكنا نقلب ونخلط الأشياء للطباخة، ونقشر التفاح ونقطعه شرائح، ونلنقط حبات الزبيب، ونبشر جوزة الطيب، ونخفق البيض حسبما هو مطلوب، وقد أحببنا ذلك كثيراً، حيث كانت هناك فرصة لتذوق هذا أو ذاك، وكنا نهرّب بعض السكر لأنفسنا حينما نستطيع؛ ولم تكن الطباخة تلحظ أو تقول شيئاً، فقد كانت مشغولة للغاية.

وقمت أنا ومارى بعمل شرائح الطبقة التحتية لكل فطائر اللحم المفروم رغم أن الطباخة عملت كل شرائح الطبقة العلوية قائلة أن هذا فن

لا نستطيع معرفته لصغر سننا، وكانت تقطع أشكالا من النجوم وأشكالاً أخرى رائعة لهذا الغرض. وتركت لنا فك شرائط الموسلين من حول كعكات عيد الميلاد، وأن نسقيها بالبراندى والويسكى ثم نلفها مرة أخرى، وكانت رائحتها من أجمل الروائح التي أتذكرها.

كان مطلوبًا عمل كعكات وفطائر كثيرة، فقد كان هذا هو موسم الزيارات، ودعوات العشاء والحفلات والرقص. وجاء الصبيان ابنا أصحاب المنزل في إجازة، كانا يدرسان بهارفارد في بوسطن؛ وكان أحدهما يسمى مستر جورج والآخر مستر ريتشارد، وكلاهما كانا وسيمين وطويلين للغاية. ولم أعرفهما اهتمامًا كثيرًا، فبالنسبة لي لم يكن وجودهما يعنى إلا المزيد من الغسيل والمزيد من القمصان للتنشية والكي؛ لكن ماري كانت دائمًا تسترق النظر من نوافذ الطابق الأعلى إلى الفناء، لتلمحهما وهما يركبان الجياد، أو تتسمع في الممر، وهما يؤديان ثنائيات غنائية مع السيدات المدعوات، وكانت أفضل أغنية لديها هي أغنية "وردة ترالي"، لأن اسمها كان يذكر فيها – في المقطع الذي يقول: *أوه لا، إنها الحقيقة التي كانت تشرق دائمًا في عينيها، ولهذا أحببت ماري، وردة ترالي*، وهي نفسها كانت تغنى بصوت جميل أيضًا، وتحفظ الكثير من الأغنيات عن ظهر قلب. وكانا يأتيان إلى المطبخ أحيانًا ويمزحان معها لتغنى. وكانت تدعوها الوغدين الصغيرين، رغم أنهما كلاهما كانا يكبرانها ببضعة أعوام.

وفي يوم عيد الميلاد، أعطتني ماري زوجًا من الأكف الصوفية نسجته بيديها، وكنت رأيتها تصنعهما، لكنها كانت ماكرة، قالت لي إنهما

لصديقة صغيرة، ولم أتصور أبدًا أن الصديقة الصغيرة هي أنا. كانا بلون أزرق غامق جميل، وقد طُرزت عليهما زهور حمراء. وأعطيتها كيسًا للإبر صنعته من خمسة مربعات من قماش الفانلة القطنى الأحمر مخيطة معًا عند القمة، ويقفل بشريطين. وشكرتني ماري، واحتضنتني وقبلتني، وقالت أنه أفضل كيس للإبر فى العالم، وأنه شيء لا يمكن شراؤه من المحلات، وأنها لم تر شيئًا مثله أبدًا، وسوف تحتفظ به دائمًا فى أعلى مكان لديها.

وفى هذا اليوم، سقط الثلج بكثافة، وخرج الناس على زحافاتهم، وقد علقت الأجراس على الجياد، وكان صوتها جميلًا للغاية، وبعد أن تناولت العائلة عشاء الكريسماس، تناول الخدم أيضًا عشاءهم، وأكلوا ديكهم الرومى وفتائر اللحم، وغنينا بعض الترانيم معًا، وكنا سعداء.

وكان هذا أسعد عيد ميلاد قضيته فى حياتي، لم أرَ عيدًا مثله لا قبله ولا بعده.

بعد الإجازة عاد مستر ريتشارد إلى المدرسة، لكن مستر جورج بقى فى البيت. فقد أصيب ببرد تسلى إلى رئتيه، وكان يسعل بشدة. وانقلب وجه مستر ومسز ألدرمان پاركينسون، وجاء الطبيب، وهذا جعلنى فى قلق، ولكن قيل أنه لم يكن مصابًا بالسل، وإنما ببرد شديد ولومباجو، ولا بد أن يبقى فى الفراش، ويتناول سوائل كثيرة؛ وقد تناول الكثير بالفعل، فقد كان الخدم يحبونه للغاية. وسخنت ماري زرارًا حديدًا على الموقد قائللة إنه أفضل علاج للومباجو، إذا وُضع فوق الموضع المصاب، وأخذته إليه.

ولم يتحسن قبل أواسط فبراير، وقد فاته الكثير في دراسته هذا الموسم، فقال أنه سينتظر حتى الموسم القادم، ووافقت مسز ألدرمان پاركينسون، وقالت إنه بحاجة لاستعادة قوته. ومن ثم فقد بقى، والجميع يدلونه، والوقت متسع لديه، وهو لا يفعل شيئاً، وهذه حالة سيئة لشاب ملئ بالحيوية. ولم يكن ثمة نقص في الحفلات التي يذهب إليها أو البنات اللاتي يراقصهن، وأمهاتهن اللاتي يخططن لزواجه من وراء ظهره. وأخشى أنه امتلأ بالغرور، لأنه إذا كان الجميع يعظمون من شأنك يا سيدى، فإنك تصل إلى الاعتقاد بأن هذا هو ما تستحقه.

كانت ماري محقة بشأن الشتاء. فقد كان الثلج فى الكريسماس شديد الكثافة، لكنه كان يشبه غطاء من الريش، وبعد سقوطه بدا الهواء أكثر دفئاً. وكان رجال الإسطبل يمزحون ويتقاذفون كرات الثلج التي كانت تنكسر بمجرد ارتطامها.

ولكن سرعان ما جاء الشتاء الحقيقى، وبدأ الثلج يتساقط بجديّة. وفى هذه المرة كان صلباً وليس ناعماً، مثل كريات الثلج الدقيقة القارصة، وتسوقه رياح عارمة وقاسية، وراح يتكوم متراكماً فى طبقات عالية. وخشيت أن ندفن كلنا أحياء. تكوم الثلج على السقف وتدلّت منه أعمدة حتى أنه كان يجب أن تحترس وأنت تمر تحتها، فمن الممكن أن تقع وهى حادة ومدببة، وقد سمعت ماري عن سيدة أصيبت بواحدة منها فقتلتها لأنها اخترقت جسدها مثل السيخ. وذات يوم نزل الثلج بكثافة وغطى كل فروع الأشجار بطبقة ثلجية، وفى اليوم التالى كانت تلمع فى الشمس كما لو أنها آلاف من قطع الألماس، لكنها كانت ثقيلة على الأشجار، فانكسر العديد من

فروعها. وأصبح العالم كله أبيض قاسياً، شروق شمسه يعمى الأبصار، حتى أننا كنا نضطر أن نظل على أعيننا ولا ننظر إليها طويلاً.

كنا نبقى داخل البيت أطول وقت ممكن، فثمة خطورة من لسعة الصقيع، خاصة في أصابع اليدين والقدمين؛ وكان الرجال يخرجون وقد أحكموا لف لفاعاتهم حول آذانهم وأنوفهم، وكانت أنفاسهم تتدفع كأنها سحب صغيرة. كانت العائلة تضع أبسطة الفرو في الزحافة، ويرتدون دثاراتهم ويلتفون بعباءاتهم ويخرجون للزيارات، أما نحن فلم يكن لدينا مثل هذه الأشياء الجالبة للدفء. وفي الليل كنت أنا ومارى نضع شيلاننا فوق أغطية الفراش، ونلبس جواربنا وقميصاً داخلياً آخر للنوم، ورغم ذلك لم نكن نشعر بالدفء. وفي الصباح تكون النيران في المدافئ قد انطفأت، وأجراتنا الساخنة قد بردت، ونصبح مثل الأرانب المرتعشة.

تحسن الجو إلى حد ما في آخر يوم من فبراير، وبدأنا نخرج لأداء بعض المشاوير، بعد أن نلف أقدامنا بأقمشة قطنية ونضعها في أحذية عالية الرقبة أخذناها من عمال الإسطبل بعد رجاء. وكنا نلف أنفسنا في أكبر عدد نقدر عليه من الشيلان التي نملكها أو نستعيرها. ونمضى في سيرنا إلى مسافات بعيدة، وقد نصل إلى الميناء مثلاً. كان البحر متجمداً تماماً، وتتكوم على الشاطئ قطع وشرائح ضخمة من الجليد؛ وكان ثمة منطقة خالية من الأكوام الثلجية حيث تتزلج السيدات والسادة. كانت حركة بديعة، بدت السيدات وكأنهن يجرين على عجلات تحت أثوابهن. قلت لمارى أن هذا لا بد أن يكون ممتعاً للغاية. وكان السيد جورج هناك، ينزلق على الجليد ويده في يد سيدة ترتدى وشاحاً من الفرو، وقد رأنا وشوح لنا بذراعه في مرح، وسألت مارى إن كانت قد تزلجت من قبل، فقالت لا.

فى ذلك الوقت تقريبًا بدأت ألاحظ تغييرًا فى مارى. كانت تتأخر فى المجيء إلى النوم، وحتى عندما تأتى كانت لا ترغب فى الكلام. لم تعد تصغى إلى ما أقوله لها، ولكنها كانت تبدو وكأنها تسمع شيئًا آخر، وكانت تنظر باستمرار إلى الممرات خارج الباب، أو من النوافذ، أو من فوق كتفى. وذات ليلة، وربما كانت تظن أننى قد نمت، رأيتها تخبئ شيئًا فى منديل، تحت لوح الأرضية حيث تخفى أعقاب الشموع والكبريت؛ وعندما نظرت فى اليوم التالى وهى خارج الغرفة، وجدت أنه خاتم ذهبى. فى البداية ظننت أنها سرقتها، فىكون هذا أكبر من كل ما كانت تسرقه من أشياء صغيرة، ويكون أمرًا سيئًا للغاية إذا أمسكوا بها؛ رغم أن أحدًا فى البيت لم يعلن عن فقد خاتم.

لكنها لم تعد تضحك وتمزح كما كانت من قبل، ولم تعد تقوم إلى عملها بهمة كما فى السابق. أقلقنى ذلك. ولكن عندما سألتها، وسألت إن كان ثمة مشاكل، ضحكت وقالت أنها لا تعرف من أين آتى بمثل هذه الأفكار. لكن رائحتها تغيرت، من رائحة جوز الطيب، إلى رائحة السمك المملح.

بدأ الثلج والجليد فى الذوبان، وعادت بعض الطيور وبدأت تغنى وتتادى؛ فعرفت أن الربيع على الأبواب. وفى أحد الأيام، فى أواخر مارس، ونحن نحمل الغسيل النظيف فى السلالم صاعدات السلم الخلفى لتعليقه فى غرفة التجفيف، قالت مارى أنها مريضة؛ وجرت نازلة السلم وخرجت إلى الفناء الخلفى إلى خلف المبنى الخارجية. وضعت السلة وتبعتها، كما أنا، وبدون شال، ووجدتها فى هذا البرد راکعة على ركبتيها



فى الثلج المبلل قرب المرحاض، الذى لم تتمكن من الوصول إليه، وهى تتقيأ بشدة وعنف.

ساعدتها على الصعود، وكانت جبهتها باردة ورطبة، قلت أنها يجب أن تبقى فى الفراش، لكن هذا أغضبها، وقالت أن المشكلة فى شىء أكلته، ولا بد أنه حساء الضأن الذى تناولناه بالأمس، وقد تخلصت منه الآن. لكنى أكلت نفس الشىء، وأحسست بأننى على ما يرام. وجعلتنى أعدها بعدم الكلام فى هذا الموضوع، ووعدتها. ولكن، عندما حدث نفس الشىء بعد أيام قلائل، ثم مرة أخرى فى الصباح التالى، شعرت بالقلق الشديد، فكثيراً ما رأيت أمى فى تلك الحالة، وأعرف رائحتها اللبنيّة، وبدأت أفهم ما هى المشكلة التى تعانى منها مارى.

فكرت فى الأمر كثيراً، وقلبتّه جيّداً فى رأسى، وعندما اقترب أبريل من نهايته، واجهتها به، وأقسمت بكل إخلاص أنها إذا وثقت بى فلن أخبر أحداً، لأننى أعتقد أنها بحاجة لمن تثق به، فقد كانت تقضى الليل فى قلق، وظهرت دوائر سوداء تحت عينيها، وقد أثقل عليها السر الذى تحمله وحدها. فانهارت وبكت، وقالت إن شكوكى فى محلها، وقد وعد الرجل بأن يتزوجها، وأعطاهما خاتماً، فصدقته، لأنها ظنت أنه يختلف عن الآخرين، لكنه تراجع فى وعوده، والآن لا يريد أن يتحدث إليها، وكانت يائسة ولا تعرف ماذا تفعل.

سألتها من هو الرجل، لكنها لم تكن لتخبرنى؛ وقالت أنه ما أن يُعرف نوع الورطة التى وقعت فيها، فسوف تطرد، ذلك أن مسز ألدرمان پاركينسون تتمسك بآراء شديدة الصرامة؛ ومن ثم فماذا سوف يحدث لها؟

بعض البنات فى مكانها قد يعدن إلى عائلتهن، ولكنها ليس لديها عائلة؛  
والآن لن يقبل رجل محترم أن يتزوجها، وربما تضطر للذهاب إلى  
الشارع، وتصبح خلية للبحارة، حيث لن تكون هناك وسيلة أخرى لإطعام  
نفسها وطفلها. وفى مثل هذه الحياة سوف تلقى نهايتها سريعاً.

شعرت بقلق شديد عليها، وعلى نفسى أيضاً، فقد كانت الصديقة  
التي أثق بها، بل الصديقة الوحيدة لى فى هذا العالم. حاولت أن أخفف  
عنها بأفضل طريقة أستطيعها، ولكنى لم أعرف ماذا أقول.

وطوال شهر مايو، كنا أنا ومارى نتبادل الأحاديث كثيراً  
عما يجب أن تفعله. قلت إنه لا بد أن يكون ثمة بيت للعناية بمثل هذه  
الحالات أو شىء من هذا النوع يمكن أن يأخذها، فقالت أنها لا تعرف أى  
بيت بهذا الوصف، ولكن حتى لو كان هناك، فإن البنات الصغيرات إن  
ذهبن إلى مثل هذا المكان فإنهن دائماً ينتهين بالموت، لأنهن يصبين بالحمى  
بمجرد الولادة؛ كما أنها تعتقد أن الأطفال فى مثل هذه الأماكن كانوا  
يُخنفون سرّاً لى لا يكونوا عبئاً على خزانة الدولة؛ وأنها سرعان ما  
سوف تلقى نصيبها من الرمى خارجاً لتموت فى مكان آخر. وتحدثنا عن  
طريقة ما لتوليد الطفل بأنفسنا، والاحتفاظ به سرّاً ثم التخلّى عنه لدار أيتام؛  
لكنها قالت أن حالتها سوف تظهر بسرعة؛ وأن مسز هنى لها عينان  
حادتان، وقد علقت بالفعل على أن مارى يزداد وزنها، ولن يكون ثمة أمل  
فى أن يمضى الأمر دون اكتشاف.

قلت أنها لا بد أن تحاول لمرّة أخيرة أن تتكلم مع الرجل المسئول،  
وأن تحاول أن تحكّم الجانب الطيب فيه. وقد فعلت ذلك؛ لكنها عندما عادت

من اللقاء – والذي لا بد أنه كان فى مكان قريب، حيث لم تتغيب وقتاً طويلاً – كانت أكثر غضباً من أى وقت آخر. قالت أنه أعطها خمسة دولارات؛ وأنها قالت له أهذا هو كل ما يساويه طفله فى عينيه؟ فقال أنها لا تستطيع أن تصطاده بهذه الطريقة؛ وأنه يرتاب فى أن الطفل طفله بالفعل، حيث أنها كانت شديدة الإلحاح معه، حتى أنه شك فى أنها يمكن أن تكون قد فعلت ذلك مع آخرين؛ وأنه إذا هددته بإثارة فضيحة، أو ذهبت إلى عائلته، فسوف ينكر الأمر ويدمر ما بقى من سمعتها؛ وإذا كانت تريد نهاية سريعة لمتاعبها يمكنها ببساطة أن تغرق نفسها فى البحر.

قالت أنها لم تعد تكن له ذلك الحب الحقيقى الذى شعرت به يوماً نحوه؛ وألقت بالدولارات الخمس على الأرض، وبكت بحرقة لمدة ساعة؛ لكننى لاحظتها وهى تضع النقود بحرص تحت اللوح المقلقل فيما بعد.

فى يوم الأحد التالى، قالت أنها لن تذهب إلى الكنيسة، ولكن ستتمشى وحدها؛ وعندما عادت، قالت أنها ذهبت إلى الميناء وقد سيطرت عليها فكرة إلقاء نفسها فى البحيرة، ووضع نهاية لحياتها. وأخذت أتوسل إليها باكية ألا تفعل مثل هذا الشئ البشع.

وبعد يومين قالت أنها ذهبت إلى شارع لومبارد، وسمعت هناك عن طبيب يمكن أن يساعدها؛ وهو الطبيب الذى تذهب إليه العاهرات حين يحتجن إلى مساعدته. وسألته بأية طريقة يمكن أن يساعدها، فقالت أننى لا يجب أن أسأل؛ ولم أعرف ماذا تعنى، فلم أسمع بمثل هؤلاء الأطباء من قبل فى حياتى. وسألتنى إذا كان يمكن أن أقرضها مدخراتى، والتى كانت

قد وصلت في ذلك الوقت إلى ثلاثة دولارات، وكنت أنوى شراء ثوب صيفي بها. قلت أنني سوف أقرضها لها بكل سرور.

وحيث أحضرت ورقة من ورق الكتابة، والتي جاءت بها من المكتبة في الطابق الأسفل، وقلمًا وحبْرًا، وكتبت: *إذا مت، تذهب كل أشيائي إلى جريس ماركس*. ثم وقعت باسمها. وبعد ذلك قالت: في وقت قريب جدًا ربما أكون ميتة. لكنك سوف تظلين على قيد الحياة. ونظرت لي تلك النظرة الباردة والمزدرية، التي كنت أراها تنظر بها إلى الآخرين من وراء ظهورهم، ولكن ليس لي أبدًا من قبل.

أثار ذلك حذري بشدة، وتشبثت بيديها، وتوسلت إليها ألا تذهب إلى هذا الطبيب مهما كان؛ لكنها قالت أنها يجب أن تذهب، وأنتى لا يجب أن أستمر في مثل هذه التوسلات، وإنما يجب أن أعيد القلم والحبر سرًا إلى منضدة الكتابة في المكتبة، وأن أستمر في أداء واجباتي اليومية؛ وغداً سوف تخرج جلسة بعد وجبة منتصف النهار، وأنتى يجب إذا سأل أحد عنها أن أقول أنها ذهبت إلى الحمام، أو أنها في غرفة التجفيف بالطابق الأعلى، أو أى عذر يمكن أن يرد على ذهنى؛ ثم يجب أن أتسلل وألحق بها، حيث أنها يمكن أن تلقى متاعب في العودة إلى البيت.

لم تتعم أىّ منا بنوم جيد في تلك الليلة؛ وفي اليوم التالى فعلت كما قالت، واستطاعت أن تترك البيت دون أن يلحظها أحد، وقد ربطت النقود في عقدة بمنديلها؛ وبعد قليل تبعتها، ولحقت بها. كان الطبيب يعيش في بيت كبير نوعاً ما، في أحد الأحياء الراقية. دخلنا البيت من مدخل الخدم؛ واستقبلنا الطبيب بنفسه. كان أول شيء فعله هو عدّ النقود. كان

رجلاً ضخماً الجثة يرتدى معطفاً أسود طويلاً، ونظر إليها بقسوة؛ وطلب منى أن أنتظر في مكتب الاستقبال، ثم قال أننى إذا بحت بأى شيء عن الأمر فسوف ينكر أنه رآنى فى حياته. ثم خلع معطفه وعلقه على مشجب، وبدأ يشمر أكمامه، كما لو كان يستعد لدخول معركة.

كان يبدو يا سيدى شبيهاً جداً بطبيب قياس الرعوس الذى أخافنى حتى جاءتى نوبة، قبيل مجيئك هنا مباشرة.

ذهبت مارى معه خارج الغرفة، ووجهها أبيض كالملاءة؛ ثم سمعت صراخاً، وبكاءً، وبعد بعض الوقت دفعها الطبيب إلى داخل مكتب الاستقبال من الباب. كان ثوبها مبتلاً بالكامل، ويلتصق بها كقماط مبلل، وكانت تسير بصعوبة شديدة؛ ووضعت ذراعى حولها، وساعدتها للخروج من هذا المكان بأفضل ما أستطيع.

عندما وصلنا إلى البيت كانت منحنية تماماً وتمسك بطنها بيديها؛ وقالت أننى يجب أن أساعدها لصعود السلم. وقد فعلت، وبدأت هى فى ضعف شديد. ألبستها ثوب نومها ووضعتها فى السرير، وظلت مرتدية رداءها الداخلى، متغضناً بين ساقىها. وسألتها ماذا حدث، وقالت أن الطبيب أخذ سكيناً وقطع به شيئاً فى داخلها؛ وقال أنه سوف يكون هناك ألم ونزيف، وقد يستمر ذلك لعدة ساعات، ولكن بعد ذلك سوف تكون على ما يرام مرة أخرى. وقد أعطته اسماً مستعاراً.

وبدأت أتبين أن ما قطعه الطبيب داخلها كان هو الجنين، وهو أمر فكرت أنه شرير للغاية؛ لكنى أيضاً فكرت أنه إما ميت واحد بهذه

الطريقة، أو اثنان بطريقة أخرى، لأنه إذا لم يحدث ذلك، فمن المؤكد أنها كانت ستغرق نفسها؛ وهكذا لم أجد في نفسي قدرة على معاتبته.

كانت تعاني من ألم عظيم. وفي المساء، قمت بتسخين قالب طوب وحملته إلى أعلى، لكنها لم تسمح لي بأن أستدعي أحدًا. وقلت أنني سوف أنام على الأرض، حيث أن ذلك سيجعلها أكثر راحة؛ وقالت أنني أفضل صديقة في حياتها كلها، وأنه مهما يحدث فلن تتسأني أبدًا. لففت نفسي في شالي، ووضعت مريمتي تحت رأسي، ووقدت على الأرض التي كانت شديدة الصلابة؛ وما هو أشد من ذلك كان أنات ماري المعذبة، فلم أستطع أن أنام في البداية. ولكني بعد مرور بعض الوقت أصبحت أكثر هدوءًا، فاستغرقت في النوم، ولم أستيقظ إلا مع طلوع الصباح. وعندما استيقظت، كانت ماري هناك، مينة في الفراش، وعيناها مفتوحتان على آخرهما وتحققان.

لمستها، لكنها كانت باردة. وقفت وقد تجمدت من الخوف؛ لكنني استجمعت نفسي، وذهبت إلى الصلاة، وأيقظت خادمة الغرف، أجنس، وألقيت نفسي على ذراعيها باكية؛ قالت: ماذا عسى أن يكون الأمر؟ لم أستطع الكلام، لكنني أخذتها من يدها، واتجهت بها حتى أدخلتها غرفتنا، إلى حيث كانت ماري. أمسكتها أجنس بيديها، وهزتها من كتفيها، ثم قالت: يا إلهي، لقد ماتت.

وقلت: يا إلهي يا أجنس، ماذا أفعل؟ لم أكن أعرف أنها سوف تموت، والآن سوف يلقون اللوم على، لأنني لم أخبر أحدًا أنها كانت مريضة؛ لكنها جعلتني أعدها بالأفعل. وكنت أنشج باكية وأعتصر يدي.

رفعت أجنس أغطية الفرش ونظرت تحتها، كان رداء النوم وقميصها الداخلى غارقين فى الدم، وكانت الملاءة كلها حمراء، وفى الأماكن التى جفت كان اللون بنيًا. قالت: هذا أمر شير، وقالت لى أن أبقى حيث أنا، وذهبت فورًا لإحضار مسز هنى. وسمعت خطواتها تذهب بعيدًا، وبدا لى أنها غابت وقتًا طويلًا.

جلست على المقعد فى غرفتنا ونظرت إلى وجه مارى؛ كانت عيناها مفتوحتان، وشعرت بأنها تبادلنى النظر من ركنى عينيها. فكرت أنى رأيتها تتحرك، وقلت: مارى، هل تتظاهرين؟ فأحيانًا كانت تتظاهر بأنها ميتة، خلف الملاءات فى غرفة التجفيف، لتخيفنى. ولكنها لم تكن تتظاهر هذه المرة.

ثم سمعت أصوات أقدام تسرع عبر الممر. وملأنى الرعب. لكننى وقفت. ودخلت مسز هنى إلى الغرفة؛ لم تكن تبدو حزينة، بل غاضبة، وأيضًا مقروفة، كما لو كانت تشم رائحة سيئة. ومن المؤكد أنه كانت هناك رائحة فى الغرفة؛ كانت رائحة قش مبلى، تتصاعد من الحشية، وكذا الرائحة الملحية للدم؛ يمكنك أن تشم رائحة مشابهة لذلك جدًا فى دكان الجزار.

قالت مسز هنى، يا له من إثم وعار، لا بد أن أذهب لإخبار مسز پاركينسون. وانتظرنا. وجاءت مسز ألدرمان پاركينسون، وقالت: تحت سقى، يا لها من فتاة مخادعة. ونظرت مباشرة نحوى، رغم أنها كانت تتكلم عن مارى. ثم قالت: لماذا لم تخبرينى بذلك يا جريس؟ قلت: عفوك

يا مدام، فقد طلبت ماري مني ألا أفعل. قالت أنها ستكون أفضل في الصباح. وبدأت أبكي، وقلت: لم أكن أعلم أنها ستموت!

قالت أجنس، التي كانت شديدة التقوى كما أخبرتك، قالت: "أجرة الخطية هي موت" (\*).

قالت مسز ألدرمان پاركينسون: كان هذا تصرفاً كريهاً منك يا جريس، لكن أجنس قالت: إنها مجرد طفلة، وهي مطيعة جداً، وكل ما فعلت أنها سمعت الكلام.

ظننت أن مسز ألدرمان پاركينسون سوف توبخها على التدخل، لكنها لم تفعل. أمسكت بذراعي برقة، ونظرت إلى عيني، وقالت: من كان الرجل؟ لا بد أن يظهر الوغد ويدفع ثمن جريمته. أظن أنه كان أحد البحارة، هناك في الميناء، فليس لديهم ضمير يزيد على ما لذبابة. هل تعرفين يا جريس؟

قلت: إن ماري لم تكن تعرف أي بحارة، كانت تقابل أحد السادة، وكانا مخطوبين، إلا أنه حنث بوعدده ورفض الزواج بها.

وقالت مسز ألدرمان پاركينسون بحدة: أي سيد؟

قلت: عفواً يا مدام، لا أعرف. لم تقل لي إلا أنك لن يرضيك ذلك أبداً، إذا عرفت من هو.

ولم تكن ماري قالت ذلك، لكني كانت لدي شكوكي.

---

(\* رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، ٦: ٢٣).



وهنا، بدا على مسز ألدرمان پاركينسون التفكير العميق، وأخذت تسير جيئةً وذهابًا بطول الغرفة؛ ثم قالت: أجنس، وجريس، لن نناقش الأمر أكثر من هذا، فلن يؤدي إلا إلى مزيد من التعاسة والشقاء، وليس من العقل البكاء على اللبن المسكوب؛ واحترامًا للموت لن نقول سبب موت ماري. سوف نقول أنها كانت تعاني من حمى خفيفة. سوف يكون ذلك أفضل للجميع.

ونظرت إلى كل منا نظرة قاسية، فانحنينا أمامها. وطوال الوقت كانت ماري في فراشها، تسمعنا، وتسمع خططنا لقول تلك الأكاذيب عنها؛ وفكرت في نفسي، إنها لن تشعر بالراحة لذلك.

لم أقل شيئاً عن الطبيب، وهم لم يسألوا. وربما لم يفكروا أصلاً في مثل هذا الأمر. ولا بد أنهم فكروا أن الأمر كان مجرد فقدان طفل، كما يحدث كثيرًا مع النساء؛ وأن ماري ماتت بسبب ذلك كما يحدث كثيرًا للنساء. أنت أول إنسان أخبره بأمر الطبيب يا سيدي؛ أعتقد عن ثقة أن الطبيب هو الذي قتلها بسكينه؛ هو وذلك السيد معًا. لأن القاتل الحقيقي ليس دائمًا هو من يضرب الضربة، وقد وصل الحال بماري إلى الموت بسبب ذلك السيد المجهول، هذا مؤكد، ويتساوى مع أن يكون هو الذي أمسك بالسكين وأغمدتها في جسدها بنفسه.

غادرت مسز ألدرمان پاركينسون الغرفة، وبعد برهة جاءت مسز هني، وقالت أن علينا أن نأخذ الملاءة من على الفراش، وكذا ثوب نومها وملبسها الداخلي، ونغسل الدم منها؛ ونغسل الجسد، ونأخذ الحشوية ليتم حرقها، ونشرف على ذلك بأنفسنا؛ ويوجد غطاء حشوية آخر بجانب المكان

الذى تخزن فيه الأغطية، ويمكننا أن نحشوه بالقش؛ وعلينا أن نحضر ملاءة نظيفة. وسألت إن كان يوجد رداء نوم آخر لمارى لإلباسها إياه، قلت إنه يوجد، لأن مارى كان لديها اثنان؛ لكن الآخر كان فى الغسيل. ثم قلت أننى يمكن أن أعطيها رداء من عندى. وقالت علينا ألا نخبر أحداً على الإطلاق بخبر موت مارى حتى يتم إلباسها بشكل لائق، وتغطية وجهها بالغطاء وإغلاق عينيها، وتمشيط شعرها وترتيبها. ثم خرجت من الغرفة، وقمت أنا وأجنس بكل ما قالت؛ وكانت مارى خفيفة أثناء رفعها، لكنها كانت صعبة الإعداد.

قالت أجنس: هذا الأمر به أكثر مما يبدو فى الظاهر، وأعجب من كان هذا الرجل. ونظرت لى. قلت: أيًا كان، فهو لا يزال حيًا وبصحة جيدة، ومن الممكن جدًا أنه يستمتع بتناول إفطاره فى هذه اللحظة، ولا يمر بخاطره أية أفكار عن مارى المسكينة، اللهم إلا أنها لا تزيد عن مجرد ذبيحة معلقة فى دكان جزار.

قالت أجنس: إنها لعنة حواء التى يجب أن نتحملها جميعًا، وكنت أعرف أن مارى قد يضحكها مثل هذا التفكير. ثم سمعت صوتها، واضحا كأي صوت آخر، فى أذنى مباشرة، يقول: دعينى أدخل. وأذهلتنى المفاجأة، ونظرت بحدة إلى مارى، التى كانت فى تلك اللحظة راقدة على الأرض، حيث كنا نجهز الفراش. لكن لم تبد عليها أية علامة على أنها قالت أى شيء؛ وكانت عيناها لا تزالان مفتوحتين، وتحديقان فى السقف.

وفكرت وأنا أرتعد خوفاً، لكنى لم أفتح النافذة. وجريت عبر الغرفة وفتحتها، فلا بد أننى سمعت خطأ وأنها تقول: دعينى أخرج. قالت

أجنس: ماذا تفعلين، إن البرودة مثل برودة الجليد بالخارج؟ قلت: الرائحة تصيبني بالغثيان. ووافقت أن الغرفة يجب تهويتها. كنت أتمنى أن تطير روح ماري خارج النافذة الآن، ولا تبقى بالداخل، تهمس بأشياء في أذني. لكنني سألت نفسي إذا ما كنت قد تأخرت كثيرًا في فتح النافذة.

وأخيرًا، تم إعداد كل شيء، وربطت الملاءة وردداء النوم معًا وأخذتهما إلى المغسلة بالطابق الأسفل، وملأت دلوًا من الماء البارد، لأن الماء البارد هو الذي يغسل الدم، والماء الحار يثبتته. ولحسن الحظ لم تكن الغسالة موجودة في المغسلة وإنما كانت في المطبخ الرئيسي تسخن المكاوي للكي وتثرثر مع الطاهية. وأخذت أحك الثياب، وخرج الكثير من الدم ليحول المياه إلى لون أحمر؛ وألقيت ذلك الماء في الحوض وملأت دلوًا آخر، ونقعت الثياب فيه مع بعض الخل ليساعد على تغيير الرائحة. وفي هذه اللحظة كانت أسناني تصطك، سواء بسبب البرد أو الصدمة، وبينما كنت أجرى لأصعد السلم شعرت بدوخة شديدة.

كانت أجنس تنتظر في الغرفة مع ماري، وكل شيء قد تم إعداده جيدًا. عيناها مغلقتان كما لو كانت نائمة، ويدها متقاطعتان على صدرها. وأخبرت أجنس بما فعلت، فأرسلتني لأخبر مسز ألدرمان پاركينسون بأن كل شيء قد تم إعداده. فعلت ذلك وعدت إلى الطابق الأعلى، وسرعان ما جاء جميع الخدم إلى الغرفة ليروا. كان بعضهم يبكي، ووجوههم حزينة، كما يناسب الموقف؛ ولكن لا يزال هناك دائمًا بعض الإثارة حول الموت، واستطعت أن أرى أن الدم كان يجري بقوة أكبر في عروقهم عما هو في الأيام العادية.

كانت أجنس هي التي تتكلم. قالت إنها كانت حمى مفاجئة، وقد كذبت جيداً جداً بما لا يتناسب مع امرأة في تقواها. أما أنا، فقد وقفت بجوار قدمي ماري، صامتة. وقالت إحداهن: مسكينة يا جريس، تستيقظين في الصباح وتجدينها بجوارك في الفراش باردة ومحدقة، دون أي انتظار. وقالت أخرى: إن جلدي يرتعش لمجرد التفكير فيها، أعصابي لم تكن لتتحمل هذا أبداً.

ثم بدا لي أن ذلك هو ما حدث فعلاً؛ استطعت أن أتصوره، أن أستيقظ وماري في الفراش بجواري، ألمسها، وأجد أنها لا تكلمني، والرعب والحزن الذي يمكن أن أشعر به؛ وفي تلك اللحظة وقعت على الأرض في إغماءة أشبه بالموت.

قالوا أنني رقدت بهذه الطريقة عشر ساعات، ولم يستطع أحد إيقاظي، رغم أنهم حاولوا بالقرص، والصفع، والماء البارد، والريش المحترق تحت أنفي؛ وأنتى عندما استعدت وعيي لم يكن يبدو أنني أعرف أين أنا، أو ماذا حدث؛ وأنتى ظللت أسأل أين ذهبت جريس. وعندما قالوا لي أنني أنا نفسي جريس، لم أصدقهم، ولكني بكيت، وحاولت أن أهرب من البيت، لأنني، كما قلت، فكرت أن جريس تاهت، وأنها ذهبت إلى البحيرة، وأنتى لا بد أن أبحث عنها. قالوا لي أخيراً أنهم خشوا على سلامة عقلي، وأن الصدمة الكبيرة لا بد أنها قد أثرت عليه؛ ولا عجب في هذا، باعتبار ما حدث.

ثم دخلت في نوم عميق مرة ثانية. وعندما استيقظت، كان قد مر يوم. ومرة أخرى عدت إلى إدراكي بأنني جريس، وأن ماري ماتت.

وتذكرت ليلة كنا نلقى قشر التفاح خلف أكتافنا، وأن ماري كسرت قشرتها  
ثلاث مرات؛ وقد تحقق كل شيء، فلم تتزوج أي رجل على الإطلاق،  
والآن لن تتزوج أبدًا.

وقد عجزت عن تذكر أي شيء قلته أو فعلته خلال الوقت الذي  
استيقظت فيه، بين الإغماءتين الطويلتين؛ وقد أقلقني ذلك.

وهكذا، فإن أسعد أيام حياتي قد انتهت وانقضت إلى الأبد.

الفصل السابع

سياج الأفاعى



مكدموت .. كان كالح الوجه، فظ الطباع. لم يكن فى شخصيته ما يبعث على أى إعجاب... شاب نشيط سريع الحركة حتى أنه كان يمكن أن يجرى فوق سور حديقة متعرج مثل سنجاب، أو يقفز فوق بوابة عالية بدلاً من أن يفتحها أو حتى يتسلقها....

وكانت جريس حسنة المعشر لطيفة الطباع، وربما كانت مثاراً لغيرة ناتسى... وهناك مجال كبير لفرضية أنها، بدلاً من أن تكون هى المحرصة والمساعدة على تنفيذ هاتين الجريمتين المروعتين، لم تكن فى الواقع إلا ضحية سيئة الحظ فى كل الأحداث البشعة. فمن المؤكد أنه لم يظهر شىء فى شخصية الفتاة يوحى بأنها من الممكن أن تتحول إلى تجسيد للشر المستطير كما حاول مكدموت أن يصورها، حتى لو لم تأخذ فى اعتبارنا سوى نصف التصريحات المنسوبة إليه فى اعترافه. ومن المعروف جيداً أنه لم يكن يابيه بالصدق....

ويليام هاريسون،

“Recollections of the Kinnear Tragedy”

مكتوبة لصحيفة *Newmarket Era*، ١٩٨٠



ولكن لو نسيتني برهة  
ثم تذكرت فيما بعد، فلا تشعر بالأسى  
وإذا ترك الظلام والفساد أثرًا  
لكل ما خطر ذات يوم ببالي..  
فإن تنسى الآن وتبتسم  
خير من أن تتذكر وتشعر بالأسى

كريستينا روزيتي،

“Remember,” 1849

يتناول سايمون قبعته وعصاه من خادمة زوجة المحافظ، ويتهاذى خارجًا. بدا ضوء الشمس شديد التوهج، قاسيًا على عينيه، وكأنه كان جالسًا في غرفة مظلمة مغلقة لمدة طويلة، رغم أن غرفة الخياطة ليست مظلمة بأى حال. لكن قصة جريس هي المظلمة؛ ويشعر كأنه خارج لتوه من مجزر. لماذا أثرت فيه تلك القصة عن الموت كل هذا التأثير؟ كان يعرف أن مثل هذه الأشياء تحدث بالطبع، وأن مثل هؤلاء الأطباء موجودون، الأمر، إذن، ليس أنه لم ير امرأة ميتة في حياته. لقد رأى كثيرات؛ لكنها كانت أجسادًا ميتة تمامًا. كانت مجرد "عينات" دراسية. لم يضبط واحدة منهن، إذا صح التعبير، "أثناء الحالة". وهذه الفتاة، ماري هويتني، لم تبلغ بعد ... ماذا؟ السابعة عشرة؟ فتاة صغيرة. يا له من أمر محزن! إنه يشعر بالرغبة في غسل يديه.

لا شك أن تحول الأحداث جعله يفقد حذره، وعليه أن يعترف أنه كان يتابع قصتها باستمتاع شخصي - فقد عاش أيامًا أكثر سعادة في حياته، ولديه ذكرياته الخاصة، ومنها صور لملاءات نظيفة وعطلات سعيدة، وخادمت شاببات مرحات - ثم هذه المفاجأة الأليمة في بؤرة الذكريات. لقد فقدت ذاكرتها أيضًا، ولو أن ذلك لبضع ساعات، وأثناء نوبة

هستيرية طبيعية جدًا – ورغم ذلك فقد تظهر أهميتها. ويبدو، حتى الآن، أنها لم تفقد الذاكرة إلا لهذه الساعات؛ وفيما عدا ذلك، فإن كل زرار وكل عقب شمعة موجود في روايتها. ولكنه أعاد تقلاب الأمر، إنه لا يستطيع التأكد، ولديه شعور غير مريح بأن كثرة التفاصيل قد تكون نوعًا من التشوش، طريقة لإبعاد العقل عن حقيقة أساسية مخبأة كالزهور النضرة المزروعة فوق أحد القبور. وأيضًا، يذكر نفسه، الشاهد الوحيد الذي كان يمكنه تأكيد شهادتها – إذا كان ذلك في قاعة محكمة – لن يكون إلا ماري هويتى نفسها، وهي غير موجودة لتدلى بهذه الشهادة.

وعلى يساره في آخر الممشى تأتي جريس بنفسها، تسير ورأسها منكس، وقد أحاط بها رجلان منفران، لا بد أنهما حارسا السجن. يميلان عليها بشدة وكأنها ليست قاتلة وإنما كنز ثمين ينبغي الحفاظ عليه. ولا تعجبه طريقتهما في الالتصاق بها، ولكن من الطبيعي أن حياتهما ستكون في غاية التعاسة إذا استطاعت الهرب من قبضتهما. ورغم أنه يعلم جيدًا أنها تؤخذ إلى السجن كل ليلة، ويغلق عليها في زنزانه ضيقة، إلا أنه يشعر اليوم بشدة كم هو كريبه هذا الوضع. كانا يتحادثان معًا طوال فترة ما بعد الظهر وكأنهما جالسان في أحد المنتديات، ثم ها هو حر طليق كالهواء وله أن يفعل ما يشاء، بينما هي تُساق ليغلق عليها خلف الأسوار، حبيسة في سجن مقبض وكئيب – كئيب عن عمد، فإن لم يكن السجن كذلك فكيف يكون العقاب؟

حتى كلمة "العقاب" اليوم يقشع بدنه لها. لا يمكنه أن ينحى ماري هويتى عن عقله. راقدة في الملاءة – الكفن المضمخة بالدم.

لقد بقى معها اليوم فترة أطول من المعتاد. ولديه موعد بعد نصف ساعة على عشاء مبكر عند المجل فرينجر. وليس لديه أى شعور بالجوع. ويقرر أن يتمشى على شاطئ البحيرة، سوف يفيد الهواء، وربما يستعيد شهيته.

ويعود ليتأمل، لقد كان محققاً عندما لم يستكمل دراسته كجراح. كان أكثر أساتذته إثارة للفرح فى مستشفى جاى بلندن الطبيب الشهير برانسبى كوبر، وقد اعتاد أن يقول أن الجراح الجيد، مثل النحات الجيد، يجب أن تكون لديه المقدرة على الفصل بين نفسه وبين العمل الذى يقوم به. فالنحات لا يجب أن يسمح لنفسه بأن ينصرف عن عمله إلى جمال الموديل وسحرها، وإنما يجب أن ينظر إليها بموضوعية كمجرد مادة أولية أو صلصال يشكل منه عمله الفنى. كذلك الجراح هو نحات للحم الحى، يجب أن تكون لديه مقدرة على أن يقطع بسكينه الجسد البشرى بدقة وإصرار كما لو كان ينحت قطعة فنية دقيقة. فالمطلوب هو يدٌ باردة وعين ثابتة. وهؤلاء الذين يشعرون بمعاناة المريض بشدة هم الذين تنزلق السكين من بين أصابعهم. ليس المريض بحاجة إلى تعاطفك، وإنما إلى مهارتك.

حسناً جداً، يفكر سايمون، لكن الرجال والنساء ليسوا تماثيل، ليسوا كالرخام بلا حياة، رغم أنهم يصبحون بلا حياة فى الأقسام الجراحية بالمستشفيات، بعد أن يقضوا فترة مرعبة من الشدة والقلق والعذاب. وسرعان ما اكتشف فى مستشفى جاى أنه ليس مغرماً برؤية الدم.

لكنه تعلم درساً غالباً. ما أسهل أن يموت الناس، هذه واحدة، وما أكثر ما يموتون، وتلك أخرى. ما أعجب الروح والجسد فى التصاقهما معاً. زلة سكين، ويتحول الإنسان إلى شخص أبله. فإذا كان الأمر كذلك،

فلماذا لا يحدث العكس؟ هل يمكنك أن تقص وتجمع وتخييط القطع إلى بعضها معيداً تركيبها فينتج عبقرى؟ أى أسرار أخرى أمامنا لنكتشفها فى الجهاز العصبى؟ تلك الشبكة المصنوعة من المادة والأثير معاً، شبكة الخيوط التى تجرى فى كل أنحاء الجسد، والمكونة من الكثير جداً من المفاتيح العصبية، كلها تقود إلى العقل، ذلك العرين المركزى المظلم الذى ترقد فيه عظام الجسد البشرى متناثرة، وتختبئ الوحوش....

والملائكة أيضاً، يذكر نفسه، الملائكة أيضاً.

وعلى مبعدة، يرى امرأة ترتدى السواد، تتورتها تصدر جرساً خفيفاً ناعماً أثناء سيرها، ويطير خمارها خلفها كدخان قائم. تتلفت خلفها فى لمحة؛ إنها مسز همفرى، صاحبة البيت المكتتبة. من حسن الحظ أنها تسير مبتعدة، وربما هى تتجنبه عن عمد. وهذا أفضل جداً، فهو لا يشعر بالرغبة فى الحديث، وخاصة التعبير عن الامتتان. ويدهشه إصرارها على ارتداء مسوح الأرملة. ربما تتمنى ذلك. فحتى الآن لم تصل أخبار عن الميجور. ويتمشى سايمون على الشاطئ، وهو يحاول أن يتصور ما يفعله الميجور الآن، لن يخرج عن وجوده فى مكان من ثلاثة: حلبة السباق، أو بيت من بيوت الدعارة، أو حانة.

وتتملكه رغبة غير منطقية بأن يخلع حذاءه ويخوض فى البحيرة. وتفاجئه ذكرى قديمة وهو صبى صغير يلهو فى جدول مائى فى أراضى عائلته، بصحبة مربيته - وكانت عاملة شابة فى المصنع وتحولت إلى الخدمة فى منزلهم، كما كان الأمر مع كثير من خادماهم فى ذلك الوقت - ويوسخ نفسه، وتوبخه والدته كما توبخ المربية أيضاً لأنها سمحت له باللعب فى الجدول.

ماذا كان اسمها؟ أليس؟ أم أن أليس كانت فيما بعد، وهو في المدرسة، وكان يرتدي بنطلوناً طويلاً، يومئذ ذهب إلى العلية في إحدى مغامراته المستترة، وضبطته الفتاة في غرفتها وهو يقلب بيديه الغريرتين في أحد قمصانها الداخلية. كانت غاضبة منه، لكنها لم تعبر عن غضبها بالطبع، فقد كانت تريد أن تحتفظ بعملها، ومن ثم لجأت إلى الطريقة النسائية، وانفجرت في البكاء. وأحاطها بذراعيه ليواسيها، وانتهى الموقف بتبادل القبلات. وقع غطاء رأسها وتهدل شعرها متماوجاً، طويلاً أشقر غامقاً، مثيراً، ليس نظيفاً جداً، تفوح منه رائحة اللبن الرائب. كانت يداها حمراوين، فقد كانت تقطع الفراولة، وكان طعم الفراولة في فمها.

وبعد ذلك كانت هناك بقع حمراء على قميصه حيث بدأت تفك الأزرار؛ لكنها كانت أول مرة يقبل فيها امرأة، أصابه الارتباك، ثم القلق، ولم يعرف ماذا يفعل بعد ذلك. ربما ضحكت منه.

كم كان ساذجاً، عبيطاً. يتسم للذكري. إنها صورة أيام أكثر براءة. وعندما انتهت النصف ساعة شعر بأنه أفضل كثيراً.

تحببه مديرة منزل المبجل فرينجر بإيماءة مستتكرة. لو قدر لها يوماً أن تبتسم، لتهشم وجهها كقشرة بيضة. ويفكر سايمون أنه لابد أن هناك مدرسة للقبح، تتلقى فيها مثل هذه المرأة تدريباتها. تقوده إلى المكتبة، حيث وجد نار التدفئة موقدة، وكأسين من شراب غير معروف الهوية مجهزين. إن ما يتمناه الآن كأس من الويسكي القوي، ولكن لا أمل في أن يجد هذا في بيت أحد الميثوديين الذين يحرمون المسكرات.

يقف المبجل فرينجر بين أغلفة كتبه الجلدية، لكنه يتقدم للترحيب بسايمون. يجلسان ويحتسيان المشروب الذي بدا مذاقه أشبه بطعم أعشاب

الماء المطعمة بخنافس التوت. يقول المبجل فرينجر: "إنه ينقى الدم، ومدبرة منزلى تصنعه بنفسها من وصفة قديمة". لا بد أنها قديمة جدًا، يفكر سايمون، ويستدعى عقله الساحرات.

ويسأل فرينجر: "هل هناك أى تقدم فى ... موضوعنا المشترك؟"

كان سايمون يعلم أنه سيُسأل هذا السؤال، ورغم ذلك فهو يتردد قليلاً قبل أن يجيب. "لقد كنت أتقدم بحذر شديد، ومن المؤكد أن هناك عدة خيوط تستحق متابعتها. أردت أن أبني قاعدة من الثقة فى البداية، وأعتقد أنني نجحت فى ذلك. ثم حاولت كشف تاريخها العائلى. ويبدو أنها تتذكر حياتها قبل أن تعمل لدى مستر كينير جيداً، وبكم هائل من التفاصيل، مما يشير إلى أن المشكلة عموماً ليست فى ذاكرتها. وعرفت برحلتها إلى هذا البلد، وكذلك السنة الأولى من عملها كخادمة، والتي لا تتميز بأحداث صعبة، باستثناء حدث واحد."

يرفع المبجل فرينجر حاجبيه المتباعدين، قائلاً: "وما هو؟"

"هل تعرف عائلة پاركينسون، فى تورنتو؟"

"أظن أنني أتذكرهم"، يقول فرينجر، ثم يكمل: "فى شبابى، كان يسمى ألدرمان على ما أتذكر. لكنه توفى منذ عدة سنوات، وأعتقد أن أرملة عادت إلى وطنها، لقد كانت أمريكية، مثلك، وقد وجدت الشتاء صعباً للغاية".

يقول سايمون: "يا لسوء الحظ، كنت أمل أن أتحدث معها للتأكد من بعض الحقائق. كانت أول وظيفة لجريس لدى هذه العائلة. كانت لها صديقة - وكانت خادمة هناك - تسمى مارى هويتنى، والتي كان اسمها،

كما قد تتذكر، هو الاسم المزيف الذي استعارته وهي تهرب إلى الولايات المتحدة مع جيمس مكدرموت، إذا كان ذلك هروبًا حقا، وليس نوعًا من الهجرة الإجبارية. على أية حال، ماتت هذه الفتاة في ظروف يمكن القول بأنها مفاجئة. وبينما كانت جريس تجلس في غرفتها مع الجسد، هيئ لها أنها تسمع صوت صديقتها الميتة تتحدث إليها. وهذه حالة هلوسة سمعية بالطبع.

يقول فرينجر: "ليس هذا بالأمر الغريب تمامًا، أنا نفسي كنت موجودًا لدى وفاة الكثيرين، وخاصة بين الحالمين والمؤمنين بالخرافات، ويعتبر عدم سماع المتوفى يتكلم علامة على عدم الأمانة. وإذا كان صوت رفرقة الملائكة أيضًا مسموعًا، يكون ذلك أفضل كثيرًا". كان يتحدث بنغمة مزاحمة، بل بنغمة تحمل رنة سخرية أيضًا.

يشعر سايمون ببعض الدهشة، من المؤكد أن من واجب رجل الدين أن يشجع الخيالات التي تحت على التقوى. يكمل كلامه: "وقد تبع ذلك نوبة من الإغماء، ثم هستيريا، مختلطة بما يبدو أنه كان حالة سير أثناء النوم؛ وبعدها كان نوم عميق وطويل، ثم فقدان للذاكرة."

ويقول فرينجر، وهو يميل للأمام: "إذن لديها تاريخ لحالات مماثلة من فقدان الذاكرة!"

يقول سايمون، بحكمة: "لا يجب أن نقفز إلى النتائج، فهي نفسها في الوقت الحالي المصدر الوحيد للمعلومات". ويتوقف لحظة، فهو لا يريد أن يظهر بمظهر عدم اللياقة. "سوف يكون من المفيد جدًا لي، لتكوين رأي المهني، أن أتحدث مع واحد ممن كانوا يعرفون جريس أيام تلك الأحداث،



ورأى بعد ذلك سلوكها وتصرفاتها فى الإصلاحية، أثناء السنوات الأولى من سجنها، وكذلك فى المصححة."

يقول المبجل فرينجر: "أنا نفسى لم أكن موجودًا فى هذه المناسبات".

يقول سايمون: "لقد قرأت رواية مسز مودى، ولديها الكثير مما يهمنى. وطبقا لكلامها، فإن المحامى كينيث ماكنزى، زار جريس فى الإصلاحية بعد سجنها بست أو سبع سنوات، وقالت له جريس أن نانسى مونتجومرى تلاحقها - وأن عينيها المتقدتين المحققتين بالدم تتبعانها فى كل مكان، وتظهران فى أماكن مثل حجرها وطبق الحساء. وقد رأت مسز مودى جريس فى المصححة - وأعتقد أنها كانت فى عنبر الحالات العنيفة - وهى تصور امرأة مجنونة تهذى وتصرخ كما لو أنها رأت شبحًا وتجرى على غير هدى كقرود مسته النار. وبالطبع، فقد كتبت روايتها هذه قبل أن تعرف أنه فى أقل من عام سوف يتم إخراج جريس من المصححة، مع تقرير بأنها، إن لم تكن عاقلة تمامًا، فهى عاقلة بما يكفى لإعادتها إلى الإصلاحية."

"لا يحتاج المرء لأن يكون تام التعقل لهذا"، يقول فرينجر هذا مع ضحكة صغيرة أشبه بصريير كتاب يغلق.

فيقول سايمون: "لقد فكرت فى زيارة لمسز مودى، لكننى أسألك النصيحة. فلست متأكدًا كيف يمكن أن أسألها، دون أن أطعن فى صدق ما كتبتّه".

"صدق؟" يقول فرينجر، بصوت ساخر، لا تبدو عليه الدهشة.

فيقول سايمون: "هناك تناقضات لا شك فيها. فمثلاً، لا توضح مسز مودي موقع ريتشموند هيل، كما أنها غير دقيقة بالنسبة للأسماء والتواريخ، فهي تدعو أكثر من واحد من أبطال هذه المأساة بأسماء ليست أسماءهم، أضف إلى ذلك أنها أنعمت برتبة عسكرية على مستر كينير، من الواضح أنه لم يكن يتمتع بها."

يتمتع فرينجر: "ربما تكون وسام الشهادة".

يبتسم سايمون، "وهي أيضاً تجعل المجرمين يقطعان جسد نانسي مونجومري إلى أربعة أرباع قبل إخفائه تحت حوض الغسيل، وهو أمر لم يحدث بكل تأكيد. فلو حدث ما كانت الصحف لتغفل ذكر مثل هذه التفصيلة المثيرة. وأخشى أن السيدة الطيبة لم تكن تدرك مدى صعوبة تقطيع الجسد، حيث أنها لم تجرب ذلك بنفسها. وبالنسبة لدافع القتل، على سبيل المثال – فهي تقول إنه الغيرة القائلة من جانب جريس، التي حسدت نانسي لاستحواذها على مستر كينير، والفسق من جانب مكرموت، الذي نال وعداً بالحصول على الحلوى نظير خدماته كجزار، أي على حب جريس."

"تلك كانت النظرية المنتشرة في ذلك الوقت."

"لا شك، فالعامة دائماً يفضلون ميلودراما مثيرة على قصة باردة لمجرد السرقة. ولكن يمكنك أن تجد بعض التحفظات أيضاً حول العينين المحققتين بالدم."

يقول المبجل فرينجر: "لقد قررت مسز مودي على الملأ أنها مغرمة بتشارلز ديكنز، خاصة روايته أوليفر تويست. وأظن أنني أتذكر وصفاً لمثل هاتين العينين في ذلك العمل، وأيضاً ينتميان لأنثى ميتة تسمى نانسي. كيف أعبّر عما أريد قوله؟ مسز مودي معرضة للتأثيرات. وربما

تحب أن تقرأ قصيدتها "المجنونة"، إذا كنت تعجب بسير والتر سكوت. فإن قصيدتها تحتوى كل ما هو مطلوب: منحدر صخري، قمر، بحر غاضب، فتاة مغدور بها تغنى لحناً حزيناً للغاية، وترتدى أسماً رطبة غير صحية. و... كما أتذكر، شعرها يتهدل تحت طوق نباتي يحيط برأسها. وأعتقد أنها تنتهى بالفقر من فوق هذا المنحدر الرائع، الذى يبدو أنه كان موجوداً خصيصاً لأداء هذه الخدمة لها. دعنى أفكر - "يدق بأصابعه دقات منتظمة، وهو يتلو مغمض العينين:

عصفت الريح بأسمالها، وتدفقت سيول أبريل  
وتعلقت قطرات الماء كاللآلى بخصلات شعرها الداكنة، المكللة بالزهور  
البرية،

وتعرى صدرها لعاصفة منتصف الليل الباردة،  
التي ضربت بقسوة على عودها الضعيف الهش،  
ولمعت عيناها السوداء وان عابستين بينما هرب العقل،  
وبدت لناظري كأحد أشباح الموتى،  
وهى تغنى لحناً حاد النغمات للموجة العارمة المندفعة،  
رن فى أذنى كترنيمه جنائزية متفجعة.

وأياً كان من تركها للجنون والعار،  
من سرق شرفها، وقضى على سمعتها -  
أما فكر ساعة فى القلب الذى مزقه،  
والقسم الذى حنث به، والكرب الذى سببه؟  
وأين كان الطفل الذى عصفت ولادته  
بسلام أمه، وسببت لها الجنون؟

يفتح عينيه مرة أخرى، قائلاً: "أين هو حقاً؟"

يقول سايمون: "إنك تدهشني، لابد أن لك ذاكرة غير عادية."

يقول المبجل قرينجر: "ذاكرة لأبيات من نوع معين، نعم بكل أسف؛ وهذا بسبب ترديد التراتيل بكثرة، رغم أن الله نفسه اختار أن يكتب قسم كبير من الإنجيل شعراً، وهو ما يوضح تأييده لهذا الشكل الأدبي، ولكن ما أسوأ ما يستخدم. ومع ذلك، لا يمكن للمرء أن ينتقد أخلاقيات مسز مودى. لكنى على ثقة بأنك تفهم ما أقصده. مسز مودى سيدة أديبة، ومثل كل الأدبيات، ومثل كل بنات جنسها بشكل عام، فهي تميل إلى ..."

يقول سايمون: "التطريز،"

"تماماً، كل ما أقوله هنا هو موضع سر، بالطبع. رغم أن آل مودى كانوا يميلون إلى المحافظين أيام التمرد، إلا أنهم منذ ذلك الوقت قد عرفوا خطأ طرائقهم، وهم الآن من المصلحين المخلصين، وهو أمر لاقوا معاناة بسببه على أيدي بعض الحقودين الذين كانوا في وضع يمكنهم من تعذيبهم بدعوى قضائية وما أشبه. لن أقول كلمة ضد السيدة. لكنى لا أنصح أيضاً بزيارة. وبالمناسبة، أنا أعرف أن الروحانيين يسيطرون عليها الآن."

يقول سايمون: "حقاً؟"

"هذا ما سمعته. كانت من الشكاكين لفترة طويلة، وكان زوجها أسبق منها في التحول إلى الروحانيات. لا شك أنها أصبحت متعبة من قضاء الأمسيات وحيدة، وهو يقضى وقته يسمع إلى الأنغام الشجية لشبح ما، ويتحدث مع أرواح جوتة وشكسبير."

"أفهم أنك لا توافق على هذا."

"بعض القسس من طائفتي طردوا من الكنيسة للخوض في هذه المسائل، وبالنسبة لي، أعتبرها طقوساً آثمة. وصحيح أن بعض أعضاء لجنتنا قد شاركوا رغم إيمانهم، لكني يجب أن أتحملهم، حتى يصل هذا الجنون إلى نهايته، ويعودوا إلى رشدهم. وكما قال مستر ناتانييل هاوثورن، المسألة مجرد دجل. وإن لم تكن، فسوف يكون أسوأ بالنسبة لنا، لأن الأرواح التي تظهر عند دوران المائدة وغيرها من طقوس، لا بد أن تكون هي الأرواح التي فشلت في الدخول إلى عالم الخلود، ولا تزال تثير الفوضى في عالمنا، مثل نوع من الغبار الروحي. وليس من المحتمل أنها تريد لنا الخير، وكلما قل اتصالنا بها كلما كان ذلك أفضل."

يقول سايمون: "هاوثورن؟" لقد أدهشه أن يجد رجل دين تقى يقرأ هاوثورن: فهو كاتب متهم بالحسية والانفلات الأخلاقي - خاصة بعد روايته "الخطاب الوردي".

"على المرء أن يلحق بالسرب. ولكن بالنسبة لجريس ماركس وسلوكياتها في تلك الفترة، فالأفضل أن تستشير مستر كينيث ماكنزي، الذي دافع عنها أثناء المحاكمة، والذي أعرف أن لديه عقلاً راجحاً بين كتفيه. وهو الآن شريك في مؤسسة قانونية في تورنتو، إذ ارتفع قدره في المهنة بسرعة. وسوف أوجه إليه رسالة للتعريف بك؛ وإنني واثق أنه سوف يستضيفك."

يقول سايمون: "أشكرك".

"إنني سعيد بهذه الفرصة للحديث معك على انفراد، قبل مقدم السيدات. لكنني أسمع اصواتهن، يبدو أنهن وصلن الآن."

يقول سايمون: "السيدات؟"

"زوجة المحافظ وابنتاها سوف يمنحنا شرف صحبتهن هذا المساء، وبكل أسف فإن المحافظ نفسه مسافر في عمل. ألم أخبرك بذلك؟" وتظهر بقعتان من اللون على وجنتيه. "هل نذهب للترحيب بهن؟"

لم تحضر من البنّتين إلا واحدة. فماريان، كما تقول أمها، اضطرت لملازمة الفراش بسبب إصابتها بالبرد. انتبه سايمون: إنه على ألفة بمثل هذه الحيل، ويعرف مؤامرات الأمهات. لقد قررت زوجة المحافظ أن تدفع ليديا ناحيته بلا عائق، ودون أى إرباك أو تشويش من ماريان. ربما كان عليه أن يكشف حقيقة دخله الصغير فوراً، ليحبطها. لكن ليديا رائعة، وهو لا يرغب في حرمان نفسه من هذه المتعة الجمالية بهذه السرعة. وطالما لم يحدث تصريح بشيء، فلا ضرر؛ وهو يستمتع بتلك العينين المضيئتين تحديقان فيه.

انتهى الشتاء الآن رسمياً: وها هي ليديا وقد انفجرت بأزهار الربيع. تورق حولها طبقات من الكشكشة المطبوعة بأزهار فاتحة اللون، وتتماوج من كتفها كأجنحة شفافة. يأكل سايمون سمكته - التي طهيت طهيًا زائداً - ولكن لا أحد في هذه القارة يمكن أن يطهو سمكة جيداً - ويعجب بخطوط عنقها البيضاء الناعمة، وما يظهر من صدرها. وكأنها نحتت من كريمة مخفوقة. كان لابد أن تكون هي في الطبق، بدلا من السمكة. لقد سمع حكايات عن محظية باريسية شهيرة قدمت نفسها في مأدبة بهذه الطريقة، وكانت عارية بالطبع. وهو يشغل نفسه بتعرية ليديا ثم تتبيلها وتزيين الطبق حولها: لابد أن تكون مزدانة بالزهور - هي بلون العاج، فتضاف إليها قشرة وردية - وربما يحيط بها على أطراف الطبق الأعناب وثمار الخوخ.

والدتها ذات العينين الجاحظتين مرسومة جيدًا كعادتها، تمس بأصابعها حبات عقد الكهرمان الأسود على جيدها، وتدخل مباشرة في حديث جاد وعملي. إن جلسة يوم الثلاثاء تأمل بشدة في حضور د. چوردان لإلقاء كلمة فيها. ليس المطلوب كلمة رسمية جدًا — وإنما مناقشة حميمة بين أصدقاء — أصدقاء له إذا كان لها أن تعتبر نفسها كذلك — والذين لهم نفس الاهتمامات الجادة. ربما يمكنه أن يقول بضع كلمات في موضوع إلغاء الرق؟ إنه أمر يهمهم للغاية.

يقول سايمون أنه ليس خبيرًا في ذلك — والواقع أنه ليس لديه أية معلومات بهذا الخصوص، فقد كان في أوروبا في السنوات القليلة الماضية. يقترح قرينجر أنه في هذه الحالة، ربما يتكرم د. چوردان بأن يشركهم معه في آخر النظريات الخاصة بالأمراض العصبية وفقدان العقل؟ هذا أيضًا سوف يكون محل ترحيب كبير، كواحد من أهم مشروعاتهم القائمة طويلًا، كمجموعة، بالنسبة لإصلاح المصحات العامة.

تقول زوجة المحافظ: "يقول د. دويونت أنه مهتم بوجه خاص، د. چيروم دويونت، وقد تعرفت عليه فعلاً. إن لديه سعة في الأفق بخصوص، لديه خبرة واسعة بـ ... بأشياء تهمة."

تقول ليديا، وهي تنتظر إلى سايمون من تحت رموشها الطويلة الداكنة: "أوه، سوف أجد هذا رائعاً، أتمنى أن تفعل ذلك!" لم تقل الكثير هذا المساء، لكنها رغم ذلك لم يكن لديها فرص كثيرة، إلا لرفض عروض المزيد من السمك المقدمة إليها بإلحاح من المبلج قرينجر. "كثيراً ما تساءلت كيف يكون الأمر، عندما يجن المرء، وجريس لا تحدثني عن ذلك."

يتصور سايمون نفسه فى ركن ظليل مع ليديا. خلف ستارة من جوخ مقصبة بلون بنفسجى قاتم. لو يمكنه أن يحيطها بذراعيه — برقة، حتى لا يفرعها — هل ستتهد؟ هل ستتسلم، أم تدفعه بعيداً؟ أم كلا الأمرين؟

عائداً إلى مكان إقامته، يصب لنفسه كأساً كبيراً من الشيرى، من الزجاجة التى يحتفظ بها فى الدولاب. لم يكن قد تناول مشروباً طوال المساء — فكل المشروبات فى حفل عشاء قرينجر لم تزد عن الماء — لكنه يشعر بشكل ما بأن رأسه يدور كما لو كان قد شرب. لماذا وافق على حضور دائرة الثلاثاء الشيطانية؟ ماذا يعنون له، أو ماذا يعنى لهم؟ وما الذى يمكنه أن يقوله لهم ويكون ذا معنى لديهم، وهم الذين تنقصهم المعرفة والخبرة؟ إنها ليديا، إعجابها به، مظهرها. يشعر كأنما هوجم دون أن يأخذ حذره.

إنه متعب لدرجة لا يمكنه معها أن يسهر ليقراً ويعمل كعادته. يذهب إلى الفراش ويغرق فى النوم فى الحال. ثم يرى حلماً مفعماً بالقلق. يرى نفسه فى فناء مسور والغسيل المنشور يرفرف على الحبل. ليس هناك أحد، وهو ما يشعره بلذة خفية. تتحرك الملاءات والثياب مع الريح، كما لو كان بداخلها ردفان ممتلئان خفيان، كما لو كانت حية. وبينما يراقب — لابد أنه صبى، فهو قصير لأنه ينظر لأعلى — يرى وشاحاً من الموسلين الأبيض يطير من فوق الحبل ويتموج برقة فى الهواء مثل رباط طويل يحل، أو مثل الألوان فى الماء. يجرى ليمسك به، ويخرج من الفناء إلى الطريق — هو فى الريف إذن — ثم إلى حقل. بستان فواكه. اشتبك الوشاح فى فروع شجرة صغيرة مغطاة بتفاحات خضراء. يسحبه فينزل على وجهه؛ وفى تلك اللحظة يتضح له أنه ليس وشاحاً على الإطلاق، إنه شعر،



شعر ناعم حلو الرائحة لامرأة خفية، يلتف حول رقبته. يقاوم، يشعر  
بحضنها يحتويه بقوة، حتى يكاد لا يستطيع التنفس. تتفتح أحاسيس مؤلمة،  
وإثارة جنسية لا تحتمل، ويستيقظ فجأة وهو يرتج.

أنا اليوم فى غرفة الخياطة قبل أن يصل د. چوردان. ولا فائدة فى التساؤل عما أخره، فالرجال المهذبون يحافظون على مواعيدهم بطريقتهم؛ ومن ثم فأنا أستمر فى الخياطة وأنا أسلى نفسى ببعض الغناء:

يا صخر الدهر، افتح لى شقاً بداخلك  
دعنى أخبئ نفسى فىك؛  
دع الماء والدم،  
الذى يتدفق من جانبك المصدوع  
يكون دواء شافياً من الخطايا،  
اغسلنى من الذنوب والخطايا.

أحب هذه الأغنية، فهى تجعلنى أفكر فى الصخور، والمياه، وشاطئ البحر، والذى هى فى الخارج؛ فالتفكير فى شىء يجعلنا أقرب ما نكون من التواجد بقربه.

"لم أكن أعرف أنك تجيد الغناء يا جريس"، يقول د. چوردان وهو يدخل الغرفة. "إن لديك صوتاً جميلاً." توجد هالات سوداء حول عينيه، ويبدو أنه لم ينم على الإطلاق.

أقول: أشكرك يا سيدي، كنت في العادة أجد ما يدعوني للغناء أكثر مما أجد اليوم.

يجلس، ويخرج دفتره وقلمه، وثمره من الجزر الأبيض، يضعها على المنضدة. ولو كنت مكانه لما اخترت هذه الثمرة، فقد كان لونها حائلا، مما يدل على أنها لم تكن طازجة.

أقول: آه، جزرة بيضاء.

يسألني: هل توحى لك بأى شيء؟

أقول، نعم، هناك القول السائر: الكلمات الجيدة لا تضع زبداً على الجزر الأبيض، والجزر الأبيض صعب التقشير.

ويقول: وأعتقد أيضاً أنه يحفظ في الأقبية..

"لا يا سيدي، بالخارج، في حفرة في الأرض مع القش، فعندما تتجمد تصبح أفضل كثيراً."

ينظر إلى متعباً، وأعجب ما الذي يسبب له عدم النوم. ربما سيدة صغيرة يفكر فيها، وربما لا تبادله العاطفة؛ أو أنه لا يأكل وجبات منتظمة.

يقول: هل نكمل قصتك من حيث توقفنا؟

أقول: لقد نسيت أين توقفت. والواقع أنني لم أنس، ولكنني أردت أن أتأكد إن كان يستمع إلى حقاً، أم يتظاهر بذلك فقط.

يقول: توقفنا عند موت ماري. صديقتك المسكينة ماري هويتني.

أقول: نعم. ماري.

طيب، يا سيدى، تم كتمان الطريقة التي ماتت بها ماري بقدر  
الإمكان، وسواء صدق الناس أنها ماتت بالحمى أو لم يصدقوا، فلم يعترض  
أحد بصوت مسموع. ولا أنكر أحد أنها تركت أشياءها لي، نظراً  
لما كتبته؛ رغم أن البعض رفعوا حواجبهم عند معرفة كتابتها للوصية،  
وكانها كانت تعرف مقدماً أنها سوف تموت. ولكنى قلت أن الأغنياء  
يكتبون وصاياهم مبكراً، فلماذا لا تفعل ماري ذلك؛ وقد أسكتهم ذلك. ولم  
يقل أحد شيئاً عن ورق الكتابة، ولا كيف حصلت عليه.

بعت صندوقها، الذي كان من نوعية جيدة، وكذلك أحسن  
فساتينها، إلى جيرميا البائع المتجول، الذي جاء مرة أخرى بعد موتها  
بقليل؛ كما بعته الخاتم الذهبى الذي كان مخبأً تحت الأرضية. وقلت له أنه  
كان مخصصاً لعمل جنازة لائقة، وأعطاني ثمناً مناسباً وزيادة. وقال أنه  
رأى الموت فى وجه ماري، وأن الرؤيا المتأخرة دائماً صادقة. وقال أيضاً  
أنه آسف لموتها، وسوف يصلى من أجلها، رغم أننى لم أستطع أن أتخيل  
أى نوع من الصلاة يتحدث عنها، فهو لم يكن مؤمناً، بكل ألامه وتنجيمه.  
ولكن من المؤكد أن نوع الصلاة لا يهم، والله ينظر إلى نوايانا وحدها؛  
أو هذا ما أعتقد.

ساعدتني آجنس فى الدفن. وضعنا فى التابوت زهوراً من حديقة  
مسز ألدرمان پاركينسون، بعد أن استأذناها؛ ولأننا كنا فى يونيو، كانت  
هناك زهور طويلة السيقان وزهور الفاوانيا؛ وقد اخترنا الزهور البيضاء  
فقط. ونثرت عليها بتلات الزهور أيضاً، ودست كيس الإبر الذى صنعه  
من أجلها خلسة، فقد يبدو غريباً لأن لونه أحمر؛ وقصت خصلة من  
أسفل شعرها لأتذكرها بها، وربطتها معاً بخيط.

ودفنت فى أفضل قميص نوم لديها، ولم تكن تبدو ميتة إطلاقاً، وإنما فقط نائمة وشاحبة للغاية؛ وكانت، وسط كل هذا اللون الأبيض، تبدو مثل العروس.

كان النعش من خشب الصنوبر، وشديد البساطة، وأردت شاهد قبر حجرى أيضاً، ولكن ما معى لم يكف إلا لكتابة اسمها. وكنت أتمنى أن أكتب بيتاً من الشعر، مثل "رغم أنك تهريبن من ظلال الأرض المظلمة، عندما تكونين فى السماء، تذكرينى"، ولكن ذلك كان أكثر كثيراً من إمكانياتى. ووضعت فى مقابر الميثوديين فى شارع أديليد، فى ركن ملاصق لمدافن الصدقة، ولكن المهم أنها فى فناء الكنيسة، وهكذا شعرت أننى فعلت من أجلها كل ما استطعت. ولم يحضر الدفن سوى أجنس واثنان أخريان من الخدم، فلا بد أن بعض الشكوك ثارت حول أسباب موتها؛ وعندما بدأوا يهيلون التراب فوق النعش وبدأ الكاهن الشاب يقرأ "من التراب وإلى التراب يعود"، بكيت وكان قلبى ينشق. كنت أفكر أيضاً فى أمى المسكينة، التى لم تحظَ بدفن لائق فى التراب كما يجب، ولكن ألقيت فى البحر.

كان من الصعب بالنسبة لى أن أصدق أن مارى ماتت حقاً. ظلمت أتوقع أن تأتى إلى الغرفة، وعندما كنت أرقد فى الفراش فى الليل، كنت أشعر أحياناً أننى أسمعها تتنفس؛ أو أنها ربما تكون واقفة تضحك خارج الباب. وفى كل يوم أحد كنت ألقى زهوراً على قبرها، ليس من حديقة مسز ألدرمان پاركينسون، حيث لم يكن ذلك مسموحاً به إلا فى تلك المناسبة الوحيدة، ولكن زهوراً برية، كنت أجدها فى الأراضى البور أو بجوار شاطئ البحيرة أو أينما أجدها تنمو.

وبعد وفاة ماري، سرعان ما تركت منزل ألدرمان پاركينسون. لم أرغب في البقاء، فمئذ وفاة ماري لم تعاملني مسز ألدرمان پاركينسون أو مسز هني معاملة ودودة أبدًا. ولا بد أنهما ظننا أنني كنت أساعد ماري في علاقتها بالرجل، والذي كانتا تعتقدان أنني أعرف اسمه؛ ورغم أنني لم أكن أعرف، فإن الشك متى بدأ في النفوس من الصعب أن يتوقف. وعندما قلت أنني أريد أن أترك وظيفتي، لم تعترض مسز ألدرمان پاركينسون، ولكنها طلبتني في المكتبة، وسألت مرة أخيرة إذا كنت أعرف الرجل، وعندما قلت أنني لا أعرفه، طلبت مني أن أقسم على الإنجيل أنني حتى لو كنت أعرف، فلن أفشي ذلك أبدًا، وسوف تكتب لي توصية جيدة. ولم أكن أحب ما يدل عليه ذلك من عدم الثقة، ولكني فعلت كما طلبت مني، وكتبت لي التوصية، وقالت بود أنها لم تجد أي شيء يدعو إلى اللوم في عملي، وأعطتني هدية عند ترك العمل دولارين، وهو كرم كبير، ووجدت لي عملاً آخر مع السيد ديكسون، والذي كان ينتمي إلى عائلة ألدرمان.

وفي بيت السيد ديكسون كان أجرى أعلى، فقد كنت الآن متمرنة ومعى توصية. وكان الخدم المدربون قليلين، فقد هاجر الكثيرون إلى الولايات بعد التمرد، ورغم أنه كان هناك مهاجرون جدد يصلون طوال الوقت، فلم يكن العجز قد تم سده بعد، وكان الخدم مطلوبين كثيرًا؛ ولهذا السبب عرفت أنني لست مضطرة للبقاء في أي مكان إذا لم يعجبني.

ووجدت أنني لم يعجبني المكان عند مستر ديكسون، فقد شعرت أنهم يعرفون الكثير من القصة، وكانوا يعاملونني معاملة غريبة؛ ولذا فبعد نصف عام طلبت ترك العمل، وذهبت إلى بيت مستر ماكمانوس؛ ولكني لم أرتح هناك أيضًا، فلم يكن لديهم سوى خادم آخر إلى جانبي، وكان ذلك الخادم رجلاً يتكلم كثيرًا عن نهاية العالم، وعن صعوبات الحياة، وصرير

الأسنان. ولم تكن صحبته ممتعة عند تناول الطعام. وبقيت لديهم ثلاثة أشهر فقط عملت بعدها عند مستر كوتس، وقد بقيت لديه حتى مرور بضعة أشهر بعد عيد ميلادى الخامس عشر، ولكن كانت هناك خادمة تغار منى، فقد كنت أكثر كفاءة فى عملى منها، فلما سمعت بوجود فرصة للعمل ذهبت إلى مستر هراغى، بنفس الأجر الذى كنت أتقاضاه عند مستر كوتس.

وسارت الأمور بشكل طيب لبعض الوقت، ثم بدأت أشعر بالقلق، فقد حاول مستر هراغى أن يتجاوز حدوده معى فى الممر الخلفى بينما كنت أحمل الأطباق من غرفة الطعام؛ ورغم أننى تذكرت نصيحة مارى بالركل بين الساقين، فقد فكرت أنه لن يكون من الصواب أن أضرب مخدمى، وقد يؤدى ذلك إلى طردى دون توصية. ولكن فى إحدى الليالى سمعته خارج باب غرفتى فى العلية، عرفته من سعاله المتحشرج. كان يتحسس أكرة الباب. وكنت دائماً أغلق على نفسى بالمزلاج فى الليل، لكنى عرفت أنه مزلاج أو لا مزلاج، فإن أجلاً أو عاجلاً سوف يجد طريقة للدخول، حتى لو وضع سلماً، ولم أستطع النوم وأنا أفكر فى ذلك، وكنت بحاجة إلى النوم، فقد كنت متعبة من العمل طوال اليوم، ولو وجدت خادمة مع رجل فى غرفتها لأصبحت هى المذنبه، مهما كانت طريقة دخوله إليها. وكما كانت مارى تقول، فإن بعض السادة يعتقدون أن الخادمة مدينة بخدمتهم أربع وعشرين ساعة فى اليوم، وعليها أن تؤدى العمل الرئيسى وهى راقدة على ظهرها.

وأعتقد أن مسز هراغى كانت تشك فى الأمر. كانت من عائلة طيبة مرت بظروف سيئة، واضطرت أن تأكل "على ما قسم" عن طريق الزواج؛ وكان مستر هراغى قد صنع ثروة من تجارة اللحم. وأشك أنها

كانت أول مرة تصرف فيها بهذه الطريقة، لأننى عندما قدمت طلب إنهاء خدمتى لم تسألنى مسز هراغى عن السبب، ولكنها تنهدت وقالت أننى فتاة طيبة، وكتبت لى توصية فوراً على أفضل ورق كتابة لديها.

ذهبت إلى منزل مستر واطسون. كان يمكن أن أذهب إلى مكان أفضل لو كان لدى وقت للبحث، ولكنى شعرت بأن من الضرورى أن أسرع بالخروج من المنزل، حيث جاء مستر هراغى إلى الأوفيس بينما كنت أقوم بتنظيف الأوانى، ويدياى تغطيهما الدهون والأوساخ، وحاول أن يمسك بى رغم ذلك، وكانت هذه علامة على رجل يائس. وكان مستر واطسون صانع أحذية، وفى أشد الحاجة للمساعدة، فلديه زوجة وثلاثة أطفال ورابع فى الطريق، ولم يكن لديه سوى خادمة واحدة غير قادرة على القيام بكل الغسيل بأنواعه، رغم أنها طبخة جيدة، وكان مستعداً أن يدفع لى دولارين ونصف فى الشهر، بالإضافة إلى حذاء ضمن المساومة. وكنت بحاجة إلى حذاء، حيث كان الحذاء الذى أخذته مع أشياء مارى لا يناسبنى، وكان حذائى قد تهرأ، والحذاء الجديد باهظ الثمن.

عملت لديهم فترة قصيرة قبل أن أتعرف على نانسى مونتجومرى، التى جاءت فى زيارة، حيث كانت قد تربت فى الريف مع سالى، طبخة مسز واطسون. جاءت نانسى إلى تورنتو لشراء بعض الأقمشة وما إليها من مزاد البضائع فى محلات كلاركسون؛ وأرتنا بعض الحرير القرمزى الجميل للغاية الذى اشتريته لعمل فستان شتوى، وعجبت لماذا ترغب مدبرة منزل رداء كهذا، كما أرتنا بعض القفازات الجميلة، وغطاء مائدة قطنى أيرلندى لمخدومها. وقالت أن الشراء من المزاد أفضل من الشراء من المحلات، فالأسعار أرخص، وأن سيدها أراد أن يفيد من النقود لأقصى حد. وهى لم تأخذ العربة إلى المدينة، ولكن سيدها أوصلها



إلى هنا. وقالت أن ذلك أكثر راحة بكثير، حيث لا تتعرض الواحدة لمضايقات الغرباء.

كانت نانسي مونتجومري وسيمة جدًا، شعرها أسود، في حوالي الرابعة والعشرين من العمر؛ كان لها عينان بنيتان جميلتان، وكانت تضحك وتمزح كثيرًا كما كانت تفعل ماري هويتتي، وبدت ذات طبع طيب. جلست في المطبخ وأخذت كوبًا من الشاي، وأخذت تتحدث هي وسالي عن الأيام الخوالي. فقد كانتا تذهبان إلى المدرسة في شمال المدينة معًا، فقد كانت أول مدرسة في المنطقة ويعودها القسيس المحلي في صباح كل يوم سبت، وكان الأطفال يعفون من واجباتهم في هذا اليوم. وكانت مقامة في بيت خشبي، قالت نانسي أنه كان أكثر شبهاً بالإسطنبول، وكانوا يضطرون لعبور الغابة للوصول إليها، وكانوا دائماً خائفين من الدببة، التي كانت أكثر عددًا في ذلك الوقت، وفي أحد الأيام رأنا دبًا بالفعل، وجرت نانسي صارخة، وتسلفت شجرة. وقالت سالي أن الدب كان أكثر خوفًا من نانسي، وقالت نانسي ربما كان دبًا مهذبًا، وكان يجري هاربًا من شيء خطير لم يره من قبل، ولكنه ربما لمحها وهي تتسلق الشجرة. وضحكتنا كثيرًا. وحكت كيف كان الصبيان يتدافعون للوصول إلى المرحاض خلف المدرسة إذا كانت إحدى الفتيات بالداخل، ولم تكن البنات الأخريات يحذرنها، وإنما يراقبن مع الآخرين، ثم شعرن فيما بعد بأن ذلك كان خطأ. وقالت سالي أن ذلك كان يحدث دائماً مع الخجولات، وقالت نانسي نعم، ولكن كان عليك أن تتعلمي كيف تدافعين عن نفسك في هذه الحياة، وفكرت أن ذلك كان صحيحًا.

وعندما كانت تجمع أشياءها معًا — كان لديها مظلة جميلة للغاية، قرنفلية اللون، رغم أنها بحاجة إلى تنظيف — أخبرتني نانسي أنها كانت

مدبرة منزل مستر توماس كينير، الذي يعيش في ريتشموند هيل، في شارع يونج، بعد مرتفع جالو ومنخفض هوج. وقالت أنها بحاجة إلى خادمة أخرى لتساعد في عملها، حيث كان البيت كبيراً والفتاة التي كانت موجودة تركت العمل لتتزوج. وكان مستر كينير رجلاً من عليّة القوم ينتمي لعائلة إسكتلندية محترمة، وكان من السهل التعامل مع عاداته، وأنه ليس متزوجاً؛ لذلك كان العمل أقل، كما أنه لم تكن هناك سيدة في المنزل تنتقد وتعيب، وسألتني إن كان يهمني أن أحصل على هذه الوظيفة.

واعت أنها بحاجة لرفقة امرأة أخرى، حيث أن مزرعة السيد كينير بعيدة عن المدينة، ولذا فهي لا تحب أن تكون هناك وحدها، امرأة وحيدة مع أحد السادة، فقد يثير ذلك الأقاويل. وفكرت أن هذا يدل على مشاعر صادقة. وقالت أن مستر كينير كان سيداً ليبرالياً، ويظهر متى يكون مرتاحاً، وإذا قبلت، فسوف أحصل على أجر جيد، وأخطو خطوة جديدة في العالم. ثم سألتني عن أجرى الحالي، وقالت أنها ستدفع ثلاثة دولارات في الشهر؛ ووجدت ذلك مرضياً للغاية.

قالت نانسي أن لديها عملاً في المدينة لمدة أسبوع، وسوف تنتظر أن تسمع قرارى في خلال هذا الوقت؛ وقضيت الأسبوع أدير الأمر فى عقلى. كان ما يقلقنى هو الحياة فى الريف، بدلاً من المدينة، فقد أصبحت فى ذلك الوقت معتادة على الحياة فى تورنتو - فهناك الكثير مما يُرى أثناء التجول، وأحياناً كانت هناك أسواق موسمية وعروض، ولكن كان يجب الاحتراس من اللصوص هناك؛ وكان هناك وعاظ فى الأماكن العامة، وكثيراً ما كان صبى أو امرأة يقف ليغنى فى الشارع طلباً للبنسات. ورأيت رجلاً يأكل النار، وآخر يمكنه أن يتحدث من بطنه، وخنزيراً يمكنه العد، ودباً يرقص وقد ألبسه صاحبه كمامة، وإن كان رقصه أشبه بالترنج، وكان

الغلام الذى يلبس أسماً ينخسه بالعصى. كما أن الريف طرقاته أكثر وحلاً، وهى بدون أرصفة جيدة مرتفعة؛ وليس فيه إضاءة بالغاز أثناء الليل، ولا محلات كبيرة أو أبراج كنائس كثيرة كما فى المدينة، أو عربات أنيقة، أو بنوك حجرية جديدة لها أعمدة. ولكنى فكرت أننى إذا لم يعجبنى الحال فى الريف، فىمكننى العودة متى شئت.

وعندما سألت سالى عن رأيها، قالت أنها لا تعرف إذا كان ذلك عملاً مناسباً لفتاة صغيرة مثلى، وعندما سألتها لم لا، قالت أن نانسى كانت دائماً طيبة معها، وأنها لا تحب أن تتكلم، وعلى المرء أن يجرب حظه، وأقل ما يقال سرعان ما ينسى، وأنها لا تعرف شيئاً مؤكداً ومن ثم فليس من الصواب أن تقول المزيد، لكنها كانت تشعر أن واجبها تجاهى يحتم أن تقول لى بقدر ما تعرف، لأننى ليس لى أم تتصحنى. ولم يكن لى أى فكرة عما تتحدث عنه.

سألتها إذا كانت سمعت شيئاً سيئاً عن مستر كينير، فقالت ليس ما يمكن أن يعتبر "شيئاً سيئاً" فى عرف الناس بشكل عام.

كان الأمر أشبه بلغز لم أتمكن من تخمين الحل له، وربما كان الأفضل لو أنها تحدثت معى بصراحة أكثر. لكن الأجر كان يزيد عما سبق أن تقاضيته فى أى عمل، وهو ما كان يشدنى بشدة؛ وما شدنى أكثر هو نانسى مونجورى نفسها. كانت شخصيتها أقرب شياً بمارى هويتتى، أو هكذا فكرت؛ وكنت أشعر باكتئاب منذ موت مارى. ولذا فقد قررت الذهاب.

أعطتني نانسي أجرة الركوب. وفي اليوم المتفق، أخذت عربة في الصباح الباكر. كانت رحلة طويلة، فقد كان ريتشموند هيل على بعد ستة عشر ميلاً في شارع يونج. وكان الطريق شمال المدينة مباشرة شديد السوء، وكان هناك أكثر من مرتفع شديد الانحدار حتى كان علينا أن ننزل من العربة ونسير، وإلا فإن الجياد ما كانت تستطيع أن تشدنا لأعلى. وبجوار الحفر، كانت هناك زهور كثيرة تنمو، من الأقحوان ومن أنواع مشابهة، والفراشات تطير حولها، وهذه الأجزاء من الطريق كانت جميلة جداً. وفكرت أن أقطف باقة من الزهور، ولكنها بالتأكيد سوف تذبل في الطريق.

وبعد مسافة، أصبح الطريق أسوأ، كانت الأرض مليئة بالأخاديد والحجارة، والعربة تقفز وتنط حتى تتكسر عظامنا، وأعلى التلال كاد التراب يخنقنا، وفي الأماكن المنخفضة كان الطين، والكتل الخشبية الممددة فوق الأوحال. وقالوا أنه عندما تمطر فإن الطريق يكون أشبه بالمستنقع. وفي الربيع، أثناء ذوبان الجليد، لا يمكنك السفر على الإطلاق. وأفضل الأوقات في الشتاء، عندما يكون كل شيء متجمداً بشدة، ويمكن أن تتحرك الزحافة بسرعة؛ ولكن حينئذ، هناك خطر العواصف الثلجية، وخطر التجمد

حتى الموت إذا انقلبت الزحافة، وأحياناً كان الجليد يتراكم حتى يصل إلى ارتفاع البيت، وتكون فرصتك الوحيدة هي القليل من الدعاء والكثير من الويسكى. وقد حكى لى ذلك كله وأكثر منه الرجل الذى كان محشوراً بجوارى، والذى قال أنه كان يعمل فى تجارة أدوات الحقل والبذور، وادعى أنه يعرف الطريق جيداً.

بعض البيوت التى مررنا عليها فى الطريق كانت كبيرة وجميلة، ولكن كانت هناك بيوت أخرى مجرد أكواخ، منخفضة وسيئة المنظر. وكانت الأسوار حول الحقول من أنواع مختلفة، هناك أسوار الأفاعي المصنوعة من قضبان مشقوقة، وهناك أسوار أخرى من جذور الأشجار المنزوعة من الأرض، والتى كانت تبدو مثل خصلات عملاقة من شعر خشبي. وبين الحين والآخر كنا نمر بمفترق طرق عنده عدة بيوت متقاربة وحانة، حيث كان يمكن أن تستريح الجياد أو يتم تغييرها، كما يمكن تناول كأس من الويسكى. وأحد الرجال كان يتكأ ويشرب أكثر كثيراً جداً من كأس واحدة، وكان يرتدى ثياباً حقيرة ويتصرف بوقاحة، وجاء إلى العربة حيث أجلس وحاول أن ينظر تحت حافة قبعتي. وعندما توقفنا فى منتصف اليوم، سألتى تاجر الأدوات الزراعية إذا تكلمت أن أدخل معه وأتناول كأساً وبعض المرطبات، لكنى قلت لا، فالمرأة محترمة لا تدخل مثل هذه الأماكن مع غريب. وكنت أحمل معى خبزاً وجبناً، ويمكن أن آخذ شربة ماء من البئر الموجود فى الساحة، وكان هذا يكفينى.

وقد لبست ثيابى الصيفية الجيدة للرحلة، وكان عندى قبعة من القش مزينة بشريط أزرق كان فى صندوق مارى، وتحتها لبست قلنسوتى، ورداءً قطنياً مطبوعاً ذا أكمام ساقطة الأكتاف، وهو نوع كانت مودته بسبيلها إلى الاختفاء فى تلك الأيام، ولكن لم يكن لدى وقت لإصلاحه،

وكان يوماً ما منقطاً بنقط حمراء، لكن لونها استحال إلى البمبى، وقد حصلت عليه كجزء من أجرى فى منزل مستر كوتس. وكنت أرتدى تنورتين داخليتين، إحداهما قديمة مقطوعة ولكنها أصلحت جيداً، والأخرى كانت قد أصبحت قصيرة جداً، ولكن من سيراها؟ كما كنت أرتدى قميصاً قطنياً وصدريه مستعملة اشتريتها من جيرميا البائع المتجول، وكنت ألبس جوارب قطنية بيضاء سبق إصلاحها ولكن لا يزال من الممكن لبسها لفترة لا بأس بها. والحذاء الذى حصلت عليه من مستر واطسون صانع الأحذية، والذى لم يكن من أفضل الأنواع كما لم يكن مناسباً لمقاس قدمي، فأفضل أحذية كانت تأتي من إنجلترا. وكان هناك شال صيفى من الموسلين الأخضر، ومنديل تركته لى مارى، وكان لأمها قبل ذلك، منديل أبيض وبه ورود صغيرة زرقاء، مطبوعة على نموذج "الحب فى الضباب"، ومطوى على شكل مثلث، وهو يوضع حول الرقبة لإبعاد الشمس وللحماية من البقع الجلدية. كان من المريح أن يكون لدى هذا التذكار منها. لكن لم يكن عندي قفاز، ولم يعطنى أحد قفازات أبداً، وكانت غالية الثمن بالنسبة لمقدرتى.

أخذت معي أيضاً ملابس الشتوية، وتنورتى الداخلية الصوفية الحمراء، وثوبى الثقيل، وجواربى الصوفية، وقميص نومى الصوفى، وكذلك قميصين قطنيين للصيف، ورداء العمل الصيفى والقباب وقلنسوتين ومريلة، وقميصى الآخر، كل ذلك مربوط فى صرة بشال أمى، وضعت فوق العربة. ومع أنها كانت مربوطة جيداً إلا أننى كنت قلقة عليها طوال الرحلة، فقد كنت أخشى أن تقع وتضيع فى الطريق، فكنت أنظر إلى الخلف بين الحين والآخر.

لا تتظري خلفك أبداً. قال تاجر الأدوات الزراعية. "لماذا لا؟"، قلت أنا. أعرف أنه لا يجب التحدث مع الرجال الغرباء، لكن كان من

الصعب تجنب ذلك ونحن محشورون هكذا معًا. قال: "لأن ما فات قد فات، والندم لا يفيد، دعي ما ذهب حيث هو. أتعرفين ما حدث لزوجة لوط؟ تحولت إلى عمود من الملح، يا له من ضياع لامرأة طيبة، ولا أقصد أنهن لسن أفضل مع رشّة ملح!"، وضحك. لم أكن متأكدة مما يقصده، لكنني ارتبت في أنه ليس شيئاً طيباً، وفكرت أنني لن أتكلم معه بعد ذلك.

كان الناموس بشعاً، خاصة في مناطق المستنقعات، وعند أطراف الغابات، لأنه رغم أن بعض الأرض المجاورة للطريق كانت قد أخليت من الأشجار، فقد كانت مجموعات كبيرة من قواعد الأشجار لا تزال قائمة، طويلة جداً، ومظلمة. وكان الهواء في الغابة له رائحة مختلفة تماماً؛ وكان بارداً ورطباً، وتفوح منه رائحة الطحالب والتراب وأوراق الأشجار المتعطنة. ولم أكن أثق بالغابة، فهي مليئة بالحيوانات المتوحشة كالديبة والذئب، وتذكرت ما روته نانسي حول الدب.

قال تاجر الأدوات الزراعية، هل تخافين من الدخول في الغابة يا آنسة، وأنا قلت لا، لا أخاف، ولكني لن أذهب إلا مضطرة. وقال أيضاً، النساء الصغيرات لا يجب أن يذهبن إلى الغابة وحدهن، فلا يمكنك أن تعرفي ما قد يحدث لهن؛ فهناك واحدة وجدت بملابسها ممزقة ورأسها على مبعدة من جسدها، وقلت، "ياه، بسبب الديبة؟" قال "الديبة أو الهنود الحمر، كما تعرفين هذه الغابات مليئة بهم، ويمكن أن ينقضوا في أية دقيقة وتجدين قبعتك طارت في لمح البصر، ووراءها رأسك، تعرفين أنهم يحبون قص شعر السيدات، فيمكنهم بيعه بسعر طيب في الولايات". ثم قال: "لابد أن لك شعراً رائعاً على رأسك تحت قبعتك"؛ وكان طوال هذا الوقت يلتصق بي بطريقة ضايقتي.

وعرفت أنه كان يكذب، إن لم يكن بخصوص الدببة، فمن المؤكد بروايته عن الهنود، وكان فقط يحاول إخافتى. فقلت، بوقاحة تامة، "إن رأسى ستكون أكثر أماناً لدى الهنود مما يمكن أن تكون معك"، وضحك، ولكنى كنت جادة. كنت قد رأيت الهنود الحمر فى تورنتو، فأحياناً يذهبون لاستلام نقود المعاهدة معهم؛ وكان آخرون يأتون إلى الباب الخلفى عند مسز ألدرمان پاركينسون يحملون سلالاً وسمكاً للبيع. كانت وجوههم جامدة، ولا يمكنك أن تعرف فيم يفكرون، لكنهم كانوا يبتعدون بمجرد أن يُطلب ذلك منهم. ومع ذلك، فقد كنت أشعر بالراحة عندما نخرج من الغابة، ونرى الأسوار والبيوت، والغسيل المنشور ليحف بالخارج، وأشم دخان نار الطبخ، والأشجار التى تحرق لإيقاد هذه النار.

وبعد بعض الوقت، عبرنا بقايا أحد المباني، الذى لم يبق منه سوى الأساس وقد اسود كله، وأشار التاجر إليها، وقال لى أن هذه كانت حانة مونتجومرى المشهورة، حيث كان ماكنزى والغوغاء الذين معه يعقدون اجتماعاتهم المتمردة، وخرجوا فى مظاهرة إلى شارع يونج أثناء التمرد. وقد أصيب رجل بطلق نارى أمام الحانة، وكان ذاهباً لتحذير قوات الحكومة، وأحرقت الحانة بعد ذلك. وقد شنقوا بعض هؤلاء الخونة، لكن كان لابد من شنقهم جميعاً، وأضاف قائلاً "وماكنزى هذا الوغد الجبان، لابد أن يجر من الولايات التى هرب إليها، تاركاً أصدقاءه يتأرجحون على حبال المشانق من أجله". كان التاجر يحتفظ بزجاجة خمر صغيرة فى جيبه، وكان فى هذا الوقت قد تناول جرعة قوية من الزجاجة منحته شجاعة الخمر، وهو ما ظهر فى رائحة تنفسه، وعندما يكونون فى هذه الحالة، فأفضل شىء هو عدم استثارتهم، ولذا لم أقل شيئاً.



وصلنا إلى ريتشموند هيل قرب نهاية النهار. لم تكن تشبه المدن في كثير؛ بل كانت أقرب إلى القرية، بيوتها مرصوفة في خط حول شارع يونج. ونزلت عند حانة العربات هناك، وهو ما اتفقت عليه مع نانسي، وأنزل سائق العربة صرتي. ونزل تاجر الأدوات الزراعية أيضاً، وسألني أين سأقيم، فقلت أن هذا لا يعنيه. وهنا أمسك بذراعي، وقال أنني لا بد أن آتي إلى الحانة معه وأخذ كأساً أو كأسين من الويسكي من أجل الذكرى، حيث أننا تعارفنا جيداً في العربة؛ وحاولت أن أشد ذراعي، لكنه لم يتركه، وكان يزداد تبسطاً معي، وحاول أن يحيط وسطى بذراعه، وكان ثمة عدد من الرجال المتسكعين هناك يحتثونه على الاستمرار. نظرت حولي بحثاً عن نانسي، لكنني لم أرها في أي مكان. وقلت في نفسي، يا له من انطباع سيئ عني، أن تجدني في حانة أحاول التملص من رجل سكير!!

كان باب الحانة مفتوحاً، وخرج منها في تلك اللحظة جيرميا البائع المتجول، حاملاً صرته على ظهره، وعصاه الطويلة في يده. وفرحت جداً برؤيته وناديت اسمه، فنظر حوله في حيرة، ثم أسرع نحوي.

قال: ما هذا؟ جريس ماركس، لم أكن أتوقع أن أراك هنا.

قلت مبتسمة: ولا أنا، ولكن باضطراب، فقد كان تاجر الأدوات الزراعية لا يزال يمسك بذراعي.

قال جيرميا: هل هذا الرجل صديق لك؟

قلت: لا، ليس صديقي.

قال جيرميا: السيدة لا ترغب في صحبتك، بصوته الذى يحاول به أن يبدو رجلاً من عليّة القوم، فقال تاجر الأدوات الزراعية أننى لست سيدة، وأضاف أشياء لا تعتبر إطراء، كما وأضاف بضع كلمات سيئة عن أم جيرميا.

أمسك جيرميا بعصاه، ونزل بها على ذراع الرجل، فتركنى، ودفعه جيرميا، فترجع بظهره نحو حائط الحانة، وجلس على كتلة من روث الجياد؛ وهو ما جعل الآخرين يستهزئون به، فهذا النوع من الرجال يسخر ممن يخسرون.

وعندما شكرت جيرميا، سألتنى: هل لديك وظيفة فى الجوار؟ قلت نعم، وقال أنه سوف يأتى ويجلب معه ما يمكننى شراؤه منه، وفى نفس اللحظة جاء رجل ثالث وسأل: هل اسمك جريس ماركس؟ أو شيئاً من هذا القبيل، لا أستطيع أن أتذكر كلماته بالضبط. قلت نعم، فقال أنه مستر توماس كينير، صاحب البيت الذى سأعمل فيه، وأنه جاء لإحضارى. كان معه عربة جميلة بجواد واحد، وعرفت فيما بعد أن اسمه تشارلى، كان جواداً مخصياً، ووسيماً، وله عرف وذيل رائعين، وعينان بنيتان كبيرتان، وقد أحببته من أول نظرة.

أمر مستر كينير السائس بوضع صرتى خلف العربة – وكانت هناك بعض الأحمال بالفعل – وقال: حسناً، لم يمض عليك خمس دقائق فى المدينة والتف حولك سيدان من المعجبين. وقلت أنهما لم يكونا كذلك، فقال لم يكونا سيدين، أم لم يكونا معجبين؟ وتحيرت، ولم أعرف ماذا يريدنى أن أقول.

ثم قال: اصعدى يا جريس، فقلت: هل تعنى أن أجلس فى المقدمة؟ فقال، حسناً، لا يمكن طبعاً أن نضعك فى الخلف مثل الأمتعة، وأعطانى يده لأجلس بجانبه. وقد أخرجنى ذلك، فلم أكن معتادة أن أجلس بجوار رجل من علية القوم مثله، وخاصة أنه مخدومى، ولكنه لم يفكر فى الأمر، وصعد من الناحية الأخرى، وفرق السوط للجواد، وهكذا كنا، نسير بالعربة فى شارع يونج، كما لو كنت سيدة من علية القوم، وفكرت أن أى أحد من هؤلاء الذين ينظرون من نوافذهم علينا سوف يجدون ما يتقولون به. ولكن، كما عرفت فيما بعد، كان مستر كينير رجلاً لا يلقى بالآلى الأقاويل، ولم يكن يهتم إطلاقاً بما يقول الناس عنه. كان لديه نقوده الخاصة، ولم يكن يسعى إلى منصب سياسى، وكان يمكنه تجاهل هذه الأشياء.

سأل د. چوردان: ماذا كان شكله؟

"كان لديه مظهر علية القوم يا سيدى، وشارب."

"هل هذا كل شىء؟ ألم تنظرى إليه جيداً؟"

"لم أكن أريد أن أحقق فيه، وما أن أصبحنا فى العربة بالطبع لم أنظر إليه. فقد كان ذلك يضطرنى لأن أرف رأسى كلها بسبب القبعة الكبيرة، أظن أنك لم تضع على رأسك قبعة كبيرة أبداً، أليس كذلك يا سيدى؟"

قال د. چوردان: "لا، لم أفعل". وكان يبتسم تلك الابتسامة المائلة. وقال: "أعتقد أنها تحد من الحركة."

قلت: بالفعل يا سيدى. لكنى كنت أرى قفازه، على يديه وهو يمسك بالزمام، كان قفازاً أصفر باهتاً، من الجلد الناعم وجيد الصنع، حتى

أنه انطبق على يديه تماماً بحيث تعتقد أنه جلده. وكنت أشعر بالأسف لأنني ليس لدى أية قفازات، وكنت أضع يدي تحت طيات شالي.

قال لي: أظن أنك متعبة جداً يا جريس، قلت، نعم يا سيدي، وقال: إن الجو دافئ جداً، وقلت نعم يا سيدي، وهكذا سرنا، وأقول لك الحق كان ذلك أصعب من ركوبى فى العربة النطاطة بجوار تاجر الأدوات الزراعية، لا أعرف لماذا، فقد كان مستر كينير أكثر طيبة بكثير. ولكن ريتشموند هيل لم تكن مكاناً واسعاً، وسرعان ما وصلناها. كان يعيش بعد حافة القرية، بأكثر من ميل نحو الشمال.

وأخيراً، كنا نعبّر بستانه، والممشى، الذى كان منحوتاً وطوله حوالى مائة ياردة، ويجرى بين صفين من أشجار القيقب المتوسطة الارتفاع. وكان البيت عند نهاية الممر، وبه فراندة كبيرة بطول المقدمة وأعمدة بيضاء، بيت كبير، ولكنه ليس كبيراً مثل بيت مسز ألدرمان پاركينسون.

ومن خلف البيت جاء صوت تقطيع الخشب. كان هناك صبي يجلس على السور – ربما كان فى الرابعة عشرة من عمره – وعندما وصلنا قفز إلى الأرض وجاء ليمسك الجواد؛ كان شعره أحمر مقصوصاً بغير عناية، وفى وجهه نمش أيضاً. قال مستر كينير له: هالو يا چيمى، ها هى جريس ماركس جاءت طريقاً طويلاً من تورنتو، ووجدتها فى الحانة، ورفع الصبي وجهه إلى، وابتسم ابتسامة عريضة، كما لو كان يفكر أن بى شيئاً يثير الضحك، ولكنه فى الواقع كان خجولاً وتعوزه اللباقة.

كانت مقدمة الفراندة مزروعة بالزهور، فاوانيا بيضاء وورود قرنفلية، وكان ثمة سيدة ترتدى ثياباً أنيقة ذات حواف ثلاثية تقطفها،

وتحمل سلة منبسطة على ذراعها لتضع الزهور فيها. وعندما سمعت صوت العجلات وحوافر الجواد على الحصى، استقامت وغطت عينيها بيدها، ورأيت أنها كانت ترتدى قفازًا؛ ثم اكتشفت أن هذه السيدة كانت نانسي مونتجومري. كانت ترتدى قلنسوة من نفس اللون الفاتح لثيابها، وكأنها لبست أفضل ثيابها لتخرج إلى الفراندة وتقطف الأزهار. لوححت بيدها برقة نحوي، لكنها لم تتحرك لتأتى إلي، وشعرت بشيء يعصر قلبي بقوة.

كان صعود العربة شيئًا، أما النزول منها فكان شيئًا آخر، لأن مستر كينير لم يساعدنى على النزول، فقد نزل قفزًا وأسرع يسير نحو مقدمة البيت وحنى رأسه نحو قبعة نانسي، تاركًا إياي جالسة في العريضة كشوال من البطاطس، أو أزحف نازلة بدون مساعدة، وهو ما فعلته. وجاء رجل من الخلف؛ كان يحمل فأسًا، فلا بد أنه هو الذى كان يقطع الأخشاب. كان يرتدى جاكيت من الصوف الثقيل المنسوج على كتفيه، وكانت أكمام قميصه مشمرة لأعلى، وأزراره مفتوحة عند العنق، وقد ربط منديلًا أحمر حول عنقه، وكان يرتدى بنطلونًا واسعًا أدخلت أطرافه فى عنق البوت الذى يرتديه. كان نحيفًا أسود الشعر وغير طويل، ولم يبد أن سنه يزيد عن الواحدة والعشرين. لم يقل شيئًا، لكنه حدق فى، بريية، وبقدر من العبوس، وكأننى كنت عدوًّا له؛ ثم أدركت أنه لا ينظر إلى إطلاقًا ولكن إلى شخص آخر خلفى.

قال الصبى جيمى له: هذه جريس ماركس، لكنه ظل ~~يقول~~ كلمة، ثم نادى نانسي: مكرموت، من فضلك خذ الجواد إلى الداخل، وأشياء جريس، خذها إلى غرفتها، ويمكن أن تريها أين هى. وهنا احمر وجهه كأنه غاضب، وأشار لى برأسه لأذهب معه.

وقفت هناك لحظة وشمس آخر اليوم فى عيني، أنظر إلى نانسى  
ومستر كينير بجوار زهور الفاونانيا؛ كانت تحيطهما هالة ذهبية، وكأنما  
سقط غبار ذهبى من السماء عليهما، وسمعتها تضحك. كنت أشعر بالحر  
والتعب والجوع، ويغطينى غبار الطريق، ولم تمنحنى حتى كلمة تحية  
واحدة.

ثم سرت خلف الجواد والعربة نحو خلفية البيت. وسار الفتى  
چيمى بجوارى، وقال بخجل: تورنتو كبيرة، هل هى واسعة جدًا؟  
أنا لم أذهب هناك أبدًا، لكنى لم أجه إلا بأنها واسعة بما يكفى. لم أستطع  
أن أجد فى نفسى مقدرة على الكلام معه عن تورنتو، لأننى فى تلك اللحظة  
كنت نادمة بشدة على تركى لها.

عندما أغلق عيني، يمكننى أن أتذكر كل تفاصيل ذلك المنزل  
بوضوح كما لو كنت أنظر إلى صورة — الفرانجة والزهور، النوافذ  
والأعمدة البيضاء مغمورة بضوء الشمس — ويمكننى أن أسير فى كل  
غرفة منه وأنا مغماة، رغم أنه فى تلك اللحظة لم يكن لدى أية مشاعر  
خاصة عنه، ولم أكن أرغب إلا فى شربة ماء. ومن الغريب أنه، بعد ستة  
أشهر من ذلك اليوم، كنت أنا الوحيدة التى بقيت حية بين كل الناس الذين  
كانوا فى ذلك البيت.

ما عدا چيمى وولش، طبعًا؛ لكنه لم يكن يعيش هناك.

أراني مكرموت الغرفة المخصصة لي، والتي كانت بعد المطبخ الشتوي. لم يكن متحضرًا في سلوكه، وكل ما قاله هو "أنت ستنامين هنا". وبينما كنت أفتح صرتي، دخلت نانسي، وكانت الابتسامة تملأ وجهها. قالت إنني سعيدة للغاية أن أراك يا جريس، إنني سعيدة لأنك أتيت. وأجلستني على المنضدة في المطبخ الشتوي، الذي كان أكثر برودة من المطبخ الصيفي لأن الموقد كان مطفأ. وأرتتي مكان الحوض حيث يمكنني أن أغسل وجهي ويدي، ثم أعطتني كأسًا صغيرًا من البيرة، وبعض اللحم البارد من غرفة الخزين، وقالت لابد أنك متعبة بعد رحلتك، إنها رحلة متعبة للغاية، وجلست معي بمنتهى اللطف وأنا أتناول الطعام.

كانت ترتدي قرطاً جميلاً جداً، وقد عرفت أنه من الذهب الحقيقي، وتعجبت كيف يمكنها أن تدفع ثمنه من راتبها كمديرة منزل.

وبعد أن انتهيت من الاغتسال، أرتتي المنزل والمباني الملحقة به. كان المطبخ الصيفي منفصلاً تماماً عن المنزل، لكي لا تصل حرارته إلى البيت، وهو تدبير جيد لابد أن يتبعه الجميع. كل مطبخ له أرضية عارية وموقد كبير له مقدمة مسطحة لحفظ الأشياء دافئة، وكان هذا هو أحدث موديل في ذلك الوقت، وكان بكل مطبخ حوض خاص، وأنبوب يجرى إلى

المصرف، وله أوفيس خاص به وغرفة خزين. وكانت طلببة الماء فى الفناء بين المطبخين؛ وقد أسعدنى أنها لم تكن بئراً مفتوحة، فمثل هذه الآبار أكثر خطورة، فالأشياء يمكن أن تقع فيها وغالبًا يعيش فيها الفئران.

وكان الإسطبل يقع خلف المطبخ الصيفى، ويتصل بالمبنى الذى تحفظ فيه العربة. كان مأوى العربة يكفى عربتين، ولكن مستر كينير لم يكن لديه سوى تلك العربة الخفيفة، وأظن أن عربة كبيرة يمكن أن تكون بلا فائدة على مثل هذه الطرقات. وفى الإسطبل كان يوجد أربعة أماكن مخصصة للحيوانات، ولكن مستر كينير لم يكن لديه إلا بقرة واحدة وجوادان، الجواد تشارلى، ومهر صغير سوف يخصص للركوب عندما يكبر. أما الغرفة المخصصة لعدة الدواب فكانت خلف المطبخ الشتوى، وهذا كان أمرًا غريبًا، وغير مناسب إطلاقًا.

وفوق الإسطبل، كانت غرفة علوية، وهى التى كان ينام فيها مكدرموت. قالت لى نانسى أنه لم يأت إلا من أسبوع واحد تقريبًا قبلى، ورغم أنه تم إعلامه بكل شىء عندما كان مستر كينير يعطى الأوامر، فبيدو أنه يحمل ضغينة ضدها، وكان وقحًا، وقلت أنه ربما يحمل ضغينة ضد العالم، فقد كانت تعامله معى سيئًا أيضًا. وقالت نانسى أنه فيما يخصها، لو لم يصلح من طريقته فسوف يخرج من العمل، فهناك الكثيرون يمكن أن يجيئوا من حيث جاء، فالجنود العاطلون يمكن الحصول عليهم بمجرد الطلب.

كنت دائمًا أحب رائحة الإسطبل. ربت على أنف المهر، وقلت لتشارلى طاب يومك، وقمت بتحية البقرة أيضًا، لأنه سوف يكون من ضمن عملى أن أحلبها، وأردت أن نبدأ معًا علاقة طيبة. كان مكدرموت



يضع القش للحيوانات، ولم يوجه إلينا حديثاً إلا أنه أخرج صوتاً يشبه قباع الخنازير، ووجه إلى نانسي نظرة ملؤها الجهامة، ورأيت أن المشاعر متبادلة، وعندما خرجنا من الإسطبل قالت نانسي "إنه أكثر ثقة من قبل، حسناً، أهلاً ومرحباً به، إما أن يبتسم في وجهي أو إلى الطريق، أو الأغلب أن يذهب إلى الجحيم"، وضحكت، وتمنيت ألا يكون يسترق السمع.

بعد ذلك رأينا حظيرة الدجاج والساحة الملحقة بها، والتي كانت محاطة بسور من خشب الصفصاف المجدول لمنع الدجاج من الخروج، رغم أنه لم يكن جيداً في منع الثعالب وبنات عرس من الدخول، ولا حيوانات الراكوز، التي كان من المعروف أنها سارق كبير للبيض؛ ورأينا حديقة المطبخ، التي كانت مزروعة جيداً ولكنها بحاجة إلى عزق؛ وبعيداً على ممر في الخلفية كان يوجد المرحاض.

كان مستر كينير يمتلك مساحة واسعة من الأرض، مرعى واسعاً مصنوعاً من البقرة والجوادين، وبستان فواكه صغيراً يطل على شارع يونج وحقولاً أخرى عديدة كانت تزرع أو ما زال إخلاؤها من الأشجار جارياً. وقالت نانسي أن والد جيمي وولش هو الذي يقوم على هذه المهمة، وأن لهم كوخاً في الأرض على بعد ربع ميل تقريباً. ومن مكان وقوفنا لم يكن يمكننا أن نرى سوى السطح العلوي والمدخنة ترتفع فوق الأشجار. وكان جيمي نفسه صبيّاً ذكياً وواعداً، يقضى المشاوير لمستر كينير، ويستطيع العزف على الفلوت، أو ما كان يسميه "فلوت"، لكنه كان يبدو أقرب إلى الناي. وقالت نانسي أنه قد يأتي في أمسية ما ويعزف لنا، فهو يحب ذلك، وهي نفسها تستمتع ببعض الموسيقى، وهي تتعلم العزف على البيانو. وقد أدهشني ذلك، فهو أمر ليس معتاداً بالنسبة لمديرة المنزل. لكني لم أقل شيئاً.

فى الفناء، بين المطبخين، كان يوجد ثلاثة حبال معلقة للغسيل. ولم تكن هناك غرفة غسيل منفصلة، ولكن الأدوات المخصصة للغسيل، الأواني النحاسية والأحواض واللوح الذى نترك عليه الملابس المتسخة، كانت موجودة حالياً فى المطبخ الصيفى بجوار الموقد، وكلها من نوع جيد؛ وقد أسعدنى أنهم لم يكونوا يصنعون الصابون بأنفسهم، وإنما كانوا يشترونه؛ فالصابون المشتري أقل تأثيراً على الأيدي بكثير.

لم يكن لديهم خنزير، وقد أسعدنى ذلك أيضاً، فالخنازير لئيمة للغاية، ومغرمة بالهرب من زرائبها، كما أن رائحتها ليست لطيفة على الإطلاق. وفى الإسطنبول كانت تعيش قطتان، لاصطياد الفئران وإبعادها، ولكن لم يكن يوجد كلب، فقد مات كلب مستر كينير العجوز الذى كان يسمى فانسى. وقالت نانسى أنها ستشعر بأن الحياة أسهل فى وجود كلب فى المكان ينبح على الغرباء، وأن مستر كينير كان يبحث عن كلب جيد ليخرج معه إلى الصيد، ولم يكن شديد الولع بهذه الرياضة، لكنه كان يحب أن يصطاد بطة أو اثنتين فى الخريف، أو إوزة برية، وهى طيور كثيرة جداً فى المنطقة، رغم أن لحمها كان متليفاً صعب المضغ.

عدنا إلى المطبخ الشتوى، وسرنا فى الممر الذى كان يؤدى إلى صالة المدخل، والتى كانت كبيرة، وبها موقد للتدفئة علقت فوقه قرون أيل، وجدرانها مغطاة بورق حائط أخضر جيد، وفرشت أرضيتها بسجادة تركية جميلة. وكان الباب السحرى المؤدى إلى القبو فى هذه الصالة، وكان لابد أن ترفع جزءاً من السجادة لتصل إليه، وهو مكان غير مناسب فى نظرى، فالمطبخ هو المكان الأنسب، لكن القبو لم يكن تحت المطبخ. وكانت سلالم القبو شديدة الانحدار وغير مريحة، وكان القبو نفسه مقسماً إلى جزأين يفصلهما جدار نصفى، ناحية مخصصة لمنتجات الألبان، وكانوا يحفظون

فيها الزبد والجبن، وفي الناحية الأخرى كانوا يحفظون النبيذ والبيرة في براميل، والتفاح والجزر والكرنب والبنجر والبطاطس في صناديق من الرمل في الشتاء، وكذلك براميل النبيذ الفارغة أيضاً. وكانت هناك نافذة، لكن نانسي قالت أنني لا بد أن آخذ دائماً شمعة أو مصباحاً حيث أن المكان تحت مظلم تماماً، ويمكن أن تتعثر وتقع على السلام وتكسر رقبتك.

ولم ننزل إلى القبو في تلك المرة.

في آخر الصلاة كان البهو الأمامي، بموقد خاص وصورتين، واحدة لجمع عائلي، وأظن أنهم كانوا من أسلافه، فقد كانت وجوههم جامدة وملابسهم قديمة الطراز، والصورة الأخرى لثور كبير سمين قصير الأرجل، وفي البهو أيضاً كان البيانو، ولم يكن آلة بيانوفورت، وإنما مجرد بيانو ردهة مستقيم الظهر، والقنديل الكروي الذي كان يملأ بأفضل زيت من زيت الحوت، والذي جيء به من الولايات؛ فهم إذن ليس لديهم كيروسين للمصابيح. خلف هذه الصلاة غرفة الطعام، وبها مدفأة أيضاً، لها حوامل قنديل فضية، وبها دولاب مغلق تحفظ به الأطباق الصيني الجميلة وأدوات المائدة، وصورة لطيور تدرج مينة فوق رف الموقد، وهو ما أظن أنه غير لطيف أثناء تناول الطعام. وهذه الغرفة متصلة بالبهو من خلال باب مزدوج كما يمكن الوصول إليها من باب مفرد من الممر، لحمل الطعام من المطبخ. وفي الجانب الآخر من الممر مكتبة مستر كينير، لكننا لم ندخلها في تلك المرة لأنه كان يقرأ بالداخل، وخلف المكتبة كانت غرفة مكتب صغيرة بها مكتب، حيث يكتب مستر كينير الرسائل ويؤدي فيها أي من أعمال البيزنس الخاصة به.

وكان يوجد سلم جميل يبدأ فى الصالة الأمامية، وله درابزين مصقول، وصعدنا عليه، وفى الطابق الثانى كانت غرفة نوم مستر كينير وبها سرير كبير، وملحق بها غرفة الملابس، والتسريحة لها مرآة بيضاوية، ودولاب منحوت، وفى غرفة النوم علقت لوحة لامرأة لا ترتدى أية ثياب، جالسة على أريكة وتظهر من ظهرها وهى تنظر من فوق كتفها، ترتدى على رأسها قبعة أشبه بالعمامة، وتمسك بيدها مروحة من ريش الطاووس. وريش الطاووس داخل البيت فال سيئ، كما يعرف الجميع. ولكنه لم يكن موجوداً إلا فى الصورة، ولكنى ما كنت لأسمح بدخوله أى بيت لى. وكانت هناك صورة أخرى، لامرأة عارية أيضاً تستحم، ولكنى لم يكن لدى فرصة للنظر إليها بإمعان. وقد أدهشنى وضع مستر كينير لصورتى امرأتين عاريتين فى غرفة نومه، فعند مسز ألدرمان پاركينسون كانت اللوحات فى الغالب مناظر طبيعية أو زهوراً.

وفى آخر الصالة كانت غرفة نوم نانسى، والتي لم تكن فى مثل ذلك الاتساع؛ وكانت كل غرفة لها سجادة. ولكن الحق أن هذه السجاجيد كان يجب أن تنفض وتنظف وتحفظ حتى الشتاء التالى، لكن نانسى لم يكن لديها الوقت لذلك، حيث لم يكن لديها من يساعدها. وتعجبت لوجود غرفتها فى نفس الطابق الذى فيه غرفة مستر كينير، لكن البيت لم يكن له طابق ثالث، ولا عليّة، ليس مثل بيت مسز ألدرمان پاركينسون، الذى كان أكبر كثيراً. وكانت هناك غرفة للضيوف، إذا كان يأتيهم ضيوف. وفى نهاية الممر دولاب تخزن فيه أشياء مثل ملابس الشتاء، ودولاب بياضات مجهز جيداً، وله أرفف كثيرة؛ وبجوار غرفة نوم نانسى كانت توجد غرفة صغيرة قالت إنها غرفة الخياطة الخاصة بها، وكان بها منضدة ومقعد.

وبعد أن رأينا الطابق الأعلى من البيت، نزلنا وتحدثنا حول واجباتي؛ وقلت لنفسى أنه من حسن الحظ أننا فى الصيف، وإلا لكان على تنظيف كل هذه المدافئ والقناديل وإشعالها، وكذلك تنظيف المواقد وتلميعها؛ وقالت نانسى طبعاً أننى لن أبدأ فى نفس اليوم، ولكن فى اليوم التالى، وبلا شك كنت أتمنى أن أذهب إلى الفراش مبكراً، فلا بد أننى متعبة للغاية. وكانت هذه هى الحالة بالفعل، وذهبت إلى النوم بمجرد غروب الشمس.

ثم سار كل شىء هادئاً لمدة أسبوعين"، يقرأ د. چوردان من اعترافى.

أقول: "نعم يا سيدى، كان هادئاً تقريباً".

"ما هو 'كل شىء' كيف استمر الحال؟"

"معذرة يا سيدى؟"

"ماذا كنت تفعلين كل يوم؟"

"آه، المعتاد يا سيدى، كنت أقوم بواجباتى".

يقول د. چوردان: "معذرة، ما هى تفاصيل هذه الواجبات؟"

أنظر إليه، كان يرتدى رابطة عنق صفراء بها مربعات بيضاء صغيرة. وهو لا يمزح. إنه لا يعرف بالفعل. إن الرجال على شاكلته ليس من واجباتهم إزالة الفوضى التى يسببونها، ولكن نحن الذين نزيل الفوضى التى نسببها والتى يسببونها فوق البيعة. وبهذه الطريقة فهم مثل الأطفال، ليسوا مضطرين للتفكير فيما أمامهم، أو القلق حول عواقب ما يفعلون. ولكن هذا ليس خطأهم، إنما هى الطريقة التى تربوا بها.

فى اليوم التالى استيقظت عند الفجر . كانت غرفة نومى الصغيرة مغلقة وحارة، فقد كان الصيف قد بدأ، وكانت مظلمة أيضاً، فقد أغلقت الشيش فى الليل تحسباً من المتطفلين . وكانت النافذة مغلقة أيضاً، خشية الناموس والذباب؛ وفكرت أننى لابد أن أحصل على قطعة من الموسلين لأضعها فوق النافذة، أو على فراشى كناموسية، سوف أتحدث مع نانسى فى ذلك، وكنت قد نمت فى قميصى الداخلى فقط، بسبب الحرارة.

نهضت من الفراش وفتحت النافذة والشيش ليدخل بعض الضوء، وأدرت أغطية السرير لتهوئتها، ثم ارتديت رداء العمل والمريلة، وعققت شعرى، ووضعت قلنسوتى فوقه. كنت أنوى أن أمشط شعرى بشكل أفضل فيما بعد، عندما أستطيع أن أستخدم المرآة الموجودة فوق حوض المطبخ، حيث لا توجد مرآة فى غرفتى. وشمريت أكمامى، ولبست قبقابى، وفتحت ترباس باب الغرفة، فأنا عادة أغلق الباب بالترباس، فإذا حاول أحد أن يدخل عنوة إلى المنزل، فإن غرفتى ستكون أول غرفة يريدون الوصول إليها.

وشعرت بالرضا للنهوض مبكراً، فبهذه الطريقة يمكننى أن أوحى لنفسى، ولو لسويغات قليلة، بأن البيت هو بيتى. أول شىء فعلته أن أفرغت مبولتى فى دلو الفضلات؛ ثم حملت الدلو وخرجت من باب المطبخ

الشتوى، وأنا أفكر أن الأرض بحاجة إلى فرك جيد، فقد تركت نانسي الأشياء تصل إلى حالة سيئة وقد تراكت كمية كبيرة من الطين دون أن يحاول أحد التعامل معها. كان الهواء فى الفناء منعشاً؛ وكانت السماء فى الشرق تلمع ببريق قرمزى، ويرتفع من الحقول ندى لؤلؤى. وفى مكان قريب، كان طائر يغنى – وفكرت أنه طائر "الصغو" – ومن بعيد سمعت أصوات غربان تتنادى. فكل شيء فى الصباح الباكر يبدو وكأنه يبدأ من جديد.

لابد أن الحصانين سمعا صوت باب المطبخ يفتح، لأنهما سهلا؛ ولكن لم يكن من واجباتى إطعامهما أو إخراجهما إلى المرعى، رغم أننى أرحب بفعل هذا. كذلك سمعت البقرة تخور، فلا بد أن ضرعها كان مليئاً، لكنها لا مفر من أن تنتظر، فلا يمكننى فعل كل شيء فى التو واللحظة.

سرت فى الممر، وعبرت حظيرة الدجاج وحديقة المطبخ وذهبت إلى الخلف عبر الحشائش المنداة، وأنا أدفع من حولى شباك العنكبوت الواهية التى نسجت أثناء الليل. وأنا لا أقتل عنكبوتاً أبداً. قالت مارى هويتتى أن هذا يجلب الحظ السيئ، ولم تكن وحدها التى قالت ذلك. وعندما كنت أجد واحداً داخل البيت، كنت أحمله على طرف المكنسة وأنفضها فى الخارج، ولكن لابد أننى قتلت بعضها بدون قصد، لأننى عشت سيئة الحظ على أى حال.

وصلت إلى المرحاض، وأفرغت دلو الفضلات، وما إلى ذلك.

يسأل د. چوردان: وما هو "ما إلى ذلك" يا جريس؟

أنظر إليه. حقيقة إذا لم يكن يعرف ماذا يفعل الإنسان فى المرحاض فلا أمل.

كان ما فعلت هو أن رفعت ثوبى، وجلست فوق الذباب الحائم، على نفس المقعد الذى يجلس عليه كل من فى البيت، سيدة أو خادمة، كلهم يفعلون نفس الشيء وتصل إلى أنوفهم نفس الرائحة، وهى ليست كرائحة الليلاك على أية حال، كما كانت تقول مارى هويتى. وفوجئت بأن ما كان هناك للمسح هو عدد قديم من مجلة سيدات جودى؛ فكنت أنظر إلى الصور قبل أن أستخدم الورقة. وكانت معظمها لأحدث الموضوعات، ولكن بعضها كانت لدوقات من إنجلترا وسيدات الطبقة الراقية فى نيو يورك وما أشبه. لا تترك صورك أبداً تنشر فى مجلة أو جريدة إذا استطعت، فلا تعرف أبداً ما هى نهاية صورة وجهك وأية خدمة ستؤديها للبعض، ما أن تخرج عن قدرتك على التحكم.

ولكنى لا أقول شيئاً من ذلك للدكتور چوردان. أقول بصراحة: "نعم، وما إلى ذلك"، لأن "ما إلى ذلك" هو كل ما من حقه أن يسمع. فإصراره المزعج على معرفة كل شيء ليس سبباً يضطرنى أن أقول له.

أقول: ثم حملت الدلو إلى الطلمبة فى الفناء، ووضعت فى الطلمبة بعض الماء من الدلو المتروك هناك لهذا الغرض، فلكى تعمل الطلمبة لابد أن تضع فيها بعض الماء قبل أن تضخ منها أى شيء، وقد كانت مارى هويتى تقول أن هذه الطريقة هى التى يرى بها الرجال مغازلة النساء، عندما تكون نظرتهم قاصرة. وما أن عملت الطلمبة، غسلت دلو الفضلات، وغسلت وجهى، ثم وضعت يدي لأشرب. كانت المياه الخارجة من جوف الأرض عند مستر كينير جيدة، ليس لها طعم الحديد أو الكبريت. وفى هذا الوقت كانت الشمس تطلع، والندى يتبدد، وشعرت أنه سيكون صباحاً جميلاً.



بعد ذلك ذهبت إلى المطبخ الصيفي، وأشعلت نار الموقد. وقمت بتنظيفه من رماد اليوم السابق، ووضعت الرماد جانبًا لرشه في المرحاض، أو في حديقة المطبخ، حيث يمكن أن يساعد في إبعاد الحلزونات والبراقيات. كان الموقد جديدًا، ولكن له طرقه الخاصة، وعندما يوقد لأول مرة، كان يقذف بدخان أسود على كما لو أن ساحرة تشعل النار. كان لابد أن ألاحظه، فقامت بتزويده بقطع من أوراق الجرائد - كان مستر كينيير يحب الجرائد، فكان يشتري عدة جرائد - كما أطعمته بشظايا من حطب الإشعال؛ وأخذ يطلق أصواتًا أشبه بالسعال، ورحت أنفخ من خلال الشبكة، وأخيرًا أمسكت النار وبدأ اللهب يتصاعد. كان خشب النار مقطوعًا إلى قطع كبيرة جدًا بالنسبة للموقد، وكان لابد أن أقوم بتكويمه بالمحراك. سوف أتحدث إلى نانسي عنه فيما بعد، وسوف تقول هي لمكدرموت، فهو المسئول عن هذا.

ثم خرجت إلى الفناء لأضخ ملء دلو من الماء، وأدخلته إلى المطبخ وملأت الغلاية منه بالمغرفة، ووضعتها على الموقد لتغلي.

ثم أحضرت جزرتين من غرفة عدة الخيل الواقعة خارج المطبخ الشتوي، وكانتا قديمتين، ووضعتهما في جيبى، واتجهت إلى الزريبة ومعى وعاء الحلب. كانت الجزرتان للحصانين، وأعطيتهما إياهما خفية؛ صحيح أنهما كانتا من الجزر المخصص لهما، لكنى لم أستأذن في ذلك. وتسمعت خشية أن يستيقظ مكدرموت في العلية بأعلى، لكن لم تكن هناك أية حركة، كان في نوم عميق، أو يتظاهر بذلك.

ثم حلبت البقرة. كانت بقرة طيبة، واستجابت لى بسرعة. بعض الأبقار سيئة الطباع جدًا، حتى أنها يمكن أن تتطحك بقرنيها أو ترفسك،

لكن هذه البقرة لم تكن كذلك، وما أن أسندت رأسي إلى جانبها حتى استعدت للعمل على الفور. جاءت القطتان تموءان طلبًا لبعض اللبن، فأعطيتهما بعضه. ثم حييت الجوادين، ووضع شارلي رأسه عند جيب مريّتي. لقد عرف أين كنت أضع الجزر، هذا حسن.

وفي الطريق سمعت ضوضاء غريبة تأتي من أعلى. كما لو كان شخص يطرق بجنون بمطرقتين، أو يضرب على طبل خشبي. في البداية لم أفهم إطلاقًا؛ ولكنني استمعت، ثم اكتشفت أنه لا بد أن يكون مكدرموت يرقص بقدميه على ألواح الأرضية الخشبية العارية في العلية. وبدا أنه راقص ماهر؛ ولكن لماذا كان يرقص وحده هناك، وفي مثل هذا الوقت المبكر؟ ربما كان ذلك بسبب فرحة عارمة، وفيض أرواح الحيوانات التي تغمر المكان؛ ولكنني بشكل ما لم أصدق ذلك.

وحملت اللبن إلى المطبخ الصيفي، وأخذت بعض اللبن الطازج للشاي، ثم غطيت وعاء اللبن بقماش لحمايته من الذباب، وتركته حتى ترتفع القشدة. وكنت أرجو أن أصنع زبدًا منه فيما بعد إذا لم تحدث عواصف رعديّة، فالزبد لا يخرج عندما تكون هناك رعود. ثم اقتطعت لحظة لترتيب غرفتي.

لم تكن غرفة تستحق الذكر، جدرانها غير مكسوة بالورق، لا صور على الجدران ولا حتى ستائر. كنستها بسرعة، وغسلت النونية ووضعتها تحت السرير. كانت تحت السرير لفائف من فتائل التراب المتراكمة بدت كما لو كانت صوف خروف كامل، وكان من السهل أن تعرف أن الغرفة لم تكن أرضيتها منذ وقت طويل. قمت بتنظيف الحشية، ورتبت الملاءة، ونفضت المخدة، وشدت اللحاف عليه. كان لحافًا قديمًا

مهلهلاً، رغم أنه كان من نوع جيد يوم صنع، وكان مصنوعاً على نموذج "مطاردة الإوز البري"؛ وفكرت في الأغذية التي سوف أصنعها لنفسى، بعد أن أوفر ما يكفي وأتزوج ويكون لى بيتى الخاص بى.

شعرت بالرضا عندما انتهيت من تنظيف غرفتى وترتيبها. فعندما أعود إليها فيما بعد، فى نهاية اليوم، سوف أجدها نظيفة ومرتبّة، كما لو أن خادمة قد رتبتهأ لى.

ثم أخذت سلة البيض، ونصف دلو من الماء، وذهبت إلى حظيرة الدجاج. كان جيمس مكدرموت فى الفناء، يغسل شعره الأسود تحت الظلمبة، ولكن لابد أنه سمعنى من خلفه، فقد أخرج وجهه من تحت المياه، وللحظة بدت على وجهه نظرة ضياع، موحشة ومليئة بالاهتياج، مثل طفل على وشك الغرق، وسألت نفسى ترى من يظن أنه يطارده. ولكنه فى تلك اللحظة عرفنى، وأشار لى بمرح، وكانت هذه على الأقل بادرة طيبة وأول علامة طيبة رأيتها منه. وكانت يداى كلتاهما مشغولتين، فرددت بهزة من رأسى.

صببت الماء للدجاج فى حوض السقاية، وأخرجته من الحظيرة، وبينما كانت الدجاجات تتسابق وتتساجر على حوض السقاية، دخلت وجمعت البيض — كان بيضاً كبيراً، فهذا الوقت من السنة هو الموسم. ثم نثرت لهم الحبوب وبقايا المطبخ من اليوم السابق. والواقع أننى لم أكن مغرمة بالدجاج، كنت أفضل دائماً حيواناً من ذوات الفراء على سرب من الطيور الصائحة كريهة الرائحة التى تنبش فى القذارة والطين، ولكن إذا أردت البيض فلا مفر من التآلف مع طباعها الصعبة.

خربشنى الديك محاولاً إيعادى عن زوجاته، لكنى وجهت إليه ركلة وكدت أفقد قبقابى بسببها. يقولون أن ديكاً واحداً يسعد سرباً من الدجاجات، لكن ديكاً واحداً كان كثيراً فيما يخصنى. قلت له: حسن من سلوكك وإلا كسرت عنقك، رغم أننى فى الحقيقة لا أحتمل أن أفعل شيئاً من هذا القبيل.

فى هذا الوقت، كان مكدرموت يتفرج من على السور، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. كان شكله أفضل عندما يبتسم، يجب أن أعترف بهذا، رغم أنه كان كئيباً ويلوى فمه بطريقة تتم عن لؤم. ولكن يا سيدى، ربما أننى أتخيله الآن هكذا فى ضوء ما حدث بعد ذلك.

قال مكدرموت: هل توجهين هذا الكلام لى؟ قلت ببرود وأنا أعبره فى طريقى: لا، ليس لك. وظننت أننى فهمت ما يفكر فيه، ولم يكن شيئاً جديداً. ولم أكن أريد أية مشاكل من هذا النوع، ومن ثم فالأفضل الاحتفاظ بمسافة من الود.

كانت الغلاية تغلى أخيراً. وضعت وعاء الثريد على الموقد، وفيه الثريد الذى كان منقوعاً بالفعل، ثم قمت بعمل الشاى، وتركته ليخرط، بينما ذهبت إلى الفناء وقمت بضخ دلو آخر من الماء وحملتته إلى الداخل، ورفعت الوعاء النحاسى الكبير على ظهر الموقد وملأته، فقد كنت بحاجة إلى تسخين كمية كبيرة من الماء، لتنظيف الأوانى المتسخة وما إلى ذلك.

وفى هذه اللحظة جاءت نانسى، مرتدية ثوباً قطنياً مقلماً ومريلة، ولم يكن ثوباً رائعاً مثل ذلك الذى كانت ترتديه بالأمس. قالت صباح الخير وبادلتها التحية. قالت: هل الشاى جاهز؟ قلت إنه جاهز. قالت: آه، إننى لا أكاد أشعر بأننى استيقظت حتى أشرب الشاى، فصببت الشاى لها.

قالت: مستر كينير سيتناول شايه بالطابق العلوى، ولكنى كنت أعرف هذا من قبل، حيث أنها أعدت صينية الشاي فى الليلة الماضية وعليها براد صغير وكوب وسكرية، لم تستخدم الصينية الفضية المنقوش عليها اسم العائلة، وإنما صينية من الخشب الملون. وأضافت، سوف يحتاج كوبًا آخر عندما ينزل، قبل الإفطار، هذه هى عادته.

وضعت اللبن الطازج فى إبريق صغير، والسكر، وحملت الصينية. قالت نانسى: أنا سأحملها إلى أعلى. وأدهشنى ذلك، وقلت إنه عند مسز ألدرمان پاركينسون، كانت مدبرة المنزل لا يمكن أبدًا أن تحمل أية صينية وتطلع السلم بها، فهذا يقلل من وضعها، وهو عمل للخادمات. حدثت نانسى لحظة، وبدا عليها الضيق، لكنها قالت أنها كانت تفعل ذلك بالطبع لأنه لا أحد يساعدها، ولم يكن هناك من يفعل ذلك، ولذلك اعتادت على أن تفعل ذلك بنفسها. ومن ثم فقد حملت أنا الصينية.

كان باب غرفة نوم مستر كينير أعلى السلم. ولم يكن ثمة مكان قريب منه يمكن أن أضع الصينية عليه، فوازنتها على ذراع واحد بينما نقرت على الباب بيدى الأخرى. قلت: الشاى، يا سيدى. سمعت همهمة من الداخل فدخلت. كانت الغرفة مظلمة، فوضعت الصينية على المنضدة المستديرة المنخفضة بجوار السرير، وذهبت إلى النافذة وفتحت الستائر قليلاً. كانت هذه الستائر بلون بنى داكن لها ملمس الساتان ولها حاشية هديبية، وكان ملمسها ناعماً؛ ولكنى أرى أنه من الأفضل أن تكون الستائر فى الصيف من القطن أو الموسلين الأبيض، حيث أن الأبيض لا يمتص الحرارة ويدخلها إلى البيت، كما يبدو أكثر جلبًا للبرودة.

لم أستطع رؤية مستر كينير، فقد كان فى أكثر أركان الغرفة إظلاماً ووجهه فى الظل. لم يكن على فراشه غطاء من القطن المشغولة، وإنما غطاء داكن اللون يتناسب مع الستائر، وكان الغطاء ملقى إلى الخلف، ولم يكن عليه سوى الملاءة. جاء صوته إلى كما يمكن أن تقول من تحتها. قال، شكرًا يا جريس. كان دائمًا معتادًا على أن يقول من فضلك وشكرًا. ولا بد أن أقول أنه كان يعرف كيف يتحدث.

قلت: على الرحب والسعة، يا سيدى، والحقيقة أنه كان على الرحب والسعة من كل قلبى. فأنا لم أشعر أبدًا بالضيق وأنا أخدمه، ورغم أنه كان يدفع لى مقابل الخدمة، فقد كنت أشعر أنى أفعل ذلك بدافع شخصى. قلت: هناك بيض طازج هذا الصباح يا سيدى، هل تحب واحدة منه فى الإفطار؟

قال: نعم، وبدا عليه التردد، ثم استطرد، شكرًا يا جريس، أنا متأكد أنها ستكون مفيدة لى.

لم تعجبني الطريقة التى قال بها ذلك، فقد كان يتكلم كما لو كان مريضًا. لكن نانسى لم تقل شيئًا عن ذلك.

عندما عدت إلى أسفل قلت لنانسى أن مستر كينير يريد بيضة على الإفطار. وقالت: وأنا أيضًا سأأخذ بيضة. إنه يحب بيضته مقليه، مع لحم مدخن، لكنى لا أستطيع أكل البيض المقلى، أحبه مسلوقًا. سوف نتناول الإفطار معًا، فى غرفة الطعام، إنه لا يحب أن يأكل وحده، ولذا يطلب منى أن أكون بصحبته.

ووجدت ذلك غريبًا بعض الشيء، رغم أنه ليس شيئًا لم نسمع به من قبل. ثم قلت: هل مستر كينير مريض؟

ضحكت نانسى قليلاً، وقالت: أحياناً يتخيل أنه مريض. لكن الأمر كله فى رأسه، إنه يحب أن يشعر بقلق الآخرين عليه.

قلت: من الغريب أن رجلاً حسناً مثله لم يتزوج أبداً. كنت أخرج الطاسة لقلى البيض، وكان مجرد تساؤل لا معنى له، لم أقصد شيئاً منه، لكنها ردت بنغمة غاضبة، أو شعرت أنها غاضبة: بعض الرجال من الطبقة الراقية لا يميلون للحياة الزوجية. إنهم مرتاحون فى حياتهم هكذا، ويفكرون أنه يمكنهم أن يعيشوا عيشة راضية دون زواج.

قلت: من هذه الناحية أظن أنه يمكنهم ذلك،

قالت: بكل تأكيد، إذا كانوا أغنياء بما يكفى، فإذا أرادوا شيئاً فإن كل ما عليهم أن يدفعوا ثمنه. فالتكلفة لا تهم بالنسبة لهم.

وإليك الآن أول خلاف بيننا أنا ونانسى. حدث ذلك عندما كنت أرتب غرفة مستر كينير، فى أول يوم، وكنت أرتدى مريلة السراير، لكى لا تتسخ الملاءات من قذارة الموقد وسناجه. كانت نانسى تحوم، وتقول لى أين يجب أن أضع هذا وذاك، وكيف أدرس أطراف الملاءات فى الأركان، وكيف أهوى ملابس نوم مستر كينير، وكيف توضع الفرش والأشياء الخاصة بالزينة على منضدة الزينة، وكيف ينبغى أن تلمع ظهورها الفضية، وأى الأرفف يجب أن توضع عليها قمصانه الكتانية المطوية، لتكون جاهزة للاستخدام، وكانت تتصرف وكأننى لم أفعل أيّاً من هذه الأشياء من قبل.

وفكرت حينئذ، كما رحمت أفكر دائماً بعد ذلك، أن العمل لدى امرأة كانت يوماً خادمة أصعب من العمل عند غيرها، لأن من سبق أن عملت خادمة لها طرقها الخاصة فى أداء الأشياء، كما أنها سوف تعرف

أوجه النقص، مثل دفس بضع ذبابات ميتة تحت السرير، أو كنس بعض التراب أو الرمل تحت السجادة، وهي أمور لن يلاحظها أحد إلا مع الفحص الدقيق لهذه الأماكن؛ كما أن من كانت خادمة لها عينان أكثر حدة، والاحتمال أكبر أن تكشف مثل هذه الأمور. ولا يعنى ذلك أننى أتصرف بهذه القذارة فى العادة، ولكن أحياناً تكون الواحدة منا فى عجلة من أمرها.

وعندما أقول عن أى شىء أن هذا لم يكن هو المتبع عند مسز ألدرمان پاركينسون، تجيب نانسى بحدة أن هذا لا يهم، فأنا لست الآن عند مسز ألدرمان پاركينسون. فلم تكن تحب أن تذكر بأننى كنت أشتغل فى مثل هذا البيت الكبير، وأننى اختلطت مع من هم أفضل منها. ولكنى فكرت منذئذ أن السبب فى كل هذا الهرج الذى تفتعله كان أنها لم تكن ترغب فى تركى وحدى فى غرفة مستر كينير، فقد يأتى فى أية لحظة.

ولكى أخفف عنها عصبيتها، سألتها عن اللوحة الموجودة على الجدار؛ ليس اللوحة التى بها مروحة الطاووس، وإنما اللوحة الأخرى للسيدة التى تستحم، فى حديقة، فهو مكان غريب للاستحمام، وشعرها ملموم لأعلى، وخادمة تحمل فوطة كبيرة جاهزة لها، وعدد من الرجال العجائز ذوى اللحي يتلصصون عليها من بين الشجيرات. وكان يمكن أن أقول من نوع الملابس التى يرتدونها أن الصورة تعود لزمن قديم. قالت نانسى أنها منفذة بطريقة الحفر، وأن الألوان قد أضيفت يدوياً، وأنها نسخة من لوحة مشهورة عن سوزانا والرجال العجائز، وأنه موضوع من موضوعات الإنجيل. وكانت تشعر بالفخر لأنها تعرف كل هذا.

لكنى تضايقت منها بسبب كل ما تعمدته من التعيب والمماحكة، وقلت أننى أعرف الإنجيل من الجلدة للجلدة — ولم يكن هذا بعيداً عن



الحقيقة – وأن هذه القصة ليست فى الإنجيل. ومن ثم فهى لا يمكن أن تكون من موضوعات الإنجيل.

قالت إنها كذلك؛ وقلت إنها ليست كذلك. وكنت أنوى أن أضعها فى اختبار؛ فقالت إن دورى ليس أن أتحدث عن اللوحات، وإنما أن أسوى السرير. وفى تلك اللحظة دخل مستر كينير إلى الغرفة، ولا بد أنه سمع طرفاً من الحديث وهو فى الممر، فقد بدا عليه الابتسام. قال: ماذا، هل تتناقشان فى علم اللاهوت، وفى هذا الوقت المبكر من الصباح أيضاً؟ وأراد أن نحكى له كل ما تكلمنا بشأنه.

قالت نانسى إنه ليس أمراً يضايق نفسه به، لكنه أصر أن يعرف، وقال: طيب يا جريس، أرى أن نانسى تريد أن تحفظ الأمر سراً عني، ولكنك لا بد أن تخبريني؛ وشعرت بالخجل، ولكن فى النهاية سألته إذا ما كانت قصة اللوحة من موضوعات الإنجيل، كما تقول نانسى. وضحك، وقال إذا توخينا الدقة، فلا، إنما هى قصة من كتاب الأبوكريفا. وشعرت بالدهشة، وسألت ما هذا الكتاب، وأظن أن نانسى لم تسمع به أبداً أيضاً. ولكنها شعرت بأنها خارج المناقشة لأنها كانت على خطأ، وكان وجهها يظهر عليه العبوس والامتعاض.

قال مستر كينير أننى كثيرة الأسئلة بالنسبة لصغرى، وأنه سرعان ما سوف يكون لديه أكثر الخاديات علماً فى ريتشموند هيل، وأنه سوف يضطر لوضعى فى عرض عام، وأخذ النقود ممن يتفرج، مثل الخنزير الذى يفهم الحساب فى تورنتو. ثم قال إن الأبوكريفا هو كتاب وضعت فيه كل القصص التى رويت أيام الإنجيل، وقرروا أنها لا يجب أن توضع فى الإنجيل. وقد أدهشنى هذا بشدة، وقلت: من الذى قرر؟ لأننى

دائماً ظننت أن الله هو الذى كتب الإنجيل، ونحن نقول عنه "كلمة الله"، وكل شخص يعرف أنه كذلك.

فابتسم، وقال أنه رغم أن الإنجيل هو كلمة الله، إلا أن من كتبه على الورق هم الناس، وهو أمر مختلف قليلاً. لكن هؤلاء الذين كتبوا الإنجيل قيل أنهم تلقوا الوحي؛ وهذا يعنى أن الله تكلم إليهم، وأخبرهم بما يجب فعله.

فسألت: هل كانوا يسمعون أصواتاً؟ فقال نعم. وأسعدنى أن أعرف أن آخرين حدث لهم نفس الشيء، رغم أننى لم أذكر شيئاً عن ذلك، وعلى أية حال فإن الصوت الذى سمعته، فى تلك المرة، لم يكن صوت الله، وإنما كان صوت مارى هويتنى.

وسأل إن كنت أعرف قصة سوزانا، فقلت لا، فقال أنها كانت سيدة صغيرة نسب إليها بعض الرجال العجائز زوراً ارتكاب الخطيئة مع شاب؛ لأنها رفضت أن ترتكب الخطيئة معهم، وقد حكم عليها بالرجم حتى الموت. ولكن، لحسن الحظ، تيسر لها محام ذكى للغاية، والذى استطاع إثبات أن الرجال العجائز كانوا يكذبون، عندما دفعهم إلى تقديم دليل مناقض لما قالوه. ثم قال ما هى الحكمة التى تعلمتها من ذلك؟ فقلت أن الحكمة هى أنك لا يجب أن تأخذ حماماً فى الحديقة بالخارج؛ فضحك، وقال إنه يظن أن الحكمة هى أنك بحاجة إلى محام ذكى. وقال لنانسى، هذه الفتاة ليست ساذجة على أى حال؛ وهو ما فهمت منه أنها كانت تقول له أننى ساذجة. ونظرت لى نانسى شزراً.

ثم قال أنه وجد قميصاً مكويًا وموضوعاً بزرار ناقص؛ وأنه من المزعج جداً أن يلبس قميصاً نظيفاً، ليجد أنه لم يلق إعداداً لائقاً بسبب

نقص زرار؛ ومن فضلنا أن نهتم بالأمر يحدث ذلك مرة أخرى. وأخذ صندوق السعوط الذهبى، والذي جاء فى الأصل من أجله، وخرج من الغرفة.

والآن، أصبحت نانسى مخطئة مرتين، لأنها هى التى غسلت القميص وكوته، قبل أن أقرب أى شىء هنا؛ ومن ثم فقد أعطتني قائمة من أعمال البيت فى طول ذراعك، وخرجت مندفعة من الغرفة ونزلت السلم، وخرجت إلى الفناء، وبدأت تكيل الإهانة لمكدرموت لأنه لم ينظف حذاءها كما يجب فى هذا الصباح.

قلت لنفسى يبدو أن هناك مشاكل فى الأفق، وأنى قد أضطر إلى أن أمسك لسانى؛ لأن نانسى لم تكن تحب أن يتجاوزها أحد، وخاصة أنها لم تكن تحب أن يوبخها مستر كينير على خطأ ما.

عندما اتفقت نانسى معى وأنا فى بيت آل واطسون، ظننت أننا سنكون مثل الأختين، أو على الأقل صديقتين، نعمل معاً جنباً إلى جنب، مثلما كنت أفعل أنا ومارى هويتتى. ولكن الآن عرفت أن الأمور لن تكون كما ظننت.

كنت فى هذا الوقت قد أمضيت ثلاث سنوات فى عملى كخادمة، وأصبح يمكنى أن أؤدى دورى جيداً. لكن نانسى كانت كثيرة التغير، كانت كما يقال هوائية، ولم يكن من السهل أن تعرف ماذا كانت تريد بين لحظة وأخرى. فى لحظة، تنفخ شديقها وتأمرو وتتهى وتبحث عن الأخطاء، وفى الدقيقة التالية، تكون أفضل صديقة، أو تتظاهر بذلك، وتضع ذراعها فى ذراعى، وتقول أنى أبدو متعبة، وأنى يجب أن أجلس معها لنتناول كوباً من الشاى. ومن الصعب العمل مع مثل هذه الشخصية، فبمجرد أن تتحنى احتراماً وتوقيراً لها، تلتفت وتوبخك على كل هذا التصرف الرسمى الجاف، وتريد أن تضع ثقته فىك، وتتوقع أن تضع ثقته فىها بالمقابل. ولا يمكنك أن تعرف أبداً التصرف الصحى الذى يرضيها.

كان اليوم التالى يوماً صافياً جميلاً عليل النسيم، ومن ثم قمت بالغسيل، وكان ذلك هو الوقت المناسب فعلاً لأن الأشياء النظيفة كانت تكاد تنتهى. وكان عملاً حاراً جداً، فقد اضطررت للإبقاء على النار فى المطبخ الصيفى موقدة على أعلى درجة؛ ولم تكن لدى فرصة لتصنيف الغسيل ونقه فى الليلة السابقة، لكنى لم أرد المخاطرة بالانتظار، لأنه فى مثل هذا الوقت من العام يمكن أن يحدث تغير كبير فى الطقس. ومن ثم قمت

بالدعك والتنظيف وأخيراً نشرته كنه. مع وضع مناديل الجيب البيضاء وفوط السفرة مفرودة جيداً على الحشائش لتبييضها. كان بها بقع من أثر التمخط، وبقع حبر، كما كانت هناك بقع من الحشائش على إحدى تتورات نانسي الداخلية - وتعجبت كيف حدث ذلك، ولكنها على الأغلب تعثرت ووقعت - وكذلك كان ثمة بقع عديدة من العفونة، على الأشياء التي تركت في الرطوبة أسفل كومة الثياب؛ وبعض بقع النبيذ على أحد مفارش المائدة، ربما من حفل عشاء، ولم يتم تغطيتها بالملح في الوقت المناسب، فقد كان يجب ذلك، ولكن بفضل سائل التبييض الجيد المصنوع من محلول قلوبى وكلوريد الليمون، وهو أمر تعلمته من الغسالة في منزل مسز ألدرمان پاركينسون، تمكنت من القضاء على معظم البقع وتركت لضوء الشمس باقى العمل.

وقفت لحظة معجبة بعملى اليدوى، فهناك الكثير من السعادة عندما تنتظر إلى الغسيل، وقد أصبح نظيفاً كله ويتأرجح بفعل الرياح مثل الأعلام في السباق، أو مثل أشرعة السفن، وصوته يشبه تصفيق أيد سماوية يأتى من بعيد. ويقولون أن النظافة من الإيمان؛ وأحياناً، عندما أرى السحب البيضاء النقية تمور في السماء بعد المطر، أفكر أن الملائكة يقومون بنشر غسيلهم، لأننى فكرت أنه لا بد من وجود من يفعل هذا، فكل من في السماء لا بد أن يكون نقيًا ونظيفًا. ولكن هذه الأفكار كانت خيالات طفولية، فالأطفال يحبون أن يحكوا لأنفسهم حكايات عن الأشياء التي لا يرونها؛ وأنا في ذلك الوقت لم أكد أزيد كثيراً عن طفلة، رغم أننى كنت أظن نفسى امرأة كاملة النضج، لأن لى نقودى التي كسبتها بنفسى.

وأنا أقف هناك، جاء چيمى وولش من خلف ركن البيت، وسأل إذا كان هناك أية مشاوير مطلوبة، وقال لى، بخجل شديد، أنه إذا أرسله

مستر كينير أو نانسي إلى القرية؛ وإذا كان ثمة شيء صغير أريده، فسوف يسعده أن يشتريه ويحضره لي إذا كنت سأدفع له النقود. ورغم أنه كان يتصرف بصبيانية، كان مهذبًا كما ينبغي، حتى أنه رفع قبعته، والتي كانت قبعة قديمة من القش، وفي الغالب كانت لأبيه من قبل، فقد كانت تبدو كبيرة للغاية عليه. قلت أن ذلك ذوق منه، وأنتى لا أريد شيئًا في الوقت الحالى. ثم تذكرت أنه لا يوجد فى البيت مرارة عجل، لتثبيت الصبغات أثناء الغسيل، وأنتى سوف أحتاج بعضها للألوان الداكنة؛ لأن الأشياء التى غسلتها فى ذلك الصباح كانت كلها بيضاء. فذهبت معه إلى نانسي، وكان لديها عدد من المطلوبات ليشتريها، ورسالة لمستر كينير ليقوم بتسليمها إلى صديق من السادة يسكن فى الجوار، وهكذا انطلق جيمي لأداء المطلوب.

قالت له نانسي أن يعود بعد الظهر ويحضر الفلوت معه، وعندما ذهب قالت أنه كان يعزف بشكل رائع والاستماع له ممتع. وكانت قد عادت إلى الحالة الطيبة الآن، وساعدتني فى إعداد الغداء، الذى كان وجبة باردة معدة من لحم فخذ الخنزير والمخللات، وسلطة من حديقة المطبخ، حيث كان يوجد خس وبصل ناضج يمكن استخدامه. ولكنها أكلت فى غرفة الطعام مع مستر كينير، كما فى اليوم السابق، وكان على أن أكتفى بصحبة مكرموت على الغداء.

من غير المريح أن تراقب شخصًا آخر يأكل، والاستماع إليه أيضًا، خاصة إذا كان لديه ميل إلى الاتهام؛ لكن لم يكن يبدو أن مكرموت يحب الحديث، وقد انقلب إلى حالة التجهم؛ ومن ثم فقد سألته إن كان يستمتع بالرقص.

قال بتوجس: ما الذى يجعلك تسألين هذا السؤال؟ ولم أكن أريد أن أبوح بما كنت أسمعه خفية وهو يتمرن، فقلت أنه معروف عنه أنه يجيد الرقص.

فقال من المحتمل أنه يجيده ومن المحتمل أنه ليس كذلك، ولكن بدا عليه السرور، ثم بدأت أسحبه ليتحدث، وسألته عن حياته قبل أن يأتى للعمل عند مستر كينير. فقال، من يمكن أن يهتم بسماع شىء عنها؟ فقلت أنى أحب ذلك، فكل هذه القصص تثير اهتمامى، وسرعان ما بدأ يحكى.

قال أنه من عائلة محترمة، من ووترفورد جنوب أيرلندا، وأن أباه كان يشرف على الشؤون المالية لأحد الأثرياء، لكنه هو نفسه كان وغداً ذميماً، ولم يكن أبداً ممن يلحقون أذى الأثرياء، ودائماً ما كان يقع فى المشاكل، وكان يظهر أنه فخور بذلك. وسألته إن كانت أمه حية، وقال أن حياتها أو موتها سواء بالنسبة له، فقد كانت ترى فيه رأياً سيئاً، وقالت أنه سوف يذهب إلى الجحيم رأساً، وإذا كانت ميتة فهو لا يعرف ولا يهتم. ولكن صوته لم يكن بمثل ثبات كلماته.

هرب من المنزل فى سن صغيرة، والتحق بالجيش فى إنجلترا، بعد أن ادعى أنه أكبر ببضع سنوات عن سنه الحقيقية، ولكن حياة الجيش كانت صعبة جداً عليه، كثير من الضبط والربط والمعاملة القاسية، فهرب، واختفى فى سفينة متجهة إلى أمريكا، وعندما اكتشفوه جعلوه يعمل طوال الرحلة بدلاً من الأجر، ولكن السفينة وصلت إلى الشاطئ الكندى بدلاً من الولايات المتحدة. فحصل على عمل فى المراكب التى كانت تبحر ذهاباً وإياباً فى نهر سان لورنس، ثم عمل فى قوارب البحيرة، ولقى ترحيباً لأنه كان قوياً جداً ولديه قدرة كبيرة على الاحتمال، وكان يمكنه العمل دون

توقف، مثل الآلة البخارية، وكان ذلك أمرًا طيبًا لبعض الوقت. لكن بعد قليل أصبح الأمر مملًا للغاية، وكان يحب التغيير، فتقدم إلى الجيش مرة أخرى، مع الكتيبة الإسكتلندية الريفية، التي كان لها سمعة سيئة بين الفلاحين، كما عرفت من ماري هويتى، فقد أحرقوا كثيرًا من بيوت الفلاحين أثناء التمرد، وتركوا النساء والأطفال في الجليد بلا مأوى، وأرتكبوا ما هو أسوأ من ذلك معهن، وهى أشياء لم تنشر فى الصحف أبدًا. ومن ثم فقد كانوا طغمة من الرجال المتمردين، الذين يميلون إلى المجون، وإلى لعب القمار وشرب الخمر، وهى أشياء تحدث عنها باعتبارها من فضائل الرجال.

لكن التمرد انتهى فى ذلك الوقت، ولم يعد هناك ما يمكن عمله، ولم يكن مكرموت جنديًا نظاميًا، ولكنه كان يعمل كخادم شخصى لكابتن ألكسندر ماكدونالد. وكانت حياة ناعمة بأجر معقول، وقد أسف عندما تم حل الفرقة، ووجد نفسه فى الطريق. فذهب إلى تورنتو، وعاش عاطلاً فترة على النقود التى ادخرها، ولكن نقوده تناقصت. وعرف أنه لابد أن يبحث عن عمل، وفى بحثه عن الوظيفة ذهب إلى شارع يونج، واتجه شمالاً، وظل ينتقل حتى وصل إلى ريتشموند هيل. وسمع فى إحدى الحانات أن مستر كينير بحاجة إلى رجل، وتقدم وحصل على العمل، وكانت نانسى هى التى استأجرته. وقد كان يظن أنه سوف يعمل فى خدمة الرجل نفسه كما كان يعمل عند الكابتن ماكدونالد، لكن ما ضايقه أن وجد بدلاً من ذلك امرأة تترأس عليه، وامرأة لا تعطيه راحة من لسانها أبدًا، وتبحث عن الأخطاء باستمرار.

صدق كل ما قاله. ولكن فيما بعد، عندما فكرت فى السنوات التى قضاها فى كل ما ذكر، شعرت أنه لابد أن يكون أكبر من الواحدة



والعشرين كما قال بعدة سنوات؛ إما هذا، أو أنه يكذب. وعندما سمعت فيما بعد من الآخرين فى المنطقة، ومن ضمنهم جيمى وولش، أن مكرموت معروف بالكذب والتشوق، لم يكن ذلك مفاجأة لى.

ثم بدأت أفكر أننى أخطأت عندما أظهرت اهتمامى بقصته؛ فقد فهم ذلك خطأ بأنه اهتمام بشخصه. وبعد أن تناول عدة كئوس من البيرة، بدأ ينظر لى نظرات تتم عن المغازلة، وسألنى إن كان عندى حبيب، ففتاة جميلة مثلى لابد أن يكون لها حبيب. وكان ينبغى أن أجيب عندئذ بأن حبيبى طوله ستة أقدام وبطل فى الملاكمة، ولكنى كنت أصغر من أن أفهم هذه المسائل، وبدلاً من ذلك قلت الحقيقة. قلت أنه ليس عندى محبوب، وأضفت أننى ليس لى أية ميول لهذا.

فقال أن ذلك مما يدعو للأسف، لكن كل شىء له بداية ما، وأننى فى حاجة إلى أن أقتحم، مثل المهر، وبعد ذلك سوف أصبح مثل الأخريات، وأنه الرجل المناسب لذلك. وضايقنى هذا الكلام جدًّا، وقمت فى الحال وبدأت أرفع الأطباق بحدة وعصبية، وقلت أننى سوف أشكره لو احتفظ بمثل هذه الملاحظات البذيئة لنفسه، فأنا لست حيواناً. فقال أنه لم يقصد ذلك، وأن هذا كله مزاح، وأنه لم يقصد إلا أن يرى أى نوع من البنات أنا. فقلت أنه مهما كان نوعى فهذا ليس من شأنه، وهو ما جعله يكتئب بشدة، وكاننى أنا التى أهنته، وخرج إلى الفناء، وبدأ يقطع الخشب للنار.

وبعد أن غسلت الأطباق، وهو الأمر الذى يجب أن يتم بعناية بسبب وجود الذباب الكثير، والذى يمكن أن يحط على الأطباق النظيفة إن لم يتم تغطيتها بقماش، تاركاً بقعه القدرة؛ خرجت لأرى مدى جفاف

الغسيل، وأعدت رش المناديل ومفارش المائدة بالماء، لتصبح أكثر بياضا؛ ثم أصبح الوقت مناسباً لنزع قشدة اللبن، وعمل الزبد.

وقمت بذلك في الهواء بالخارج، وأنا جالسة في ظل البيت، وكانت آلة خض الزبد من النوع الذي يعمل ببدال القدم، ولذا كان يمكنني أن أجلس في مقعد وأنا أخض الزبد، وأقوم ببعض الإصلاحات للثياب في نفس الوقت. بعض الناس لديهم خضاضات يمكن استخدام الكلاب في إدارتها، ويكون ذلك بربط الكلب في قفص وجعله يجرى على دواسة تعمل بها المطحنة بوضع فحمة ملتهبة تحت ذيله؛ ولكني أعتبر ذلك قسوة شديدة. وبينما أجلس بانتظار أن يستخلص الزبد، وأقوم بخياطة زرار في أحد قمصان مستر كينير، جاء مستر كينير نفسه عابراً في طريقه إلى الإسطنبول. وحاولت القيام لأقف له، لكنه أمرني أن أظل حيث أنا، فالحصول على زبد جيد أهم بالنسبة له من الرسميات.

وقال: أراك دائماً مشغولة يا جريس. قلت نعم يا سيدي، الشيطان يجد عملاً للأيدي العاطلة. ضحك قائلاً: سوف أصدق أنك لا تقصدينني، لأن يدي عاطلتان جداً، ولكن يبدو أنهما ليستا مغرمتين جداً بالشياطين. وأربكني ذلك، وقلت: أوه، لا يا سيدي، لا أقصدك أبداً. فابتسم، وقال إن احمرار الوجه جميل على المرأة الصغيرة.

ولم يكن هذا سؤالاً يتطلب ردّاً، فلم أقل شيئاً، واستمر هو في طريقه، وبعد قليل جاء ممتطياً تشارلي، واتجه به أعلى الممر. وخرجت نانسى لترى ماذا فعلت مع الزبد، وسألتها أين يذهب مستر كينير، قالت: إلى تورنتو، إنه يذهب إليها كل يوم خميس، ويبقى فيها طوال الليل لبعض العمل في البنك، وبعض المهام الأخرى؛ ولكن أولاً سوف يذهب إلى

كولونيل بريدجفورد، الذى سافرت زوجته وابنتاه أيضاً، ومن ثم يمكنه زيارته بدون إزعاج، ولكن عندما تكون زوجته موجودة لا يستقبله فى بيته.

وأدهشنى ذلك، فسألت لماذا، فقالت نانسى أن مسز بريدجفورد تعتبر تأثير مستر كينير سيئاً، وهى تعتقد أنها ملكة فرنسا، وأن لا أحد يستحق أن يلحق حذاءها؛ وضحكت. لكن لم يكن يبدو عليها السرور.

وسألتها: لماذا، ماذا فعل؟ ولكننى أحسست فى تلك اللحظة بأن القشدة تتحول إلى زبد بالفعل — فقوامها يصبح ثقيلًا — ومن ثم فلم أستمِر فى التساؤل.

ساعدتنى نانسى فى الزبد، فملحنا معظمه، وغطيناها بماء بارد لحفظه، وقمنا بكبس بعضه طازجًا فى القوالب؛ كان هناك قالبان على شكل ورق نباتى، وثالث مصمم على شكل شارة عائلة كينير، والتى تحمل شعار "أعيش بالأمل". قالت نانسى أنه إذا مات الأخ الأكبر لمستر كينير والموجود فى اسكتلندا، والذى كان فى الواقع أخواً غير شقيق، فإن مستر كينير سوف يكون لديه منزل كبير وأراض هناك، ولكنها قالت أنه لا ينتظر ذلك، وأنه يدعى بأنه يعيش حياة سعيدة هكذا، أو أن هذا هو ما يقوله عندما يكون بصحة جيدة. ولكن الواقع أنه ليست هناك مشاعر بينه وبين هذا الأخ غير الشقيق، وهو الأمر المعتاد فى مثل هذه الحالة، وحزرت أن مستر كينير قد أرسل إلى المستعمرات لإبعاده من الطريق.

وعندما انتهينا من الزبد، حملناه تحت إلى القبو ووضعناه فى المكان المخصص للألبان؛ ولكننا تركنا بعض لبن الزبد فوق، لعمل البسكويت منه فيما بعد. وقالت نانسى أنها لا تحب القبو، لأن فيه رائحة

الطين دائماً، وكذلك روائح الفئران والخضر القديمة، وقلت أنه ربما يمكن تهويته جيداً في يوم ما، إذا استطعنا أن نفتح النافذة. وعدنا إلى أعلى، وبعد أن جمعت الغسيل جلسنا بالخارج في الفرانجة نصلح معاً ما يحتاج إلى الإصلاح منه، مثل أفضل صديقتين في العالم. وفيما بعد لاحظت أنها كانت دائماً أنيسة دمثة عندما يكون مستر كينير غير موجود، لكنها تصبح شرسة كالقط عندما يكون موجوداً، وعندما أكون في نفس الغرفة معه، لكني لم أكن أدرك الأمر في ذلك الوقت.

وبينما نحن جالستان هناك، جاء مكرموت، يجرى على قمة سياج الأفاعى المقام من قضبان مشقوقة، رشيقاً كالسنباب، يتلوى ويلف. تعجبت وقلت: ماذا يفعل بحق الله، وقالت نانسي، لا عليك، إنه يفعل ذلك أحياناً، ويقول أن هذا للتدريب، ولكن الحقيقة أنه يريد إثارة الإعجاب، يجب ألا تلقى إليه بالأ. وبالفعل تظاهرت بعدم الاهتمام، لكن بينى وبين نفسي أخذت أرقبه، فقد كان في الواقع شديد الرشاقة، وبعد أن أخذ يجرى أماماً وخلفاً، قفز إلى الأرض، ثم قفز قفزة واحدة فوق السور، واستخدم يداً واحدة فوقه ليتوازن.

ومن ثم فقد كنت أنا أتظاهر بعدم مراقبته، وهو هناك يتظاهر أن لا أحد يراقبه، ويمكن يا سيدى أن ترى نفس الشيء في أي تجمع مهذب من سيدات ورجال المجتمع. فيمكن للمرء أن ينظر إلى كثير من الأشياء من زاوية مائلة، خاصة السيدات، اللاتي لا يردن أن يضبطن متلبسات بالتحديق. ويمكنهن أيضاً أن يرين من خلال الخمار المسدل على وجوههن، أو من خلال ستائر النوافذ، ومن فوق المراوح الورقية، وإنه لمن الطيب أن يستطعن النظر بهذه الطريقة، وإلا لفاتهن الكثير. ولكن

المرأة من نوعنا ليست مضطرة لأن تتعب نفسها بالخمير أو المراوح،  
ومن ثم يمكنها أن ترى أشياء أكثر.

بعد قليل، ظهر جيمي وولش قادمًا من خلال الحقول، وقد أحضر  
معه الفلوت كما طلبت منه نانسي، والتي حبته بحرارة، وشكرته لقدمه.  
ثم أرسلتني لأحضر له كوبًا من البيرة، وبينما كنت أحضره دخل  
مكدرموت، وقال إنه يريد واحدًا أيضًا. ولم أستطع الرفض، وقلت له:  
لم أكن أعرف أن دم القروذ يجرى في عروقك، فقد كنت تقفز مثلهم. وبدا  
عليه الارتباك، فلم يعرف هل يسر لأنني رأيت له لم يغضب لأنني دعوته  
قرداً.

قال أنه عندما يبتعد القط يمكن للفران أن تلعب، وعندما يكون  
مستر كينير في المدينة تحب نانسي أن تقيم حفلاتها الصغيرة، وأنه يظن  
أن الولد وولش سوف يصدر الآن صريراً من صفارته الصغيرة؛ وقلت أن  
هذا صحيح، وأنتى سوف أنصرف كلى للاستمتاع بسماعه، فقال أنه  
بالنسبة لما يفهمه لم يكن ذلك متعة، فقلت أنه وشأنه. وهنا أمسك ذراعى،  
ونظر لى بمنتهى الصدق، وقال أنه لم يكن يقصد الإساءة لى قبلاً، ولكنه  
عاش فترة طويلة بين رجال يتصفون بالخشونة، ولم تكن سلوكياتهم هى  
أفضل ما يمكن أن يتعلمه المرء، ومن ثم فقد اعتاد أن ينسى نفسه، وأصبح  
لا يعرف كيف يتكلم؛ وأنه يتمنى أن أعفر له، وأن نكون أصدقاء. قلت  
أننى كنت دائماً مستعدة لأن أعقد صداقة مع الصادقين والمخلصين؛ أما من  
ناحية الغفران، أليس مكتوباً فى الإنجيل؟ ومن المؤكد أننى أتمنى أن  
أستطيع أن أعفر، فأنا نفسى أتمنى أن يُغفر لى فى المستقبل. وقد قلت ذلك  
بمنتهى الهدوء.

بعد ذلك أخذت البيرة إلى الفراندة الأمامية، وبعض الخبز والجبن  
لنتناول عشاءنا معها، وجلست هناك مع نانسي وچيمي وولش بينما كانت  
الشمس تغرب، وأصبحت الخياطة غير ممكنة في العتمة. وكان مساء  
جميلاً لا تفسده الرياح، وكانت الطيور تغرد، ولمعت الأشجار في بستان  
الفواكه بلمعة ذهبية في ضوء الشمس الغاربة، وكانت الزهور القرمزية  
النامية بجوار الطريق تبعث رائحة زكية، وكذلك زهرات الفاوانيا القليلات  
الباقيات بجوار الفراندة، والورود المتسلقة، ونزلت برودة لطيفة في الهواء،  
بينما جلس چيمي يلعب على الفلوت، وكان عزفه بسيطاً يمس القلب. بعد  
قليل جاء مكرموت يتسكع حول البيت مثل ذئب مروض، واستند على  
جانب البيت، وأخذ يسمع أيضاً. وهكذا قضينا تلك الأمسية الجميلة في نوع  
من الانسجام، حتى أنني شعرت بألم في قلبي، كما يحدث عندما لا يمكنك  
أن تعرف هل أنت سعيد أم حزين، وفكرت أنني لو كان لي أن أتمنى، فإن  
ما أتمناه هو ألا يتغير هذا الحال، وأن نبقي فيه إلى الأبد.

ولكن الشمس لن يوقفها عن الاستمرار في مسارها إلا الله، وهو  
لم يوقفها إلا مرة واحدة، ولن يوقفها مرة أخرى حتى نهاية العالم؛ وفي  
تلك الليلة، غربت كما اعتادت، تاركة وراءها لونا أحمر قانياً؛ وللحظات،  
غرقت مقدمة المنزل في لون قرمزي بتأثير هذا الغروب. ثم في الغسق،  
خرجت ذبابات النار، فقد كان موسمها في ذلك الوقت من السنة، وظهرت  
تومض بين الشجيرات والحشائش، مثل نجوم تومض من خلال السحب.  
وأمسك چيمي وولش بواحدة في كأس زجاجي، وأمسكه وهو يغلق قمته  
بيده، لأستطيع أن أراها عن قرب، كانت تومض ببطء، بنار باردة  
مخضرة؛ وفكرت أنني لو استطعت أن يكون عندي ذبابتان من ذبابات

النار في أذنى، بدلاً من القرط، فسوف تكونان أحلى كثيراً من قرط نانسي الذهبى، ولن أشغل بالى به بعد الآن.

ودخل الليل علينا، وتصاعدت العتمة من خلف الأشجار والحشائش، ومن الحقول، وطالت الظلال وتلاصقت؛ وفكرت أنها تبدو مثل الماء، يصعد من الأرض ثم يرتفع ببطء مثل البحر؛ وشرد ذهنى فيما يشبه الحلم، فإذا بالذاكرة تعود بى إلى وقت عبورنا المحيط الهائل، وكيف أنه فى مثل هذا الوقت من اليوم كانت السماء والبحر يسطبغان بذلك اللون القاتم المزرق، ويتداخلان حتى لا يمكنك أن تفرق بين نهاية البحر وبداية السماء. وفى بحر الذاكرة، طفت صخرة جليدية بيضاء، كأشد ما يكون البياض، ورغم دفء المساء شعرت برعشة.

فى هذه اللحظة قال جيمى وولش أنه لابد أن يعود إلى البيت، فلا بد أن والده يبحث عنه الآن، وتذكرت أننى لم أحلب البقرة أو أغلق على الدجاجات فى الحظيرة، وأسرعت لأقوم بذلك فى آخر بصيص من الضوء. وعندما عدت إلى المطبخ، كانت نانسى لا تزال هناك، وقد أوقدت شمعة. سألت لماذا لم تذهب إلى الفراش، فقالت أنها تخاف النوم وحدها ومستتر كينير ليس فى البيت، وسألتنى إذا كان يمكن أن أنام بالطابق الأعلى معها.

قلت لا مانع، ولكنى سألتها مم تخاف.. هل تخاف اللصوص؟ أم تخاف ربما من جيمس مكرموت؟ ولكنى كنت أمزح حين قلت ذلك.

قالت بمكر أنها لو كان لها أن تحكم بنظرة عينيه، فإن هناك أكثر من سبب يجعلنى أخافه أكثر مما تفعل، إلا إن كنت بحاجة إلى عاشق جديد. فقلت أننى أخاف الديك العجوز فى حظيرة الدجاج أكثر مما أخاف

منه، أما مسألة العشاق، فإن حاجتى إليهم لا تزيد عن حاجتى إلى الرجل  
الذى يبدو خياله فى البدر التمام.

وضحكت، وصعدنا معاً للنوم كصديقتين حقيقتين، لكنى قمت  
أولاً بالتأكد من إغلاق مصاريع الأبواب جيداً.



**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesamh.com/vb](http://www.ibtesamh.com/vb)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

الفصل الثامن

الثعلب والإوز



كان كل شيء يسير بهدوء تام لمدة أسبوعين، فيما عدا توبيخ مدبرة البيت لمكدرموت لأنه لا يؤدي عمله كما يجب، وأعطته إنذارًا بالفصل بعد أسبوعين... وبعد ذلك قال لى مرات كثيرة أنه سعيد لأنه سيذهب، حيث لا يريد أن يعيش أكثر من ذلك مع قطعة الـ ...، ولكنه سوف ينتقم لإهانتته قبل أن يذهب، وقال لى أنه متأكد أن مستر كينير ومدبرة المنزل، نانسى ينامان معًا. وقد عازمت على معرفة الحقيقة، وبعد ذلك اقتنعت بأن هذا هو ما يحدث، لأن سريرها فى الصباح كان لا يدل على أحدًا نام فيه أبدًا، إلا فى الليالى التى كان فيها مستر كينير غائبًا، وفى هذه الحالة كنت أنا أنام معها.

اعتراف جريس ماركس

*Star and Transcript*، تورنتو، نوفمبر ١٨٤٣

كانت جريس ماركس... فتاة جميلة، وشديدة الإتقان فى عملها، ولكن لها طبيعة صامته متجهمة. وكان من الصعب للغاية معرفة ماذا يسرها ... بعد انتهاء العمل اليومي، كنا، أنا وهى، نترك وحدنا فى المطبخ، فمدبرة البيت مشغولة بسيدها تماماً. كانت جريس تشعر بغيره شديدة من الفرق بين وضعها ووضع مدبرة المنزل، وكانت تكرهها، وكانت دائماً وقحة سليطة اللسان معها. كانت تقول: "ماذا بها أفضل منا؟ لكى تعامل مثل السيدات، وتأكل وتشرب أفضل الأشياء؟ كما أنها ليست من أسرة أفضل، ولا تعلمت تعليماً أفضل..."

"وما تتسم به جريس من شكل جذاب جعلنى أهتم بها وبما تقوله، ورغم أنه كان ثمة شيء فى الفتاة لم أستطع هضمه، فقد كنت شخصاً متمرداً، ماجناً، وإذا كانت المرأة شابة وجميلة، فإننى كنت لا أعير شخصيتها اهتماماً. وكانت جريس شخصية متجهمة ومغرورة، ولم يكن من السهل أن أصل إلى غرضى منها؛ ومن ثم فلكى أكسب ودها، إذا كان ذلك ممكناً، أعطيتها أدناً صاغية تصب فيها كل تبرماتها وتضجرها".

جيمس مكدرموت،

إلى كينيث ماكنزى، كما روته سوزانا مودى،

*Life in the Clearings, 1853*

وعندما بدا لي أنني أعرف بعض المعرفة  
شيئاً من الأعيب سوء الحظ الذي صادفني، يعلم الله متى،  
ربما في كابوس مزعج. انتهى هنا، لبدأ هناك، وعندما  
كنت على وشك الاستسلام لليأس ...  
إذا بي أسمع، مرة أخرى، تكة غامضة ...  
كما لو كان صوت فخ منصوب يغلق على الضحية ...  
... وإذا بك أنت داخل العرين!

روبرت براونينج

“Childe Roland to the Dark Tower Came”, 1855

عندما استيقظت اليوم كان شروق الشمس وريديًا جميلًا، والندى ينزل على الحقول مثل سحابة بيضاء ناعمة من الموسلين، تتألق الشمس خلال طبقاتها، حتى بدا كل شيء غائمًا وورديًا مثل خوذة تتضج على نار هادئة.

في الواقع ليس عندي فكرة كيف كان شروق الشمس اليوم. ففي السجن تكون النوافذ عالية، وأظن أن ذلك لكى لا تستطيع الهروب منها، لكن أيضًا لكى لا يمكنك أن تنظر منها، أو على الأقل لا يمكنك أن ترى العالم بالخارج. فهم لا يريدونك أن تنظر إلى خارج السجن، ولا يريدونك أن تفكر فى كلمة "خارج"، ولا يريدونك أن تنظر إلى الأفق وتفكر أنه ربما يمكنك يوماً ما أن تتهاذى عبره مثل شراع سفينة راحلة، أو فارس على جواد يختفى خلف تل بعيد. ولذا ففي هذا الصباح لم أر سوى الضوء المعتاد، ضوء لا شكل له يأتى من خلال النوافذ المرتفعة ذات اللون الرمادى القذر، كما لو كان يأتى من مصدر لا هو شمس ولا قمر ولا مصباح ولا شمعة. مجرد شقّة من ضوء النهار، تظل هي نفسها لا تختلف منذ تدخل من النافذة حتى تحط على الأشياء، وكأنها دهان لامع.

خلعت منامة السجن، وكانت من نسيج خشن مصفر اللون؛ ولا يجب أن أقول أنها تخصنى، لأننا لا نملك شيئاً هنا، بل نتشارك فى كل

شيء، مثل المسيحيين الأوائل، والثوب الذى ترتديه فى أسبوع ما، ملتصقا  
بجلدك وأنت نائم، ربما كان منذ أسبوعين يلتصق بقلب أسوأ أعدائك، وتم  
غسله وإصلاحه بأيدي آخرين لا يتمنون لك خيراً.

وبينما أرتدى ثيابى وأمشط شعري كان فى رأسى نغم، أغنية  
قصيرة كان يعزفها جيمى وولش أحياناً على الفلوت:

توم، توم، ابن الزمار،  
سرق خنزيراً وهرب بعيداً،  
وكل الأنعام التى كان يستطيع عزفها  
طارت فوق التلال وهربت بعيداً

كنت أعرف أننى لا أذكرها جيداً، والأغنية الحقيقية كانت تقول  
أن الخنزير كان طعاماً وأن توم نال علقه، ثم ذهب يعوى بصوته فى  
الطريق؛ ولكنى لم أقنع إلا بأن أجعلها تخرج بشكل أفضل؛ وطالما أننى  
لا أخبر أحداً بما كان فى عقلى، فلن يطالبنى أحد بالالتزام بالحكاية  
الأصلية، ولن يصح لى أحد، كما أنه ليس هناك من يمكنه أن يقول أن  
الشروق الحقيقى لم يكن يشبه ذلك الذى اخترعته لنفسى، بل مجرد ضوء  
أبيض مصفر، يشبه سمكة ميتة تطفو فى الميناء.

فى مصحة المجانين كان يمكنك على الأقل أن ترى أفضل. وذلك  
إذا لم تكن تقضى عقاباً بالحبس فى غرفة مظلمة.

قبل الإفطار سيقام جلد بالسياط، بالخارج فى الفناء؛ إنهم يفعلونه  
قبل الإفطار، لأن المعاقبين لو أكلوا أولاً، فمن المحتمل أن يتقيأوا طعامهم،  
وهذا يسبب فوضى، كما أنه مضيعة للغذاء الجيد؛ ويقول الحراس  
والحارسات إنهم يحبون أن يمارسوا بعض التمرينات فى هذا الوقت



المبكر، فذلك يفتح شهيتهم. لم يكن هناك شيء غير عادى، فهو مجرد جلد روتينى، ومن ثم لم نؤخذ كلنا لمشاهدته؛ بل أخذوا اثنين أو ثلاثة فقط، وكلهم من الرجال، فالنساء لا يتم ضربهن كثيراً. كان الأول شاباً، عرفت ذلك من نغمة صراخه؛ أستطيع تمييز هذه الأشياء، فقد تدربت عليها كثيراً. حاولت ألا أسمع، وفكرت بدلاً من ذلك فى الخنزير الذى سرقه توم الحرامى، وكيف تم أكله؛ ولكن الأغنية لم تقل من الذى أكله، توم نفسه أم من قبضوا عليه. ارسل لصاً ليمسك بلص، كما كانت مارى هوييتى تقول. وتعجبت، أكان خنزيراً مذبوخاً ليكون أكله ممكناً؟ فى الغالب أنه لم يكن، وفى الغالب أنه كان هناك حبل حول رقبتة، أو حلقة فى أنفه، وأنه جرى مع توم مرغماً. وهذا يبدو منطقياً أكثر، فمن الصعب حمله. وفى الأغنية كلها، كان الخنزير المسكين هو الوحيد الذى لم يرتكب خطأ، ولكنه كان الوحيد الذى مات. وقد لاحظت أن كثيراً من الأغنيات غير منصفة بهذه الطريقة.

أثناء الإفطار، ساد صمت تام إلا من صوت مضغ الخبز وأصوات شرب الشاي، وجرجرة الأقدام، وتتشق الأنوف، وطنطنة قراءة الإنجيل – وكانت اليوم قصة يعقوب وعيسو – والطبخ الذى طبخ، والأكاذيب التى قيلت، والبركة، والبكورية التى بيعت، والخديعة والتمويه الذى مورس، (\*) كل تلك الأشياء التى لم يهتم الرب بها على الإطلاق. وفى

---

(\*) يعقوب وعيسو توأمين لإسحاق من زوجته رفقة. ويقال أن عيسو (التوأم الأكبر)، وكان صياداً ماهراً، عاد ذات يوم من الصيد وهو جائع، ووجد أخاه يعقوب (التوأم الأصغر) يطبخ عدساً، فباعه يعقوب طبق العدس ببكوريته (أى حقه فى الإرث بصفته البكر). ولما شاخ إسحاق، أراد أن يبارك ابنه المفضل عيسو. لكن رفقة (الأم) ساعدت يعقوب على خداع أبيه (بالباسه جلد ماعز ليبدو مشعراً عندما يتحسس الأب، والذى كان أعمى فى هذا الوقت)، فنال يعقوب البركة. وبهذا، أصبح يعقوب، بدلاً من عيسو، وريثاً للعهد الذى منح لإبراهيم وإسحاق.

اللحظة التي كان إسحق العجوز يتحسس ابنه المشعر، والذي لم يكن ابنه في الواقع وإنما جلد ماعز، قرصتني أنى لبتل قرصة مؤلمة في فخذى من تحت المنضدة بحيث لا يراها أحد. كنت أعرف ما ترمى إليه، لقد أرادتني أن أصرخ لكى أعاقب أو يظنوا أنني أصبت بنوبة جنون أخرى، ولكنى كنت مستعدة لها، فقد كنت أتوقع شيئاً من هذا النوع.

وبالأمس، فى غرفة الغسيل، ونحن واقفات عند الحوض، مالت علىّ وهمست فى أذنى: "يا محسوبة الطبيب، أيتها المومس الفاسدة!" فقد شاع الخبر، وعرف الجميع بزيارات د. چوردان، وظن البعض أنني أحظى بالكثير من العناية، وأن هذا جعلنى مغرورة. وإذا فكرن هنا فى شىء كهذا، فسوف يحرصن على إذلالك؛ ولن تكون المرة الأولى، فهن مغتاظات من خدمتى فى منزل المحافظ أيضاً؛ لكنهن يخشين أن يعلن ذلك، اعتقاداً منهن أن بعض من يتولون السلطة يستمعون إلى. ليس هناك مكان تنمو فيه حالات الغيرة والحسد من أشياء صغيرة تافهة مثل السجن، وقد رأيت البعض يلجأن إلى العنف، بل كدن يقتلن بعضهن بعضاً، لأسباب لا تزيد عن التنازع على قطعة جبن.

لكن تجاربنى تمنعنى أن أشكو إلى الحارسات. ليس فقط لأنهن ينظرن إلى مثل هذه الشكوى باحتقار، ويفضلن حياة أكثر هدوءاً لأنفسهن، ولكن أيضاً لأنهن لن يصدقننى، أو يقلن أنهن لا يصدقننى، فالمأمور يقول أن كلام المذنب ليس دليلاً كافياً؛ وفى هذه الحالة أيضاً، من المؤكد أن أنى لبتل سوف تحقق انتقامها منى بطريقة أخرى. يجب أن يتحمل الإنسان كل ذلك بصبر، كجزء من التقويم الذى نخضع له؛ إلا لو وجدت طريقة أخرى للإيقاع بغريمك دون أن يُكتشف الأمر. ولا أنصح بشد الشعر، فالجلبة تأتى بالحارسات، ثم يعاقب الجانبان لإثارة الشغب. يمكن دس بعض القذارة فى

الطعام خلسة باستخدام كم الثوب، كما يفعل السحرة، وهو أمر يمكن إنجازه بدون جلبية، ويمكن أن يمنح بعض الرضا. لكن أنى ليتل كانت معى فى المصححة، وكانت جريمته قتل رجل، حيث قتلت صبى الإسطبل بلوح من الخشب؛ وقيل أنها كانت تعاني من الاضطراب العصبى، وأرسلت هنا فى نفس الوقت الذى جئت فيه؛ لكن ما كان يجب ذلك، فأنا لا أظن أن عقلها سليم؛ ومن ثم فقد قررت أن أصفح عنها هذه المرة، إلا إذا فعلت شيئاً أسوأ. ويبدو أن القرصة قد أراحتها من مشاعر الغيظ.

ثم جاء موعد الحارسين، والسير معهما والخروج من البوابة. "آه يا جريس، تخرجين فى نزهتك مع العاشقين، كم أنت محظوظة". يقول أحدهما: "بل نحن المحظوظين، نحن الشايبين المحظوظين بالفعل، مع هذه اللقمة الشهية معلقة بذراعينا". ويقول الآخر: "ما رأيك يا جريس، دعينا ننتحى ممرًا جانبيًا، إلى أحد الإسطبلات الخلفية، على الحشائش، لن يستغرق الأمر وقتًا إذا رقدت ساكنة، بل سيأخذ وقتًا أقل إذا كنت تتلوين". ويقول الأول: "ولماذا الرقاد؟ استندى فقط على الحائط، وارفعى ملابسك الداخلية، الأمر أسرع وأنت واقفة، طالما لا تخونك ركبناك؛ هيا يا جريس، فقط اقبلى وسنكون لك، ما الفرق بين رجل وآخر؟ ولماذا تعطين نفسك لرجل واحد وأمامك اثنان؟" يقول الآخر: "على أتم استعداد طوال الوقت، هيا، أعطينا يدك وسوف ترين صدق ما نقول. ولن نأخذ منك بنسًا واحدًا، فالمهم بين الأصدقاء هو قضاء أطيب الأوقات!"

أقول لهما: لستما صديقان لي، بكلامكما القدر، إنكما مولودان فى مستنقع قدر، وسوف تموتان فيه أيضًا". يقول الأول "أوه هووو، أنا أحب هذا، المرأة التى تتحلى بروح عالية، ببعض الحرارة، يقولون أنها تأتي من احمرار الشعر". يقول الآخر: "لكن هل هو أحمر فى ذلك المكان أيضًا؟"

إن النار في قمة الشجرة لا فائدة منها، لا بد أن تكون النار في بيت النار لتبت دفناً وحرارة، في موقد صغير، أتعرفين لماذا جعل الله النساء يرتدين تنورات؟ لكي يمكن أن ترفع فوق رؤوسهن وتربط عليها حتى لا تُسمع منهن ضوضاء كثيرة، إنني أكره المومس الصياحة، كان لا بد أن تولد النساء بلا أفواه، فالشيء الوحيد الذي له قيمة في المرأة هو نصفها الأسفل".

أقول، ونحن نسير حول بركة موحلة ونعبر الطريق: "عيب عليكما، كيف تقولان ذلك وكل منكما كانت أمه امرأة، أو على الأقل هذا هو المفترض". يقول الأول "يا لها من تعسة، الساحرة العجوز الفاجرة، فالجزء الوحيد الذي كانت تتمنى أن تراه مني هو مؤخرتي العارية وقد احمرت من الضرب، إنها تحترق الآن في جهنم، ولا يؤسفني إلا أن هذا لم يحدث بيدي أنا، وإنما بيدي بحار حاولت أن تتشل ما في جيبه، فضربها ضربة قاتلة بزجاجة على رأسها". يقول الآخر "حسناً، أمي أنا كانت ملاكاً بكل تأكيد، قديسة على الأرض حسب نظرتها هي نفسها لنفسها، ولن تسمح لي أبداً بنسيان ذلك، والواقع أنني لا أعرف أيهما الأسوأ".

يقول الأول "أنا فيلسوف، أحب الوسط في كل شيء، لا أحب النحافة الزائدة، ولا أحب السمنة الزائدة، وأحب ألا أضيع نعمة الله هباءً، ومن نعم الله يا جريس، أنك ثمرة ناضجة أن قطافها، فلماذا تبقىين على الشجرة دون أن يتذوقك أحد، والنتيجة الوحيدة لذلك هي السقوط على الأرض والعفن". يقول الآخر "عندك حق، لماذا نترك اللبن في الإناء حتى يفسد، إن البندقة الطيبة يجب كسرها وهي لا تزال طيبة، وليس أسوأ من بندقة قديمة عفنة. تعالى، إن لعابي يسيل عليك بالفعل، إنك قادرة على تحويل الرجل الطيب إلى وحش، إنني أهفو إلى القبض عليك بأسناني،

يمكن أن تقولى قضة رفيقة، قضة صغيرة من طرف الفخذ، لن تخسرى شيئاً، فلدك ما يكفى ويفيض". يقول الأول "هذا صحيح، أنظر، إن لها خصرًا كفرع الصفصاف، لكن هذا الخصر محمل تحته بدهون كثيرة، هذا كله من الطعام الطيب فى السجن، فهى تتغذى على الكريمة، ألا تحب أن تجرب ملمسها، هذا ورك يصلح لمائدة البابا". وبدأ يتحسس وينخس بيده التى تخفيها طيات تنورتى.

قلت وأنا أشد نفسى بعيداً عن يده: "سوف أكون شاكرة لو التزمت بعدم تخطى حدود السلوك المهذب". يقول الأول "أنا مخلوق لتخطى الحدود، فأنا جمهورى حتى النخاع، إذ لا أشعر نحو ملكة إنجلترا إلا بالميل الذى وضعته الطبيعة فى الرجل نحو المرأة. وهى على كل حال، لها ثديان جميلان على صدرها، وأنا على أتم استعداد للقيام بواجب اعتصارهما بيدي متى تطلب ذلك، وليس لها ذقن إطلاقاً، مثل البطّة؛ ما أريد قوله هو أنه ليس ثمة رجل أفضل ممن سيأتى بعده، والمشاركة هى المشاركة، لا أحد أفضل من الآخر؛ وما دمت قدمت نفسك لواحد منا نحن الرجال، فلماذا لا يستطيع الآخرون أن يأخذوا دورهم كما فى الديمقراطية الحقيقية، ولماذا يُسمح لذلك القزم الصغير مكدر موت بالاستمتاع بما يُنكر على من هم أفضل منه؟"

يقول الآخر "نعم، لقد سمحت له بتخطى كل الحدود، وأنت بلا شك قضيت وقتاً ممتعاً أيضاً، وقضى هو الليل بطوله يتفصد عرقاً فى الفندق فى لويستون لا يتوقف إلا لينعش نفسه، فهم يقولون أنه كان بطلاً رياضياً، وأنه كان بارعاً فى استخدام الفأس أيضاً، وكان يمكنه تسلق الحبل مثل القرد". قال الآخر "عندك حق، وأخيراً حاول الماكر أن يتسلق إلى السماء، وانتهى بقفزة عالية فى الهواء حيث بقي معلقاً هناك ساعتين،

ولم يتمكن أحد من إقناعه بالنزول طوعاً مهما حاولوا النداء عليه، واضطروا لإنزاله بأنفسهم. وبينما كان معلقاً هناك، كان يرقص رقصة خفيفة مع ابنة صانع الحبل المشنوق به، رقصة حيوية مثل ديك قطعت رقبتة، وكان مشهداً يفرح القلب.

قال الأول "وقالوا أنه كان بعد ذلك جامداً كلوح الخشب، لكن ليس هذا ما تحبه السيدات". وهنا ضحكا كثيراً، وظنا أنهما قالاً أفضل مزحة في العالم، لكن هذا كان قسوة منهما، الضحك على رجل لا لشيء إلا لأنه ميت؛ وهو أيضاً فآل سيئ، لأن الموتى لا يحبون أن يصبحوا موضع سخرية؛ وأكدت لنفسى أن لهم طرقهم الخاصة لحماية أنفسهم من جرح كرامتهم، ولابد أنهم سينتقمون من الحارسين فى الوقت المناسب، سواء أثناء حياتهما فوق الأرض أو بعد أن يدفنا تحتها.

قضيت الصباح أصلح بعض الدانتيل الأبيض الخاصة بميس ليديا، كانت قد تمزقت أثناء إحدى الحفلات؛ إن طباعها أميل لعدم الاكتراث بملابسها، ويجب أن يقال لها إن ثياباً جميلة كثيابها لا تنمو على الأشجار. وكان إصلاح الدانتيل عملاً دقيقاً ومتعباً للعينين، ولكنى أنجزته أخيراً.

جاء د. چوردان كالعادة بعد الظهر، وبدا عليه الإرهاق، وكذلك شرود الذهن. لم يحضر لى أى ثمرة معه، ليسألنى بماذا تذكرنى؛ وقد أدهشنى ذلك قليلاً، فقد اعتدت أن ذلك أصبح جزءاً من الأمسية، وكنت أستمتع بمحاولة أن أحزر ماذا سيحضر فى المرة القادمة، وماذا يريدنى أن أقول عنه.

ولذلك قلت له: ليس معك شىء اليوم يا سيدى.

فقال متسائلاً: أى شيء، يا جريس؟

قلت: أى حبة بطاطس أو جزر أو بصل أو بنجر.

قال: نعم يا جريس، فقد قررت أن أتبع طريقة مختلفة.

قلت: وما هى يا سيدى؟

قال: قررت أن أسألك، ماذا تحبين أنت أن أحضر لك معى.

قلت: حسناً يا سيدى. إنها بالفعل طريقة مختلفة. لا بد أن أفكر فى

الأمر.

قال أنه يرحب بأن أفعل ذلك؛ وأضاف: وفى الأثناء، هل رأيت أية أحلام؟ ولأنه كان يبدو بائساً ومرتبكاً، ولأننى شعرت بأن الأمور ليست على ما يرام معه، فلم أقل أننى لا أستطيع التذكر. وعلى العكس، قلت أننى بالفعل رأيت حلماً. فقال وهو يعبث بقلمه وبدا عليه الانتعاش: وماذا رأيت فى هذا الحلم؟ قلت له أنه كان حلماً عن الزهور؛ وكتب ذلك بانشغال، وسألنى أى نوع من الزهور. قلت أنها كانت زهوراً حمراء، وكبيرة جداً، بوريقات لامعة مثل زهور الفلوانيا. لكنى لم أقل إنها كانت من القماش، ولا قلت متى رأيتها آخر مرة؛ ولا قلت أنه لم يكن حلماً.

وقال هو: وأين كانت هذه الزهور؟

قلت: هنا.

قال وقد بدا عليه الانتباه الشديد: هنا، فى هذه الغرفة؟

قلت: لا، بالخارج فى الفناء، حيث نخرج للتمشية. وكتب ذلك

أيضاً.

أو أنني أفترض أنه كتب. لا أستطيع أن أتأكد، لأنني لا أرى أبدًا ما يكتبه؛ وأحيانًا أتخيل أن ما يكتبه أيًا كان، لا يمكن أن يكون هو ما يخرج من فمي، فهو لا يفهم الكثير مما أقول، رغم أنني أحاول أن أوضح كلامي قدر ما أستطيع، وكأنه أصم لم يتعلم بعد قراءة الشفاه. ولكنه في أوقات أخرى يبدو عليه الفهم التام، رغم أنه، شأن معظم الرجال من علية القوم، يريد في الأغلب أن تدل الأشياء على معان أكثر مما تحتمل.

عندما انتهى من الكتابة، قلت: لقد فكرت في الشيء الذي أريدك أن تحضره المرة القادمة، يا سيدى.

قال: وما هو يا جريس؟

قلت: فجلة.

أجاب: فجلة، فجلة حمراء؟ ولماذا اخترت الفجل؟ وتجهم وكان الأمر يحتاج لتفكير كبير.

قلت: حسنًا يا سيدى، إن الأشياء الأخرى التي أحضرتها لم تكن للأكل، أو هكذا بدا الأمر؛ لأن معظمها يحتاج لأن يُطهى أولاً؛ وكنت تأخذها معك، إلا التفاحة التي أحضرتها في أول يوم، وكانت تفاحة جميلة جدًا أيضًا. لكني فكرت أنه إذا أحضرت لي فجلة، أستطيع أكلها دون إعداد؛ وهذه الأيام موسم الفجل؛ ونادرًا ما نحظى بشيء طازج في الإصلاحية، وحتى عندما أكل في مطبخ هذا المنزل، لا أستطيع أن آخذ من هذه الأشياء الطازجة، فهي تخصص للعائلة. ومن ثم سوف تكون هدية نادرة، وسوف أعتبر أنه منتهى العطف منك إذا أحضرت لي أيضًا بعض الملح.



خرجت منه تنهيدة، أو ما يشبه التنهيدة، ثم قال: هل كان لديهم  
فجل في منزل مستر كينير؟

قلت: نعم يا سيدى، بالطبع، لكن فى الوقت الذى وصلت فيه إلى  
ذلك المكان كان الموسم قد قارب نهايته، فأحسن الفجل يكون فى بداية  
الموسم، لأن الفجل يصبح ناعماً ويصاب باليرقات عندما يدخل الحر، ثم  
يبدأ فى إنتاج البذور.

ولم يكتب هذا.

وقال وهو يستعد للرحيل: أشكرك لإخبارى بحلمك يا جريس.  
ربما تحكين لى حلمًا آخر قريبًا. فقلت: نعم، ربما يا سيدى. ثم أضفت:  
سوف أحاول جهدى أن أتذكر الأحلام يا سيدى، إذا كان ذلك يساعدك فى  
التغلب على متاعبك، ذلك أنه بدأ منحرف المزاج وشعرت بالشفقة عليه.  
قال: ما الذى يجعلك تظنين أنى أعانى من متاعب يا جريس؟ فقلت: إن  
الإنسان الذى جرب المتاعب والمعاناة، يحس بمشاعر الآخرين عندما  
يكونون فى حالة معاناة يا سيدى.

قال أن هذا دليل على تفكيرى الطيب، ثم تردد لحظة، كما لو كان  
يريد أن يقول المزيد، لكنه غير رأيه، وأوماً برأسه محيياً، نفس الإيماءة  
الخفيفة دائماً عندما يكون بسبيله للخروج.

لم أكن قد انتهيت من قطعة الغطاء التى أصنعها كل يوم، فهو  
لم يبق فى الغرفة معى طويلاً كما اعتاد؛ ولذا بقيت فى مكانى، وواصلت  
العمل. وبعد برهة قصيرة دخلت مس ليديا.

قالت: هل رحل د. چوردان؟ قلت نعم. كانت ترتدى ثوباً جيداً ساعدت في خياطته، أرضيته بنفسجية، وبه تصميم أبيض يمثل طيوراً وزهوراً صغيرة، كان لائقاً عليها جداً، وعليه تتورة تشبه نصف قرعة؛ وفكرت أنها في الغالب أرادت أن تظهر بمظهر لائق، بالطبع ليس أمامي وحدي.

جلست في المقعد المواجه لي، حيث كان يجلس د. چوردان، وبدأت تعبت في سلة أدوات الخياطة قائلة: إنني لا أجد كستباني، وأعتقد أنني وضعته هنا. ثم قالت: ياه، لقد نسي المقص، كنت أظن المفترض أنه لا يترك المقص بمتناول يدك.

قلت: إننا لا نهتم كثيراً بذلك، فهو يعرف أنني لن أؤذيه أبداً.

جلست بعض الوقت وسلة الخياطة على حجرها، ثم قالت: هل تعرفين أن لك معجباً يا جريس؟

فكرت أنه قد يكون أحد صبيان الإسطلب أو فتى ما من هذا النوع، والذي قد يكون قد سمع حكايتي فوجدها رومانتيكية، قلت: أوه، من هذا يا ترى؟

قالت: د. چيروم دوپونت، إنه يقيم حالياً عند مسز كوينل. ويقول إنك عشت حياة جديرة بالإعجاب، وأنه يجدهم مثيرة للاهتمام بشكل كبير.

لا أعرف شخصاً كهذا، من علية القوم. وأظن أنه يقرأ الجرائد، وأنه يقوم بجولة هنا، وينظر لي كأحد المعالم التي ينبغي مشاهدتها. قلت هذا بنوع من الحدة، فقد ارتبت في أنها تحاول السخرية مني. لقد كانت محبة للضحك، وأحياناً تبالغ في ذلك.

قالت: إنه رجل جاد في عمله، وهو يدرس التنويم العصبى.

قلت: وما هذا؟

قالت: إنه يشبه التنويم المغناطيسى، ولكنه أكثر التزامًا بالعلم، وهو يختص بالأعصاب. ولا بد أنه يعرفك، أو على الأقل رآك، فهو يقول أنك لا تزالين جذابة. ربما يكون قد مر بك في الطريق وأنت قادمة فى صباح أحد الأيام.

قلت: ربما، وأنا أفكر أى مشهد كنت عليه، مع ابتسامة جانبية  
مشاكسة.

قالت: إن له عينين سوداوين، تخرقان المرء، كما لو كان يمكنه أن يرى دواخلك. لكننى لا أستطيع تحديد مشاعرى نحوه. وهو بالطبع عجوز، إنه مثل ماما والآخرين، وأظن أنه يذهب إلى جلسات المائدة وتحضير الأرواح التى يقومون بها. فلا أعتقد فى هذا، وكذلك د. چوردان.  
قلت: هل قال ذلك؟ إنه رجل يتمسك بالعقل. فمثل هذه الأشياء لا يجب أن نتدخل فيها.

قالت منتهدة: رجل يتمسك بالعقل؟ هذا وصف يوحى ببرود المشاعر. إن التمسك بالعقل من صفات رجال البنوك. ثم قالت: جريس، إنه يتحدث معك أكثر مما يتحدث معنا جميعًا. فأى نوع من الرجال هو؟  
قلت: هو رجل من علية القوم.

قالت باقتضاب: حسناً، أنا أعرف هذا. ولكن كيف هو؟

قلت: أمريكى. وهذا أيضاً كانت تعرفه. ثم قلت متلطفة: إنه يبدو شاباً مثاليًا.

قالت: أوه، أنا لا أريده أن يكون مثاليًا جدًا، فالمبجل قرينجر مثالي جدًا.

وبيني وبين نفسى وافقت على هذا، لكن لأن المبجل قرينجر يحاول أن يحصل لى على عفو، قلت: المبجل قرينجر رجل دين، ومطلوب من رجل الدين أن يكون مثاليًا.

قالت مس ليديا: أظن أن د. چوردان ساخر للغاية، هل هو ساخر أيضاً معك يا جريس؟

قلت: يا أنسة، حتى لو كان كذلك، فلا أظن أننى يمكن أن أعرف. تنهدت مرة أخرى، وقالت: سوف يحضر إحدى أمسيات الثلاثاء التى تقيمها أمى. وأنا لا أحضر هذه الأمسيات فى العادة، فهى لا تثير إلا الضجر، رغم أن ماما تقول أنه ينبغى أن أكون أكثر اهتمامًا بالأمور الجادة التى تعنى برفاهية المجتمع، ويقول المبجل قرينجر نفس الشيء؛ لكنى هذه المرة سوف أذهب، فأنا متأكدة أن الاستماع إلى د. چوردان يتحدث عن المصحات النفسية سيكون أمرًا مثيرًا. رغم أننى أفضل أن يدعونى إلى الشاى فى بيته. مع ماما وماريان، بالطبع، فينبغى أن يكون معى صحبة ممن هم أكبر منى.

قلت: هذا أفضل كثيرًا بالنسبة لفتاة شابة.

قالت: جريس، أحياناً تبدين مثل عجوز بالية. وأنا لم أعد صغيرة، فقد بلغت التاسعة عشرة. وأظن أن هذا لا أهمية له بالنسبة لك،

فأنت فعلت كل شيء، ولكنى لم أذهب إلى شرب الشاي في مسكن رجل من قبل.

قلت: يا أنستى، لا يكفي أن يكون الدافع لفعل شيء هو أننا لم نفعله من قبل. ولكن إذا كانت والدتك ستكون معك، فأنا واثقة أن هذا سيكون أمرًا محترمًا جدًا.

قامت واقفة، وسحبت يدها على طول منضدة الخياطة. وقالت: نعم، سوف يكون أمرًا محترمًا جدًا. وبدا أن هذه الفكرة تشعرها بالإحباط. ثم قالت: هل يمكن أن تساعدني في ثوبي الجديد؟ لأننى سأحضر به جلسة يوم الثلاثاء، وأريد أن أعطى انطباعًا قويًا.

قلت إنه يسعدنى أن أساعدها؛ وقالت إننى كنز، وعبرت عن أملها فى ألا يخرجونى أبدًا من السجن، حيث أنها تريدنى أن أكون موجودة دائماً، لأساعدها فى عمل فساتينها. وأظن أنها كانت تقصد نوعًا من الإطراء.

لكن النظرة التائهة فى عينيها أشعرتنى بعدم الراحة، كذلك النغمة الهابطة لصوتها، وفكرت أن هناك متاعب فى الأفق؛ كما هو الحال دائماً، عندما يقع شخص فى حب من لا يبادلُه نفس الشعور.

فى اليوم التالى يحضر لى د. چوردان الفجلة التى وعدنى بها. إنها مغسولة، وأوراقها قد قطعت، وتبدو ناضرة وطازجة للغاية، وليست مطاطة القوام كما يكون حال الفجل عند تركه طويلاً. وقد نسى الملح، لكنى لا أذكر ذلك، فليس من اللائق أن ينتقص الإنسان من قيمة الهدية. أكل الفجلة سريعاً — فقد علمنى السجن عادة ازدراد الطعام، فلا بد أن يؤكل قبل أن يخطفه أحد — وأتلىذ بطعمه الحاد، الشبيه بطعم أبو خنجر المفلل. وأسأله من أين جاء به؛ فيقول من السوق، رغم أنه كان يخطط لعمل حديقة للمطبخ بنفسه فى البيت الذى يسكن فيه، فهناك مكان يصلح لها، وقد بدأ بالفعل يقلب الأرض. وهذا أمر أغبطه عليه.

ثم أقول: أشكرك من كل قلبى يا سيدى، هذا الفجل كان كرحيق الآلهة. تبدو عليه الدهشة لاستخدامى مثل هذا التعبير؛ ولكن فقط لأنه لا يتذكر أننى قرأت أشعار سير والتر سكوت.

ولأننى وجدت منه كل هذا الاهتمام بإحضاره هذه الفجلة، انصرفت إلى العمل عاقدة العزم على أن أحكى له قصتى، وأن أبذل غاية جهدى لأجعلها مثيرة للاهتمام وممتعة، وكذلك ثرية بالأحداث، كنوع من رد الهدية إليه؛ لأننى دائماً أعتقد أن من يفعل خيراً لا بد أن يجد خيراً مقابله.

أظن يا سيدي أنني توقفت في المرة السابقة عندما كان مستر كينير قد غادر المنزل متوجهاً إلى تورنتو، وجاء جيمي وولش وعزف على الفلوت، وكان غروب الشمس جميلاً، ثم ذهبت لأنام مع نانسي، لأنها كانت خائفة من اللصوص في حال عدم وجود رجل في المنزل. ولم تكن تضع مكرموت في اعتبارها، حيث أنه لا ينام في المنزل نفسه؛ أو ربما أنها لم تكن تعتبره رجلاً، أو ربما كانت تفكر أنه من المحتمل أن يقف إلى جانب اللصوص، لا ضدهم. لكنها لم تقل لي ذلك.

وهكذا صعدنا السلم وكل منا تحمل شمعة. وكانت غرفة نوم نانسي، كما قلت، تقع ناحية الخلف، وكانت أكبر وأجمل كثيراً من غرفتي، لكنها لم يكن لديها غرفة ملابس منفصلة مثلما في غرفة مستر كينير. كان لديها سرير واسع وعليه غطاء جميل، غطاء صيفي ذو ألوان بدرجات القرمزي الفاتح والأزرق الفاتح على أرضية بيضاء، وكان من نموذج "الحقيقية المكسورة". وكان لديها دولاب ملابس رتبت فيه ملابسها، وتعجبت كيف استطاعت أن توفر نقوداً تكفي لشراء كل هذه الملابس؛ لكنها قالت أن مستر كينير يصبح سيداً كريماً عندما يكون في حالة طيبة. وكان لديها أيضاً منضدة زينة لها غطاء مطرز، ببراعم الورد والليلك، وكذلك صندوق من خشب الصندل تحفظ فيه أقراطها وبروش واحد، ومجموعة من علب الكريمات والمساحيق تحفظها في هذا الصندوق؛ فقبل أن تذهب إلى السرير كانت تدهن وجهها كما لو أنه حذاء. كان لديها أيضاً زجاجة من ماء الورد، وجعلتني أجرب بعضها، فوجدت رائحته لذيذة؛ ففي ذلك المساء كانت أكثر توددًا؛ وإناء ملئ بمرهم شعر عطري، دهنت شعرها منه، وقالت أنه يعطي الشعر لمعة، وطلبت مني أن أمشط لها شعرها بالفرشاة، مثلما تفعل الوصيصة للسيدة، وقد فعلت ذلك بكل سرور. كان لها

شعر طويل جميل ومموج، بلون بني غامق. قالت: أوه يا جريس، ذلك يشعرنى بالرفاهية، إن لك لمسة طيبة؛ وشعرت بالفخر. لكننى تذكرت ماري هويتى، وكيف كانت تمشط لى شعرى؛ فأنا فى الواقع لم أنسها لوقت طويل.

وبمجرد أن دخلنا إلى الفراش، قالت بود شديد: ها نحن، ننعّم بالدفء مثل حبتين من البازلاء فى غلافهما. لكنها تنهدت وهى تطفئ القنديل، ولم تكن تنهيدة امرأة سعيدة، وإنما تنهيدة امرأة تحاول أن تسعد بما تيسر لها.

عاد مستر كينير فى صباح يوم السبت. كان يريد العودة فى يوم الجمعة، لكن بعض الأعمال أخرته فى تورنتو، أو هكذا قال؛ وتوقف فى منتصف الطريق فى فندق لا يبعد كثيراً من شمال أول بوابة رسوم على الطريق؛ ولم تكن نانسى سعيدة بسماع ذلك، فهو مكان مشهور بسوء السمعة، وقيل أن به نساء ساقطات، أو هكذا أخبرتنى فى المطبخ.

أجبتها محاولة تهدئتها بأن الرجل من عليه القوم يمكنه أن ينزل فى مثل هذه الأماكن دون أن يخاطر بسمعته. كانت مضطربة للغاية، لأن مستر كينير التقى باثنين من معارفه فى طريق عودته، كولونيل بريدجفورد، وكابتن بويد، ودعاهما على الغداء، وكان اليوم هو موعد مجيء الجزار جيفرسون، لكنه لم يأت بعد، ولم يكن فى المنزل لحم طازج.

قالت نانسى: آه يا جريس، سوف نضطر لذبح دجاجة، اخرجى واطلبى من مكرموت أن يفعل هذا. قلت أننا بالتأكيد سوف نحتاج دجاجتين، لأنه سيكون هناك ستة أشخاص على الغداء، إذا حسبنا السيدات.



لكنها تضايقت وقالت ربما لن تكون هناك سيدات، حيث أن زوجتي هذين السيدين لم تتنازلا أبدًا بإلقاء ظلها على باب البيت، وأنها نفسها لن تأكل معهم في غرفة الطعام، حيث أن كل ما سيفعلونه هو الشرب والتدخين وترديد القصص عن بطولاتهم أثناء التمرد، وربما يبقون طويلاً ويلعبون الورق بعد ذلك، وهو أمر سيئ لصحة مستر كينير، وربما يصاب بكحة، كما يحدث دائماً عندما يأتي هذان السيدان للزيارة. وهكذا أقرت له بضعف البنية عندما كان ذلك يلائمها.

عندما خرجت لتوصيل الأمر إلى جيمس مكدرموت، لم أجده في أى مكان. ناديت عليه، حتى أتى صعدت فوق السلم إلى الغرفة العلوية فوق الإسطبل حيث ينام. ولم يكن هناك؛ لكنه قطعاً لم يهرب، حيث كانت أشيائه على حالها؛ ولا أظن أنه يمكن أن يذهب دون أن يأخذ ما له من أجر. وبينما أنزل على الدرجات وجدت جيمي وولش، ونظر نحوى بفضول، معتقداً أنني ربما كنت أزور مكدرموت، لكن عندما سألته أين مكدرموت، لأننا بحاجة إليه، ابتسم لى مرة أخرى، وتعامل معى بلطف، وقال أنه لا يعرف، وأنه ربما يكون ذهب إلى هارفى، الذى كان شخصاً جلف الطبع ويسكن فى بيت خشبى، أقرب إلى الكوخ، مع امرأة ليست زوجته. وكنت قد عرفتها عن بعد، كان اسمها هانا أوبتون، وكان لها مظهر فظ ويتجنبها الناس عامة. ولكن هارفى كان من معارف مكدرموت — لا أستطيع أن أقول صديق — واعتاد الاثنان أن يشربا سوياً؛ وقال جيمي هل هناك أى مهام لينجزها.

عدت إلى المطبخ وأخبرت نانسى أنني لا أجد مكدرموت، فقالت أنها نالت كفايتها من طبعه الكسول، فهو دائماً يغيب عندما يكون مطلوباً ويتركها فى حالة حرجة، وأنتى سأضطر إلى ذبح الدجاجة بنفسى، قلت

أوه، لا، أنا لا أستطيع فعل ذلك، ولم أفعله من قبل، ولا أعرف كيف؛ كما أنني أشعر بنفور من رؤية دماء أى كائن حى، ولكنى يمكننى أن أنظف الطائر جيداً بعد ذبحه؛ فقالت لى لا تكونى إوزة غبية، وهذا سهل للغاية، فقط أخذ الفأس وأضرب الدجاجة على رأسها ثم أفصل رقبتها.

لكنى لم أكن لأحتمل مجرد الفكرة، وبدأت أبكى؛ لكنها هزنتى بعنف وصفعتنى، وأنا آسفة أن أقول ذلك لأنه من الخطأ أن نقول كلاماً سيئاً عن الموتى، ثم دفعتنى إلى خارج المطبخ، إلى الفناء، وقالت لى ألا أعود بدون الطائر مذبوخاً، وبسرعة أيضاً، فليس لدينا وقت يكفى للتحضير، ومستر كينير يحب وجباته فى مواعيدها.

ذهبت إلى حظيرة الدجاج، وأمسكت بطير صغير سمين، من النوع الأبيض، وكان يصرخ طوال الوقت، وأمسكت به جيداً تحت ذراعى، وذهبت نحو كومة الخشب وكتلة تقطيع الخشب، وأنا أمسح دموعى بمريلتى؛ لأننى لم أكن أعرف كيف يمكننى أن أفعل ذلك. لكن جيمى وولش جاء يتبعنى، وسألنى بلطف ما الأمر؛ وقلت هل يمكن أن يقوم عنى بذبح الدجاجة؛ وقال أنه لا يوجد ما هو أسهل من ذلك، وأنه يسعده أن يفعل ذلك ما دمت بهذه المشاعر المرهفة والقلب الطيب. ومن ثم أخذ الطائر منى وقطع رأسه بحرص وإتقان، فجرى لحظة دون رأس، ثم وقع وهو يفرفر فى الوحل؛ وفكرت أن هذا أمر مثير للأسى بشدة. ثم جلسنا ننتف ريشه سوياً، جالسين متجاورين على السور، ونجعل الريش يتطاير، ثم شكرته بصدق على مساعدته، وقلت أننى ليس لى ما أعطيه له مقابلها، لكننى سوف أتذكر هذا فى المستقبل. فابتسم ابتسامة واسعة مرتبكة، وقال إنه سوف يساعدنى عن طيب خاطر فى أى وقت أحتاج مساعدته.

كانت نانسي قد خرجت ونحن نكاد ننتهي، وكانت تقف عند باب المطبخ وهي تظلل عينيها بيدها، منتظرة بفارغ الصبر إعداد الطائر للطبخ؛ فقامت بتنظيفه بأسرع ما أستطيع، وأنا أحبس أنفاسي من الرائحة، وحافظت على الكبد والقانصة إذ ربما نحتاجها لعمل الصلصة، وشطفتها تحت الطلمبة، ثم جئت بها إلى الداخل. وبينما نحن في المطبخ نحشو الدجاجة قالت: حسناً، أرى أنك فتحت فتحاً، وقلت ماذا تعنى، فقالت: جيمي وولش، إنه يعاني من حالة سيئة من غرام المراهقة، وهو ظاهر تماماً على وجهه، وكان دائماً معجباً بي لكنني الآن أرى أنه تحول إليك. ورأيت أنها تحاول أن تعاملني كأصدقاء مرة أخرى، بعد أن فقدت أعصابها، فضحكت، وقلت إنه ليس لُقطة بالنسبة لي، فهو، رغم أنه طويل بالنسبة لسنة، لا يزال صبيّاً، وشعره أحمر مثل الجزر كما أن وجهه ملئ بالنمش كقشرة البيضة. قالت: حسناً، الدودة دائماً ما تتحول إلى فراشة؛ وهو قول كان غامضاً بالنسبة لي؛ لكنني لم أسألها ماذا تعنى، لكي لا تظنني جاهلة.

كان علينا أن نشعل الموقد جيداً في المطبخ الصيفي، لشئ الدجاجة؛ ومن ثم قمنا بباقي العمل في المطبخ الشتوي. ومع الدجاجة أعدنا طبقاً من البصل والجزر بالكريمة؛ وكان هناك فراولة للتحلية، بالكريمة التي صنعناها بأنفسنا، والجبن الذي صنعناه نحن أيضاً. كان مستر كينير يحفظ النبيذ في القبو، بعضه في برميل، وبعضه في زجاجات؛ وأرسلتني نانسي تحت لإحضار خمس زجاجات منه. لم تكن تحب النزول إلى القبو أبداً؛ كانت تقول أنه ملئ بحشرات العنكبوت.

وبينما نحن كذلك في عجلة من أمرنا، دخل جيمس مكدرموت بخطوة وثيدة، وبيرودة بالغة؛ وعندما سألته نانسي أين كان مختفياً، قال بنبرة دافئة أنه إذ أنهى أعمال الصباح المضجرة قبل أن يذهب، فلا شأن

ملعون لها بأين كان؛ وإذا كانت مصرّة أن تعرف، فقد كان في مهمة خاصة بمستر كينير، كلفه بها قبل رحيله إلى تورنتو، وقالت نانسي أنها سوف تتأكد من الأمر، وأنه ليس من حقّه أن يأتي ويذهب ويختفى من على وجه الأرض في اللحظة التي يكون مطلوباً فيها بشدة؛ وقال كيف له أن يعرف، فليس بمقدوره أن يتنبأ بالمستقبل؛ فقالت أنه إن استطاع ذلك، فسوف يعرف أنه لن يستمر في هذا البيت طويلاً. ولكنها كانت مشغولة في هذه اللحظة، وسوف تتحدث إليه فيما بعد، وأما الآن فعليه أن ينصرف للعناية بجواد مستر كينير، الذي يحتاج إلى العناية بعد الرحلة الطويلة، إذا لم يكن يعتبر أن مثل هذا الأمر يتجاوز مكانة جلالته. وانصرف مكرموت إلى الإسطبل بوجه متجهم.

وصل كولونيل بريدجفورد وكابتن بويد في موعدهما، وتصرفا بالطريقة التي توقعتها نانسي؛ وتصاعدت الأصوات المرتفعة والضحكات الكثيرة من غرفة الطعام، وجعلتني نانسي أقوم بالخدمة على المائدة. فلم تكن تريد أن تفعل ذلك بنفسها، ولكنها جلست في المطبخ، وأخذت كوباً من البيض، وصبت لي واحداً مثله؛ وفكرت أنها كانت ممتعة من هؤلاء السادة. قالت إنها لا تعتقد أن كابتن بويد هو كابتن بالفعل، فبعض الناس حصلوا على مثل هذه الألقاب لأنهم احتضنوا حصاناً بين أرجلهم في يوم التمرد؛ وسألت ماذا بالنسبة لمستر كينير، حيث أن بعض الناس في المنطقة كانوا يدعونه بالكابتن أيضاً؛ وقالت أنها لا تعرف شيئاً عن ذلك، فهو نفسه لم يضع هذا اللقب أمام اسمه بهذه الطريقة، كما أن بطاقات الدعوة الخاصة به يكتب عليها فقط السيد:، ومع ذلك، فإذا كان حاصلاً على لقب كابتن، فلا بد أن ذلك منح له من جانب الحكومة. وكان يبدو أن هذا شيء آخر تمتعض منه.

صبت لنفسها كأساً أخرى من النبيذ، وقالت أن مستر كينير يضايقها أحياناً بسبب اسمها، وكان يسميها المتمردة الغضوب الصغيرة، لأن لقبها، مونتجومري، يشبه لقب جون مونتجومري، الذي كان يملك حانة كان يلتقى فيها المتمردون، وأصبحت الآن حطاماً؛ والذي كان يتباهى بأنه فى الوقت الذى يحترق فيه أعداؤه فى النار، فسوف يكون يدير حانة فى شارع يونج؛ وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد. على الأقل بالنسبة للحانة يا سيدى؛ لكن فى هذا الوقت كان ما يزال فى الولايات المتحدة، إذ هرب بطريقة جريئة من إصلاحية كينجستون. وهكذا يبدو أن الهرب أمر ممكن.

صبت نانسى لنفسها كأساً ثالثة من النبيذ، وقالت أنها أصبحت تزداد بدانة، مهما تفعل، ووضعت رأسها على ذراعيها؛ لكن كان الوقت قد حان لأحمل القهوة إلى غرفة الطعام، ولذا لم أستطع سؤالها لماذا أصبحت بهذا الاكتئاب فجأة. كان الرجال فى غرفة الطعام فى غاية المرح، فقد شربوا الزجاجات الخمس وطلبوا المزيد؛ وتساءل كابتن بويد أين وجدنى مستر كينير، وهل هناك ثمار أخرى تنمو على الشجرة التى جئت منها، وإذا كان الأمر كذلك، فهل وصلن إلى النضج أم ليس بعد؟ وقال كولونيل بريدجفورد ماذا فعلت نوم كينير بنانسى، هل أغلق عليها فى الدولاب حيث يخبئ "حريمه التركى"؛ وقال كابتن بويد أنتى ينبغى أن أنتبه لعينى الزرقاوين الجميلتين، وإلا فقد تنتزعهما نانسى من محجريهما، إذا كان نوم العجوز ينظر لى "من تحت لتحت". كان كل ذلك نوعاً من المزاح المرح، ورغم ذلك فقد كنت أتمنى ألا يكون بمسمع من نانسى.

فى صباح الأحد، طلبت نانسى أن أذهب معها إلى الكنيسة. قلت أننى ليس لى ثوب مناسب، رغم أن هذا كان مجرد حجة — فلم تكن لى الرغبة فى الذهاب، بين الغرباء، وحيث أكون محط النظرات المحدقة.

لكنها قالت أنها سوف تعبرني ثوبًا من ثيابها، وقد فعلت، رغم أنها تعمدت ألا يكون من بين أفضل ثيابها، وليس في جمال الثوب الذي لبسته هي نفسها. وأعارتني بونيه أيضًا، وقالت أنني أبدو لائقة للغاية، وكذلك جعلتني ألبس زوجًا من قفازاتها، غير أنهما لم يكونا مناسبين تمامًا، فقد كانت لنانسي يدان كبيرتان. كما ارتدت كل منا شالًا من الحرير المطبوع.

كان مستر كينير يعاني من صداع، وقال أنه لن يذهب — ولم يكن شديد التدين على أية حال — ولكنه قال إن مكرموت يمكن أن يوصلنا بالعربة، ويعود لإحضارنا فيما بعد، فمن المفهوم أنه لن يحضر القديس، حيث أنه كان كاثوليكيًا، بينما كانت الكنيسة بروتستانتية مشيخية<sup>(\*)</sup>. وكانت هي الكنيسة الوحيدة التي بنيت في المنطقة حتى ذلك الوقت، وكثيرون لم يكونوا من أعضائها، لكنهم كانوا يحضرون القديس باعتبار أن هذا أفضل من لا شيء؛ كما أنها كانت تحتوى المقبرة الوحيدة في المدينة، ومن ثم فإنها كانت تحتكر الموتى كما كانت تحتكر الأحياء.

جلسنا في العربة في حالة طيبة، وكان يومًا مشرقًا وصافيًا، والطيور تغنى، وشعرت بحالة من السلام مع العالم، كما هو الحال كثيرًا معي، وهو أمر كان مناسبًا لذلك اليوم. وإذ دخلنا إلى الكنيسة، وضعت نانسي ذراعها في ذراعي، كتعبير عن الصداقة على ما ظننت. استدارت بعض الرؤوس، لكنني فكرت أن ذلك لأنني جديدة عليهم. كان كل أنواع الناس موجودين هناك، المزارعون الفقراء وزوجاتهم، والخدم، وتجار المدينة، وكذلك أولئك الذين بطريقتهم في التأنق وأوضاعهم في الصفوف

---

(\*) Presbyterian: صفة لكنيسة بروتستانتية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون كلهم بمنزلة متساوية.

الأمامية يعتقدون في أنفسهم أنهم أبناء الطبقة العليا في المجتمع، أو الأقرب إلى هذه الطبقة. جلسنا على الدكك في الخلفية، وهو ما كان الأمر المناسب.

كان راعي الكنيسة يبدو كمالك الحزين، بمنقار أنفه المقوس المدبب، وعنقه النحيل الطويل، وخصلة الشعر النائثة من قمة رأسه. وكان القداس يدور حول موضوع الرحمة الإلهية، وكيف نستطيع أن ننال الخلاص بها وحدها، وليس من خلال أي مجهودات نقوم بها، أو أي أعمال طيبة يمكن أن نبذلها. ولكن هذا لا يعنى أننا يجب أن نتوقف عن القيام بالمجهودات أو التوقف عن الأعمال الطيبة. غير أن المجهودات والأعمال الطيبة لا يمكن الاعتماد عليها، ولا يمكن أن نكون واثقين من أننا قد وصلنا إلى الخلاص بمجرد القيام بها، لأن ذلك يجلب لنا الاحترام؛ فالرحمة الإلهية أمر غامض ملغز، ومن يتلقونها لا يعرفهم إلا الله؛ ورغم أن النصوص المقدسة تقول أنكم "من ثمارهم تعرفونهم" (\*)، فإن الثمار المعنية هنا هي ثمار روحية، لا يراها إلا الله وحده؛ ورغم أننا يجب، وينبغي أن ندعو طلباً لرحمة الله، لا يجب أن يركبنا الغرور الزائف ونصدق أن صلواتنا قد يكون لها أى تأثير، لأن الإنسان يطلب لكن الرب يُقدّر، وأنه ليس لأرواحنا الخاطئة الضعيفة الفانية أن تقرر مسار الأحداث. والأول يمكن أن يكون الأخير والأخير يمكن أن يكون الأول، وبعض من يتدفأون على لهب نيران الدنيا لسنوات كثيرة، سوف يجدون أنفسهم تشويهم نيران أخرى أكثر حرارة بكثير، أكثر مما يتصورون ويطلقون، وأن هناك الكثير من المنافقين يسرون حولنا وفي وسطنا، يبدو ظاهراً البراءة

---

(\* ) إنجيل متى ٧: ١٦.

والطيبة، لكنهم يمثلون بالعفن والفساد من الداخل؛ وينبغي أن نحذر المرأة الجالسة على باب دارها، والتي يحذرنا منها الإصحاح التاسع فى سفر الأمثال، أو من أى من مثلها يمكن أن يحاول إغراءنا بالقول أن المياه المسروقة حلوة، وخبز الخفية لذيذ؛ لأنه كما جاء فى الكتاب المقدس، أن الموتى هناك "وأن فى أعماق الهاوية ضيوفها"<sup>(\*)</sup>؛ وفوق كل شىء ينبغى الحذر من الإغراق فى الرضا عن الذات، مثل العذارى الجاهلات، ويجب ألا نترك مصاييحنا تتطفئ، لأنه ما من إنسان عرف اليوم والساعة؛ وعلينا أن ننتظر فى خوف ورعدة.

واستمر على هذا المنوال لبعض الوقت، ووجدت نفسى أتأمل بونيهات السيدات الحاضرات، بقدر ما أستطيع أن أرى منها من الخلف؛ وكذلك الزهور على الشيلان التى يرتدينها؛ وقلت لنفسى أنك إذا لم تستطيعى الحصول على الرحمة الإلهية بالصلاة والدعاء، ولا بأية طريقة أخرى، أو إذا لم يمكنك أبدًا أن تعرفى إذا ما كنت حصلت عليها أم لا، فربما كان الأفضل أن تتسى الأمر كله، وتستمرى فى شئون حياتك، لأن الوصول إلى اللعنة أو إلى الخلاص لم يعد أمرًا يتعلق بك. ولم يعد من المفيد البكاء على اللبن المسكوب، ما دمت لا تعرفين إذا كان اللبن قد سكب أم لا أصلاً، فإذا كان لا يعرف ذلك إلا الله، فالله وحده يرتب الأمور كما يشاء. ولكن التفكير فى مثل هذه الأمور يجعلنى أشعر بالنعاس، كما أن الراعى كان له صوت رتيب يبعث على النوم، وكنت على وشك أن تسقط رأسى، عندما قمنا كلنا واقفين لننشد "كن معى"، والتى لم يؤدها المصلون بشكل ممتاز، ولكن على الأقل كانت فيها موسيقى، وهى دائماً عزاء.

---

(\*) سفر الأمثال ٩: ١٨.



لم نتلق أنا ونانسي أى نوع من التحية الحارة ونحن نخرج، بل على العكس كان هناك نوع من التجنب لنا؛ لكن بعض الناس الأكثر فقراً هزوا رؤوسهم تحية، وكان هناك تهامس ونحن نمر، وهو أمر وجدته غريباً، فرغم أنهم لا يعرفوننى، فإن نانسي لا بد أن تكون مألوفة لهم، ورغم أن أبناء الطبقة العليا أو من يتخيلون أنفسهم هكذا ليسوا بحاجة إلى أن يهتموا بها، إلا أنها لا تستحق مثل هذه المعاملة من الفلاحين وزوجاتهم، ومن الآخرين الذين كانوا يشتغلون فى أعمال الخدمة. احتفظت نانسي برأسها عالياً، ولم تنظر إلى اليسار أو اليمين؛ وفكرت أنهم أناس باردون ومتكبرون وليسوا جيرة طيبة. إنهم مناققون، يحسبون أن الكنيسة زنزانة يحتفظ فيها بالرب، ومن ثم سيظل محبوباً داخلها ولن يخرج متجولاً على الأرض أثناء الأسبوع، ويدس أنفه فيما يخصهم، وينظر إلى أعماق قلوبهم وما يملؤها من ظلام ونفاق، وإلى ما يفتقدون إليه من الخير الحقيقى؛ ويعتقدون أنهم لا يحتاجون لأن يشغلوا أنفسهم به إلا فى أيام الأحاد، عندما يلبسون أفضل ثيابهم، ووجوههم متجهمة، وأيديهم مغسولة ومغلقة بالقفازات، وكلامهم مرتب ومعد مسبقاً. لكن الله فى كل مكان، ولا يمكن أن يحبس مثلما يحبس الإنسان.

شكرتني نانسي للذهاب إلى الكنيسة معها، وقالت أنها سعدت بصحبتى. لكنها أرادت أن أعيد الثوب والقانسوة فى نفس اليوم، لأنها تخشى أن يتسخا.

فى أواخر ذلك الأسبوع، دخل مكرموت المطبخ لتناول الغداء بوجه متجهم ومتورم. كانت نانسي قد أبلغته بإنهاء عمله، وكان عليه أن يترك المكان فى نهاية الشهر. قال أنه كان سعيداً بذلك، فهو لا يحب أن يتلقى أوامر من امرأة، وأنه لم يحدث له ذلك أبداً عندما كان فى الجيش

أو على المراكب؛ ولكنه عندما اشتكى من ذلك؛ لم يقل مستر كينير إلا أن نانسي هي سيدة المنزل، وأنه يدفع لها لكي تقوم بكل الترتيبات اللازمة، وأن على مكدرموت أن يتلقى أوامره منها، حيث أن مستر كينير لا يستطيع أن يشغل نفسه بالتفاصيل التافهة. وهكذا كان ذلك أمرًا سيئًا؛ لكن الأسوأ أي نوع من النساء هي. وأنه لا يهتم بالبقاء أكثر مع مثل هذه البغي الفاجرة.

صدمنى هذا الكلام؛ وفكرت أنها عادة مكدرموت وطريقته فى الكلام، والمبالغة، والكذب؛ وسألته ساخطة ماذا يعنى بذلك. وقال ألا أعلم أن نانسى ومستر كينير ينمان سويًا، بمنتهى الجراءة والوقاحة، ويعيشان فى السر كرجل وزوجته، رغم أنهما ليسا متزوجين؛ وأن هذا ليس سرًا، حيث يعرف كل الجيران ذلك. دهشت كثيرًا، وعبرت عن دهشتى، فقال مكدرموت أننى بلهاء، ورغم حديثى عن مسز پاركينسون وما تعلمته هناك، وأفكارى المدنية، فإننى لم أكن بتلك الخبرة كما ظننت نفسى، ولا أكاد أرى أبعد من أنفى؛ وأما بالنسبة إلى فجور نانسى، فأى أحد من البلهاء مثلى يستطيع أن يكتشف الأمر فى الحال، فمن المعلومات العامة أن نانسى حملت فى طفل عندما كانت تعمل عند آل رايت، وكان الأب شابًا صعلوكًا متشردًا هرب وتركها، لكن الطفل مات. لكن مستر كينير لم يهتم بذلك واستأجرها للعمل لديه، وهو أمر ما كان ليفعله أى رجل محترم؛ وكان واضحًا من البداية ما كان يفكر فيه، لأنه متى ما خرج الجواد من الإسطبل، ما عاد لإغلاق الباب عليه فائدة، والمرأة التى رقدت على ظهرها مثل السلحفاة، لن تتمكن من العودة إلى وضعها المعتدل مرة أخرى، بل تصبح لعبة بأيدي الجميع.

ورغم أنني كنت لا أزال أعترض على ما يقول، فقد خطر لي أنه يقول الحقيقة لأول مرة؛ ورأيت في لمحة معنى الرؤوس المشيخة عنا في الكنيسة، والتهامسات، وأشياء كثيرة صغيرة لم ألق بالاً إليها، وكذلك الثياب الجميلة والأقراط الذهبية، والتي يمكن أن تقول أنها كانت أجرة الخطيئة، وحتى التحذير الذي وجهته لي سالي، طبخة مسز واطسون، قبل أن أوافق على العمل. بعد ذلك فتحت عيني وأذني، وأخذت أسير في أنحاء المنزل متسمعة كالجواسيس، وتأكدت من أن نانسى لا تنام في سريرها على الإطلاق أثناء وجود مستر كينير في البيت. وخجلت من نفسي لأننى خدعت واستخدمت بهذه الطريقة، ولأننى كنت عمياء وغبية إلى هذه الدرجة.

يؤسفنى أن أقول أننى بعد ذلك فقدت الكثير من احترامى لنانسى،  
والذى كنت أكنه لها باعتبارها أكبر منى، وباعتبارها مدبرة المنزل؛  
وتركت العنان لاحتقارى حتى يظهر، وكنت أرد لها الكلمات بطريقة  
جانبتها الحكمة، وحدثت بيننا مشادات وصلت إلى رفع الصوت، ومن  
ناحياتها وصلت إلى أن تصفنى مرة أو مرتين؛ فقد كانت سريعة الغضب  
ويدها منفلتة. ولكنى حتى ذلك الوقت كنت أتذكر أن مكانى لا يسمح لى  
برد الضرب عليها؛ وأننى إن أمسكت لسانى، فإن أذنى لن يرن فيهما  
إلا القليل من الإهانات. ومن ثم فقد كنت ألقى بعض اللوم على نفسى.

ولم يبد أن مستر كينير يلاحظ ما يحدث من خلافات. بل إنه  
أصبح أكثر رقة معى، وقد يقف إلى جوارى وأنا أقوم بأعمالى المختلفة،  
ويسألنى كيف تسير الأحوال معى، ودائمًا كنت أقول له، طيبة للغاية  
يا سيدى، لأنه ليس هناك ما يرغب أحد السادة فى التخلص منه بسرعة  
مثل الخادم الساخط — فهم يدفعون لك لتبتسم، ومن المهم أن تتذكر هذا.  
وأحيانًا يقول لى أننى فتاة طيبة، وعاملة مجتهدة. وذات مرة كنت أحمل  
دلو ماء فوق السلام لوضعه فى حمام مستر كينير، وكان قد طلب أن يتم  
ملؤه، قال متسائلًا لماذا لا يفعل هذا مكرموت، فالدلو ثقيل بالنسبة لى.

قلت أن ذلك من مهامى، وأراد أن يأخذ الدلو منى ويحمله بنفسه، ووضع يده فوق يدي التي تحمل الدلو. قلت: أوه، لا يا سيدى، لا يمكن أن أسمح بهذا، وضحك، وقال إن السماح أو عدم السماح هو من اختصاصه هو، فهو سيد البيت، أليس كذلك؟ وبالطبع قلت نعم. وبينما نحن واقفين هكذا، متقاربين على السلم، ويده على يدي، دخلت نانسى إلى الردهة أسفل السلم ورأتنا؛ وهو أمر لم يكن ليحسن من موقفها نحوى.

لقد فكرت كثيرًا أن كل شيء كان يمكن أن يكون أفضل إذا كانت توجد سلم منفصلة للخدم في خلفية المنزل، كما هو المعتاد، لكن لم تكن هناك سلم خلفية. ومعنى هذا أننا مضطرون جميعًا للحياة متقاربين للغاية، وكل في جيب الآخر، وهو أمر غير مريح؛ فمن النادر أن تكح أو تضحك في ذلك البيت دون أن يسمعك الآخرون، خاصة من الردهة في الطابق السفلى.

أما بالنسبة لمكدرموت، فقد أصبح في ذلك الوقت أكثر اكتئابًا وحقداً، وأكثر رغبة في الانتقام؛ وقال أن نانسى تخطط لطرده قبل نهاية الشهر، وأن تمنع عنه أجره، ولكنه لن يتحمل ذلك؛ وإذا عاملته بهذه الطريقة، فسرعان ما سوف تعاملنى بنفس الطريقة، وأنا يجب أن نتحد معًا ونطالب بحقوقنا. وعندما كان مستر كينير يسافر، ونانسى تزور أصدقاءها آل رايت — فقد كانوا من الجيران الذين ظلوا يتعاملون معها بود — كان مكدرموت يغترف وبشكل متزايد من ويسكى السيد كينير، والذي كان يشتري بالبرميل ومن ثم كان بكميات كبيرة للغاية، ولن يلاحظ أحد إذا نقص منه شيء. وفي هذه الأوقات، كان يقول أنه يكره كل الإنجليز، وأنه رغم أن كينير كان من وديان إسكتلندا، إلا أنه لا يختلف، فكلهم لصوص وعاهرات، وسارقون للأراضى، ويظلمون الفقراء أينما

يذهبون، وأن كلاً من مستر كينير ونانسي يستحقان الضرب على الرأس  
والرمي في القبو، وأنه الرجل المناسب لهذا الفعل.

لكنى كنت أحسب أن هذا مجرد طريقة فى الكلام، حيث أنه كان  
متشديقاً دائماً، ويتحدث عن الأشياء العظيمة التى سوف يفعلها؛ وأبى نفسه،  
عندما يسكر، كان كثيراً ما يهدد بأنه سوف يعامل أمة بنفس هذه الطريقة،  
ولكنه فى الواقع لم يفعل ذلك أبداً. وأفضل شىء فى مثل تلك الأوقات هو  
أن تهز رأسك وتوافقه، وأن لا تلقى بالاً للأمر.

يرفع د. چوردان رأسه عن الملاحظات التى يكتبها، ويقول: فأنت  
إذن لم تصدقيه فى البداية؟

أقول: إطلاقاً يا سيدى، إذا كنت نفسك تسمعه فلن تصدقه. كنت  
أظن ذلك كله مجرد تهديدات جوفاء.

يقول د. چوردان: قبل أن يشنق مكدرموت، قال أنك أنت التى  
دفعته إلى فعل ذلك، وادعى أنك كنت تتوین قتل نانسى ومستر كينير  
بوضع السم لهما فى العصيدة، وأنت كنت تحثينه باستمرار على مساعدتك؛  
وهو الأمر الذى رفضه بشدة.

أقول: من قال لك مثل هذا الكلام الكاذب؟

يقول د. چوردان: إنه مكتوب فى اعتراف مكدرموت.

وهو أمر كنت أعرفه جيداً، فقد قرأت الاعتراف بنفسى فى سجل  
القصاصات الخاص بزوجة المحافظ.

أقول: إن مجرد أن تكون الأشياء مكتوبة، يا سيدى، لا يجعل  
منها كتاباً منزلاً.

يضحك ضحكته المائلة القصيرة، هاه، ويقول لى أننى على حق تماماً فى ذلك. ويقول: وعلى أية حال يا جريس، بماذا تردين على ذلك؟  
أقول: يا سيدى، أظن أن هذا من أسخف الأشياء التى سمعتها فى حياتى.

يقول: لماذا يا جريس؟

أسمح لنفسى بابتسامه. وأقول: إذا أردت أن أضع السم فى طبق العصيدة، يا سيدى، هل كنت أحتاج أية مساعدة من شخص مثله؟ كان يمكننى أن أفعل ذلك بنفسى، وأضع بعض السم فى طبقه أيضاً، فوق البيعة. وهو أمر لن يكلفنى أية قوة تزيد عما أحتاجه لإضافة ملعقة سكر.

يقول د. چوردان: إنك تتكلمين ببرود تام يا جريس، لماذا تظنين أنه قال ذلك عنك إذا كان كذباً؟

أقول بتؤدة: أظن أنه أراد أن ينقل الاتهام إلى. فقد كان لا يحب أن يقال له أنه أخطأ أبداً. وربما أراد أن أكون بصحبته فى رحلته الأخيرة. فالطريق إلى الموت طريق وحيد وسريع، وأطول مما يبدو، حتى عندما يكون عن طريق مشنقة يتدلى المرء منها مباشرة، معلقاً بالحبل؛ وهو طريق معتم، لا قمر يسطع عليه أبداً لينير الطريق.

يقول، بابتسامته المائلة الساخرة: يبدو أنك تعرفين الكثير عنه يا جريس، أكثر مما يعرف شخص لم يذهب فى هذا الطريق من قبل.

أقول: لم أذهب هناك أبداً، إلا فى أحلامى؛ ولكنى رأيت بطوله فى ليال كثيرة. فأنا أيضاً كان محكوماً على بالإعدام شنقاً، وكنت أظن أننى سوف أموت؛ وما كان يمكن أن أفلت لولا حسن الحظ، ومهارة السيد

ماكنزى الذى دافع عن شبابى الغض. وعندما تعتقد أنك سرعان ما سوف ترتاد بنفسك هذا الطريق، فلا بد أن يترك أثره فيك.

يقول بصوت ينم عن الاهتمام: صحيح.

أقول: ولا أنا ألوم جيمس مكرموت التعس. ليس لأنه تمنى ذلك. لكن لأننى لا أود أن ألوم مخلوقاً من البشر لأنه شعر بالوحدة.

كان الأربعاء التالى هو عيد ميلادى. وإذا فتحت العلاقة بين نانسى وبينى، لم أكن أتوقع منها أن تتذكره، رغم أنها كانت تعرف التاريخ جيداً، فقد أخبرتها بتاريخ ميلادى وعمرى عندما تسلمت العمل، وأخبرتها متى سأبلغ السادسة عشرة؛ ولكن ما أدهشنى أنها جاءت إلى المطبخ فى الصباح، وكانت ودودة للغاية، وتمنت لى عيد ميلاد سعيداً، ودارت إلى مقدمة البيت وقطفت لى باقة من زهور التعريشة التى هناك، ووضعتها فى إناء زجاجى لآخذها إلى غرفتى. وقد شعرت بالامتنان لهذه الرقة، والتى كانت نادرة للغاية فى هذا الوقت، الذى ازداد فيه شجارنا، حتى أننى كدت أبكى.

ثم قالت أننى يمكن أن آخذ فترة راحة بعد الظهر، بمناسبة عيد ميلادى. وشكرتها كثيراً جداً. ولكنى قلت أننى لا أعرف ماذا أفعل وحدي، فلا أصدقاء لى فى المنطقة يمكن أن أزورهم، وليس هناك محلات حقيقية، ولا شىء يمكن أن يُرى؛ وربما كان الأفضل أن أبقى فى البيت وخلص، وأقوم بالخياطة أو بتنظيف الأواني الفضية، كما كنت أنوى أن أفعل على أية حال. قالت أننى يمكن أن أقوم بجولة فى القرية إذا أحببت، أو أذهب لأتمشى فى الحقول المجاورة؛ وأنه يمكننى أن أقترض قبعتها القش.



ولكنى عرفت فيما بعد أن مستر كينير كان ينوى أن يكون فى البيت طوال بعد الظهر، وشعرت بالرغبة فى أن نانسى أرادت أن تبعدنى عن الطريق لتستطيع قضاء وقت أطول معه وحدهما، دون أن تقلق من دخولى المفاجئ للغرفة أو طلوعى على السلم، أو من عودة مستر كينير إلى التجول ودخول المطبخ حيث أكون، ويبقى هناك، يسأل عن هذا وذاك، كما كان يميل لأن يفعل فى الفترة الأخيرة.

ولكن بعد أن أخذت الغداء لمستر كينير ونانسى، والذي كان من لحم البقر المشوى البارد وسلطة، إذ كان الجو حاراً، وبعد أن تناولت غدائى مع مكرموت فى المطبخ الشتوى، وقمت بتنظيف الأطباق، وغسلت يدي ووجهي، خلعت مريلتى وعلقتها، ووضعت قبعة نانسى القش ومنديلى الـ "أبيض وأزرق" حول رقبتى احتراساً من الشمس؛ وسألنى مكرموت، الذي كان لا يزال جالساً على المنضدة، إلى أين أنا ذاهبة. فقلت أنه عيد ميلادى، ولذا فقد أعطتني نانسى إجازة لأتمشى. قال أنه سوف يأتى معي، حيث أن هناك الكثير من الرجال غير المهذبين والمتشردين فى الطرقات، وأنى بحاجة لمن يحمينى منهم. كان على طرف لسانى أن أقول أن الشخص الوحيد الذى أعرفه بهذا الوصف هو الجالس أمامى هناك فى المطبخ، لكن لأنه كان يبذل مجهوداً ليتعامل بشكل متحضر، فقد أمسكت لسانى، وشكرته لنواياه الطيبة، لكنى قلت أن هذا غير مطلوب.

قال أنه سيأتى على أية حال، فأنا صغيرة وطائشة ولا أعرف ما هو الصالح لى؛ فقلت أنه ليس عيد ميلاده هو، وأن لديه واجباته التى يجب أن يؤديها؛ وقال اللعنة على عيد الميلاد، وأنه لا يهتم إطلاقاً بأعياد الميلاد، وأنه لا يرى سبباً للاحتفال، فهو لا يشعر بأى امتنان نحو والدته

التي ولدته؛ وحتى لو كان عيد ميلاده، فإن نانسى لن تعطيه أبداً أى أجازة. فقلت أنه لا يجب أن يحمل ضغينة ضدى، لأننى لم أطلب ذلك، ولم أكن أرغب فى أية مجاملات خاصة. وتركت المطبخ بأسرع ما استطعت.

لم يكن فى رأسى فكرة معينة عن أين أذهب. ولم أكن أرغب فى السير فى الشوارع الرئيسية للقريّة، التى لم يكن فيها أحد أعرفه؛ وفجأة طراً ببالى أننى كنت فى حالة وحدة شديدة، وأننى لم يكن لى أى أصدقاء هنا إلا نانسى، إذا كان يمكن أن أعتبرها صديقة، وهى بهذه الحال من التقلب، صديقة فى يوم، وفى اليوم التالى تتقلب ضدى تماماً؛ وربما جيمى وولش، لكنه مجرد صبي صغير. هناك أيضاً تشارلى، لكنه كان حصاناً، ورغم أنه كان مستمتعاً جيداً ويشعرنى بالراحة، إلا أنه لن يفيد إذا كنت بحاجة لنصيحة.

لم أكن أعرف أين عائلتى، وهو ما يوازى أن أكون بلا عائلة؛ ولم أكن أتمنى أن أرى أبى مرة أخرى، ولكنى كنت سأشعر بالسعادة لو أسمع بعض أخبار إخوتى. هناك أيضاً الخالة بولين، وكان يمكن أن أكتب لها رسالة، لو كنت أستطيع أن أدفع ثمن طابع البريد؛ فقد كان ذلك قبل الإصلاحات، وكان إرسال رسالة عبر البحر مكلفاً للغاية. إذا نظرت إلى الأشياء على ضوء برودة ذلك النهار، لرأيت أننى كنت فى الواقع وحيدة فى هذا العالم، ولا أمل أمامى إلا هذا الكدح الذى أكدحه؛ ورغم أننى كان يمكن دائماً أن أجد وظيفة أخرى، فسيظل العمل هو نفسه، من الفجر إلى الليل، ودائماً مع سيّدة تلقى على الأوامر.

وأنا مستمرة فى تأملاتى، سرت عبر الطريق، وأنا أحافظ على خطوة سريعة خشية أن يكون مكرموت يراقبنى؛ والحق أننى استدرت

مرة فوجدته هناك، ينحدر في طريقة المطبخ. فلو تلكأت، لظن ذلك دعوة منى له ليلحق بى. لكننى عندما بلغت البستان، ظننت نفسى ابتعدت عن ناظره، وأبطأت فى مشيتى. كنت دائماً أتحكم جيداً فى مشاعرى، لكن هناك شىء يشعر الإنسان بالاكئاب فى عيد الميلاد، خاصة عندما يكون وحيداً؛ ودرت حول البستان، وجلست وظهرى إلى إحدى بقايا جذوع الأشجار التى تبقت بعد إزالة الغابة. كانت الطيور تغنى حولى، ولكن ذلك جعلنى أشعر بأن الطيور نفسها كانت غريبة بالنسبة لى، فأنا لا أعرف حتى أسماءها؛ وبدا لى ذلك أشد ما يدعو إلى الحزن، وبدأت الدموع تنزل على خدى؛ ولم أجفها، وإنما تركت نفسى للبكاء لعدة دقائق.

حينئذ قلت لنفسى إن ما لا يمكن شفاؤه يجب احتمالاه؛ ونظرت حولى إلى زهور الأقحوان البيضاء والجزر البرى، والكريات البنفسجية لزهور الحشائش اللبنيّة، والتى كانت رائحتها جميلة للغاية وتقف عليها فراشات برتقالية؛ ثم نظرت إلى أعلى إلى فروع شجرة التفاح فوقى، حيث كانت التفاحات الخضراء الصغيرة تتشكل، ونظرت إلى الرقع الظاهرة من السماء من بين أوراق الشجرة وفروعها، وحاولت أن أبهج نفسى، بالتفكير فى أن مثل هذا الجمال لا يمكن أن يخلقه إلا إله طيب محب للخير، يضع خير الإنسان فى قلبه، ومهما كانت المتاعب التى يضعها على ظهرى فلا بد أنها امتحان منه، ليختبر قوة صبرى وإيمانى، كما فعل مع المسيحيين الأوائل وأيوب والشهداء. ولكن كما قلت، كانت الأفكار حول الرب تجعلنى دائماً أشعر بالرغبة فى النوم، ونمت بالفعل.

من الأمور الغريبة أنى مهما كنت أغط فى نوم عميق، يمكننى أن أشعر دائماً عندما يكون ثمة شخص قريب أو يراقبنى. وكأنما هناك جزء منى لا ينام أبداً، وإنما يحتفظ بإحدى عيني مفتوحة قليلاً؛ وعندما

كنت أصغر من ذلك كنت أظن أن هذا هو ملاكى الحارس. ولكن ربما جاءت هذه العادة من أيام طفولتى، عندما كنت إذا نمت زيادة على موعد الاستيقاظ وأداء أعمال البيت، يبدأ الصياح من جانب أبى، وإلقاء الكلمات اللفظة القاسية، وربما ينتزعنى من النوم بشدى من ذراعى، أو شعرى. وعلى أية حال، كنت أحلم بأن دباً خرج من الغابة، وأنه واقف ينظر لى. ثم استيقظت فجأة، تماماً كما لو كان ثمة يد وضعت على؛ وهناك رجل يقف قريباً منى، والشمس خلفه فلا أستطيع رؤية وجهه. خرجت منى صيحة صغيرة، وبدأت أقوم متعثرة. ولكنى فى تلك اللحظة اكتشفت أنه لم يكن رجلاً، وإنما الصبى، جيمى وولش؛ فبقيت مكانى.

قلت: أوه يا جيمى، لقد أفرعتنى.

قال: لم أكن أقصد. وجلس بجوارى تحت الشجرة. ثم قال: ماذا تفعلين هنا فى وسط اليوم؟ ألن تبحث عنك نانسى؟ فقد كان صبياً فضولياً للغاية، ودائماً يكثر من الأسئلة.

شرحت له أنه عيد ميلادى، وقلت أنه كان لطيفاً من نانسى أن تعطينى أجازة طوال فترة بعد الظهر. وتمنى لى عيد ميلاد سعيداً. ثم قال: لقد رأيتك وأنت تبكين!

قلت: أين كنت أنت، هل كنت تتجسس على؟

قال أنه اعتاد أن يأتى إلى البستان، عندما لا يكون مستر كينير يراقبه؛ ففى أواخر الموسم، كان مستر كينير أحياناً يقف فى الفراندة ويستخدم التليسكوب ليتأكد أن الأولاد فى الجيرة لا يسرقون بستانه؛ ولكن ثمار التفاح والخوخ كانت لا تزال خضراء وصغيرة لا يخشى عليها من السرقة. ثم قال: لماذا أنت حزينة يا جريس؟

شعرت أنني سوف أبكى ثانية، ولكنى قلت بهدوء: ليس لى  
أصدقاء هنا.

قال چيمى: أنا صديقك. ثم توقف قليلاً، وقال: هل لك حبيب  
يا جريس؟ فقلت أنه ليس لى حبيب. فقال: أود أن أكون حبيبك. وبعد  
سنوات قليلة، عندما أكبر وأوفر نقوداً كافية، سوف نتزوج.

لم أستطع أن أمنع نفسى من الابتسام. قلت، محولة الأمر إلى  
مزحة: ولكن ألسنت واقعا في غرام نانسى. فقال: لا، رغم أنها تعجبني  
جداً. ثم قال: ما رأيك؟

قلت: ولكن يا چيمى، أنا أكبر منك كثيراً؛ كنت أقول هذا وكأني  
أحاول مضايقته. لأننى لم أستطع أن أصدق أنه كان صادقاً.

قال: سنة وبعض السنة. فارق سنة لا يعتبر فارقاً.

قلت: ولكنك، لا تزال صبيياً.

قال: أنا أطول منك. وكان هذا صحيحاً. غير أنني لا أعرف لماذا  
تعتبر الفتاة في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة امرأة، بينما الصبى  
من نفس العمر يعتبر صبيياً. ولكنى لم أقل هذا، حيث رأيت أنها ستكون  
قاسية عليه؛ ومن ثم شكرته بشدة على عرضه، وقلت له أنني سوف أضعه  
في اعتبارى، حيث لم أرد أن أجرح مشاعره.

وقال: تعالى، إنه عيد ميلادك، سوف أعزف لك لحناً. وتناول  
الناى، وعزف لهب الجندى الشاب إلى ميادين القتال"، وعزفها جيداً جداً  
بإحساس مرتفع، رغم صدور صرير خفيف عند النغمات العالية. ثم عزف  
"صدقيني لو أن كل مفاتن الشباب المحببة هذه". وتبينت أن هذين اللحنين

كانا قطعتين جديدتين يتدرب عليهما، وكان فخورًا بهما؛ فقلت له أن هذا كان شيئًا جميلًا جدًا.

بعد ذلك قال أنه سوف يصنع لى تاجًا من زهور الأقحوان، تحية لهذا اليوم؛ وأخذنا كلانا نصنع سلاسل من الأقحوان، وانشغلنا بهما بشدة، مثل أطفال صغار؛ ولا أظن أنني استمتعت بهذه الطريقة منذ أيام ماري هويتى. وعندما انتهينا من ذلك، قام بوقار ومهابة، ووضع سلسلة من الأقحوان حول قبعتي، وأخرى حول رقبتى، لتكون قلادة، وقال أنني كنت ملكة الربيع؛ فقلت إننى أفضل أن أكون ملكة الصيف، حيث أن الصيف قد دخل، وضحكنا. وسألنى إذا كان يمكن أن يقبلنى على وجنتى؛ فقلت نعم، ولكن قبلة واحدة؛ وقبلنى قبلة واحدة. وقلت له أنه جعل من عيد ميلادى مناسبة جميلة رغم كل شيء، لأنه استطاع أن يبعدنى عن التفكير فى كل متاعبى؛ وابتسم لهذا.

لكن الوقت مر سريعًا، وانتهت فترة ما بعد الظهر. وعندما كنت عائدة عبر الممشى، رأيت مستر كينير واقفًا فى الفراندة، وينظر نحوى بالتليسكوب؛ وعندما اقتربت من الباب الخلفى، سار حول البيت، وقال: مساء الخير يا جريس.

رددت عليه، وقال: من ذلك الرجل الذى كان معك فى البستان؟ وماذا كنت تفعلين معه؟

استطعت أن أميز فى صوته أى نوع من الارتياب كان يخايله؛ وقلت إن هذا لم يكن إلا الصغير چيمى وولش، وكنا نصنع سلاسل من زهور الأقحوان لأنه كان عيد ميلادى. وقد صدق هذا، لكنه لم يبد عليه

السرور رغم ذلك. وعندما دخلت المطبخ لأبدأ إعدادات العشاء، قالت نانسي: ماذا تفعل هذه الزهرة الذابلة في شعرك؟ إن شكلها سخيف للغاية.

كانت هناك واحدة، علقت عندما كنت أخلع قلادة الأقحوان.

ولكن هذين الأمرين أنهما بعض ما شعرت به من سعادة بريئة في ذلك اليوم.

وهكذا بدأت في إعداد العشاء؛ وعندما دخل مكرموت فيما بعد يحمل حملاً من الخشب للموقد، قال باستهزاء: وهكذا، كنت تتقلبين على الحشائش، وتقلبين صبي المشاوير، كان يجب أن تكسر دماغه لهذا، وكان يمكن أن أكسر دماغه بالفعل بنفسى لو لم يكن مجرد طفل. من الواضح أنك تفضلين الصبيان على الرجال، فأنت لا تزيدين عن خاطفة الرضع في مهادهم. فقلت: لم أكن أفعل شيئاً كهذا. لكنه لم يصدقنى.

شعرت أن هذا المساء لم يكن ملكى على الإطلاق، ولم يكن شيئاً طيباً وشخصياً وخصوصياً، وإنما تجسس على كل واحد منهم – ومستر كينير من ضمنهم، ولم أفكر أنه سوف ينزل إلى هذه الدرجة من الدناءة – تماماً وكأنهم كانوا واقفين صفاً على باب غرفتى، يأخذ كل منهم دوره فى النظر من ثقب المفتاح؛ وهو أمر أحرزنى كثيراً، وأشعرنى بالغضب أيضاً.

مرت بعد ذلك عدة أيام بدون أحداث تذكر. مضى على وجودى عند مستر كينير حوالى أسبوعين، لكنهما بدوا أطول كثيراً، فقد كان الوقت يمر ثقيلاً وبطيئاً، كما هو الحال فى الغالب يا سيدى عندما يكون المرء يشعر بالتعاسة. ذهب مستر كينير فى رحلة على جواده، وأعتقد أنه ذهب إلى ثورن هيل، وذهبت نانسى لزيارة صديقتها مسز رايت. وكان چيمى وولش لا يأتى إلى البيت فى الفترة الأخيرة، حتى أننى تساءلت إذا ما كان مكرموت قد هدده وأمره بالابتعاد.

لا أعرف أين كان مكرموت؛ وأظن أنه كان نائماً بالحظيرة. ولم أكن على علاقة طيبة معه، فقد بدأ فى ذلك الصباح بالحديث حول أن لى عينين جميلتين تليقان "بالبصبة" إلى الفتیان الصغار الذين لا تزال الأسنان اللبنية فى أفواههم، فقلت له أن يحتفظ بحديثه لنفسه، حيث ليس بالغرفة من يستمتع بالاستماع إليه سواه وحده، فقال أن لى لساناً خبيثاً كألسنه الأفاعى، فقلت إذا كان يريد شخصاً لا يرد عليه فلماذا لا يذهب إلى الحظيرة و"يعاشر" البقرة، وهو نوع الرد الذى كانت مارى هويبتى يمكن أن تقوله، أو هكذا قلت لنفسى.



كنت في حديقة المطبخ أجمع حبات البازلاء الجديدة، ولا تزال رأسي مشتعلة بالغليظ - فقد كنت لا أزال أشعر بالغليظ مما تعرضت له من شكوك وتطفلات، بالإضافة إلى مضايقات مكرمات المريرة - عندما سمعت صفيراً منغماً، ورأيت رجلاً يأتي عبر الممشى حاملاً صرة على ظهره، ويضع على رأسه قبعة بالية، وفي يده عصا سير طويلة.

كان هو جيرميا البائع المتجول، وشعرت بفرح شديد لرؤية وجه إنسان ممن عرفتهم في أيام أفضل حتى أنني انتفضت واقفة ووقعت البازلاء من مريتي على الأرض، ولوحت بذراعي، وجريت عبر الممشى لملاقاته. فقد كان صديقاً قديماً، أو هكذا فكرت حينئذ، عندما يكون المرء في بلد جديد، يصبح الأصدقاء أصدقاء قدامى بسرعة كبيرة.

"حسناً يا جريس، قلت لك إنني سأتي".

قلت: "وأنا فرحانة جداً لرؤيتك يا جيرميا".

سرت معه إلى باب المنزل الخلفي، وقلت: "ماذا معك اليوم؟" فقد كنت دائماً أحب أن أتفرج على محتويات صرته، حتى لو كنت لا أتوفر على شراء معظم الأشياء.

قال: "ألن تدعيني لأدخل المطبخ يا جريس، إلى برودة البيت بعيداً عن الشمس؟" وتذكرت أن هذه كانت العادة المتبعة في بيت مسز ألدرمان پاركينسون، فأدخلته، وأجلسته إلى مائدة المطبخ، وقدمت إليه قذحاً صغيراً من البيرة من دولاب الخزين، وكوباً من الماء البارد؛ وقدمت إليه قطعة خبز وجبن. وشغلت نفسي به تماماً، إذ شعرت أنه ضيف من نوع ما، وبذلك كنت أنا المضييفة، وهكذا يجب أن يكون كرم الضيافة. وأخذت أنا أيضاً قذحاً من البيرة لأشعره بالصحة.

قال: "فلنشرب نخب صحتك يا جريس". شكرته، ورددت عليه رداً طيباً. وقال: "هل أنت سعيدة هنا؟"

قلت: "البيت جميل جداً، به لوحات وبيانو". فلم أكن أحب أن أتحدث بالسوء عن أى أحد، خاصة عن سيدى وسيدتى.

"لكنك فى حالة هدوء وابتعاد". قال ذلك وهو يتأملنى بعينين لامعتين مضيئتين. كانت له عينان تشبهان التوت البرى الأسود، وتوحيان بالقدرة على رؤية ما لا يستطيع الآخرون رؤيته، وأستطيع أن أقول أنه كان يحاول أن ينظر داخل عقلى، ولكن بطريقة ودودة، لأننى أعتقد أنه كان دائماً يحمل لى الاحترام والود.

قلت: "إنه مكان هادئ، لكن مستر كينير سيد ليبرالى".

قال وهو ينظر لى نظرة حادة: "وله ذوق السادة أيضاً، يقولون فى الجوار أنه يميل بشدة للخاديات، خاصة المقيمات فى المنزل. أرجو ألا ينتهى بك الحال إلى مثل ما حدث لمارى هويتى".

فوجئت بهذا، فقد كنت أظن أننى الوحيدة التى تعلم بحقيقة هذه العلاقة الغرامية، ومن هو السيد، ومدى قربه من البيت، ولم أخبر أحداً أبداً. قلت: "كيف توصلت إلى ذلك؟"

وضع إصبعه على فمه، فى موازاة أنفه علامة على طلب الصمت والتعقل، وقال: "المستقبل مخبأ فى الحاضر، لا يراه إلا من يستطيعون قراءته". وحيث أنه يعلم بالفعل كل هذا، خفت عما تتوء به نفسى معه، ورويت له كل ما روите لك يا سيدى، حتى الجزء الخاص بسماعى لصوت مارى، والإغماءة، والجرى حول البيت دون أن أصل

إليه، إلا عن الطبيب، حيث شعرت أن ماري لن تحب أن يُعرف ذلك. لكنني أعتقد أن جيرميا خَمَن الأمر، فقد كان بارعاً في التقاط المعاني المستترة، حتى حين لا تُقال علانية.

عندما انتهيت من روايتي قال: "إنها لقصة محزنة. أما بالنسبة لك يا جريس فإن التقاط غرزة في الوقت المناسب تمنع فتق الثوب. إنك تعرفين أن نانسي كانت خادمة البيت منذ عهد ليس ببعيد، وكانت تقوم بكل العمل الخشن والوضيع الذي تقومين أنت به الآن."

كان هذا كلاماً مباشراً، وأحسيت رأسي قائلة: "لم أكن أعلم هذا."

قال: "إذا اعتاد الرجل شيئاً، من الصعب أن يغير عاداته. مثل الكلب الذي يَعْوَجُ حاله، فبمجرد أن تُقتل شاة يذوقها الكلب، ولا بد أنه سيقتل غيرها."

قلت لأغير الموضوع: "هل كنت تسافر كثيراً؟"، فلم أكن أحب هذا الكلام عن القتل.

قال: "نعم، إنني دائماً في حالة ترحال. وفي الفترة الأخيرة ذهبت إلى الولايات، حيث يمكنني شراء الخردوات رخيصة، وأبيعها هنا بثمن أعلى؛ فهذه هي الطريقة التي نكسب بها قوتنا نحن البائعين. لا بد أن نحصل على ثمن جلد أحذيتنا التي نبليها في التجوال."

قلت: "وكيف الحال هناك؟ البعض يقولون أنه أفضل."

قال: "الحال مماثل للحال هنا من نواحٍ عديدة. يوجد محتالون وأنذال في كل مكان، لكنهم يستخدمون لغة مختلفة لتبرير أفعالهم؛ وهناك يتشدقون كثيراً بالكلام عن الديمقراطية، مثلما يتبجحون هنا بالحديث عن

التنظيم الصحيح للمجتمع؛ والولاء للملكة؛ ومع ذلك فالفقير هو الفقير على كل شاطئ. عندما تعبرين الحدود، فإنك لن تعرفي أنك قد عبرت بالفعل، كأنك تعبرين في الهواء؛ فالأشجار على جانبي الطريق كما هي. وأنا أذهب عادة خلال الأشجار، وبالليل؛ فدفع الرسوم والجمارك على بضاعتي لا يلائمني؛ ثم ابتسم قائلاً: "كما أن الثمن بالنسبة لزبائن ممتازين مثلك سوف يكون مرتفعاً للغاية!"

قلت: "ولكن ألسنت بهذا تنتهك القانون؟ وماذا يحدث لك لو أمسكوا

بك؟"

قال: "لقد وضعت القوانين لكي نكسرهما، ثم إن هذه القوانين لم أضعها أنا ولا وضعت من أجلي، وإنما وضعتها سلطات مستفيدة، ولمصالحهم ومنافعهم هم. لكني لا أؤذي أحداً. والرجل ذو العزيمة يحب التحدي والتفوق على غيره بالدهاء والحيلة، أما بالنسبة لاحتمال القبض على، فأنا ثعلب عجوز، وقد خبرت ذلك لسنوات كثيرة، وأصبح من الصعب أن أقع. كما أنني رجل محظوظ، وهذا يمكن قراءته في كفي". وأراني خطين متقاطعين كالصليب في كفه اليماني، وكذلك في اليسرى، كلاهما على شكل حرف X؛ وقال أنه يحظى بالحماية في النوم واليقظة، فاليد اليسرى هي يد الأحلام. ونظرت إلى كفي، فلم أر في أي منهما مثل هذا التقاطع.

قلت: "يمكن للحظ أن ينفد. أرجو أن تكون حذراً."

قال مبتسماً: "لماذا يا جريس؟ هل تشعرين نحوى بمشاعر رقيقة؟" وخفضت نظري نحو المنضدة. فقال بجدية أكثر: "الواقع أنني فكرت في ترك هذا النوع من العمل، فالمنافسة الآن أشد مما كان الحال في السابق،

ومع تحسن الطرقات، يذهب الكثيرون إلى المدن لشراء لوازمهم، بدلاً من البقاء في البيت والشراء منى.

وشعرت بخيبة أمل عندما سمعت أنه يمكن أن يترك البيع الجوال، فهذا يعنى أنه لن يأتى بعد ذلك بصرته. قلت: "ولكن ماذا ستفعل حينئذ؟"

قال: "يمكن أن أتجول في الأسواق، وألعب لعبة "أكل النار"، أو أصبح معالجاً باستخدام القدرة على الاستبصار، وأعمل بالتنويم المغناطيسى والسحر المغناطيسى، والذي يشد الكثيرين حوله ويجذب الأنظار. عندما كنت في بداية شبابى كنت أشارك امرأة تعرف هذا العمل، فهو عمل يحتاج عادة لرجل وامرأة؛ كان دورى القيام بالحركات الخفيفة لليدين، كما كنت أجمع النقود، وأما هي فكانت تضع على نفسها وشاحاً من الموسلين، وتدخل في حالة النوم، وتتحدث بصوت أجوف رنان، ونقول للناس مشاكلهم مقابل أجر بالطبع. عمل سهل، حتى الأبله يستطيع أن يفعل هذا. والناس لا يستطيعون رؤية دواخلهم، فمن يمكنه أن يعرف أن ما تقوله صحيح أم لا؟ لكن المرأة أصابها الملل من العمل، وربما منى؛ وارتحلت في أحد القوارب المبحرة في المسيسيبي". ثم أكمل قائلاً: "أو يمكن أن أصبح واعظاً، فعبر الحدود يوجد طلب كبير على هذا العمل، أكثر من هنا، خصوصاً في المواسم الصيفية عندما يقومون بالوعظ في الهواء الطلق، أو في الخيام؛ الناس هناك مغرمون بالوقوع في نوبات من التقوى، ينهمكون في الثرثرة والقبل والقال، ثم يحصلون على الغفران مرة على الأقل في الصيف، أو أكثر من ذلك إذا أتيح لهم، وهم على استعداد لإظهار عرفانهم بذلك برش النقود بحرية. هذا نوع واعد من العمل، ويمكن القيام به جيداً، وأرباحه أفضل كثيراً من عملى هذا."

قلت: "لم أكن أعرف أنك متدين."

قال: "أنا لست متديناً؛ ولكن التدين ليس مطلوباً حسب علمي، كثير من الوعاظ هناك ليسوا أكثر تديناً من الحجارة."

قلت إنه شرير إذ يقول هذا، لكنه ضحك وقال: "ما دام الناس يحصلون على ما جاءوا من أجله، فماذا يهم؟ وسوف أعطى الأمر حقه تماماً؛ إن واعظاً غير مؤمن لكنه يتمتع بسلوك حسن وصوت جيد يستطيع أن يجذب إلى الدين أكثر مما يستطيع غبي جهم أجوف الرأس، مهما كان ورعه وتقواه." ثم اكتسى فجأة بهيئة وقورة، وقال مرتلاً: إن الذين لديهم إيمان قوي يعرفون، أنه بين يدي الرب، حتى الوعاء المشروخ يمكن استخدامه على أفضل وجه.

قلت: "أرى أنك درست الأمر بالفعل،" فقد بدا مثل الواعظ تماماً؛ وضحك مرة أخرى. لكنه عاد ليبدو أكثر جدية، وانحنى عبر المنضدة، وقال: "أعتقد أنك يجب أن تأتي معي بعيداً من هنا يا جريس. الأمور هنا لا تشعرني بالارتياح."

قلت: "أتى معك؟ ماذا تقصد؟"

قال: "سوف تكونين في أمان معي أكثر مما أنت هنا."

وهنا شعرت بقشعريرة، فقد كان هذا قريباً مما كنت أشعر به أنا نفسي، رغم أنني لم أعرف حتى هذه اللحظة. قلت: "ولكن ماذا سوف أفعل؟"

قال: "يمكن أن ترحلي معي، يمكنك أن تكوني وسيطة روحية، سأعلمك كيف تفعلين هذا، وأعطيك المعلومات التي تقولينها، وأضعك في

حالات النوم المغناطيسي. إن رسم كففك يقول لي أنك موهوبة في هذا؛ وعندما تتركين شعرك مسدلاً ستكتسبين مظهرًا موحياً ومناسباً للغاية. وأعدك أنك ستكسبين في يومين بهذه الطريقة أكثر مما تكسبين في أشهر من حك الأرضيات هنا. ربما تحتاجين لاسم مختلف، بالطبع؛ اسم فرنسي، أو اسم يبدو أجنبيًا، لأن الناس هنا، على هذا الجانب من المحيط، يصعب أن يصدقوا أن امرأة لها هذا الاسم البسيط، جريس، يمكن أن تكون لها قوى غامضة. فهم يجدون أن المجهول أكثر روعة وبهاء من المعلوم، بل وأكثر إقناعًا."

قلت: "ألن يكون هذا نوعًا من الخديعة أو الغش؟" فقال جيرميا: "ليس أكثر مما في المسرح. ذلك أن الناس إذا كانوا يريدون أن يصدقوا أمرًا ما، ويتوقون إليه، ويعتمدون على أن يتحقق، ويشعرون بأنفسهم أفضل معه، وهل من الخديعة أن نساعدهم على ما يعتقدون بمثل هذا الشيء غير الأساسي مثل الاسم؟ ألا يعتبر هذا نوعًا من عمل الخير ومحبة البشر؟" وعندما وضع الأمر بهذه الطريقة، رأيت في ضوء أفضل.

قلت إن اتخاذ اسم جديد أمر لا يمثل مشكلة بالنسبة لي، فلست شديدة الارتباط باسمي، حيث أنه يمت إلى أبي أكثر مني. وابتسم قائلاً: "هيا إذن نتصافح على ذلك!"

ولن أخفي عنك يا سيدى أن الفكرة كانت شديدة الإغراء؛ فقد كان جيرميا رجلاً وسيمًا، بأسنانه البيضاء وعينييه السوداوين، وتذكرت أنني من المفترض أن أتزوج من رجل يبدأ اسمه بحرف "جيه"؛ كما أنني فكرت في النقود التي يمكن أن أحصل عليها، والثياب التي يمكن أن أشتريها بها، وربما بعض الأقراط الذهبية أيضًا، وسوف أرى أماكن ومدناً كثيرة،

ولا أظن دائماً أقوم بنفس الأعمال الشاقة وأعيش مع القذارة. ولكنى تذكرت ما حدث مع ماري هويتى، ورغم أن جيرميا بدا شخصاً طيباً، فإن المظاهر يمكن أن تكون خادعة، كما اكتشفت هي حين خسرت كل شيء. ماذا يحدث لو سارت الأمور فى طريق خطأ، ووجدت نفسى فى موقف حرج وحدى، فى مكان غريب؟

سألته: "هل سنتزوج إذن؟"

قال: "وما الحاجة إلى ذلك؟ الزواج لا نفع منه أبداً فى رأى، لأنه إذا كان شخصان عاقلان وعاشا سوياً، فسوف يظلان سوياً، أما إذا لم يكن، فسوف يفر أحدهما هارباً، وهذه هى الخلاصة."

أثار ذلك حذى. قلت: "أظن أنه من الأفضل لى أن أبقى هنا. وعلى أية حال فأنا صغيرة جداً على الزواج."

قال: "فكرى فى الأمر يا جريس. فأنا أريد لك الخير، وعلى استعداد لمساعدتك والاهتمام بك. وأقول لك الحق أنك محاطة بالأخطار هنا."

فى هذه اللحظة دخل مكرموت إلى المطبخ، وتساءلت فى نفسى هل كان يتسمع خارج الباب، وكم من الوقت؟ فقد بدا فى غضب شديد. وسأل جيرميا بحق الشيطان من هو، وأى شيطان يفعل فى المطبخ.

قلت أن جيرميا بائع متجول، وأننى أعرفه جيداً من قبل؛ ونظر مكرموت إلى الصرة — التى كانت مفتوحة لأن جيرميا كان قد فتحها ونحن نتكلم، رغم أنه لم يخرج محتوياتها — وقال أن هذا طيب جداً، لكن مستر كينير قد يتضايق إذا عرف أننى كنت أبدد البيرة الجيدة والجبن



الثمين على بائع متشرد. وقد قال هذا ليس لأنه يهتم قدر قشة بما قد يعتقده مستر كينير وإنما فقط لإهانة جيرميا.

ولكنى رددت بأن مستر كينير كان كبير العقل وكريمًا، ولن يرفض تقديم شراب بارد فى يوم صيفى لرجل شريف. وهنا ازداد مكدرموت عبوسًا، فقد كان يكره أن أثنى على مستر كينير.

ثم قال جيرميا، محاولاً التدخل بيننا لتهدئة الموقف، أن لديه بعض القمصان التى رغم أنها مستعملة، ورخيصة؛ إلا أنها جيدة ومقاسها يناسب مكدرموت تمامًا؛ ومع أن مكدرموت دمدم متذمرًا، إلا أن جيرميا أخرج القمصان، وراح يعرضها متحدثًا عن جودتها ومزاياها، وكنت أعرف أن مكدرموت بحاجة إلى قمصان جديدة، فقد تهرأ أحد قمصانه التى سبق إصلاحها، وانتهى أمر قميص آخر عندما تركه قذرًا ورطبًا فتسلل إليه العفن. ورأيت أن جيرميا استطاع أن يجذب انتباهه، فأحضر لنفسه كأسًا من البيرة فى صمت.

كانت على القمصان الحروف الأولى هـ. س، وقال جيرميا إنها كانت تخص أحد الجنود، بل محاربًا شجاعًا، ولكن ليس ميتًا، لأن لبس ثياب شخص ميت فال سيئ، وحدد سعرًا للقمصان الأربعة. وقال مكدرموت إنه بهذا السعر لا يستطيع أن يدفع إلا ثمن ثلاثة، وقال سعرًا أقل. وظلا يتساومان حتى وافق جيرميا، وقال أنه يبيع بهذا، وسيعطيه الأربعة بثمن ثلاثة، ولكن لن ينقص بنسأ واحدًا، رغم أن هذا نوع من قطع الطريق، وأنه سيفلس بسرعة إذا استمرت الأمور بهذه الطريقة. وفرح مكدرموت بنفسه كثيرًا لظنه أنه استطاع أن يفوز بمساومة رابحة. لكنى

استطعت أن أفهم من بريق عيني جيرميا أنه كان يتظاهر بأن مكدرموت غلبه، وأنه خرج من المساومة في أحسن حال.

والآن يا سيدى، كانت هذه هي القمصان نفسها التي تحدثوا عنها طويلاً في المحاكمة، واضطربت الأقوال كثيراً بشأنها، فأولاً، قال مكدرموت في البداية أنه حصل عليها من أحد الباعة، ثم غير أقواله وقال أنه حصل عليها من أحد الجنود. لكن كلتا المقولتين كانت صحيحة بمعنى من المعانى، وأعتقد أنه غير أقواله بهذه الطريقة لأنه لم يرد أن يقف جيرميا في المحكمة ضده، فهو يعرف أنه صديقى، وأنه قد يساعدى ويشهد شهادة سيئة على شخصيته؛ أو لابد أنه فكر هكذا. وثانياً، لأن الصحف لم تستطع أن تصل إلى الرقم الصحيح للقمصان. لكنها كانت أربعة، وليس ثلاثة كما قالوا؛ ذلك أنه كان هناك اثنان في خُرج السفر الخاص بمكدرموت، وواحد وُجد مغطى بالدم خلف باب المطبخ؛ وهو الذى كان يرتديه مكدرموت عندما كان يحاول التخلص من جثة مستر كينير. وكان الرابع على جثة مستر كينير نفسها، لأن مكدرموت ألبسه إياه. وإذن، فهي أربعة قمصان لا ثلاثة.

سرت مع جيرميا حتى منتصف الممشى، ومكدرموت ينظر من باب المطبخ بعبوس مشئوم؛ لكنى لم أهتم بما قد يظن، فهو لا يملكنى. وعندما كنا على وشك الافتراق، نظر لى جيرميا بجدية شديدة، وقال أنه سوف يأتى قريباً جداً ليعرف الرد، وأنه يأمل لأجل خاطرى وخاطره نفسه بالمثل أن يكون الرد بنعم. وشكرته على تمنياته الطيبة، وقلت له أن مجرد معرفتى أننى أستطيع الابتعاد إذا أردت جعلنى أشعر بمزيد من الأمان ومزيد من السعادة أيضاً.

عندما عدت إلى البيت، قال مكرموت أنه كان من الطيب  
التخلص منه، وأنه لم يشعر بمودة تجاه الرجل، حيث أن له مظهرًا يميل  
لأن يكون أجنبيًا وضيعًا، وأنه يظنه جاء يتشمم المنطقة حولي كما يفعل  
كلب يبحث عن كلبة أنثى تطلب المعاشرة. لم أرد على هذه الملاحظة،  
لأنني وجدتها شديدة الدناءة، وأدهشني عنف التعبير؛ وسألته أن يتكرم  
بإخلاء المطبخ من وجوده، حيث حان الوقت لأشغل نفسي بإعداد العشاء.  
وهنا فقط تذكرت البازلاء التي وقعت مني في الحديقة، فخرجت  
لالتقاطها.

بعد بضعة أيام زارنا الطبيب. كان اسمه د. ريد، وهو رجل من  
علية القوم، متقدم في السن، أو هكذا يبدو؛ لكن الأطباء من الصعب أن  
تعرف حقيقة أعمارهم، حيث تكتسى وجوههم بالأخايد ويحملون أنواعًا  
عديدة من الأمراض معهم، في حقائبهم الجلدية حيث يحتفظون بالسكاكين،  
وهو ما يجعلهم يشيخون قبل الأوان؛ وكما هو الأمر مع الغربان، عندما  
ترى اثنين أو ثلاثة منها مجتمعين سويًا تعرف أن هناك موتًا وشيكًا، وأنهم  
يناقشونه. الغربان يقررون أية أجزاء سيمزقونها ويهربون بها، ونفس  
الشيء مع الأطباء.

لا أقصدك يا سيدى، فليس معك حقيبة جلدية، ولا سكاكين.

عندما رأيت الطبيب يأتى عبر الممشى راكبًا عربته الخفيفة التى  
يجرها حصان واحد، شعرت بقلبي يخفق خفقات مؤلمة، وظننت أنني  
سيُغمى عليّ، لكن هذا لم يحدث، فقد كنت وحدى أسفل السلم ويجب أن  
ألبى أية طلبات، فنانسى لن تفيد وهى راقدة فى الأعلى.

فى اليوم السابق كنت أساعدها فى ضبط الثوب الجديد الذى كانت  
تصنعه، وقضيت حوالى الساعة على ركبتى وفمى ملئ بالدبابيس وهى  
تلف وتتنظر إلى نفسها فى المرآة. وقالت أنها لاحظت أن وزنها يزداد

وجسدها يسمن، فقلت أنه من المستحسن أن تمتلئ ببعض اللحم، فليس من المفيد أن تكون مجرد جلد على عظم، وأن السيدات الشابات فى أيامنا أصبحن يقمن بتجويج أنفسهن بسبب الموضة، التى كانت تقتضى أن تكون الفتاة شاحبة ومتمارضة، وكن يربطن مشداتهن بشدة لتضييقها جدًا حتى يغمى عليهن من مجرد نظرة. وكانت مارى هويتتى تقول أن لا رجل يريد هيكلًا عظيمًا، بل يحبون أن يكون هناك ما يمسون به، شىء فى مقدمة الجسم وشىء فى خلفيته، وكلما كانت العجيزة أكبر كلما كان ذلك أفضل؛ لكنى لم أقل هذا لنانسى. كان الثوب الذى تصنعه من لون كريمى فاتح من قماش أمريكى مطبوع عليه براعم وأغصان صغيرة، وله صدرية ذات ثنيات تنزل تحت الوسط بطرف مدبب، ولتتورته ثلاث طبقات من الحواشى المكشكشة؛ وقلت لها أنه جذاب جدًا.

عبست نانسى لنفسها فى المرأة، وقالت أن وسطها مع ذلك آخذ فى الازدياد بشدة، وإذا استمر الأمر فإنها سوف تحتاج لمشدتين جديدين، وسرعان ما ستصبح امرأة شديدة البدانة.

عضضت لسانى ولم أقل أنها لو منعت أصابعها من الغوص فى الزبد فقد تقلل من سرعة الزيادة فى وزنها. فقبل الإفطار ابتلعت نصف رغيف من الخبز، بعد أن وضعت عليه طبقة سميكة من الزبد ومربى الخوخ. وفى اليوم السابق، رأيتها تأكل شريحة من الدهن الصافى مقطوعة من فخذ الخنزير المحفوظ فى خزانة الأطعمة الباردة.

وكانت قد طلبت منى أن أشد لها المشد أضيق قليلاً، ثم أحاول ضبط الوسط مرة أخرى؛ ولكن وأنا أفعل ذلك قالت إنها تشعر بوعكة. ولم يكن ذلك مثيراً للدهشة وهى تأكل كل هذا، رغم أننى كنت أضبطه فى

نفس مستوى ضيق الرباط. ولكنها هذا الصباح تعرضت أيضا لدوخة، أو هذا ما قالت؛ وكان ذلك دون تناول أى إقطار، ودون أن يكون هناك أى تضيق للرباط. وبدأت أعجب فى نفسى ما الأمر، وظننت أنه تم استدعاء الطبيب من أجل نانسى.

عندما رأيت الطبيب أتياً كنت بالخارج فى الفناء، أملاً دلوًا آخر من الماء للغسيل؛ فقد كان صباحًا جميلًا، وكان الهواء قويًا والجو صافيًا، والشمس مضيئة حارة، فهو يوم مناسب للتجفيف. خرج مستر كينير للترحيب بالطبيب، الذى ربط الجواد إلى السياج، ثم دخلا البيت من الباب الأمامى. استمررت فى أداء مهمتى وسرعان ما كان الغسيل معلقًا على الحبل، وكان غسيلًا أبيض، مكونًا من قمصان وملابس نوم، وملابس داخلية وما إلى ذلك، ولكن لم تكن هناك ملاءات؛ وكنت أتساءل طوال الوقت ترى ماذا يفعل الطبيب مع مستر كينير.

دخلا كلاهما إلى مكتب مستر كينير الصغير، وأغلقا الباب؛ وبعد أن فكرت لحظة، ذهبت بهدوء إلى المكتبة الملاصقة لإزالة الأتربة عن الكتب؛ لكنى لم أكن قادرة على سماع أى شىء من داخل المكتب، اللهم إلا بعض المهمة.

مر بخيالى كل شىء ممكن، كأن يكون مستر كينير يسعل دمًا وأنه يلهث بشدة، وكنت أحاول أن أشغل نفسى بالعمل وأنا فى حالة من التوتر والقلق عليه. ولذلك عندما سمعت أكرة باب المكتب تدور ذهبت بسرعة من غرفة الطعام إلى الردهة الأمامية وأنا أحمل المنفضة وقماش التنظيف، فمن الأفضل دائمًا أن يعرف المرء أسوأ الأشياء. رافق مستر كينير الطبيب إلى المدخل الأمامى، وقال الطبيب أنه متأكد أنهم سيحظون

بمتعة صحبة مستر كينير سنوات كثيرة قادمة، وأن مستر كينير كان يقرأ كثيراً من المجلات الطبية، مما أوحى له بأفكار غير صحيحة، وجعله يتخيل أشياء، وأنه ليس ثمة شيء في صحته لا يشفى بمجرد نظام غذائي وتنظيم ساعات اليوم؛ ولكنه يرجوه، من أجل سلامة كبده، أن يقلل من شرب الكحوليات. هذا الكلام أشعرنى بالارتياح، لكننى فكرت أنه كلام يمكن أن يقوله الطبيب لشخص يموت، لمجرد أن يريحه ويعفيه من القلق.

نظرت بحذر من النافذة الجانبية إلى خارج الردهة. ذهب د. ريد إلى عربته وحصانه، وبعد ذلك مباشرة رأيت نانسى فجأة، وقد لفت نفسها بشال وشعرها نصف مسدل، تتحدث معه. ولا بد أنها تسالت على السلم إلى أسفل دون أن أسمعها، وهذا معناه أنها أرادت ألا يسمعها مستر كينير أيضاً. وفكرت أنها ربما كانت تحاول معرفة ما الذى يعانى منه مستر كينير، إذا كان يعانى من أى شيء، لكن حينئذ خطر ببالي إنها قد تكون هى نفسها تستشير الطبيب أيضاً فى مرضها المفاجئ.

رحل د. ريد فى عربته، واستدارت نانسى نحو خلفية البيت. وسمعت مستر كينير يناديها من المكتبة؛ ولأنها كانت لا تزال بالخارج، وربما لم تكن تريد أن يعرف أحد ماذا تفعل، ذهبت إليه بنفسى. ولم يكن يبدو على مستر كينير أنه فى حالة أسوأ من المعتاد، وكان يقرأ فى نسخة من المجلة الطبية "المبضع"، من الكومة الكبيرة المرصوفة منها على أحد الأرفق. كنت أنا نفسى أحياناً أهدق فى هذه المجلات أثناء تنظيف الغرفة، ولكنى لم أفهم أى شيء من الكثير الذى تمتلئ به، إلا أن بعض ما فيها كان حول وظائف جسدية لا يجب وضعها فى مجلة أو طباعتها، حتى مع كل هذه الأسماء العجيبة.

قال مستر كينير: حسناً يا جريس، أين سيدتك؟

قلت أنها لم تكن في حالة طيبة، وأنها راقدة في الطابق العلوي، وإذا كان يرغب في أن أحضر له شيئاً فسأفعل ذلك بنفسى. قال أنه يريد بعض القهوة، إذ لم يكن فى ذلك مشقة كبيرة. قلت أنه لا توجد أية مشقة، ولكن الأمر قد يستغرق بعض الوقت لأننى قد أحتاج إلى إيقاد النار من جديد؛ فقال أن أحضرها له عندما أنتهى من إعدادها، وشكرنى كما يفعل دائماً.

ذهبت إلى المطبخ الصيفى عبر الفناء. وكانت نانسى هناك، جالسة إلى المنضدة وتبدو تعباً وحزينة وشديدة الشحوب. قلت أننى أرجو أن تكون أفضل الآن، فقالت إنها كذلك، وسألتنى ماذا أفعل، وكنت أحرك النار التى كادت تخبو تماماً، فقلت إن مستر كينير يريدنى أن أصنع له بعض القهوة، وأن آتية بها.

قالت نانسى: لكننى أنا التى آخذ القهوة إليه دائماً، فلماذا طلب ذلك منك؟

قلت أننى متأكدة أن ذلك كان بسبب أنها لم تكن موجودة. وأننى كنت فقط أحاول أن أعفيها من العمل، لمعرفتى بأنها مريضة.

قالت: سأخذها إليه. وأريدك يا جريس فى هذا المساء أن تدعى هذه الأرضية. إنها شديدة القذارة، وقد تعبت من الحياة فى زريبة خنازير.

ولا أظن أن قذارة الأرض كان لها صلة بأى شىء، لكنها كانت تعاقبنى، لدخولى إلى مكتب مستر كينير بنفسى؛ وكان هذا ظلماً كبيراً، لأننى ما كنت إلا أحاول مساعدتها.



رغم أن ذلك اليوم بدأ جميلاً وصافياً، إلا أنه ما أن أقبل الظهر حتى تحول إلى يوم كئيب ثقيل الوطأة. لم تكن ثمة نسمة تتحرك، وكان الهواء رطباً، واختفت السماء خلف سحب رمادية مصفرة بطيئة الحركة، ولكنها مضيئة من الخلف، مثل المعدن المحمي، وكان لها مظهر عقيم منذر بالشر. وفي مثل هذا الجو غالباً ما يصبح مجرد التنفس صعباً. ورغم ذلك، ففي العصر، لو سار كل شيء كالمعتاد، لكنت أجلس ربما بالخارج أخذ نفساً من الهواء، وأنا أعكف على إصلاح الثياب، لأعطي قدمي بعض الراحة من الوقوف عليهما أغلب الوقت كل يوم. ولكنني، بدلاً من ذلك، كنت على ركبتي، أدعك الأرض الحجرية في المطبخ الصيفي. كانت الأرض بحاجة للتنظيف بالفعل، لكنني كنت أرجئها إلى يوم أكثر اعتدالاً، فقد كان الحر كافياً لقلبي البيض؛ وكان العرق يتصبب مني مثلما يتصبب الماء من البطة، ومعذرة يا سيدي إذ أستخدم هذا الوصف. كنت قلقة على اللحم في خزانته في غرفة الخزين، فقد كان هناك ذباب أكثر من المعتاد يطن حولها. وإذا كنت مكان نانسي ما كنت طلبت كل هذا القدر من اللحم في مثل هذا الجو الحار، فمن المؤكد أنه سيفسد، ويعتبر هذا تبديداً وعبئاً كبيراً؛ وكان يجب وضعه في القبو، حيث البرودة. لكنني كنت أعرف أن لا فائدة من أية اقتراحات أقولها لها، لأنني لن أخرج من ذلك إلا بوجع الدماغ.

كانت الأرض في قذارة الإسطبل، وساءلت نفسي متى تم تنظيفها بشكل جيد لآخر مرة. وقد كنتها أولاً طبعاً، والآن كنت أغسلها بالطريقة السليمة، وأنا أرجع بكل ركبة على قطعة قماش قديمة لحمايتها من صلابة الحجر وخشونته، وكنت قد خلعت حذائي وجوربي، لأنه إذا أردت أن تؤدي العمل جيداً يجب أن تتصرف كلك إليه، وقد طويت كمي رداً فوق

الكوعين، وشدت تنورتى وملابسى الداخلية بين ساقى وعلقتها بحزام  
مريلتى، وهو ما قد تفعله أنت نفسك يا سيدى لتتقذ جوربيك وثيابك كما  
يعلم أى شخص حاول أن يدعك أرضية. كان لدى فرشاة خشنة جيدة  
للدعك وقطعة قماش قديمة للمسح، وبدأت العمل من الركن البعيد، متحركة  
إلى الخلف نحو الباب، فلن تريد أن تحبس نفسك فى أحد الأركان،  
يا سيدى، عندما تقوم بأداء مثل هذه المهمة.

وسمعت شخصاً يدخل المطبخ من خلفى. فقد كنت تركت الباب  
مفتوحاً ليدخل أى هواء قد يكون هناك، وبذلك تجف الأرضية أسرع.  
وفكرت أنه لا بد أن يكون مكرموت.

قلت له وأنا مستمرة فى الدعك: لا تدخل فوق أرضيتى النظيفة  
بحذائك الملوث بالروث.

لم يرد، لكنه أيضاً لم يذهب. بل ظل واقفاً فى مدخل الباب. وطراً  
بذهنى أنه واقف يراقب ساقى وكوعى العارية، بما هى فيه من القذارة،  
وإذا غفرت لى يا سيدى، يراقب مؤخرتى وهى تتحرك أماماً وخلفاً مع  
قيامى بدعك الأرضية، مثل كلب يهز ذيله.

قلت له: أليس لديك ما تفعله أفضل من ذلك. إنك لا تأخذ أجراً  
لتقف هناك متثائباً. وأدرت رأسى لأنظر إليه من فوق كتفى. لم يكن  
مكرموت على الإطلاق، وإنما مستر كينير بنفسه، وعلى وجهه بسمة  
وكانه يظن أنها نكتة جيدة. قفزت واقفة، وأنا أشد تنورتى لأنزلها بيد  
واحدة، والفرشاة بيدي الأخرى، والماء القذر يقطر منها على ثوبى.

قلت: يا إلهى، إننى أسفة يا سيدى، لكننى ساءلت نفسى لماذا  
لم يتصرف بشكل لائق ويقول من هو؟

قال: لا عليك، "فحتى القطة يمكن أن تنظر إلى الملكة"، وفي تلك اللحظة دخلت نانسي من الباب، ووجهها شاحب كالطباشير، وقد ظهر لون قاتم حول أنفها، لكن عينيها كانتا حادتين كالإبر.

"ما الأمر؟ ماذا تفعلين هنا؟" قالت ذلك لي، لكنها كانت تقصده هو.

قلت: "أدعك الأرضية يا سيدتي، كما أمرتني أن أفعل". وفكرت: كيف يبدو الأمر لها، هل ترانى أرقص؟

قالت نانسي: "أنت تردين على، لقد سئمت وقاحتك". ولكني لم أكن وقحة، فلم أفعل إلا أن أجبت سؤالها.

قال مستر كينير وكأنه يعتذر — ولكن ماذا فعل ليعتذر عنه؟ — قال: كل ما أردت هو كوب آخر من القهوة.

قالت نانسي: سأصنعه لك، جريس، يمكنك الذهاب.

قلت: أذهب إلى أين يا سيدتي، ولم أنجز إلا نصف الأرضية!.

قالت نانسي: إلى أى مكان، اخرجي من هنا. كانت فى غاية الغضب منى، وأضافت: وبحق الله لمى شعرك، فشكلك مثل الكلبة السائمة.

قال مستر كينير: سأكون فى المكتبة، وذهب.

أخذت تتخس النار فى الموقد وكأنها تطعنها بسيف. وقالت لى: اغلقى فمك، وإلا امتلأ بالذباب. وعليك أن تصمتى تماماً فى المستقبل، إذا كنت تعرفين مصلحتك.

فكرت أن أرميها بفرشاة الأرضية، والدلو أيضاً، لتتعال عقاباً مناسباً، والماء القذر وكل شيء، وتصورتها واقفة هناك وشعرها يتدلى مبللاً بالماء القذر على وجهها، كشخص غارق.

ولكن فجأة ظهر لي بوضوح ما هي مشكلتها، لقد رأيت هذا مرات كافية من قبل. أكل أطعمة غريبة في أوقات غير مناسبة، الدوخة والاختضار حول الفم، الطريقة التي يزداد بها وزنها، مثلما ينتفخ الزبيب في الماء الساخن، وتوترها وسخطها. كانت في حالة حرجة. كانت في طريقها لإنجاب طفل، كانت في ورطة.

وقفت هناك أهدق فيها، وكأن شخصاً ركبنى في بطني. وفكرت، يا إلهي، لا، يا إلهي، لا. وشعرت بقلبي يدق بشدة كالمطرقة. لا يمكن هذا.

في تلك الليلة كان مستر كينير في البيت، وتناول عشاءه مع نانسي في غرفة الطعام، وحملته إليهما بنفسى. نظرت إلى وجهه أستطلعته، أحاول البحث عن أى وعى أو معرفة بحالة نانسي، لكنه لم يكن يعرف. وتساءلت ترى ماذا سيفعل إذا اكتشف؟ هل يركلها إلى أقرب مصرف قاذورات؟ هل يتزوجها؟ لم تكن لدى أية فكرة، ولم أشعر بأى راحة لأى من الفكرتين عن مستقبل هذا المكان. كنت أتمنى ألا تصاب نانسي بأذى، ولم أكن أريد لها أن تلقى في الطريق، شريفة في الطرقات وفريسة للأندال المتشردين، لكن في نفس الوقت أكون من العدل والإنصاف أن ينتهى بها الحال إلى أن تكون سيدة محترمة متزوجة ويوضع الخاتم في إصبعها، وفوق ذلك أن تصبح ثرية أيضاً! أكون هذا صواباً؟! لقد فعلت مارى هويتى نفس ما فعلته، ولم يكن نصيبها إلا الموت. فلماذا تكافأ واحدة وتعاقب أخرى على ارتكاب نفس الإثم؟

بعد أن خرجا إلى الردهة أخليت السفارة كالعادة. وفي ذلك الوقت، كان الجو قد أصبح في مثل حرارة الفرن، والسحب الرمادية تحجب الضوء، رغم أن الغروب لم يحن بعد، وأصبح الهواء ثقيلًا كهواء القبور، لا ريح فيه، ولكن البرق الساخن كان يضطرم في الأفق ويعقبه صوت رعد ضعيف متردد. وعندما يكون الجو هكذا يمكنك أن تسمع دقات قلبك؛ كما لو كنت مختبئًا وتنتظر شخصًا أن يأتي ويجدك، ولا تعرف من يكون هذا الشخص. أشعلت قنديلاً لأرى على ضوءه عشائي، والذي تناولته مع مكرموت، كان روست بقر بارد، فلم أستطع أن أتحمل طبخ شيء ساخن لنا. وأكلناه في المطبخ الشتوي، وشربنا بيرة معه، وبعض الخبز الذي كان لا يزال طازجًا وجميلًا جدًا، مع شريحة أو اثنتين من الجبن. ثم غسلت أواني العشاء وجففتها ووضعتها في أماكنها.

كان مكرموت ينظف الأحذية؛ وأثناء العشاء كان متجهماً وقال لماذا لا نتناول عشاء مطبوخًا لائقًا، مثل شرائح اللحم بالبسلة التي أكل منها الآخرون، قلت له أن البسلة الجديدة لا تزال قليلة على الشجيرات، وعليه أن يعرف من له الأولوية الأولى، فلم يكن الموجود يكفي إلا اثنتين؛ وعلى أية حال فإنني كنت خادمة مستر كينير لا خادمته، فقال أنني لو كنت خادمته لما بقيت طويلًا بالخدمة، حيث أنني ساحرة غبية عصبية، وعلاجي الوحيد هو اللسع بالحزام؛ فقلت إن الكلمات السيئة لا تفيد شيئًا.

وصلني صوت نانسي من الردهة، وعرفت أنها لا بد تقرأ بصوت مرتفع. كانت تحب أن تفعل ذلك، فقد كانت تعتقد أنه دلالة على الرقي؛ ولكنها كانت دائمًا تتظاهر بأن مستر كينير كان يطلب ذلك منها. كانا قد تركنا نافذة الردهة مفتوحة، رغم أن الحشرات الطائرة قد تدخل بهذه الطريقة، ولذلك استطعت أن أسمعها.

أشعلت شمعة أخرى وقلت لمكدرموت أننى سأذهب للنوم، ولم يرد بأكثر من غمغمة، وأخذ قنديله وخرج. وبعد أن ذهب، فتحت باب الممر ونظرت عبره. كان ضوء المصباح الكروى الكبير يسقط من باب الردهة نصف المفتوح، مشكلاً رقعة من الضوء على أرضية الممر، وكان صوت نانسى يأتى إلى الصالة أيضاً.

سرت بهدوء فى الممشى، تاركة شمعتى على منضدة المطبخ، ووقفت أستند إلى الجدار. كنت أريد أن أسمع القصة التى كانت تقرأها. كانت تقرأ من قصة "سيدة البحيرة"، التى قرأتها أنا ومارى هويتى سوياً ذات مرة، وأحزنتنى أن أستعيدها. كانت نانسى تقرأ بشكل معقول، رغم أنها بطيئة نوعاً، وتتعثّر أحياناً فى كلمة أو أخرى.

كانت المرأة المجنونة المسكينة قد أصيبت خطأ بالطلق النارى لتوها، وتموت، بينما تتلو عدة أسطر من الشعر؛ وفكرت أنه جزء فى غاية الكآبة؛ لكن مستر كينير لم ير ذلك، لأنه قال أنه من المدهش أن يستطيع أى إنسان أن يتحرك بوصة واحدة فى مثل تلك الطبيعة الرومانتيكية فى إسكتلنده، دون أن يقابل امرأة مجنونة، فقد كانت النساء المجنونات يقفزن أمام السهام والطلقات التى لم تكن موجهة نحوهن، والتى لم يكن لها إلا فضل وضع نهاية لمشاجراتهن وتعاستهن؛ وإلا لألقين بأنفسهن باستمرار فى المحيط، وربما كان من الممكن أن يحدث ذلك بمعدل يصل إلى إغلاق البحر لكثرة أجسادهن الغارقة التى ستصبح عائقاً خطيراً أمام السفن. وحينئذ قالت نانسى أنه لا يتمتع بمشاعر طيبة؛ وقال مستر كينير إن ذلك غير صحيح، ولكن من المعروف جيداً أن سير والتر سكوت قد وضع جثثاً كثيرة فى كتبه من أجل خاطر السيدات، لأن السيدات مغرمات بالدم، ولا شىء يشعرهن بالسعادة مثل جثة تنهاوى.

قالت نانسي له بمرح أن عليه أن يسكت ويحسن من سلوكه، وإلا فسوف تعاقبه وتتوقف عن القراءة، وتلعب على البيانو بدلاً من ذلك، وضحك مستر كينير وقال أنه مستعد لتحمل أى نوع من التعذيب إلا هذا. وسمعت صوت صفة خافتة، وخشخشة ثياب، وقلت لا بد أنها جالسة على ركبتيه. وساد الهدوء بعض الوقت، حتى سأل مستر كينير نانسي هل بلعت القطة لسانها فلم تعد تستطيع الكلام؟ ولماذا استغرقت فى التفكير هكذا؟

انحنيت إلى الأمام، فقد ظننت أنها على وشك أن تخبره بحالتها، وحينئذ سأعرف كيف تسير الأمور؛ لكنها لم تفعل. وبدلاً من ذلك قالت له أنها تشعر بالقلق بسبب الخدم.

أى من الخدم؟ كان مستر كينير يريد أن يعرف، فقالت نانسي: الاثنان، وضحك مستر كينير وقال طبعاً، هناك ثلاثة من الخدم فى البيت، لا اثنان، لأنها هى نفسها خادمة، وقالت نانسي إنه لطيف منه أن يذكرها بذلك، وأنها يجب أن تتركه الآن لأن لديها واجباتها فى المطبخ والتي يجب أن تقوم بها، وسمعت صوت الخشخشة مرة أخرى، وصوت مقاومة أيضاً، وكأنما كانت تحاول القيام. ضحك مستر كينير ثانية وقال أنه يجب عليها أن تبقى حيث هى، وأن هذا أمر سيدها، قالت نانسي بمرارة إنها ستقوم بما يفترض أنه يدفع لها أجرها من أجله، فأخذ يسترضيها ويهدئها، وسألها ما الذى يقلقها من أمر الخدم، قال: هل العمل يُنجز؟ هذا هو الأمر الأساسى، وأنه لا يهتم من ينظف له حذاءه ما دام يجده نظيفاً، وأنه يدفع أجوراً طيبة ويتوقع أن يلقي تقديراً مقابل نقوده.

قالت نانسي: نعم، العمل يُنجز، ولكن فى حالة مكرموت لا ينجز العمل إلا لأنها تقف على رأسه بكرجاج، وأنه عندما وبخته على كسله

تحدث معها بوقاحة، وقد أعطته مذكرة بإنهاء خدمته. فقال إنه بكل تأكيد وغد قبيح، وإنه لم يعجبه أبداً، ثم قال: وماذا عن جريس. وأرهفت أذني، فالأفضل أن أسمع ما سوف تقول نانسي.

قالت أنني دقيقة وسريعة في عملي، ولكنني أصبحت كثيرة الشجار أخيراً، وأنها تفكر في إنهاء خدمتي، وعندما سمعت هذا شعرت بحرارة عنيفة تندفع إلى وجهي. ثم قالت أن هناك شيئاً بالنسبة لي يجعلها تشعر بالقلق، وأنها تتساءل إذا ما كنت في تمام العقل حيث إنها سمعتني مرات عديدة أكلم نفسي بصوت مرتفع.

ضحك مستر كينير، وقال أن هذا لا شيء، وأنه هو نفسه كثيراً ما يتحدث إلى نفسه، فهو أفضل متحدث يعرفه. وأني كنت بلا شك فتاة جذابة، وأن لي سيماء طبيعية مهيبة، وبروفيل إغريقي نقي، وأنه إذا ألبسني ثياباً مناسبة وطلب مني أن أرفع رأسي وأن أغلق فمي، يمكن أن يظنني الناس سيدة من علية القوم.

قالت نانسي أنها تتمني بالتأكيد ألا يذكر أبداً أيّاً من هذا الإطراء لي، فقد يدير رأسي بمثل هذا الكلام، ويوحى لي بأفكار فوق مكانتي، ولن يكون هذا في صالحى. ثم قالت أنه لم ير أبداً مثل هذه الأشياء اللطيفة فيها؛ وقال هو شيئاً لم أستطع سماعه، وساد مزيد من الصمت ومزيد من الخشخشة. ثم قال مستر كينير إن الوقت قد حان للذهاب إلى الفراش. فأسرعت عائدة إلى المطبخ، وجلست إلى المنضدة؛ فلم يكن خيراً أن تمسك بي نانسي أتتصت عليهما.

لكنني عدت أتتصت بعد ذلك، بمجرد أن صعدا إلى أعلى، وسمعت مستر كينير يقول أعرف أنك مختبئة، اخرجي الآن حالاً



أبتها الفتاة القذرة، افعل ما أقول لك، وإلا سأضطر إلى إمساكك،  
وإذا أمسكتك ...

ثم ضحكة من نانسي، ثم صرخة خافتة.

كان الرعد يقترب. لطالما كرهت العواصف الرعدية، وكنت  
أكرها حينئذ. عندما ذهبت إلى الفراش، أغلقت المصاريع جيداً حتى  
لا يستطيع أى رعد أن يصل إليّ، وشدت الغطاء فوق رأسي، رغم الحر  
الشديد، وفكرت أنني لن أتمكن من النوم أبداً. لكنني نمت، وأيقظني هزيم  
رعد هائل في الظلام الحالك، وكأن نهاية العالم قد حانت. كانت عاصفة  
عنيفة تصطبخ بأصوات طبول وزئير، وانتابني رعب شديد، وانكشيت  
في فراشي أدعو الله أن تمر العاصفة، وأنا أغلق عيني حتى لا أرى  
ومضات البرق التي كانت تدخل من الشقوق الموجودة في الشباك. كان  
المطر ينهمر كوابل، والبيت يهتز بفعل الريح مثل أسنان تصرّ، وفي كل  
دقيقة كان يملؤني الاعتقاد أنه سينقسم نصفين مثل سفينة في البحر،  
ويغوص في الأرض. وحينئذ، بجوار أذني مباشرة، سمعت صوتاً يهمس:  
هذا لا يمكن أن يحدث. ولا بد أنني أحسست برعب شديد حتى أصبت  
بالإغماء، فبعد ذلك فقدت الوعي نهائياً.

ثم رأيت حلمًا شديد الغرابة. حلمت بأن كل شيء ساد الهدوء  
ثانية، وأني قمت من فراشي في قميص النوم، وفتحت رتاج غرفة نومي،  
وسرت على أرضية المطبخ الشتوي بقدمين حافيتين، وخرجت إلى الفناء.  
كانت السحب قد انقشعت، والقمر مشرقاً وضاءً، وبدت أوراق الأشجار  
كريش فضي ناعم؛ وأصبح الهواء أكثر برودة، وبه ملمس ناعم كلمس  
القطيفة، وانساب صرير الجنادب. كان يمكنني أن أشم رائحة الحديقة

المبللة، والرائحة النافذة لحظيرة الدجاج؛ كما كان يمكننى سماع صهيل تشارلى يأتى ناعماً من الإسطبل، وهو ما يعنى أنه كان يعرف بوجود أحد قريباً منه. وقفت هناك فى الفناء بالقرب من الطلمبة، وضوء القمر يغمرنى كالماء؛ وبدا كما لو أننى لا أستطيع الحركة.

ثم انسرقت ذراعان والتفتا حولى من الخلف، وبدأتا تهدداننى. كانا ذراعى رجل؛ وأحسست بلمس فم هذا الرجل على رقبتى وحدى، يقبلنى بحرارة، وجسده يضغط على ظهرى؛ وكأنما كنت ألعب "سلطح"، التى يلعبها الأطفال، لم أكن أستطيع تخمين من ذلك، ولا. أستطيع أن ألتفت وأنظر. وشعرت برائحة غبار الطريق ورائحة جلدية، وفكرت أنه قد يكون جيرميا البائع المتجول؛ ثم تغيرت إلى رائحة روث الحصان، ومن ثم فكرت أنه مكدرموت. ولكننى لم أستطع أن أنتزع نفسى لأدفعه عنى. ثم تغيرت الرائحة مرة أخرى، وشممت عبير التمباك، ورائحة صابون الحلاقة الجيد الخاص بمستر كينير، ولم يدهشنى ذلك، بفقد كنت أتوقع منه شيئاً من هذا القبيل، وطوال هذا الوقت كان فم الرجل الذى لا أعرفه فوق رقبتى، وكنت أشعر بأنفاسه تحرك شعرى. ثم شعرت أنه لم يكن أيّاً من هؤلاء الثلاثة، وإنما رجل آخر، شخص عرفته جيداً، وأفته طويلاً، ربما حتى منذ طفولتى، لكننى نسيته زمناً طويلاً؛ كما أن هذه لم تكن هى المرة الأولى التى أجد فيها نفسى معه فى هذه الحالة. شعرت بدفء ونعاس واهن يتسلل ليغطينى، ويحتنى على الاستسلام، وأن أسلم نفسى؛ فهذا أسهل كثيراً من المقاومة.

ولكن فى هذه اللحظة سمعت صهيل جواد؛ وخطر لى أنه لم يكن صوت تشارلى، ولا صوت المهر الذى فى الحظيرة، ولكنه حصان مختلف تماماً. وغشيني خوف عظيم، وشعرت ببرد شديد يسرى فى جسدى،

ووقفت وكأنما شلنى الخوف؛ فقد عرفت أن هذا الجواد لم يكن جواذا أرضيًّا؛ بل ذلك الحصان الشاحب الذى سوف يأتى فى يوم الحساب، والفارس الذى يمتطيه هو الموت؛ وكان الموت نفسه هو الواقف خلفى وذراعاه يلتفان حولى بإحكام كرباطين من الحديد، وفمه الخالى من الشفاه يقبل عنقى وكأنما فى حالة حب. ولكن كما فى حالة الرعب، شعرت أيضًا بتوق غريب.

فى هذه اللحظة، أشرقت الشمس، ليس بالتدريج كما يحدث ونحن فى اليقظة يا سيدى، ولكن فجأة، وبضوء عظيم باهر. لو كان لها صوت لكان انطلاق أصوات عدد هائل من آلات الترومبيت؛ وذاب الذراعان اللذان كانا يطوقاننى. وشعرت بدوخة من البريق؛ ولكن عندما نظرت إلى أعلى، رأيت على الأشجار بجوار البيت، وكذلك على أشجار الحديقة، عددًا من الطيور الجاثمة، طيور ضخمة وبيضاء كالثلج. كان مشهدًا منظرًا بالسوء والشؤم، فقد بدت هذه الطيور جاثمة ومستعدة للانقضاض والتدمير؛ وعلى هذه الهيئة كانت أشبه بتجمع من الغربان، لكنها غربان بيضاء. ولكن عندما انجلى بصرى وأصبح المشهد صافيًا، رأيت أنها لم تكن طيورًا على الإطلاق، بل كان لها هيئة بشرية، وكانت هى الملائكة المتسرلة بثياب مغموسة بدم<sup>(\*)</sup>، كما جاء فى آخر الإنجيل؛ وكانت تجلس صامتة كما لو أنها فى محكمة معقودة للحكم على بيت مستر كينير، وعلى كل ما بداخله. ثم حينئذ رأيت أنها كانت بلا رعوس.

---

(\*) "ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض الجالس عليه يدعى أمينًا وصادقًا وبالعدل يحكم ويحارب" [....] "وهو متسريل بثوب مغموس بدم"، رؤيا يوحنا اللاهوتى، ١٩: ١١-١٣.

وفى داخل الحلم، فقدت الوعي بعد ذلك من شدة الرعب، وعندما ثبت إلى رشدى، وجدت نفسى فى فراشى، فى غرفتى الصغيرة، والغطاء مسحوب حتى أذنى. ولكن عندما صحوت – وقد كان الفجر لا يزال – وجدت طرف قميص نومى مبللاً، وعلى قدمى كانت آثار الأرض والحشائش؛ وفكرت أننى لابد كنت أتجول فى نومى بالخارج دون أن أشعر، كما حدث لى مرة من قبل، يوم ماتت مارى هوييتى؛ وغاص قلبى فى جوانبى.

وقمت أرتدى ثيابى كالمعتاد، وأنا أقسم أن أحتفظ بحلمى لنفسى، فمن هناك يمكن أن أثق به فى هذا البيت؟ فإذا حكيتك كنوع من التحذير مما يوحى به الحلم، لضحكوا علىّ. ولكن، عندما خرجت لأملأ أول دلو من الماء، فوجئت بالثياب التى غسلتها فى اليوم السابق وقد دفعتها الرياح على الأشجار نتيجة العاصفة فى الليلة الماضية. كنت قد نسيت أن أدخلها؛ ولم يكن من عادتى إطلاقاً أن أنسى شيئاً كهذا، خاصة غسلاً أبيض، وهو الذى عملت فيه كثيراً لتنظيفه من البقع، وكان هذا سبباً آخر ينذر بالشؤم فى نظرى. كما أن ملابس النوم والقمصان التى التصقت بالأشجار كانت تبدو بالفعل كملائكة بلا رءوس؛ وكأنما كانت ثيابنا نفسها تجلس فى محكمة منعقدة فوق رءوسنا.

لم أستطع أن أتخلص من الشعور بأن قدرًا مشئومًا يحوم حول البيت، وأن بعض من فيه قدّر عليهم الموت. ولو أعطيت لى فرصة حقيقية فى هذه اللحظة، لاخترت المخاطرة، وهربت مع جيرميا البائع المتجول، والواقع أننى أردت أن أجرى خلفه، ويا ليتنى فعلت؛ ولكنى لم أكن أعرف أين ذهب.

يكتب د. چوردان بلهفة، وكان يده تلاحق الكلمات بصعوبة شديدة، لم أره أبداً يكتب بمثل هذه الحيوية والسرعة. والحق أن قلبي تغشاه راحة عندما أستطيع أن أدخل بعض البهجة إلى حياة إنسان؛ وأفكر في نفسي ترى ماذا سيفعل بكل هذا.

الفصل التاسع  
قلوب وأحشاء



أثناء المساء دخل جيمي وولش، وجاء معه بالفلوت. قالت ناتسي: يمكن أن نستمتع ببعض اللهو. كان مستر كينير خارج البيت. قالت ناتسي لمكدرموت: "كنت تتشدد دائماً حول مهارتك في الرقص، تعال ولنرقص قليلاً"، لكنه كان شديد التجهم طوال المساء، وقال أنه لن يرقص. وفي حوالي الساعة العاشرة قمنا إلى النوم. ونمت في تلك الليلة مع ناتسي؛ قبل أن نقوم إلى النوم، قال لي مكدرموت إنه ينوي قتلها في تلك الليلة، بالفأس، وهي في فراشها. توسلت إليه ألا يفعل ذلك الليلة، فقد يقتلني بدلاً منها. قال "عليها اللعنة، إذن سأقتلها أول شيء في الصباح". استيقظت مبكراً صباح السبت، وعندما دخلت إلى المطبخ كان مكدرموت ينظف الأحذية، وكانت النار موقدة، سألتني أين ناتسي، قلت أنا،ها ترتدي ثيابها، وقلت: هل ستقتلها هذا الصباح؟ قال أنه سيفعل. قلت: مكدرموت، بحق الرب لا تقتلها في الغرفة، فسوف تمتلئ الأرض كلها بالدم. قال حسناً، لن أقتلها هناك، ولكني سأضربها بالفأس بمجرد أن تخرج .

اعتراف جريس ماركس

*Star and Transcript*، تورنتو، نوفمبر ١٨٤٣



كان القبو يمثل مشهداً بشعاً .. لم تكن ناتسى مونتجومرى قد ماتت كما ظننت، فالضربة أفقدتها وعيها فقط. وقد استعادت بعض حواسها، وكانت راكعة على ركبة واحدة ونحن ننزل السلم بالضوء. لا أعرف إذا كانت رأتنا، فلا بد أن الدم الذى كان يتدفق على وجهها قد أعمى عينيها؛ ولكن من المؤكد أنها سمعتنا، ورفعت يديها المتشابكتين وكأنما تطلب الرحمة. التفت إلى جريس، كان التعبير على وجهها المزرق أسوأ حتى من ذلك البادى على وجه المرأة التعسة. ولم تنطق بصرخة واحدة، لكنها وضعت يدها على رأسها وقالت:

"تقد لعننى الرب بسبب هذا."

قلت لها: "إن ليس لديك شيء آخر تخشين منه. اعطنى هذا المنديل من على رقبتك". أعطته لى دون كلمة. ألقيت نفسى على جسد مدبرة البيت، وارتكزت بركبتي على صدرها، وربطت المنديل حول رقبتها بعقدة واحدة، وأعطيت جريس أحد طرفى العقدة لتمسكه، بينما أخذت أشد الطرف الآخر بقوة. لأنهى هذا العمل البشع. خرجت عيناها من رأسها بالفعل، وخرجت منها آهة واحدة، وانتهى كل شيء. ثم قطعت الجسد إلى أربعة أجزاء، وألقيت دلو ماء عليها.

چيمس مكدرموت،

إلى كينيث ماكنزي، كما روته سوزانا مودي،

١٨٥٣، *Life in the Clearings*

... إذن، موت امرأة جميلة، هو بلا شك، أكثر  
الموضوعات شاعرية في العالم .....

إدجار آلان بو،

*The Philosophy of Composition, 1846*

حل الصيف بحرارته دون إنذار. وكان يوماً لا يزال ربيعياً بارداً، بأمطار غزيرة عاصفة وسحب باردة بيضاء بعيدة فوق الصفحة الزرقاء اللامعة للبحيرة؛ ثم فجأة ذبلت أزهار النرجس الصفراء، وانفجرت أزهار التيوليب متفتحة، وقد أخرجت داخلها إلى الخارج وكأنها تتنأب، ثم سقطت بتلاتها وارتفعت أبخرة البالوعات من الأفنية الخلفية والميازيب، وتكثف ضباب من الناموس حول رأس كل سائر. وفي الظهرية كان الهواء يومض كما يحدث في المسافة التي تعلو صفيحة ملتهبة، والبحيرة تسطع وتبعث أطرافها بروائح عفنة خفيفة متصاعدة من السمك الميت وبيض الضفادع. وفي الليل، يُحاصر مصباح سايمون بالفراشات الليلية التي ترف حوله، بأجنحة ناعمة الملمس مثل لمسات شفاة حريرية.

أصابه الدوار بسبب هذا التغيير. فحياته في فصول السنة الأوروبية التي تتغير بشكل أكثر تدريجية أنسأه هذه التغييرات الحادة. ملابسه ثقيلة كالقراء، وبشرته تبدو دائماً رطبة. ويشعر بانطباع أن رائحته تبدو كرائحة دهن الخنزير واللبن الحامض؛ أو ربما غرفة نومه هي التي تتبعث منها هذه الرائحة. فهي لم تنظف تنظيفاً جيداً منذ فترة طويلة جداً، ولا تم تغيير الملاءات: فرغم أن مسز همفري تسهب في سرد تفاصيل جهودها له بعبارات في طول هذه السطور كل صباح، إلا أنه لم يتم العثور

على خادمة تقوم بكل المهام. ووفقاً لما تقول، فإن الخادمة التي تركتها، دوراً، كانت تنشر قصصاً في كل مكان من المدينة – على الأقل بين كل الخاديات اللاتي يحتمل استخدام إحداهن – تتعلق بأن مسز همفري لم تدفع لها أجرها، وكادت أن تخرج من الأمر برمته على حكاية أنه لا توجد نقود؛ وبأن الميجور هرب، وهو أمر أكثر مدعاة للخزي. وهكذا، فإنها تقول لسايمون أنه من البديهي أن الخاديات لا يرغبن في تجربة فرصة العمل في مثل هذا البيت. وتبتسم ابتسامة تدعو إلى الرثاء.

وهي تطبخ الإفطار بنفسها، والذي لا يزالان يتناولانه سوياً على مائدتها – وكان هذا اقتراحها الذي وافق عليه سايمون، فسوف يكون من المهين لها أن تحمل الصينية إلى الطابق الأعلى. واليوم، يستمع سايمون إليها شاردًا مكفهر الوجه، وهو يعبث بشريحته من الخبز الرطب، والبيضة التي يأخذها الآن مقلية، فالبيضة المقلية، على الأقل، صريحة ولا تحمل مفاجآت.

الإفطار هو كل ما تقدر على عمله، فهي معرضة لنوبات من الانهيار العصبى والصداع، نتيجة رد فعل الصدمة – أو هكذا يفترض، وقد أخبرها به – وفي فترة بعد الظهر تكون دائماً ممددة في فراشها، وقد وضعت على جبهتها قطعة قماش مبللة تفوح منها رائحة قوية لزيت الكافور. وليس بمقدوره أن يتركها تموت جوعاً، ولذا فرغم أنه في معظم الأحيان يتناول غداءه في ذلك الفندق الحقيق، إلا أنه يحاول إطعامها من وقت لآخر.

بالأمس اشترى دجاجة من عجوز شمطاء في السوق، يبدو عليها الحقد، ولكنه لم يكتشف إلا بعد أن جاء بها إلى البيت أنها رغم اقتلاع

ريشها لم يتم تنظيفها من الداخل. ولم يستطع مواجهة المهمة – فلم يحدث أن قام بتنظيف دجاجة قبل ذلك في حياته – وفكر في التخلص من جثة الطائر. تمشية على شاطئ البحيرة، وأرجحة جيدة من الذراع... ولكنه تذكر حينئذ أن المسألة لا تزيد كثيراً على مهمة التشريح على أية حال، وأنه قام بتشريح ما هو أسوأ من الدجاج، وبمجرد أن يمسك مشرطه في يده – فهو يحتفظ بأدوات مهنته السابقة معه، في حقيبتها الجلدية – سوف يكون على ما يرام مرة أخرى، ويقوم بجراحة دقيقة. وبعد ذلك ساءت الأمور، لكنه استطاع أن ينجزها على الوجه الصحيح بحبس أنفاسه. وقطع الدجاجة إلى أجزاء وطبخها مقلية. جاءت مسز همفري إلى المائدة وهي تقول أنها تشعر بتحسن، وأكلت كمية منها تعتبر كبيرة بالنسبة لشخص بهذا الضعف؛ ولكن عندما حان الوقت لغسيل الأواني، ألمّت بها انتكاسة، واضطر سايمون لأداء هذه المهمة أيضاً بنفسه.

المطبخ أكثر قذارة وامتلاءً بالدهون حتى من يوم دخله لأول مرة. تجمعت حلقات الأتربة تحت الموقد، والعناكب في الأركان، وفتات الخبز بجوار الحوض، وانتقلت عائلة من الخنافس لتسكن في دولايب الخزين. والأمر المثير للمخاوف هو أنه ما أسرع ما ينحدر المرء إلى حالة القذارة. لا بد من فعل شيء سريع، الحصول على عبد ما أو خادم. فبالإضافة إلى القذارة، هناك مسألة المظاهر. فلا يمكن أن يستمر في الحياة وحده في هذا المنزل مع صاحبتة، خاصة إن كانت مثل تلك المرأة المرتجفة، والتي هجرها زوجها. فإذا انتشر خبر بذلك وبدأ الناس يتكلمون – بصرف النظر عما وراء مثل هذا الكلام من حقائق – فإن سمعته وموقفه المهني قد يتأثران. وقد أوضح له فضيلة الميجل ثرينجر أن أعداء

الإصلاحيين سوف يستخدمون أية وسائل، مهما كانت وضيعة، لhez الثقة في خصومهم، وفي حالة وجود فضيحة فإنه سوف يتم الاستغناء عنه فوراً. يمكنه على الأقل أن يفعل شيئاً بالنسبة لحالة البيت إذا استطاع أن يستجمع إرادته. بضربة واحدة يمكنه كنس الأرضيات والسلم، وأن ينفخ الغبار عن الأثاث في شقته، ولكن سيظل من غير الممكن إخفاء روائح قنبلة موقوتة من التحلل البطيء الكئيب، والذي تتسلل روائحه إلى أنفاسه من الستائر البالية، ويتراكم في الفرش والأثاث. وكان مقدم حرارة الصيف سبباً في ازدياد الأحوال سوءاً. ويتذكر في نوع من الحنين قعقة المنفضة في يد دورا؛ لقد أصبح يكن احتراماً شديداً لكل "دورا" في هذا العالم، ولكن رغم توقه إلى أن تجد كل مشاكل هذا البيت حلاً، لم تكن لديه أية فكرة عن كيفية تحقيق ذلك. وقد فكر مرة أو مرتين أن يسأل جريس النصيحة، ما هي الطريقة الصحيحة لاستئجار خادمة، كيف يمكن تنظيف الدجاج جيداً - لكنه غير رأيه، فلا بد أن يظل محتفظاً في نظرها بموقف الموثوق بأنه العارف بكل شيء.

مرة أخرى، تتحدث إليه مسز همفري، كما هي عاداتها، وهو يأكل الخبز، والموضوع هو عرفانها بفضلها. تنتظر حتى يكون فمه مليئاً بالطعام، ثم تشن الهجوم. تتجول نظراته عليها في حيرة - وجهها البيضاوي الشاحب، شعرها المشدود الخالي من الحيوية، وسطها المطلق الملفوف بالحزام الحريري الأسود، أطراف ثوبها من الدانتيل ذات الكسرات الحادة، لا بد أن هناك تديين من نوع ما تحت ثوبها المتيبس، وليس مجرد مشد مُنشىء، ثديان من اللحم الناعم، بحلمتين؛ ويجد نفسه يحاول بكسل أن يخمن لون هاتين الحلمتين، في ضوء الشمس أو في ضوء المصباح، وحجمهما. حلمتان ورديتان وصغيرتان كحلمات الحيوانات،

ربما حلقات أثناء الأرناب أو الفئران، أو ربما اللون الأقرب إلى الأحمر كلون العنب الناضج؛ أو اللون البنّي القرمزي كلون قشرة جوزة البلوط. ويلاحظ أن تخيلاته تتواصل متصاعدة حتى تصل إلى تفصيلات الخشب في الغابة البرية، والنتوءات الصلبة أو النافرة. والواقع أن هذه المرأة لا تتمتع بأية جاذبية بالنسبة له: لكن هذه الصور ترد إلى ذهنه دون استدعاء. يشعر بعينيه تعصران — ليس الصداع بعد وإنما ضغط بطيء. ويسائل نفسه إن كان مقدماً على حمى خفيفة؛ في هذا الصباح فحص لسانه أمام المرأة بحثاً عن بياض أو بقع ذات دلالة. فاللسان المريض يبدو مثل لحم العجل المسلوق: أبيض مائلاً للرمادي، ومغطى بالزبد.

الحياة التي يعيشها ليست صحية. إن والدته على حق، فلا بد أن يتزوج. "لأن التزوج أصلح من التحرق" (\*)، كما يقول بولس الرسول، أو ابحث عن العلاجات المعتادة. هناك بيوت سيئة السمعة في كينجستون، كما في كل مكان، لكنه لا يستطيع أن يستفيد من هذه البيوت كما يمكن أن يحدث في لندن أو باريس. فالمدينة صغيرة جداً، وهو لافِت للنظر جداً، ووضع حرج جداً، وزوجة المحافظ تقيّة جداً، وأعداء الإصلاح منتشرون في كل مكان — جداً. المسألة لا تستحق المخاطرة، خاصة وأن هذه البيوت لا بد أن تكون مثيرة للكآبة: حالة من الزيف المحزن، مع أفكار ريفية عن الإغراء تبدو آثارها في طرز الأثاث والفرش المثير للكآبة. إفراط في القماش المقصّب والشراريب. ولكنها أيضاً تتعامل بطريقة نفعية بالغة — إنها تجرى على مبدأ المدن الصناعية الأمريكية في الإنتاج السريع، والتكريس لمبدأ أعظم سعادة لأكبر عدد ممكن من الناس، بصرف النظر

---

(\*رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، ٧:٩).

عن كون هذه السعادة طفيفة للغاية، ومثيرة للاشمئزاز أيضاً. ملابس داخلية قدرة، ولحم العاهرات الذى لا يرى الشمس صاحب كرهيف لم يدخل الفرن بعد، وملطخ بأصابع البحارة الغليظة الملوثة بالقطران، وبأصابع أخرى أكثر أناقة، أصابع موظفى الهيئة التشريعية الحكومية الذين يمرون فى أسفارهم بالمدينة من حين لآخر، ويأتون ببلاهة وجبن مستخفين تحت أسماء مستعارة.

ولابد له أن يتجنب هذه الأماكن أيضاً، لأن مثل هذه التجارب تستنزف الطاقات العقلية.

تسأل مسز همفري: "هل أنت مريض يا د. چوردان؟" وهى تتاوله كوباً آخر من الشاى صبته دون أن يطلب. عيناها ساكنتان بلا حركة، خضراوان، زرقاوان، حدقتاهما صغيرتان وسوداوان. يستيقظ فجأة، فهل كان نائماً؟

تقول: "لقد كنت تضغط بيدك على جبهتك، هل تشعر بألم فيها؟"

لديها عادة الظهور الفجائى على بابها، وهو يحاول أن يركز فى عمله، لتسأله إن كان ثمة ما يحتاج إليه. فهى شديدة الجزع والتدقيق من ناحيته، ربما تكون حساسة تقريباً، لكن ثمة شيئاً ما فيها يُشعر بالتذلل والانكماش، وكأنما تنتظر صفة، أو ركلة، أو كفاً ثقيلة تطيح بها، وكأنها تعرف أن هذا قدر محتوم سيأتى إن عاجلاً أو آجلاً. ولكن ليس منه، ليس منه، يعترض فى صمت. إنه رجل معتدل الطباع، لم يكن ميالاً أبداً إلى انفجارات الغضب، أو الاهتياج العنيف. لا توجد أية أخبار عن الميجور. يفكر فى قدميها الحافيتين النحيفتين كمحارتين، إنهما معرضتان للخدوش والجروح بلا حماية، مربوطتان معاً بـ ... من أين أنته هذه الفكرة؟ —



قطعة عادية من القماش المجدول. كما لو كانتا طُرْدًا أو علبة. إذا كان  
حتمًا أن يتورط وعيه الباطنى فى مثل هذه الوقفات الغريبة، فعلى هذا  
الوعى أن يكون قادرًا على توفير سلسلة فضية على الأقل ...

يشرب الشاي، طعمه كطعم مياه المستنقع، طعم جذور الأعشاب  
المائية المتشابكة والقائمة. كان يشعر ببعض المشاكل المعوية مؤخرًا،  
وجعل يعطى نفسه جرعات من اللودانوم<sup>(\*)</sup>، من حسن الحظ أن معه  
ما يكفى. ويشعر بالارتياح فى المياه فى هذا البيت؛ ربما يكون حفره  
الأرض فى الفناء من حين لآخر قد عكر المياه فى البئر. انتهت خطته  
لحديقة مطبخ إلى لا شىء، رغم أنه قلب كمية لا بأس بها من الطمى. فبعد  
أن أصبح يقضى أيامه فى صراع مع الخيالات، يجد راحة غريبة فى  
وضع يديه فى شىء ملموس، مثل التربة. لكن الجو أصبح شديد الحرارة  
على ذلك.

يقول: "لابد أن أذهب"، ويقف، وهو يدفع مقعده إلى الخلف،  
ويمسح فمه بفضافة، متظاهرًا بالاستعجال، رغم أنه فى الواقع ليس لديه  
موعد حتى بعد الظهر. إلا أن يبقى فى غرفته، أن يحاول العمل؛ لكنه لن  
يفعل إلا أن ينعس أمام مكتبه، مع إبقاء أذنيه مرهفتين، كقطة متكاسلة فى  
انتظار صوت خطوات أقدام على السلم.

يخرج، ويتجول بشكل عشوائى. يشعر بجسده واهيا ككيس ملىء  
بالهواء، خاليًا من الإرادة. تجره قدماه إلى شاطئ البحيرة، يحدق بعينين  
نصف مغمضتين فى ضوء الصباح الباهر، يمر هنا وهناك صيادو سمك  
فرادى وهم يلقون بشباكهم إلى الأمواج المترامية الكسلى.

---

(\*) علاج مستخلص من الأفيون.

ما أن يكون مع جريس حتى تصبح الأشياء أفضل قليلاً، لا يزال بإمكانه أن يخدع نفسه بإنعاش إحساسه الخاص بالهدف. فجريس على الأقل تمثل بالنسبة له هدفاً أو إنجازاً. لكن الاستماع إلى صوتها الخافت الذى يحمل نبرة مفعمة بالصدق والبراءة – مثل صوت إحدى مربيّات طفولته تروى قصة محببة – يجعله اليوم يكاد يقع نائماً، ولا ينبهه سوى صوت قلمه يقع على الأرض. كان قد ظن للحظة أنه أصيب بالسم، أو يعانى من ضربة حمى خفيفة، يمكنه أن يرى شفيتها تتحركان، لكنه لا يستطيع فهم أى من كلماتها. لكن هذه مجرد خدعة من العقل الواعى، لأنه يمكنه أن يتذكر – بمجرد أن يركز عقله على ذلك – كل شىء كانت تقوله.

على المنضدة بينهما توجد ثمرة لفت، وقد تجاهلها كلاهما حتى الآن.

لابد أن يركز قواه الفكرية؛ فهو لا يملك أن يتراخى أو يفتر الآن، ويستسلم للبلادة، ويفقد الخيط الذى ظل يتبعه طوال الأسابيع الماضية، فأخيراً هما يقتربان الآن معاً نحو مركز قصة جريس، يقتربان من اللغز القابع فى المنطقة الخالية، الموضع المحو، يدخلان فى غابة الذاكرة المفقودة، حيث فقدت الأشياء أسماءها. وبعبارة أخرى، إنهما يستعيدان (يوماً بيوم وساعة بساعة) الأحداث التى سبقت جريمتى القتل مباشرة. أى شىء تقوله الآن قد يكون مفتاحاً، أى إيماءة، أى رعشة. إنها تعرف، هى تعرف. ربما لا تعرف أنها تعرف، لكن المعرفة موجودة، مدفونة فى أعماقها.

المشكلة أنها كلما تذكرت أكثر، كلما روت تفاصيل أكثر، وكلما وجد نفسه يعاني من صعوبات أكثر. ويبدو أنه لم يعد قادرًا على ملاحقة التفاصيل المتناثرة. وكأنها تسحب منه طاقته — مستخدمة نفس قواه العقلية لتجسيد الشخصيات في قصتها، كما قيل عن طريقة استخدام الوسطاء أثناء تنويمهم مغناطيسيًا. هذا كلام فارغ، بالطبع. لا بد أن يرفض إطلاق العنان لخيالات العقول المريضة هذه. ولكن مع ذلك، كان هناك شيء ما عن رجل، في الليل، هل فاته هذا؟ أحد هذين الرجلين: مكدرموت أو كينير، في دفتره وضع خطأ تحت كلمة "يهمس"، وضع تحتها خطأ ثلاث مرات، فأى شيء أراد أن يذكر نفسه به؟

ابنى الغالى، يقلقنى أننى لم أتلق منك رسالة منذ فترة طويلة. هل أنت على غير ما يرام؟ فى المناطق التى يكثُر بها الضباب والغيام يشتد احتمال الإصابات المرضية، وأنا أعرف أن حالة كينجستون متواضعة للغاية، وأن المستنقعات تنتشر بالقرب منها. ولا يستطيع الإنسان أن يكون حذرًا بما يكفى فى مدن الحاميات العسكرية، ذلك أن الجنود والبحارة لهم عادات مشوشة ومختلطة. أتمنى أن تأخذ الحذر الواجب بالبقاء داخل البيت بقدر ما تستطيع أثناء هذه الحرارة الشديدة، وألا تخرج فى الشمس.

اشتريت مسز هنرى كارتر ايت واحدة من ماكينات الخياطة المنزلية الجديدة، لتستخدمها خادمتها، وقد أسرت بها الأنسة فيث كارتر ايت، حتى أنها جربت بها بنفسها، واستطاعت أن تخط حاشية تنورة داخلية بها فى وقت قليل جدًا؛ وقد كانت من الذوق حتى أنها أحضرتها معها بالأمس لكى أرى غرز الخياطة، فهى تعرف أننى مغرمة بالمخترعات الجديدة. الماكينة تعمل بشكل جيد نوعًا، رغم ذلك هناك فرصة لتحسين عملها — فثمة تعقدات فى الخيط تحدث بشكل أكثر

مما يجب، ولا بد من قصها أو تفكيكها — لكن مثل هذه الآلات لا تصل إلى الكمال أبدًا في البداية؛ وتقول مسز كارتر آيت أن زوجها مع الرأي الذي يقول أن أسهم الشركة التي تصنع هذه الآلات سوف يثبت أنها أقوى استثمار معروف بمرور الوقت. وهو أب شديد المحبة والاعتبار، وقد اهتم كثيرًا بتخطيط مستقبل رفاهية ابنته، التي لم يبق له سواها على قيد الحياة.

لكني لن أثير ضجرك بالحديث عن النقود، لأنني أعرف أنك تجده مملًا؛ ورغم ذلك يا بني العزيز، فهي التي تحفظ غرفة الخزين ممتلئة، وهي وسيلة الحصول على مثل هذه الأدوات المريحة، والتي تصنع الفرق بين حياة الكفاف والحياة البسيطة المتواضعة، كما اعتاد والدك العزيز أن يقول: إنها الغذاء الذي لا ينمو على الشجر ...

الوقت لا يجري بسرعه المنتظمة المعهودة: بل أصبح يترنح بشكل غريب... وهو الآن في حالة سرعة زائدة، ودخل المساء. يجلس سايمون على مكتبه، دفتره مفتوح أمامه، ويحدق بغباء عبر مربع النافذة الآخذ في الإظلام. تلاشى ضوء الغروب الحار تاركًا مسحة قرمزية؛ وفي الخارج، يبعث طنين الناموس وزقزقة البرمائيات بذبذبة يهتز لها الهواء متوترًا. يشعر بجسده كله متورمًا، مثل لوح خشب في المطر. وتأتي من المرجة رائحة سوسنات داوية — رائحة شياطين، كرائحة بشرة أحرقتها الشمس. غدًا هو الثلاثاء، اليوم الذي يجب أن يقصد فيه الصالون الصغير الذي تقيمه زوجة المحافظ، كما وعد. ماذا يمكنه أن يقول؟ يجب أن يسجل بضع ملاحظات، ينظم من خلالها نوعًا من العرض المتماسك. ولكن لا فائدة، لا يستطيع إحراز أي شيء له أهمية، ليس الليلة. فهو لا يستطيع التفكير.

تتخبط الفراشات الليلية في المصباح. وينحى جانباً مسألة لقاء الثلاثاء، ويلتفت إلى الرسالة التي لم ينهاها: أمى العزيزة، صحتى لا تزال فى خير حال. أشكرك لإرسال غطاء الساعة المطرز الذى صنعته لك الأنسة كارترائت، ويدهشنى أنك وجدت الإرادة للافتراق عنه، حتى رغم أنك تقولين أنه كبير جداً على ساعتك؛ وهو بكل تأكيد رائع وشديد الإتقان، وأنا أتوقع انتهاء عملى هنا قريباً جداً ...

أكاذيب ومراوغات من جانبه، ومؤامرات وإغراءات من جانبها. ماذا يهمه من شأن الأنسة فيث كارترائت وأعمال إيرتها اللعينة التى لا تنتهى؟ كل رسالة ترسلها أمه له تحتوى مزيداً من أخبار التطريز والخياطة والكروشيه الفائق الدقة. لابد أن بيت آل كارترائت قد غطى الآن بأكمله - كل منضدة ومقعد ومصباح وبيانو - بأمتار من الشراريب والهدايب، وفى كل زاوية منه لابد أنه توجد زهرة من شغل الصوف متفتحة بقوة. هل تعتقد أمه حقاً أنها يمكن أن تسحره بمثل هذا المشهد الذى تصوره له عن نفسه: متزوجاً من فيث كارترائت ومسجوناً فى مقعد بذراعين إلى جوار المدفأة، متجمداً فى نوع من الذهول الخدر الأقرب إلى الشلل، وزوجته العزيزة تلف حوله شيئاً فشيئاً خيوطاً حريرية ملونة، كالشرنقة، أو كذبابة وقعت فى شبكة عنكبوت؟

يكور الورقة ويكرمشها بين أصابعه، ويلقيها على الأرض. سوف يكتب رسالة أخرى. عزيزى إيوارد، أتمنى أن تكون فى صحة طيبة، أما أنا فلا أزال فى كنجستون، حيث أستمر فى .. فى .. أى شىء؟ ماذا يفعل هنا بالتحديد؟ إنه لا يستطيع أن يستمر فى نغمته المرححة المعتادة. ماذا يستطيع أن يكتب لإيوارد؟ ما هو الإكليل أو الجائزة التى يمكن أن يربها له؟ ما المعلومات التى لديه، على أقل تقدير؟ إن يديه خاويتان،

لم يكتشف شيئاً. كان يتنقل معصوب العينين، ولا يستطيع أن يقول إلى أى اتجاه يتقدم، دون أن يعرف أى شيء فيما عدا أنه لم يعرف أى شيء بعد، إلا إذا استطاع أن يحسب مدى جهله هو نفسه؛ مثل أولئك الذين ظلوا يبحثون عبثاً عن منابع النيل. ومثلهم، يجب أن يأخذ في حسابه احتمال الهزيمة. رسائل تلغرافية حفرت حروفها على قطع من لحاء الأشجار، مرسله من مراكز حرجة، لا يمكن الرجوع منها أو التقدم بعدها داخل الغابة الهائلة التي ابتلعتهم. أعانى من الملاريا، "عضتي حية"، أرسلوا مزيداً من الأدوية، "الخرائط غلط". ليس لديه أى شيء مؤكد أو حقيقى يستطيع أن يرويه.

فى الصباح سيكون فى حال أفضل. سوف يستجمع نفسه. عندما يكون الجو أكثر برودة. أما فى اللحظة الراهنة، فهو يذهب إلى الفراش. فى أذنيه طنين حشرات. تستقر الحرارة الرطبة على وجهه كيد ثقيلة، ويتوهج وعيه فجأة للحظة — ما الشيء الذى يوشك أن يتذكره؟ — ثم ينطفئ الوهج.

فجأة يجفل مستيقظاً. هناك ضوء فى الغرفة، شمعة، تتهادى عبر الباب. خلفها شخص غامض الملامح؛ إنها صاحبة البيت، فى ثوب نوم أبيض، وتلتف بشال باهت. ويبدو شعرها فى ضوء الشمعة مرسلأ رمادى اللون.

يشد الملاءة عليه؛ فهو لا يرتدى ثوباً للنوم. يقول: "ما الأمر؟". لا بد أن صوته يبدو غاضباً، لكنه فى الواقع خائف. ليس منها، بكل تأكيد، ولكن ماذا بحق الشيطان تفعل فى غرفة نومه؟ بعد ذلك لا بد أن يغلق الرتاج.

تقول: "د. چوردان، إننى أسفة لإزعاجى لك، ولكنى سمعت ضوضاء، وكأنما هناك من يحاول الدخول عنوة من إحدى النوافذ. وقد أثار ذلك قلقى."

ليس فى صوتها أى رجفة أو ارتعاشة. أعصابها باردة للغاية. يقول لها إنه سوف ينزل معها فى غضون دقيقة ليراجع المصارع والأقفال؛ ويطلب منها الانتظار فى الغرفة الأمامية. يقوم ويتلمس ثوب نومه، وما أن يلبسه حتى يلتصق تمامًا ببشرته الرطبة، ويتعثر فى الظلام فى طريقه إلى الباب.

يقول لنفسه: يجب أن يتوقف هذا، لا يمكن أن يستمر ذلك. لكن لم يكن هناك شيء "مستمر"، ولذا فلم يكن ثمة ما يمكن "إيقافه".

إنه منتصف الليل، لكن الوقت يستمر بلا توقف، كما أنه يدور ويلف مثل الشمس والقمر في تلك الساعة الكبيرة في الردهة. سرعان ما سينبج الفجر. سرعان ما سيطلع النهار. لا أستطيع إيقاف اقتحامه بنفس الطريقة دائماً، ثم من رقدته هناك واهنا؛ نفس اليوم دائماً، يعود دائراً مثل دوران الساعة. يبدأ باليوم قبل اليوم قبل الماضي، ثم اليوم قبل قبل الماضي، ثم هو اليوم نفسه. يوم سبت. اليوم الذي ينبج مقتحماً. يوم يأتي الجزار.

ماذا أقول لدكتور چوردان عن هذا اليوم؟ إننا الآن وصلنا إليه تقريباً. أستطيع أن أتذكر ما قلته عندما قبضوا علىّ، وماذا قال مستر ماكنزى المحامى أننى يجب أن أقول؛ وما لم أقله حتى له؛ وما قلته فى المحاكمة؛ وما قلته بعد ذلك؛ والذي كان مختلفاً أيضاً. وما قال مكرموت أننى قلته؛ وما قال الآخرون أننى لابد قلته؛ فدائماً كان هناك من يمدونك بأحاديث من اختلاقهم، ويحسنون وضعها على شفتيك نيابة عنك أيضاً؛ وهذا النوع مثل السحرة، أولئك الذين يستطيعون التحدث من بطونهم فى الأسواق الموسمية وفى عروض الفرجة، وأنت لست إلا دميتهم الخشبية. وهذا شديد الشبه بما كان فى المحاكمة. كنت هناك فى قفص الاتهام، ولكن ربما كنت بالمثل مصنوعة من القماش ومحشوة بالقش، ولى رأس من



الصيني، وكنت محبوسة داخل تلك الدمية التي هي نفسي، ولم يستطع صوتي الحقيقي أن يخرج.

قلت أنني أتذكر بعض الأشياء التي فعلتها. لكن هناك أشياء أخرى قالوا أنني فعلتها، والتي قلت أنني لا أستطيع أن أتذكرها إطلاقاً.

هل قال: "رأيتك ليلاً بالخارج، في ثياب نومك، في ضوء القمر؟" وهل قال: "عن كنت تبحثين؟ هل كان هناك رجل؟" وهل قال: "إنني أدفع أجوراً جيدة ولكني أريد مقابلها خدمة جيدة؟" هل قال: "لا تقلقي، لن أخبر سيدتك، سوف يكون هذا سرّاً بيننا؟" وهل قال: "أنت فتاة طيبة!؟"

ربما قال ذلك، أو ربما كنت نائمة.

هل قالت: "لا تظني أنني لا أعرف ماذا كنت تتوین أن تفعلی؟" هل قالت: "سوف أدفع لك أجرك يوم السبت وبعدها يمكنك الذهاب من هنا، وستكون هذه نهاية الأمر، وإلى حيث ألفت؟"

نعم، هي قالت ذلك فعلاً.

وهل جلست، بعد ذلك، خلف باب المطبخ أبكى؟ وهل أخذني بين ذراعيه؟ وهل تركته يفعل؟ وهل قال: جريس، لماذا تبكين؟ هل قلت: يا ليتها تموت؟

أوه، لا. من المؤكد أنني لم أقل ذلك. أو ليس بصوت مسموع. فأنا لم أكن أتمنى لها الموت حقاً، وإنما تمنيت أن تكون في مكان آخر، وهو نفس الشيء الذي كانت تتمناه لي.

هل دفعته بعيداً عني؟ هل قال سوف أجعلك تتظرين لي بشكل أفضل قريباً جداً؟ هل قال سأخبرك بسر لو وعدت بكتمانته؟ وإذا لم تفعل، فإن حياتك لن تساوي قشة.

ربما يكون هذا قد حدث.

أحاول أن أتذكر كيف كان شكل مستر كينير لكي أستطيع أن أحدث د. چوردان عنه. كان دائماً طيباً معي، أو هذا ما سوف أقوله. لكنني لا أستطيع أن أتذكر بالضبط. والحقيقة أنه رغم كل ما كنت أظنه عن شخصه، فإن صورته قد بهتت، ظلت تبتهت عاماً بعد عام، مثل ثوب يُغسل مرة بعد مرة، والآن ماذا بقي منه؟ مجرد خطوط باهتة. زرار أو اثنين. أحياناً صوت، ولكن لا عينين، لا فم. كيف كان يبدو حقاً.. عندما كان من لحم ودم؟ لم يكتب عن هذا أحد، ولا حتى في الصحف، حكوا كل شيء عن مكدرموت، وكذلك عني، وكيف نبذوا، وماذا نلبس، ولكن لا شيء عن مستر كينير، لأن الأكثر أهمية أن تكون قاتلاً لا مقبولاً، فحينئذ تتظر إليك العيون أكثر؛ والآن، وقد ذهب، أفكر فيه وهو نائم ويحلم في فراشه، في الصباح عندما آتبه بالشاي، ووجهه مختبئ في الملاءة المكومة في فوضى. في الظلام هنا أستطيع رؤية أشياء أخرى، لكنني لا أستطيع رؤيته على الإطلاق.

أذكر أشياءه، وأنا أعدها: صندوق السعوط الذهبي، التليسكوب، بوصلة الجيب، المطواة، الساعة الذهبية، الملاعق الفضية التي قمت بتلميعها، الشمعدانان وعليهما شعار العائلة *أعيش بالأمل*، الصديري الصوفي. لا أعرف أين ذهبت هذه الأشياء.

أرقد على السرير الضيق المتحجر، على حشية مصنوعة من قماش خشن، وهو ما يسمونه "برش"، الحشية محشوة بقش يابس يتكسر مثل الحطب في النار عندما أتقلب، وعندما أرفعها تهمس لي: هش، هش. الظلام شديد وتقبل كحجر في هذه الغرفة، والحرارة كحرارة قلب محترق؛ إذا حدقت في العتمة بعينيك مفتوحتين من المؤكد أن ترى شيئاً بعد قليل. وأتمنى ألا يكون هذا الشيء زهوراً. لكنها تحب أن تنمو في هذا الوقت، الزهور الحمراء، زهور الفاونيا الحمراء اللامعة، التي تشبه الساتان، التي تشبه لطخات ألوان متناثرة. والتربة التي تنمو فيها هي الفراغ، الفضاء الفارغ والصمت. أهمس: تحدثي معي؛ لأنني أفضل أن أجد كلاماً على الاستمرار في ملاحظة تلك الأشكال الحدائقية المتنامية البطيئة التي تحدث في الصمت، مع تساقط البتلات الساتانية الحمراء على الجدار.

أظن أنني أنام.

أنا في الممر الخلفي، أتحنس طريقى على طول الجدار. لا أكاد أرى ورق الحائط؛ كان لونه في الأصل أخضر. ها هي السلالم تصعد لأعلى، ها هو الدرايزين. غرفة النوم نصف مفتوحة، وأستطيع أن أسمع قدمائ حافيتان على السجادة ذات الزهور الحمراء. أعرف أنك تختبئين مني، تعالى اخرجي حالاً وإلا سأجذك وأمسكك، وعندما أمسك بك، من يعرف ماذا سأفعل.

أنا جالسة بلا حراك خلف الباب، أكاد أسمع دقات قلبي. أوه، لا. أوه، لا. أوه، لا.

ها أنا قادم، أنا قادم الآن، أنت لا تسمعين الكلام أبداً، أنت لا تنفذين ما أقول لك، أيتها البنت القذرة. والآن، لا بد أن تنالي عقابك.

ليس هذا خطئي. ماذا أفعل الآن؟ أين أهرب؟

لا بد أن تفتحي رتاج الباب، لا بد أن تفتحي النافذة، لا بد أن تدعيني  
أدخل.

أوه، انظري، انظري إلى كل هذه البتلات المتناثرة على الأرض،  
ماذا فعلت؟

أظن أنني أنام.

أنا بالخارج، في الليل. ها هي الأشجار، ها هو الممشى، وسور  
الأفاعي، ونصف قمر مضيء، وقدماي حافيتان على الحصى. ولكن عندما  
أدور إلى مقدمة البيت، أجد الشمس بسبيلها إلى الغروب، وأعمدة البيت  
البيضاء أصبحت وردية، وزهور الفاوانيا البيضاء تلمع حمراء في الضوء  
المتلاشي، يداي مخدرتان، لا أستطيع أن أشعر بأطراف أصابعي. ثمّة  
رائحة لحم طازج تأتي من الأرض حولي في كل مكان، رغم أنني قلت  
للجزار أننا لا نريد شيئاً.

على كف يدي رُسمت خطوط كارثة. لا بد أنني ولدت أحملها  
معي أينما أذهب، وعندما لمسني، انتقل الحظ السيئ إليه.

أظن أنني أنام.

أستيقظ على صياح الديكة، وأعرف أين أنا. أنا في الردهة. أنا  
في حجرة غسل الأطباق. أنا في القبو. أنا في زنزانتني، تحت بطانية  
السجن الخشنة، التي من المحتمل أنني قمت بثني أطرافها بنفسي. إننا هنا  
نصنع كل ما نلبسه أو نستعمله، في صحونا أو في نومنا؛ وهكذا صنعت  
هذا الفراش بنفسني، وها أنا أرقد فيه.

إنه الصباح، حان الوقت للنهوض؛ واليوم لابد أن أستمر في الحكاية. أو لابد أن تستمر الحكاية معي، تحملني إلى داخلها، لابد أن تتطلق على الطريق المحدد، أن تسير مباشرة إلى النهاية، باكية بلا توقف كالقطار، صماء لا تسمع، عوراء وحيدة العين، ومغلقة بإحكام تام؛ رغم أنني أرمي بنفسى على جدرانها وأصرخ وأبكي، وأتضرع إلى الله أن يجد لى مخرجًا.

عندما تكون فى وسط الحكاية فهى ليست حكاية أبدًا، وإنما هى فوضى وارتباك، وهدير منتظم، عمى، حطام، زجاج مكسور ومنتثر وخشب متشظى؛ مثل بيت فى إعصار عاصف، أو مركب اصطدمت بالجبال الجليدية أو تقاذفتها التيارات المتدفقة، وكل من عليها خارت قواهم، ولا يقدرّون على إيقافها. ولا تصبح القصة شيئاً أشبه بالقصة إلا فيما بعد. عندما تجلس لترويها، لنفسك، أو لشخص آخر.

يتقبل سايمون كوبًا من الشاي تقدمه له زوجة المحافظ. وهو لا يميل كثيرًا إلى الشاي، لكنه يعتبر شربه واجبًا اجتماعيًا في هذا البلد؛ ومن هذه الواجبات أيضًا تحية كل النكات حول "حفلة شاي بوسطن" (\*) — وكان منها الكثير جدًا — بابتسامة متحفظة، ولكن متسامحة.

يبدو أن التوعك الذي كان يشعر به قد زال. واليوم يشعر بأنه أفضل، رغم حاجته إلى النوم. وقد استطاع أن ينجز حديثه الموجز إلى مجموعة الثلاثاء، ويشعر أنه أبلى بلاء حسنًا إلى حدٍّ كبير. بدأ كلمته بدعوى لإصلاح المصحات العقلية، التي ما زال الكثير جدًا منها أوكارًا للقذارة والفساد والظلم، كما كان حالها في القرن الماضي. وقد استقبل هذا

---

(\*) في عام ١٧٧٣، وافق البرلمان الإنجليزي على "قانون الشاي" لإنقاذ شركة الهند الشرقية (البريطانية) من الإفلاس. لكن هذا القانون كان يؤثر بشدة على مهربي الشاي الأمريكيين، وبالتالي على الاقتصاد الأمريكي في ذلك الوقت، وقام معارضوا هذا القانون بتنظيم حملة اشترك فيها عدد كبير من أبناء مدينة بوسطن فخرجوا في يوم ١٦ ديسمبر ١٧٧٣، متكرين في زى الهنود الحمر وقد طلبوا وجوههم بالسناج، وأغرقوا حمولة ثلاث سفن من الشاي في مياه البحر.. هذا الحدث أطلق عليه "حفلة شاي بوسطن"، ويعتبر هو الشرارة الأولى التي فجرت الثورة الأمريكية من أجل الاستقلال عن إنجلترا.

استقبالاً حسناً. ثم استمر يعرض بعض الملاحظات حول الجيشان الفكرى الهائل فى هذا الحقل من الدراسة، وحوال المدارس الفكرية المتنافسة بين الأطباء العقلين.

فى البداية، تناول المدرسة المادية. والتي يعتقد أطباؤها أن الاضطراب العقلى هو اضطراب وظيفى فى الأصل – يرجع، على سبيل المثال، إلى آفة أو خلل يصيب الأعصاب والمخ، أو حالات وراثية من نوع يمكن تحديده، مثل الصرع؛ أو نتيجة الإصابة بأمراض، ومن ضمنها أمراض تنتقل جنسياً – وقد أوجز هنا، اعتباراً لوجود سيدات، ولكن كل الحاضرين عرفوا ما يعنيه. بعد ذلك وصف ما قدمته المدرسة العقلية، التي تعتقد فى أسباب أكثر صعوبة فى عزلها وتحديدها. على سبيل المثال، كيف يمكن قياس آثار الصدمة العصبية؟ كيف يمكن تشخيص فقدان الذاكرة الذى لا تظهر له أية تجليات عضوية يمكن تمييزها، أو تغيرات جذرية محددة ومتعدرة التفسير فى شخصية المريض؟ ما هو الدور – كان يوجه السؤال إليهم – الذى تلعبه الإرادة، وما هو الدور الذى تلعبه الروح؟ هنا انحنى مسز كوينل إلى الأمام، لكنها عادت إلى وضعها عندما قال أنه لا يعرف.

ثم تقدم إلى المكتشفات الحديثة الكثيرة التي كان يتم إنجازها – علاج د. لايكوك البروميدي لنوبات الصرع، على سبيل المثال، والذي يجب أن يعتبر إجابة عن عدد هائل من المعتقدات والخرافات الخاطئة؛ فحص بنية المخ، استخدام العقاقير فى التأثير على مختلف أنواع الهلوس، وتسكينها، والتخفيف منها. ويمضى عمل الرواد قدماً باستمرار؛ وهنا أضاف أنه يود أن يذكر الطبيب الشجاع د. تشاركو، من باريس، الذى كرس نفسه فى الفترة الأخيرة لدراسة أنواع الهستيريا، وفحص الأحلام كمفتاح للتشخيص، وعلاقتها بفقدان الذاكرة، وهو الأمر الذى يأمل هو

نفسه أن يقدم فيه مساهمة متواضعة في الوقت المناسب. وكل هذه النظريات لا تزال في المراحل الأولى من تطورها، لكن يمكن توقع الكثير منها في القريب العاجل. وكما قال الفيلسوف والعالم الفرنسي البارز ميين دي بيران، هناك "عالم جديد" داخل النفس بحاجة للاستكشاف، وهو العالم الذي يجب من أجله أن "يغوص المرء في الكهوف الخفية للروح".

وختم بأن القرن التاسع عشر قد يصبح — بالنسبة لدراسة العقل — ما كانه القرن الثامن عشر بالنسبة لدراسة المادة — عصرًا من التنوير. وبأنه فخور أن يكون جزءًا من مثل هذا التقدم الكبير في المعرفة، حتى ولو بطريقة صغيرة ومتواضعة للغاية.

كان يتمنى لو لم يكن الجو بهذه الدرجة اللعينة من الحرارة والرطوبة. فعندما وصل إلى الخاتمة كان مبللاً تمامًا، وكان لا يزال يشعر برائحة مستنقعية تأتي من يديه. لا بد أن يكون ذلك بسبب حفر الأرض، فقد قضى فيه فترة أخرى هذا الصباح، قبل تصاعد حرارة اليوم.

صفق أعضاء جماعة الثلاثاء بأدب، وشكره المبجل ثرينجر. وقال أنه يجب تهنئة د. چوردان على الملاحظات التثقيفية التي شرفهم بها اليوم. فقد قدم لهم أشياء كثيرة تستحق التفكير بشأنها. وإن العالم حقًا هو مكان مليء بالألغاز والغموض، لكن الله كرم الإنسان بالعقل، ليحاول أن يفهم أية غوامض تكون حقًا في متناول فهمه. كان كلامه يدل ضمناً على وجود أشياء أخرى، ولم يكن الأمر كذلك. ولكن بدا أن هذا قد سرَّ الجميع.

بعد ذلك، تلقى سايمون الشكر على انفراد. قالت له مسز كوينل أنه تكلم بواقعية محسوسة من القلب، وهو ما أشعره ببعض الذنب، لأن هدفه الأساسي كان أن ينتهي من المناسبة بأسرع ما يمكن. أما ليديا، التي



كانت فاتنة في رداء صيفي كثير الكشكشة والخشخشة، فقد كانت لا تكاد تلتقط أنفاسها في مديحها وإطرائها، وأبدت إعجاباً شديداً كأحسن ما يتمنى أى رجل؛ لكنه لم يستطع أن يطرد فكرة أنها في الواقع لم تفهم حرفاً واحداً مما قال.

"يا له من حديث أسر"، يقول جيروم دو بونت، وهو عند كوع سايمون. "لكنى لاحظت أنك لم تذكر شيئاً عن الدعارة، التى هى بالتأكيد، بالإضافة إلى إدمان الخمر، واحدة من أهم الأمراض الاجتماعية التى أصابت عصرنا".

يقول سايمون: "لم أرد أن أذكرها، اعتباراً لنوع الجمهور".

"طبيعى جداً، كان يهمنى أن أسمع رأيك فى النظرة السائدة بين بعض زملائنا الأوروبيين، بأن الميل إلى الدعارة نوع من الجنون. ويربطونه بالهستيريا والإنهاك العصبى".

قال سايمون مبتسماً: "أعرف هذا الرأى". فى أيام دراسته، كان عادة يحتج بأن المرأة إذا لم تجد مساراً مفتوحاً أمامها إلا الموت جوعاً، أو الدعارة، أو إلقاء نفسها من فوق الكوبرى، فإن من المؤكد أن العاهرة، التى تظهر أعلى درجة من التشبث بالبقاء، لابد من اعتبارها أكثر قوة وعقلاً من زميلاتها الأضعف اللاتى فقدن حياتهن. وكان يلفت النظر إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يحصل على الأمرين معاً: إذا كانت النساء يتعرضن للغواية ثم الهجر فإن المفترض أن يصبين بالجنون، ولكن إذا استطعن البقاء ومارسن الغواية بدورهن، يقال أنهن مصابات بالجنون أصلاً. وكان يقول أن هذه الفكرة تبدو له ملتبسة ومشكوكاً فيها، وهو ما تسبب فى أن تنتشر عنه سمعة بأنه إما ينتمى إلى النزعة الكلبية

الساخرة والتي ترى بأن سلوك الإنسان تهيمن عليه المصالح الذاتية؛ أو أنه منافق يميل إلى المذهب البيوريتانى، وكان هذا الرأى أو ذاك يتوقف على نوع الجمهور.

يقول د. دو بونت: "أنا نفسى أميل إلى وضع الدعارة فى نفس مكانة جنون القتل والهوس الدينى؛ ربما يمكن اعتبار كل ذلك نوعاً من الاندفاع إلى لعب دور، اندفاعاً خرج عن التحكم والسيطرة. مثل هذه الأشياء لوحظت فى المسرح، بين الممثلين الذين يدعون أنهم يتقمصون الشخصية أثناء التمثيل. مغنيات الأوبرا بشكل خاص عرضة لذلك، ومن الأشياء المسجلة أن ممثلة كانت تقوم بدور "لوتشيا" (\*) قتلت حبيبها بالفعل".

يقول سايمون: "هذا احتمال مثير للاهتمام والتشويق".

"أنت لا تورط نفسك أبداً"، يقول د. دو بونت وهو يحدق فى سايمون بعينه الداكنتين اللامعتين، ثم يضيف: "ولكنك سوف تصل إلى درجة أن تعترف بأن النساء بشكل عام لهن نظام عصبى هش، ونتيجة لذلك يسهل تأثرهن بالإحياء؟"

"ربما". يقول سايمون ذلك، ويكمل: "من المؤكد أن هذا هو الاعتقاد الشائع".

"وهذا، على سبيل المثال، يجعل التتويم المغناطيسى أسهل كثيراً معهن".

---

(\*) لوتشيا دى لامرور، أوبرا إيطالية مشهورة، لدونيتسى Donizetti (1797-1848)، عرضت فى نابولى 1835، تدور قصتها فى اسكوتلندا حوالى 1700، وفيها تقع لوتشيا فى حب إدجار، ولكن أخاها، الذى يريد تزويجها من شخص آخر، يدبر مؤامرة تنتهى بإفساد العلاقة بين المحبين، وتفقد لوتشيا عقلها بعد زواجها، وتقتل زوجها، وتموت، وعندما يسمع إدجار بذلك يقتل نفسه.

آه، يفكر سايمون، كل يغنى على ليلاه .. ها هو الآن يكاد يصل إلى مراده.

يقول د. دو بونت: "كيف حال مريضتك الجميلة، إذا كان لى أن أقول ذلك عنها، هل هناك أى تقدم؟"

يقول سايمون: "لا شىء محدد بعد. هناك عدة خطوط من التساؤلات أتمنى أن أستطيع متابعتها".

"سوف يشرفنى لو سمحت لى أن أجرب طريقتى، فقط كنوع من التجربة، كنوع من العرض لها، إذا أحببت".

يقول سايمون: "إننى الآن عند نقطة حرجة". فهو لا يريد أن يبدو بمظهر الفظ، لكنه لا يريد تدخل هذا الرجل. جريس هى منطقتة الخاصة، ولا بد أن يصد من يريد انتهاكها. "ربما يسبب ذلك لها اضطرابًا ويفسد أسابيع من الإعداد الدقيق".

يقول د. دو بونت: "كيفما يلائمك. إننى أتوقع أن أبقى هنا شهرًا آخر على الأقل. وسوف يسعدنى لو استطعت المساعدة".

يقول سايمون: "أنت تقيم عند مسز كوينل على ما أعتقد".

"سيدة مضيافة فى غاية الكرم. ولكنها مفتونة بالروحانيين، فهم كثيرون هذه الأيام. وأؤكد لك أنه نظام لا أساس له على الإطلاق، ولكن ما أسهل استغلال الإنسان الذى حُرِم من أعزائه".

ويحجم سايمون عن أن يقول أنه لا يحتاج إلى تأكيد ذلك. "لقد حضرت بعضًا من ... أمسياتها — هل يمكن أن أطلق عليها جلسات تحضير أرواح؟"

"حضرت واحدة أو اثنتين. أنا مجرد ضيف على أية حال؛ وأنواع الخدع المستخدمة مثيرة لقدرة كبير من الاهتمام والتشويق بالنسبة للباحث المحلل. لكنها أبعد ما تكون عن إغلاق عقلها أمام العلم، بل إنها مستعدة لتمويل بحث قانوني".

"أه"، يقول سايمون.

"وتريدنى أن أحاول القيام بجلسة من التنويم العصبى، مع مس ماركس". يقول دكتور دو پونت ذلك برقة وبساطة. "بالنيابة عن اللجنة، أرجو ألا يكون لديك مانع؟"

يفكر سايمون، اللعنة عليهم جميعاً: لا بد أنهم بدأوا يفقدون صبرهم معى؛ يظنون أننى أخذت وقتاً أطول من اللازم. ولكن إذا تدخلوا تدخلًا زائداً فسوف يفسدون عربة التفاح كلها، ويدمرون كل شىء. لماذا لا يتركوننى وأدواتى؟

\*\*\*

اليوم لقاء الثلاثاء. ولأن د. چوردان سوف يتحدث فيه، لم أره فى فترة بعد الظهر، حيث أنه بحاجة للاستعداد. سألت زوجة المحافظ إذا كان يمكن تركى فترة إضافية، لأنهم بحاجة لمساعدة أكثر، وكانت تود منى أن أساعد فى إعداد المرطبات، كما أفعل فى الغالب. بالطبع كان هذا مجرد طلب شكلى، حيث أن السجناء ليس أمامها إلا الموافقة، وقد فعلت؛ وسُمح لى أن أتناول عشائى فى المطبخ بعد ذلك، مثل خادمة حقيقية، حيث أن العشاء فى الإصلاحية سيكون قد انتهى عند عودتى. وكنت أتطلع إلى هذا،

فسوف يكون مثل الأيام الخوالي، عندما كنت حرة في الذهاب والإياب، وكانت الاختيارات أكثر تنوعاً في تلك الأيام، وكذلك مثل هذه الاحتفالات التي يتطلع إليها المرء.

مع ذلك، كنت أعرف أنني سأضطر للتعامل مع بعض الأشياء التافهة، والنظرات القاسية، والملاحظات الحقودة على شخصي. ليس من كلارى، التي كانت دائماً صديقة لي رغم أنها صديقة صامتة، وليس من الطباخة، التي اعتادت على الآن. ولكن واحدة من خادمت الطابق الأعلى مغتازة منى، لأننى أقدم منها فى خدمة هذا البيت، وأعرف طرق التعامل فيه، وأتمتع بثقة الأنستين ليديا وماريان، وهى أشياء لا تتمتع هى بها؛ من الممكن أن تلقى بعض التلميحات إلى جرائم القتل، أو الخنق، أو شىء كرية من هذا النوع. كذلك دورا، التي تأتي للمساعدة فى الغسيل، لكنها ليست دائمة، ويُدفع أجرها بالساعة. وهى امرأة ضخمة ذات ذراعين قويتين، ومفيدة فى حمل السلال الثقيلة من الملاءات المبللة؛ لكنها غير جديرة بالثقة، فهى دائماً تروى روايات عن سيدتها وسيدها السابقين، اللذين كما تقول لم يدفعوا لها مستحقاتها، بل إن سلوكياتهما أصبحت مزرية أيضاً، فهو انحرف فى الشراب بشدة حتى أصبح لا يزيد عن المعتوهين فى شىء، وضرب زوجته فاسودت عينها أكثر من مرة، وهى تمرض من مجرد وقوع قبعة، ولن تدهش دورا إذا وجدت أن سبب كآبتها وصداعها الدائم هو أنها تشرب أيضاً.

ولكن، رغم أن دورا تقول كل هذه الأشياء، فقد قبلت العودة للعمل هناك، وأن تصبح خادمة تقوم بكل المهام مرة أخرى، والواقع أنها بدأت بالفعل، وعندما سألتها الطباخة لماذا تفعل هذا، إذا كانوا بهذه السمعة السيئة، غمزت بعينها وقالت إن النقود لها كلمتها، وكلمتها العالية

المسموعة أيضًا، وأن الطبيب الشاب الذي يؤجر جناحًا في البيت قد دفع لها أجرها المتأخر، وتوسل إليها، بل كاد يركع لأن تعود، حيث لم يجدوا أحدًا آخر. وهو رجل يميل إلى الهدوء والسلام، ويحب الأشياء نظيفة ومرتبّة، وهو مستعد أن يدفع أجر ذلك، لكن سيدة البيت لا تستطيع، فقد هرب زوجها فلم تعد الآن أكثر من أرملة تعيش على الكفاف، بل وعالة أيضًا. وقالت دورا أنها لن تقبل أن تتلقى أوامر منها بعد ذلك، فهي سيدة شكاءة ونكدة دائمًا، ولكن من د. چوردان، فمن يدفع للزمار له أن يطلب اللحن.

وتقول أنه هو أيضًا ليس متوقعًا منه أى خير، فهو يحمل الهواء المسموم حوله، كما هو الحال دائمًا مع الأطباء، بقنانيتهم وأدهنتهم وأقراصهم، وهى تشكر الله الرحيم كل يوم أنها ليست عجوزًا ثرية تحت عنايته، وإلا فلن يكتب لها البقاء طويلًا فى هذا العالم؛ كما أن لديه عادة غريبة بالحفر فى الحديقة، رغم أن الوقت الآن تأخر كثيرًا على زراعة أى شىء، لكنه رغم ذلك يستمر فى الحفر مثل الحيوانات الحفارة، وهكذا قلب أرض الفناء كلها تقريبًا، ثم عليها أن تكس الطين الذى يدخل مع خطواته، وتدعك الوحل من قمصانه فى الغسيل، وتسخن المياه من أجل حمامه.

وقد أدهشنى أن اكتشفت أن هذا الدكتور چوردان الذى نتحدث عنه هو نفس د. چوردان الذى يأتى لى، لكنى كنت أشعر أيضًا بالفضول، فلم أكن أعرف كل هذه الأشياء عن صاحبة البيت الذى يقيم فيه، بل إنى فى الواقع لم أكن أعرف أى شىء عنها. ومن ثم سألت دورا أى نوع من النساء هى، فقالت دورا إنها نحيفة مثل البوصة، وشاحبة كما لو كانت جثة، ولها شعر طويل أصفر فاتح جدًا حتى يكاد يكون أبيض، ورغم هذا، ورغم سلوكياتها المهذبة الراقية، ليس أفضل مما يجب، رغم أن دورا ليس

لديها دليل بعد؛ لكن هذه السيدة تدور عيناها بشكل غريب، ولها انتفاضة غريبة، وهذين الأمرين معًا يعنيان سخونة خفية خلف الأبواب المغلقة، وأن مستر چوردان يجب أن يأخذ حذره، لأنها لو كانت رأت في حياتها امرأة تتوى أن تخلع عن رجل سرواله، فقد رأت ذلك في عيني مسز همفري؛ وأنهما الآن يتناولان الإفطار سوياً كل صباح الآن، وهو أمر ترى أنه غير طبيعي. وقد رأيت أن هذا كلام فاحش، على الأقل الجزء الخاص بالسروال.

وأفكر في نفسي، إذا كان هذا هو ما تقوله عن الناس الذين تعمل لهم من خلف ظهورهم، فماذا ستقول عنك يا جريس؟ أحياناً أضبطها تحدجني كلي بعينيها الصغيرتين الورديتين، وتدبّر أية قصة مثيرة سوف تحكى لأصدقائها، إن كان لها أصدقاء، عن شرب الشاي مع قاتلة شهيرة كان يجب قانوناً أن تكون مشنوقة منذ زمن طويل، وتقطع إلى شرائح على أيدي الأطباء، كما يفعل الجزائريون بالذبيحة، وما يبقى مني بعد أن ينهوا عملهم يلف في صرة، تماماً مثل الشحم الذي يلف في صرة واحدة، ويترك ليتعفن ويذوى في قبر مهين لا تنمو عليه إلا الأشواك.

ولكنني أتمالك نفسي للحفاظ على حالة السلام، فلا أقول شيئاً. فلو دخلت في شجار معها، فإنني أعرف جيداً على من سيلقى اللوم.

كانت لدينا أوامر بأن تبقى آذاننا مفتوحة حتى نهاية اللقاء، والذي ستكون العلامة عليه تصفيق، ثم خطبة لشكر د. چوردان على ملاحظاته التثقيفية، وهو ما يقولونه لكل من يتكلم في هذه المناسبات؛ وستكون هذه هي الإشارة لنا لندخل بالمرطبات؛ ومن ثم طلب من إحدى الخاديمات أن تنتظر عند باب القاعة لتسمع، وجاءت بعد برهة وقالت أنهم يشكرونه

الآن، ومن ثم عددنا حتى العشرين، ثم أرسلنا أول دور شاي، وأولى صواني الكعك. وقد ظلت أنا بالأسفل، أقطع الكعكة الكبيرة الدسمة، وأرصها في طبق كبير مستدير، والذي أعطت زوجة المحافظ تعليماتها بأن توضع وردة أو اثنتان في منتصفه؛ وكان شكلها جميلاً جداً. ثم جاءت كلمة من فوق بأن عليّ أنا أن أحضر هذا الطبق بالذات بنفسى، وهو أمر وجدته غريباً؛ فرتبت شعري وحملت الكعكة الكبيرة صعوداً على السلم، ثم دخلت بها من باب القاعة وأنا لا أتوقع شراً.

هناك، بين الحاضرين، جلست مسز كوينل وقد صفت شعرها على هيئة لفات صغيرة كثيرة، ترتدى ثوباً من الموسلين الوردى، والذي كان يبدو أليق بشابة أصغر كثيراً منها، وارتدت زوجة المحافظ ثوباً رمادياً؛ و المبجل فرينجر ينظر تحت أنفه كالعادة؛ ود. چوردان شاحب ومنهك، وكان حديثه قد استهلكه تماماً؛ ومس ليديا في الثوب الذى ساعدتها فى عمله، وكانت جميلة كما الصورة.

ولكن من أرى؟ ينظر إلى مباشرة بابتسامة خفيفة، من سوى چيرميا البائع المتجول! يقف أنيقاً للغاية، فى شعره وذقنه، كرجل من علية القوم، يرتدى بدلة أنيقة فى لون الرمال، وسلسلة ساعته الذهبية ظاهرة على الصدري؛ يحمل كوباً من الشاي بأفضل طريقة يستطيعها أحد السادة، بالضبط كما كان يفعل عندما يقلد هذا المشهد فى مطبخ مسز ألدرمان باركينسون، لكننى كان من الممكن أن أميزه فى أى مكان.

أذهلتنى المفاجأة بشدة حتى صدرت عنى صرخة خافتة، ثم وقفت مصعوقة فى مكانى وفمى مفعور مثل سمكة الحدوق، وكدت أوقع الطبق؛ والحق أن عدة قطع من الكعكة الدسمة انزلقت من الطبق ووقعت على



الأرض، والوردتان أيضاً. ولكن ليس قبل أن يضع جيرميا كوبه، ويضع إصبعه على فمه بموازية أنفه، وكأنه يحكه، وهي حركة اعتقد أن أحداً لم يلاحظها، حيث كانوا جميعاً ينظرون نحوي، وكانت إيماءة فهمت منها أنني يجب أن أغلق فمي، وألا أقول شيئاً، أو أشي به.

ولم أفعل، لكنني اعتذرت لسقوط الكعكة مني، ووضعت الطبق على المنضدة الجانبية، وركعت لألم القطع التي وقعت في مريمتي. لكن زوجة المحافظ قالت: لا تهتمي بذلك الآن يا جريس، فأنا أريد تقديمك إلى أحد الأشخاص. وأخذتني من ذراعي، وقادتني إلى الأمام. وقالت: هذا د. جيروم دو پونت، وهو ممارس طبي مشهور، وأوما جيرميا لي برأسه، وقال: كيف حالك يا مس ماركس؟ كنت ما أزال في حيرة، لكنني تمكنت من الحفاظ على رباطة جأشي؛ وزوجة المحافظ تقول له: إنها دائماً تؤخذ برؤية الغرباء، وتقول لي: د. دو پونت صديق، ولن يؤذيك.

وهنا كدت أضحك بصوت عال، ولكني بدلاً من ذلك قلت: نعم، يا سيدتي، ونظرت إلى الأرض. لابد أنها خشيت تكرار ما حدث من قبل في تلك المرة، عندما جاء هنا ذلك الطبيب الذي يقيس الرءوس، وصرخت كثيراً. ولكن ما كانت بحاجة لأن تخشى شيئاً.

قال جيرميا: لابد أن أنظر إلى عينيها، لأعرف هل سيكون الأمر مؤثراً أم لا. ورفع ذقني، وحدث كلانا في الآخر. وقال: حسناً جداً، كل شيء رصين وجليل، وكأنه تماماً نفس الشخصية التي يتظاهر بها؛ وشعرت بالإعجاب به. ثم قال: جريس، هل سبق أن تعرضت للتنويم المغناطيسي؟ وظل ممسكاً بذقني برهة، ليجعلني أشعر بالثبات، وليعطيني وقتاً لأتحكم في نفسي.

قلت: من المؤكد أن هذا لم يحدث يا سيدي، قلت هذا ببعض السخط، ثم أضفت: إنني حتى لا أعرف ما هو بالضبط.

قال: إنه إجراء علمي تمامًا. هل تحبين أن تجربتي؟ إذا كان ذلك يمكن أن يساعد أصدقاءك، واللجنة؟ وإذا هم قرروا أنك يجب أن تفعلتي؟ وضغط على ذقني ضغطة خفيفة، وحرك عينيه أعلى وأسفل بسرعة شديدة، ليعطيني إشارة بأن عليّ أن أقول نعم.

قلت: سأفعل كل ما أقدر عليه يا سيدي، إذا كان ذلك هو المطلوب.

قال: حسنًا، حسنًا — بغرور وخيلاء كما لو كان طبيبًا حقيقيًا — ولكن لكي ينجح الأمر، يجب أن تضعي ثقتي بك بي. هل تظنين أنك تقدرين على ذلك يا جريس؟

كان المبجل فرينجر، والأنسة ليديا، ومسز كوينل، وزوجة المحافظ، كلهم يبتسمون لي بابتهاج وتشجيع. قلت: سوف أحاول، يا سيدي. وهنا خطأ د. چوردان نحوي، وقال أنه يظن أنني تعرضت لما يكفي من الانفعال اليوم، ولا بد من الاهتمام بأعصابي، لأنها رقيقة ويجب ألا تتعرض للانهييار؛ فقال چيرميا: بالطبع، بالطبع. لكنه بدا مسرورًا جدًا من نفسه. ورغم أنني أحمل تقديرًا لدكتور چوردان، ورغم أنه كان طبيبًا معي، فقد رأيتُه يبدو كسمكة مسكينة إلى جوار چيرميا، مثل رجل في سوق مزدحم وقد نُشلت جيوبه للتو واللحظة، لكنه لا يعرف بعد.

أما أنا، فكان يمكن أن أضحك بمرح مجلج، فقد قام چيرميا بحيلة استحضار سحرية، كما لو كان بالفعل قد شد قطعة من العملة من

أذنى، أو جعلهم يعتقدون أنه بلع شوكة طعام؛ وتاماً مثلما كان يؤدي مثل هذه الحيل على مرأى من الجميع، وكل شخص ينظر إليه غير قادر على كشف الحيلة، فقد فعل نفس الشيء هنا، وعقد معى معاهدة تحت عيونهم، ولم يكونوا أكثر حكمة من غيرهم.

لكننى حينئذ تذكرت أنه كان فى الماضى يرتحل من مكان لآخر كمنوم مغناطيسى، ومارس الكهانة الطبية فى الأسواق، وأنه كان يعرف مثل هذه الفنون بالفعل، وربما ينومنى مغناطيسياً حقاً. وجعلنى هذا أتوقف فجأة، وأعيد التفكير فى الأمر.

"قضية أنك مذنبه أم بريئة ليست هي ما يهمنى"، يقول سايمون:  
"أنا طبيب، ولست قاضيًا. ولا أريد إلا أن أعرف ما الذى يمكنك أن  
تتذكره فعلاً بنفسك".

لقد وصلا أخيراً إلى الجريمتين. وقد راجع كل الوثائق المتاحة له  
— القصص الخاصة بالمحاكمة، آراء الصحف، الاعترافات، حتى تفسيرات  
مسز مودى المبالغ فيها للغاية. وهو مستعد تماماً، ومتوتر أيضاً: فالطريقة  
التي يتصرف بها اليوم سوف تقرر ما إذا كانت جريس أخيراً ستفتح  
دواخلها المغلقة، وتكشف كنوزها المكنونة، أو أنها بدلاً من ذلك سوف  
تتكمش خوفاً وتختبئ وتغلق على نفسها مثل الصدفة.

لم يكن ما أحضره معه اليوم نوعاً من الخضر، بل أحضر  
شمعداناً فضياً، قدمه إليه المبجل فرينجر، وهو شبيه — كما يتمنى — بذلك  
الشمعدان الذى كان موجوداً فى بيت مستر كينير، وسرقه جيمس  
مكدرموت. لم يضعه أمامها بعد، فهو فى سلة مجدولة — سلة مشتريات،  
اقترضها فى الواقع من دورا — ووضعها بإهمال إلى جوار مقعده. فهو  
ليس واثقاً مما سوف يفعل به.

تستمر جريس فى تطريزها، لا ترفع بصرها. وتقول: "لم يهتم أحد بذلك من قبل يا سيدى، قالوا لى أننى لابد أكذب، واستمروا يريدون أن يعرفوا أكثر. إلا مستر كينيث ماكنزى، المحامى. لكنى واثقة أنه حتى هو لم يصدقنى".

يقول سايمون: "أنا سوف أصدقك". ويكتشف أنها مسئولية كبيرة بالفعل.

تزم جريس فمها قليلاً، ولا تقول شيئاً. يقتحم الصمت. "مستر كينير غادر إلى المدينة يوم الخميس، أليس كذلك؟"  
تقول جريس: "نعم، يا سيدى".

"فى الثالثة ظهراً؟ على الحصان؟"

"كان هذا هو الوقت بالضبط يا سيدى، وكان المفروض أن يعود يوم السبت. كنت بالخارج أرش المناديل القطنية المنشورة فى الشمس لتبييضها. لف مكرموت بالحصان ليحضره إليه. كان مستر كينير راكباً تشارلى، حيث كانت العربة قد أرسلت إلى القرية لتأخذ طبقة جديدة من الدهان".

"هل قال لك شيئاً فى ذلك الوقت؟"

"قال لى: 'ها هو عزيزك الأثير لديك يا جريس، تعالى وودعيه بقبلة'".

يقول سايمون: "يعنى چيمس مكرموت؟ لكن مكرموت لم يكن ذاهباً إلى أى مكان!"

تنظر جريس شاردة، بنظرة تكاد تنم عن الازدراء. "كان يقصد الحصان يا سيدى. فقد كان يعلم أننى مغرمة جدًا بتشارلى".

"وماذا فعلت؟"

"ذهبت إليه وربتُ على تشارلى، على أنفه يا سيدى. لكن نانسى كانت تراقب من باب المطبخ الشتوى، وقد سمعت ما قاله، ولم يعجبها ذلك. ولا مكرموت أعجبه ذلك أيضًا. لكن لم يكن فى ذلك أى ضرير. مستر كينير كان يحب المزاح فقط".

يأخذ سايمون نفسًا عميقًا. "هل حدث أن مستر كينير تصرف معك أى تصرف غير لائق يا جريس؟"

تنظر إليه مرة أخرى؛ بابتسامة خفيفة هذه المرة. "لا أعرف ماذا تقصد بغير لائق يا سيدى. إنه لم يستخدم أبدًا لغة بذينة معى".

"هل حاول أن يلمسك أبدًا؟ هل حاول أن يتحرر معك؟"

"فقط فيما هو معتاد، يا سيدى".

"معتاد؟" يقول سايمون. لقد شعر بالحيرة. فهو لا يعرف كيف يقول ما يعنيه دون أن يكون مباشرًا جدًا: وتنتاب جريس موجة من الاحتشام المتكلف.

وتقول باحتشام: "كان سيدًا طيبًا بما يكفى مع خادمة يا سيدى، ومتحررًا عندما يريد".

وتمكن نفاذ الصبر من سايمون، ماذا تعنى جريس؟ هل تقول أنها كانت تتلقى أجرًا على تساهلها معه؟ يقول: "هل حدث أن وضع يده داخل ملابسك؟ هل كنت ترقدين له؟"

تقوم جريس واقفة، وتقول: "لقد سمعت ما يكفي من هذا النوع من الكلام، أنا لست مضطرة للبقاء هنا. إنك لا تختلف عنهم فى المصحة، ولا عن كهنة السجن، ولا عن د. بانرلينج وأفكاره القذرة!"

ووجد سايمون نفسه يعتذر إليها، وأنه لم يتصرف بحكمة علاوة على ذلك. وعندما يهدأ غضبها، يقول: "اجلسى من فضلك، فلنعد إلى سلسلة الأحداث. ركب مستر كينير ورحل فى الساعة الثالثة يوم الثلاثاء. ثم ماذا حدث؟"

"قالت نانسى أن علينا نحن الاثنين أن نرحل فى اليوم بعد التالى، وأن معها رواتبنا التى ستدفعها لنا. وقالت أن مستر كينير قد اتفق معها".  
"هل صدقت هذا؟"

"صدقت ذلك بالنسبة لمكدرموت، لكنى بالنسبة لى لم أصدق".

يقول سايمون: "ليس بالنسبة لك؟"

"لقد خشيت أن مستر كينير سوف يعجب بى أكثر منها. كما سبق أن قلت، يا سيدى، كانت فى طريقها لإنجاب طفل، وغالبًا فإن هذا ما يحدث مع الرجال؛ فهم يريدون تغيير المرأة التى فى هذه الحالة إلى امرأة ليست كذلك، وهو نفس الشيء مع البقر والحياد، وإذا حدث هذا، فسوف يكون مصيرها إلى الطريق، هى وابنها غير الشرعى. كان واضحًا

أنها أرادت أن تتخلص من وجودي في طريقها، وأن أذهب قبل أن يعود  
مستر كينير إلى البيت. ولا أظن أنه كان يعلم شيئاً عن ذلك."

"ماذا فعلت حينئذ يا جريس؟"

"بكِيت يا سيدى. فى المطبخ. لم أكن أريد الذهاب، ولم يكن لدى  
وظيفة أخرى أذهب إليها. كل شيء كان مفاجئاً، ولم يكن لدى وقت للبحث  
عن وظيفة. وكنت أخشى ألا تدفع لى أجرى على أية حال، وألا تكتب لى  
توصية، وماذا أفعل حينئذ؟ وكان مكرموت يخشى نفس الشيء."

وعندما تتوقف عن المواصله، يقول سايمون: "ثم..؟"

"كان هذا هو الوقت، يا سيدى، الذى قال فيه مكرموت أن لديه  
سراً، ووعدته ألا أخبر أحداً؛ وأنت تعرف يا سيدى أن بذل مثل هذا الوعد،  
يعنى أننى ملتزمة به. وهنا قال إنه سوف يقتل نانسى بالفأس، وأنه  
سيخنقها أيضاً، ويقتل مستر كينير بطلقة من البندقية عندما يعود، ويأخذ  
الأشياء الثمينة؛ وأن على أن أساعده، وأن أذهب معه إذا كنت أعرف  
مصلحتى، لأننى إذا لم أفعل فسوف تلصق بى تهمة فعل كل هذا. وإذا  
لم أكن فى مثل هذه الحالة من الكدر لربما كنت ضحكت منه، لكننى لم  
أفعل؛ وأقول لك الحق، تناولنا أنا وهو كأساً أو اثنتين من ويسكى مستر  
كينير، حيث رأينا أنه لا شيء يمنعنا من أن نبر أنفسنا به، حيث أننا على  
وشك الطرد على أية حال. كانت نانسى قد ذهبت لزيارة آل رايت، ومن ثم  
كانت لنا حرية فى التصرف."

"هل صدقت أن مكرموت سوف يفعل ما قال؟"



"ليس تماماً، يا سيدى. فمن ناحية، ظننت أنه يتشدد بالكلام، ويحاول أن يظهر كم هو رجل ممتاز والأشياء التي يقدر على فعلها. وهو أمر كان عرضة لأن يفعله عندما يكون ثملاً؛ وكذلك كان أبى بنفس الطريقة. ولكن فى نفس الوقت، بدا لى أنه يتحدث بجدية، وشعرت بالخوف منه؛ وكان فى نفسى شعور قوى كما لو كان ذلك قدراً مقدرًا، وأنه لا يمكن تجنبه، مهما فعلت".

"لماذا لم تحذرى الجميع؟ لماذا لم تحذرى نانسى نفسها عندما رجعت من زيارتها؟"

تقول جريس: "ولماذا كان يمكن أن تصدقنى يا سيدى؟ كان ذلك سيبدو غباء شديداً، إذا أعلنته على الملأ. ربما كانت تظن أننى أحاول الانتقام منها لأنها طلبت منى ترك المكان؛ أو أن الأمر لا يزيد على خناقة بين الخدم، وأننى كنت أحاول الانتقام من مكرموت. لم يكن هناك ما يُثبت أى شىء سوى كلامى، وهو ما يمكن أن ينكره ببساطة، ويقول أننى مجرد بنت سخيفة فى حالة هستيريا. وفى نفس الوقت، إذا كان مكرموت يعنى ما يقول فعلاً، فربما يقتلنا نحن الاثنتين فى نفس المكان واللحظة؛ ولم أكن أريد أن أقتل. وأفضل شىء كان يمكننى أن أفعله هو أن أحاول تأخيره عن تنفيذ ما يقول حتى يعود مستر كينير. وفى البداية قال أنه سوف ينفذ الأمر فى تلك الليلة، وأقنعتة ألا يفعل".

يقول سايمون: "كيف استطعت ذلك؟"

"قلت له أنه إذا قُتلت نانسى يوم الخميس، فإن ذلك يعنى يوماً كاملاً ونصف يوم يجب أن نعمل خلالهما حساب الرد على أين تكون لأى

شخص قد يسأل. بينما إذا ترك الأمر لينفذه فيما بعد، فسوف تكون احتمالات إثارة الريبة أقل."

يقول سايمون: "فهمت، معقول جدًا."

نقول جريس بكرامة: "أرجوك لا تسخر مني يا سيدي، إن الأمر شديد التكدير والأسى بالنسبة لي، وأكثر تكديرًا إذا وضعت في اعتبارك أنني مطلوب مني أن أتذكر."

يقول سايمون أنه لم يقصد ذلك. ويبدو أنه يقضى الكثير من الوقت في الاعتذار إليها. ويسألها محاولاً أن يبدو عطوفاً، وليس شديد اللهفة: "وماذا حدث بعد ذلك؟"

"عادت نانسي من زيارتها، وكانت في حالة سرور تام. كانت تلك عاداتها دائماً، بعد أن تكون في حالة غضب، أن تتظاهر كما لو لم يحدث شيء، وأنا كلنا أصدقاء كأحسن ما يكون؛ على الأقل عندما يكون مستر كينير غائباً. كانت تتصرف كما لو لم تكن قد طلبت منا الرحيل، أو وجهت إلينا أية كلمات قاسية، وسار كل شيء كما هو معتاد. تناولنا عشاءنا نحن الثلاثة سوياً في المطبخ، لحم بارد، وبطاطس صنعتها على طريقة سلطة بالثوم من الحديقة، وكانت تضحك وتثرثر. كان مكدرموت متجهماً وصامتاً، ولكن تلك كانت عادته؛ وذهبت ونانسي إلى النوم سوياً، كما هو معتاد عندما يكون مستر كينير بعيداً عن البيت، وتفسير ذلك بأنها تخشى اللصوص؛ ولم تشك في شيء. ولكني توثقت من إغلاق باب غرفة النوم بالمزلاج جيداً."

"لماذا؟"

"كما قلت من قبل، إنني دائماً أغلق المزلاج عندما أنام. لكن أيضاً، كان لمكدرموت فكرة غبية أن يتسلل إلى البيت ليلاً بالفأس. كان يريد قتل نانسي وهي نائمة. وقلت أنه لا يجب أن يفعل ذلك، فقد يقتلني خطأ؛ ولكن كان من الصعب إقناعه. قال أنه لا يريد أن تنظر إليه وهو يفعل ذلك."

يقول سايمون بطريقة جافة: "يمكن أن أفهم هذا"، ثم يضيف:  
"وماذا حدث بعد ذلك؟"

بدأ يوم الجمعة وكل شيء يبدو صحيحاً ومضبوطاً لمن يرى من الظاهر، كانت نانسي في غاية المرح والسرور، ولم توجه أية انتقادات أو شتائم، أو ليس بالكثرة المعتادة، وحتى مكدرموت كان أقل تهماً في الصباح، فقد قلت له أنه إذا ظل بهذا الوجه المروع فمن المؤكد أن نانسي سوف ترتاب في أنه كان ينوي شراً.

وفي منتصف ما بعد الظهر جاء الفتى چيمى وولش يحمل الفلوت، كما طلبت منه نانسي، وقالت حيث أن مستر كينير ليس موجوداً، فإنه يمكننا أن نحتفل كلنا معاً. ولا أعرف أى شيء نحتفل به، ولكن نانسي كانت شديدة الحيوية والمرح عندما ترتفع معنوياتها، وتحب الغناء والرقص. تعشينا عشاء جيداً، وتناولنا معه دجاجاً مشويّاً بارداً، وشربنا بيرة لنبلع بها؛ ثم طلبت نانسي من چيمى أن يعزف لنا، فسألني إذا كنت أحب أن أسمع لحناً معيناً بشكل خاص، وكان شديد الرقة والمجاملة معي، وهو الأمر الذي كان يكرهه مكدرموت، وقال له أن يتوقف عن توجيه تلك النظرات الوالهة لي، لأنها تقلب البطن؛ واشتعل وجه چيمى المسكين بحمرة الخجل. ثم قالت نانسي لمكدرموت أن يتوقف عن مضايقة الصبي،

وسألته ألا يتذكر عندما كان هو نفسه صبيًا؛ وقالت لچیمی أنه سوف يكون وسيماً عندما يكبر — كانت دائماً قادرة على قول هذه الأشياء — وأنه سوف يكون أكثر وسامة بكثير من مكرموت بعبوسه وتبويزه، وعلى أية حال فإن الوسامة هي وسامة الطبع؛ ورمهاها مكرموت بنظرة كراهية شديدة، وتظاهرت هي بأنها لا تراها. ثم أرسلتني إلى القبو لإحضار مزيد من الويسكى، فقد أنهينا الموجود منه بمرور الوقت.

ثم رحنا نضحك ونغنى، أو راحت نانسي تضحك وتغنى، ثم تابعت معها، غنينا أغنية "زهرة ترالى"، وتذكرت مارى هويتتى، وتمنيت من كل قلبى لو كانت معنا هناك، فقد كانت ستعرف ما يجب فعله، وكانت ستساعدنى للخروج من أزمى. أما مكرموت فقد رفض الغناء، فقد غلبته حالة مزاج عكر؛ كما رفض الرقص عندما حثته نانسى، وقالت أنها فرصته ليثبت صحة ما يتشوق به من أنه راقص ماهر. كانت تريد أن نفترق أصدقاء، لكنه لم يفهم شيئاً من ذلك.

بعد بعض الوقت، بدأت الحفلة تخبو وتفقد الحياة. قال چیمی أنه تعب من العزف، وقالت نانسى أن وقت النوم قد حان، وقال مكرموت أنه سيوصل چیمی إلى بيته عبر الحقول، وأظن أنه فعل ذلك ليتأكد من ذهابه بالفعل. ولكن، عندما عاد مكرموت كنت أنا ونانسى فى الطابق الأعلى بالفعل، فى غرفة مستر كينير، وقد أغلقنا الباب بالمزلاج.

يقول سايمون: "غرفة مستر كينير؟"

تقول جريس: "كانت هذه فكرة نانسى، قالت أن سريره أكبر وأكثر برودة فى الجو الحار، كذلك كانت لى عادة الرفس بقدمى وأنا نائمة، وعلى أية حال فإن مستر كينير لن يكتشف شيئاً، حيث أننا نحن اللتان

نرتب الأسرة، وليس هو؛ وحتى لو اكتشف، فإنه لن يهتم، وإنما سوف تعجبه بلا شك فكرة أن تنام فتاتان من الخدم في فراشه مرة واحدة. كانت قد شربت عدة كئوس من الويسكى، وتتكلم بطيش وتهور.

"وعلى أية حال فقد حذرت نانسي بالفعل يا سيدى، فعندما كانت تمشط شعرها قلت لها إن مكرموت يريد أن يقتلك. فضحكت وقالت: هذا ما أتوقعه. وأنا أيضاً لن يضايقنى لو أقتله، فليس بيننا مودة متبادلة. قلت لها: إنه جاد. قالت بخفة: إنه ليس جاداً أبداً فى أى شىء، فهو دائماً يقول ويتشدد، وكل هذا مجرد هواء.

"وهكذا عرفت فى تلك اللحظة أنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً لإنقاذها.

"وما أن رقدت نانسى فى السرير حتى غرقت فى النوم لتوها. جلست أمشط شعرى، فى ضوء شمعة وحيدة، والمرأة العارية فى الصورة تنظر لى، تلك التى كانت تأخذ حماماً فى الخارج، والأخرى التى تضع ريش الطاووس، وكانت المرأتان كلتاها تبتسمان بطريقة لم تعجبني."

"فى تلك الليلة رأيت مارى هويتنى فى الحلم. ولم تكن تلك هى المرة الأولى، فقد رأيتها فى الحلم من قبل، ولكنها لم تتكلم أبداً؛ فقد كنت أراها تتشر الغسيل وتضحك، أو تقشر تفاحة، أو تختبئ خلف الغسيل المنشور على الحبل فى العلوية، وكلها أشياء اعتادت أن تعملها قبل بداية متاعبها، وعندما كنت أحلم بها بهذه الطريقة كنت أستيقظ مرتاحة، كما لو كانت لا تزال حية وتعيش سعيدة.

"لكن هذه كانت مشاهد من الماضى. أما هذه المرة فقد كانت فى الغرفة معى، نفس الغرفة التى كنت فيها، غرفة نوم مستر كينيير. كانت

تقف بجوار السرير في ردائها الليلي، وشعرها منسدل كما كانت عند دفنها؛ وعلى الجانب الأيسر من جسدها كان يمكنني رؤية قلبها، أحمر يسطع من خلال ردائها الأبيض. ولكن حينئذ رأيت أنه لم يكن قلبًا على الإطلاق، وإنما هو كيس الإبر الأحمر الذي صنّعه لها في ذلك الكريسماس، والذي وضعته معها في الكفن تحت الزهور والبتلات المنثورة، وأسعدني أنها لا تزال تحتفظ به معها ولم تتسنى.

"كانت تمسك في يدها كأسًا زجاجية، وداخلها فراشة النار، محبوسة وتلمع بنار باردة ومخضرة. كان وجهها شديد الشحوب، ولكنها نظرت لى وابتسمت؛ ثم رفعت يدها من فوق الكوب، فطارت الفراشة وحوّمت في الغرفة؛ وعرفت أن هذه هي روحها، وأنها كانت تحاول أن تجد طريقها إلى الخارج، لكن النافذة كانت مغلقة؛ ثم لم أستطع أن أعرف أين ذهبت. ثم استيقظت، ودموع الحزن تجرى على وجهي، لأن مارى فقدت منى مرة أخرى.

"رقدت في الظلام، مع صوت تنفس نانسي؛ وكنت أسمع في أذني صوت قلبي يدق بعنف، كما لو كنت أسير في طريق طويل ومجهّد مُقَدَّر على السير فيه سواء أردت أم لم أرد، ومن يستطيع أن يعرف متى أصل إلى نهايته. كنت أخشى أن أنام ثانية، خوفًا من أن أحلم ثانية مثل هذا الحلم، ولم يكن خوفي بلا أساس، لأن هذا هو ما حدث في الواقع.

"وفي هذا الحلم الجديد، حلمت أنني أسير في مكان لم أكن فيه من قبل، له جدران عالية من الحجر تحيط به من كل ناحية، جدران رمادية وجرداء مثل حجارة القرية التي ولدت فيها، هناك في الجانب الآخر من المحيط. وكانت الأرض مفروشة بحصوات رمادية مقلقة، ومن بين

الحصى كانت زهور الفاونيا تنمو. كانت تخرج من الأرض وعليها  
البراعم، صغيرة وصلبة كالتفاحات غير الناضجة، ثم تفتحت، وإذا بها  
زهور هائلة الحجم من لون أحمر قاتم، وبتلات مزججة، مثل الساتان؛  
ثم انفجرت في الريح ووقعت على الأرض.

"وفيما عدا لونها الأحمر، كانت تلك الزهور تشبه زهور الفاونيا  
في الحديقة الأمامية في أول يوم جئت فيه إلى بيت مستر كينير، عندما  
كانت نانسي تقطف آخر هذه الزهور؛ ورأيتها في الحلم، بمثل ما رأيتها في  
ذلك اليوم، في ردائها الفاتح اللون، ذى البراعم الحمراء والتتورة ذات  
الحاشية الثلاثية، والقبعة القش التي كانت تغطي وجهها. كانت تحمل سلة  
مسطحة لتضع الزهور فيها؛ ثم استدارت ووضعت يدها على رقبتها وكأنما  
فوجئت.

"ثم وجدت نفسي مرة أخرى في الفناء المليء بالحصى، أسير  
وأطراف حذائي تظهر وتختفي تحت أطراف تتورتى، والتي كانت مخططة  
بالأبيض والأزرق. وأعرف أنني لم يكن عندي أبداً تتورة كهذه من قبل،  
وعند رؤيتها شعرت بتقل عظيم، وأسى هائل. ولكن أزهار الفاونيا  
استمرت في الظهور من بين الحجارة؛ وعرفت أنها في مكان لا يجب أن  
تكون فيه. ومددت يدي لألمس واحدة منها، وشعرت بها جافة، وعرفت  
أنها من القماش.

"ثم أمامي رأيت نانسي، على ركبتيها، وشعرها ينسدل، والدم  
يجرى نازلاً على عينيها. وحول رقبتها كان يوجد منديل قطنى أبيض به  
وردات زرقاء من نوع "الحب فى الضباب"، وكان منديلى. كانت ترفع  
يديها إلى مسترحمة؛ وفى أذنيها الحلق الذهبى الذى كنت أحسدها عليه.

وأردت أن أجرى إليها وأساعدها، لكنى لم أستطع؛ وظلت قدمائى تسيران فى نفس الخطوات بسرعة ثابتة، وكأنما لم تكونا قدمائى على الإطلاق. وعندما كدت أصل إلى نانسى، إلى حيث كانت تركع، ابتسمت. لكن الابتسامة كانت على فمها وحده، أما عيناها فقد اختفتا خلف الشعر والدم، ثم انفجرت إلى لطخات من الألوان، وتناثرت فى تيار من البتلات القماش البيضاء والحمراء تجرى عبر الحجارة.

"ثم عاد الظلام فجأة، وكان رجل يقف هناك ممسكاً قنديلاً، يسد مدخل السلام الصاعدة، وجدران القبو حولى من كل ناحية، وعرفت أننى لن أخرج أبداً."

يقول سايمون وهو يكتب بسرعة هائلة: "هل كان هذا الحلم قبل الحدث؟"

تقول جريس: "نعم يا سيدى، ومرات عديدة بعد ذلك". تدنى صوتها حتى صار همساً. "ولهذا وضعت هناك."

يقاطعها سايمون: "هناك؟"

"فى المصحة يا سيدى. بسبب الأحلام السيئة." كانت قد وضعت القماش الذى تخبئه جانباً، وتنظر إلى يديها.

يسألها سايمون برقة: "الأحلام فقط؟"

"قالوا أنها لم تكن أحلاماً على الإطلاق يا سيدى. قالوا أننى كنت مستيقظة. ولكنى لا أريد أن أتكلم أكثر عن ذلك."



"فى صباح السبت، استيقظت فى الفجر. كان الديك يصيح فى الخارج فى حظيرة الدجاج؛ كان صياحه أجش وله صلصلة، وكأنما هناك يد تمسك برقبتة وتحاول خنقه بالفعل، وقلت فى نفسى: إنك تعلم أن مصيرك إلى حلة المرق قريبًا. سرعان ما سوف تصبح جثة. ورغم أننى كنت أفكر فى الديك، إلا أننى لا أنكر أننى كنت أفكر فى نانسى أيضًا. ويبدو ذلك نوعًا من البرود، وربما كان الأمر كذلك. شعرت برأسى خفيفة، وأننى منفصلة عن ذاتى، وكأننى لست موجودة بنفسى، وإنما بجسدى وحده.

"أعرف أن هذه أفكار غريبة، والاعتراف بها أغرب يا سيدى، لكننى لن أكذب ولن أخفى شيئًا منها، رغم أن ذلك سهل، لأننى لم أخبر بها أحدًا من قبل. إننى أريد أن أروى كل شيء بالضبط كما حدث لى، وتلك هى الأفكار التى وردت على خاطرى.

"كانت نانسى لا تزال نائمة، وحرصت على ألا ألقها. شعرت أنها من الأفضل أن تستند كل النوم الذى تحتاجه، وكلما طال بقاؤها فى الفراش كلما تأخر حدوث أى شيء، سواء لها أو لى. وبينما أتسلل بحرص

من سرير مستر كبير، زامت نانسي، وتقلبت، وتساءلت في نفسي ما إذا كانت تمر بحلم مزعج.

"كنت في الليلة الماضية قد ارتديت ثوب النوم في غرفتي الواقعة عبر المطبخ الشتوي قبل الصعود إلى الطابق الأعلى بشمعتي، ومن ثم عدت إلى هناك وارتديت ثيابي كالعادة. كل شيء كان كالمعتاد، إلا أنه لم يكن كالمعتاد، وعندما ذهبت لأغسل وجهي وأمشط شعري، بدا لي وجهي في مرآة حوض المطبخ لا يشبه وجهي على الإطلاق. كان يبدو أكثر استدارة وبياضاً، وبدت عيناى كبيرتين محدقتين مروعتين، وأحسست بأننى لا أريد النظر إلى هذا الوجه.

"دخلت إلى المطبخ، وفتحت مصاريع النافذة. كانت الكؤوس والأطباق من الليلة الماضية لا تزال على المنضدة، وبدت لي بأسنة وشديدة التوحد، وكأنما حدثت كارثة عظيمة فجأة قضت على كل من أكلوا وشربوا منها، وها أنا أمر عليها بالمصادفة، بعد سنوات كثيرة؛ وشعرت بحزن شديد. جمعتها وحملتها إلى الغسيل.

"وعندما عدت، كان ثمة ضوء غريب في المطبخ، كأنما هناك طبقة رقيقة من الفضة تغطي كل شيء، أشبه بالصقيع ولكنها أكثر نعومة ورقة، مثل الماء الذى يجرى بطبقة رقيقة فوق حجارة منبسطة مسطحة؛ ثم انفتحت عيناى وعرفت أن هذا لأن الرب جاء إلى البيت وأن هذه هى الطبقة الفضية التى تغطي السماء. جاء الرب إلى البيت لأن الرب فى كل مكان، لا يمكنك أن تمنعه من الدخول، فالرب جزء من كل شيء موجود، فكيف يمكنك أن تبني جداراً أو أربعة جدران أو باباً أو نافذة مغلقة لا يدخل الرب منها ويعبرها مثل الهواء.

"قلت ماذا تبغى هنا، لكنه لم يجب، وإنما ظل ضوءًا فضيًّا، فذهبت لأحلب البقرة؛ لأن الشيء الوحيد الذى يمكنك أن تفعله فى هذه الحالة هو أن تستمر فى عمك أيًا كان الأمر، حيث أنك لن تستطيع أن تمنعه عن شيء أو تعرف منه أسباب أى شيء. فليس هناك إلا "كن"، فيكون، لكن ليس هناك أية أسباب يمكنك أن تعرفها.

"عندما عدت بدلوى اللبن، رأيت مكدرموت فى المطبخ. كان ينظف الأحذية. قال: أين نانسى؟

"قلت: إنها ترتدى ثيابها، هل تتوى قتلها هذا الصباح؟

قال: نعم، عليها اللعنة، سوف آخذ الفأس وأذهب لأضربها على رأسها.

"وضعت يدي على ذراعه، ونظرت فى وجهه. قلت: لن تفعل بكل تأكيد، لا يمكنك أن تنزل بنفسك إلى ارتكاب مثل هذا الأمر الشرير. لكنه لم يفهمنى، وظن أننى أسخر منه، ظن أننى كنت أصفه بالجبن.

قال غاضبًا: دقيقة واحدة وسوف ترين ما يمكننى أن أفعله.

قلت: أرجوك، بالله عليك لا تقتلها فى الغرفة، وإلا امتلأت الأرض بالدماء. كان قولاً أحمق سخيفاً لكن هذا ما خطر ببالى، وكما تعلم يا سيدى، كان تنظيف أرضيات ذلك البيت هو عملى، وكانت هناك سجادة فى غرفة نانسى. ولم يحدث أبدًا أن حاولت تنظيف سجادة من الدم، ولكنى غسلت دماء من أشياء أخرى، وليس ذلك عملية يستهان بها.

"نظر لي مكدرموت نظرة احتقار، وكأنني كنت حمقاء أو بلهاء، ولا بد أنني كنت أبدو كذلك بالفعل. ثم دخل إلى البيت، وتناول الفأس الذي كان بجوار الكتلة الخشبية التي يقطع الأخشاب عليها.

"لم أستطع أن أفكر ماذا أفعل. ذهبت إلى الحديقة، لأجمع بعض الثوم، لأن نانسي كانت قد طلبت أوامليت على الإفطار. كانت الحلزونات تقوم بعملها في تخريم أوراق الخس الملتفة. انحنيت وأخذت أراقبها، بعيونها البارزة فوق سيقان قصيرة؛ ومددت يدي لأجمع الثوم، وبدأت لى يدي وكأنها لم تكن يدي على الإطلاق، وإنما قشرة يدي أو جلدها وبداخلها تنمو يد أخرى.

"حاولت أن أصلى لكن الكلمات لم تخرج من فمي، وأعتقد أن هذا لأنني تمنيت الشر لنانسي، لقد تمنيت لها الموت بالفعل؛ لكني لم أكن أتمنى ذلك في تلك اللحظة. ولكن لماذا أنا بحاجة للصلاة إذا كان الرب بنفسه هناك، يحوم فوقنا مثلما كان ملاك الموت يحوم فوق المصريين، كنت في داخل قلبي أشعر بأنفاسه الباردة، وأسمع رفرقة جناحيه السوداءوين. فكرت أن الرب في كل مكان، فالرب في المطبخ، والرب في نانسي، والرب في مكدرموت، وفي يدي مكدرموت، وفي الفأس أيضاً. ثم سمعت صوتاً غريباً في داخلي، مثل باب ثقيل يصفق مغلقاً، وبعد ذلك لا أذكر أى شيء لفترة من الوقت."

يقول سايمون: "لا تذكرين القبو؟ ولا رؤية مكدرموت يجر نانسي من شعرها نحو باب الأرضية المؤدى إلى القبو؟ وإلقائها من فوق السلم؟ كان ذلك في اعترافك."

تمسك جريس بجانبى رأسها بيديها. "ذلك ما أرادونى أن أقوله.  
قال لى مستر ماكنزى أننى يجب أن أقول ذلك لأنقذ حياتى". وفجأة  
ترتعش. "قال أنها ليست كذبة، فلا بد أن ذلك هو ما حدث، سواء يمكننى أن  
أتذكره أم لا."

"هل أخذت المنديل من حول رقبتك وأعطيته لمكدرموت؟" يبدو  
سايمون رغماً عنه أشبه بمحام فى المحكمة، لكنه يستمر.

"المنديل الذى استخدم فى خنق نانسى المسكينة؟ كان منديلى،  
أعرف هذا. لكنى لا أتذكر أننى أعطيته له."

يقول سايمون: "ولا وجودك فى القبو؟ ولا مساعدته فى قتلها؟  
ولا فى رغبتك فى سرقة القرط من الجثة، كما يقول أنك كنت تريدان أن  
تفعلنى؟"

تغطى جريس عينيها بإحدى يديها للحظات، ثم تقول: "كل هذا  
الوقت مظلم بالنسبة لى يا سيدى، وعلى أية حال، لم تؤخذ أية أقراط  
ذهبية. أنا لا أقول أننى لم أفكر فى الأمر فيما بعد، عندما كنا نجهز متاعنا  
للرحيل؛ لكن التفكير فى أمر ليس مثل فعله. ولو كنا نحاكم على أفكارنا،  
فلربما نشنق جميعاً."

يجد سايمون أنه يجب أن يعترف بأن هذا صحيح وعادل. يحاول  
خطأً آخر. "شهد جيفرسون الجزار بأنه تكلم معك فى ذلك الصباح."

"أعرف أنه فعل يا سيدى، لكنى لا أستطيع أن أتذكر ذلك."

"يقول أنه دهش، حيث أنه لم يكن من المعتاد أنك أنت التي تصدرين الأوامر، وإنما نانسي، ولكن زادت دهشته عندما قلت له أنكم لا تريدون لحمًا طازجًا ذلك الأسبوع. فقد وجد أن هذا غريب للغاية".

"يا سيدى، إذا كنت أنا، وفى تمام عقلى، وإذا كانت لدى شجاعتي، لأمرت باللحم كالمعتاد. فهذا سيكون أقل إثارة للشكوك".

ويجد سايمون نفسه يوافق على هذا. يقول: "حسنًا، ما هو الشيء الذى تتذكرينه بعد ذلك؟"

"وجدت نفسى أقف عند مقدمة البيت يا سيدى، فى المكان الذى توجد فيه الزهور. كنت فى حالة دوار شديد، وأشعر بصداع. كنت أفكر أنه لا بد أن أفتح الشباك؛ لكن هذا كان تفكيرًا أحمق، لأننى كنت فى الخارج بالفعل. ولا بد أن الساعة كانت حوالى الثالثة. كان مستر كينير قادمًا على الممشى، بعربته الخفيفة وقد أعيد طلاؤها باللونين الأصفر والأخضر. جاء مكرموت من الخلف، وساعدنا فى حمل الحقائب، ونظر لى مكرموت نظرة تهديد؛ ثم دخل مستر كينير إلى البيت، وعرفت أنه يبحث عن نانسى. ومر بعقلى خاطر — لن تجدها هناك، يجب أن تنتظر تحت، إنها جثة — وشعرت بخوف شديد.

"ثم قال لى مكرموت، أعرف أنك ستقولين، وإذا فعلت فحياتك لن تساوى قشة. وقد أربكنى هذا. قلت: ماذا فعلت؟ قال ضاحكًا: أنت تعرفين جيدًا. ولم أكن أعرف؛ لكنى الآن ارتبت فى أسوأ ما يمكن. ثم جعلنى أعده بأننى سأساعده فى قتل مستر كينير، قلت له أننى سأفعل؛ فقد رأيت فى عينيه أننى إذا لم أفعل لقتلنى أنا أيضًا. ثم أخذ الحصان والعربة إلى الإسطبل.

"ذهبت إلى المطبخ، لأستمر في أداء واجباتي وكأنما لا شيء هناك. جاء مستر كينير وسألني: أين نانسي؟ قلت أنها ذهبت إلى المدينة في عربة المسافرين. قال إن هذا غريب، حيث أنه مر بهذه العربة في الطريق ولم يرها. سألته إذا كان يريد شيئاً ليأكله، فقال نعم، وسأل: هل جاء جيفرسون باللحم الطازج؛ فقلت لا. قال ذلك أمر غريب، ثم قال أنه سوف يتناول شيئاً مع خبز وبيض.

"صنعت له ما طلب، وذهبت به إليه في غرفة الطعام، حيث جلس منتظراً، يقرأ كتاباً أحضره معه من المدينة. كان العدد الجديد من "سيدات جودي"، التي كانت نانسي المسكينة تحب أن تقرأها، من أجل الاطلاع على الموضة؛ ورغم أن مستر كينير كان يتظاهر بأنها مجرد توافه نسائية، فقد كان هو نفسه ينظر فيها عندما تكون نانسي غير موجودة، ففيها أشياء أخرى غير الثياب؛ وكان يحب النظر إلى الطرز الجديدة من الثياب الداخلية، وقراءة المقالات التي تتحدث حول آداب السلوك بالنسبة للسيدات، وكثيراً ما كنت أجده يضحك بصوت خافت على ما فيها عندما كنت أحضر له القهوة.

"عدت إلى المطبخ، وكان مكرموت هناك. قال أظن أنني سوف أذهب لقتله الآن. لكنني قلت، يا إلهي يا مكرموت، هذا استعجال زائد، انتظر حتى الظلام.

"ثم صعد مستر كينير إلى الطابق الأعلى ليأخذ سنة من النوم، وهو لا يزال يرتدي ثيابه، ومن ثم اضطر مكرموت للانتظار، سواء أراد أم لم يرد. حتى هو لم يكن مستعداً أن يطلق النار على رجل نائم. ظل مكرموت يلازمي طوال فترة ما بعد الظهر، ملاصقاً لي مثل الصمغ،

لأنه كان واثقاً أنني سوف أهرب وأشى به. كانت البندقية معه، وظل يعبث بها. كانت البندقية القديمة ذات الماسورة المزدوجة التي كان مستر كينير يحتفظ بها من أجل صيد البط، لكنها لم تكن محشوة بطلقات صيد البط. قال أن لديه طلقتين رصاصيتين فيها – واحدة وجدها، والأخرى صنعها من قطعة من الرصاص؛ وأنه جاء بالبارود من على الطريق من عند صديقه جون هارفي، رغم أن حنا أبتون، العاهرة ذات الوجه الغليظ – وكانت تلك المرأة تعيش مع هارفي – قالت له أنه لا يمكنه أن يأخذه. لكنه أخذه على أية حال، وعليها اللعنة. وفي هذا الوقت كان في حالة اهتياج وعصبية شديدة، وشديد التبجح أيضاً والفخر بجرأته. كان يتلفظ بالكثير من اللعنات، لكنني لم أعترض، خوفاً منه."

"في حوالي الساعة السابعة نزل مستر كينير، وشرب شايه، وكان في حالة قلق شديد على نانسي. قال مكرموت: سوف أفعالها الآن، عليك أن تدخل هناك وتطلبى منه أن يأتي إلى المطبخ لأستطيع أن أطلق عليه النار على الأرض الحجرية. لكنني قلت أنني لن أفعل."

"قال في هذه الحالة سوف يفعل ذلك بنفسه. سيجعله يأتي بإخباره أنه هناك خطأ ما في السرج الجديد، وأنه مقطع إلى شرائط."

"لم أكن أريد أن يكون لي أي تدخل في ذلك. أخذت صينية الشاي عبر الفناء إلى المطبخ الخلفي، إذ أن موقده هو الذي كان مشتعلاً، وكنت سأقوم بالغسيل هناك؛ وبينما كنت أغسل الصينية سمعت صوت إطلاق البندقية."

"جريت إلى المطبخ الأمامي، ورأيت مستر كينير راقداً على الأرض ميتاً، ومكرموت واقفاً أمامه. كانت البندقية على الأرض. حاولت



أن أجرى هاربة، فصرخ ولعن، وقال أننى يجب أن أفتح باب القبو الذى فى الصلاة. قلت أننى لن أفعل؛ قال: سوف تفعلين. ففعلت، ورمى مكرموت الجسد على السلاالم.

"كنت فى فرع شديد حتى أننى جريت من الباب الأمامى إلى المرجة، وحولها وعبرت الطلبة حتى وصلت إلى المطبخ الخلفى، ثم جاء مكرموت خارجًا من باب المطبخ الأمامى ومعه البندقية، وأطلقها على، ووقعت على الأرض فى إغماءة أشبه بالموت. وهذا كل ما أتذكره يا سيدى حتى وقت متأخر فى ذلك المساء."

"شهد چيمى وولش أنه جاء إلى الفناء حوالى الساعة الثامنة، ولابد أن هذا بعد إغماءتك مباشرة. وقال إن مكرموت كان ما يزال ممسكًا بالبندقية، وادعى أنه كان يصطاد طيورًا".

"أعرف هذا يا سيدى"

"وقال أنك كنت واقفة إلى جوار الطلبة. قال أنك قلت له أن مستر كينير لم يعد بعد، وأن نانسى ذهبت إلى آل رايت".

"لا يمكننى تفسير ذلك، يا سيدى".

"وقال أنك كنت فى حالة طيبة، وأن روحك المعنوية كانت عالية. قال أنك كنت ترتدين ثيابًا أفضل من المعتاد، وكنت ترتدين جوربًا أبيض. ولمح أنه كان جورب نانسى".

"لقد كنت هناك فى قاعة المحكمة يا سيدى. وسمعتة يقول هذا؛ رغم أن الجورب كان يخصنى. ولكن فى ذلك الوقت كان چيمى قد نسى كل مشاعر الحب السابقة تجاهى، ولم يكن لديه إلا الرغبة فى تدميرى،

وفى شلقى لو كان ذلك ممكناً. ولكنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً فيما يقوله الآخرون.

كانت نغمة صوتها تتم عن اكتئاب وغم شديدين حتى أن سايمون يشعر بشفقة طاغية نحوها. ويشعر بدافع لأن يأخذها بين ذراعيه ويهدئ من روعها ويمسد شعرها.

يقول برقة: "حسناً يا جريس، أرى أنك متعبة. سوف نمضى مع قصتك غداً."

"نعم يا سيدى. أرجو أن تكون لادى القوة."

"سوف نصل إلى أعماقها إن عاجلاً أو آجلاً."

تقول بوهن: "أتمنى ذلك يا سيدى، سوف يكون فى ذلك الكثير من الراحة لى، وسوف أشعر بانفراج نفسى عندما أعلم الحقيقة كاملة أخيراً."

تتخذ أوراق الأشجار مظهرها الخاص في أغسطس - مترتبة، ومنهكة، وفاقدة للحيوية - لكن أغسطس لم يأت بعد. يسير سايمون متمهلاً في طريق العودة وقد بدأت حرارة اليوم تضعف في فترة بعد الظهر. يحمل معه الشمعدان الفضى؛ فلم يفكر في استخدامه. يشعر به يتقل على ذراعه؛ وفي الواقع يحمل ذراعه كلاهما توترًا غريبًا، وكأنما كان يجر حبلًا ثقيلًا بجهد كبير. ماذا كان يتوقع؟ الذاكرة الضائعة، بالطبع، الساعات القليلة الحاسمة. طيب، لم يحصل على ما أراد.

ويجد نفسه يتذكر ذات مساء منذ زمن بعيد، عندما كان لا يزال طالبًا في هارفارد. كان قد ذهب إلى نيويورك في نزهة مع والده، الذي كان لا يزال في ذلك الوقت حيًا وغنيًا؛ وذهبًا لزيارة الأوبرا. كان العرض هو أوبرا بيليني "سونامبولاً": "أمينا"، فتاة قروية بسيطة وطاهرة، وجدت نائمة في غرفة نوم الكونت، التي دخلتها دون أن تعي في حالة مشي أثناء النوم؛ وساعت سمعتها في القرية وتخلي عنها خطيبها، رغم اعتراضات الكونت، التي كانت تقوم على معرفته العلمية المتقدمة؛ لكن عندما شوهدت أمينا تسير في نومها عبر جسر محفوف بالمخاطر، والذي ينهار تحتها

فوق مياه النهر المندفعة، تظهر براءتها فوق الشكوك وتستيقظ من نومها  
لتنستعيد السعادة الضائعة.

وكما أشار أستاذ اللغة اللاتينية، فهو مثال ذو مغزى أخلاقي  
يغذى الروح، جامع مانع، فاسم "أمينا" جناس ناقص مع "نوم" (\*) ولكن  
لماذا؟ سأل سايمون نفسه، هل يمكن وصف الروح بأنها غير واعية؟  
ومما يثير المزيد من الحيرة أنه، عندما نامت أمينا، من الذى كان يسير؟  
إنه سؤال يحمل الآن بالنسبة له مضامين أكثر إلحاحًا بكثير.

هل كانت جريس "غير واعية" فى الوقت الذى ادعت أنها كانت  
كذلك؟ أم أنها كانت فى تمام تيقظها كما شهد جيمى وولش؟ ما المدى الذى  
يسمح لنفسه بتصديقه من قصتها؟ هل يحتاج لإضافة ذرة ملح؟ أو ذرتين؟  
أم ثلاثة؟ هل هى حقاً حالة من حالات فقدان الذاكرة؟ من نوع السير أثناء  
النوم؟ أم أنه ضحية دجالة ماكرة؟ ويحذر نفسه من التعميم المطلق:  
لماذا يتوقع منها ألا تقدم إلا الحقيقة الخالصة، الكاملة التى لا تشوبها  
شائبة؟ أى شخص فى وضعها سوف يختار ويعيد الترتيب ليعطى انطباعاً  
إيجابياً. ومما يتفق مع صالحها أن معظم ما أخبرته به يتناغم مع اعترافها  
المطبوع؛ ولكن هل هذا لصالحها حقاً؟ من المحتمل أن يكون متناغماً أكثر  
من اللازم. ويسائل نفسه فى عجب إن كانت تذاكر من نفس النص الذى  
كان يستخدمه هو نفسه، لتتمكن من إقناعه بشكل أفضل.

والصعوبة الحقيقية أنه يريد أن يقتنع. إنه يريد أن تكون "أمينا".  
إنه يريد أن تكون بريئة.

---

(\*) فى الأصل الإنجليزى، الفتاة اسمها Amina، والجناس بين اسمها وبين anima الاسم  
اللاتينى لـ amnesia (فقدان الذاكرة).

ويقول لنفسه، لابد من الاحتراس. يجب التراجع. فإذا نظر إلى الأمر بموضوعية، فإن ما كان يجرى بينهما، رغم جزعها الواضح فيما يخص جريمتي القتل، وإذعانها الظاهري، كان صراع رغبات. وهي لم ترفض أن تتكلم، على العكس تمامًا، لقد أخبرته بقدر كبير من الرواية، لكنها أخبرته فقط بما اختارت أن تخبره به. أما ما يريد فهو ما ترفض أن تخبره به؛ ما تختاره ربما ليس حتى أن تعرف. معرفة الذنب، أو على العكس، معرفة البراءة: كلاهما يمكن إخفاؤه. لكنه سوف ينتزع الحقيقة منها في النهاية. فالسنارة الآن في فمها، ولكن هل يستطيع أن يشد الخيط ليخرجها .. من الهاوية، من الظلمات إلى النور. ليخرجها من البحر العميق المعتم.

ويتعجب من نفسه، لماذا يفكر بهذه الطريقة المتطرفة. يقول لنفسه إنه يشعر بالموودة تجاهها، ويفكر في الأمر كعملية إنقاذ، بكل تأكيد.

ولكن هل هي تفكر كذلك؟ إذا كان لديها أي شيء يحتاج للإخفاء، ربما سوف تريد أن تبقى في المياه، في الظلام، في محيطها الملائم لها. ربما تخشى ألا تستطيع أن تتنفس إذا خرجت من المياه.

يقول سايمون لنفسه أنه يجب أن يتوقف عن أن يكون بهذا التطرف والتكلف. ربما يكون الأمر هو أن جريس في حالة فقدان ذاكرة حقيقية. أو العكس التام، أو مذنبه تمامًا.

ويمكن بالطبع أن تكون مجنونة، ولكن لها تلك المعقولية الظاهرية المخادعة المدهشة للمجنون المحنك. بعض ذكرياتها، خاصة ذكريات يوم ارتكاب الجريمتين، توحى بنوع من الهوس أشبه بالهوس الديني. ولكن نفس هذه الذكريات يمكن بلا ريب تفسيرها بأنها مخاوف

وأوهام الروح الساذجة. إن ما يريده هو التأكد، بطريقة أو بأخرى؛ وهذا هو بالضبط ما تكبحه وتمنعه عنه.

ربما يكمن الخطأ في الطرائق التي يتبعها. ومن المؤكد أن تقنية الإيحاء التي اتبعها لم تكن مثمرة: فالثمار كانت فشلاً ذريعاً. ربما هو تجريبي ومتردد أكثر من اللازم، أو لطيف ولين العريكة أكثر من اللازم؛ ربما يجب استخدام شيء أكثر عنفاً. ربما يجب أن يشجع جيروم دو بونت في تجربة التنويم العصبى هذه، ويعد لمشاهدتها بنفسه، وربما حتى يختار الأسئلة. إنه لا يثق بهذه الطريقة، ولكن، قد يظهر شيء جديد؛ قد يُكتشف أمر ما لا يزال غير قادر على اكتشافه بنفسه حتى الآن. ربما الأمر يستحق المحاولة على الأقل.

يصل إلى البيت، ويتحسس جيبه بحثاً عن المفتاح، لكن دوراً تفتح له الباب. ينظر إليها باشمزاز: مثل هذه المرأة الخنزيرة، والتي تتصاعد منها رائحة عرق ننتة في هذا الجو الحار، لا يجب أن يُسمح لها بالظهور في مكان عام. إنها تعتبر شهيراً بجنس النساء جميعاً. لقد ساعد هو نفسه في إعادتها للعمل هنا — والواقع أنه قدم لها رشوة لتعود — ولكن ذلك لا يعنى أنها أصبحت أفضل لديه مما في السابق. ولا هو أيضاً بالنسبة لها، إذا حكمنا من النظرة المليئة بالحقد التي ترشقه بها من عينيها الصغيرتين الحمراءوين.

تقول: "إنها تريد أن تراك"، وهي تشير برأسها نحو خافية المنزل. سلوكياتها شديدة الديمقراطية دائماً وأبداً.

كانت مسز همفري تعارض عودة دورا بشدة، ولا يمكنها أن تتحمل البقاء في غرفة واحدة معها، وهذا أمر مبرر تماماً ولا يثير الدهشة.

ورغم ذلك، فقد أشار سايمون إلى أنه لا يمكن أن يتوقع منه أن يعيش دون عناية وترتيب، وأن شخصاً ما لابد أن يؤدي أعمال البيت، وحيث لا يوجد أى أحد آخر فى الوقت الحالى، فسوف تفى دورا بالغرض. وقال أنه طالما تتلقى دورا أجرها، فسوف تكون طيعة بالقدر الكافى، أما الأدب والتهذيب فهو أكثر مما يمكن توقعه؛ وقد ثبت أن هذا هو الحال.

يسأل سايمون: "أين هى؟". ويراجع نفسه، لم يكن يجدر به أن يقول "هى"، فهى كلمة شديدة الحميمية. كان الأفضل أن يقول "مسز همفرى".

تقول دورا بازدرء: "ترقد على الأريكة على ما أعتقد"، وتضيف: "كعادتها دائماً".

ولكن عندما يدخل سايمون إلى الردهة — التى لا تزال خالية من الأثاث فى معظمها، رغم أن بعض القطع الأصلية عادت إلى الظهور بشكل غامض — يجد مسز همفرى واقفة أمام المدفأة، وقد تهدل أحد ذراعيها برقة وتدلت اليد مستندة برشاقة على رف المدفأة الأبيض. اليد ذات المنديل الموشى بالدانتيل. يشم رائحة بنفسج.

تقطع وقفاتها الصامتة قائلة: "دكتور چوردان، لقد فكرت أنك قد تفضل بتناول العشاء معى الليلة، كنوع من الرد البسيط على كل الجهود التى بذلتها من أجلى. أنا لا أحب أن أكون متهاونة فى الاعتراف بالفضل. وقد أعدت دورا دجاجة صغيرة باردة". تلفظ كل كلمة بحرص وكأنما هى خطبة حفظتها عن ظهر قلب.

يرفض سايمون، بأقصى أدب يقدر عليه. يشكرها غاية الشكر، فهو هذا المساء لديه ارتباطات. وليس هذا بعيداً عن الحقيقة: فقد وجهت له

مس ليديا دعوة لحضور نزهة تجديف في الميناء الداخلى مع مجموعة من الشباب.

تقبل مسز همفري رفضه بابتسامة فاتتة، وتقول أنهما سوف يفعلان ذلك فى وقت آخر. هناك شىء ما فى الطريقة التى تمسك نفسها بها – وكذلك فى الطريقة البطيئة المتعمدة لكلامها – يفاجئه بغرابته. هل كانت المرأة تشرب؟ عيناها لهما تحديقة معينة ويدها ترتعشان رعشة خفيفة.

وما أن يصعد إلى شقته، يبادر بفتح حقيبته الجلدية. كل شىء يبدو كما هو. الزجاجات الثلاث من اللودانوم موجودة، وليس منها واحدة تبدو أقل مما كان. ينزع سداداتها، ويتذوق المحتويات: واحدة منها عبارة عن ماء خالص. إذن، كانت تغير على مؤونته الدوائية، ولا يعلم إلا الله منذ متى. الآن، فقط، يرى معنى مختلفاً لنوبات الصداع المسائية التى تعاني منها. كان يجب أن يعرف: مع زوج مثل ذلك الذى كانت تعيش معه، فهى معرضة للبحث عن سند ما يساعدها على الاحتمال. ولا بد أنها كانت تشتري عندما كان لديها نقود، ولكن، وقد أصبحت النقود نادرة، وأصبح هو أقل حذرًا... كان يجب أن يغلق غرفته بالمفتاح، ولكن، الوقت الآن تأخر كثيرًا على أن يبدأ بفعل ذلك.

وبالطبع، ليس ثمة طريقة يمكن بها أن يذكر الأمر لها. فهى امرأة شديدة الحساسية. واتهامها بالسرقة لن يكون فقط قاسيًا، بل أيضًا مبتذلاً وردئياً. ولكن، لقد خدع رغم كل شىء.

يذهب سايمون إلى رحلة التجديف. كان الليل دافئاً وهادئاً، وثمره ضوء قمر. يشرب قليلاً من الشمبانيا – لم يكن ثمة إلا القليل – ويجلس



فى نفس قارب التجديف الذى تجلس فىه لىديا، ويلطفها بطريفة يشوبها بعض الفتور. فى على الأقل شخصية طبيعية وصحية، وجميلة أيضا. ربما يجب أن يتقدم لها. وهو يظن أنها قد تقبل. ويشحنها إلى موطنه لاسترضاء أمه، يسلمها لها، ويتركهما تعملان معا على رفايته.

سوف يكون هذا نوعا من تقرير المصير، أو إضفاء الاستقرار على ما هو فيه من تشوش وفوضى؛ أو إخراج نفسه من طريق الأذى. ولكنه لن يفعل؛ فهو ليس بهذا الكسل، ولم يصل بعد إلى هذه الدرجة من التعب، ليس بعد.

الفصل العاشر

سيدة البحيرة



ثم بدأنا نحزم الأشياء الثمينة التي يمكن أن نجدها؛ ونزلنا نحن الاثنين إلى القبو؛ كان مستر كينير راقداً على ظهره في مخزن النبيذ؛ حملت الشمعة؛ وأخذ مكدرموت المفاتيح وبعض النقود من جيوبه؛ ولم نقل شيئاً عن ناتسي؛ لم أرها، لكنني عرفت أنها كانت في القبو، وفي حوالي الحادية عشرة، أسرج مكدرموت الحصان؛ ووضعنا الصناديق في العربة وبدأنا متجهين إلى تورنتو؛ قال إننا سوف نذهب إلى الولايات وأنه سوف يتزوجني. وافقت على الذهاب؛ ووصلنا إلى تورنتو، إلى فندق المدينة، حوالي الساعة الخامسة؛ وأيقظنا الناس؛ وتناولنا إفطارنا هناك؛ وفتحت صندوق ناتسي واستخدمت بعض أشياءها، وغادرنا بالمركب في الساعة الثامنة، ووصلنا إلى لويسون في حوالي الثالثة؛ ذهبنا إلى الخان، وفي المساء تعشينا على المائدة العامة، وذهبت للنوم في غرفة منفصلة ومكدرموت في غرفة أخرى؛ وقبل أن أذهب إلى النوم، قلت لمكدرموت أنني سوف أتوقف في لويسون، ولن أواصل بعد ذلك؛ فقال أنه سوف يجعلني أذهب معه، وفي حوالي الخامسة في الصباح، جاء مستر كينجسميل، مساعد الشريف، وقبض علينا، وأعادنا إلى تورنتو.

اعتراف جريس ماركس

*Star and Transcript*، تورنتو، نوفمبر ١٨٤٣

يلتقى، بمصادفةٍ قدريةٍ واضحة،  
بالفتاة المقدرة له؛ ثمة يد مخبأة  
ترفع الحجب عن هذا الجمال ...  
الذي لا يستطيع الآخرون فهمه.  
تنمو مشاعره بفضل حضورها،  
ليلتقى، ويكون جديرًا، بالوعد الذي فى  
عينها،  
وحول الخطوات السعيدة لقدميها .. تهب  
رياح الجنة الحقيقية...

كوفنترى باتمور،

*The Angel in the House, 1854.*

ما أخبرنى به مكرموت فيما بعد هو أنه بعد أن أطلق البندقية على، ووقعت على الأرض فى إغماءة شديدة، أنه ملأ دلوًا بماء بارد من الطلمبة، ورماه فوقى، وأعطانى بعض الماء بالنعناع لأشربه، وأننى استعدت وعيى فوراً، وكنت فى حالة جيدة تمامًا وفى غاية المرح، وحميت النار فى الموقد وطبخت عشاء له، وكان من لحم الخنزير والبيض، وشأى بعد ذلك، وجرعة من الويسكى لتهدئنا؛ وأكلنا هذا العشاء سوياً بشهية مفتوحة، ودق كل منا كأس الآخر بكأسه، وشربنا نخب نجاح مغامرتنا. لكنى لا أنكر أياً من ذلك على الإطلاق. ولا يمكن أن أكون قد تصرفت هكذا وكأنى بلا قلب، ومستر كينير يرقد ميتاً فى القبو، فضلاً عن نانسى، التى لا بد أنها ميتة أيضاً، رغم أننى لم أكن أعرف على وجه اليقين ماذا حدث لها. لكن مكرموت كان كذاباً كبيراً.

لا بد أننى ظللت غائبة عن الوعى لفترة طويلة، لأننى حين تنبهت كان ضوء النهار يخبو. كنت راقدة على ظهري فوق السرير فى غرفة نومى؛ وقد خلعت قلنسوتى عنى، وكان شعري كله منعكساً ومسدلاً على كتفى، كما كان مبللاً، وكذلك الجزء الأعلى من ثوبى، ولا بد أن هذا

حدث بسبب الماء الذي سكبته فوقى جيمس؛ ومن ثم فإن هذا الجزء على الأقل من روايته كان حقيقياً. رقدت هناك على السرير، محاولة أن أتذكر ماذا حدث، حيث أنني لم أستطع أن أتذكر كيف جئت إلى الغرفة. لا بد أن جيمس حملنى إلى هنا، لأن الباب كان مفتوحاً على آخره، وإذا كنت دخلت بنفسى لكنت أغلقته جيداً.

أردت أن أقوم وأغلق الباب، لكنى شعرت بألم فى رأسى، وكانت الغرفة شديدة الحرارة ولا هواء بها؛ فاستغرقت فى النوم مرة أخرى، ولا بد أنني تحركت فى نومى بقلق شديد، لأننى عندما استيقظت كانت الملاءة والأغطية فى حالة مروعة وقد وقع الغطاء على الأرض. هذه المرة استيقظت فجأة وقمت جالسة مباشرة، ورغم الحرارة كان العرق البارد يغمرنى. والسبب أنه كان هناك رجل واقف فى الغرفة وقد انحنى ينظر إلى. كان جيمس مكدرموت، وظننت أنه قد جاء ليخنقنى فى نومى بعد أن قتل الآخرين. اختنق صوتى فى حلقى من الرعب، ولم أستطع أن أنطق بكلمة.

لكنه سألنى بعطف شديد، هل أشعر بأننى أفضل الآن بعد أن أخذت قسطاً من الراحة؛ واستطعت أن أنطق مرة أخرى، وقلت نعم. كنت أعرف أنه من الخطأ إظهار الخوف الشديد، وأن أفقد السيطرة على نفسى؛ لأنه فى هذه الحالة سيظن أنه لا يستطيع الثقة بى أو الاعتماد على قدرتى على التحكم فى أعصابى، وربما يخشى أن أنهار وأبدأ فى البكاء أو الصراخ عندما نكون وسط آخرين، وأكشف كل شىء؛ وهو السبب الذى جعله يطلق البندقية على؛ وإذا كان قد فكر فى ذلك،

فلربما يتخلص منى بأسرع من طرفة عين، فهذا أفضل من أن يكون هناك أى شاهد.

ثم جلس على جانب الفراش، وقال إن الوقت قد حان للوفاء بوعدى؛ وقلت أى وعد، فقال إننى أعرف جيدًا، لأننى وعدته بأن أهبه نفسى مقابل قتل نانسى.

لم أستطع أن أتذكر قول أى شىء من هذا القبيل؛ لكنى كنت فى تلك اللحظة على قناعة تامة بأنه شخص مجنون، وفكرت أنه قد فسر أى شىء قلته بالفعل بهذه الطريقة، كلمات بريئة، أو مجرد ما قد يقوله أى شخص؛ مثل قولى ياليتها تموت، وأننى سوف أعطى أى شىء مقابل ذلك. وقد كانت نانسى شديدة الخشونة والقسوة معى، من وقت لآخر، ولكن هذا هو ما يقوله الخدم دائمًا، بعيدًا عن أسماع أسيادهم؛ فعندما تكون غير قادر على الرد عليهم مباشرة، فلا بد أن تعطى مشاعرك متنفسًا بطريقة أو أخرى.

لكن مكرموت قلب المعنى لشىء لم أقصده أبدًا، والآن يريد أن يلزمنى بأداء ثمن مساومة لم أكن طرفًا فيها. وكان جادًا للغاية، فقد وضع يداً على كتفى، وكان يدفعنى للخلف على السرير. وراح يجذب تنورتى باليد الأخرى؛ وفهمت من رائحته أنه كان يشرب من ويسكى مستر كينير، وبكمية كبيرة أيضًا.

عرفت أن الطريقة الوحيدة هى أن أجاربه. قلت: أوه، لا، وأنا أضحك، ليس فى هذا السرير، إنه ضيق للغاية وليس مريحًا لشخصين على الإطلاق. هيا نذهب إلى أى سرير آخر.



وأدهشني أنه وجد ذلك فكرة جيدة، وقال سيكون من دواعي سروره أن ينام في سرير مستر كينير، حيث لعبت نانسي كثيرًا دور العاهرة؛ وفكرت أنني بمجرد أن أستسلم له، سوف يعتبرني عاهرة بالمثل، وسوف يعتبر حياتي رخيصة للغاية، والاحتمال الأغلب أن يقتلني بالفأس ويرميني في القبو، لقد كان يقول دائمًا أنه لا فائدة للعاهرات إلا مسح حذائك القذر وأنت تركلهن في كل مكان من أجسادهن القذرة. ومن ثم فكرت في خطة لتأخير الأمر، وتعطيله لأطول فترة ممكنة.

جذبني حتى قمت واقفة، وأوقدنا الشمعة التي كانت في المطبخ، وصعدنا فوق السلالم؛ ودخلنا إلى غرفة مستر كينير، التي كانت مرتبة والفرش نظيفًا ومجهزًا، فقد فعلت ذلك بنفسى في ذلك الصباح؛ ورمى مكدرموت الأغطية إلى الخلف، وجذبني إلى جواره على السرير. وقال: لا قش للحشو، لا شيء في الحشايا إلا ريش الإوز، لا عجب أن نانسي كانت تحب قضاء وقت طويل في هذا السرير؛ وللحظة بدا عليه الخوف، ليس بما فعل، وإنما بحجم السرير الكبير. ولكنه حينئذ بدأ يقبلني، وقال: الآن يا فتاتي، أن الأوان، وبدأ يفك أزرار ردائي؛ وتذكرت أن أجرة الخطيئة هي الموت، وشعرت بأننى سيغمى على. ولكنى كنت أعرف أنه لو أغمى على لكنت فى حكم الميتة، معه وهو فى حالته هذه.

انفجرت فى البكاء، وقلت لا، لا أستطيع، ليس هنا فى سرير رجل ميت، هذا خطأ، وهو فى القبو جسده متخشب ومتصلب؛ وبدأت أنهنه وأبكى.

تضايق مكرموت للغاية، وقال أنني يجب أن أتوقف في الحال، وإلا فسوف يصفعنى على وجهى؛ ولكنه لم يفعل. فما قلته جعل رغبته تقترب، كما يقولون في الكتب؛ أو كما قد تقول ماري هويتتى، أنه ألقى بالورقة الخاسرة. ففي تلك اللحظة كان مستر كينير، رغم أنه ميت، هو الرجل الأقوى منه.

شدنى من فوق السرير، وجرنى من ذراعى إلى الصالة، وكنت لا أزال أنوح وأبكي بكل طاقتى. قال: إذا لم يعجبك هذا السرير، سوف أفعل ذلك فى سرير نانسى، لأنك عاهرة كبيرة مثلما كانت هى. ورأيت وفهمت إلى أين تسير الأمور، وفكرت أن ساعتى الأخيرة قد حانت، وتوقعت أن يرمىنى فى أية لحظة إلى الأسفل ويجرنى من شعرى.

دفع باب الغرفة بعنف، وجرنى إلى الداخل، وكانت الغرفة فى حالة فوضى، تمامًا كما تركتها نانسى، لأننى لم أكن قد رتبتهـا، حيث لا حاجة ولا وقت هناك لفعل ذلك. لكن عندما جذب الغطاء، كانت الملاءة كلها مبقعة بدم قاتم، وكان هناك كتاب على السرير، مغطى بالدم أيضاً. ما أن رأيته حتى نددت عنى صرخة رعب؛ لكن مكرموت توقف، ونظر إليه، وقال، لقد نسيت هذا.

سألته ما هذا بحق السماء، وماذا يفعل هناك. قال أنها المجلة التى كان يقرأها مستر كينير، وأنه حملها معه إلى المطبخ، حيث أطلق النار عليه؛ وأثناء سقوطه ضم يديه إلى صدره، وهو لا يزال يحملها؛ ولهذا استقبلت أول دفقة من الدماء. وقد رماها مكرموت فى سرير نانسى لإبعادها عن الأنظار، وأيضاً لأن مكانها هناك، لأنه أحضرها من

المدينة من أجلها، وكذلك لأن دم كينير كان فوق رأس نانسي، لأنها لو لم تكن مثل هذه العاهرة الملعونة سليطة اللسان، لاختلف كل شيء، وما كان مستر كينير ليموت. فهي علامة. وعند ذلك رسم الصليب على صدره، وهي المرة الوحيدة التي رأته فيها يفعل شيئاً يدل على أنه كاثوليكي.

حسناً، فكرت أنه مجنون مثل ثور في الأيام شديدة الحرارة، كما اعتادت ماري هويتتي أن تقول؛ لكن مرأى الكتاب جعله يفتر تماماً، واختفت من رأسه أية أفكار عما كان بسبيله أن يفعل. وظللت ممسكة بالشمعة قريباً، وقلبت الكتاب بطرفي السبابة والإبهام، وكان هو مجلة جودي للسيدات التي كان مستر كينير يستمتع بقراءتها قبل ذلك في نفس اليوم. وعندما تذكرت ذلك كدت أنفجر في البكاء بحق.

ولكن كم ستبقى هذه الحالة التي يشعر بها مكرموت الآن، لا أحد يستطيع أن يقول. ومن ثم فقد قلت، إن هذا سوف يشوشهم؛ عندما يجدونه لن يكون بإمكانهم أن يعرفوا كيف جاء هنا. فقال نعم، سوف يعطيهم هذا لغزاً يشغل أمخاخهم؛ وضحك بطريقة جوفاء.

ثم قلت: الأفضل أن نسرع، وإلا قد يأتي أحد ونحن هنا؛ لابد أن نشد رحالنا بسرعة ونحزم الأشياء. فعلياً أن نساغر في الليل، وإلا رآنا أحد على الطريق ومعنا عربة مستر كينير وأشياؤه، وسوف يعرف أن هناك أمراً غير طبيعي. وقلت: سوف نأخذ وقتاً طويلاً حتى نصل تورنتو، في الظلام، كما أن الحصان تشارلي سوف يكون متعباً، فقد قام بنفس الرحلة اليوم أيضاً.

ووافق مكرموت، كما لو كان نصف نائم؛ وشرعنا نبحث فى أرجاء المنزل، ونحزم الأشياء. لم أكن أريد أن آخذ أشياء كثيرة، فقط الأشياء الخفيفة والثمينة، مثل صندوق السعوط الذهبى الخاص بمستر كينير، والتلسكوب وبوصلة الجيب، وريشة القلم الذهبية، وأى نقود يمكن أن نجدها؛ لكن مكرموت قال القليل مثل الكثير، وأنه ربما يشنق من أجل عنز مثلما يمكن أن يشنق من أجل كبش؛ وفى النهاية كنا قد نهبنا كل ما يمكن نهبه من البيت، وأخذنا الطبق الفضى والشمعدانين، والملاعق والشوك وكل شىء، حتى تلك التى كان شعار العائلة عليها؛ لأن مكرموت قال أنه يمكن إعادة سبكها بسهولة.

نظرت إلى صندوق نانسى، وإلى ثيابها؛ وفكرت، لا حاجة لأن تضيع هباء، فالمسكينة نانسى لن تحتاجها بعد ذلك. ومن ثم أخذت الصندوق وكل ما فيه، وأخذت ملابسها الشتوية أيضاً؛ ولكنى تركت الثوب الذى كانت تخطئه، لأنه بدا لى شديد القرب منها، حيث أنه لم ينته بعد؛ وقد سمعت أن الموتى قد يعودون لإكمال ما تركوه دون أن يكتمل، ولم أرد أن تفتقده، وتتبعنى من أجله. فى هذا الوقت كنت متأكدة تقريباً أنها قد ماتت.

قبل الرحيل، رتبت المنزل، وغسلت الأطباق، وأطباق العشاء وكل شىء؛ ورتبت فراش مستر كينير، وغطيت سرير نانسى بالغطاء، رغم أننى تركت الكتاب فيه، حيث لم أر أن ألمس دم مستر كينير؛ وأخليت نونية غرفتها، حيث فكرت أنه ليس من اللائق تركها، فذلك يعتبر نوعاً من الإهانة. وفى ذلك الوقت، كان مكرموت يسرج تشارلى،

ويضع الصناديق والحقيبة المصنوعة من السجاد في العربة؛ رغم أنني وجدته في لحظة يجلس بالخارج على العتبة، ويحدق ببلاهة في الفراغ أمامه. فقلت له أن يستجمع نفسه، ويكون رجلاً. فقد كان آخر ما أريده أن أظل هناك في هذا البيت معه، خاصة وقد ذهب عقله تمامًا. وعندما قلت له أن يكون رجلاً، أثر فيه هذا القول، فقد شد نفسه، وقام واقفاً، وقال أن عندي حق.

آخر شيء فعلته هو أن خلعت الثياب التي كنت ألبسها في ذلك اليوم؛ ولبست أحد أثواب نانسي، الثوب الفاتح اللون، الأبيض المطبوع بالزهور الصغيرة، وهو نفس الثوب الذي كانت تلبسه في أول يوم جئت فيه إلى بيت مستر كينير. وارتديت تنورتها الداخلية الموشاة بالدانتيل، وتنورتى الداخلية الوحيدة النظيفة، وحذاء نانسي الصيفي المصنوع من جلد ملون خفيف، والذي كنت أعجب به كثيراً، رغم أنه لم يناسبني تمامًا. وأيضاً وضعت قبعتها الجيدة المصنوعة من القش؛ وأخذت شالها الكشمير الخفيف، رغم أنني كنت أعرف أنني قد لا أحتاج إليه، فالليلة كانت دافئة. ووضعت بعض ماء الورد خلف أذني وعلى راسي، من الزجاجة الموجودة في دولابها؛ وكانت رائحتها مريحة إلى حد ما.

ثم ارتديت مريلة نظيفة، وحركت النار في موقد المطبخ الصيفي، والتي كانت لا تزال بها بعض الجمرات، وأحرقت ثيابي؛ فلم أكن أريد أن أفكر في لبسها أبداً ثانية، فقد كانت تذكرني بأشياء أتمنى أن أنساها. ربما كان ذلك من صنع خيالي، ولكنني أحسست برائحة تتصاعد منها مثل رائحة لحم يشيط؛ وكأن ما يحترق هو جلدي القذر بعد أن خلعته عني.

وبينما كنت أقوم بهذا، جاء مكدرموت، وقال أنه جاهز، ولماذا أضيع الوقت. قلت له أننى لا أستطيع أن أجد منديلى الأبيض الكبير، ذلك المنديل المطبوع عليه زهور زرقاء، وأننى أحتاجه لحماية رقبتى من الشمس، عندما نكون فى المعدة ونحن نعبّر البحيرة فى اليوم التالى. وضحك على هذا بطريقة تحمل دهشة، وقال أنه أسفل فى القبو، يحمى رقبة نانسى من الشمس؛ وأنه كان يجب أن أتذكر ذلك، حيث أننى بنفسى جذبته بقوة وربطت العقدة. وقد صدمنى هذا الكلام؛ لكنى لم أرد أن أعارضه، فمن الخطر معارضة المجانين. ومن ثم قلت أننى نسيت.

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة ليلاً عندما تحركنا؛ كانت ليلة جميلة، نسيمها يكفى لإشعارنا ببعض البرودة، ولم يكن هناك الكثير من البعوض. كان هناك نصف قمر، ولم أستطع أن أتذكر هل هو فى طريقه إلى البدر أم إلى المحاق؛ وبينما كنا نمضى فى الممر بين أشجار الإسفندان وعبر البستان، نظرت خلفى، ورأيت المنزل يقف هناك فى سلام يغمره ضوء القمر، كما لو كان يتألق بضوء ناعم. وفكرت: من يمكنه أن يحدس من النظر إليه ما يرقد فيه. وتتهدت، وأعددت نفسى للرحلة الطويلة.

سرنا ببطء شديد، رغم أن تشارلى كان يعرف الطريق، لكنه كان يعرف أيضاً أن مكدرموت ليس هو سائقه الحقيقى، وأن هناك شيئاً غير طبيعى؛ فقد توقف عدة مرات، ورفض الاستمرار حتى يحثه بالكرباج. ولكن عندما قطعنا عدة أميال على الطريق، وعبرنا الأماكن التى كان يعرفها جيداً، بدأ يهدأ ويستقر؛ وتابعتنا طريقنا، عبر الحقول

الغارقة في الصمت والضوء الفضى، وأسوار الأفاعى على الجانبين أشبه  
بضفيرة أغمق لوناً، والخفافيش تصفق فوق رؤوسنا، وحولنا الغابات  
الممتدة الداكنة؛ ومرت بومة عابرة الطريق فوقنا، كانت شاحبة وناعمة  
كالفراشة.

في البداية، كنت خائفة أن نلتقى بشخص نعرفه، فسوف يسألون  
إلى أين نذهب في مثل هذه النزهة المتسترة؛ لكن لم يكن هناك حتى  
يسعى. وأصبح جيمس أكثر جرأة وابتهاجاً، وبدأ يتكلم حول ما سوف  
نفعله عندما نصل إلى الولايات، وكيف سوف يبيع الأشياء، ويشترى  
مزرعة صغيرة، ثم نصبح مستقلين، وأنا إذا لم نحصل على نقود كافية  
في البداية، فسوف نعمل كخدم ونوفر أجرنا. لم أقل نعم أو لا، حيث أنني  
لم أكن أنوى البقاء معه أكثر من ذلك دقيقة واحدة، بمجرد أن نكون آمنين  
عبر البحيرة وبين الناس.

لكنه ركن إلى الصمت بعد بعض الوقت، ولم يكن هناك  
إلا صوت حوافر تشارلى على الطريق، وحفيف ريح خفيفة. وفكرت  
أننى يمكن أن أقفز من العربة وأجرى إلى الغابات؛ لكنى كنت أعرف  
أننى لن أستطيع الابتعاد، وحتى لو فعلت، فسوف تأكلنى الدببة والذئاب.  
وفكرت أننى راكبة العربة عبر وادى ظل الموت، كما جاء فى  
المزامير<sup>(\*)</sup>؛ وحاولت ألا أخاف أى شر، لكن هذا كان شديد الصعوبة،  
لأن الشر كان معى على العربة، كنوع من الضباب. فحاولت أن أفكر فى

---

(\*) "أيضاً إذا سرتُ فى وادى ظل الموت لا أخاف شيئاً لأنك أنت معى"، مزامير  
.٤:٢٣

شيء آخر. وتطلعت إلى السماء فوقى، والتي كانت صافية، لا سحابة فيها، ومليئة بالنجوم؛ وبدأت قريبة للغاية حتى أنني يمكن أن ألمسها بيدي، ورقيقة للغاية حتى أنني يمكن أن أضع يدي بينها، مثل شبكة عنكبوت مرصعة بقطرات الندى.

ولكن حينئذ، وأنا أنظر، بدأ جزء منها يتجدد، مثل قشرة على سطح اللبن الساخن ولكن أكثر صلابة وهشاشة، ومحبية مثل شاطئ مظلم، أو مثل الحرير الكريب الأسود؛ ثم أصبحت السماء مجرد سطح رقيق، مثل الورقة، ثم بدأت الورقة تتشع وتبتدد. وخلفها كان الظلام الحالك البارد؛ ولم يكن ما أنظر إليه هو الجنة أو النار، فما كان هناك إلا الفراغ. وكان هذا أكثر إثارة للخوف من أى شيء آخر يمكن أن أفكر فيه، وأخذت أصلى بصمت إلى الرب أن يغفر لى أثمى؛ لكن ماذا لو لم يكن هناك رب ليسامحنى؟ ثم فكرت، وأنا أنتحب وتصطك أسناني، أنه ربما يكون الظلام الخارجى هو المكان الذى لا يوجد فيه الرب. وبمجرد أن مر هذا الخاطر بعقلى، انغلقت السماء مرة أخرى، مثل مياه رميت فيها حجراً؛ وعادت ناعمة وسليمة، وامتلت بالنجوم مرة أخرى.

حينذاك كان القمر يختم رحلته، والعربة ما زالت تتحرك قُدماً وبالتدرج شعرت بأنى أنعس، وكان هواء الليل بارداً لطيفاً، فسحبت الشال الكشمير ولففت به نفسى؛ ولا بد أننى غرقت فى النوم، وتركت رأسى تسقط مستندة على مكرموت؛ لأن آخر ما أتذكره كان شعورى به وهو يرتب الشال برقة حول كتفى.



ولم أدر بعد ذلك إلا وأنا راقدة على ظهري فوق الأرض، بين الأعشاب على جانب الطريق، وشعرت بوزن ثقيل فوقى يمسك بى أسفله، وكانت هناك يد تتحسس تحت ثيابى الداخلية؛ وبدأت أقاوم، وأصرخ. ثم يد تأتى فوق فمى، وصوت جيمس يقول بغضب ماذا أقصد إذ أصدر مثل هذا الزئير المرتفع، هل أريد أن نكتشف؟ هذأت، وأبعد يده، وقلت له أن ينزل عنى وأن يتركنى أقوم فى الحال.

وحيئنذ غضب بشدة؛ فقد ادعى أننى طلبت منه أن يوقف العربية لأستطيع أن أنزل وأستريح إلى جانب الطريق؛ وعندما فعل، يقول أننى بسطت شالى، منذ أقل من دقيقتين، ودعوته أن يلحق بى عليه وكنت أتصرف مثل بغي، وأقول له أنتى الآن سوف أفى بوعدى.

وأعرف أننى لم أفعل أى شىء من ذلك، فقد كنت غارقة فى النوم، وقلت ذلك. فقال أنه لن يسمح بأن أجعل منه مغفلاً، وأننى فاسقة وشيطانة، وأن الجحيم أفضل كثيراً مما أستحق، حيث أننى أنا التى قدته، وأغويته، وتسببت فى أن تصبح روحه ملعونة بالإضافة إلى ذلك؛ وبدأت أبكى، فقد شعرت أننى لا أستحق مثل هذه الكلمات القاسية. فقال أن دموع التماسيح لن تفيد هذه المرة، وأنه قد شبع منها؛ واستمر يحاول نزع تنورتى، وهو يمسك رأسى لأسفل من شعرى. ومن ثم فقد عضضته بشدة فى أذنه.

صرخ بألم، وظننت أنه سوف يقتلنى فى التو والساعة. ولكنه بدلاً من ذلك تركنى، ووقف، كما ساعدنى على صعود العربية؛ وقال أننى فتاة طيبة على أية حال، وأنه سوف ينتظر حتى يتزوجنى، فهذا أفضل

على أية حال، وأليق، وأنه كان يختبرني فقط. ثم قال أنه من المؤكد أن  
لي أسناناً قويةً للغاية، حيث أنني تسببت في خروج الدم؛ وهو الأمر الذي  
بدا أنه يسره.

وقد أدهشني ذلك للغاية، لكني لم أقل شيئاً، فقد كنت لا أزال  
وحدى تماماً معه في طريق خلاء، ولا يزال أمامنا أن نقطع أميالاً كثيرة.

وهكذا مضينا طوال الليل، وأخيراً أصبحت السماء أفتح لوناً؛ ووصلنا إلى تورنتو بعد الخامسة صباحاً بقليل. قال مكرموت أننا سوف نذهب إلى فندق المدينة، ونوقظ الناس هناك ونجعلهم يصنعون لنا الإفطار، فهو يكاد يموت جوعاً. قلت أن هذه ليست خطة جيدة، وأنا يجب أن ننتظر حتى يكثر الناس في المكان، فلو فعلنا كما يقول فسوف نكون ملحوظين، وسوف يتذكروننا. فقال لماذا يجب أن أناقشه دائماً، وأنها طريقة كفيلة بجعل الرجل يخرج عن شعوره، وأن النقود التي في جيبه بنفس كفاءة النقود في جيب أى رجل آخر، وأنه ما دام يريد أن يفطر ومعه الثمن، فسوف يحصل عليه.

ومندئذ وأنا أفكر أنه من المثير للملاحظة أن أى رجل، بمجرد أن يكون معه بعض النقود، ومهما كانت طريقة حصوله عليها، يفكر على الفور أنه جدير بها وبما يمكنها أن تشتريه، ويتخيل نفسه "أبو على".

فعلنا كما قال؛ ليس من أجل الإفطار في الحقيقة، وأنا أعتقد الآن أن السبب هو أنه أراد أن يريني من هو السيد. وتناولنا إفطاراً مكوناً من اللحم والبيض؛ وكان من العجيب أن تراه متبختراً، مختالاً، متبجحاً، يأمر الخدم حوله، ويقول أن بيضته لم تكن جيدة الطهى. ولكنى

لم أستطع أن أتناول لقمتين؛ فقد كنت أرتعش خوفاً، لأنه كان يتصرف بكل طريقة تجذب الانتباه إليه.

ثم وجدنا أن المركب التالية لن نرحل إلى الولايات قبل الثامنة، وأنا سنضطر للبقاء في تورنتو ساعتين أخريين أو ما يقارب ذلك. وشعرت أن هذا شديد الخطورة، فمن المؤكد أن يكون حصان مستر كينير وعربته معروفين لدى بعض أهالي المدينة، لأنه كثيراً ما كان يأتي إليها. ومن ثم جعلت مكرموت يترك العربة في أكثر الأماكن بعداً عن الأنظار استطعت أن أجدها في شارع جانبي صغير، رغم أنه أراد أن يظل يتجول بها متخائلاً. ولكني وجدت فيما بعد أنه رغم اتخاذي لهذه الاحتياطات، إلا أن العربة قد لوحظت.

وحتى أشرق الشمس، لم أكن قد نظرت جيداً إلى مكرموت، في ضوء ساطع، وحينذاك اكتشفت أنه يرتدي حذاء مستر كينير. وسألته هل أخذه من الجثة وهي راقدة في القبو؛ فقال نعم، كما أن القميص أيضاً كان يخص مستر كينير، أخذه من على الأرفف في غرفة ارتداء الثياب، لأنه قميص جيد، ومن نوعية أفضل من أي قميص آخر كان يمتلكه. وكان قد فكر أن يأخذ القميص الذي كان على الجثة أيضاً، لكنه كان مغطى بالدم، فرماه خلف الباب. انتابني رعب، وسألته كيف استطاع أن يفعل هذا؛ فقال ماذا أعني، حيث أنني كنت أرتدي ثوب نانسي وقبعتها أنا نفسي. فقلت أن هذا ليس نفس الشيء، فقال إنه نفس الشيء؛ فقلت أنا على الأقل لم أخذ الحذاء من جثة. وقال أنه لا فرق؛ وعلى أية حال، فهو لم يرد أن يترك الجثة عارية، ولهذا فقد ألبسها قميصه هو.

سألته أى قميص ذلك الذى ألبسه لمستر كينير، فقال أنه أحد القمصان التى أخذها من البائع. وقد أزعجنى ذلك، وقلت سوف يقع اللوم الآن على جيرميا، فلسوف يتم تتبع مصدر القميص؛ وسوف يحزننى ذلك، فهو صديق لى.

قال مكرموت أنه يراه صديقاً قريباً للغاية، وقلت ماذا يعنى بذلك؟ فقال أن جيرميا كان ينظر لى بطريقة لم تعجبه، وأنه لن يسمح لزوجته برفع الكلفة مع أى بائع يهودى، وأن تتحدث معه عند الباب الخلفى، ويغازلها بهذه الطريقة؛ وإذا فعلت شيئاً من ذلك، فلسوف يسود عيشتها، ويعدل لها رأسها بين كتفيها.

بدأ الغضب ينتابنى؛ وكنت على وشك أن أقول أن جيرميا ليس يهودياً، ولكن حتى لو كان، فالزواج من بائع يهودى أفضل كثيراً بالنسبة لى من الزواج به؛ لكنى كنت أعرف أننا إذا تشاجرنا فلن يكون ذلك فى صالح أى منا، خاصة إذا وصلت إلى الصفعات والصراخ. فأمسكت لسانى؛ لأن خطتى كانت الوصول بسلام إلى الولايات دون حادث، ثم الإفلات من مكرموت وتركه.

قلت له أن من الضرورى أن يغير ملابسه، وأنى سوف أفعل بالمثل؛ فإذا جاء الناس يسألون عنا، فقد يضلّهم ذلك. لم نكن نظن أن ذلك يمكن أن يحدث قبل يوم الاثنين على الأقل، لأننا لم نكن نعلم أن مستر كينير قد دعا بعض الأصدقاء إلى الغداء يوم الأحد. وهكذا غيرت ثوبى، فى فندق المدينة، ولبس جيمس جاكيت مستر كينير الصيفى

الخفيف. وأخبرنى ببعض السخرية أننى أبدو فى غاية الأناقة، وسيدة بمعنى الكلمة، بمظلتى الوردية وكل شىء.

ثم ذهب ليحلق ذقنه؛ وكانت هذه اللحظة هى المناسبة التى يمكن أن أجرى وأطلب فيها المساعدة. لكنه أخبرنى مرات عديدة أننا إما أن نبقى معاً وإلا كان مصيرنا الشنق منفصلين؛ ورغم أننى كنت أشعر بأنى بريئة، فقد كنت أعرف أن المظاهر كانت ضدى. وحتى لو أنه شنق ولم أشنق أنا، وحتى لو كنت لا أريد صحبته، ورغم خوفى منه، إلا أننى لم أكن أريد أن أكون ضالعة فى خيانتة. ثمة شىء حقيقى وجدير بالازدراء فى الخيانة؛ وأنا شعرت بقلبه يدق بجوار قلبى، رغم أن ذلك كان على غير رغبتى، إلا أنه كان قلب إنسان على أية حال؛ ولم أرد أن يكون لى شأن فى أن يتوقف هذا القلب إلى الأبد، إلا إذا كان ذلك رغماً عنى. وفكرت أيضاً، أنه مكتوب فى الإنجيل: "لى الانتقام، أنا أجازى، يقول الرب" (\*). لم أشعر أن لى أن أتخذ تصرفاً خطيراً مثل الانتقام بيدي؛ وهكذا بقيت حيث أنا حتى عاد.

فى الساعة الثامنة، كنا على ظهر الباخرة ترانزيت، ومعنا العربة والحصان تشارلى، والصناديق وكل شىء، وكنا نخرج من الميناء؛ وشعرت براحة كبيرة. كان اليوم صافياً، وله نسيم عليل، والشمس تلقى بضوئها على أمواج البحيرة الزرقاء؛ وفى هذا الوقت، كان

---

(\* ) الرسالة إلى العبرانيين، ١٠: ٣٠.

جيمس فى روح معنوية عالية، وشديد الفخر بنفسه؛ وكنت أخشى أنه إذا غاب عن نظرى سوف يبدأ فى البغضة والكلام والاختيال فى ثيابه الجديدة، وأن يتباهى بعرض أشياء مستر كينير الذهبية؛ ولكنه كان حريصاً بدوره على ألا يتركنى أغيب عن نظره، خشية أن أخبر أحداً بما فعله، فظل لصيقاً بى كالعقّة.

كنا فى قاع الباخرة، بسبب تشارلى، حيث لم أشأ تركه وحده؛ فقد كان عصبياً، وكنت أشك أنه اعتلى ظهر باخرة من قبل؛ وأن ضوضاء الماكينة، وعجلة الدفة وهى تلف، لا بد أن تكون مخيفة له. ومن ثم بقيت معه وأخذت أطعمه بالسكويت الذى كان يحبه لطعمه المالح. وعادة ما يشد مشهد فتاة شابة وحصان انتباه الشباب المعجبين، والذين سوف يتظاهرون بأنهم مهتمون بالحصان؛ وسرعان ما حدث؛ ووجدت نفسى مضطرة للرد على تساؤلاتهم.

كان جيمس قد أخبرنى أن نقول أننا أخ وأخت، وأنا تركنا أهلنا بعد أن تشاجرنا معهم؛ ومن ثم اخترت أن يكون اسمى مارى هويتتى، وقلت أنه دافيد هويتتى، وأنا فى طريقنا إلى روشستر. ولم يجد الشباب أية أسباب تمنعهم من التلطف معى ومغازلتى، حيث أن جيمس ليس إلا أخى، ومن ثم فقد فعلوا؛ وفكرت من جانبى أن أرد على دعاباتهم بروح فكهة طيبة، رغم أن هذا استخدم ضدى فى المحاكمة؛ كما طالنتى بعض النظرات الحقودة من جيمس فى وقتها. ولكنى كنت فقط أحاول أن أبعد الريبة، منهم ومنه معاً؛ وتحت مظهر السعادة الذى بدا على كنت فى حالة حزن وكآبة عظيمين.

توقفنا في نياحرا، لكن لم يكن المكان قريباً من الشلالات بأية حال، فلم أستطع رؤيتها. نزل جيمس على الشاطئ وجعلني آتى معه، وأكل شريحة لحم. ولم أتناول أنا أي شيء، فقد كنت عصبية للغاية طوال الوقت الذي قضيناه هناك. ولكن شيئاً لم يحدث، وواصلنا طريقنا.

أشار أحد الشباب إلى باخرة أخرى تمر على بعد، وقال أنها "سيدة البحيرة"، السفينة التابعة للولايات المتحدة والتي كان من المعتقد حتى وقت قريب أنها أسرع مركب في البحيرة؛ لكنها فقدت أخيراً تقدمها أمام سفينة البريد الملكي، المسماة "الخشوف"، والتي سبقتها بأربع دقائق ونصف. وقلت ألا يجعله هذا يشعر بالفخر، فقال لا، لأنه رهن بدولار على "السيدة". وضحك جميع الحاضرين.

ثم اتضح لي بجلاء أمر كنت أتعجب له. هناك طراز أغطية يسمى "سيدة البحيرة"، والذي كنت أظن أنه سُمي على اسم القصيدة؛ لكني لم أجد أية سيدة في التصميم، ولا أية بحيرة. ولكنني فهمت الآن أن المركب سميت على اسم القصيدة، بينما جاء اسم الغطاء من المركب؛ لأنه كان مصمماً على شكل عجلة ذات دولاب والتي لا بد أنها استوحيت من عجلة الدفة. وفكرت أن الأشياء تبدو معقولة، وأن لها منطقها الداخلي إذا فكرنا فيها وتأملناها فترة كافية. ومن ثم من المحتمل أن يكون الأمر كذلك مع الأحداث الأخيرة، والتي بدت لي في تلك اللحظة غير معقولة على الإطلاق؛ وعندما فهمت سبب تسمية تصميم الغطاء كان ذلك درساً بالنسبة لي، ليثبت إيماني.

وهنا تذكرت ماري هويتني وهي تقرأ معي تلك القصيدة، وكيف كنا نمر على أبيات الغزل المملة وننتقل إلى الأجزاء المثيرة، والمعارك؛



ولكن الجزء الذى كنت أتذكره أكثر كان يدور حول المرأة المسكينة التى اختطفت من الكنيسة فى يوم زفافها، اختطفت من أجل متعة أحد النبلاء، وقد جنت لذلك، وأخذت تهيم شاردة تجمع الزهور البرية، وتغنى لنفسها. وفكرت أننى أيضاً يمكن اعتبارى مخطوفة على غرار شىء كهذا، وإن لم يكن فى يوم زفافى؛ وخشيت أن يكون مصيرى هو نفس المصير.

فى ذلك الوقت، كنا قد اقتربنا من لويستون. وكان جيمس قد حاول أن يبيع الحصان والعربة لبعض من كانوا على الباخرة، وكان هذا معارضاً لحكمى الذى كان صائباً؛ لكنه طلب ثمناً قليلاً جداً حتى أنه أثار الشكوك. ولأنه عرضهما للبيع، فقد وضع مكتب الجمارك فى لويستون رسوماً عليهما، واحتجزهما لأننا لم يكن معنا نقود لندفع الرسوم. ورغم أن جيمس كان غاضباً فى البداية، إلا أنه سرعان ما ترك الأمر يمر باعتباره قليل الأهمية، وأخبرنى أننا سوف نبيع بعض الأشياء الأخرى، ونعود فى اليوم التالى لاستعادتهما. لكنى كنت شديدة القلق لهذا، فمعنى ذلك أننا سوف نضطر لقضاء الليلة هناك؛ ورغم أننا كنا فى الولايات المتحدة، ويجب أن نعتبر أنفسنا آمنين، فنحن الآن فى بلد أجنبى؛ إلا أن ذلك لم يجعل ملاك العبيد فى الولايات المتحدة يكفون لحظة عن الإمساك بالعبيد الهاربين الذين يقولون أنهم ملكهم؛ وكان كل ذلك يولد شعوراً أبعد ما يكون عن الشعور بالارتياح.

حاولت أن أجعله يعدنى بعدم بيع الحصان تشارلى، وليفعل ما يشاء بالعربة. لكنه قال اللعنة على الحصان؛ وأعتقد أنه كان يشعر بالغيرة من هذا الحصان المسكين، لأننى كنت مغرمة به للغاية.

كانت المناظر في الولايات المتحدة شديدة الشبه بمثلتها في الريف الذي جننا منه للتو، لكن المكان كان مختلفاً بالفعل، فالأعلام كانت مختلفة. تذكرت أن جيرميا كلمني عن الحدود، وكيف من السهل عبورها. كان الوقت الذي قال فيه ذلك، في المطبخ في منزل السيد كينير، يبدو زمنًا موعلاً في القدم، وفي حياة أخرى؛ لكن الواقع أنه كان منذ أسبوع واحد فقط.

ذهبنا إلى الخان القريب، والذي لم يكن فندقاً على الإطلاق كما قيل في القصيدة الكبيرة التي نشرت في الجرائد عني، وإنما كان مجرد خان رخيص بجوار رصيف السفن. وهناك ابتلع جيمس كمية من البيرة والبراندي أكثر مما يجب؛ ثم تناولنا العشاء، وشرب المزيد على العشاء. وعندما جاء وقت الذهاب إلى غرفنا، كان يريد أن نتظاهر بأننا زوج وزوجة، وأن نأخذ غرفة واحدة؛ لأن هذا، حسبما قال، سوف يوفر نصف النفقة. لكنني كنت أفهم ما الذي يسعى إليه، وقلت أننا قد بدأنا على المركب أماً وأختاً، ولا يمكن أن نغير ذلك الآن، فقد يتذكرنا أحد من القارب. ومن ثم حصل على غرفة مع رجل آخر، وأنا أخذت غرفة لنفسى.

ولكنه حاول أن يجد طريقاً لدخول غرفتي، قائلاً أننا سوف نتزوج في القريب العاجل على أية حال. وقلت له أننا لن نتزوج، وأنتى أفضل الزواج من الشيطان نفسه على الزواج به؛ فقال أنه سوف يجعلنى أفى بوعدى على أية حال. فقلت أنتى سوف أصرخ، مما سيكون أمراً مختلفاً في مكان مليء بالناس قياساً إلى مكان ليس به إلا جثتين. فقال

بحق الله أن أغلق فمي، ورماني بأننى بغى فاسقة؛ وقلت أنه يجب أن يفكر فى بعض الكلمات الجديدة، لأننى تعبت تمامًا من هذه الكلمات. فترك الغرفة فى حالة غضب شديد.

استطعت أن أستيقظ مبكرًا للغاية، وأن ألبس ثيابى، وأن أتسلل. فلو أننى أرغمت بطريقة ما على الزواج به، لكنك ميتة ومدفونة فى أقل من غمضة عين؛ إنه إن كان يرتاب بى فى الوقت الحاضر، فلسوف تزداد ربيته فيما بعد. وما أن يضعنى فى منزل ريفى، فى منطقة غريبة ليس لنا فيها أصدقاء، فلن تساوى حياتى بنسين، وربما لن يزيد الأمر على خبطة على الرأس وستة أقدام من الحفر فى حديقة المطبخ، وسوف أكون أنا السماد الذى يجعل جذور البطاطس والجزر تنمو، ولسوف يكون ذلك أسرع كثيرًا مما يمكن أن أفكر فيه.

ولسعادتى، وجدت الباب بمزلاج، فأغلقت المزلاج، وخلعت ثيابى، كل ثيابى ما عدا قميصى الداخلى، وطويتها بعناية على ظهر المقعد، كما كنت أفعل فى الغرفة الصغيرة فى بيت مسز ألدرمان پاركينسون حيث كنت أنام مع مارى. ثم أطفأت الشمعة ودخلت بين الأغطية، والتى كان من المدهش أنها نظيفة، تقريبًا، وأغلقت عينى.

وداخل جفنى كنت أرى المياه تتحرك، القمم الزرقاء للأمواج ونحن نأتى عبر البحيرة تتألق بالضوء؛ إلا أنها كانت أمواجًا أكبر كثيرًا، وأكثر قتامة، كتلال تتدحرج؛ وكانت هذه أمواج المحيط الذى عبرته منذ ثلاث سنوات؛ رغم أنها تبدو قرناً من الزمان. وعجبت ماذا سوف يحدث لى، وحاولت أن أعزى نفسى بأنه بعد مائة عام سأكون ميتة وأرقد فى

سلام فى قبرى؛ وفكرت أنه يمكن أن تكون المتاعب أقل بشكل عام لو رقدت فى قبرى قبل ذلك بكثير.

لكن الأمواج استمرت فى الحركة، والخط الأبيض المتخلف عن سير السفينة يترك أثراً عليها للنحظة، ثم تتعم ملامحه وتضيع فى المياه، وكأنما هى خطواتى تتمحى من خلفى؛ الخطوات التى كنت أتركها طفلة على شواطئ وطرقات الأرض التى غادرتها، والخطوات التى تركتها على هذا الجانب من المحيط منذ جئت هنا؛ كل آثار خطواتى، تنعم ملامحها وتتمحى وكأنما لم تكن من قبل، وكأنك تجلو الصداً الأسود عن الفضة، أو وكأنك تسحب يدك على رمل جاف.

وعندما كنت على وشك النوم فكرت: إنه وكأنما لم أكن موجودة أبداً، فلا أثر لى يبقئ، لم أترك أية علامات. ربهذه الطريقة لا يمكن لأحد أن يتبعنى.

وهو تقريباً ما يساوى أن أكون بريئة.

وهنا نمت.

وهذا ما حلمت به، وأنا نائمة بين الملاءات النظيفة تقريباً، فى  
الخان فى لويستون.

كنت أسير على الطريق المنحنى المؤدى إلى منزل مستر  
كينير، بين صفوف أشجار القيقب المزروعة على الصفيين. وكنت أرى  
كل هذا لأول مرة، رغم أننى أعلم أيضاً أننى كنت هنا من قبل، كما هو  
الحال فى الأحلام. وفكرت: ترى من يعيش فى هذا البيت؟

ثم عرفت أننى لم أكن وحدى فى الطريق. كان مستر كينير  
يسير خلفى، من ناحية اليسار؛ كان هناك ليتأكد ألا يصيبنى أذى. ثم  
ظهر المصباح فى نافذة الردهة، وعرفت أن نانسى كانت هناك، تنتظر  
للترحيب بى بعد العودة من رحلتى؛ لأننى كنت فى رحلة، وكنت متأكدة  
من هذا، وكنت غائبة وقتاً طويلاً. إلا أنها لم تكن نانسى، وإنما مارى  
هويتنى هى التى كانت تنتظر؛ وشعرت بسعادة كبيرة، إذ علمت أننى  
سوف أراها مرة أخرى، وقد عادت إلى صحتها وضحكها، كما كانت من  
قبل.

ورأيت كم كان البيت جميلاً، أبيض كله، والأعمدة في المقدمة،  
وزهور الفاوانيا البيضاء في الفراندة تلمع في ضوء الغسق، وضوء  
المصباح يتلألأ في النافذة.

واشتقت أن أكون هناك، رغم أنني في الحلم كنت هناك بالفعل؛  
لكني شعرت بشوق شديد لهذا البيت، فقد كان بيتي الحقيقي. وعندما  
شعرت بذلك، انطفأ المصباح وغرق البيت في الظلام، ورأيت فراشات  
النار تطير في الخارج متوهجة، وانتشرت رائحة براعم حشيشة اللبن من  
الحقول في كل مكان حولي، وهب نسيم أمسية صيفية دافئ لطيف على  
وجنتي، نسيم معتدل وناعم جداً. واندست يد في يدي.

وفي هذه اللحظة، كان هناك طرق على الباب.



الفصل الحادى عشر

أشجار متهاوية



**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesamh.com/vb](http://www.ibtesamh.com/vb)**  
**منتديات مجلة الإبتسامه**

بدلاً من أن تظهر عليها أية علامات على عدم النوم والشعور بالذنب، تظهر الفتاة هادئة تماماً، عيناها مفتوحتان تماماً وصافيتان وكأنها نامت نوماً عميقاً بلا إزعاج – والقلق الوحيد الذى بدا عليها كان للحصول على بعض ملابسها وكذلك على صندوقها. وبالنسبة لملابسها، لم يكن لديها إلا أقل القليل – وهى ترتدى الآن رداء القتيلة، أما الصندوق الذى كانت تسأل عليه فقد كان ملكاً للقتيلة المسكينة.

*Chronicle and Gazette*، كينجستون

١٢ أغسطس ١٨٤٣

"ورغم أننى تبت من شرورى بدموع مريرة، فقد رضى الله بأن لا أعرف لحظة سلام أبداً. لأننى ساعدت مكرموت فى خنق نانسى مونتجومرى، إن وجهها المريع وعينيها الداميتين المفزعيتين لم تتركاني أبداً لحظة واحدة. تحديقان بي ليلاً ونهاراً. وعندما أغلق عيني يأساً، أراهما تنظران داخل روى – إن من المستحيل إغلاقهما. ... وفى الليل – فى صمت زنزانتى ووحدى فيها، تشعل هاتان العينان المتوهجتان سجنى بضوء كالنهار. لا، ليس كالنهار – إن لهما بريقاً حاراً مروغاً، ليس له أى مثيل فى هذا العالم...

جريس ماركس،

إلى كينيث ماكنزى، كما روته سوزانا مودى

*Life in the Clearings, 1853*

لم يكن الحب، رغم أن جمالها الباهر قد سبب جنونه؛  
ولا الرعب، حتى عندما تخيل أن روحها مشربة بنفس  
الجوهر المهلك الذي بدا أنه يسود هيكلها المادي؛ قالحب  
والرعب أعقبا نسلأ متوحشأ كل منهما كان له أبا، كان  
يثير الحرقه كأحدهما ويثير الرعشه كالآخر... بوركت كل  
المشاعر البسيطة، سواء كانت مظلمة أم مضيئة! إنه  
المزيج الرهيب من العاطفتين الذي ينتج الالهيب المشع  
لأنحاء الجحيم.

ناتانييل هاوثورن،

“Rappaccini’s Daughter”, 1844

إلى د. سايمون چوردان، عناية الميچور س. د.  
همفري، شارع لوار يونيون، كينجستون، غرب  
كندا، من مسز ويليام ب. چوردان، لابورنام  
هاوس، لوميسفيل، ماساتشوستس، الولايات  
المتحدة الأمريكية.

٣ أغسطس، ١٨٥٩

ابنى العزيز:

أنا فى أشد حالات القلق حيث لم أتلق منك رسالة لمدة طويلة.  
ارسل لى كلمة واحدة على الأقل، لأعرف أنك لم تتعرض لكارثة. ففى هذه  
الأيام البشعة، التى تبدو فيها بوارد حرب فاجعة تقترب كل يوم من مكاننا،  
فإن أمل الأم الوحيد هو أن يكون أعزائها، الذين لم يبق منهم لى غيرك،  
فى أمان وسلام. ربما يكون الأفضل لك أن تبقى فى ذلك البلد، لتتفادى  
ما لا يمكن تجنبه؛ ولكنه مجرد قلب الأم الضعيف الذى يحركنى، حيث  
لا أستطيع بضميرى كله أن أدافع عن الجبن، عندما تكون كل تلك الأمهات  
مستعدة لمواجهة أى مصير يخبئه القدر.

أشتاق كثيراً لرؤية وجهك الحبيب يا بنى العزيز. الكحة الخفيفة،  
التي أتعبتني منذ ميلادك، قد زادت في الفترة الأخيرة، وتصبح عنيفة للغاية  
في المساء؛ وأنا أعانى من أعصاب معذبة في كل يوم تغيب فيه عنا،  
خشية أن أموت فجأة، ربما في وسط الليل، دون أن تكون لدى الفرصة  
لأودعك الوداع الأخير، وأمنحك بركتى للمرة الأخيرة. فإذا كان يمكن  
تجنب الحرب، وهو ما يجب أن نأمل فيه جميعاً، فإننى أدعو أن أراك  
مستقراً في بيتك الخاص، قبل أن يأتى اليوم المحتوم. ولكن لا تجعل  
مخاوفى وخيالاتى، الناتجة عن جهلى بحالك، تعطلك عن دراساتك وأبحاثك  
ومجانبك، أو أيًا كان ما تفعله، وهو ما أثق أنه في غاية الأهمية.

أرجو أن تكون حريصاً على تناول غذاء مفيد، لتحافظ على  
قوتك. فلا نعمة للإنسان أفضل من البنية الجسدية الصحيحة، وإذا لم يكن  
الإنسان قد ورثها، فيجب أن يكون أكثر حذراً. تقول مسز كارتر أيتها  
سعيدة جداً لأن ابنتها لم تكن مريضة في يوم من أيام حياتها أبداً، وأنها  
قوية كالحصان. إن وراثة عقل سليم فى جسم سليم هو أفضل ميراث على  
الإطلاق يمكن أن يورثه الإنسان لأطفاله؛ وهو الميراث الذى لم تستطع  
أمك المسكينة أن تمد ابنها الغالى به، رغم أن ذلك لا يدل على افتقادها  
للأمومة. ولكننا يجب أن نرضى بنصيبنا فى الحياة، الذى ترى العناية  
الإلهية أننا أهل له.

المخلصتان مورين وسامانتا ترسلان احتراماتهما وحبهما لك،  
وترجوان أن تذكرهما. تقول سامانتا أن الفراولة المحفوظة التى تصنعها،  
والتي كنت تحبها كثيراً عندما كنت صبياً، لا تزال رائعة كما كانت أبداً،  
ويجب أن تسرع لتتذوقها قبل أن "تعبّر النهر"، حسب تعبيرها؛ ومورين

المسكينة العزيزة، التي على وشك أن تصبح مقعدة مثل أمك، تقول أنها لا تستطيع أن تضع في فمها ملعقة دون أن تفكر فيك، وتتذكر الأوقات السعيدة؛ وهما مشتاقتان لنظرة مجددة لمحياك؛ ومثلها ألف مرة

**المحبة والمخلصة دائماً**

**أمك**

سايمون فى الممر العلوى ثانية، فى العلية، حيث تعيش الخادماٲ. يشعر أنهن ينتظرن خلف أبوابهن المغلقة، يستمعن، عيونهن تشرق فى الغرف نصف المظلمة؛ لكن لا يصدر عنهن صوت. خطواته فى حذائه المدرسى تصدر رنيناً أجوف على ألواح الأرضية. من المؤكد أنه كان يجب أن يكون هناك نوع ما من السجاجيد هنا، أو الحصير، فلا بد أن كل شخص فى البيت قادر على سماعه.

يفتح باباً بشكل عشوائى، أملاً فى أن يجد أليس، أو أن اسمها إيفى؟ لكنه يجد نفسه مرة أخرى فى مستشفى جوى. إنه يشم رائحتها، يكاد يدرك طعمها — تلك الرائحة الكثيفة للجدران الحجرية الرطبة، والصفوف الرطب، رائحة كريهة للحم بشرى عفن. إنها رائحة المحاكمة والاستتكار: إنه بسبيله إلى الامتحان. أمامه منضدة مكسوة: يجب أن يجرى تشريحاً، رغم أنه مجرد طالب هنا، لم يتعلم بعد، ولا يعرف كيف يفعل ذلك. الغرفة فارغة، لكنه يعلم أنه مراقب، يراقبه أولئك الذين سوف يحكمون عليه.

إنها امرأة، تحت الغطاء: يمكنه أن يعرف ذلك من الخطوط العامة للجسد. ويأمل ألا تكون عجوزة جداً؛ فتلك تكون أصعب بشكل ما. امرأة مسكينة، ماتت بسبب مرض غير معروف. لا أحد يعرف كيف يأتون بالجنث؛ أو لا أحد يعرف بشكل مؤكد. تقول مزحة بين الطلاب "إنهم

ينبشون القبور فى ضوء القمر. لا، ليس فى ضوء القمر يا غبى، بل على  
أيدى ملائكة البعث".

خطوة بخطوة، يقترب من المنضدة. هل معه أدواته جاهزة؟ نعم،  
ها هو الشمعدان؛ ولكنه لا يرتدى حذاء، قدماه مبللتان. لابد أن يرفع  
الغطاء، ثم "يرفع" بشرتها، أيًا ما تكون، أو أيًا ما كانت، شريحة بعد  
شريحة. ويعرى لحمها المطاطى، يقشرها، ويفتح بطنها، ويخرج أحشاءها  
مثل السمكة. ويرتعش من الرعب. سوف تكون باردة، متصلبة. فهم  
يحفظون هذه الجثث على الثلج.

ولكن .. تحت الغطاء كان هناك غطاء آخر، وتحت هذا غطاء  
ثالث. إنه يبدو مثل ستارة من الموسلين. ثم هناك وشاح أسود، ثم، — هل  
هذا ممكن؟ — رداء داخلى. لابد أن تكون المرأة تحت هذه الأشياء فى أى  
مكان؛ يفتش باهتياج. ولكن لا؛ فى آخر الطبقات توجد ملاءة سرير،  
ولا شىء تحتها إلا السرير. نعم، السرير، وهيكل شخص ما، من التى ترقد  
هنا. إنها لا تزال دافئة.

يفشل بلا أمل، ويرسب فى امتحانه، وعلى الملاء أيضًا؛ لكن الآن  
لا يهمله هذا. فكأنما تم إرجاء حكم الإعدام. الآن كل شىء سيكون على  
ما يرام، سوف يجد العناية اللازمة. خارج الباب، نفس الباب الذى جاء  
منه، توجد مرجة خضراء، يجرى خلفها جدول ماء متدفق. وصوت المياه  
الجارية مريح للغاية. ثمة شخص يأخذ نفسًا سريعًا، ورائحة الفراولة،  
ويد تلمس كتفه.



يستيقظ، أو يحلم أنه يستيقظ. ويعلم أنه لا بد أن يكون لا يزال نائمًا، لأن جريس ماركس تتحنى عليه في الظلام الحالك، شعرها المنسدل يلمس وجهه. لا يشعر بالدهشة، ولا يسأل كيف استطاعت أن تأتي هنا من زنزانها في السجن. يجذبها إلى أسفل — ويجد أنها لا ترتدى إلا ثوب نوم — ويقع فوقها، ويدفع نفسه داخلها وهو يتأوه شهوة ولا يأبه بأية مقدمات، لأنه في الأحلام كل شيء مسموح به. يهتز عموده الفقري ويهزه بشدة كسمكة معلقة بالسنارة، ثم يتحرر. ويلهث رغبة في التنفس.

هنا فقط يتبين أنه لا يحلم؛ أو لا يحلم بأن هناك امرأة. إنها هنا بالفعل، بلحمها، ترقد بلا حركة بجواره في السرير الذي ساده السكون فجأة، ذراعاها إلى جانبيها مثل تمثال؛ لكنها ليست جريس ماركس. من المستحيل الآن أن يخطئ في التعرف على هيكلها العظمي وصدرها الأشبه بقصص الطيور، ورائحة القماش المحترق والكافور والبنفسج. والطعم الأفيوني لقمها. إنها صاحبة البيت النحيلة، التي لا يعرف حتى اسمها الأول. عندما دخلها لم تصدر أي صوت، لا صوت اعتراض ولا بهجة. هل هي تتنفس؟

ولكى يتأكد يقبلها ثانية، وثانية: قبلات صغيرة. إنها طريقة بديلة لقياس النبض. يستمر حتى يجد وريدًا، الوريد الموجود في رقبتها، كان ينبض. بشرتها دافئة، لزجة إلى حد ما، مثل الحساء؛ الشعر خلف أذنها تفوح منه رائحة شمع النحل.

ليست ميتة إذن.

أوه، لا، يفكر، ماذا بعد؟ ماذا فعلت بنفسى؟

ذهب د. چوردان إلى تورنتو. لا أعرف كم سيغيب، أرجو ألا يغيب طويلاً، حيث أنني أصبحت معتادة على وجوده بشكل ما، وأخشى عندما يرحل، فلا بد أنه سيرحل إن أجلاً أم عاجلاً، أخشى أن أجد فراغاً حزيناً في قلبي.

فما الذي سوف أخبره به عندما يعود؟ سوف يريد أن يعرف ماذا حدث عند القبض علينا، وأثناء المحاكمة، وماذا قيل. بعض ذلك مختلط بغير نظام في عقلي، لكنني أستطيع أن ألتقط هذا أو ذاك له، بعض قطع من قماش كامل كما يمكن أن تقول، مثلما يحدث عندما تفتح صرة الخرق بحثاً عن شيء يصلح لإضافة لمسة لونية.

أستطيع أن أقول هذا:

حسناً يا سيدي، لقد قبضوا علىّ أولاً، ثم على جيمس. كان لا يزال نائماً في سريره، وأول ما فعله عندما أيقظوه هو أن حاول أن يلقى باللوم على نانسي. قال إذا وجدتم نانسي سوف تعرفون كل شيء، إنه خطأها. وفكرت أن هذا غباء شديد منه، فعلى الرغم من أنها لم تكن قد اكتشفت بعد، إلا أنهم كانوا سيكتشفونها إن عاجلاً أو آجلاً، حتى ولو عندما تتصاعد الرائحة؛ وهذا هو ما حدث بالفعل، في اليوم التالي مباشرة. كان

جيمس يحاول أن يتظاهر بأنه لم يكن يعرف أين كانت، أو حتى أنها كانت مية؛ لكنه كان يجب أن يمك لسانه بشأنها.

كان الوقت لا يزال فى الصباص الباكر عندما قبضوا علينا. أخرجونا من فندق لويستون بسرعة عظيمة. وأعتقد أنهم كانوا يخشون احتمال أن يمنعهم الرجال، ويجذبوا أنظار الناس، وينقذونا، كما كان يمكن أن يحدث لو فكر مكرموت أن يصرخ بأنه ثورى أو جمهورى أو أى شىء من هذا القبيل، وأنه له حقوقه، ويسقط البريطانيون؛ لأن المشاعر كانت لا تزال فى عنفوانها حينذاك، فى جانب مستر ويليام ليون ماكنزى والتمرد، وكان هناك فى الولايات من يريدون غزو كندا. ثم إن الرجال الذين قبضوا علينا لم تكن لهم سلطة حقيقية. ولكن مكرموت كان أجبن من أن يعترض، أو كان ينقصه حضور العقل؛ وعندما أحضرونا حتى الجمارك، لم يُسمح للمجموعة بالمرور إلا عندما قالوا أننا مطلوبان للارتياح فى ارتكابنا جريمة قتل، وعندئذ سُمح للمجموعة بالمرور، وأبحرت السفينة دون مزيد من اللغط.

كنت أشعر باكتئاب شديد لعودتى عبر البحيرة، رغم أن الجو كان رائعاً والأمواج لم تكن عالية؛ ولكنى حاولت أن أبهج نفسى، فقلت لنفسى أن العدالة لن تتركنى أشنق لشىء لم أرتكبه، وأنى سوف أقول القصة كما حدث بالضبط، أو بقدر ما أستطيع أن أتذكر. أما بالنسبة لفرص مكرموت، فلم أكن أعتبرها عالية؛ لكنه كان لا يزال ينكر كل شىء، ويقول أننا فقط سرقنا أشياء مستر كينير معنا لأن نانسى رفضت أن تدفع لنا رواتبنا التى نستحقها، ومن ثم فقد أخذناها لندفع لأنفسنا حقوقنا. قال أنه لو قتل أحد مستر كينير فالأغلب أن يكون لصاً؛ وكان ثمة رجل مريب

للغاية يتجول حولنا، كان يقول أنه بائع متجول، وباع له قمصانا؛ ولا بد أنها مثل هذا القميص، ولم يكن رجلاً صادقاً مخلصاً مثله هو نفسه، والذي كانت جريمته الوحيدة هو الرغبة في تحسين حظه في الحياة من خلال العمل الجاد والهجرة. كان قادراً على الكذب حقاً، ولكن ليس بشكل جيد أبداً؛ ولم يصدق أحد، وكان الأفضل له أن يغلّق فمه؛ وفكرت أن هذا خطأ فيه يا سيدى، أنه كان يحاول أن يلقى تبعة الجريمة على صديقى القديم چيرميا، الذى لم يحدث فى حياته أن ألقى تبعة أفعاله على غيره، على حد علمى.

وضعونا فى السجن فى تورنتو، وأغلق علينا فى زنزانتين، مثل الحيوانات فى أقفاصها، لكننا لم نكن قريبين من بعضنا حتى نستطيع أن نتكلم؛ ومن ثم فقد استجوبوا كلاً منا على حدة. وسألونى أسئلة كثيرة جداً؛ وكنت خائفة للغاية، ولم أكن متأكدة مما يجب أن أقوله. لم يكن لدى محام فى ذلك الوقت، إذ لم يدخل مستر ماكنزى فى الموضوع إلا بعد ذلك بكثير. سألت عن صندوقى، الذى صنعت الصحف جلبة شديدة حوله، وسخروا منى للإشارة إلى أنه صندوقى، وسخروا من أننى ليس لدى ملابس تذكر؛ ورغم أنه كان صحيحاً أن هذا الصندوق، وما فيه من الملابس، كانت يوماً ملكاً لنانسى، إلا أنها لم تعد ملكها، فالموتى لا يحتاجون إلى مثل هذه الأشياء.

وقد استخدموا ضدى أيضاً أننى كنت فى البداية هادئة وأتمتع بروح معنوية عالية، وأن عيني كانتا صافيتين ومفتوحتين، واعتبروا ذلك دلالة على القسوة، ولكن إذا كنت أبكى وأنوح لاعتبروا ذلك دليلاً على شعورى بالذنب؛ لأنهم قرروا بالفعل أننى مذنب، وما أن يقرر الناس أنك

ارتكبت جريمة، فأى شيء تفعله يؤخذ دليلاً على ذلك؛ ولا أظن أنني كان يمكن أن أهرش أو أمسح أنفى دون أن يكتب ذلك فى الصحف ويضاف إليه تعليقات خبيثة فى عبارات رنانة. وحدث فى ذلك الوقت أنهم أطلقوا على عشيقه مكرموت، وشريكته فى الجريمة أيضاً؛ وكتبوا أيضاً أنني لا بد أن أكون قد ساعدت فى خنق نانسي، حيث أن ذلك الفعل كان يحتاج شخصين. إن الصحفيين يحبون أن يصدقوا أسوأ الأشياء؛ وهذه هى الطريقة التى تمكنهم من بيع صحفهم، كما أخبرنى أحدهم بنفسه؛ لأنه حتى الناس المحترمون وذوو الأخلاق المستقيمة يحبون أن يقرأوا أشياء سيئة عن الآخرين.

كان الشيء التالى يا سيدى هو جلسة الاستجواب التى عقدت بسرعة بعد إعادتنا. وكانت لتحديد كيف ماتت نانسي ومستر كينير، هل بالمصادفة أم بناء على جريمة قتل، وكان يجب أن أحضر لسؤالى فى قاعة المحكمة. وفى هذا الوقت كان الرعب قد أخذ منى كل مأخذ، فقد رأيت أن مشاعر الآخرين كانت تجرى ضدى تماماً؛ وكان السجنانون فى تورنتو يقولون نكات قاسية عندما يُحضرون إلى الطعام، وقالوا أنهم يأملون عندما يشنقوننى أن تكون المشنقة عالية، فبهذه الطريقة سوف يلقون نظرة جيدة على كاحلى. وحاول واحد منهم أن يستغل الفرصة، وقال أنني يمكن أن أستمتع أيضاً عندما تكون لدى الفرصة، فأينما أذهب لن أجد حبيباً أفضل منه بين ركبتي؛ لكنى قلت له أن يحتفظ بنفسه القدرة لنفسه؛ وأن الأمور يمكن أن تسير إلى أسوأ ما يمكن إلا أن يأتى مثل هذا السجن ويقول أنني لم أكن قد جربت الجنس بعد، وهو أمر قد يكون أقل إدانة بكثير؛ وإذا كان

أول رجل فى حياتى يتلخص فى مثل هذه الوظيفة التى يقوم بها فليبق بعيداً عنى. وقد فعل ذلك فى الغالب.

سوف أخبر د. چوردان بهذا، فهو يحب أن يسمع مثل هذه الأشياء، ودائماً يكتبها فى دفتره.

حسناً يا سيدى، سوف أكمل – جاء يوم الاستجواب، وحرصت على أن أظهر نظيفة وبمظهر طيب، لأننى كنت أعرف أن المظاهر لها اعتبارها، كما يحدث عندما تتقدم لنيل وظيفة جديدة، ودائماً ينظرون إلى معصمك وأطراف ثيابك، ليروا إذا ما كانت لديك عادات نظيفة؛ وقالوا فى الصحف أننى كنت لائقة الملبس.

أقيم الاستجواب فى قاعة المدينة، وحضره عدد من القضاة، كلهم عابسون ومبخلون؛ وعدد ضخم من النظارة، ورجال الصحف، يدفعون ويحتشدون ويحتكون ويتصادمون، حتى يكونوا فى وضع أفضل للرؤية والسمع؛ وقد وجه إلى هؤلاء التائب من هيئة المحكمة عدة مرات لما أثاروه من فوضى. ولم أفهم كيف يمكن أن يدخلوا أى أشخاص آخرين إلى الغرفة التى كانت محشوة لدرجة أنها كادت تنفجر، لكن مزيداً من الناس ظلوا يحاولون حشر أنفسهم إلى الداخل.

حاولت أن أتحكم فى ارتعاشى، وأن أواجه ما سوف يأتى بأكبر قدر أستطيع التمسك به من الشجاعة، وأصدقك القول يا سيدى، لم يكن لدى الكثير منها فى ذلك الوقت. كان مكرموت هناك، يبدو واتقاً بنفسه كالعادة، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أراه فيها منذ القبض علينا. قالت الصحف أنه بدأ عنيذاً ومتحدثاً بشكل طائش ومتهور، وكانت هذه طريقة

الصحف فى الوصف على ما أظن. لكنه لم يكن يختلف عن الشكل الذى كان يبدو به دائماً على مائدة الإفطار.

ثم بدأوا فى استجوابى حول جريمتى القتل، ووجدت نفسى فى حالة ارتباك وحيرة شديدين. إذ أننى كما تعلم يا سيدى، لم أكن أستطيع أن أتذكر بشكل صحيح أحداث ذلك اليوم المرعب، ولم أكن أشعر أننى كنت موجودة أثناء حدوثها على الإطلاق، وكنت قد فقدت الوعى عدة مرات فى أجزاء عديدة من هذه الأحداث؛ ولكنى كنت على وعى تام بأننى لو قلت هذا فسوف أكون موضع ضحك واحتقار، حيث أن جيفرسون الجزار شهد بأنه رأى وتحدث معى، وقال أننى أخبرته بأننا لا نريد أى لحم طازج؛ وهو الأمر الذى حولوه إلى نكتة فيما بعد، بسبب الأجساد التى كانت فى القبور، فى قصيدة منشورة على صحيفة واسعة الانتشار كانوا ينادون عليها فى وقت شفق مكرموت؛ وفكرت أنه أمر شديد القسوة والابتذال، ويحمل عدم الاحترام لما يكابده إنسان أثناء الموت.

ومن ثم فقد قلت أن آخر مرة رأيت فيها نانسى كانت فى وقت الغداء، عندما نظرت من باب المطبخ ورأيتها تدخل البطات الصغيرات فى الحظيرة؛ وبعد ذلك قال مكرموت أنها دخلت إلى البيت، وقلت أنها لم تكن هناك، فقال لى ألا أتدخل فيما لا يعنينى. ثم قال أنها ذهبت إلى بيت مسز رايت. قلت لهم أننى كنت مرتابة، وسألت مكرموت عنها عدة مرات، عندما كنا مسافرين إلى الولايات، عندئذ قال أنها كانت بخير؛ لكننى لم أكن أعرف بموتها على وجه التأكيد حتى اكتشفوها فى صباح يوم الاثنين.

ثم أخبرتهم كيف أننى سمعت طلقة، ورأيت جسد مستر كينير على الأرض؛ وكيف صرخت واندفعت أجرى، وكيف أطلق مكرموت

البندقية على، وكيف أغمى على ووقعت. لقد تذكرت هذا الجزء من الأحداث. والواقع أنهم وجدوا الطلقة التي انطلقت من البندقية في خشب إطار باب المطبخ الصيفي، وهو ما أظهر أنني لم أكن أكذب.

وتم إيداعنا السجن من انتظاراً للمحاكمة، والتي كانت لن تجرى قبل نوفمبر؛ ومن ثم كان أمامي ثلاثة أشهر متعبة من الحبس في سجن تورنتو، والذي كان أسوأ من وجودي هنا في الإصلاحية، فقد كنت وحدي في الزنزانة، والناس يأتون متظاهرين بالقيام بزيارة أو أخرى، لكن الحقيقة أنهم كانوا يريدون التحديق والبلحقة. وكنت في حالة بائسة للغاية.

في الخارج، تغيرت الفصول، لكن كل ما كنت أعرفه هو الاختلاف في الضوء الذي يظهر من النافذة الصغيرة ذات القضبان والتي كانت مرتفعة في الجدار حتى لا أستطيع أن أنظر منها إلى الخارج؛ والهواء الذي يمكن أن يدخل، حاملاً روائح ونسائم كل الأشياء التي كنت أفتقدتها. في أغسطس كانت رائحة التبغ المحصود حديثاً، ثم روائح العنب والخوخ في فترة نضج الثمار؛ وفي سبتمبر رائحة التفاح، وفي أكتوبر الأوراق المتساقطة، وأول برد ينذر بسقوط الثلج. وليس هناك ما يمكن أن أفعله، سوى أن أجلس في زنزانتى، وأقلق حول ما سوف يحدث، وإذا كنت حقاً سوف أشنق، كما كان السجناء يقولون لي كل يوم، ولا بد أن أقول أنهم كانوا يستمتعون بكل كلمة عن الموت والكارثة تخرج من أفواههم. ولا أعرف إذا كنت لاحظت ذلك يا سيدى، ولكن هناك بعض الناس الذين يستمتعون بمحن غيرهم من البشر، وبالأخص إذا كانوا يعتقدون أن هؤلاء البشر الآخرين قد ارتكبوا خطيئة، وهو ما يضيف نكهة ولذة زائدة. ولكن



من منا بلا خطيئة، كما يقول لنا الإنجيل؟ إننى سوف أشعر بالخجل من  
نفسى لو أحسست بمثل هذه البهجة لمعانة الآخرين.

فى أكتوبر عُنِّى لى محام، وهو مستر ماكنزى. لم يكن رجلاً  
وسيمًا، وكانت له أنف أشبه بالزجاجة. وفكرت أنه كان شابًا صغيرًا  
وليست له تجارب، وأن تلك هى أول قضية له؛ وكان سلوكه يميل أحيانًا  
إلى ألفة زائدة، أكثر من اللازم بالنسبة لما أعرفه، وفيما يبدو أنه كان  
يتمنى أن يخلق عليه فى الزنزانة معى وحدنا، وكان يقول لى، بتربيتات  
كثيرة من يده، أنه يريد أن يريحنى؛ لكنى كنت سعيدة إذ أقابل أى إنسان،  
وأن يدافع عن قضيتى ويضع الأمور فى الضوء بأحسن طريقة ممكنة؛  
ومن ثم فإننى لم أكن أعترض، لكنى كنت أبذل جهدى للابتسام والسلوك  
بشكل لائق. أراد منى أن أحكى قصتى بطريقة أسماها متماسكة، ولكنه  
كان دائمًا يتهمنى بالخروج عن الموضوع، وبدأ يتضايق منى؛ وفى النهاية  
قال أن الطريقة الصحيحة هى أن لا أحكى القصة كما أتذكرها بالفعل،  
والتي لا يمكن توقع أن يفهم منها أحد شيئًا، لكن أن أقص القصة التى  
يمكن أن تتسق مع بعضها، وهكذا يمكن أن تكون هناك فرصة لتصديقى.  
وكان على أن أترك الأجزاء التى لا أستطيع تذكرها، وأن أترك بالأخص  
حقيقة أننى لا أستطيع تذكرها. ويجب أن أقول ما لا بد أنه حدث، وفقًا  
لما هو جدير بالتصديق شكليًا، بدلاً مما يمكن أن أتذكره أنا نفسى من  
حقيقة. ومن ثم كان هذا هو ما حاولت أن أفعله.

كنت وحدى معظم الوقت، وقضيت ساعات طويلة أمعن النظر  
فى محنتى القادمة؛ وإن وصل الأمر بى إلى الشنق، فكيف سيكون ذلك؟  
وإلى أى مدى سيكون طريق الموت طويلًا ومفعمًا بالوحدة، وهو الطريق

الذى يمكن جدًا أن أرغم على الرحيل عبره؛ وما الذى سيكون بانتظارى فى نهايته. دعوت الله، ولكن لا إجابة؛ وعزيت نفسى بالتفكير بأن هذا الصمت هو مجرد وسيلة أخرى من وسائله الغامضة التى لا نفهمها. حاولت أن أعيد التفكير فى كل الأشياء التى أخطأت فيها حتى أستطيع التوبة عنها؛ مثل اختيارى للملاءة الأقل جودة لأمى، وعدم بقائى مستيقظة عندما كانت مارى هويتى تموت. وعندما سيأتى الوقت الذى أدفن فيه أنا نفسى، ربما لن تكون هناك ملاءة على الإطلاق، وإنما سأقطع إربًا، قطعًا صغيرة متناثرة، كما يُقال أن الأطباء يفعلون بك إذا شنقت. وكان هذا أسوأ ما أخشاه.

ثم حاولت أن أبهج نفسى بتذكر الأيام الخوالى. تذكرت مارى هويتى وكيف كانت تتمنى أن تتزوج وكيف خططت للبيت الريفى الذى تريد أن تعيش فيه، حتى ستائره اختارتها، وكل شىء، وكيف وصل هذا إلى لا شىء، وكيف ماتت فى عذاب أليم؛ ثم جاء آخر أيام شهر أكتوبر، وتذكرت الليلة التى قشرنا فيها التفاحات؛ وكيف قالت أننى سأعبر الماء ثلاث مرات، ثم أتزوج رجلاً يبدأ اسمه بحرف "جيه". كل هذا بدا لى الآن أقرب إلى الألعاب الطفولية، ولم أعد أعتقد فى أى منها. كنت أقول: آه يا مارى، كم أشتاق أن أعود إلى غرفة نومنا الصغيرة الباردة فى منزل مسز ألدرمان پاركينسون، مع الحوض المكسور والكرسى الوحيد، بدلاً من أن أكون هنا فى هذه الزنزانة المظلمة، وحياتى فى خطر. كان يبدو لى أحياناً أن بعض الراحة كانت تغمرنى عندما أقول ذلك؛ وسمعتها ذات مرة تضحك. ولكن عندما تكون وحيداً فترة طويلة كهذه، فلا بد أنك ستتخيل أشياء كثيرة.

وكان هذا هو الوقت الذى بدأت فيه زهور الفاوانيا الحمراء تنمو .

آخر مرة رأيت فيها د. چوردان سألنى إن كنت أتذكر مسز سوزانا مودى عندما جاءت لزيارة الإصلاحية، تقريباً منذ سبع سنوات، أى قبل أن يضعونى فى المصححة العقلية بقليل. قلت أننى أتذكرها. وسألنى ما رأى فيها، فقلت أنها كانت تبدو مثل خنفساء.

قال د. چوردان: "خنفساء؟" ورأيت أننى أثرت دهشته.

قلت: "نعم، خنفساء يا سيدى. متكورة وبدينة وتلبس ثياباً سوداء، وتسير بخطوات سريعة ومتلاحقة؛ ولها أيضاً عينان سوداوان لامعتان". وأضفت: "لا أقصد بذلك إهانة لها يا سيدى"، إذ أفلتت منه إحدى ضحكاته القصيرة تلك، قلت: "إنما هى الطريقة التى كانت تبدو بها فى رأىى".

"وهل تتذكرين الوقت الذى زارتك فيه، بعد وقت قصير من ذلك، فى مصحة المقاطعة؟"

قلت: "ليس جيداً يا سيدى، فقد كان يأتينا هناك زائرون كثيرون".  
"إنها تصفك بأنك كنت تصرخين وتجريين حولك بلا هدف. وأنت قد وضعت فى جناح المرضى المتسمين بالعنف".

قلت: "ربما يا سيدى. لا أتذكر أننى تصرفت بطريقة عنيفة تجاه الآخرين، إلا إذا بدأوا هم بالعنف معى".

قال د. چوردان: "والغناء، فيما أعتقد!"

قلت بجفاء، فأنا لم أكن أحب هذه الطريقة فى الاستجواب: "إننى أحب الغناء. إن ترنيمة طيبة أو أغنية جميلة ترفع من الروح المعنوية".

قال: "هل أخبرت كينيث ماكنزى أنك كنت ترين عيني نانسى مونجومري تتبعانك فى كل مكان؟"

قلت: "لقد قرأت ما كتبت مسز مودى عن هذا يا سيدى. ولا أحب أن أتهم أحداً بالكذب. لكن مستر ماكنزى أضاف تفسيراً يدل على سوء فهمه لما قلته له."

"وماذا كان ما قلت له؟"

"قلت له فى البداية 'بقع حمراء'، يا سيدى. وكان هذا حقيقياً، كانت تبدو كالبقع الحمراء."

"وبعد ذلك؟"

"وبعد ذلك، عندما ضغط على لتفسير ذلك، أخبرته بما أعتقده كتفسير لهذه البقع. ولكنى لم أقل 'عينان'."

قال د. چوردان، الذى كان يحاول التظاهر بالهدوء: "نعم؟ استمرى!"

كان ينحنى إلى الأمام، وكأنما ينتظر سماع سر عظيم. لكنه لم يكن سرّاً عظيماً. ولو سألتنى قبل ذلك لأخبرته فى الحال.

"لم أقل 'عينان' يا سيدى، ولكنى قلت 'فاوانيا'. لكن مستر ماكنزى كان دائماً مغرماً بالاستماع إلى صوته الخاص وليس لما يقوله الآخرون. وأعتقد أن المعتاد فى الغالب أن تشعر بعيون تتبعك فى كل مكان. فهذا هو الأقرب إلى المطلوب، فى تلك الظروف، إذا كنت تتابع ما أرمى إليه يا سيدى. وأظن أن هذا هو السبب فى أن مستر ماكنزى

أخطأ في السمع، وأن مسز مودى كتبت ما قاله. فقد أرادا تأدية الأشياء على الوجه اللائق. ولكنها كانت 'فاوانيا'، رغم كل شيء. وذات لون أحمر. ليس هناك احتمال للخطأ في هذا."

قال د. چوردان: "أرى ذلك". لكنه بدا بنفس الحيرة كما فى أى وقت.

والآن فإنه سوف يريد أن يعرف كل شيء عن المحاكمة. بدأت المحاكمة فى الثالث من نوفمبر، واندفع كثير من الناس إلى مبنى المحكمة حتى كادت الأرض أن تميد بهم. وعندما وضعونى فى قفص الاتهام، اضطررت فى البداية للوقوف، لكنهم بعد ذلك أحضروا لى مقعدًا. كان الهواء فاسدًا وخانقًا، وكانت الأصوات فى حالة أزيز مستمر، مثل سرب من النحل. وقف أناس مختلفون، بعضهم إلى جانبى، ليقولوا أننى لم أكن أبدًا أثير المشاكل من قبل، وأننى كنت عاملة مجتهدة، وأتميز بشخصية طيبة؛ وبعضهم تحدث ضدى؛ وكان هؤلاء أكثر. نظرت حول المكان باحثة عن چيرميا البائع المتجول، لكنه لم يكن هناك. فهو ربما يكون قد فهم شيئًا من محنتى، وربما حاول أن يساعدنى للخروج منها، لأنه قال أن هناك صلة بيننا. أو هذا ما كنت أعتقد.

ثم أحضروا چيمى وولش. كنت أتمنى أن يظهر منه أى تعبير عن التعاطف معى، لكنه وجه لى نظرة مليئة باللوم والحسرة والغضب، حتى أننى عرفت كيف كان تأثير الأمر عليه. فقد شعر بأنه تعرض لخيانة فى الحب، لأننى هربت مع مكرموت؛ وتحولت نظرته لى من ملاك جديرة بالحب الواله حتى العبادة، تحولت فى نظره إلى شيطان، وسوف يفعل كل ما فى وسعه لتدميرى. وبهذا غاص قلبى فى أعماقى، لأنه من

بين كل الناس الذين عرفتهم فى ريتشموند هيل، كنت أعتد عليه أن يقول كلمة طيبة فى حقى؛ كما أنه بدأ صغيراً جداً وساذجاً وعلى فطرتة ومليئاً بالبراءة، حتى شعرت بكرجاج ينزل على جسدى، لأننى كنت أقدر رأيه الطيب عنى، وكان من المثير للأسى والحزن أن أفقده.

قام ليدلى بشهادته، وأدى القسم؛ وكانت الطريقة التى أدى بها القسم على الإنجيل مفعمة بالوقار والمهابة، ولكن صوته كان يجيش بالغضب، ولم تدلنى على أى خير. أخبرهم عن حفلنا فى الليلة السابقة، ولعبه على الفلوت، وكيف رفض مكرموت الرقص، وكيف سار معه نصف الطريق إلى البيت؛ وكيف كانت نانسى حية عندما تركنا، وكانت فى طريقها إلى فراشها فى الطابق الأعلى. ثم أخبرهم كيف أنه جاء بعد الظهر فى اليوم التالى، ورأى مكرموت يحمل بندقية ذات ماسورتين فى يده، وادعى أنه يستخدمها لصيد الطيور. وقال أننى كنت واقفة عند الطلمبة ويداى مضمومتان، وكنت أرتدى الجورب الأبيض القطنى؛ وعندما سألتى أين نانسى، ضحكت بطريقة ساخرة، وقلت أنه كان دائماً يريد أن يعرف أشياء؛ ولكن نانسى ذهبت إلى منزل آل رايت، حيث أن هناك شخصاً مريضاً، وقد جاء رجل لتوصيلها.

لم أكن أتذكر أيّاً من ذلك يا سيدى، ولكن جيمى وولش شهد بذلك بطريقة مباشرة كان من الصعب أن ترتاب فى صحتها.

لكن بعد ذلك غلبته مشاعره، وأشار لى، وقال: إنها ترتدى ثوب نانسى، والشرائط التى تربط بها قبعتها تخص نانسى، وكذلك اللفاح الفرو الذى تضعه، وأيضاً المظلة التى فى يدها.

وهنا امتلأت قاعة المحكمة بصراخ وضجيج شديدين، مثل اندفاع الأصوات في يوم القيامة؛ وعرفت أنه حكم على بالموت.

عندما جاء دوري، قلت ما أخبرني مستر ماكنزي أن أقوله، وكانت رأسي في حالة اضطراب شديد، وأنا أحاول أن أتذكر الإجابات الصحيحة؛ وضغطوا على لأشرح كيف أنني لم أحذر نانسي ومستر كينير بمجرد أن علمت بنوايا جيمس مكرموت. وقال مستر ماكنزي أن هذا كان خوفاً على حياتي، ورغم أنفه الكبير إلا أنه كان فصيحاً للغاية. وقال أنني كنت صغيرة وأقرب إلى طفلة، طفلة مسكينة بلا أم، وأنتى أعتبر بكل المقاييس يتيمة أطلقت إلى العالم بلا أحد يعلمنى الصواب من الخطأ، واضطرت للعمل الشاق لكسب العيش منذ سن صغيرة، وأنتى كنت الكد نفسه؛ وكنت شديدة الجهل ولم أتعلم، وأمىة، ولا أزيد عن البلهاء إلا قليلاً؛ وساذجة للغاية، ويمكن التفرير بى، ومن السهل المكر بى.

ورغم كل ما فعله يا سيدى، فقد سارت الأمور ضدى. قرر المحلفون أنتى مذنبه بارتكاب جريمة القتل، كمحرضة قبل ارتكاب الجريمة ومساعدة بعدها، ونطق القاضى بحكم الموت. وكنت قد طلب منى الوقوف لسماع الحكم، لكنه عندما قال كلمة الموت أغمى على، ووقعت على السور الذى كان عبارة عن قضبان ذات قمم مدببة يحيط بقفص الاتهام كله؛ ودخل أحد القضبان فى صدرى، إلى جوار القلب مباشرة.

يمكننى أن أريه الندبة.

أخذ سايمون قطار الصباح من تورنتو. سافر بالدرجة الثانية؛ فقد كان ينفق الكثير من النقود في الفترة الأخيرة، ويشعر بالحاجة إلى الاقتصاد في الإنفاق.

وهو يتطلع إلى لقائه مع كينيث ماكنزى: فمن خلاله قد يتمكن من كشف تفصيل ما أو آخر، أى شيء تكون جريس قد أهملت الإشارة إليه، إما بسبب أنه قد يضعها فى ضوء سيئ، أو لأنها قد نسيته أصلاً. ويفكر متأملاً: إن العقل أشبه بالبيت - الأفكار التى لم يعد المالك راغباً فى عرضها مرة أخرى، أو تلك التى تثير ذكريات مؤلمة، يتم إقصاؤها بعيداً عن المشهد، ويعهد بها إلى عليّة أو قبو، مثل تخزين الأثاث المكسور، فمن المؤكد أن هناك عنصراً إرادياً يتدخل فى عملية النسيان.

وإرادة جريس هى من النوع السلبي الأنثوى - يمكنها أن تتكرر وترفض الكثير بسهولة أكثر مما يمكنها أن تؤكد أو تقبل. إنها تعرف فى مكان ما داخل نفسها - وقد رأى ذلك، حتى ولو للحظة، ذلك الوعى، حتى وجود نظرة مأكرة فى ركن عينها - إنها تعرف أنها تخفى شيئاً عنه. وكما تخطط غرزة بغرزة فى شغلها، بهدوء خارجى مثل تمثال رخامى للعدراء، فهى تبذل طوال الوقت كل ما فى جهدها العنيد السلبي ضده.



فالسجن لا يغلق فقط على من فيه، وإنما يمنع أيضاً الآخرين ويقيهم خارجه. وسجنها الأقوى هو ما بنته بنفسها حول نفسها.

فى بعض الأيام، يرغب لو يصفعها على وجهها. أحياناً يشعر بسطوة شديدة لهذا الإغراء. لكنها حينئذ تكون قد أوقعتة فى الشرك؛ حينئذ يكون لديها سبب لمقاومته. ربما سوف تقلب عليه تلك النظرة الشبيهة بنظرة الطيبى الجريح، والتي تحتفظ بها كل النساء مختزنة لمثل هذه المناسبات. سوف تبكى.

إلا أنه لا يشعر أنها تكره محادثاتها. على العكس، من الواضح أنها ترحب بهذه المحادثات، بل وتستمتع بها؛ كما يستمتع المرء بلعبة من أى نوع. متى يكسب أحدهما، يسأل نفسه مقطباً. إن المشاعر التي تعبر عنها بوضوح تام تجاهه هي الامتتان المستكين.

لقد بدأ يكره مشاعر الامتتان لدى النساء. إنها أشبه بمن يجد أرنباً يتملقه، أو أن يجد نفسه مغطى بالحساء: لا تستطيع أن تتخلص منها. فهي تبطئ من حركتك، وتأخذك على حين غرة. كل يوم تعبر بعض النساء عن عرفانها بفضلها، فيشعر بأنه يأخذ دساً بارداً. فهذا العرفان ليس حقيقياً؛ إن المقصود به هو أنه يجب أن يكون ممتناً لهن. وفى أعماقهن يحتقرنه. يتذكر ببعض الحرج، وبنوع من الاشمئزاز البغيض من الذات، كيف كان يبدو بمظهر المتنازل الغبى وهو يدفع النقود لإحدى فتيات الشوارع المنهكة المثيرة للرتاء — النظرة الضارعة فى عينيها، وكيف شعر بنفسه كريماً ومترفاً ومتعاطفاً، وكأنه هو الذى يسدى إليها المعروف، لا هى. فأى قدر من الازدراء أبقينه كلهن خفياً فى دواخلهن، تحت شكرهن وابتساماتهن!

تتطلق صافرة القطار؛ ويندفع الدخان الرمادي عابراً النافذة. إلى اليسار، عبر الحقول الممتدة، توجد البحيرة المنبسطة، تمتلئ مياهها بغمازات مثل لوح من الرصاص والقصدير المطروق. يظهر هنا وهناك كوخ خشبي، حبل من الغسيل يرفرف في الهواء، أم بدينة ولا شك أنها تلعن الدخان، زمرة من الأطفال المبحلقين. أشجار مقطوعة حديثاً، ثم بقايا الأشجار بعد قطعها؛ نار موقدة في الهواء الطلق تطلق دخانها. بيت الشحاذ المؤقت، بعض الطوب الأحمر أو لوح من ألواح المراكب البيضاء. الموتور يصدر طرققات عنيفة، كدقات قلب حديدي، يتحرك القطار بلا توقف نحو الغرب.

بعيداً عن كينجستون، بعيداً عن مسز همفري. راشيل، كما يناديها الآن بعد توصلات منها. كلما استطاع أن يضع أميلاً أكثر بينه وبين راشيل همفري، كلما شعر بأنه أخف وزناً، وأقل متاعب. لقد تورط معها أكثر كثيراً مما يجب. يشعر بأنه يتعثّر ويتخبط – تأتي إلى عقله صور الرمال المتحركة – لكنه لا يعرف كيف يخلص نفسه منها حتى الآن. إن وجود عشيقه في حياته – لأن هذا هو ما يمكن وصفها به الآن، على ما يظن، ولم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً! – هو أسوأ من وجود زوجة. فالمسئوليات الملقاة على عاتقه أكثر ثقلاً، وأشد إرباكاً.

المرّة الأولى كانت حادثاً: نصبت له كميناً وهو نائم. وحاجته الطبيعية غلبته، تسالت إليه وهو نائم مسحور، غير متحصن بدروع اليقظة اليومية؛ أحلامه انقلبت عليه. هذا هو نفس ما تدعيه راشيل عن نفسها، فهي تقول أنها كانت تسير وهي نائمة. كانت تظن نفسها بالخارج في ضوء الشمس، تجمع الزهور، ولكن فجأة وجدت نفسها في غرفته، في الظلام،

وبين ذراعيه، وقد وصلت إلى نقطة لا يمكن الرجوع منها، لقد ضاعت. "ضاعت" هي الكلمة التي تستخدمها كثيرًا. أخبرته أنها كانت دائمًا ذات طبيعة حساسة، ومعرضة للمشى أثناء النوم حتى وهي طفلة. وقد اعتادوا أن يغلقوا عليها الباب بالمفتاح في غرفتها ليلاً، لمنعها من التجول على غير هدى في ضوء القمر. وهو لا يصدق أى شيء من هذه القصة، ولكن بالنسبة لامرأة مهذبة من طبقتها فإن المفترض أنها طريقة لحفظ ماء الوجه. أما ما كان في عقلها بالفعل في ذلك الوقت، وما تفكر فيه الآن، فهو لا يجرؤ على محاولة تخمينه.

وتقريبًا، في كل ليلة منذ تلك الليلة، تأتي إلى غرفته في ردها الليلي، وقد وضعت عليها رداء فضفاضًا أبيض مكشكشًا. الأشرطة عند الرقبة محلولة، والأزرار مفتوحة. تحمل شمعة واحدة: وتبدو في الضوء الكابى للشمعة أكثر شبابًا. عيناها الخضراوان تومضان، وشعرها الطويل الأشقر مسدل حول كتفيها مثل خمار لامع.

وإذا بقى بالخارج حتى وقت متأخر، يسير على ضفة النهر فى برودة الليل كما تزايدت عاداته فى الفترة الأخيرة، ستكون هناك فى انتظاره عندما يعود. وأول رد فعل له نوع من الملل والاستياء: ثم رقصة طقسية لابد من المرور بها، وهى رقصة مملة للغاية بالنسبة له. يبدأ اللقاء بالدموع، والارتعاش، والممانعة: تنتهد، وتلوم نفسها، وتصور نفسها محطمة تتمرغ فى العار، روحًا آثمة. فهى لم تكن أبدًا عشيقة لأحد من قبل، لم تتحدر أبدًا إلى هذا المستوى، ولم تتورط فى مثل هذا الانحطاط؛ إذا اكتشفها زوجها، فماذا سوف يحدث لها؟ إن المرأة هى التى يقع عليها اللوم دائمًا.

يتركها سايمون تستمر بهذا الأسلوب لبعض الوقت؛ ثم يهدئ من روعها، ويؤكد لها بأقل الألفاظ تحديداً وأكثرها إيهاماً أن كل شيء سيكون على ما يرام، ويقول أنه لا يفكر فيها أقل مما سبق لما حدث منها سهواً بهذه الطريقة. ثم يضيف أنه لا حاجة لأن يعرف أحد شيئاً، بشرط أن يكونا حذرين. فلا بد أن يأخذا حذرهما بشدة ألا يخون أحدهما الآخر بقول كلمة أو توجيه نظرة في حضور الآخرين – خاصة دورا، لأن راشيل لابد أن تعرف كيف يثرثر الخدم – والحذر ليس فقط لحمايتها، وإنما لحمايته أيضاً. فيمكنه أن يتخيل ماذا يمكن أن يقول المبجل قرينجر؛ مثله مثل الآخرين.

تبكى أكثر عند التفكير في الاكتشاف؛ فهي تتلوى ألماً وخجلاً من خوف المهانة والخزي. ولا يظن أنها ما زالت تأخذ الأفيون، أو على الأقل ليس كثيراً كما في السابق، وإلا ما كانت مشاعرها تستثار بهذه الطريقة. وتستمر في قولها أنها ما كان يمكن لها أن تصبح عرضة لكل هذا الاستهجان والاستنكار لو كانت أرملة. فلو كان الميجور ميتاً، فلن تكون خائنة لقسم الزواج؛ ولكن هذا هو الحال. .. يقول لها أن الميجور قد عاملها بطريقة شنيعة، إنه نذل، وغد، كلب، ويستحق حتى أسوأ من ذلك منها. لقد اتخذ نوعاً من الحيطة، فلم يبذل أية وعود بالزواج العاجل إذا حدث أن الميجور فجأة وبالمصادفة ترنح فوق جرف وهوى وانكسرت رقبتة. وهو في داخله يتمنى له حياة مديدة وصحة جيدة.

يجفف لها عينيها بمنديلها الخاص – والذي هو دائماً نظيف، مكوى جيداً، تتصاعد منه رائحة البنفسج، وموضوع بعناية في كمها. تلف ذراعيها حوله، وتحتضنه، ويشعر بثدييها يدفعانه، وبفخذيها، وبجسدها كله.

إن لها خصرًا نحيلًا بشكل يثير الدهشة. ويرطب فمها رقبتة. ثم تتسحب للخلف مذهولة من نفسها، مع إيماءة توحى بالخفر والحياء لفتاة صغيرة، وتتطوى بعيدًا عنه وكأنها اتخذت موقف الهروب؛ ولكن في هذا الوقت يكون الملل قد غادره وتغير الموقف.

وراشيل ليست كأي امرأة عرفها من قبل. ففي البداية هي امرأة محترمة، وهي أول امرأة محترمة يعرفها؛ والاحترام في المرأة، كما اكتشف الآن، يجعل الأشياء معقدة للغاية. فالمرأة المحترمة هي بطبيعتها باردة جنسيًا، وليست لها الشهوات المنحرفة والرغبات العصبية المنهكة التي تدفع أخواتهن المنحلات إلى البغاء؛ أو هكذا تقول النظرية العلمية. أما اكتشافاته الخاصة فإنها توحى له بأن دافع البغايا ليس الفسوق في الغالب وإنما الفقر، ورغم ذلك فإنهن يجب أن يظهرن بالمظهر الذي يحب زبائنهن أن يروهن عليه. فالبغي لا بد أن تتصنع الرغبة ثم الاستمتاع، سواء كانت تشعر بذلك أم لا؛ ومثل هذا التظاهر هو ما يدفع لهن ثمنه. فالبغي الرخيصة رخيصة ليس لأنها قبيحة أو عجوز، ولكن لأنها ممثلة رديئة.

أما مع راشيل فإن الأشياء مقلوبة. فتظاهرها هو تظاهر بالنفور — دورها هو أن تمثل المقاومة، ودوره هو أن يمثل التغلب عليها. إنها تريد أن يتم إغواؤها، وقهرها، وأخذها رغم إرادتها. وفي لحظة الذروة — التي تحاول أن تتخفى في مظهر الألم — دائمًا ما تقول "لا".

وبالإضافة إلى ذلك، فإنها تلمح إلى أنها في هذه العملية من الإقبال والإدبار، وما تتطوى عليه من تضرع ذليل، تقدم له جسدها كمقابل، كنوع من دفع الثمن، كشيء تدين به له مقابل النقود التي أنفقها نيابة عنها، كما في ميلودراما بالية تصور أصحاب البنوك الأشرار والبنات

الفاضلات الفقيرات. ولعبتها الأخرى هي أنها وقعت في الشرك، وأنها تحت رحمته، كما في الروايات الداعرة التي تباع في أكشاك الكتب في باريس، بما فيها من السلاطين ذوى الشوارب الضخمة المبرومة والجاريات المسكينات. ملابس من الجوخ المفضض، وكواحل مسلسلة. وأثناء مثل البطيخ، وعيون الغزلان. إن ما في هذه الصور من ابتذال لا ينقص من قوتها.

أية حماقات نطق بها وهو منغمس في تلك الملذات الليلية؟ لا يكاد يستطيع أن يتذكر. كلمات تعبر عن العاطفة والحب الملتهب، عن كيف أنه لا يستطيع مقاومتها، العبارات التي — وما أغرب أن يعترف بذلك — يعتقد هو نفسه أنه يقولها بصدق في ذلك الوقت. أما أثناء النهار، فراشيل عبء ثقيل، عائق، ويتمنى التخلص منها؛ ولكنها في الليل شخص آخر تمامًا، وكذلك هو. هو أيضًا يقول لا بينما يقصد نعم. يقصد أكثر، يقصد أقوى، يقصد أعمق. يتمنى لو يستطيع عمل شق فيها — شق صغير جدًا فقط — ليتمكن من تذوق دمها، الأمر الذى يبدو له فى الظلام الظليل لغرفة النوم رغبة طبيعية للغاية. يسوقه شيء يبدو وكأنه رغبة لا يستطيع التحكم بها؛ ولكن إذا وضعنا هذا جانبًا، إذا وضع نفسه جانبًا، فى تلك الأوقات — عندما تتموج الملاءات مثل الأمواج، وهو يتلوى ويتمرغ ويلهث — هناك جانب آخر من نفسه يقف بذراعين معقودين، بكامل ملابسه، يقف متفرجًا، كل ما يشعر به هو الفضول إلى معرفة إلى أى مدى، بالضبط، سوف ينساق؟ إلى أى مدى.

يقف القطار فى محطة تورنتو، ويحاول سايمون أن ينحى هذه الأفكار جانبًا. فى المحطة يستأجر عربة خفيفة، ويوجه السائق إلى الفندق

الذى اختار النزول فيه؛ ليس أفضل الفنادق - فهو لا يريد تبديد النقود بلا ضرورة - ولكنه أيضاً ليس زريبة، فهو لا يريد أن يتعرض للسرقة ولساعات البق. وبينما تتحرك العربة فى الطرقات - الحارة المتربة، المزدحمة بالعربات من كل الأصناف، عربات نقل الأخشاب، حافلات عامة، مركبات خاصة - ينظر حوله باهتمام واستمتاع. كل شىء جديد ورشيق، سريع ومشرق، مبتذل ولطيف، مع رائحة نقود طازجة وطلاء حديث. الثروات أصبحت تنمو هنا فى زمن قصير للغاية، والمزيد فى طريقه للنمو. هناك المحلات المعتادة، والمباني التجارية، وعدد مدهش من البنوك. ولا يبدو أى محل من محلات الأطعمة مشجعاً. يبدو معظم الناس على الأرصفة فى حالة ازدهار إلى درجة لا بأس بها، وتخلو الأرصفة من جماعات الشحاذين المعوزين، وأسراب الأطفال الذين تبدو عليهم القذارة وضعف البنية، وشرادم العاهرات المتناقلات أو المبهرجات اللاتي يشوهن الكثير من المدن الأوروبية؛ إلا أن مثل هذا الفساد والانحلال هو ما يجعله يود لو يكون فى لندن أو باريس. فهناك سيكون شخصاً غير معروف، ويمكن أن يكون معفياً من المسئوليات. لا روابط، لا علاقات. سوف يكون قادراً على أن يفقد نفسه تماماً.

## الفصل الثاني عشر

### معبد سليمان





تظرت إليها فى دهشة. فكرت فى نفسى: 'يا إلهى الطيب! هل يمكن أن تكون هذه امرأة؟ امرأة جميلة، ناعمة البشرة أيضاً – ومجرد بنت! أى قلب تحمله بين جنباتها!' وشعرت بأمرين يتنازعاننى؛ رغبة شديدة تستهوينى أن أخبرها أنها شيطانة، وأننى لا أريد أن يكون لى أى شأن فى هذا العمل الرهيب؛ لكنها كانت تبدو شديدة الوسامة، حتى أننى بطريقتة أو أخرى استسلمت للإغراء...."

جيمس مكدرموت

إلى كينيث ماكنزى، كما روته سوزانا مودى،

*Life in the Clearings, 1853*

... لأن هذا هو قدر امرأة

ظلت تعتصم بالصبر والصمت، طويلاً، ظلت تنتظر مثل شبح لا يتكلم،

حتى جاء الصوت المستجوب ليذيب تعويذة الصمت.

ولهذا فإن الحياة الداخلية لنساء كثيرات معذبات،

مظلمة وصامتة وعميقة كالأنهار الجوفية،

تجرى في ظلمات الأعماق ....

هنرى وادزورث لونجفلو

“The Courtship of Miles Standish,” 1858.

تقع مكاتب المحاماة الخاصة ببرادلى وبورتر وماكنزى فى بناية جديدة من الطوب الأحمر، ذات مظهر يوحى ببعض التكلف، فى شارع كينج الغربى. فى المكتب الخارجى شاب نحيل ذو شعر خال من اللون، يجلس على مكتب مرتفع، يكتب بقلم ذى سن من الصلب. عندما يدخل سايمون يقفز من مكانه ناثرًا قطرات الحبر، مثل كلب ينفض نفسه.

يقول: "مستر ماكنزى بانتظارك يا سيدى". ويضع قوسين من الاحترام والتبجيل فى نطقه لكلمة "ماكنزى". يفكر سايمون: كم عمره يا ترى، لابد أن هذه أول وظيفة له. يقود سايمون عبر ممر مفروش بالسجاد، ويدق على باب سميك من البلوط.

يجلس كينيث ماكنزى فى قدسه الداخلى. وقد أحاط نفسه بأرفف كتب أنيقة، ومجلدات مهنية تبدو باهظة التكلفة، وثلاث لوحات لخيول السباق. على مكتبه حامل حبر فخم من الطراز البيزنطى. إنه ليس مثلما كان سايمون يتوقع بالضبط: ليس بطولى الشكل مثل برسيوس، ولا هو مثل فرسان الصليب الأحمر. إنه رجل قصير يأخذ شكل الكمثرى - كتفان ضيقان، وبطن صغيرة مستريحة منتفخة تحت الجاكيت التارتان - وله

أنف أنبوبي ضخمة مليء بالبثور، وخلف نظارته الفضية، عيناان صغيرتان ولكنهما ثابتتان. ينهض من مقعده، وقد مد يده بترحاب مبتسماً؛ لديه سنتان أماميتان طويلتان مثل سنتي القندس. يحاول سايمون أن يتخيل ماذا كان شكله منذ ستة عشر عاماً، عندما كان شاباً صغيراً – أصغر من سايمون الآن – لكنه لا يستطيع التخيل. فلابد أن كينيث ماكنزي كان يبدو في أواسط العمر حتى عندما كان سنه خمس سنوات.

هذا إذن هو الرجل الذي أنقذ حياة جريس ماركس ذات يوم، رغم الاحتمالات المضادة الكثيرة – الدليل القاطع، الرأي العام الغاضب، وشهادتها المشوشة غير المعقولة. يشعر سايمون بفضول لمعرفة كيف استطاع ذلك بالضبط.

"د. چوردان. سعيد بمقابلتك".

يقول سايمون: "إنه لكرم منك أن تمنحني بعض وقتك".

"على الإطلاق. إن لدى رسالة المجلد فرينجر؛ وهو يثنى عليك كثيراً، وقد أخبرني بعض ما قمت به. ويسعدني أن أكون قادراً على المساعدة في صالح العلم؛ وكما وصل إلى سمعك بكل تأكيد فإننا نحن المحامين دائماً نرحب بأية فرصة للفت الأنظار. ولكن قبل أن نبدأ..."  
يقدم إليه إناء، سيجار.. الشيرى ممتاز: مستر ماكنزي يحسن الاستمتاع بحياته.

يسأل سايمون، كنوع من البداية: "أليست لك علاقة بالمتهم

الشهير؟"

"لا علاقة على الإطلاق، رغم أنني أفضل ادعاء القرابة عن إنكارها؛ فهذا الأمر لا يسبب ضرراً الآن كما كان ذات يوم، وقد تم العفو عن الفتى العجوز منذ وقت طويل، وأصبح ينظر إليه باعتباراه الأب الروحي للإصلاحات. ولكن المشاعر المضادة له كانت مرتفعة في تلك الأيام؛ وهذا وحده كان كفيلاً بوضع المشنقة حول رقبة جريس ماركس".

يقول سايمون: "وكيف ذلك؟"

"إذا كنت قرأت الجرائد القديمة، فلابد أنك لاحظت أن الصحف التي وقفت في جانب السيد ماكنزي وقضيته كانت هي الصحف الوحيدة التي تقول كلمات طيبة لصالح جريس. أما الصحف الأخرى فقد كانت كلها تقف مطالبة بشنقها، وبشنق وليام ليون ماكنزي أيضاً، وأي شخص آخر يحمل مشاعر جمهورية".

"ولكن من المؤكد أن لا علاقة لهذا بذاك!"

"لا علاقة على الإطلاق. ولكن لا حاجة لوجود علاقة مباشرة في مثل هذه الأمور. مستر كينير كان يميل إلى حزب "المحافظين"، بينما أخذ وليام ليون ماكنزي جانب الاسكتلنديين والأيرلنديين المساكين، وجانب السكان المهاجرين بشكل عام. "الطيور على أشكالها"، ذلك ما كانوا يؤمنون به. لقد سال عرقى دماً في المحكمة، يمكن أنؤكد لك هذا. كانت قضيتي الأولى، كما تعلم، أول قضية لي على الإطلاق؛ كنت قد قبلت لتوى في هيئة المحاماة. وكنت أعرف أن هذه القضية سوف تصنعني أو سوف تقضى علي، وكما كشفت الأحداث، فقد أعطتني دفعة قوية للأمام".

يسأل سايمون: "كيف حدث أن توليت القضية؟"

"يا عزيزي، لقد أعطوها لي. كانت قضية فاشلة. لا أحد يريدتها. أخذتها الشركة كنوع من "الصدقة" – فلم يكن أيُّ من المتهمين لديه أية نقود بالطبع – ولأنني كنت أصغر المحامين، انتهى الأمر بإسنادها لي، وفي الدقيقة الأخيرة أيضاً، ولم يكن هناك حتى شهر للإعداد. قال برادلي العجوز: "حسناً يا بني، ها هي القضية. الجميع يعرفون أنك ستخسر، لأنه لا شك في أنهما مذنبين؛ لكنها ستكون الطراز الذي تكون خسارته ذات معنى. هناك خسارة غير مشرفة، وهناك خسارة مشرفة. دعنا نراك تخسر خسارة مشرفة بقدر الإمكان. سوف نكون جميعاً مشجعين لك". كان الفتى العجوز يعتقد أنه يسديني معروفاً، وربما كان الأمر كذلك بالفعل."

يقول سايمون: "أعتقد أنك ترافعت عن الاثنين".

"نعم. وكان هذا خطأ، إذا أعدنا النظر إلى الأمر، حيث تأكد أن مصالحهما متعارضة. كان هناك الكثير من الأخطاء حول المحاكمة؛ ولكن ممارسة القضاء في ذلك الوقت كان بها الكثير من الإهمال والتسيب".

يعبس ماكنزي وهو ينظر إلى سيجاره الذي انطفأ. ويرد على خاطر سايمون أن الرجل المسكين لا يستمتع بالتدخين في الواقع، ولكنه يشعر أنه يجب أن يدخن لأن التدخين يتناسب مع وجود لوحات جياذ السباق.

ويسأل ماكنزي: "إذن، فقد قابلت سيدتنا ذات الفجوات

الصامته!"

"أهذا ما تدعوها به؟ نعم، لقد كنت أقضى وقتاً طويلاً معها  
مؤخراً، محاولاً أن أقرر .."

"ما إذا كانت بريئة؟"

"ما إذا كانت سليمة العقل. أو كانت كذلك في وقت ارتكاب  
الجريمتين. وهو ما أظن أنه يجعلها بريئة بشكل ما."

يقول ماكنزي: "أتمنى لك حظاً سعيداً. .. إنه شيء لم أستطع أبداً  
أنا نفسي أن أتأكد منه."

"فحوى كلامها أنها لا تذكر أى شيء عن الجريمتين؛ أو على  
الأقل عن جريمة قتل الفتاة مونتجومري."

يقول ماكنزي: "يا سيدى العزيز، سوف يدهشك أن تعلم مدى  
كثرة هذه الفجوات في الذاكرة بين العناصر الإجرامية. قليل جداً منهم فقط  
يمكنه أن يتذكر أنه ارتكب أى خطأ. يمكن أن يضرب الواحد منهم الرجل  
حتى يغيب عن وعيه، ثم يقطعه إرباً، ثم يدعى أنه لم يفعل أكثر من ضربة  
خفيفة بطرف زجاجة. النسيان، فى هذه الأحوال، هو الشيء الأكثر احتمالاً  
من التذكر."

يقول سايمون: "فقدان الذاكرة عند جريس يبدو أصيلاً بحق،  
أو هكذا أصبحت مقتنعاً، فى ضوء خبرتى الطبية السابقة. ومن ناحية  
أخرى، رغم أنه لا يبدو أنها تتذكر جريمة القتل، لديها ذاكرة دقيقة  
بالتفاصيل المحيطة بها — كل قطعة من الغسيل قامت بغسلها طوال



عمرها، على سبيل المثال؛ وأشياء مثل قارب السباق الذي رآته أثناء عبورها البحيرة. إنها حتى تتذكر أسماء القوارب."

يقول ماكنزي: "كيف استطعت أن تتأكد من صدقها؟ من الصحف، على ما أظن. هل خطر لك أنها ربما تكون قد استمدت هذه التفاصيل الأكيدة من نفس المصدر؟ إن المجرمين يقرأون ما يكتب عنهم بلا توقف، إذا توفرت لهم الفرصة. إن لديهم شعورًا بالزهو في هذا الأمر مثل المؤلفين. عندما أكد مكرموت أن جريس ساعدته في عملية الخنق التي ارتكبتها، ربما يكون قد استوحى هذه الفكرة من جريدة كرونيكل وجازيت التي تصدر في كينجستون، والتي عرضت هذا وكأنه حقيقة، حتى قبل أن يحدث أي استجواب. قالت الصحيفة من الواضح أن العقدة حول رقبة المرأة كانت بحاجة إلى شخصين لربطها. كلام فارغ، لا يمكنك بمجرد رؤية مثل هذه العقدة أن تؤكد ما إذا كان ربطها لهذا الغرض يحتاج إلى شخص واحد أو اثنين أو عشرين. بالطبع أنا أفقدت هذه الفكرة أهميتها وأفسدتها أثناء المحاكمة."

يقول سايمون: "ها أنت الآن قد تحولت، إنك تدافع عن الجانب الآخر من القضية".

"يجب على المرء دائماً أن يضع الجانبين في اعتباره؛ إنها الطريقة الوحيدة لكي تتصور حركة خصمك. ولا يعني هذا أنني قمت بعمل شديد الصعوبة في هذه القضية، ولكني قمت بكل ما أستطيع؛ فالإنسان لا يملك إلا أن يفعل قدر استطاعته، كما قال والتر سكوت في بعض كتاباته. كانت قاعة المحكمة شديدة الازدحام كما لو كنا في جهنم،

ومثل جهنم فى الحرارة — رغم أننا كنا فى نوفمبر، والهواء كان خانقًا. ومع ذلك، ظللت أستجوب بعض الشهود لما يزيد عن ثلاث ساعات. لابد أن ذلك قد استنفد قواى، لكنى كنت أكثر شبابًا حينئذ.

"أتذكر أنك بدأت بالدفع بعدم قانونية القبض عليهم فى حد ذاته."

"نعم. فقد تم القبض على ماركس ومكدرموت على أرض أمريكية، وبدون إذن رسمى. وقد أدليت بخطبة جيدة حول انتهاك الحدود الدولية، والحصانة الشخصية، وما إلى ذلك؛ لكن رئيس المحكمة روبنسون لم ينظر إلى أى شىء من ذلك.

"وحينئذ حاولت أن أظهر أن مستر كينير كان شخصًا شائنًا، متسببًا أخلاقيًا؛ وكان هذا صحيحًا بلا شك. كما أنه كان مصابًا بالوساوس المرضية أيضًا. ولا شىء من ذلك له علاقة بحقيقة أنه قتل، ولكنى فعلت كل ما فى طاقتى، خاصة بالنسبة للأخلاق؛ والواقع أن هؤلاء الأشخاص الأربعة ظلوا يتناوبون النوم، كل واحد منهم فى سرير الآخر، مثل مهزلة فرنسية، حتى أنه من الصعب أن تؤكد بشكل قاطع من كان ينام أين.

"ثم تقدمت لتدمير سمعة المرأة مونتجومرى التلسة. ولم أشعر بأى ذنب فى قذفها والتقول عليها، حيث كانت تلك المخلوقة المسكينة بالفعل كذلك. فقد كان لديها طفل من قبل، كما تعلم — وقد مات كما أفترض نتيجة "رحمة القابلات" — وعند التشريح وجد أنها كانت حامل. ومما لا شك فيه أن الأب كان هو كينير، لكنى فعلت كل ما أستطيع لإعطاء صورة الحبيب الذى خنق المرأة المسكينة بسبب الغيرة. لكن هذه اللعبة لم تنطل على القضاة مهما فعلت، لم يخرج الأرنب من القبعة."

يقول سايمون: "ربما لأنه لم يكن هناك أرنب".

"هذا صحيح تمامًا. كانت حيلتي التالية أن أحاول بعض ألعاب الحاوي مع القمصان. من كان يلبس قميص من، ومتى، ولماذا؟ فقد قبض على مكرموت وهو يرتدي أحد قمصان كينير — فماذا إذن؟ استطعت أن أبني على ذلك حقيقة أن نانسي اعتادت بيع بعض أشياء مخدومها القديمة إلى الخدم، بإذن أو بدون إذن من سيدها؛ ومن ثم يمكن أن يكون مكرموت قد حصل على هذا القميص ماركة "تيساس" بطريق شريف. لكن، لسوء الحظ، كانت جثة كينير قد ألبست أحد قمصان مكرموت بشكل فظ، وكانت تلك عقبة سيئة حقًا. حاولت قدر إمكاني أن أتجنبها، لكن الادعاء ضربني بها ضربة شديدة ومؤلمة.

ثم أشرت بإصبع الشك إلى البائع الذي كان القميص الملوث بالدم الملقى خلف الباب يمكن أن يشير إليه، حيث أنه حاول أن يبيع نفس البضائع بالغش في مكان آخر. لكن هذا لم ينفع أيضًا، فقد كانت هناك شهادة بأن البائع المتجول باع نفس القميص إلى مكرموت — والواقع أنه باعه أربعة قمصان كاملة — ثم بمنتهى المكر اختفى في الهواء. ولسبب ما لم يرد الظهور في المحاكمة وتعريض نفسه لخطر أن تزج رقبتة في القضية.

يقول سايمون: "شخص جبان".

يقول ماكنزي ضاحكًا: "بالضبط. وعندما يأتي الأمر لجريس، لا بد أن أقول أنني لم أتلق منها الكثير من المساعدة. فالفتاة الحمقاء لم يكن من الممكن إقناعها بالعدول عن أن تلبس الثياب الفاخرة للمرأة القتيلة، وهو

عمل تم استقباله باشمئزاز ورعب من قبل الصحافة والعامّة؛ ولو كانت لدى سرعة البديهة والفتنة في ذلك الوقت، لقدمت نفس هذه الحقيقة كدليل على براءتها وضميرها المرتاح، أو ما هو أفضل، كدليل على جنونها. لكنى لم أكن أملك تلك القدرة على المكر في التفكير في ذلك الوقت.

"وبالإضافة إلى ذلك، جعلت جريس الموقف كله سيئاً إلى حد كبير. فقد قالت في وقت القبض عليها أنها لم تكن تعرف أين نانسي، ثم في الاستجواب، قالت أنها كانت ترتاب في أن نانسي ميتة وموجودة في القبو، رغم أنها لم ترها وهي توضع هناك. ولكنها، في المحاكمة، وفيما يفترض أنه اعترافها – وقد نشر هذا الأمر الصغير في جريدة "ستار"، وقد صنعوا منه شيئاً على قدر كبير من الترتيب – ادعت أنها رأت مكدرموت يجبر نانسي من شعرها، ويلقيها من فوق السلم. ولكنها لم تصل أبداً إلى درجة الاعتراف بالخنق."

يقول سايمون: "لكنها اعترفت به لك، فيما بعد."

"هل فعلت؟ لا أذكر ذلك..."

يقول سايمون: "في المصحة، أخبرتك أن عيني نانسي المغلقتان بالدم كانتا تلاحقانها؛ أو هكذا قالت مسز مودي أنك قلت لها."

يهتز ماكنزي في مقعده بطريقة تتم عن عدم الارتياح، وينظر لأسفل. ويقول: "من المؤكد أن جريس كانت في حالة اضطراب عقلي، مشوشة، ومكتئبة."

"والعينان؟"

يقول ماكنزى: "مسز مودى - التى أكن لها أكبر تقدير - لها خيال يمكن أن تقول عنه أنه تقليدى بشكل ما، وميل للمبالغة. لقد وضعت بعض الحوارات الرائعة على أفواه أبطالها، وهى حوارات من غير المحتمل إطلاقاً أن يكونوا قد تفوهوا بها، فقد كان مكرموت شخصاً بليداً بلادة مطلقة - حتى أننى، أنا الذى كنت أدافع عنه، وجدت أن من الصعوبة بمكان أن أصوغ بضع كلمات طيبة من أجله - وكانت جريس أقرب إلى الطفلة، وغير متعلمة. أما فيما يختص بالعينين، فإن الأمر يبدو أنه تصور ذهنى فى الغالب. إنك ترى هذا كل يوم على منصة الشهود."

"إن لم تكن هناك عينان؟"

يهتز ماكنزى ثانية، ويقول: "لا أستطيع أن أقسم يميناً على موضوع العينين، لم تقل جريس، بالضبط، شيئاً يمكن أن يُستند إليه فى قاعة المحكمة، شيئاً يمثل اعترافاً متكاملًا، رغم أنها قالت أنها آسفة على موت نانسى. ولكن أى شخص يمكن أن يقول هذا."

يقول سايمون: "حقاً". لكنه الآن يرتاب فى أن العينين لم تكونا اختراعاً من مسز مودى فى الأصل، ويعجب أية أجزاء أخرى من حكايتها كانت ترجع إلى الميل المسرف لماكنزى فى زخرفة ما يرويّه بالفكاهة والتندر وبراعة القص. "ولكن لدينا أيضاً أقوال مكرموت، والتى أدلى بها قبل شنقه مباشرة."

"نعم، نعم؛ التصريح على منصة الإعدام دائماً ما يأخذ طريقه إلى الصحف."

"أعجب لماذا انتظر كل هذا الوقت؟"

"حتى اللحظة الأخيرة كان لديه أمل في تخفيف العقوبة، لأن جريس منحت ذلك التخفيف. كان يعتبر أن ذنبهما متعادل، وفكر أن الأحكام لا بد أن تتعادل أيضًا؛ ولم يكن يمكنه أن يتهمها دون أن يحكم العقدة بقوة على رقبتة هو نفسه، فهو لا بد أن يعترف بلعبة الفأس وما إلى ذلك."

يقول سايمون: "بينما كان يمكن أن تتهمه جريس بأنه يتهمها كمحاولة للإفلات من العقوبة."

يقول ماكنزي: "بالضبط، كما أنها لم تجفل عندما جاءت اللحظة. 'أنقذ من تستطيع إنقاذه!' تلك المرأة لها أعصاب من الصوان. وقد صنعت مني محامياً جيداً، بل رجلاً أيضاً."

يقول سايمون: "لكن مكرموت لم يحصل على تخفيف!"

"بالطبع لا! وقد كان من الجنون أن يتوقع شيئاً من ذلك، ولكنه كان غاضباً رغم ذلك. كان يعتبر أن ذلك أيضاً غلطة جريس – فهو يرى أنها احتكرت سوق الرأفة – ومن ثم أراد أن ينتقم، وقد رأيت ذلك فى عينيه."

"مفهوم إلى حد ما". يقول سايمون، ثم يضيف: "وكما أتذكر، ادعى أن جريس نزلت معه إلى القبو، وخنقت نانسى بمنديلها."

"حسنًا، لقد وجد المنديل بالفعل. لكن باقى الحكاية لا تعتبر دليلاً دامغاً. فقد قال الرجل عدة روايات، وكان مشهوراً بالكذب بالإضافة إلى ذلك."

يقول سايمون: "ومع ذلك، بغض النظر عن أى مجادلة أو نقاش، فإن كون الرجل معروفاً بالكذب لا يعنى أنه يكذب دائماً".

يقول ماكنزى: "تماماً"، ويضيف: "يبدو أن جريس الرائعة جرتك إلى مطاردة مرحة."

يقول سايمون: "ليست مرحة جداً، لابد أن أعترف أننى تحيرت. إن ما تقوله له رنة الصدق؛ طريقته مفعمة بالبراءة والصدق؛ ولكنى لا أستطيع أن أطرده الريبة فى أنها تكذب على، بشكل ما لا أستطيع أن أحدد ذلك."

يقول ماكنزى: "تكذب .. هذا تعبير قاسٍ بكل تأكيد. هل كانت تكذب عليك، أتسأل؟ دعنى أضع الأمر بهذه الطريقة — هل كانت شهرزاد تكذب؟ ليس فى نظر نفسها بكل تأكيد، صحيح أن القصص التى حكته لا يجب أبداً أن نخضعها للتصنيفات الحادة الخاصة بالصدق والزيف. إنما هى تنتمى إلى منطقة مختلفة تماماً. وربما أن جريس ماركس لم تفعل سوى أن تقول لك ما هى بحاجة لأن تقوله، لكى تحقق النهاية المرغوبة."

يسأل سايمون: "وهى..؟"

يقول ماكنزى: "أن تستمر فى تسلية السلطان، وأن تمنع وقوع الضربة، وتؤجل رحيلك، وتجعلك تبقى فى الغرفة معها أطول وقت ممكن."

يقول سايمون: "وما الهدف من هذا بالله عليك؟ إن تسليتى لن تخرجها من السجن".

يقول ماكنزى: "لا أظن أنها تتوقع ذلك حقاً، ولكن أليس الأمر واضحاً؟ فالمخلوقة المسكينة قد وقعت فى غرامك. رجل عازب، شاب إلى درجة معقولة، وليس مغرضاً، يظهر لفتاة طال حبسها، محرومة من الصحبة الذكورية. إنك بلاشك موضوع أحلام اليقظة اليومية لديها."

يقول سايمون وقد احمر وجهه رغماً عنه: "لا بكل تأكيد". فإذا كانت جريس واقعة فى غرامه، فقد كتمت السر كتماناً جيداً جداً.

"ولكنى أقول أن هذا أكيد! أنا نفسى مررت بنفس التجربة، أو تجربة شديدة الشبه بها؛ لأننى كان لابد أن أقضى ساعات طويلة معها، فى زنزانة السجن فى تورنتو، حين أخذت تسرد لى أحداث قصتها الطويلة كخيوط مغزل لا ينتهى. كانت حمقاء معى، ولم تكن تريد أن تتركنى أبتعد عن ناظريها. نظرات عاطفية للغاية ومسترخية! لو وضعت فقط يدي عليها لألقت نفسها بين ذراعى".

يشعر سايمون بالغثيان. يا له من قزم صغير مغرور، بهذا الصديرى الأنيق والأنف البصلى الشكل! "حقاً؟" يقول ذلك محاولاً ألا يظهر غضبه.



يقول ماكنزى، "نعم، بالطبع. فقد كانت تظن أنها فى سبيلها للشنق، كما تعلم. الخوف شقيق الحب؛ إننى أنصحك أن تجرب المسألة فى وقت ما. نحن المحامون نوضع غالباً فى قالب دور سان جورج، على الأقل مؤقتاً: ابحث عن فتاة مربوطة فى صخرة وعلى وشك أن يفترسها وحش كاسر، انقذها، ثم خذها لنفسك. هذا هو الأمر المعتاد مع الفتيات، أليس كذلك؟ أنا لا أقول أننى لم أتعرض للإغراء. فقد كانت جريس صغيرة للغاية ورقيقة وعطوفة فى ذلك الوقت، لكن حياة السجن قد أكسبتها صلابة بلا شك."

يسأل سايمون لإخفاء غضبه. كيف لم يلاحظ أن الرجل له فم كفم فاسق عجوز ضال؟ شخص اعتاد ارتياد بيوت الدعارة الإقليمية. ماكر شهوانى. يقول سايمون: "لم يكن هناك أى شىء يوحى بذلك فى حالتى". لقد كان يعتبر أن أحلام اليقظة كانت كلها من جانبه، لكنه بدأ بالفعل يشك فى الأمر. بم تفكر جريس حقاً فيما يخصه، وهى جالسة تخطيط وتطرز وتحكى؟

يقول ماكنزى: "لقد كنت محظوظاً للغاية، وكذلك جريس نفسها بالطبع، أن عرضت قضية قتل مستر كينير قبل الأخرى. لأنه من الواضح للجميع أنها لا يمكن أن تكون قد ساعدت فى إطلاق البندقية على كينير؛ أما بالنسبة لقتل نانسى - والواقع، أن ذلك بالنسبة للجريمتين معاً - فقد كان الدليل هو دليل ظرفى فقط. فلم تكن مدانة كفاعل أساسى، وإنما كمساعد، فكل ما يمكن إثباته ضدها هو أنها عرفت بنوايا مكدرموت مقدماً، وام تستطع الإبلاغ عنه؛ وأنها بالمثل أهملت الإبلاغ بحدوث

الجريمة. حتى أن رئيس المحكمة أوصى بالرافة بها. وبمساعدة عدد من التماسات الرأفة لصالحها، تمكنت من إنقاذ حياتها. في هذا الوقت كان الحكم قد صدر بإعدامهما كليهما، وأغلقت القضية حيث لم تكن ثمة حاجة للدخول في تفاصيل القضية الثانية؛ ومن ثم فإن جريس لم تحاكم أبداً على قتل نانسي مونجومري.

يسأل سايمون: "وإذا كانت قد حوكت؟"

"لما تمكنت من إنقاذها. فقد كان الرأي العام في الغالب أقوى مما أستطيع. كان يمكن أن تشنق."

يقول سايمون: "ولكن، في رأيك أنها كانت بريئة."

يقول ماكنزي: "على العكس..."، ويرشف من كأسه، ويمسح شفثيه بطرف لسانه باستمتاع، ويبتسم ابتسامة من يستعيد ذكريات الماضي الجميلة، ويكمل قائلاً: "لا. في رأيي أنها مذنبه آثمة."

ماذا يفعل د. چوردان، ومتى سيعود؟ إننى أظن أننى استطعت حدسه. إنه يتحدث مع الناس فى تورنتو، محاولاً أن يكتشف ما إذا كنت مذنبه؛ لكنه لن يكتشف شيئاً بهذه الطريقة. إنه لا يفهم بعد أن الذنب ليس ناتجاً عن الأشياء التى فعلتها، وإنما عن الأشياء التى فعلها الآخرون معك.

اسمه الأول هو سايمون. وأعجب لماذا أسمته أمه، أو ربما أبوه، بهذا الاسم. أبى لم يشغل نفسه أبداً بتسميتنا، كان هذا متروكاً لأمى ولخالتى بولين. هناك الرسول سايمون بيتر<sup>(\*)</sup>. بالطبع، الذى جعله الرب صياد الناس. ولكن هناك أيضاً سايمون العبيط، الذى التقى ببائع فطائر ذاهب إلى السوق. وقال دعنى أتذوق بضاعتك، ولم يكن معه نقود. مكرموت كان مثل هذا، ظن أنه يستطيع أن يأخذ أشياء دون أن يدفع ثمنها؛ وكذلك كان د. چوردان. ولا يعنى ذلك أننى لا أشعر بالأسف من أجله. فقد كان دائماً نحيفاً، وأشعر أنه سيزداد نحافة. وأعتقد أنه فريسة لنوع من الأسى المؤلم.

أما لماذا سميت جريس، فربما يكون هذا الاسم قد جاء فى إحدى الترانيم. لم تقل أمى ذلك أبداً، ولكن هناك فى الواقع أشياء كثيرة لم تقلها أبداً.

---

(\*) بطرس الرسول.

جريس الرائعة، ما أحلى هذا الاسم

الذى أنقذ شقيًا مثلي!

لقد كنت ضائعًا، والآن قد وجدوني،

وكنت أعمى، والآن أرى.

أرجو أن أكون قد سُميت على هذه الترنيمة. فأنا أحب أن يجدوني، وأحب أن أرى، أو أن يرانى الآخرون. وأعجب ما إذا كان الأمران متساويين فى عين الرب. لأنه جاء فى الإنجيل: "فإننا ننظر الآن فى مرآة، فى لُغز، لكن حينئذ وجهها لوجه" (\*).

إذا كان وجهها لوجه، فلا بد أن يكون الناظر اثنين.

اليوم يوم الحمام. يقول البعض أنهم سيجعلوننا نستحم عاريات، فى جماعات، بدلاً من كل اثنين معًا فى قمصاننا الداخلية؛ يقولون إن هذا يوفر الوقت وأنه أكثر اقتصادًا، حيث يريدون تقليل كمية الماء المستخدم، ولكنى أظن أنها فكرة قليلة الحياء، وإذا حاولوا ذلك فسوف أشكو إلى السلطات. ولكن ربما لن أفعل، فهذه الأشياء تجرى لاختبارنا، ويجب أن أتحملها دون شكوى، كما أفعل فى باقى الأمور، فى معظم الوقت. الحمامات ليس فيها ما يسر كما هى الآن بالفعل، الأرضية من حجارة زلقة بسبب الصابون القذر المتراكم، مثل الجبلى، ودائمًا توجد سجانة تراقب؛ وربما يكون هذا أفضل، إذ بغير ذلك يمكن أن تحدث طرطشة كثيرة. فى

---

(\* رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، ١٣: ١٢).

الشتاء يتجمد الإنسان حتى الموت. أما الآن في حرارة الصيف، مع كل هذا العرق والقذارة، والذي يتضاعف بعد العمل في المطابخ، لا أعبأ كثيرًا ببرودة الماء، فالماء البارد منعش.

بعد الانتهاء من الحمام، قضيت بعض الوقت في الخياطة العادية. فالسجن بحاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة في ملابس الرجال، والمجرمون الذين يتم إدخالهم في ازدياد، خاصة في أيام القيظ في الصيف عندما تسوء الطباع وتكثر المشاحنات؛ ومن ثم فلا بد لهم أن يستخدموا يدي. فليدهم أوامرهم والحصة التي يجب أن ينجزوها، بالضبط كما هو الحال في المصانع.

كانت أنى ليتل تجلس بجوارى على الدكة، اقتربت منى ومالت على هامسة: جريس، جريس، هل هو وسيم، أعنى طيبك الشاب؟ هل سيخرجك من السجن؟ هل وقعت في غرامه؟ أعتقد أنك وقعت.

همست لها: لا تكونى سخيفة وتقولى مثل هذا الكلام الفارغ، أنا لم أقع في حب أى رجل في حياتى، ولا أنوى أن أفعل ذلك الآن. إننى محكوم على بالسجن طوال الحياة، ولا وقت لمثل هذا الأمر هنا، ولا مكان أيضًا إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد.

أنى فى الخامسة والثلاثين، وهى أكبر منى، ولكنها ليست دائمًا فى حالة عقلية سليمة، فهى لم تكبر أبدًا. وهذا يحدث فى المصحة العقلية، بعض من يدخلونها يظلون فى نفس عمرهم داخل أنفسهم؛ نفس العمر الذى دخلوا به المصحة.

قالت أنى: انزلى من عليائك، وضربتنى بكوعها، ثم أضافت هامسة: إنك سوف ترحبين بممارسة الحب فى ركن ضيق مغلق، وهذا لا يفشل أبداً؛ وأنت ماكرة للغاية، سوف تجدين الوقت والمكان إذا أردت، وقد فعلت ذلك برثا فلاد مع حارس فى سقيفة الأدوات، رغم أنهم أمسكوا بها، ولكن ذلك لن يحدث معك أبداً، إن لك يداً ثابتة، ويمكن أن تقتلى جدتك فى فراشها دون أن تهتز لك شعرة. وضحكت ضحكة ماجنة.

أخشى أن تكون قد عاشت حياة شديدة التصدع.

قالت الحارسة النوبتجية: صمماً هناك، وإلا كتبت اسميكما.

إنهم يعودون إلى الصرامة والتشدد مرة أخرى، فهناك رئيسة سجانات جديدة، وإذا كانت الدرجات السيئة كثيرة لديك، يقصون شعرك.

بعد وجبة الظهر، أرسلت إلى بيت المحافظ. كانت دورا هناك مرة أخرى، فقد انفتحت مع صاحبة بيت د. چوردان أنها ستأتى إلينا فى أيام الغسيل الكبير؛ وكالعادة كانت تحمل فى جعبتها الكثير من النميمة. قالت أنها لو قالت نصف ما تعرفه لأنزل ذلك شخصاً ما من عليائه وحط من شأنه، وهناك من تدعى القداسة والطهارة، وترتدى حريراً أسود وتحمل مناديل مطرزة، وتعانى من نوبات صداع فى المساء كما لو كانت محترمة بالفعل؛ وأخرى يمكن أن تفعل ما تشاء، ولكنها ليست من يمكن وضع الغمامة على عينيها. وقالت أنه منذ رحيل د. چوردان، تقضى سيدتها الساعات فى قطع الأرض جيئة وذهاباً، والنظر من النافذة، أو الجلوس غارقة فى حالة من الذهول؛ وهذا أمر لا يثير العجب، فلا بد أنها تخشى أن

يهرب منها مثلما فعل الآخر. وحينئذ من سيدفع لها تكاليف نزواتها ويجيب طلباتها وحاجاتها؟

فى الغالب تتجاهل كلارى ما تقوله دورا. فهى لا تهتم بالنميمة حول الطبقات الأعلى؛ فهى لا تفعل إلا أن تدخن غليونها، وتقول: هم. ولكنها اليوم قالت لماذا تهتم بما يفعله مثل هؤلاء؟ يمكنك بالمثل مراقبة الدجاجات والديكة وهى تتعارك فى الحظيرة، وأنها لا تعرف عن هؤلاء إلا أن الله يخلق أمثالهم على هذه الأرض ليوسخوا الغسيل، لأنها طوال حياتها لم تر لهم نفعاً إلا هذا. وقالت دورا: حسناً، إنهما يؤديان عملاً جيداً من هذه الناحية، لا بد أن أقول أنهما يوسخان الغسيل أسرع مما أستطيع أن أغسله، ويوسخانه معاً إذا كنا نريد للحقيقة أن تظهر.

هنا شعرت ببرودة ثلجية تسرى فى جسدى كله، ولم أسألها أن توضح ما تريد قوله. فلم أرد منها أن تقول أى شىء سيئ عن د. چوردان، لأنه بشكل عام كان طيباً جداً معى، كما أنه أحدث فى حياتى تحولاً كبيراً عما كنت أعيش فيه من حياة رتيبة وعمل شاق.

عندما يعود د. چوردان، سأمر بتجربة التتويم المغناطيسى. فقد تقرر كل شىء؛ سيكون چيرميا، أو يجب أن أفكر فيه باسم د. دو پونت، لأن هذا هو الاسم الذى يجب أن أتذكر أن أدعوه به الآن، سيقوم بعملية التتويم، والآخرى سوف يراقبون ويسمعون. شرحت لى زوجة المحافظ كل شىء، وقالت أننى لا يجب أن أخشى شيئاً، حيث أننى سأكون بين أصدقاء يقصدون الخير لى، وكل ما يجب أن أفعله هو أن أجلس فى مقعد

وأنا عندما يطلب د. دو بونت ذلك منى. وعندما أنا سوف يسألوننى أسئلة. وبهذه الطريقة يأملون أن أستعيد ذاكرتى.

قلت لها أننى لست متأكدة من أننى أريد عودتها، رغم أننى بالطبع سوف أفعل ما يريدون. فقالت أنه يسعدنا أن تجدنى بهذه الحالة العقلية المتعاونة، وأن لديها ثقة عظيمة بى، وأنها متأكدة من ظهور براءتى.

بعد وجبة المساء، أعطتنا السجانة بعض الأشياء التى تحتاج إلى رتق لناخذها فى زنازيننا وننتهى منها فى أوقات الراحة، فقد كان هناك نقص فى الجوارب. وفى الصيف يظل ضوء النهار حتى وقت متأخر جداً، ولا حاجة لإضاءة مزيد من دهن القناديل علينا.

الآن، أنا أقوم بالرتق. وأنا سريعة جداً فى الرتق، أستطيع أن أؤديه دون النظر طالما أنها جوارب وليس شيئاً جميلاً ودقيقاً. وبينما أقوم بالرتق، أفكر: ماذا أحب أن أضع فى ألبوم تذكاراتى، إذا كان لى واحد؟ قطعة من حاشية مطرزة من شال أمى، ونسيلة من الصوف الأحمر، من الكفئين اللذين صنعتهما لى مارى هويتتى. وفتلة حريرية من شال نانسى الجميل. وزرار من العظم من جيرميا. وأقحوانة من عقد الأقحوان الذى صنعه لى چيمى وولش.

لا شىء من مكرموت، فلا أريد أن أتذكره.

لكن ماذا يجب أن يكون عليه ألبوم الذكريات؟ هل يجب أن يحتوى فقط الأشياء الجميلة فى الحياة، أم أنه يجب أن يحتوى كل شىء؟



كثيرون يضعون فى ألبوماتهم صور مناظر وأحداث لم يشهدها أبدًا، مثل صور الدوقات، وشلالات نياجرا، وأنا أعتبر هذا نوعًا من الغش. هل سأفعل ذلك؟ أم سأكون صادقة فيما يخص حياتى؟

قطعة من القطن الخشن، من ثوب نومى فى الإصلاحية. مربع من رداء داخلى ملطخ بالدم. شريحة من منديل أبيض مطبوع بزهور زرقاء. "الحب فى الضباب".



كان الراغبون في المشاهدة يتقاطرون من حين لآخر. لقد تعب الأهالي من أن كل ما تُعرف به مدينتهم هو هذا الشيء وحده: فهو يرى أن الموتى يجب أن يتركوا لشأنهم. ولكن الناس يريدون الحملقة ببلاهة في المأساة؛ هذا لا يليق. ربما تظن أنهم يجب أن يبتعدوا عن المشاكل – ولكن لا، إنهم يريدون أن يشاركوا فيها. بعضهم يصل إلى درجة حمل أشياء معهم – الحصباء من الممشى، الزهور من أحواض الزهور. والسيد الذي يملك البيت الآن لا يتضايق كثيراً، حيث أن الذين يأتون الآن أقل. ومع ذلك فهو لا يريد الفضول الذي لا طائل منه.

يؤكد سايمون أن فضوله ليس لا طائل منه على الإطلاق: فهو طبيب، وهو يدرس حالة جريس. يقول صاحب الخان إنها مضيعة للوقت، لأن جريس مذنبية. "إنها امرأة جميلة"، يضيف هذا بنوع من الفخر لأنه كان يعرفها، ويكمل: "تتظاهر بالوداعة المتناهية. ما كان يمكن لك أن تتخيل أنها كانت تحيك مؤامرة خلف هذا الوجه البريء الناعم."

يقول سايمون: "لم تكن تزيد على الخامسة عشرة في ذلك الوقت، على ما أعتقد".

"ولكنها كانت تعطى انطباعاً بأنها في الثامنة عشرة. يا للعار، أن تصبح شريرة هكذا في هذه السن الصغيرة". يقول أن كينير كان رجلاً محترماً، رغم أنه كان يتسم بالتسيب الأخلاقي، وكان معظم الناس يحبون نانسي مونتجومري رغم أنها كانت تعيش في الرذيلة. وكان يعرف مكرموت أيضاً؛ جسد رياضي من الدرجة الأولى، وكان يمكن أن يكون شخصاً جيداً، لولا جريس. "إنها هي التي قادتته إلى ذلك، وهي التي

وضعت الأنشطة حول رقبتة أيضاً". ويقول أن النساء دائماً يستطعن الإفلات بسهولة.

يسأل سايمون عن جيمي وولش، لكن جيمي وولش قد رحل. يقول البعض إلى المدينة، ويقول البعض الآخر إلى الولايات. بعد بيع أملاك كينير، اضطر آل وولش إلى الرحيل. والواقع أن الكثيرين ممن كانوا في المنطقة حينئذ قد غادروها، فمنذ ذلك الوقت كانت هناك حركة كبيرة في الشراء والبيع والمجيء والذهاب؛ فالحشائش دائماً أكثر خضرة على الجانب الآخر من السياج.

يركب سايمون الحصان ويتجه شمالاً، ويجد بعض الصعوبة في التعرف على أملاك كينير. لم يكن يقصد أن يذهب إلى البيت مباشرة — إنما كان ينوي أن يلقي نظرة من بعيد — ولكن البستان الذي كانت أشجاره قصيرة في أيام جريس، كبرت أشجاره الآن، حتى أصبحت تحجب المنظر إلى حد ما. ويجد نفسه في منتصف الطريق عبر الممشى، وقبل أن ينتبه كان يعقل حصانه إلى السور بجوار المطبخين، ويقف لدى الباب الأمامي.

البيت أصغر مما تخيل، وكذا الأشجار حوله أكثر مما كان يظن. الرواق بأعمدته يبدو بحاجة إلى طبقة جديدة من الدهان، وشجيرات الورد نمت نمواً يدل على عدم العناية، ولا تظهر بها سوى قليل من الأزهار المصابة. ما الذي يعود عليه من النظر، يسأل سايمون نفسه؛ فضلاً عن رعدة كريمة، ورغبة مريضة في التورط؟ إنها كزيارة موقع معركة: لا شيء يمكن رؤيته إلا ما في العقل. مثل هذه المواجهات مع الشيء الحقيقي هي دائماً مثيرة للإحباط.

ورغم ذلك، يدق الباب الأمامي، ثم يدق ثانية. لا أحد يجيب.  
يستدير ليبتعد في اللحظة التي يفتح فيها الباب. امرأة تقف هناك، نحيفة،  
ذات وجه ملء بالأسى، ليست عجوزًا ولكنها متقدمة في العمر، ترتدى  
ثيابًا محتشمة، في رداء قاتم مطبوع ومريلة. وتعطى لسايمون انطباعًا بأن  
هذه هي ما كانت ستصير إليه نانسي مونجومري لو عاشت.

تقول: "أنت هنا لرؤية البيت"، لم يكن ذلك في صيغة استفهام.  
"السيد ليس هنا، ولكن لدى تعليمات بأن أريك البيت."

يصاب سايمون بالدهشة: كيف علموا بأنه قادم؟ ربما يأتيهم عدد  
كبير من الزائرين، ولكن، رغم ما قاله صاحب الخان له؟ هل أصبح البيت  
متحفاً رهيباً للرب؟

مدبرة البيت — لأنها لا بد أن تكون مدبرة البيت — تقف جانباً  
لتفسح لسايمون ليدخل إلى الردهة الأمامية. تقول: "أظن أنك تريد أن  
تعرف حالة البئر، الجميع يريدون ذلك."

"البئر؟" يسأل سايمون، إنه لم يسمع شيئاً عن أي بئر. ربما تكون  
هذه الزيارة مثمرة رغم كل شيء، مع بعض التفاصيل الجديدة عن القضية  
لم تذكر أبداً من قبل. "ماذا عن البئر؟"

تتنظر المرأة إليه نظرة غريبة. "إنها بئر مغطاة يا سيدي، ولها  
طلّمة جيدة. من المؤكد أنك تريد أن تعرف حالة البئر، حينما تكون بسبيلك  
لشراء مكان."

يقول سايمون مرتبكاً: "لكني لا أريد الشراء، هل هو للبيع؟"

"ولماذا أريه لك إذن؟ طبعًا هو للبيع، وليس لأول مرة أيضًا. إن من يعيشون هنا لا يشعرون بالراحة أبدًا. وليس السبب هو وجود أى شيء، لا أشباح ولا أشياء من هذا القبيل، رغم أنك قد تظن أن هذا محتمل، وأنا لا أحب أبدًا أن أنزل إلى القبو. ولكن هذا البيت يجتذب هواة الفرجة المتعطلين."

وتحديق فيه بشدة: فإذا لم يكن مشتريًا، فماذا يفعل هنا؟ ولا يشاء سايمون أن تظنه من هواة الفرجة المتعطلين، فيقول: "أنا طبيب".

"آه!" تقول ذلك وهى تومئ إليه بفهم وفطنة، وكأن ذلك يشرح كل شيء. "إذن فأنت تريد أن ترى البيت. يأتينا هنا الكثير من الأطباء الذين يريدون رؤيته. أكثر من الآخرين، أكثر حتى من المحامين. حسنا، ما دمت هنا، يمكن أن ترى أيضًا. هنا الردهة، حيث كانوا يضعون البيانو، كما قيل لى، فى أيام مستر كينير، البيانو الذى كانت تلعب عليه نانسى مونجومرى. كانت تغنى مثل طائر الكنارى، هكذا يقولون عنها. كانت موسيقية جدًا". وتبتسم لسايمون، أول ابتسامة تنعم بها عليه.

نعم سايمون برحلة فاحصة. أرتة المدبرة غرفة الطعام، المكتبة، المطبخ الشتوى، والمطبخ الصيفى، الإسطبل والعلية، "حيث كان ينام ذلك الوغد مكدرموت فى الليل". "غرف النوم فى الطابق العلوى — لا يعلم إلا الله ماذا كان يجرى هنا فى الأعلى" — وغرفة جريس الصغيرة. الأثاث مختلف كله، بالطبع. أكثر فقرًا، وأكثر رثاءة. يحاول سايمون أن يتخيل ما كان يبدو عليه فى ذلك الوقت، لكنه يخفق.

بطريقة عرض رائعة ومثيرة، تحتفظ مدبرة المنزل بالقبو للنهاية. توقد شمعة، وتنزل أمامه، وهي تحذره من أن تنزل قدمه. الضوء معتم، الأركان يملؤها نسيج العنكبوت. هناك رائحة رطبة، من الأرض والخضر المحفوظة. "لقد عثر عليه هنا"، تقول له بنوع من الاستمتاع، "أما هي فقد كانت مخبأة عند ذلك الجدار. ولا أعرف لماذا تجشموا مشقة إخفائها. فالجريمة لا بد أن تظهر، وقد حدث ذلك بالفعل. من المؤسف أنهم لم يشنقوا جريس تلك، ولست وحدي التي أقول هذا."

يقول سايمون: "لست وحدك بالتأكيد". لقد رأى ما يكفي، ويريد أن يذهب من هنا. عند الباب الأمامي يعطيها قطعة نقد – يبدو أن هذا هو الصواب – تومئ وتضعها في جيبها. وتقول: "يمكنك أن ترى القبرين أيضاً، في باحة الكنيسة في المدينة، ليس عليهما أسماء، ولكن لن تخطئهما، إنهما الشاهدان الوحيدان المحاطان بالأوتاد."

يشكرها سايمون. ويشعر أنه يجوس بلا هدف بحثاً عن نوع من "صندوق الدنيا" الذي لا يريك شيئاً حقيقياً. فأى نوع من مختلسي النظر أصبح هو؟ مختلس أنظار فاحصة، فيما يظهر، ويتجه مباشرة إلى الكنيسة المشيخية البروتستانتية؛ والوصول إليها سهل للغاية، فبها البرج الوحيد الظاهر في المدينة.

المقبرة خلف الكنيسة، نظيفة وخضراء، فالموتى تحت التحكم الكامل. لا حشائش عشوائية هنا، ولا بقايا أكاليل الزهور المتناثرة، ولا فوضى أو إهمال؛ لا شيء يشبه المقابر المزدانة بالأزهار في أوروبا. لا ملائكة، لا تماثيل للمسيح المصلوب، لا هراء من أي نوع. لا بد أن

السماء بالنسبة لأعضاء الكنيسة المشيخية تشبه المؤسسات البنكية، كل روح عليها بطاقتها وسعرها، وموضوعة في الخزانة المخصصة لصنفها ورتبتها.

القبران اللذان يبحث عنهما واضحان. كل منهما حوله سور من العيدان الخشبية، وهي الأسوار الوحيدة داخل المقبرة: لا شك أن الهدف منها إبقاء المدفونين محبوسين في مكانهما، حيث تنتشر عن المقتولين سمعة بأنهم يمشون. حتى المشايخ البروتستانتيون ليسوا، فيما يبدو، مستثنين من الإيمان بالخرافات.

سور العيدان الخشبية الخاص بتوماس كينير مطلى باللون الأبيض، وسور نانسي مونتجومري أسود، ربما تكون إشارة لحكم المدينة عليها: سواء كانت ضحية جريمة قتل أم لا، فهي ليست أفضل مما يجب أن تكون. ولم يدفنها في نفس القبر — لا داعي لمساندة الفضيحة. ومن الغريب أن قبر نانسي وضع عند قدمي كينير، وفي زاوية صحيحة بالنسبة له؛ مما يوحي بنوع من غطاء السرير. وهناك شجرة ورد تملأ تقريباً كل المنطقة المسيجة فوق قبر نانسي — إذن، فقد كانت الأغنية القديمة موحية — ولكن لا يوجد عنب على قبر توماس كينير. يقطف سايمون وردة من فوق قبر نانسي، مع فكرة غير متبلورة بأخذها إلى جريس، لكنه يتراجع عن تلك الفكرة.

يقضى سايمون الليلة في خان غير مريح في منتصف طريق العودة إلى تورنتو. زجاج النوافذ قدر لدرجة أنه بالكاد يرى خارج النافذة، والملاءات لها رائحة عفنة؛ وأسفل غرفته تماماً، مجموعة من السكراري ذوى الصوت الأجهش، والذين ظلوا يقصفون حتى ما بعد منتصف الليل.



هؤلاء هم المغامرون المغرمون بالسفر بين الأقاليم. يضع مقعدًا خلف الباب ليمنع أى تدخل غير مرغوب.

يستيقظ فى الصباح مبكراً، ويفحص الإصابات المختلفة من لسع الحشرات التى حازها أثناء الليل. يرش على رأسه ماء عند الحوض الصغير من الماء الفاتر الذى أحضرته له خادمة الغرفة، والتى تعمل أيضاً فى الأوفيس بالطابق الأسفل؛ ويشم فى الماء رائحة البصل.

وبعد الإفطار على شريحة من لحم الخنزير التى يبدو أنها لديهم منذ أيام الطوفان، وبيضة من عصر غير معروف بعد، يستكمل طريقه. قليلون آخرون على الطريق: تعبته عربة سفر، ورجل يقطع شجرة ميتة فى حقله، وعامل يتبول فى قناة ماء. ويرى هنا وهناك فوق الحقول خيوطاً خفيفة طافية من الضباب، يتشتت مثل الأحلام فى ضوء الشروق. الهواء غائم، الحشائش على جانب الطريق تتعلق بها قطرات الندى؛ والحصان يجذب ملء فمه منها وهو يعبر بجوارها. يشد سايمون الشكمة قليلاً، ثم يرخيها تاركاً الحصان يسير متمهلاً. ويشعر بعدم الجدوى، والبعد عن كل الأهداف، وفشل كل الجهود.

قبل أن يأخذ قطار بعد الظهر، لديه مهمة أخيرة. فهو يريد زيارة قبر مارى هويتتى. يريد أن يتأكد من أنها موجودة حقاً.

الكنيسة الميثودية فى شارع أدلايد، هى الكنيسة التى ذكرتها جريس؛ وقد تأكد من ذلك من ملاحظاته. وفى باحة المقبرة، استخدم الجرائيت المصقول بدلاً من الرخام، وأبيات الشعر أصبحت قليلة: الأبهة فى الحجم والمتانة، وليس فى الزخارف. يحب الميثوديون صروحهم

صرحية؛ أشبه بالكتلة، لا تخطئها العينان مثل الخطوط السوداء الثقيلة التي كان والده يضعها تحت الحسابات المعقدة في دفتره مع كلمة: "خالص".

يسير جيئةً وذهابًا أمام صفوف القبور، يقرأ الأسماء — من ينتمون لعائلات بيچ، وإستيوارت، وفلوك، وتشامبر، وكوكس، ورااندولف، وإستالوورثي. في النهاية يجدها، هناك في ركن: حجر رمادي صغير، يبدو أقدم من السنوات التسع عشرة التي مرت. "ماري هويتتي"؛ الاسم، ولا شيء غيره. ولكن جريس قالت له أن الاسم كان كل ما استطاعت أن تدفع ثمنه.

مثل شرارة من لهب، تقفز إلى ذهنه قناعة — إن قصتها صحيحة إذن — ولكن الشرارة تنطفئ بنفس السرعة. ما هي قيمة مثل هذه الأمارات المادية؟ إن الساحر يظهر قطعة من العملة من قبعة، ولأنها عملة حقيقية، ولأن القبعة حقيقية، يصدق النظارة أن الوهم أيضًا حقيقة. لكن هذا الحجر لا يزيد عن أنه مجرد حجر. فلا تاريخ عليه، وربما أن ماري هويتتي المدفونة تحته ليس لها أية علاقة بجريس ماركس على الإطلاق. ربما تكون مجرد اسم، اسم على حجر، رأتها جريس هنا يومًا، واستخدمته وهي تغزل قصتها. ربما تكون امرأة عجوزًا، زوجة، طفلة صغيرة، أي أحد كان.

لا شيء أمكن إثباته. ولكن لا شيء أمكن نفيه أيضًا.

في عودته إلى كينجستون، يسافر سايمون بالدرجة الأولى. فالقطار مليء تقريبًا، فرأى أن الأمر يستحق التكلفة لكي يتفادى الازدحام. يحمله القطار نحو الشرق، وتراجع خلفه تورنتو، كذلك ريتشموند هيل،

ومزارعه ومروجه، ويجد نفسه يتساءل كيف يكون طعم الحياة هناك، بين النباتات الكثيفة فى ذلك الريف الهادئ المسالم، فى بيت توماس كينير، مثلاً، مع جريس كمديرة لمنزله. ليس فقط مديرة منزله، بل أيضاً عشيقته السرية والمخبوءة. سوف يحتفظ بها خفية، تحت اسم مختلف.

سوف تكون حياة مرفهة كسولة، بكل ما فيها من مباح خاصة هادئة. يتصورها جالسة على مقعد فى الشرفة، تخطى، يقع ضوء المصباح على جانب وجهها. ولكن لماذا عشيقته فقط؟ يخطر بباله أن جريس ماركس هى المرأة الوحيدة فى حياته التى يتمنى أن يتزوجها. إنها فكرة مفاجئة، ولكن ما أن تخطر له حتى يقلبها على وجوهها، ويفكر فيها، يفكر، فى نوع من السخرية اللاذعة، أنها ربما تكون أيضاً المرأة الوحيدة التى يمكن أن تفى بكل المتطلبات المتكررة لدى والدته، أو كلها تقريباً: جريس، ليست غنية على سبيل المثال، ولكنها جميلة بلا رعونة، بارعة فى التدبير المنزلى بلا كآبة، وتتميز ببساطة السلوك والفتنة، والتيقظ، والحصافة. إنها أيضاً سيدة ممتازة فى أشغال الإبرة، ويمكنها بلا شك أن تلف الأنسة فيث كارتر ايت بالكروشييه. ولن يكون لدى أمه أى شكوى من هذه الناحية.

ثم هناك متطلباته الخاصة. هناك العاطفة، التى تخبئها جريس فى مكان ما، إنه متأكد من هذا، رغم أنها قد تحتاج إلى قليل من البحث عنها. وسوف تكون ممتنة له، رغم أنها قد تتبرم وتتقاعس قليلاً. الامتتان نفسه لا يأسر انتباهه، لكنه يحب فكرة التبرم والتقاعس.

ولكن، هناك جيمس مكدرموت. هل كانت تخبره بالحقيقة فيما يخصه؟ هل هى حقيقة تكره وتخاف الرجل بالدرجة التى ادعتها؟ لقد

لمسها، هذا مؤكد؛ ولكن إلى أى مدى، وإلى أى درجة من الموافقة من جانبها؟ مثل هذه الحلقات من القصة عند النظر إليها عن بعد من اللحظة الحاضرة، تبدو مختلفة عن حرارتها فى لحظة حدوثها، لا أحد يعرف ذلك أفضل منه، ولماذا يجب أن يكون هناك أى اختلاف فى طبيعة المرأة؟ الإنسان يراوغ، ويصطنع الأسباب لنفسه، ويخرج من الأمور بأفضل طريقة يستطيعها. ولكن ماذا لو حدث، فى أمسية من الأمسيات، تحت ضوء المصباح فى الردهة، وعنّ لها أن تكشف أكثر مما يهتم بأن يعرف؟ لكنه يهتم بأن يعرف.

جنون، بالطبع؛ خيال ضال، أن يفكر بالزواج ممن تحيط بها شكوك ارتكاب جريمة قتل. ولكن ماذا لو كان قد التقى بها قبل الجريمتين؟ يفكر فى هذا، ثم يرفضه. لا بد أن جريس قبل القتل كانت مختلفة تماماً عن المرأة التى يعرفها الآن. فتاة صغيرة لم تتشكل بعد، فاترة، جاهلة، بلا طعم. منظر طبيعى منبسط خال من أى شىء.

قائلة، قائلة، يهمس لنفسه. إنها كلمة لها إغواء، ولها عبق، تقريباً. مثل الجاردينيا فى بيت النباتات الدافئ، متوهجة، لكنها أيضاً مستترة وخفية. يتخيل نفسه يتنفس هذه الكلمة وهو يجذب جريس ناحيته، ويطبق فمه على فمها. قائلة. يطبعها على عنقها كعلامة تجارية، كبطاقة الصنف.



**الفصل الثالث عشر**

**صندوق باندورا**

603



كان زوجي قد استتبطن نوعاً بارعاً من "الكشاف الروحي"<sup>(١)</sup> ... وقد كنت دائماً أرفض أن أضع يدي على لوحة هذا الكشاف، والتي تتحرك للناس تحت فيض من قوة خفية، وتكتب حرفاً بحرف رسائل وأسماء. ولكني وجدت نفسي وحدي ذات مرة، فوضعت يدي على اللوحة، وسألتها: "هل رفعت يدي بفعل روح من الأرواح؟" ولفت اللوحة وكتبت حروف كلمة "نعم" ...

قد تظن، كما ظننت أنا دائماً، أن كل ما في الأمر هو عملية ناتجة عن عقل لا غير، لكن عقلي لا بد أن يكون أكثر ذكاء مني بكثير، أنا صاحبتة، أن تكون لدى أية فكرة عما يمكن أن يكتب حرفاً بحرف، صفحات كاملة من أمور ذات علاقة ببعضها، وغالباً مبهمة، دون أن أعلم كلمة واحدة عنها،

---

(١) الكشاف الروحي spiritoscope: أحد مخترعات الكيميائي الأمريكي روبرت هير (١٧٨١-١٨٥٨)، اخترعه في محاولة لإثبات دجل المشعوذين الروحانيين الذين كانوا يجعلون المناضد تتمايل، وكان رأيه أن ذلك يحدث بمجهود عضلي منهم. ولكنه أثناء اختباره للجهاز تحول إلى الروحانية. والجهاز عبارة عن آلة ذات عجلة وأسلاك حساسة ولها لوحة توضع عليها اليد فتنتقل الذبذبات إلى قلم متصل بالسلك فيتحرك القلم نتيجة الذبذبات ويكتب على لوحة أخرى خطوطاً تفسر بأنها حروف. واعتبر هذا الجهاز مخصصاً لاكتشاف تجليات الروح، وما إذا كانت أصيلة أم دجلاً.



أو حول ما يمكن أن تكون حتى يقرأها لي مستر مودي،  
وبعد أن يتوقف الاتصال يمكن أن أعرف عن أى شيء كان  
يدور. وأختي، مسز تريل، وسيط قوى للغاية فى هذه  
الاتصالات، والتي تأتيها بلغات أجنبية. لكن الأرواح التي  
تأتيها كثيرًا ما تشتم، وتصفها بكلمات شديدة البذاءة ...  
والآن، لا تظن أنني مجنونة أو أن أرواحًا شريرة تتلبسنى.  
وأتمنى لكم جميعًا أن يملككم مثل هذا الجنون الرائع.

سوزانا مودي

رسالة إلى ريتشارك بنتلى، ١٨٥٨

أمامى .. يخفق ظل  
ليس ظلك، لكنه أشبه بك  
آه، يا إلهى، أكان من الممكن  
لساعة واحدة قصيرة، أن نرى  
الأرواح التي أحببناها، وأن يمكن أن يخبرونا  
ماذا حدث، وأين يسكنون!

ألفريد، لورد تيسون

*Maud, 1855*

شعرت بصدع فى عقلى  
كما لو كان رأسى ينشق  
حاولت أن أعيد جمعه إلى بعضه، قطعة بقطعة،  
لكن لم أستطع أن أجعل أجزائه تتناسب معاً.

إميلي ديكنسون، حوالى ١٨٦٠

ينتظرون في غرفة المكتبة بمنزل مسز كوينل، كل يجلس في مقعد ذي ظهر مستقيم، كل يلتفت، ليس بشكل شديد الوضوح، نحو الباب، المفتوح جزئياً. ستائر مسدلة تغلق المكان تماماً، من القطيفة الحمراء الداكنة المقلمة بالأسود، وكذا شراريب سوداء، إنها تذكر سايمون بالجنارات البروتستانتية، وأضيء مصباح كروي الشكل، في مركز المنضدة البلوط المستطيلة؛ وهم يجلسون جميعاً حولها صامتين، في حالة توقع، واحتشام، وتوجس، كهيئة محكمة قبل انعقاد المحاكمة.

ولكن مسز كوينل في حالة استرخاء، يداها مضمومتان بهدوء في حجرها؛ فهي تتوقع العجائب، ولكن مما لا شك فيه أنها لن تشعر بدهشة لهذه العجائب، مهما كانت. وهي توحى بحالة أشبه بالمرشدين الذين أصبحت مشاهدة شلالات نياجرا، على سبيل المثال، بالنسبة لهم أمراً مألوفاً لا يشعرهم بنشوة، ولكنهم يريدون الاستمتاع بمشاهدة الزائرين المبتدئين. وعلى وجه زوجة المحافظ تعبير التقوى والشفقة الذي يخفف منه حالة من الإذعان. أما المبجل فرينجر ففي وسعه أن يبدو كريماً ورقيقاً، وغير موافق في نفس الوقت، ثمّة وميض يتألق حول عينيه وكأنه يضع نظارة، رغم أنه لم يكن. ليديا، التي تجلس إلى يسار سايمون، ترتدى رداء من نوع لامع غائم بشكل ما، لون بنفسجي فاتح يداخله الأبيض، وقد قصت

فتحة الرقبة بحيث تكشف عن ترقوتيتها؛ ويفوح منها عبير ندى لزنيق الوادي. وهي تلوي منديلها بعصبية؛ لكنها، عندما تلتقي عينيها بعيني سايمون، تبتسم.

أما بالنسبة لسايمون، فهو يشعر أن وجهه مضبوط على نوع من الشك والسخرية، ولكنه وجه مزيف، فتحت هذا الوجه يشعر بلهفة كلهفة صبي المدرسة في يوم مهرجان. إنه لا يؤمن بشيء، ويتوقع الخدع، ويتوق لاكتشاف كيف تم أداؤها، ولكنه في نفس الوقت يتمنى أن يشاهد ما يدهشه. وهو يعلم أن هذه حالة من حالات العقل الخطرة، وأنه لابد أن يحافظ على موضوعيته.

ثمة دق على الباب، وينفتح الباب قليلاً، ويدخل د. جيروم دو بونت، وهو يقود جريس من يدها. لم تكن ترتدي قبعة، وشعرها المعقوص يلمع بلون محمر في ضوء المصباح. وتضع قلادة صغيرة من شريط أبيض حول رقبتها، وهو شيء لم يره عليها من قبل؛ وتبدو صغيرة السن بشكل مدهش. تسير بخطوات مترددة، كما لو كانت عمياء، لكن عينيها مفتوحتان على آخرهما، ومركزتان على دي بونت بذلك المظهر الذي يوحى بالهيبة والارتعاش والشحوب والصمت، المظهر الذي – يكتشف سايمون الآن – كان يتمنى أن يراها عليه دون جدوى.

يقول د. دو بونت: "أرى أنكم مجتمعون، واهتمامكم يسعدني، وأتمنى، لو سمحتم لي، أن أنال ثقمتكم أيضاً. يجب إبعاد المصباح من على المائدة، هل تسمحين لي يا مسز كوينل أن أنقل عليك؟ ويجب تخفيف إضاءته أيضاً من فضلك. ويجب إغلاق الباب."

تتهض مسز كوينل، وتثقل المصباح بصمت إلى منضدة صغيرة في الركن، ويغلق المبجل قرينجر الباب جيداً.

يقول د. دو پونت: "سوف تجلس جريس هنا". يجلسها وظهرها للستائر. "هل أنت مرتاحة تمامًا؟ حسناً. لا تخشى شيئاً، لا أحد هنا يتمنى أن يمالك بأذى. لقد شرحت لها أن كل ما يجب أن تفعله هو أن تستمع إلي، ثم تنام. هل تفهمين، يا جريس؟"

تومئ جريس. إنها جالسة بتصلب شديد، شفتاها مزمومتان بقوة، حدقتا عينيها تبدوان كبيرتين في الضوء الخافت. يداها تقبضان على ذراعى المقعد. لقد رأى سايمون مواقف كهذه في أجنحة المستشفيات — الذين يعانون من الألم، أو في انتظار إجراء عملية جراحية. الخوف الغريزي.

يقول د. دو پونت: "هذا إجراء علمي تمامًا". يوجه الحديث إلى المجتمعين، لا إلى جريس. "أرجو أن تبعدوا عن أذهانكم أية أفكار تعرفونها عن التنويم المغناطيسى، ومثل هذه الأشياء الاحتيالية. تعتبر منظومة الضفائر العصبية منظومة منطقية وصحيحة تمامًا، وقد تم إثباتها وتجريبها على يد الخبراء الأوروبيين إلى درجة تتخطى أى ظل للشك. وهى تختص بالاسترخاء المتعمد ثم إعادة وضع الأعصاب فى أماكنها، حتى يحدث التنويم العصبى. ونفس الشئ يمكن أن نراه فى الأسماك، عندما تضرب على طول الزعنفة الظهرية، وحتى فى القطط؛ رغم أن النتائج تكون فى الكائنات الأعلى أكثر تعقيداً بالطبع. إننى أرجوكم أن تتجنبوا أية حركات مفاجئة أو أصوات عالية، حيث يمكن أن يسبب أى شئ من ذلك صدمة عصبية، وقد يكون تأثيره على المريضة مدمراً.

أرجو أن تلتزموا بالصمت التام حتى تنام جريس، بعد ذلك يمكنكم أن تتحدثوا بأصوات خفيفة."

تحقق جريس في الباب المغلق كما لو كانت تفكر في الهرب. إنها في حالة توتر عالية حتى يمكن لسايمون أن يشعر بذبذباتها، مثل حبل مشدود. لم يرها من قبل في هذه الحالة من الرعب. ماذا قال دو پونت أو فعل لها قبل أن يدخلها هنا؟ يبدو الأمر وكأنه كان يهددها، تقريباً، ولكن عندما يتحدث إليها ترفع عينيها إليه بنظرة ثقة. فأياً كان ما تخشاه، فهو ليس دو پونت.

يخفف دو پونت ضوء المصباح. ويبدو الهواء في الغرفة متقللاً بدخان يكاد يظهر للعين. ملامح جريس الآن في الظل، ليس فيها شيء واضح إلا وميض عينيها.

يبدأ دو پونت إجراءه. في البداية يوحى بثقل، بنعاس؛ ثم يقول لجريس أن أوصالها تطفو، تعوم، وأنها تغوص أعمق، أعمق، أعمق، وكأنما في المياه. صوته له رتابة مسكنة. يسقط جفنا جريس؛ وتتنفس بعمق وانتظام.

يسألها دو پونت: "هل أنت نائمة، يا جريس؟"

تقول: "نعم"، بصوت بطيء وفاتر، لكنه مسموع بوضوح.

"يمكنك أن تسمعيني."

"نعم"

"لا يمكنك أن تسمعي غيري؟ حسناً. عندما تستيقظين، لن تتذكرى أى شيء حدث هنا. والآن، غوصي أكثر". ويتوقف قليلاً. "من فضلك ارفعي ذراعك اليمنى."

بطء يرتفع الذراع كما لو كان مشدوداً بحبل، حتى يتوقف مستقيماً فى الهواء. يقول دو پونت: "إن ذراعك قضيب حديدى. لا أحد يستطيع ثنيه". ويلتفت إليهم، "هل يحب أحد أن يجرب؟" يشعر سايمون بإغراء، لكنه يقرر عدم المخاطرة؛ فهو عند هذه النقطة لا يريد أن يقتنع، ولا أن يشعر بخيبة أمل. يسأل دو پونت: "لا؟" ثم يقول: "إذن اسمحوا لى". ويضع يديه على ذراع جريس الممدود، وينحنى، قائلاً: "إننى أستخدم كل قوتي". الذراع لا يئنثى. "حسناً، يمكنك خفض ذراعك."

"إن عينيها مفتوحتان"، تقول ذلك ليديا، محذرة؛ وأكد، كان هناك نصفاً دائرتين بيضاوين يظهران تحت الجفنين.

يقول دو پونت: "هذا طبيعى، ولكن لا أهمية له. فى هذه الحالة يبدو النائم قادراً على تبيين أشياء معينة، حتى مع إغلاق العينين. إنها من خصائص النظام العصبى التى لا بد تتعلق بعضو حس لم يستطع الإنسان بعد اكتشافه أو قياس قدراته الكاملة. ولكن دعونا نستمر."

يميل فوق جريس وكأنما يستمع إلى قلبها. ثم يخرج من جيب خفى مربعاً من النسيج – إشارب حريمى عادى، بلون رمادى فاتح – ويلقيه برقة فوق رأسها، فينزل متموجاً ثم يستقر. والآن ليس أمامهم إلا رأس، ولا يظهر من خلف الإشارب إلا أقل خطوط لملمح الوجه. ولا يمكن تجنب الإيحاء بالكفن.

يفكر سايمون أن الأمر يبدو مسرحياً زيادة عن اللازم، بهرجة زائدة توحى بقاعات المحاضرات فى المدن الصغيرة منذ خمسة عشر عاماً، بجمهورها الساذج من بائعى الدكاكين، والفلاحين الذين لا يتكلمون إلا قليلاً، وزوجاتهم الكئيبات، والدجالين الذين يستدرجون الفقراء بكلام فارغ مبهم ويدجلون عليهم بنصائح طبية كطريقة لسلب جيوبهم. يجاهد سايمون ليشعر بنوع من السخرية، ومع ذلك، يشعر بخدر يتسلل إلى قفاه.

تهمس ليديا: "إنها تبدو ... غريبة .. غريبة جداً"

يقول المبجل قرينجر بصوته الاقتباسى: "أى أمل فى الحصول على إجابة أو خلاص؟ خلف الخمار، خلف الخمار". لا يعرف سايمون ما إذا كان يريد أن يمزح.

تقول زوجة المحافظ: "معذرة؟، أه، نعم — مستر تتيسون العزيز".  
يقول د. دو پونت بصوت خافت: "إنه يساعد على التركيز، فالمشهد الداخلى يكون أكثر حدة وقوة عندما يتم إخفاؤه عن المشهد الخارجى. والآن يا د. چوردان، يمكن أن نساغر إلى الماضى بسلام. ماذا تود أن أسألها؟"

يتحير سايمون من أين يبدأ. "اسألها عن منزل كينير،"

يسأل دو پونت: "أى مكان فيه؟ لابد من التحديد".

يقول سايمون: "الفراندة"، فهو يؤمن ببداية هادئة.

يقول دو پونت: "جريس، أنت الآن فى الفراندة، فى منزل مستر كينير. ماذا ترين هناك؟"



تقول جريس: "أرى ورودًا". صوتها ثقيل، ويبدو رطبًا بشكل ما. إنه غروب الشمس، أنا سعيدة للغاية. وأريد البقاء هنا."

يقول سايمون: "اسألها أن تقوم الآن وتسير إلى داخل البيت. قل لها أن تذهب نحو الباب المسحور في الصلاة الأمامية، المؤدى إلى القبو." يقول دي پونت: "جريس، عليك أن ..."

فجأة يسمعون طرقة عالية واحدة، وكأن هناك انفجار صغير. جاء الصوت من المنضدة، أم كانت من الباب؟ تند عن ليديا صرخة خافتة، وتتشبث بيد سايمون؛ ربما يكون من الغلظة أن يسحب يده، ولذا فهو لا يفعل، خاصة وهي ترتعش كورقة شجر.

تقول مسز كوينل: "هش!"، بصوت هامس وحاد، "إن لدينا زائرًا!" تصرخ زوجة المحافظ بنعومة: "ويليام! أعرف أنه عزيزى! صغيرى الحبيب!"

يقول دو پونت متوترًا: "أرجوك، هذه ليست جلسة تحضير أرواح!"

تحت الخمار، تتحرك جريس بشكل قلق. وتتمخط زوجة المحافظ فى منديلها. ويختلس سايمون نظرة إلى المبجل فرينجر. فى هذه العتمة من الصعب أن تتعرف على تعبيراته؛ ويبدو أن على وجهه ابتسامة متألّمة، مثل طفل يعانى من وجود غازات فى بطنه.

تقول ليديا: "إننى خائفة، ارفعوا ضوء المصباح!"

يهمس سايمون: "ليس بعد"، ويربت على يدها.

ثمة ثلاث خطبات حادة أخرى، كما لو كان شخص يدق على الباب بإلحاح طالباً الدخول. يقول دو پونت: "هذا غير معقول، من فضلك اطلبى منهم الذهاب."

تقول مسز كوينل: "سأحاول، ولكن اليوم هو الخميس. وهم معتادون على المجيء في أيام الخميس". تحنى رأسها وتصفق بيديها. بعد لحظة يسمعون ضربات قوية متقطعة، كما لو كانت ملء يد من الحصوات تتدحرج مصلصلة من مزراب. تقول: "ها هو، أظن أن هذا كان كفيلاً بالأمر."

يفكر سايمون أنه لا بد أن يكون هناك تحالف ما - شريك أو أدوات مجهزة خارج الباب، وربما تحت المائدة. إنه منزل مسز كوينل على أية حال. من يعلم كيف جهزته بما يلزم؟ ولكن لا شيء تحت المائدة إلا أقدامهم. كيف يتم كل هذا؟ بمجرد جلوسه هنا يشعر بالسخف، مراهن جاهل، ساذج. ولكن لا يمكنه التراجع الآن.

"أشكرك". يقول دو پونت، ثم يلتفت إلى سايمون: "دكتور، أرجو المعذرة لهذه المقاطعة، ودعنا نستكمل."

يزداد إحساس سايمون بيد ليديا في يده. إنها يد صغيرة، ودافئة للغاية. في الواقع أن الغرفة كلها مغلقة أكثر من اللازم ولا تبعث على الراحة. ويود لو انتزع نفسه، لكن ليديا تتشبث به بقبضة من حديد. ويأمل ألا يراها أحد. يشعر بتتميل في ذراعه؛ ويعقد قدميه. ويمر بذهنه فجأة طيف لساقى راشيل همفري؛ عاريتان إلا من الجورب، ويداه فوقهما، تمسكان بها لتهدأ وهي تقاوم. تقاوم عامدة، وهي تراقبه من خلال رموش عينيها شبه المغلقتين لترى تأثيرها عليه. تتلوى مثل سمك الأنقليس الماكر.

تترجى كالأسيرة. بشرة زلقة من العرق، بشرتها أو بشرته، خصلات شعرها المبللة على وجهها، تزعجه وهو يقبلها، كل ليلة. سجينه، إن بشرتها حيث لعقها تلمع مثل الساتان، لا يمكن أن يستمر هذا.

يقول: "اسألها، إذا ما كان لها أية علاقة مع جيمس مكدرموت". لم يكن ينوى أن يضع هذا السؤال؛ بالتأكيد ليس في البداية، ولم يقصد أبدًا أن يسأله بهذا الوضوح والمباشرة. ولكن أليس هذا — كما يتبين الآن — هو أشد ما يرغب في معرفته؟

يكرر دو بونت السؤال على جريس في صوت ثابت. ثمة وقفة؛ ثم تضحك جريس. أو يضحك شخص ما؛ لا يبدو الصوت صوت جريس. "علاقة، يا دكتور؟ ماذا تقصد؟" الصوت حاد، متذبذب، مائي؛ ولكنه واضح وحاضر، ومتيقظ تمامًا. "الواقع يا دكتور، أنك منافق كبير! تريد أن تعرف إذا ما كنت قبلته، إذا كنت نمت معه. إذا كنت عشيقته! أهذا هو ما تريد؟"

"نعم"، يقول سايمون ذلك وقد شعر بصدمة، ولكنه يجب أن يحاول عدم إظهار ذلك. لقد كان ينتظر سلسلة من كلمات أحادية المقاطع، مجرد نعم أو لا، تنتزع منها، وهي في سباتها وغيوبتها؛ سلسلة من الاستجابات المفروضة تحت النعاس الإجباري على طلبات محددة منه. وليس مثل هذه السخرية الفجة. هذا الصوت لا يمكن أن يكون صوت جريس، إلا أنه إذا لم يكن صوتها، فصوت من إذن؟

"لو أنى فعلت مثلما تود أن تفعل مع هذه العاهرة الصغيرة التى تقبض على يدك؟" ثمة ضحكة خافتة جافة.

نشهق ليديا، وتسحب يدها كما لو كانت ملسوعة. تضحك جريس ثانية. "أتحب أن تعرف هذا، إذن فسأخبرك. نعم، كنت ألقاه في الخارج،

فى الفناء، بثوب النوم، فى ضوء القمر. كنت أتمسح به، وأتركه يقبلنى، ويلمسنى أيضاً، فى كل مكان يا دكتور، فى نفس الأماكن التى تود أن تلمسنى فيها، لأننى أعرف دائماً، أعرف فىم تفكر عندما تجلس فى تلك الغرفة الصغيرة المزدهمة بلوازم الخياطة معى. ولكن هذا هو كل شىء، يا دكتور. هذا كل ما سمحت له به. لقد جعلته طوع إرادتى، وكذلك مستر كينير أيضاً. جعلت الاثنين يرقصان على أنغامى!"

يسأل سايمون: "أسألها لماذا". إنه لا يستطيع أن يفهم ماذا يحدث، لكنها يمكن أن تكون آخر فرصة للفهم. لابد أن يحتفظ بوضوح تفكيره، ويستمر فى خط استجواب مباشر منتظم. ويصل صوته إلى سمعه كنفيق خشن.

تقول جريس: "يمكن أن أشهق هكذا"، وتتطق بشهقة جنسية شبيقة. "ويمكن أن أتلوى وأتمعج. وبعد ذلك سوف يقول أنه سيفعل أى شىء". وتضحك ضحكة مجلجلة. "ولكن لماذا؟ أه يا دكتور، دائماً تسأل لماذا. وتدس أنفك فى كل شىء، وليس فقط أنفك. إنك رجل شديد الفضول! الفضول قتل القط، كما تعلم يا دكتور. يجب أن تحترس من أجل هذا الفأر الصغير الجالس بجوارك؛ ومن أجل أعضائها الرقيقة الخفية أيضاً!"

ولدهشة سايمون، يضحك المبجل ثرينجر ضحكة خافتة، أو ربما هو يسعل.

تقول زوجة المأمور: "هذه إساءة بالغة، لن أجلس هنا لأستمع إلى مثل هذه البذاءة! ليديا، تعالى معى!" وتهم بالقيام، وتخشخش تتورتها.

يقول دو بونت: "أرجوك، تحملى معى. لابد أن يكون التواضع فى المرتبة الثانية بعد مصلحة العلم."

ويرى سايمون أن الموضوع كله يخرج عن السيطرة. ويجب أن يتمسك بقدرته على المبادرة، أو على الأقل يحاول أن يفعل ذلك؛ يجب أن يمنع جريس من قراءة ما في عقله. لقد سبق أن سمع عن القوى الاستشفافية لمن هم تحت التنويم المغناطيسي، ولكنه لم يصدق أيًا من ذلك أبدًا. "اسألها ... " يقول بصرامة " ... إذا كانت في قبو منزل مستر كينير، يوم السبت، ٢٣ يوليو ١٨٤٣".

يقول دو پونت: "القبو، لا بد أنك تذكرين القبو يا جريس، عودي في الزمن، انزلي في المكان ..."

تقول جريس بنفس صوتها الجديد الرفيع: "نعم، عن طريق الصلاة، أرفع الباب السحري، أنزل على سلام القبو. البراميل، الويسكي، الخضر في الصناديق مليئة بالرمل. هناك على الأرض. نعم، أنا في القبو." "اسألها إذا كانت رأت نانسي هناك."

"أوه، نعم، رأيتها". صمت.. "كما أستطيع أن أراك يا دكتور. من وراء الخمار. وأستطيع أن أسمعك أيضًا."

تبدو الدهشة على دو پونت. "هذا غير طبيعي، ولكن ليس غير معروف."

يسأل سايمون: "هل كانت حية؟ أكانت لا تزال حية عندما رأيتها؟"

يصدر الصوت ضحكة مكتومة: "كانت نصف حية، أو نصف ميتة ... كانت بحاجة ... " ضحكة خافتة مضطربة – "لإنهاء تعاستها."

يصدر صوت شهيق عميق حاد من المبجل قرينجر. ويشعر  
سايمون بدقات قلبه كالمطرقة. يقول: "هل ساعدت في خنقها؟"

"كان منديلي هو الذى خنقها". ضحكة مرحة ومجلجلة. "المطبوع  
بذلك الرسم الجميل!"

يتمتم قرينجر: "يا للعار!" لا بد أنه يفكر فى كل الصلوات التى  
أنفقها عليها وكل الحبر والورق أيضاً. والالتماسات والعرائض التى كتبها،  
الإيمان الذى كان يملؤه من ناحيتها.

"كان عاراً أن أفقد هذا المنديل؛ كان معى وقتاً طويلاً. كان منديل  
أمى. وكان يجب أن أخذه من رقبة نانسى. لكن جيمس لم يدعنى أخذه،  
ولا قرطها الذهبى أيضاً. فقد كان هناك دم عليه، ولكن كان يمكن غسله."

"أنت قتلتها"، تقول ليديا لاهثة.. "كنت أظن ذلك دائماً". صوتها —  
إن دل على شيء — كان يدل على الإعجاب.

"المنديل قتلها. الأيدي التى أمسكت به". يقول الصوت.. "كان  
يجب أن تموت. لأن أجرة الخطيئة هى موت. وهذه المرة يموت السيد  
أيضاً، على سبيل التغيير. من يشارك فى الإثم يشارك فى العقاب!"

تزوم زوجة المحافظ: "آه يا جريس، كنت أظنك أفضل من ذلك!  
كل هذه السنوات كنت تخذعيننا!"

ويرد الصوت جذلان: "توقفى عن هذا الهراء، أنتم خدعتم  
أنفسكم! أنا لست جريس! جريس لا تعلم شيئاً عن ذلك!"

لا ينبس أحد في الغرفة ببنت شفة. الصوت يههم الآن، بنغمة عالية حادة، مثل طنين النحل: "يا صخر الدهر، افتح لي شقاً بداخلك، دعني أخبئ نفسي فيك؛ دع الماء والدم، ..."

يقول سايمون: "أنت لست جريس". رغم دفء الغرفة، يشعر بالبرد يسرى في كيانه كله. "إذا لم تكوني جريس، فمن تكونين؟"  
"افتح لي شقاً بداخلك، ... دعني أخبئ نفسي فيك ..."  
يقول دو پونت: "يجب أن تجيبي، إنني أمرك!"

تصدر سلسلة أخرى من الطرقات، ثقيلة، موقعة، كما لو كان شخص يرتدى قبقاباً ويرقص على المنضدة. ثم همس: "لا يمكنك أن تأمر. يجب أن تخمن!"

تقول مسز كوينل: "أنا أعرف أنك روح، إن الأرواح قادرة على الكلام من خلال الآخرين في جلسات تحضير الأرواح. إنها تستخدم أعضاءنا المادية. هذه الروح تتكلم من خلال جريس. ولكن الأرواح تكذب أحياناً، كما تعلمون."

يقول الصوت: "أنا لا أكذب! أنا فوق الكذب! أنا لم أعد بحاجة إلى الكذب!"

تقول مسز كوينل: "لا يمكن أن تصدقوهم دائماً"، وكأنها تتحدث عن طفل أو خادم. "ربما يكون جيمس مكرموت، جاء هنا ليشهر بسمعة جريس. ليلصق التهمة بها. كان هذا هو آخر ما فعله في حياته، والذين يموتون ورغبة الانتقام في قلوبهم غالباً ما يحبسون في المستوى الأرضي."

يقول د. دو پونت: "من فضلك يا مسز كوينل، إنها ليست روحًا. إن ما نشهده هنا لا بد أن يكون ظاهرة طبيعية". ويبدو في صوته بعض اليأس.

يقول الصوت: "ليس جيمس، أيتها العجوز المدلسة!"

نقول مسز كوينل: إذن، نانسي!، تقول هذا ولا يبدو عليها أنها تأثرت بالإهانة على الإطلاق. "إنهم غالبًا يتصفون بالوقاحة، ويشتمون ويتلفظون بالبذاءات. بعضهم غاضب — تلك الأرواح حبيسة الأرض، أرواح الذين لا يستطيعون احتمال كونهم أمواتًا."

"ليس نانسي، أيتها الحمقاء الغبية! نانسي لا تستطيع أن تقول شيئًا، لا تستطيع أن تقول كلمة واحدة، ليس ورقبتها في هذه الحالة. يا لها من رقبة جميلة .. كانت يومًا! ولكن نانسي لم تعد غاضبة، إنها لا تهتم، وهي صديقتي. إنها تفهم الآن، وتريد أن تشارك في أشياء. هيا يا دكتور"، يقول الصوت، بنوع من التملق الآن. "إنك تحب الألباز. أنت تعرف الإجابة. قلت لك إنه كان 'منديلي'، المنديل الذي تركته لجريس، عندما عندما ...." ثم تبدأ تغنى ثانية: أوه لا، إنها الحقيقة التي كانت تشرق دائمًا في عينيها، ولهذا أحببت ماري..."

"ليس ماري"، يقول سايمون .. "ليس ماري هويتتي."

هناك تصفيق حاد، يبدو قادمًا من السقف. "أنا قلت لجيمس أن يفعل ذلك. أنا شجعتة. أنا كنت هناك طوال الوقت!"

يسأل دو پونت: "هناك .. أين؟"



"هنا، مع جريس، حيث أنا الآن. لقد كان المكان باردًا جدًا، وأنا راقدة على الأرض، وكنت أشعر بوحدة شديدة؛ وبحاجة لأن أشعر بالدفء. لكن جريس لا تعرف، إنها لم تعرف أبدًا!". ولم يعد الصوت يمزح. "كادوا يشنقونها، ولو حدث ذلك لكان خطأ. إنها لا تعرف شيئًا! أنا فقط استعرت ملابسها لبعض الوقت."

يقول سايمون: "ملبسها؟"

"ملبسها الأرضي .. أو قشرتها الأرضية. رداءها اللحمي. لقد نسيت أن تفتح النافذة، فلم أستطع الخروج! ولكني ما كنت لأوذيتها. لا يجب أن تخبرها!" والصوت الرفيع الآن في حالة توصل.

يسأل سايمون: "ولم لا؟"

"أنت تعرف لم لا يا دكتور چوردان. هل تريد أن تراها وقد عادت إلى المصحة العقلية؟ كنت أحب المكان هناك في البداية، يمكنني أن أتحدث بصوت عال هناك. أستطيع أن أضحك. وأستطيع أن أقول ما حدث. ولكن لم يستمع لي أحد". وصوت تنهد خفيف، رفيع. "لم يسمعني أحد."

يقول سايمون: "جريس، كفى خداعًا!"

يقول الصوت، بشكل أكثر ترددًا: "أنا لست جريس."

يسأل سايمون: "أهو أنت حقًا؟، هل تقولين الحقيقة؟ لا تخشى

شيئًا."

ينتحب الصوت: "أترى، أنت مثلهم، لا تستمع لى، لا تصدقنى، إنكم تريدون الأمور على طريقكم، إنكم لن تسمعوا..." ويتخافت الصوت حتى يختفى، ويسود الصمت.

تقول مسز كوينل: "لقد ذهبت، يمكنك أن تعرف دائماً متى يعودون إلى دنياهم. يمكن أن تشعر به فى الهواء، إنها الذبذبات الكهربائية."

تمضى لحظة طويلة دون أن يقول أحد شيئاً. ثم يتحرك د. دو پونت. ينحنى على جريس قائلاً: "جريس، ... جريس ماركس، هل يمكنك سماعى؟" ويضع يده على كتفها.

ثمة لحظة صمت طويلة أخرى، يرتفع خلالها صوت تنفس جريس حتى يصبح مسموعاً لهم جميعاً، وهو الآن غير منتظم، وكأنما هو تنفس فى نوم مزعج. أخيراً تقول: "نعم". إنه الآن صوتها العادى.

يقول دو پونت: "سوف أوقفك الآن"، يرفع الخمار برقة من فوق رأسها، ويضعه جانباً. وجهها ساكن وهادئ. "إنك تطفين لأعلى، أعلى، أعلى، تخرجين من الأعماق. لن تتذكرى شيئاً مما حدث هنا. عندما أفرقع أصابعى، سوف تستيقظين". يذهب إلى المصباح، ويزيد الإضاءة، ثم يعود ويضع يده قريباً من رأس جريس. ويفرقع بإصبعيه.

تتحرك جريس، تفتح عينيها، تنظر حوالىها مندهشة، تبتسم لهم. ابتسامة هادئة، لم تعد متوترة وخائفة. ابتسامة طفل مطيع أدى واجباته. تقول: "لا بد أننى كنت نائمة."

يسأل د. دو پونت بلهفة: "هل تتذكرين أى شىء؟ أى شىء  
مما حدث قبل لحظة؟"

تقول جريس: "لا، كنت نائمة. ولكن لا بد أننى كنت أحلم. لقد  
حلمت بأمى. كانت تطفو فى البحر. وكانت فى حالة سلام."

يشعر سايمون بأنه تحرر من عبء؛ كذلك دو پونت، كما يبدو  
من منظره، يأخذ يدها، ويساعدها للقيام من على المقعد. "ربما تشعرين  
ببعض الإعياء أو الدوخة" يقول لها ذلك برقة، "هذا كثيراً ما يحدث. مسز  
كوينل. هل يمكنك أن تأمرى بأن توضع فى غرفة نوم حيث يمكن أن  
ترقد؟"

تترك مسز كوينل الغرفة مع جريس، وهى تحيطها بذراعها،  
كما لو كانت عاجزة عن السير بمفردها. لكنها تسير بخفة كافية الآن،  
والظاهر أنها سعيدة.

يظل الرجال في المكتبة. ويشعر سايمون بالسعادة لأنه جالس؛ لا شيء يتمناه في هذه اللحظة سوى كأس مملوءة من البراندى القوي، ليثبت أعصابه، ولكن نظرًا للصحبة الحاضرة، فليس لديه أمل كبير في ذلك. يشعر بأن رأسه خفيف، ويشك في أن الحمى تعاوده.

يبدأ دو پونت قائلاً: "أيها السادة، إننى فى حيرة شديدة. ولم يحدث أبداً أن التقيت بمثل هذه التجربة من قبل. النتائج غير متوقعة على الإطلاق. فالقاعدة العامة أن الشخص المنوم يظل تحت سيطرة الممارس". يبدو أنه مصدوم للغاية.

يقول المبجل فرينجر: "لو حدث ذلك منذ مائتى عام لما شعروا بأى حيرة، وإنما كانوا سيعرفون أنها حالة واضحة من التلبس. فربما وجدوا أن مارى هويتى قد سكنت جسد جريس ماركس، وبهذا تكون هى المسئولة عن التحريض على ارتكاب الجريمة، وعن المساعدة فى خنق نانسى مونجومرى. وربما يتخذون إجراءاتهم لطرد الروح الشريرة."

يقول سايمون: "ولكننا فى القرن التاسع عشر، ومن الممكن أن تكون حالة تخص الأمراض العصبية". كان يريد أن يقول "لا بد أنها"، ولكنه لا يريد أن يناقض المبجل فرينجر بشكل شديد الفظاظة. كما أنه لا يزال يشعر بريبة شديدة، وغير متأكد من المرجعيات العلمية التى يستند إليها.

يقول دو بونت: "كانت هناك حالات من هذا النوع، ومنها حالة ترجع إلى ١٨١٦، وهي حالة ماري رينولدز، من نيويورك، التي وصف د. ميتشيل من نيويورك تتأوب الحالات الغريبة عليها؛ هل تعرف هذه الحالة يا د. جوردان؟ لا؟ منذ ذلك الوقت، كتب واكل، الصحفي بجريدة لانسيت، عن الظاهرة كثيراً؛ وهو يسميها "الوعي المزدوج"، رغم أنه يرفض على نحو قاطع إمكانية ما يسمى بالشخصية الثانوية من خلال التنويم العصبى، فهناك فرصة كبيرة للتأثير على الشخص الواقع تحت التنويم من قبل الممارس. وقد كان دائماً خصماً لدوداً للتنويم المغناطيسى والوسائل ذات الصلة، فهو محافظ من هذه الناحية."

يقول سايمون: "يصف بويسجير شيئاً من هذا القبيل، على ما أذكر. ربما تكون حالة مما يعرف بالازواجية - والمريض، عندما يكون فى نوبة المشى أثناء النوم، يظهر شخصية مختلفة تماماً عنه وهو مستيقظ، والشخصيتان لا تعلم إحداهما عن الأخرى شيئاً."

يقول فرينجر: "يا سادة، إنه لمن الصعب أن نصدق كل هذا، ولكن أشياء أكثر غرابة من ذلك حدثت بالفعل."

يقول دو بونت: "أحياناً تنتج الطبيعة رأسين فى جسد واحد، فلماذا لا تنتج شخصين، بنفس الطريقة، فى عقل واحد؟ ربما تكون هناك أمثلة، ليس بالنسبة لحالات من الوعي المتبادل، كما ادعى بويسجير، ولكن لشخصيتين متميزتين قد تتعايشان معاً فى نفس الجسد ولكن لكل منهما سلسلة من الذكريات مختلفة تماماً، فيصبحان، من كل النواحي العملية، فردين منفصلين. فإذا كنتم تقبلون ذلك - كنقطة نقاش - فنحن ما نتذكر."

يقول سايمون: "وربما أيضاً - على الأرجح - نحن ما ننسى."

يقول المبجل "فرينجر: فإذا كنت على حق، فماذا يحدث للروح؟ لا يمكن أن نكون مجرد قطع متلاصقة! هذه فكرة مروعة، ولو كانت صحيحة فسوف تجعل من كل أفكار المسؤولية الأخلاقية أمراً مثيراً للسخرية، والواقع من فكرة الأخلاق نفسها، بالشكل الذي نحددها به الآن."

يقول سايمون: "الصوت الآخر، أيًا كان تصنيفه، كان واضحاً أنه يدل على العنف."

يقول المبجل فرينجر بجفاف: "لكن ليس بدون منطق معين، وقدرة على الرؤية في الظلام."

يتذكر سايمون يديدا الدافئة، ويحمر وجهه رغماً عنه. وفي هذه اللحظة يتمنى أن يكون فرينجر في قاع البحر.

يستمر دو پونت: "إذا كانتا شخصيتين، فلماذا لا نقول روحين؟ أعني إذا كان لابد أن نتكلم عن الروح في هذا الموضوع. أو ثلاثة أرواح وأشخاص. فيما يتعلق بهذا الأمر، فكروا إذن في الثلاثة المقدسة."

يقول المبجل فرينجر، متجاهلاً هذا التحدي العقائدي، "د. چوردان، ماذا ستقول عن هذا، في تقريرك؟ من المؤكد أن إجراءات هذه الأمسية لا يمكن وصفها بأنها قديمة من وجهة نظر طبية."

يقول سايمون: "لابد أن أحاول أن أفكر في وضعي باحتراس شديد، رغم أنك ترى أنه إذا كانت فرضية د. دو پونت مقبولة، فإن جريس ماركس تكون بريئة بالفعل."

يقول المبجل فرينجر: "إن التسليم بمثل هذه الإمكانية سوف تتطلب خطوة إيمانية قوية، وهي خطوة أنا نفسي سوف أصلي لكي تكون

لدى القوة لاتخاذها، فقد كنت دائماً أعتقد أن جريس بريئة؛ أو كنت أتمنى ذلك على الأصح، رغم أنني يجب أن أعترف بأننى صُدمت إلى حد ما. ولكن إذا كان ما شهدناه هنا هو ظاهرة طبيعية، فمن يمكننا أن نسأله عنها؟ إن الظواهر الطبيعية كلها فى الأساس ترجع إلى الله، ولا بد أن له حكمته وأسبابه، مهما كانت هذه الحكمة والأسباب تبدو خفية وغامضة فى عيون البشر الفانين."

يسير سايمون عائداً إلى البيت وحده. الليلة صافية ودافئة، وينيرها قمر يكاد يكتمل، ولكنه محبوس خلف سحابة من الضباب؛ وينتشر فى الهواء رائحة حشائش الحصاد والسماد الحيوانى، سماء الجياد، مع رائحة خفيفة من الكلاب.

طوال الأمسية احتفظ بقدر معقول ظاهرياً من التحكم فى النفس، لكنه الآن يشعر بعقله مثل أبو فروة المشوى، أو مثل حيوان على النار. عواء صامت يتردد فى داخله؛ عاطفة مشوشة ومحمومة، تعثر، اندفاع للأمام والخلف. ماذا حدث فى غرفة المكتبة؟ هل كانت جريس حقاً فى نوبة نوم، أم كانت تلعب وتمثل وتضحك فى كمها؟ إنه يعرف ما رآه وما سمعه، ولكن ربما عرض عليه وهم لا يستطيع أن يثبت أنه وهم.

إذا وصف ما شهدته فى تقريره، وإذا وجد التقرير طريقاً إلى أى لجنة موكولة بالنظر فى التماس من أجل جريس، فهو يعلم أن مثل هذا التقرير سوف يسحق أية فرص للنجاح. فممثلو العدالة فى هذه اللجنة، ومن على شاكرتهم ممن يقرأون مثل هذه الالتماسات؛ لديهم رأس صعبة المراس، رجال عمليون، يطلبون أدلة مادية. وإذا كان لمثل هذا التقرير أن يعرض على الرأى العام وكنوع من التسجيل، وتم تداوله على نطاق

واسع، سوف يصبح مصدر ضحك فوري، خاصة بين الأعضاء الراسخين في مهنة الطب. وسوف تكون هذه هي نهاية خطته لبناء مصحة عقلية، فمن سوف يساهم في مثل هذه المؤسسة، وهو يعلم أنها ستدار على يد شخص مهتر العقل مؤمن بالأصوات الروحية الغامضة؟

لا يمكن بأى حال أن يكتب التقرير الذى يريده فرينجر دون أن يحنث بقسمه الطبى. إن أسلم الطرق ستكون أن لا يكتب شيئاً على الإطلاق، ولكن فرينجر لن يتركه بهذه السهولة. ومع ذلك، فالحقيقة هي أنه لا يستطيع أن يقرر أى شىء بثقة مع قول الحقيقة فى نفس الوقت، لأن الحقيقة تغويه. أو الحق أن جريس نفسها هي التي تغويه. إنها تنزلق أمامه، على بعد قبضة منه، تدير رأسها لترى ما إذا كان لا يزال يتابع السير خلفها.

يصرفها عن رأسه بفضاظة، ويتحول للتفكير فى راشيل. فهي على الأقل شىء يمكن أن يجده، يمكن أن يمسه. لن تنزلق من بين أصابعه.

البيت غارق فى الظلام؛ لا بد أن راشيل نائمة. وهو لا يرغب فى رؤيتها، ولا يشعر برغبة فيها هذا المساء — على العكس تماماً؛ التفكير فيها، فى توترها وجسدها بلون العظام، رائحة الكافور والبنفسج الداوى التى تضعها، يملؤه ببعض الغثيان؛ لكنه يعلم أن ذلك كله سوف يتغير بمجرد أن يخطو على العتبة. يبدأ فى صعود السلالم على أطراف أصابعه، بنية تجنبها. ثم يستدير إلى الخلف، متجهاً إلى غرفتها، يهزها بخشونة ليوقظها. الليلة سوف يضربها، كما توسلت إليه أن يفعل؛ إنه لم يفعل ذلك أبداً من قبل، إنه شىء جديد عليه. إنه يريد أن يعاقبها على إدمانه لها.



يريد أن يجعلها تبكى؛ ولكن ليس بصوت عال جداً، وإلا فستسمعها دوراً، وتذيع الفضيحة. من العجيب أنها لم تسمعها من قبل؛ فقد أصبحا أقل حذراً بشكل متزايد.

يعلم أنه يصل إلى نهاية العرض المسرحي؛ نهاية ما يمكن أن تقدمه راشيل؛ نهايتها. ولكن ما الذى سوف يحدث قبل النهاية؟ والنهاية نفسها — أى شكل ستتخذه؟ لابد أن يكون هناك نوع من الخاتمة، نهاية ما. لا يستطيع أن يفكر. ربما، الليلة، يجب أن يمتنع.

يفتح الباب بمفتاحه، يفتحه بهدوء بقدر ما يستطيع. إنها هناك؛ بالداخل مباشرة؛ تنتظره فى الصالة، فى الظلام، فى ثوبها الفضفاض، الذى يومض قليلاً فى ضوء القمر. تلوح بذراعيها وتلقيهما حوله وتجذبه إلى الداخل، وهى تحتضنه. جسدها يرتعش. ينتابه شعور ملح بالرغبة فى دفعها بعيداً عنه، كما لو كانت شبكة عنكبوت على وجهه، أو خيوطاً منثورة متشابكة من الجيلي. لكنه بدلاً من كل هذا يقبلها. وجهها مبلل؛ لقد كانت تبكى. إنها تبكى الآن.

يهمهم: "هش"، وهو يربت على شعرها. "كفى، يا راشيل". هذا هو ما كان يتمنى أن تفعله جريس — هذا الارتعاش والالتصاق، لقد تصور هذا كثيراً جداً، على الرغم من أن تصوراته — هذا ما يكتشفه الآن — كانت تتسم بطريقة مسرحية مريبة. هذه المشاهد كانت دائماً واضحة بمهارة، الإيماءات — لقد ضمنها — تواقعة ورائعة، مع نوع من الارتعاش المترف، كما فى مشاهد الموت فى الباليه. هذا الأسى الذائب أقل جاذبية بكثير إذ يجد نفسه الآن فى الواقع مضطراً لمجاهدته عن قرب وبلحمه

وشحمه. مسح العينين الشبيهتين بعيني الظبي شيء، ومسح الأنف الشبيه  
بأنف الظبي شيء آخر تمامًا. يبحث عن منديل جيبه.

"إنه عائد"، تقول راشيل ذلك في همس يقطع القلب. "لقد وصلتني  
رسالة منه". وللحظة يجد سايمون أن ليس لديه أية فكرة عما نتحدث.  
ولكن بالطبع إنه الميجور. لقد شحنه سايمون، في خياله، إلى أغوار بيت  
من بيوت الفساد أو ما شابه، ثم نسيه.

تتهد قائلة: "أوه، ماذا سيحدث لنا؟" ولا تقل ميلودرامية التعبير  
مما يحمله من عاطفة، على الأقل بالنسبة لها.

يهمس سايمون: "متى؟"

تشج: "لقد كتب لي رسالة، يقول أنني لا بد أن أسامحه. يقول أنه  
قد انصلح حاله — ويريد أن نبدأ حياة جديدة — هذا ما يقوله دائماً. والآن  
سأفقدك — هذا ما لا أحتمله!" يهتز كتفاهما، ويزداد تشنج ذراعيها  
وإحكامهما حوله.

يسأل سايمون مرة أخرى: "متى سيأتي؟" هذا المشهد اعتاد أن  
يتخيله، بوخز خوف ممتع — هو في حالة جنس مع راشيل — والميجور  
يظهر عند الباب، وهو مملوء بالغضب وسيفه مجرد — يعود بحيوية  
جديدة.

تقول راشيل بصوت مخنوق: "بعد يومين، بعد الغد.. مساءً،  
بالقطار."

يقول سايمون: "تعالى"، ويقودها عبر الصالة إلى غرفة نومها.  
والآن وهو يعلم أن هربه منها ليس فقط ممكناً، بل ضروري، يشعر برغبة

قوية فيها. تشعل شمعة؛ إنها تعرف ذوقه. الساعات الباقية لهما قليلة؛ الاكتشاف يلوح من بعيد؛ يقال إن الخوف والهلع يسرعان ضربات القلب ويجعلان الرغبة أكثر قوة. يضع لنفسه ملحوظة عقلية – هذا صحيح – فهو ربما لآخر مرة يدفعها إلى الخلف على الفراش، ويقع عليها بتقله، وينقب بين طبقات القماش.

تهمهم: "لا تتركني، لا تتركني وحدي معه! إنك لا تعرف ما سيفعله بي!" إن شعورها بالألم حقيقي هذه المرة. "إنني أكرهه! يا ليتته يموت!"

يهمس سايمون: "هش، دورا قد تسمع." وتقریبًا يأمل أن تسمع دورا، فهو يشعر في هذه اللحظة أنه في أشد الحاجة إلى جمهور. يرسم حول السرير جمعًا وهميًا من المشاهدين؛ ليس فقط الميجور، ولكن أيضًا المبجل قرينجر، وجيروم دو بونت، وليديا، وفوق كل هؤلاء، جريس ماركس. إنه يريد أن تشعر بالغيرة.

تتوقف راشيل عن الحركة. عيناها الخضراوان مفتوحتان، وتنتظر مباشرة في عيني سايمون. تقول: "ليس من الضروري أن يعود". حدقتا عينيها كبيرتان، والبؤبؤان فيهما مجرد ثقبى دبوس؛ هل كانت تتناول الأفيون ثانية؟ "يمكن أن تحدث له حادثة. إذا لم يره أحد. يمكن أن تحدث له حادثة، في البيت؛ ويمكنك أن تدفنه في الحديقة". ليس هذا الكلام مرتجلا وليد اللحظة، لابد أنها كانت ترسم خطة. "ولا يمكن أن نبقى هنا، فقد وجدونه. يمكننا أن نعبّر إلى الولايات. في القطار! سنكون معًا. ولن نجدونا أبدًا!"

يضع سايمون فمه على فمها، ليسكتها. وتظن أن هذا معناه موافقته. تنتهد: "أوه، يا سايمون، كنت أعرف أنك لن تتركني أبداً! إنني أحبك أكثر من حياتي!" تملأ وجهه بالقبلات؛ وتصير حركاتها شديدة العصبية.

هذا سيناريو آخر من سيناريوهاتنا لاستدرار العطف، لنفسها فوق كل شيء. يحاول سايمون وهو يستريح إلى جوارها بعد ذلك أن يتصور ما لابد أنها كانت تتخيل. شيء أشبه بالروايات المروعة من الدرجة الثالثة، أينزوورث، أو بولويرليتون في أقصى ما يكتبانه من تعطش للدماء والابتذال: يترنح الميجور ثملاً عند الدرجات الأمامية، وحده، في الغسق، ثم يدخل الصلاة الأمامية، راشيل هناك، يضربها، ثم ينشب أظافره في هيكلها المرتعد بلهفة بلهاء من الثمالة. تصرخ وتتوسل طالبة الرحمة، يضحك هو ضحكة شيطانية. لكن الإنقاذ جاهز: ضربة حادة بالجاروف، تنزل على رأسه من الخلف. يقع محدثاً صوتاً مكتوماً على الأرضية الخشبية، ثم يُجر من كعبه إلى المطبخ عبر الطرقة، حيث تنتظر حقيبة سايمون الجلدية. قطع حاد في الوريد الودجي بالعنق بسكين جراحية؛ ويقرقر الدم متدفقاً في جردل فضلات؛ وينتهي كل شيء. بعض الحفر في ضوء القمر، ثم يرقد في حوض الكرنب، وراشيل واقفة ترتدى شالاً جذاباً وتمسك بمصباح خافت الضوء، وتقسم أنها سوف تكون له إلى الأبد بعد أن خاض كل هذا من أجلها.

ولكن ها هي دورا، ترقب من باب المطبخ. لا يمكن تركها تهرب، يطاردها سايمون في أنحاء البيت، ويحاصرها في الأوفيس، ويقطعها مثل الخنزير، وراشيل ترتعد ويغمى عليها، ولكن تعود لتتماسك

مثل بطلة حقيقية وتسرع إلى مساعدته. ودورا بحاجة إلى مزيد من الحفر، حفرة أعمق، يتلوها مشهد طقسى عرييد على أرض المطبخ.

هذا كثير على مهزلة منتصف الليل. ثم ماذا؟ سيكون قاتلاً، ولا شاهد إلا راشيل. سيتزوجها، ويصبح سجينها الأبدى، وهو ما تريده. لن يكون حراً أبداً. ولكن ها هو الجزء الذي لم تستطع أن تتخيله: ما أن يصبحا في الولايات، سوف تتخفى باسم مستعار. ستكون بلا اسم. ستكون امرأة مجهولة، من نوع كثيراً ما يجدونه طاقياً في القنوات أو غيرها من المجارى المائية: العثور على امرأة مجهولة طافية في قناة. من يمكن أن يرتاب فيه؟

ما الطريقة التي سوف يستخدمها؟ في الفراش، في لحظة النشوة، يلتف شعرها حول رقبتها، لا يحتاج إلا ضغطة خفيفة، لها رعدة أكيدة، وتتناسب مع جنس المرأة.

لابد أنها ستنتسى كل هذا في الصباح. يتحول إليها مرة ثانية، ويعديلها. ويربت على رقبتها.

يوقظه ضوء الشمس؛ إنه لا يزال بجوارها، في سريرها. لقد نسى أن يرجع إلى غرفته في الليلة الماضية، ولا عجب، فقد كان مجهداً. ويسمع دورا من المطبخ، تققع وتخبط خبطات مكتومة. ترقد راشيل على جنبها، مستتدة على ذراع واحد، تراقبه؛ عارية، ولكن تلف نفسها بالملاءة. هناك كدمة أعلى ذراعها لا يذكر أنه تسبب فيها.

يقوم جالساً. يهمس: "لابد أن أذهب، سوف نسمعنا دورا."

تقول: "لا يهمنى!"

"ولكن سمعتك ..."

تقول: "لا تهم، فلن نبقي هنا إلا يومين آخرين". نغمة صوتها عملية، تنتظر للأمر وكأنه قد تم الاتفاق، مثل عقد من عقود البيزنس. ويطرأ له - ولماذا لأول مرة؟ - أنها يمكن أن تكون مجنونة، أو على وشك الجنون؛ أو مجردة من الأخلاق على أقل تقدير.

يزحف سايمون صاعدًا السلم، حاملاً حذاءه وجاكته، مثل تلميذ شقى عائد من حفلة صاخبة. يشعر ببرودة ثلجية. إن ما رآه نوعًا من التمثيل، تأخذه هي على أنه واقع حقيقي. أظن حقًا أنه، هو سايمون، سوف يقوم بقتل زوجها، وبسبب حبه لها؟ ماذا ستفعل إذا رفض؟ إن رأسه تدور كالدوامة؛ والأرض تبدو تحت قدميه غير حقيقية، كما لو كانت على وشك أن تتلاشى.

قبل الإفطار يبحث عنها. يجدها في الردهة الأمامية، جالسة على أريكة؛ تقوم وتحببه بقبلة حارة. ينتزع سايمون نفسه، ويخبرها بأنه مريض؛ لقد عاودته حمى الملاريا، والتي سبق أن أصيب بها في باريس. وإذا كان لهما أن يحققا ما ينويان - يضع الأمر بهذه الطريقة لينزع عنها دروعها - فيجب أن يتناول الدواء المناسب لها، في الحال، وإلا فهو لا يستطيع أن يحسب العواقب.

تتحسس جبهته، وهو الأمر الذي احتاط له بترطيب جبهته بإسفنجة قبل نزوله. وتشعر بجدية المسألة، إلا أن هناك نغمة تحمل بعض الابتهاج أيضًا: فهي تستعد لتمريره، لتوريط نفسها في دور جديد. ويمكنه أن يرى ما في عقلها: سوف تصنع له طعامًا مغذيًا وأنواعًا من الجيلي، سوف تلفة في البطانيات والمستردة، سوف تضمد أي جزء منه يبدو

خارجاً أو يحتمل منه ذلك. فسوف يكون ضعيفاً، سوف يكون واهناً وبحاجة إلى المساعدة، سوف يكون ملكاً كاملاً لها: هذا هو هدفها. يجب أن ينقذ نفسه منها، لا يزال هناك وقت.

يقبل أطراف أصابعها. يقول برقة أنها يجب أن تساعد. فحياته تتوقف عليها. يضع فى يدها ورقة تحوى ملحوظة، موجهة إلى زوجة المحافظ، يطلب فيها اسم طبيب، حيث لا يعرف أحداً فى المنطقة. فما أن تحصل على الاسم، يجب أن تسرع إلى هذا الطبيب، وتجلب الدواء منه. وقد كتب الوصفة الطبية، بخط صعب غير مقروء؛ يعطيها النقود اللازمة. ويقول لها إن دورا لا يمكن لها أن تقوم بذلك، فلا يمكن الوثوق بسرعة حركتها. الوقت عامل جوهري: فهذا العلاج يجب أن يبدأ فوراً. تومئ برأسها، فهى تفهم: تقول له بحماس طاغ أنها سوف تفعل أى شىء.

تضع قبعتها على رأسها وتسرع، بيضاء الوجه وترتعد، ولكن شفتيها مزمومتان بإصرار. وبمجرد أن تغيب عن ناظريه، يجفف سايمون وجهه ويبدأ فى حزم أمتعته. يرسل دورا لتأجير عربة، بعد أن يرشوها ببقشيش سخى. وفى انتظار عودتها يكتب رسالة لراشيل، يودعها فيها وداعاً مهذباً، متعللاً بصحة والدته. ولا يخاطبها باسم راشيل. ويضمن الرسالة مبلغاً من النقود، ولا يضمنها أية ألفاظ تدل على المحبة. إنه رجل محنك، ولا يمكن إيقاعه فى الفخ بهذه الطريقة، ولا ابتزازه أيضاً: فهو لم يبذل لها وعداً يمكن أن يقيده فى حالة موت زوجها. ربما تقتل الميجور بنفسها، فهى قادرة على ذلك وأكثر.

يفكر فى كتابة مذكرة لليديا أيضاً، لكنه يعدل عن ذلك. من حسن الحظ أنه لم يتقدم إليها بشكل رسمى.

تصل العربية – التي كانت أكثر شبهًا بالكاريتية – ويقذف بحقيبتى سفره إليها. ويقول: "إلى محطة القطار". بمجرد أن يبتعد بشكل آمن، سوف يكتب إلى فرينجر، ويعدده بتقرير من نوع ما، طالبًا مهلة. وربما رغم كل شيء يستطيع أن يدبج شيئًا، شيئًا لا يفقده مصداقيته العلمية بالكامل. ولكن أهم من كل شيء أنه لابد أن يضع هذا الفصل الإضافى من وجوده فى كينجستون وراء ظهره. بعد زيارة سريعة لوالدته، وإعادة ترتيب اقتصادياته، سوف يذهب إلى أوروبا. وإذا استطاعت أمه أن تتدبر أمرها بدخل أقل – وسوف تستطيع – يمكن أن يدبر نفقات الرحلة.

ولا يبدأ سايمون فى الشعور بالأمان حتى يجد نفسه فى عربة القطار، والأبواب مغلقة جيدًا. ويشعر عند ظهور سائق القطار، فى زيه الرسمى، بمزيد من الثقة، وبأن النظام يعود إلى تأكيد نفسه بشكل ما.

ما أن يكون فى أوروبا، سوف يستكمل أبحاثه. سوف يدرس مدارس الفكر العديدة المنتشرة، ولكنه لن يتمكن من الإضافة إليها؛ ليس بعد. لقد ذهب إلى عتبة اللاوعى، ونظر عبرها؛ أو الأصح أنه نظر لأسفل. كان يمكن أن يقع. كان يمكن أن يقع فيها. كان يمكن أن يغرق.

ربما يكون من الأفضل ترك النظريات، والتركيز على الطرق والوسائل. عندما يعود إلى أمريكا سوف يحث نفسه على العمل. سوف يعطى محاضرات، سوف يجتذب مشاركين. سوف يبني مصحة نموذجية، أرضياتها منفذة بشكل جيد، وبأحسن وسائل الوقاية الصحية والصرف. إن ما يفضله الأمريكيون قبل كل شيء هو مظاهر الراحة، فى أى نوع من المؤسسات على الإطلاق. إن مصحة ذات غرفات واسعة مريحة، ووسائل العلاج المائى، وأدوات ميكانيكية كثيرة وجيدة، يمكن أن تؤدى الغرض



بشكل ممتاز. وينبغي أن يكون ثمة عجلات صغيرة تلف محدثة طينياً، ولا بد أن يكون هناك علاج بالحجامة. وأسلاك لتوصيلها بالرأس. وأجهزة قياس. سوف يدخل كلمة "كهربى" فى نشرة المشروع. فالأمر الرئيسى يجب أن يكون الحفاظ على نظافة المرضى وسهولة انقيادهم – يمكن أن تساعد الأدوية فى ذلك – كما يجب الحفاظ على إعجاب ورضا أقاربهم. وكما فى مدارس الأطفال، ليس المطلوب هو التأثير على النزلاء، وإنما على من يدفعون الفواتير.

سيكون كل ذلك حلاً وسطاً. ولكنه الآن، ويبدو ذلك له فجأة، قد وصل إلى السن المناسب لذلك.

يتحرك القطار خارجاً من المحطة. ثمة سحابة من الدخان الأسود، ثم عويل كثيب مطول، يتبعه مثل شبح مرتبك يجد فى أثره ولا يصل إليه على طول القضبان.

ولا يسمح لنفسه بالتفكير فى جريس حتى يكون فى منتصف الطريق إلى كورنوال. هل ستظن أنه تخلى عنها؟ ربما فقد الثقة بها؟ إذا كانت حقيقة تجهل أحداث المساء الماضى فسوف يكون تفكيرها بهذه الطريقة مبرراً. سوف تكون مسحورة به، كما كان مسحوراً بها.

لا يمكن أن تكون قد عرفت بعد أنه غادر المدينة. يتصورها جالسة فى مقعدها المعتاد، تخطط فى غطائها؛ ربما تغنى؛ تنتظر صوت خطواته عند الباب.

بالخارج بدأت السماء تمطر رذاذاً. بعد قليل تهدده حركة القطار حتى ينام؛ يسقط مستنداً على الجدار. والآن يرى جريس قادمة تجاهه عبر مرجة خضراء واسعة يغمرها ضوء الشمس، فى رداء أبيض، على

ذراعها باقة كبيرة من الورود الحمراء، ورود واضحة للغاية حتى أنه يمكن أن يرى قطرات الندى عليها. شعرها مرسل، قدماها عاريتان؛ وتبتسم. ثم يرى أنها تسير، لا على الحشائش، وإنما على ماء؛ وعندما يحاول أن يمد ذراعيه ليحتضنها، تختفى مثل الضباب.

يستيقظ؛ لا يزال في القطار، والدخان الرمادي يهب عبر النافذة. يضغط فمه على الزجاج.



الفصل الرابع عشر

الحرف المجهول

**\*\* معرفتي \*\***  
**[www.ibtesamh.com/vb](http://www.ibtesamh.com/vb)**  
**منتديات مجلة الإبتسامة**

أول أبريل، ١٨٦٣. كانت المذنبه جريس ماركس مدانة بارتكاب جريمة قتل مزدوجة، أو، هل يمكن أن أقول (جريمة قتل قدرية). وكانت جراتها و صفاقتها دليلاً على أنها ليست شخصاً حساساً كما أن عدم إظهارها الامتثال يعتبر دليلاً مقنعاً على ميولها المؤسفة.

أول أغسطس، ١٨٦٣. هذه المرأة التعسة أصبحت مخلوقاً خطراً، وأخشى أشد الخشية أنها سوف تظهر المزيد من التصرفات الخطيرة. ولسوء الحظ، أن لديها من يساعدها ويؤيدونها. ولكنها ما كانت لتجرؤ على الكذب كما تفعل إلا لأنها تلقى مثل هؤلاء المساندين بالقرب منها.

الدفتري اليومي لمأمور الإصلاحية الإقليمية ، كينجستون . غرب  
كندا، ١٨٦٣

... إن سلوكها النموذجي طوال ثلاثين عاماً من وجودها في الإصلاحية، والذي قضت القسم الأخير منه موضع ثقة كعامله في منزل المحافظ، وحقيقة أن عدداً كبيراً جداً

من السادة ذوى النفوذ فى كينجستون يعتقدون أنها  
تستحق، عن جدارة، الحصول على عفو، كل ذلك يؤكد  
وجود شكوك فى غاية القوة فيما يتعلق بوصفها بأنها  
تجسيد أنثوى شيطانى بشع، وهو ما حاول مكرموت أن  
يجعل العامة يصدقون أنها كذلك،

ويليام هاريسون،

“Recollections of Kinnear Tragedy,”

كتبت لصحيفة *New Market Era* ، ١٩٠٨

رسائلى، أوراق مية، صامته، وبيضاء!

إلا أنها تبدو حية حتى لتكاد ترتعش

تحت يدي المرتعدتين اللتين تفكان عنها الخيط ...

إليزابيث باريت براوننج

*Sonnets from the Portuguese, 1850*

إلى مسز س. د. همفري؛ من د. سايمون  
چوردان، كينجستون، غرب كندا.

١٥ أغسطس ١٨٥٩:

عزيزتى مسز همفري،

أكتب إليك فى عجلة، حيث استدعيت للعودة على عجل بسبب  
أمر عائلى ملح ولا مفر من أن أستجيب له فى الحال. فوالدتى العزيزة  
تعانى من انهيار لا يعلم عاقبته إلا الله، فى صحتها المعتلة باستمرار،  
وهى الآن على أبواب الموت. إننى أدعو أن يكون لدى الوقت الكافى  
للوصول إليها فى لحظاتها الأخيرة.

وأعتذر إليك إذ لم أستطع أن أودعك بنفسى، وأشكرك على  
عنايتك الكريمة بى فى الوقت الذى قضيته مستأجراً فى بيتك؛ ولكنى أثق  
أنك، بما تحمليه من حساسية المرأة وطيبة قلبها، سوف تقدرين بسرعة  
ضرورة رحيلى العاجل. ولا أعرف كم من الوقت سوف أتغيب، أو فى  
الواقع إذا كان يمكن لى العودة إلى كينجستون فى يوم من الأيام. فإذا



توفيت أمي، سوف يحتاجون لي للعناية بشئون العائلة؛ وإذا أبقاها الله لنا إلى حين، فإن مكاني سوف يكون إلى جوارها. فهي التي ضحت كثيراً من أجل ابنها، ولا بد أنها تستحق بعض التضحية منه في المقابل.

إن عودتي إلى مدينتك في المستقبل هي أمر غير محتمل في الغالب الأعم، ولكني سوف أحتفظ دائماً بذكرى أيامي في كينجستون - وهي ذكريات تمثّلين فيها جزءاً له اعتباره. إنك تعلمين كم أعجب بشجاعتك في وجه المحن، وكم أحترمك؛ وأرجو أن تجدى في قلبك نفس المشاعر نحو،

المخلص،

سايمون چوردان.

ملحوظة: في الظرف المرفق تركت لك قدرًا من النقود أظن أنه سوف يكفي لتغطية أية حسابات صغيرة باقية بيننا.

ملحوظة أخرى: أثق أن زوجك سوف يعود إليك في القريب

العاجل.

من مسز ويليام ب. چوردان، لابورنام هاوس،  
لوميسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة  
الأمريكية؛ إلى مسز س. د. همفري، شارع لوار  
يونيون، كينجستون، غرب كندا.

٢٩ سبتمبر، ١٨٥٩

## عزيزتى مسز همفرى

إننى أعطى لنفسى حرية التصرف بإعادة الرسائل السبع المرسله منك والموجهة إلى ابنى العزيز، والتي تراكمت هنا فى غيابه؛ وقد فتحت الرسائل خطأ من قبل خادمتى، وهو ما يوضح سبب وجود خاتمى عليها، بدلاً من خاتمك.

ابنى فى الوقت الحاضر يقوم بجولة فى المصحات والعيادات العقلية الخاصة فى أوروبا، وهو بحث هام وضرورى للعمل الذى يرتبط به - وهو عمل فى غاية الأهمية، سوف يخفف من معاناة البشر، ولا يجب أن يقاطع لآى اعتبار أقل أهمية، مهما كانت هذه الاعتبارات تبدو ملحة فى عيون الآخرين، الذين لا يفهمون أهمية رسالته. ولأنه يسافر باستمرار، فلم يكن من الممكن أن أوجه رسائلك إليه؛ وأنا أعيدها إليك الآن، بفرض أنك قد ترغبين فى معرفة أسباب عدم الرد؛ رغم أننى أرجو أن تعتبرى أن عدم الرد فى حد ذاته هو رد.

لقد أشار ابنى إلى أنك ربما تحاولين القيام بمحاولة لاستعادة علاقتك به؛ ورغم أنه لم يفصح بشكل واضح، إلا أننى لست شخصية جاهلة، ولا منقطعة عن العالم حتى لا أفهم ما بين السطور. فإذا أردت نصيحة صريحة وخالصة النية من سيدة عجوز، اسمحى لى أن أعلق بأنه بالنسبة للرباط الأبدى بين الجنسين، فإن التناقضات فى العمر والاعتبارات المادية لآبد أن تكون حاسمة؛ ولكن يمكن أن نعرف أيضاً مدى أهمية وحسم التناقضات فى النظرة الأخلاقية. إن السلوكيات المتسمة بالاندفاع والطيش يمكن فهمها من امرأة فى ظروف مثل

ظروفك - إننى أفهم تماماً مدى كراهة أن تكون المرأة جاهلة بمكان وجود زوجها؛ ولكن يجب أن تكونى على علم بأنه فى حالة وفاة مثل هذا الزوج، فلن يكون هناك رجل يتمسك بالمبادئ يرضى بأن يتزوج من امرأة تطلعت إلى مثل هذا الزواج قبل الأوان. فالرجال بطبيعتهم، وبما وضعته فيهم العناية الإلهية من مشاعر، لديهم ميل ما لبعض التحرر فى تصرفاتهم؛ ولكن الإخلاص لقسم الزواج هو بكل تأكيد المطلب الرئيسى فى أى امرأة.

فى الفترة الأولى بعد وفاة زوجى، وجدت أن القراءة اليومية فى الإنجيل أمر مريح ومهدئ للعقل؛ وبعض أشغال الإبرة الخفيفة أيضاً تساعد فى شغل البال. بالإضافة إلى هذين النوعين من العلاجات، ربما يكون لديك صديقة محترمة، يمكن أن تريحك فى حالة الاكتئاب والأسى دون أن ترغب فى معرفة الأسباب. إن ما يتردد من كلام الناس ليس دائماً معادلاً للواقع؛ ولكن بالنسبة لسمعة المرأة، ترتفع أهميته إلى هذه الدرجة. ومن المستحسن فعل كل ما من شأنه الحفاظ على هذه السمعة، وذلك بعدم إشاعة مدى تعاسة المرأة بالخارج حيث يمكن أن تتحول إلى موضوع للنميمة المغرضة؛ ولإنجاز هذه الغاية، من الحكمة تجنب التعبير عن مشاعر المرء فى الرسائل التى يتناولها رجال البريد، وربما تقع فى أيدي أشخاص يشعرون بإغراء قراءتها بدون علم المرسل.

مسز همفري، أرجو أن تتقبلى المشاعر التى عبرت عنها بروح رغبة صادقة فى خير مستقبلك، والتى قدمتها لك،

المخلصة

(مسز) كونستانس چوردان

من جريس ماركس، الإصلاحية المحلية،  
كينجستون، غرب كندا؛ إلى د. سايمون چوردان

١٩ ديسمبر ١٨٥٩

عزيزى د. چوردان

أكتب إليك بمساعدة كلارى، التى كانت دائماً صديقة لى،  
وأحضرت لى هذه الورقة، وسوف ترسلها بالبريد عندما يحين الوقت  
مقابل مزيد من المساعدة فى أعمال الدانتيل والصباغة. المشكلة هى أننى  
لا أعرف أين أرسلها، إذ أننى أجهل أين ذهبت. ولكنى إذا عرفت،  
فسوف أرسل هذه الرسالة. أرجو أن تتمكن من قراءة خطى، حيث أننى  
غير معتادة على الكتابة، ولا أستطيع أن أجد إلا القليل من الوقت لأكتب  
كل يوم.

عندما سمعت برحيلك المفاجئ السريع، ودون إرسال أية كلمة  
لى، شعرت بحزن كبير، لأننى ظننت أنك لابد أن تكون مريضاً.  
ولم أفهم السبب فى أن ترحل دون توديع، بعد كل الكلام الذى كنا نقوله  
معاً؛ وقد وقعت مغمى على تماماً فى الصالة فى الطابق الأعلى،  
وأصببت خادمة الغرف بحالة ذعر، وقذفتنى بفازة مليئة بالزهور، الماء  
والفازة وكل شىء، وقد أعادنى ذلك إلى حواسى بسرعة، رغم كسر  
الفازة. لقد ظننت أننى سوف تعود لى النوبات، وسوف أعود إلى الجنون  
مرة أخرى؛ ولكن لم تكن هذه هى الحالة، وقد تمكنت من الاحتفاظ

برباطة جأشى جيداً، إنما كانت صدمة سماع الأمر بهذه الطريقة المفاجئة، وخفقان القلب بسرعة وهو الأمر الذى طالما عانيت منه. وقد أصبت بجرح بليغ فى رأسى بسبب الفازة، ومن المدهش أن تتدفق كل هذه الكمية الكبيرة من الدم من جرح فى الرأس، حتى لو كان جرحاً سطحياً.

شعرت بتعاسة لذهابك، فقد كنت أستمتع بجلسات الحديث بيننا؛ ولكنهم قالوا أيضاً أنك كنت بسبيلك لأن تكتب رسالة إلى الحكومة حول حالتى، لكى يفرج عنى، وخشيت أنك لن تفعل ذلك أبداً. فلا شىء يصيب باليأس مثل خلق الإحساس بالأمل ثم قطعه مرة أخرى، إن هذا أسوأ تقريباً من أن تكون الآمال غير موجودة بالأساس.

إننى آمل كثيراً أن تكون قادراً على كتابة هذه الرسالة من أجلي، وسوف أكون شاكرة جداً على ذلك، وأرجو أن تكون بخير حال،

من،

جريس ماركس

من د. سايمون ب. چوردان، عناية د.

بينسوانجر، بيليف، كروتسلينجر، سويسرا، إلى

د. إدوارد مورتشى، دورشستر، ماساتشوستس،

الولايات المتحدة الأمريكية.

١٢ يناير ١٨٦٠

## عزيزى إيد

سامحنى لأننى أخذت كل هذا الوقت لأكتب إليك، ولأعرفك بتغيير عنوانى. والواقع أن أشياء كثيرة كانت فى حالة تشوش بطريقة ما، وقد أخذت وقتاً طويلاً لاستعيد نفسى. وكما قال بيرنيز: "سواء كنت رجلاً أو فأراً، فإن أفضل الخطط التى تضعها تنتهى إلى الفشل"، وقد اضطررت للإسراع بالهروب من كينجستون حيث وجدت نفسى فى ظروف معقدة كان يمكن أن تكون بسرعة تحطيمًا تامًا، لى ولمستقبلى. وفى يوم من الأيام، سوف أحكى لك القصة بالكامل ونحن جالسان نحتسى كأسًا من الشيرى؛ رغم أنها لا تبدو لى الآن قصة، وإنما حلمًا مزعجًا.

ومن بين عناصر هذه القصة حقيقة أن دراستى لجريس ماركس قد اتخذت منعطفًا غريبًا فى النهاية، حتى أننى من الصعب أن أقرر إذا ما كنت أنا نفسى مستيقظًا أم نائمًا. عندما أفكر بالآمال العالية التى وضعتها على هذه المهمة – عازمًا، أوكد لك، على كشف عظمة يمكن أن تدهش العالم، فالآن لى كل أسباب اليأس. ولكن، هل كانت حقًا آملًا عظمة، وليست مجرد طموح للبحث عن الذات؟ إننى من موقفى هنا، وأنا أنظر إلى الأمر ككل، لا أستطيع أن أشعر بنقّة من أى شىء؛ ولكن إذا كان الأمر هو مجرد طموح ذاتى، فربما أكون قد حصلت بالفعل على مقابل جيد، لأننى فى الموضوع كله، ربما أكون قد شُغلت بما يشبه مطاردة الإوز البرى، أو الجرى خلف الأشباح بلا طائل، وقد كدت أن

أصل إلى إفساد عقلي نفسه، في محاولاتي المثابرة لفتح انغلاق عقل آخر. ومثل سمى، سايمون الرسول، فقد ألقيت بشباكي في مياه عميقة؛ إلا أن الفرق بيني وبينه هو أنني سحبت شباكي لأجد فيها حورية بحر، لا من السمك، ولا من البشر، وإنما من الاثنين معاً، ولها أغنية رائعة ولكنها خطيرة.

لا أعرف إذا كان لى أن أرى نفسى ضحية خديعة من حيث لا أدري، أو ما هو أسوأ، أنني خدعت نفسى؛ ولكن حتى هذه الشكوك قد تكون أوهاماً، وربما كنت طوال الوقت أتعامل مع امرأة بها براءة شفافة متناهية لدرجة لم أستطع أن أجد الشجاعة على الاعتراف بها. لا بد أن أعترف – ولكن لك وحدك – أنني أصبحت على حافة الإنهاك العصبى بسبب هذا الموضوع. لا أعرف – هل أستجيب إلى التلميحات والنذر، أو أنتبه للتتويهاة، والهمسات المغوية بإدراك ما لا يمكن إدراكه – إنه أمر أسوأ من أن تلاحقك الأشباح. أحياناً فى الليل يتراءى لى وجهها فى الظلمة مثل سراب جميل ولكنه غامض وملغز.

ولكن اعذرني على استطرادات عقلى المريض. لا يزال لدى ما يلمح إلى كشف ما، كشف كبير. ولكن إذا استطعت أن أرى طريقى واضحاً، رغم أنني حتى الآن لا أزال أتجول فى العتمة، لا يقودنى إلا ضوء باهت.

وإليك بعض الأشياء الأكثر إيجابية: العيادة هنا تدار بطرق شديدة النظافة والكفاءة، وتقوم باستكشاف طرائق متعددة ومختلفة للعلاج،

ومن ضمنها العلاج بالماء؛ وربما تصبح نموذجًا لمشروعى الخاص، إذا كان لهذا المشروع أن يثمر فى يوم من الأيام. وقد تلقانى د. بينسو انجر بكرم ضيافة بالغ، ومكننى من التعامل مع بعض الحالات المثيرة للاهتمام هنا. وما يجعلنى أشعر براحة كبيرة، أنه لا يوجد قاتلات مشهورات بينهم، ولكن فقط ما يصفه د. ووركمان القدير، من تورنتو، بقوله "المجنون البريء"، وكذلك الناس العاديين الذين يعانون من المتاعب العصبية، ومدمنى الخمر، ومرضى الزهري؛ رغم أنه بالطبع لا يجد المرء نفس الإصابات بين الموسرين كما بين الفقراء.

أسعدنى للغاية ما سمعته من أنك سوف تسعد العالم بنسخة مصغرة منك، من خلال مكتب الخدمة الكريمة لزوجتك المحترمة، أرجو أن تبلغها خالص تقديرى. لا بد أنه من المريح للغاية أن يكون لديك حياة عائلية مستقرة، مع امرأة جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد على قدرتها فى توفير هذه الحياة! والواقع أن الهدوء والاستقرار فى الحياة أمر لا يحظى بالتقدير الكافى بين الرجال، إلا عند هؤلاء الذين يفتقدونه. ولذا فإننى أحسبك!

أما بالنسبة لى، فإننى أخشى أنه قدر على أن أتجول على وجه الأرض وحدى، مثل إحدى شخصيات بايرون الطريفة الحزينة المكتتبه، رغم أن روحى المعنوية سوف ترتفع كثيرًا يا صديقى العزيز، إذا تمكنت مرة أخرى من لقائك ومصافحة يدك الصديقة الحقيقية. وقد تأتى هذه الفرصة قريبًا، فقد فهمت أن الآمال تتناقص أمام توقعات التوصل إلى



حل سلمى للخلافات بين الشمال والجنوب، وأن الولايات الجنوبية تتحدث  
بجدية عن الانفصال. وفي حالة نشوب القتال، فسيكون واجبي نحو  
بلادى واضحا. وكما يقول تتيسون بطريقته التي يستعير فيها من النباتات  
ومشتقاته: لقد آن الأوان لاقتلاع "زهرة الحرب الحمراء الدموية". ونظراً  
لحالتى الحاضرة من الإجهاد والصخب العقلى، فسوف يكون من المريح  
لى أن أجد أمامى واجباً ملحاً من نوع ما، مهما كان فى أسبابه يدعو  
للحزن والرثاء.

صديقك المحب، صاحب العقل المتورم المتعب،

سايمون

من جريس ماركس، الإصلاحية المحلية،

كينجستون، إلى سنيور جيرالدو بونتي، سيد

التنويم العصبى، والقادر على الكلام من الباطن،

وقارئ العقول البارع؛ عناية مسرح أمير ويلز،

شارع كوين، تورنتو، غرب كندا.

٢٥ سبتمبر ١٨٦١

## عزى چيرميا

كان عرضك موجودًا على ورقة إعلان، وأحضرت دورا واحدة وعلقتها على جدار المغسلة لتبعث فيها بعض الحياة؛ وقد عرفت على الفور أنه أنت، رغم أنك اتخذت اسمًا آخر وأرسلت لحيتك حتى أصبحت طويلة وكثيفة جدًا. وقد رأى أحد الرجال المحترمين الذين يهتمون بالأنسة ماريان العرض عندما كان في كينجستون، وقال إن التتبؤ بالمستقبل في حروف من نار كان عرضًا من الدرجة الأولى، ويستحق الثمن الذى دفع لمشاهدته، وأن سيدتين أغمى عليهما؛ وقال إن لحيتك كانت حمراء مشرقة. ومن ثم فإننى أظن أنك قد صبغتها، إلا إذا كانت لحية مستعارة.

لم أحاول أن أتصل بك حينما كنت فى كينجستون، لأن ذلك قد ينتج عنه مشاكل إذا اكتشف. ولكنى رأيت أين سيكون العرض التالى، ولهذا أرسل هذه الرسالة إلى مسرح تورنتو، آملة أن تصل إليك. ولا بد أنه مسرح جديد، حيث لم يكن ثمة شيء بهذا الاسم عندما كنت هناك لآخر مرة؛ ولكن ذلك كان منذ عشرين عامًا، رغم أنها تبدو لى مائة عام.

كم أتمنى أن أراك ثانية، وأن نتكلم حول الأيام الخوالى، فى المطبخ عند مسز ألدرمان پاركينسون، عندما كنا نقضى وقتًا ممتعًا جدًا، قبل أن تموت ماري هوييتى ويتولانى النحس وسوء الحظ! ولكن لكى تعبر من بين كل هؤلاء الحرس هنا، يجب أن تتنكر أكثر من ذلك، فاللحية الحمراء لن تكون كافية عن قرب. وإذا تعرفوا عليك، سوف

يظنون أنك كنت تخدمهم، حيث أن ما جرى على خشبة المسرح لن يكون مقبولاً بنفس القدر إذا تم في مكتبة؛ كما أنهم سوف يودون معرفة لماذا لم تعد د. جيروم دي بونت. ولكنى أظن أن العمل الآخر دخله أفضل.

منذ جلسة التتويج، والناس هنا فيما يبدو يعاملونني بشكل أفضل، مع مزيد من التقدير، رغم أنهم ربما يكونون أكثر خوفاً مني؛ أحياناً من الصعب أن نعرف الفرق. وهم لا يتحدثون عما قيل في تلك المناسبة، فهم يرون أن الحديث عنها ربما يتسبب في اضطرابي عقلياً؛ وهو أمر أشك أنه سيحدث. ولكن رغم أنني لى حرية الحركة فى البيت مرة أخرى، وأقوم بتوضيب الغرف وتقديم الشاى كما فى السابق، فإن هذا لم يكن له أى أثر على إطلاق سراحي.

وقد تساءلت كثيراً حول أسباب رحيل د. چوردان بشكل مفاجئ هكذا، بعد ذلك مباشرة، ولكن لأنك أنت نفسك رحلت بسرعة أيضاً، فأنا أتوقع أنك لا تعرف الإجابة. تأثرت مس ليديا بشدة برحيل د. چوردان، وقضت أسبوعاً ترفض النزول إلى الغداء، وإنما تطلب أن يؤخذ إليها فى صينية؛ وكانت تترقد فى فراشها كما لو كانت مريضة، وهو ما جعل العناية بغرفتها صعبة جداً، ووجهها بهذا الشحوب وحول عينيها هالات سوداء، وقامت بدور ملكة المأساة. ولكن السيدات الصغيرات مسموح لهن بالتصرف بهذه الطريقة.

بعد ذلك، بدأت تخرج إلى حفلات أكثر من المعتاد مع شباب أكثر من ذى قبل، وخاصة أحد القباطنة الذى لم يأت أى شىء من

ناحيته؛ واشتهر عنها أنها فتاة لعوب بين العسكريين؛ ثم حدثت مشادات بينها وبين أمها، وبعد شهر آخر تم إعلان خطبتها إلى المبجل قرينجر، وهذا الأمر كان مفاجأة، حيث أنها كانت دائماً تسخر منه من وراء ظهره، وتقول أنه يبدو مثل الضفدع.

وقد حدد موعد الزواج في وقت يعتبر مبكر عن المعتاد، وانشغلت كثيراً بالخياطة من الصباح حتى المساء. وكان فستان السفر لميس ليديا من الحرير الأزرق، مع أزرار مكسوة من نفس القماش، وطبقتين للتورة؛ وكدت أصاب بالعمى أثناء ثنى كل هذا الذيل. وقضيا شهر العسل في شلالات نياجرا، التي يقولون أنها تجربة يجب عدم تفويتها، أنا لم أر هذه الشلالات، ولكني رأيت فقط صوراً لها؛ وعندما عادوا كانت شخصاً مختلفاً تماماً، شاحبة ومستكينة، ولم تعد روحها المعنوية عالية كما في السابق. ليس من الجيد الزواج من رجل لا تحبه، ولكن الكثير يفعلون ذلك ثم يعتادونه بمرور الوقت. وكثيرون يتزوجون عن حب ويندمون على أوقات الفراغ والراحة، كما يقولون.

كنت أظن لفترة أنها كانت معجبة بالدكتور چوردان؛ لكنها ما كانت لتسعد معه، ولا هو معها، فما كانت لتفهم اهتمامه بالمجانين، ولا فضوله، والأسئلة الغريبة التي اعتاد أن يسألها عن الخضر. ومن ثم كان ذلك أفضل لهما.

أما بالنسبة للمساعدة التي وعدني بها د. چوردان، فلم أسمع شيئاً عنها، ولا شيئاً عنه، إلا أنه ذهب إلى الحرب الجنوبية، وهي الأخبار التي وصلتني من المبجل قرينجر؛ ولكني لا أعرف إذا ما كان

حيًا أو ميتًا. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك الكثير من الإشاعات حوله، هو وصاحبة البيت، التي كانت أشبه بالأرملة؛ وبعد رحيله، كان يمكن مشاهدتها تسير بلا هدى بطريقة تتم عن الجنون على شاطئ البحيرة في ثوب أسود ومعطف وخمار أسود يرفرف في الريح، وقال البعض أنها كانت تتوى أن تلقى بنفسها في البحيرة. كان الكلام كثيرًا عن ذلك، خاصة في المطبخ والغسيل؛ وكلنا امتلأت آذاننا من دورا، التي كانت تخدم هناك. وما قالته لا يمكن أن تصدقه عن اثنين من الناس محترمين في مظهرهما مثلهما، أشياء مثل صرخات وأنات وأشياء مهولة أثناء الليل، كما لو كان البيت مسكونًا، وملاءة السرير في حالة مروعة كل صباح، وفي حالة تجعلها تخجل من النظر إليها. وقالت دورا إنه من العجيب أنه لم يقتل هذه السيدة ويدفن الجسد في الفناء بالخارج، حيث أنها رأت الجاروف معدًا لذلك، وقبرًا قد حُفر بالفعل، وهو ما جمد الدم في عروقها من الخوف؛ فقد كان من ذلك النوع من الرجال الذي يقيم علاقة مع امرأة بعد أخرى ثم يتعب منها، ويقتلهم فقط للتخلص منهم، وكل مرة كان ينظر فيها إلى السيدة الأرملة كانت نظرتيه مخيفة ومرعبة كعيون النمر، كما لو كان على وشك أن ينقض عليها وينشب أسنانه فيها. وأنه كان بنفس الطريقة مع دورا نفسها، ومن يدري، فقد كان من الممكن أن تكون هي الضحية التالية التي تقع في براثنه الشرهة المسعورة؟ كان لديها جمهور راغب في الاستماع في المطبخ، حيث أن هناك كثيرين يحبون الاستماع إلى القصص التي تهزهم وتصدّمهم، ولا بد أن أقول أنها صنعت قصة جيدة من الموضوع. ولكني أظن أنها انجرفت مع قصتها بعيدًا.

وفى نفس الوقت، طلبتني زوجة المحافظ إلى الردهة، وسألتني بجدية شديدة إذا ما كان د. چوردان قد تصرف معي في يوم من الأيام بأى طريقة غير لائقة؛ قلت أنه لم يفعل، وأنه على أية حال كان باب غرفة الخياطة دائماً مفتوحاً. ثم قالت أنها قد خدعت في شخصيته، وأنها كانت تستقبل أفعى في وسط عائلتها؛ ثم قالت أنه قد نال من السيدة المسكينة التي ترتدى السواد، إذ كانت وحدها في بيتها بعد أن ذهبت الخادمة، رغم أنني لا يجب أن أتحدث عن ذلك، حيث أن ذلك قد يسبب الأذى؛ ورغم أن هذه السيدة متزوجة، وزوجها كان رديئاً في تصرفاته معها، وما كان الأمر ليصبح بهذا السوء لو كانت فتاة صغيرة، ومع ذلك فإن د. چوردان قد تصرف بطريقة لا تليق إطلاقاً، وكان من رحمة الله أن مس ليديا لم تصل بها الأمور إلى خطوبة معه.

ولا أظن أنه كانت هناك أية فكرة بهذا، في فكر د. چوردان على الإطلاق؛ كما لا أصدق كل ما قيل عنه، فأنا أعلم معنى أن تقال الأكاذيب عن الإنسان، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه. والأرامل دائماً يلجأن إلى الحيل، حتى يصبحن عجائز غير قادرات عليها.

ولكن هذا مجرد إشاعات مغرضة. أما ما أريد أن أسألك عنه بشكل خاص فهو: هل حقاً ترى المستقبل، عندما نظرت في كف يدي وقلت خمسة للحظ، وهو ما فكرت أن معناه أن كل شيء سيصبح على خير حال في النهاية؟ أم أنك كنت فقط تحاول أن تريحني؟ إننى أتمنى أن أعرف ذلك جذاً، فأحياناً يتمدد الوقت ويصبح طويلاً جذاً، حتى أشعر بأننى غير قادرة على احتمالها. وأخشى أن أقع فى يأس مريـر، بسبب

حياتي الضائعة، ولا أزال غير متأكدة كيف حدث ذلك. والمبجل قرينجر كثيراً ما يصلي معي، أو الواقع إنه يصلي وأنا أستمع؛ ولكن هذا لا يفيد كثيراً، ولا يفيد إلا في أن أصبح متعبة. يقول إنه سوف يقدم التماساً آخر، لكنني أخشى أنه لن يكون له أية فائدة مثل غيره من الالتماسات، والأفضل ألا يضيع الورق هباء.

والشيء الآخر الذي أريد أن أعرفه هو لماذا كنت تريد مساعدتي؟ هل كان ذلك نوعاً من التحدي، ولإظهار تفوقك على الآخرين، كما في حالة التهريب الذي كنت تقوم به؛ أم أن ذلك كان انطلاقاً من العاطفة والشعور بي كرفيقة وصديقة؟ لقد قلت مرة أننا من نفس النوع، وقد تفكرت كثيراً في هذا القول.

أرجو أن تصلك هذه الرسالة، فإذا حدث، لا أعرف كيف يمكن أن ترد عليّ، فأى رسالة تصلني لا بد أن يفتحوها. ولكنني أظن أنك أرسلت لي رسالة بالفعل، فمنذ عدة أشهر تسلمت زراراً من العظم، مرسلًا إليّ بدون توقيع، وقالت السجانة، جريس، لماذا يمكن لأي أحد أن يرسل إليك زراراً وحيداً؟ وقلت أنني لا أعرف. لكن حيث أن الزرار كان من نفس نموذج الزرار الذي أعطيته لي في المطبخ في منزل مسز ألدرمان پاركينسون، شعرت أنه لا بد كان منك، لتجعلني أعرف أنك لم تتسنى تماماً. وربما كانت هناك رسالة أخرى فيه أيضاً، فالزرار هو لإبقاء الأشياء مغلقة، أو لفتحها؛ وربما كنت تقول لي أن أحتفظ بالصمت، حول أشياء معينة نعرفها معاً. كان د. چوردان يعتقد أنه حتى الأشياء العادية والتي لا يلقى إليها الاعتبار يمكن أن يكون لها معنى، أو على

الأصح تستعيد إلى الذاكرة شيئاً منسياً؛ وربما أنك أردت فقط أن تذكرني  
بنفسك، وهو أمر لم تكن بحاجة إليه في الواقع، حيث أنني لم أنسك أبداً  
ولا نسيت معاملتك الطيبة لي، ولن أنسى ما حييت.

أرجو أن تكون في صحة جيدة يا جيرميا العزيز، وأن يلقى  
عرضك السحري نجاحاً عظيماً،

من صديقتك القديمة، جريس ماركس

من مسز ويليام ب. چوردان، لابورنام هاوس،  
لوميسفيل، ماساتشوستس، الولايات المتحدة  
الأمريكية، إلى مسز س. د. همفري، شارع لوار  
يونيون، كينجستون، غرب كندا.

١٥ مايو، ١٨٦٢



## عزيزتى مسز همفرى

وصلت رسالتك الموجهة لإبنى العزيز هذا الصباح. وأنا أفتح كل بريده هذه الأيام، لسبب سوف أشرحه بعد قليل. ولكن أولاً اسمح لى أن أعلق أننى قد أرجو منك أن تعبرى عن نفسك بطريقة أقل تهوراً. أما التهديد بإيذاء نفسك، بالقفز من فوق جسر أو من موقع آخر مرتفع، فإن ذلك قد يمثل ثقلاً على شاب سريع التأثر وطيب القلب، لكن ذلك لا يؤثر فى والدته الأكثر خبرة بتجارب الحياة.

على أية حال، إن أملك فى لقاء معه لابد أن يخيب. فى بداية اندلاع الحرب المؤلمة الجارية فى بلدنا، التحق ابنى بالجيش الاتحادى للحرب من أجل بلده فى وظيفة طبيب عسكري، وأرسل فى الحال إلى إحدى المستشفيات الميدانية بالقرب من الجبهة. وقد انقطعت الخدمات البريدية بكل أسف، والقوات تتحرك من مكان لآخر بسرعة نتيجة وجود خطوط السكك الحديدية، ولم تصلنى كلمة منه طوال عدة أشهر، وهو ما ليس من طبيعته، حيث أنه كان دائماً شديد الانتظام والإخلاص فى مراسلاته؛ وخشيت أمرا سيئاً للغاية.

وفى نفس الوقت فعلت ما أستطيع فى النطاق المحدود المحيط بى. فهذه الحرب التعسة قد قتلت وأصابت الكثيرين، وكنا نرى آثارها يومياً، فقد كان المزيد من الرجال والشباب يتم إحضارهم إلى مستشفياتنا المحسنة، وقد أصيبوا ببتير أو عمى، أو خرجوا عن عقولهم بسبب أنواع من الحمى المعدية؛ وكل منهم هو ابن حبيب عزيز. وقد ظلت سيدات مدينتنا مشغولات بشدة فى زيارتهم وإعداد أى شىء يشعرهم بأنهم فى

بيوتهم بقدر ما نجد لدينا القدرة على تقديمه؛ وأنا نفسي ساعدتهم بأفضل ما استطعت، رغم حالتى الصحية المعتلة؛ حيث أن كل ما بوسعى هو أن أمل أن يكون ابنى العزيز مريضاً فى مكان ما، وأن أما أخرى تفعل نفس الشئ له.

وأخيراً، أخبرنى أحد الجنود الناقهين من هذه المدينة أنه سمع إشاعة بأن ابنى قد أصيب فى رأسه بشظية طائرة، وأن آخر ما سمعه عنه كان أنه بين عالمنا والعالم الآخر. وبالطبع كاد القلق يقتلنى، وتحركت فى كل مكان لأكتشف مكان وجوده؛ حتى كان لسعادتى الطاغية أن أعيد إلينا. إنه لا يزال حياً، ولكنه بكل أسف ضعيف جسدياً وروحياً معاً. فنتيجة لهذه الإصابة فقد جزءاً من ذاكرته؛ ورغم أنه استطاع أن يتذكر والديه العزيزين، وأحداث طفولته، إلا أن تجارب حياته الأحداث قد مُحيت تماماً من ذاكرته، ومن ضمن ذلك اهتمامه بالمصحات العقلية، والفترة التى قضاها فى مدينة كينجستون؛ ومن ضمنها أية علاقات من أى نوع يمكن أن يكون قد أقامها أو لم يقمها مع حضرتك.

أخبرك هذا لكى تنظري إلى الأشياء من منظور أوسع – واسمحي لى أن أضيف، من منظور أقل أنانية. إن أفعال المرء الشخصية تبدو صغيرة بالفعل، عندما تواجه بالمهمات الضخمة للتاريخ، والتى لا يمكن إلا أن نتق بأنها للصالح الأعظم.

وفى نفس الوقت، ينبغى أن أهنتك على حقيقة أنك قد عرفت مكان زوجك أخيراً، رغم أننى يجب أيضاً أن أواسيك على الظروف

السيئة. إن اكتشاف أن زوجك قد توفي بسبب التسمم طويل المدى وما نتج عنه من هذيان الحمى، كل هذا لا بد أنه كان أمرًا محزنًا. ويسرني أنه لم يستنفد كل أمواله بالكامل، وأقترح عليك، كنصيحة عملية، أن تتلقى منه دخلاً سنويًا، أو – إن ما أفادني جيدًا أثناء محاولاتي الشخصية – استثمار متواضع في أسهم السكك الحديدية، إذا كان ذلك من خلال شركة ذات وضع مضمون، أو في ماكينات الخياطة، والتي من المؤكد أن يحدث فيها تقدم كبير في المستقبل.

وعلى كل حال، فإن المسار الذي تتقدمين به لابنى هو مسار غير مرغوب فيه، كما أنه غير ملائم، حتى لو كان في حالة تمكنه من الاستفادة به. فابنى لم يكن مرتبطًا بخطبة معك، وليس لديه أية التزامات تجاهك. إن ما قد تكونين قد فهمته أنت نفسك لا يشكل فهمًا. ومن واجبي أيضًا أن أعلمك أن ابني قبل رحيله قد وصل إلى ما يقرب من الارتباط بخطبة الأنسة فيث كارترايت، وهي سيدة شابة من عائلة محترمة وذات شخصية معصومة من العيوب الأخلاقية، والعقبة الوحيدة القائمة، هي عقبة تمسكه بالشرف والواجب الوطنى، وهي العقبة التي منعتته من طلب أن تربط مس كارترايت حياتها برجل حياته معرضة للخطر؛ ورغم حالته السيئة والحرجة أحيانًا إلا أنها ظلت تحترم رغبات العائلتين، وكذا ما يتمناه قلبها، وهي في الوقت الحاضر تعاوننى فى تمريره بإخلاص ووفاء عظيمين.

وهو لا يتذكرها بعد فى شخصيتها الحقيقية، لكنه يصر على الاعتقاد بأن اسمها جريس – وهو تشوش مفهوم، لأن فيث اسم قريب

جدًا من جريس فى المعنى؛ لكننا نواصل مجهوداتنا بدأب، ونريه يومياً أشياء بيتية صغيرة كانت يوماً عزيزة لديه، ونأخذه للسير فى الأماكن المحلية التى تتمتع بجمال الطبيعة، ولدينا آمال متزايدة أنه سوف يستعيد ذاكرته بالكامل فى القريب العاجل، أو على الأقل القدر الضرورى منها، وإنه سوف يكون سريعاً فى صحة جيدة لاستكمال إجراءات الزواج. وإنه لمن أشد اهتمامات مس كارترايت كما يجب أن يكون الأمر مع كل من يحبون ابني حباً خالياً من الغرض، أن تدعو له ليستعيد صحته وقدرته الكاملة على استعمال قواه العقلية.

وفى النهاية، اسمح لى أن أضيف أننى أثق بأن حياتك المستقبلية سوف تكون مئثار سعادة، أكثر مما كان فى الماضى القريب؛ وأن أمسيات حياتك سوف تجلب معها صفاء وسكينة، إذ أن عواطف الشباب العاصفة والعقيمة كثيراً ما تنتهى نهاية تعسة إن لم تنته بكارثة.

## المخالصة

(مسز) كونستانس ب. چوردان.

ملحوظة: أية مراسلات أخرى منك، سوف يتم تدميرها دون

قراءة.

من المبجل إينوتش قرينجر، رئيس اللجنة  
المشكلة للعفو عن جريس ماركس، شارع  
سيدنهام، الكنيسة الميثودية، كينجستون،

أونتاريو، دولة كندا؛ إلى دكتور طبيب صمويل  
باترلينج، المابلس، فرونت ستريت، تورنتو،  
أونتاريو، دولة كندا

كينجستون، ١٥ أكتوبر ١٨٦٧

عزيزى د. باترلينج

أتجراً على الكتابة إليك يا سيدى، فى موضوع يتعلق باللجنة  
التي رأسها، حول مهمة جديرة بالاهتمام ولا بد أنك على دراية بها. فقد  
كنت المعالج الطبى السابق لجريس ماركس، عندما كانت فى المصلحة  
العقلية بتورنتو منذ حوالى خمسة عشر عامًا، أعرف أن ممثلى لجان  
سابقة عديدة قد تقدموا إليك عند قيامهم بتقديم التماسات إلى الحكومة،  
نيابة عن هذه المرأة التعسة سيئة الحظ والتي يرى البعض أنها قد أدين  
خطأ، فى أمل أن تضيف اسمك إلى الالتماسات المذكورة - وهى إضافة  
أعتقد أنك على علم بأنها لها وزنها الكبير بالنسبة للسلطات الحكومية،  
فهذه السلطات تميل لاحترام رأى الطبى المتقف مثل رأيكم.

تتكون لجنتنا من عدد من السيدات، ومن ضمنهم زوجتى  
العزيزة، ومن عدد من الرجال المحترمين ذوى المكانة، ورجال دين  
ينتمون لثلاثة من الطوائف المختلفة، ومن ضمنهم قسيس السجن، والذين  
ستجد أسماءهم مضافة. مثل هذه الالتماسات لم تكن ناجحة فى الماضى،

لكن اللجنة تتوقع، كما أنها تأمل، أنه مع التغييرات السياسية الأخيرة، والتي تتميز بمجيء برلمان كامل من الممثلين النيابيين تحت قيادة جون أ. ماكدونالد، فإن هذا الالتماس سوف يلقي ترحابًا لم يكن متاحًا للالتماسات السابقة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن العلم الحديث في صالحناء، فالتقدم الحادث في دراسات الأمراض العصبية والاضطرابات العقلية – هي إنجازات من المؤكد أنها في صالح جريس ماركس. ومنذ سنوات عديدة استقدمت لجننتنا متخصصًا في الأمراض العصبية، وهو د. سايمون چوردان، الذي جاء بتوصيات عالية جدًا. وقد قضى عدة أشهر في هذه المدينة يفحص جريس ماركس فحصًا مفصلاً، مع اهتمام خاص بالفجوات في التذكر الخاصة بارتكاب الجريمتين. وفي محاولة لاستعادة ذاكرتها، عرضها لجلسة تنويم عصبى، على يد أحد الممارسين المهرة في هذا العلم، وهو العلم الذى يبدو أنه، بعد غياب طويل، يعود إلى الأضواء كوسيلة تشخيصية وكذلك كطريقة علاجية، وقد حظى بالتشجيع فى فرنسا أكثر مما فى هذا النصف من الكرة الأرضية.

ونتيجة لهذه الجلسة، والكشف المدهش الذى نتج عنها، قدم د. چوردان رأيه بأن فقدان الذاكرة لدى جريس ماركس كان أصيلاً، وليس مزيفاً – وأنه فى اليوم البشع كانت تعاني من آثار الحالة الهستيرية التى تملكها بسبب الرعب، والذى نتج عنه شكل من النوم العصبى الذاتى، والذى لم يتم دراسته بشكل كاف منذ خمس وعشرين سنة، ولكن تم توثيقه جيداً فى هذه الأثناء؛ وأن هذه الحقيقة تفسر حالة

فقدان الذاكرة التي أعقبت ذلك. وفي أثناء القيام بجلسة التنويم العصبى، والتي شهدها عدد من أعضاء لجنتنا، أظهرت جريس، ليس فقط استعادة كاملة لذاكرتها بهذه الأحداث الماضية، ولكن أيضاً أظهرت الدليل على وجود "وعى مزدوج" متصل بحالة مشى أثناء النوم، مع شخصية ثانوية منفصلة، قادرة على التصرف دون معرفة الشخصية الأولى. وكانت النتيجة التي توصل إليها د. چوردان، فى ضوء هذا الدليل، أن السيدة المعروفة لنا باسم "جريس ماركس" لم تكن واعية فى وقت ارتكاب جريمة قتل نانسى مونجومرى، ولا هى مسئولة عن أفعالها فى نفس الوقت - وذكريات هذه الأفعال تحفظها شخصيتها الثانوية والخفية. وقد أضاف د. چوردان رأياً آخر أن هذه النفس الأخرى قد أعطت تجليات قوية لوجودها المستمر أثناء الوقت الذى عانت فيه من الخبل العقلى فى ١٨٥٢، إذا كان للتقارير العيانية لمسز مودى وغيرها أى دلالة.

وقد كنت أرجو أن يكون لدى تقرير مكتوب لأضعه أمامك، وقد أشرت لجنتنا تقديم التماسها من عام لآخر، انتظاراً لهذا التقرير. وقد كان د. چوردان خالص النية فى إعداد مثل هذا التقرير؛ لكنه استدعى فجأة بسبب مرض عائلتى، وتبعه عمل ملح وعاجل فى القارة الأوروبية؛ وبعده انفجرت الحرب الأهلية التى خدم فيها فى وظيفة طبيب عسكري، مما كان سبباً فى إحباط مجهوداته. ووصلنى أنه أصيب فى الحرب، ورغم أن صحته تتقدم الآن بشكل طيب، إلا أنه لم يستعد القوة الكافية لكى يكون قادراً على استكمال مهمته. وليس لدى شك أنه لولا ذلك لأضاف رسالته المخلصة والأمينة إلى رسالتنا.

لقد حضرت بنفسى جلسة التنويم العصبى المشار إليها، كما حضرتها أيضاً زوجتى العزيزة، وقد تأثر كل منا تأثراً عميقاً بما شاهدناه وسمعناه. إن التفكير فى كيف أخطئ تقدير وفهم هذه المرأة المسكينة بسبب تأخر الفهم العلمى، يبعث عنى الشعور بالأسى الذى يحركنى حتى تدمع عينى. فالروح الإنسانية لغز عميق مكتنف بالأسرار، ولم يبدأ سبر أعماق هذه الروح إلا الآن فقط. وما أجمل ما قاله بولس الرسول: "فإننا ننظر الآن فى مرآة، فى لغز، لكن حينئذ وجهها لوجه" (\*). ولا يستطيع الإنسان إلا أن يتأمل فى حكمة الخالق فى طبع الإنسانية بهذه الطبيعة المعقدة عويصة الفهم.

ولكن أيًا كان رأيك فى وجهة نظر د. چوردان المهنية – وأنا على تمام العلم بأن استنتاجاته ربما يكون من الصعب تصديقها، بالنسبة لشخص ليس على ألفة بالتنويم العصبى، ولم يكن حاضرًا للأحداث التى ألمح إليها – فمن المؤكد أن جريس ماركس قد قضت بالسجن سنوات طويلة وكثيرة جدًا، أكثر مما يكفى كعقاب على ما ارتكبته. وقد عانت من آلام عقلية لا يمكن وصفها، وآلام جسدية بالمثل؛ وقد تابست توبة نصوحًا عن أى فعل تكون قد قامت به فى تلك الجريمة الكبيرة، سواء كانت واعية بالقيام به أم لا. ولم تعد بأية حال امرأة شابة، كما أنها فى حالة صحية متدنية. فإذا تم منحها الحرية، فمن المؤكد أن ذلك سيعود بشكل طيب على حالتها الصحية والروحية على السواء، وربما يكون لديها فرصة التأمل فى الماضى، وفى إعداد نفسها لحياة مستقبلية.

---

(\* رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، ١٣: ١٢).



فهل يمكن – باسم الإنسانية – أن تظل مصرًا على رفض  
إلحاق اسمك بالتماس للإفراج عنها، مما قد يؤدي إلى إغلاق أبواب الجنة  
في وجه مذنّب تائب؟ من المؤكد لا!  
إننى أدعوك – أتوسل إليك مرة أخرى – أن تساعدنا فى هذا  
المسعى الكريم.

المخلص بحق،

إينوتش فرينجر،

درجة الماجستير فى اللاهوت

من دكتور طبيب صمويل باترلينج، المابلس،  
فرونت ستريت، تورنتو؛ إلى المبجل إينوتش  
فرينجر، الكنيسة المنهجية بشارع سيدنهام،  
كينجستون، أونتاريو

١ نوفمبر، ١٨٦٧

سيدى العزيز:

أبلغك باستلامى رسالتك المؤرخة فى العاشر من أكتوبر،  
ومحتوياتها الخاصة بسلوكياتك الصبيانية تجاه جريس ماركس. والواقع  
أنى شعرت بخيبة أمل فى د. چوردان؛ فقد سبق أن كانت بينى وبينه  
بعض المراسلات، والتى حذرته فيها بوضوح من هذه المرأة اللئيمة.

يقولون ليس أغبى من غبى عجوز، ولكنى أقول ليس أغبى من غبى شاب؛ ويدهشنى أن شخصاً ممن حصل على درجة علمية يمكن أن يسمح لنفسه أن يكون ضحية خديعة مثل هذا الشيء المتمسم بالدجل والشعوذة والمنافى للعقل والطبيعة، وضحية الحماقة، أى ذلك الشيء المسمى "جلسة التنويم العصبى"، والتي لا تعتبر إلا مرحلة ثانية من البلاهة المسماة بتحضير الأرواح، والضراعة الشاملة، وما أشبه من ألوان التخريف. ومهما كان هذا "التنويم العصبى" مدعوماً بالمصطلحات العلمية الجديدة، فهو لا يزيد عن صورة جديدة من التنويم المغناطيسى أو المغناطيسية الحيوانية، وقد كشف كذب هذا الهراء المرضى منذ زمن طويل، وفقد مصداقيته بصفته مجرد نوع من التضليل ذى النغمة الدينية والذى يقوم به رجال مشكوك فى أصولهم، وذوى طبيعة داعرة تمكنهم من التأثير على سيدات شابات لهن نفس الصفات، ويسألونهن أسئلة وقحة وكريهة، ويأمرونهن بأداء أفعال وقحة، دون أن تبدو عليهن الموافقة على هذا.

ومن ثم فإننى أخشى أن صديقك د. چوردان إما شخص ساذج إلى درجة البلاهة، أو أنه نفسه وغد كبير؛ وأنه إذا كان قد دبح "تقريره" الشخصى، فإن ذلك التقرير لن يساوى الورق الذى كتب عليه. ويرادنى الشك فى أن الجرح الذى تتحدث عنه قد حدث له ليس أثناء الحرب، وإنما قبلها؛ وأنه نتج عن ضربة حادة فى الرأس، وهى الشىء الوحيد

الذى يفسر مثل هذا البله. وإذا استمر د. چوردان يتابع هذا المسار الفكرى المتمرد، فسرعان ما سوف ينتهى به الحال إلى المصحة الخاصة بالمجانين التى، إذا كنت أذكر جيدًا، كان عازماً فى يوم من الأيام على تأسيسها.

لقد قرأت ما تطلقون عليه "شهادة" مسز مودى، وكذلك بعضًا من تفاهاتها الأخرى، والتى أودعتها جميعًا النار، فهى المكان الأولى بها - حيث يمكن لهذه الأوراق أن تحدث بعض الضوء، وهى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تضىء بها. ومسز مودى، مثل باقى أفراد أسرتها، معرضة للإصابة بالاهتياج العصبى، والإسراف فى التعبير عن العاطفة، كما أنها تميل إلى تفتيق القصص الخيالية المقنعة؛ وإذا كنا نريد الوصول إلى الحقيقة، فيمكن للمرء أن يعتمد أيضًا على "تقرير شاهد عيان" من طيور الإوز.

أما بالنسبة لبوابات الفردوس التى تشير إليها، فليس لى أية سيطرة عليها، وإذا كانت جريس ماركس تستحق دخولها فلسوف يسمح لها بالدخول دون تدخل من جانبى. ولكن من المؤكد أن بوابات الإصلاحية لن تفتح لها أبدًا بناء على أى تصرف منى. لقد درست حالتها جيدًا، وأعرف شخصيتها ونزعاتها أفضل مما يمكنك أن تعرف. إنها مخلوق مجرد من الاستعداد الأخلاقى الطبيعى، وميلها إلى القتل قد تطور بقوة. وليس من الأمان أن تترك لتستمتع بالمزايا الطبيعية الأمانة

للمجتمع. وإذا أعيدت إليها حريرتها، فإن ما يمكن أن يحدث هو التضحية، إن عاجلاً أو آجلاً، بحياة أشخاص آخرين.

وختاماً، يا سيدى، اسمح لى أن أعلق بأنه لا يليق بك، كرجل من رجال الدين، أن تتبل رسائلك المطولة بتلميحات إلى "العلم الحديث". إن المعرفة الضحلة أمر خطير، وأعتقد أن هذا كان تعليق البابا ذات مرة. اشغل نفسك بالعناية بالضمائر الإنسانية، وبإقامة الشعائر التى تصلح النفوس من أجل تحسين الحياة والأخلاق فى العام والخاص، وهو أمر يعلم الله أن هذا البلد بحاجة إليه، ودعك من أمخاخ المرضى المنحرفين واتركها إلى الجهات المتخصصة فيها. وفوق كل شىء، أرجو أن تتفضل، فى المستقبل، بالكف عن إزعاجى بهذه الطلبات السخيفة والمزعجة ...

خادمك المطيع والمتواضع للغاية،

دكتور طبيب / صامويل بانرلينج



## الفصل الخامس عشر

### شجرة الفردوس



لكن الإصرار أتى بثماره فى النهاية. قدمت الالتماسات واحداً بعد الآخر إلى الحكومة، ولا شك أنه تم تسخير جهود أخرى مؤثرة. وحصلت هذه الجريمة الفريدة على عفو، ونقلت إلى نيويورك، حيث غيرت اسمها، ثم سرعان ما تزوجت. وكل ما يعرفه كاتب هذه السطور بخلاف ذلك هو أنها لا تزال حية. وليس معروفًا إذا ما كانت شهوة القتل لديها قد تأكدت بقوة فى خلال هذه الفترة، فمن الممكن أن تكون حريصة على الاحتراس وصون هويتها باتخاذ أكثر من اسم.

### مؤلف مجهول

*History of Toronto and the Country of York, Ontario, 1885*

الجمعة، ٢ أغسطس، ١٨٧٢. زرت المدينة من ١٢ إلى ٢ لرؤية وزير العدل بخصوص جريس ماركس التى تسلمت العفو عنها هذا الصباح. وكان طلب جون أن أصحب هذه المرأة بنفسى مع إحدى بناتى إلى منزل معد لها فى نيويورك.



الثلاثاء، ٧ أغسطس، ١٨٧٢. تم استجواب جريس ماركس  
وصرفها، بناء على العفو الصادر عنها بعد أن قضت ٢٨  
سنة وعشرة أشهر سجنًا في هذه الإصلاحية. وتحركت  
معها أنا وابنتي في الساعة الواحدة مساءً، متجهين إلى  
نيويورك، بأمر من وزير العدل...

ملاحظات من دفتر يوميات مأمور السجن  
الإصلاحية المحلية، كينجستون، أونتاريو، دولة كندا،

وهكذا فليكن، مع هذه الجنة الأرضية،  
إذا قرأت بشكل صحيح، وسامحتني  
أنا الذي أتشوف لبناء جزيرة ظليلة من النعيم  
وسط تلاطم هذا البحر الفولاذي العنيف،  
حيث تتقاذف أمواجه قلوب الناس جميعاً

ويليام موريس،

**The Erthly Paradise, 1868**

عدم الاكتمال هو جنتنا ...

ويليام ستفينز

**"The Poems of Our Climate," 1938**

كثيراً ما أفكر أن أكتب إليك وأعرفك بالحظ الطيب الذي لاقيتَه، وقد كتبت لك رسائل كثيرة في رأسى؛ وعندما أتوصل إلى الطريقة الصحيحة لقول الأشياء، فسوف أضع القلم على الورق، وهكذا سوف تكون لديك أخبارى، إذا كنت لا تزال فى أرض الأحياء. أما إذا لم تكن، فلا بد أنك تعلم كل شىء على أية حال.

ربما سمعت عن العفو عني، ولكنك ربما لم تسمع. فلم أر الخبر فى أية صحيفة، وليس هذا بغريب، حيث أنه بمرور الوقت وحتى حين الإفراج عني، كانت القصة قد أصبحت قديمة وبالية، ولا أحد يريد أن يقرأ عنها. لكن مما لا شك فيه أن هذا كان أفضل. عندما سمعت عن العفو، كنت واثقة أنك لابد قد أرسلت الرسالة أخيراً إلى الحكومة، لأنها أتت بثمارها فى النهاية، مع كل الالتماسات جنباً إلى جنب؛ رغم أنني يجب أن أقول إنهم أخذوا وقتاً طويلاً فى الوصول إلى هذا القرار، ولم يقولوا شيئاً عن رسالتك، ولكن فقط قالوا أنه عفو عام.

أول ما سمعت عن العفو كان من ابنة مأمور السجن، والتي اسمها جانيت. وهذا المأمور ليس هو الذى رأيته من قبل، يا سيدى، فقد حدثت تغييرات كثيرة منذ رحيلك، ومجيء مأمور جديد هو أحد هذه

التغييرات، وقد كان هناك اثنان أو ثلاثة محافظين أيضاً، وكثير من الحراس الجدد، والغفر، والسجانات، ومن الصعب للغاية أن أتمكن من تذكر كل هذه التغييرات. كنت أجلس في غرفة الخياطة، حيث كنا أنت وأنا نقضى الأمسيات نتحدث، كنت أصلح الجوارب – فقد استمرت خدمتي بين خدم البيت عند كل مأمور جديد، كما كنت من قبل – وعندها دخلت چانيت. وقد كانت دائماً طيبة معي، ودائماً تمنحني ابتسامة، على عكس آخرين. ورغم أنها ليست جميلة على الإطلاق، إلا أنها تمكنت من أن تخطب لشاب محترم من المزارعين، وهو الأمر الذي أغدقت عليها من أجله كل أمنياتي القلبية بالتوفيق. هناك بعض الرجال، خاصة من النوع الأكثر بساطة، يفضلون الزوجة غير الجميلة، فهذا النوع يعمل بهمة، وأقل شكوى، وليس ثمة فرصة كبيرة لهروبها مع رجل آخر، فمن هو الرجل الذي يمكن أن يتجشم مشقة خطفها؟

في هذا اليوم، دخلت چانيت إلى الغرفة مهرولة، وبدا أنها في غاية الانفعال. قالت: جريس، إن لدى أنباء مدهشة للغاية.

لم أتوقف حتى عن الخياطة، فعندما كان الناس يقولون لى إن لديهم أنباء مدهشة، كانت دائماً تخص أحداً غيرى. وكنت على استعداد للاستماع بالطبع، ولكن لم أكن مستعدة لتضييع غرزة لذلك، إذا فهمت ما أعنى يا سيدى. قلت: حقاً؟

قالت: لقد صدر العفو عنك. من سير جون ماكدونالد ووزير العدل، فى أوتاوا. أليس هذا رائعاً؟ وشبكت يديها، وفى هذه اللحظة كانت تبدو مثل طفل، وإن كان طفلاً كبيراً وقبيحاً، يتطلع إلى هدية رائعة. كانت

أحد هؤلاء الذين لم يصدقوا أبدًا أنني مذنب، حيث أنها ذات قلب رقيق وطبيعة عاطفية.

عند سماع هذه الأخبار وضعت ما بيدي من خياطة. وشعرت ببرودة فجائية تسرى في جسدي كله، كما لو كنت على وشك أن يغشى على، وهو أمر لم يحدث لي منذ وقت طويل، منذ رحيلك يا سيدى. قلت: هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ وإذا كان شخص آخر هو الذى يخبرنى بذلك لظننت أنها تمزح معى مزاحًا ثقيلًا، لكن چانيت لم تكن تمزح بأى شكل.

قالت: نعم، هذا صحيح بالفعل. لقد تم العفو عنك! أنا سعيدة جدًا من أجلك!

وكنت أرى أن الدموع تتفرق فى عينيها، أما أنا فقد انهمرت دموعى.

فى تلك الليلة، ورغم أن والدها مأمور السجن لم يكن قد حصل بعد على الورقة فى يده، وإنما وصلتته فقط رسالة تخبره بالأمر، فما كان ليرضى إلا بأن أنقل من زنزانتى فى السجن إلى غرفة النوم الإضافية فى بيت المأمور. وكان هذا من فعل چانيت، ذات الروح الطيبة، لكن أمها ساندتها، فقد كان العفو عنى بالفعل حدثًا غير عادى فى الروتين الكئيب للسجن، والناس يحبون أن تكون لهم علاقة بأحداث من هذا النوع، وبذا يمكنهم أن يتحدثوا عنها إلى أصدقائهم فيما بعد؛ ومن ثم فقد أصبحت موضع الاهتمام.

بعد أن أطفأت شمعتي، رقدت في أفضل فراش، مرتدية قميص نوم جانيت من القطن الفاخر، بدلاً من الرداء الخشن المصفر الخاص بالسجن، وأنظر إلى السقف الداكن. كنت أَلْف وأتقلب في الفراش، ولم أشعر بالراحة بشكل ما، أعتقد أن الراحة هي ما تعود المرء عليه، وفي هذا الوقت كنت قد تعودت جداً على سريري الضيق بالسجن، وليس على غرفة النوم الإضافية ذات الملاءات النظيفة. وكانت الغرفة كبيرة جداً لدرجة أنها كانت مخيفة بالنسبة لي، وجذبت الملاءة فوق رأسي لأجعلها أكثر إظلاماً، وهنا شعرت وكأن وجهي يذوب ويتحول إلى وجه شخص آخر، وتذكرت أمي المسكينة في كفنها وهم يلقونها إلى البحر، وكيف أنني فكرت أنها تغيرت داخل الملاءة، وأصبحت امرأة أخرى، والآن يحدث نفس الشيء لي. بالطبع لم أكن أموت، ولكن حالتى كانت تشبه ذلك بشكل ما.

في اليوم التالي على الإفطار، كان أفراد عائلة المأمور كلهم يحدقون إلى بعيون دامعة، وكأنى شيء عزيز ونادر، مثل طفل أخرج من نهر؛ وقال المأمور إننا يجب أن نشكر الله من أجل الحمل الضائع الذى تم إنقاذه، وقالوا كلهم بحماس: آمين.

فكرت أن هذا هو الأمر. لقد أنقذت، والآن يجب أن أمثل دور شخص تم إنقاذه. وهكذا حاولت القيام بهذا الدور. وكان من الغريب أن أعرف أنني لن أعود القاتلة الشهيرة بعد ذلك، ولكن ربما ينظر إلى كامرأة بريئة اتهمت خطأ، وسجنت ظلماً، أو على الأقل سجنت لوقت طويل جداً،

وأصبحت موضع شفقة بدلاً من مصدر خوف ورعب. وقد استغرق الأمر منى بضعة أيام لأتعود على الفكرة؛ والواقع أنني لست معتادة عليها تمامًا بعد. إنها تحتاج إعدادًا مختلفًا لتعبيرات الوجه؛ ولكنى أظن أنها ستصبح أسهل بمرور الوقت.

بالطبع بالنسبة لهؤلاء الذين لا يعرفون قصتي لن يكون لشخصي معنى بشكل خاص.

بعد الإفطار في ذلك اليوم أصبت باكتئاب غريب. ولاحظت جانبيت ذلك وسألتني عن السبب، فقلت لها: لقد كنت في هذا السجن الآن حوالي تسعة وعشرين عامًا، ليس لي أصدقاء أو عائلة خارجه، فأين أذهب، وماذا أفعل؟ ليس لي نقود، ولا أي وسيلة لكسب أية نقود، وليس عندي ملابس لائقة، ومن غير المحتمل أن أحصل على وظيفة في أي مكان في المنطقة، فقصتي معروفة جيدًا - لأنه بالرغم من العفو، وهو أمر جيد جدًا، فلا أظن أن سيدة في أي عائلة تفكر تفكيرًا سليمًا تقبل بي في البيت، إذ أنها سوف تخشى على سلامة من تحبهم، ولو كنت أنا نفسي في مكانها، لفعلت نفس الشيء.

لم أقل لها أنني قد تخطيت أيضًا السن الذي يمكنني من الذهاب إلى المدينة، فلم أكن أريد أن أصددها، فهي قد تربت تربية طيبة، كما أنها تنتمي إلى المذهب الميثودي. رغم أنني ينبغي أن أخبرك يا سيدي، أن هذه الفكرة عبرت ذهني بالفعل. لكن لا يمكن أن تكون هناك أية فرصة، فسي مثل سني، وفي وجود كل هذه المنافسة، ربما يكون نصيبي بنسأ واحدًا في

كل مرة مع أسوأ البحارة السكرانين في أي حارة في مكان ما، ولسوف أصاب بمرض يقضى علىّ في خلال عام، وهذا جعل قلبي يسقط بمجرد التفكير فيه.

ومن ثم، فبدلاً من أن يظهر على الفرحة بحصولي على جواز خروج إلى الحرية، بدا لي العفو كأنه حكم بالإعدام. فلسوف أطرده إلى الشوارع، وحدي، بلا أصدقاء، لأموت جوعاً وبرداً في ركن بارد، لا شيء لدى إلا الملابس التي ألبسها، وهي الملابس التي دخلت السجن بها؛ وربما ليس حتى هذه الملابس، حيث أني لم يكن لدى فكرة عما صارت إليه هذه الملابس؛ فقد كان كل ما أعرفه أنها بيعت أو تم التخلص منها منذ زمن بعيد.

قالت چانيت: لا يا جريس العزيرة، كل ذلك تم التفكير فيه. لم أكن أريد أن أخبرك بكل شيء مرة واحدة، فقد خشينا أن تكون صدمة السعادة التي تأتي فجأة بعد كل هذا الشقاء شديدة عليك، فأحياناً يكون لها هذا التأثير. لكن تم توفير منزل طيب لك، في الولايات المتحدة، وبمجرد أن تذهبى هناك سوف تتركى الماضى الحزين وراءك، فلا أحد هناك يعرف عنه شيئاً. سوف تبدئين حياة جديدة.

لم تستخدم چانيت هذه الكلمات بالدقة، ولكن كان هذا هو جوهر كلماتها.

قلت، ولا يزال اليأس يملكنى: ولكن ماذا ألبس؟ ربما كنت حقاً غير سليمة العقل، فأى شخصية سليمة العقل ربما سألت أولاً عن المنزل الطيب الذى سوف يتم توفيره، وأين هو، وماذا سوف أفعل هناك. وقد

فكرت فيما بعد فى الطريقة التى تحدثت بها عنه، تم توفير منزل طيب، إنها الطريقة التى تتحدث بها عن كلب أو حصان عجوز لم يعد قادراً على العمل، ولم تعد أنت نفسك قادراً على الاحتفاظ به أو القضاء عليه.

قالت جانبيت: لقد فكرت فى هذا أيضاً. لقد كانت حقاً مخلوقة قادرة على تقديم المساعدة. وقالت: لقد نظرت فى المخازن، وبمعجزة وجدت أن الصندوق الذى أتيت به معك لا يزال هناك واسمك على الورقة الملتصقة، وأعتقد أن ذلك بسبب كل الالتماسات التى كانت تقدم من أجلك بعد المحاكمة. ربما احتفظوا بأشياءك فى البداية لأنهم فكروا إنك سرعان ما سيتم الإفراج عنك، ولكن بعد ذلك لابد أنهم نسوا كل شىء عنه. سوف أمر بإحضاره إلى غرفتك ثم نفتحها، ما رأيك؟

شعرت ببعض الراحة، رغم بعض الارتياح والهواجس. وكنت على حق فى هواجسى، لأننا عندما فتحنا الصندوق وجدنا أن العثة قد دخلته وأكلت الأصواف، ومن بينها شال أمى الشتوى الثقيل، وبعض الأشياء الأخرى بهتت ألوانها، وأصبحت رائحتها عفنة من الإغلاق عليها طوال هذه الفترة فى مكان رطب؛ الخيوط فى بعضها كانت تقريباً متعفنة تماماً، حتى يمكن أن تدخل يدك من خلالها. إن أى قطعة من القماش تحتاج إلى تهوية جيدة من حين لآخر، وهذه لم تحصل على أى تهوية.

أخرجنا كل شىء وبعثرناه فى الغرفة، لنرى ما يمكن إنقاذه. كان هناك فساتين نانسى، التى كانت جميلة جداً وهى جديدة، والآن معظمها قد ناله التدمير، والأشياء التى تركتها لى مارى هويتتى، والتى قدرتها كثيراً فى وقتها، والآن أصبحت شيئاً رديئاً وقديماً. وكان هناك الثوب الذى



صنعته فى منزل مسز ألدرمان پاركينسون، والذى به أزرار من العظم أخذتها من چيرميا، ولكن لا شىء يمكن إنقاذه من هذا الثوب سوى الأزرار. ووجدت خصلة شعر مارى، مربوطة بخيط وملفوفة فى منديل كما تركتها، لكن العثة وصلت إليها أيضاً، فهذه الحشرات يمكن أن تأكل الشعر إذا لم تجد شيئاً أفضل، ولم تكن مخزنة فى خشب أرز.

كانت المشاعر التى اجتاحتنى قوية ومؤلمة. بدا لى أن الغرفة تظلم وأنى أكاد أرى نانسى ومارى تتجسدان داخل ثيابهما مرة أخرى، إلا أن هذه الفكرة لم تكن مدعاة للسرور، فالآن لابد أنهما هما نفسيهما فى نفس هذه الحالة الخربة التى أجدها على الثياب. وشعرت بدوار شديد، واضطرت أن أجلس وأطلب كوباً من الماء وفتح النافذة.

چانيت نفسها فوجئت؛ كانت صغيرة جداً حتى يصعب أن تعرف ما هو أثر تسع وعشرين سنة من الانغلاق فى صندوق، رغم أنها حاولت أن ترى الناحية الأفضل فى الموضوع بما يتوافق مع طبيعتها. قالت أنه على أية حال يستحيل أن تتماشى الأثواب مع الموضة هذه الأيام، وأنه من غير الممكن أن يجعلونى أذهب لحياتى الجديدة وأنا أبدو مثل خيال المائة، ولكن بعض الأشياء يمكن استخدامها رغم كل شىء، مثل اللباس الداخلى من الفانلة الحمراء، وبعض الملابس الداخلية البيضاء، والتى يمكن غسلها بالخل للتخلص من الرائحة العفنة ثم تبييضها فى الشمس، وأنها يمكن أن تعود بيضاء تماماً. ولم يكن هذا هو الحال بالضبط، فبعد أن فعلنا ذلك أصبحت الأشياء أفتح لوناً، ولكن ليست باللون الذى يمكن أن تسميه أبيض.

قالت: أما الأشياء الأخرى، فسوف نبحث حولنا. وقالت إننى سوف أحتاج إلى خزانة ثياب. ولا أعرف كيف تم الأمر – وأشك أنها استجدت من أمها وأخذت تدور بين معارفها وجمعت بعض الأشياء الأخرى، وأعتقد أن المحافظ ساهم بالنقود لشراء الجوارب والأحذية – ولكن فى النهاية جمعت لى مخزناً من الثياب. ووجدت الألوان زاهية أكثر من اللازم، مثل اللون الأخضر المطبوع، والقماش العريض المقلم بلون فوشيا على أرضية سماوية اللون؛ إنها الصبغات الكيماوية الجديدة التى تستخدم الآن. ولم تكن هذه الألوان تناسبنى تمامًا؛ لكن الشحاذين لا يمكنهم الاختيار، وقد تعلمت ذلك فى مناسبات عديدة.

جلسنا سوياً نحن الاثنتين وبدأنا نصلح الثياب لتناسبنى. كنا مثل أم وابنتها نعد جهاز عروس، بروح طيبة جداً وحميمية، وبعد بعض الوقت أصبحت فى غاية الانشراح. والشيء الوحيد الذى أسفت عليه كان هو الكرينولين، الذى كانت تصنع منه التتورات التحتية المدعومة بهيكل من السلك، لقد أصبح غير مناسب للعصر على الإطلاق، وأصبح كل الموجود الآن هو الأرداف المستعارة وحزم كبيرة من القماش تربط على الظهر مع الكشكشة والبشرايب، وكنت أرى أنها أقرب إلى الأريكة؛ وهكذا لن تتاح لى الفرصة أبداً للبس الكرينولين. ولكن لا يمكن أن نحصل على كل شيء فى هذه الحياة.

البونيهات انتهت موضتها أيضاً. واليوم لا توجد إلا قبعات من النوع الذى يربط تحت الذقن ومسطحة وتميل إلى الأمام، مثل سفينة تبحر على قمة رأسك، ولها خمار يهفهف خلفها مثل الأثر الذى تخلفه السفينة فى

المياه. أحضرت لى جانبى واحدة، وشعرت شعورًا غريبًا فى أول مرة أضعتها على رأسى، ونظرت فى المرآة. لم تكن تغطى أطراف شعرى الرمادى، رغم أن جانبى قالت أننى أبدو أصغر عشر سنوات عن سنى الحقيقى، وأننى أبدو فتاة فى الواقع؛ والحقيقة أننى حافظت على شكل جسدى ومعظم أسنانى. قالت أننى أبدو سيدة حقيقية، وهذا ممكن، فالفرق الآن فى الملابس بين الخادمة والسيدة أقل مما كان عليه الحال، والموضات سهل نقلها. قضينا وقتًا مرحًا جدًا ونحن نضع على أطراف القبعة زهورًا حريرية وأقواسًا، رغم أننى انفجرت فى الدموع عدة مرات بسبب الانفعال الزائد. إن التغيير فى حظ الإنسان دائمًا له هذا التأثير، من السيئ إلى الطيب وبالمثل عندما يحدث العكس، ولا بد أنك لاحظت ذلك فى الحياة، يا سيدى.

وعندما كنا نحزم ونلف الأمتعة، قصصت بعض القطع من الثياب المختلفة التى كان يمكن أن ألبىها منذ زمن طويل، والتى نصيبتها الآن أن تلقى فى المهملات؛ وسألت إذا كان يمكن أن أحتفظ بثوب نوم من ثياب السجن من النوع الذى اعتدت النوم فيه، كنوع من التذكار. قالت جانبى إنه تذكار غريب فى رأيها، لكنها طلبت لى واحدًا ومنحونى إياه. وكما ترى، كنت بحاجة لشيء يخصنى لأخذه معى.

عندما انتهت كل الاستعدادات، شكرت جانبى بامتنان عميق. وكنت لا أزال أشعر بالخوف مما سيأتى، لكننى على الأقل سوف أبدو مثل شخصية عادية ولن يحدق بى أحد، وهذا يستحق الكثير. أعطتنى جانبى زوجًا من القفازات الصيفية، جديدة تقريبًا، ولا أعرف من أين أتت بها.

ثم بدأت تبكى، وعندما سألتها لماذا تبكى، قالت لأننى أستحق نهاية سعيدة، وأن الأمر يبدو كما لو كان قصة فى كتاب؛ وسألت نفسى ترى أى الكتب تقرأها.

كان ٧ أغسطس ١٨٧٢ هو يوم رحيلى، ولن أنسى هذا اليوم ما عشت.

بعد الإفطار مع عائلة المأمور، والذي لم أستطع أن أتناول منه شيئاً تقريباً لأننى كنت عصبية جداً، ارتديت الثوب الذى سأسافر به، الأخضر، والقبعة القش وقد زينت أطرافها لتتناسب مع القفاز الذى أعطته لى جانيت. وضع صندوقى فى العربة؛ ولم يكن هو صندوق نانسى، حيث أن هذا كانت رائحة العفونة فيه زائدة، لكنه كان صندوقاً آخر قدمته لى الإصلاحية، من الجلد، وليس بالياً جداً. وربما كان يخص روحاً مسكينة ماتت هناك، لكنى كنت قد تخطيت كثيراً مرحلة انتقاد الهدية أو البحث عن عيب فيها.

أخذونى لأرى المأمور، كان هذا إجراء رسمياً، ولم يكن لديه الكثير ليقوله إلا أن يهنئنى على إطلاق سراحى؛ وإنه على أية حال سوف يصحبنى هو وجانيت إلى البيت الذى تم توفيره، بطلب خاص من سير جون ماكدونالد نفسه، حيث كانت النية تتجه لأن أصل إلى هناك بسلام، وكانوا على علم تام بأننى غير معتادة على طرق السفر الجديدة، بعد غيابى عن الحياة طوال هذه المدة؛ وأيضاً كان ينتشر كثير من الرجال الذين

يتسمون بالخشونة، جنود مسرحون من الحرب الأهلية، بعضهم مقعد وبعضهم ليس لديه وسائل معيشة، وأننى قد أتعرض لخطر من أحدهم. ومن ثم كنت سعيدة للغاية بالصحبة.

عبرت من بوابات الإصلاحية لآخر مرة والساعة تدق الثانية عشرة ظهراً، ورنت الدقات برأسى وكأنها أصوات ألف جرس. حتى تلك اللحظة لم أكن على تمام الثقة بأننى فى وعيى؛ وبينما كنت أرتدى ثيابى استعداداً للرحلة شعرت كأننى فاقدة للحس، وبدت الأشياء حولى مسطحة وبلا لون، ولكن الآن، إذا بكل شىء تبعث فيه الحياة فجأة. الشمس مشرقة، وكل حجر من الجدار متألق كالمرآة ومضيئ وكأنه مصباح، كان الأمر أشبه بعبور بوابات الجحيم والدخول إلى الفردوس، إننى أعتقد أن الجحيم والفردوس فى موضعين أكثر تقارباً مما يعتقد معظم الناس.

خارج البوابات كانت هناك شجرة كستناء، كل ورقة من أوراقها بدت محاطة بإطار من النار؛ وفوق الشجرة جلست ثلاث حمامات بيضاء، يلمع ريشها فتبدو أشبه بملائكة عيد الحصاد، وفى تلك اللحظة عرفت أننى بالفعل أصبحت حرة. وكنت فى مثل هذه اللحظات التى يزداد فيها الإشراق أو الإظلام أكثر من المعتاد أتعرض للإغماء، لكنى فى هذا اليوم طلبت من جانبيت أملاح النشادر فاستطعت أن أحتفظ بحواسى الكاملة، رغم أننى كنت أستند إلى ذراعها؛ وقالت أن هذا طبيعى، لأننى لو بقيت غير متأثرة فى مثل هذه المناسبة الهائلة ما كان ذلك شيئاً طبيعياً.

كنت أتمنى أن ألتفت وأنظر خلفى، لكنى تذكرت امرأة لوط وعمود الملح، فأحجمت عن ذلك. والنظر إلى الخلف يمكن أيضاً أن يعنى

أننى أسفة على رحيلى وأتمنى أن أعود، ومن المؤكد أن الأمر لم يكن كذلك، كما يمكن أن تتخيل يا سيدى؛ لكنك سوف تدهش عندما تسمعنى أقول إننى فى الواقع كنت أشعر بنوع من الأسف. فرغم أن الإصلاحية لم تكن مكاناً مريحاً كالبيت، إلا أنها كانت البيت الوحيد الذى عرفته لمدة تقرب من ثلاثين عاماً؛ وهو وقت طويل، أطول من الوقت الذى يقضيه كثير من الناس فى هذه الدنيا، ورغم أنه مكان حبس وأسى وعقاب، فإننى على الأقل أعرف طرقاته وطرق المعيشة فيه. ومغادرة مكان تألفه، مهما كنت لا تحبه، إلى المجهول، هو دائماً أمر يكتتفه بعض الخوف، وأظن أن هذا هو السبب فى أن كثيراً من الناس يخشون الموت.

بعد هذه اللحظة، عدت مرة أخرى إلى ضوء اليوم العادى، رغم أننى كنت أشعر برأسى خفيفة. كان يوماً حاراً ورطباً، طقسه أشبه بالطقس على شطآن البحيرات فى أغسطس، لكن كان هناك بعض النسيم القادم عبر المياه، مما جعل الطقس أقل وطأة؛ كان فى السماء بعض السحب، لكنها السحب البيضاء التى لا تنذر بمطر أو رعد. وكان مع جانب مظلة، رفعتها فوقنا نحن الاثنين ونحن نتقدم فى طريقنا. المظلة كانت هى الشئ الوحيد الذى ينقضى، فمظلة نانسى الحريرية الوردية كانت قد تعفنت تماماً.

ذهبنا إلى محطة القطار فى عربة خفيفة يقودها خادم المأمور. ولم يكن القطار ليتحرك قبل مواعده فى الواحدة والنصف، لكنى كنت شديدة القلق خشية التأخير، وما أن وصلت هناك لم أستطع الجلوس بهدوء فى استراحة السيدات، ولكن أخذت أسير ذهاباً وإياباً على الرصيف بالخارج،

حيث كنت شديدة الاضطراب. وأخيراً وصل القطار، وحش حديدي كبير لامع يقذف بالدخان. ولم أكن قد رأيت في حياتي قطاراً عن قرب هكذا، ورغم أن چانيت أكدت لي إنه لم يكن خطيراً، إلا أنني لم أستطع لشدة خوفاً صعود الدرجات دون مساعدة.

أخذنا القطار حتى كورنول، ولكن على الرغم من أنها كانت رحلة قصيرة، فقد شعرت أنني لن أحيأ إلى نهايتها. كانت الضجة شديدة الارتفاع، والحركة سريعة للغاية حتى أنني ظننت أنني سوف أفقد سمعي، وكان هناك قدر كبير للغاية من الدخان الأسود؛ وفاجأني صفير القطار حتى كدت يغمى علي، رغم أنني تملكتم ولم أصرخ.

شعرت أنني أفضل عندما نزلنا في محطة كورنول، وذهبنا من هناك إلى المراسي في مركبة صغيرة يجرها حصان واحد، وأخذنا مركباً عبر البحيرة، وكان السفر بالمركب أكثر ألفة بالنسبة لي وأمكنني أن أستنشق بعض الهواء المنعش. وكانت حركة الشمس على الأمواج في البداية تجعلني أشعر ببعض الدوار، لكن هذا التأثير انتهى عندما توقفت عن النظر إليها. وقدمت إلينا المرطبات، التي أحضرها معه المأمور في سلة، واستطعت أن آكل قليلاً من الدجاج البارد وأشرب قليلاً من الشاي الفاتر. وشغلت نفسي بالنظر إلى أزياء السيدات على المركب، والتي كانت متنوعة وذات ألوان زاهية. وقد عانيت بعض المتاعب في القيام والجلوس مع هذه الكومة من القماش في أسفل الظهر، حيث أن التعود على هذا الشيء يحتاج إلى تمرين، وأخشى أنني لم أكن شديدة الرشاقة، فقد كان الأمر وكأنما قد ربطت أرداف أخرى على أردافك الحقيقية، وكلاهما



يتبعانك في كل مكان مثل دلو من الصفيح مربوط لخنزير، لكنني بالطبع لم أقل شيئاً بهذه الفظاظه لجانيت.

على الجانب الآخر من البحيرة، مررنا من خلال مبنى الرسوم الخاص بالولايات المتحدة، وقال المأمور أنه ليس لدينا ما يستحق رسوماً. ثم أخذنا قطاراً آخر، وكنت سعيدة لأن المأمور كان معنا، وإلا ما كنت لأعرف ماذا أفعل في الأمتعة وكيف أتصرف مع الحمالين. وبينما كنا نجلس في هذا القطار الجديد، الذي كان أقل ضجيجاً من القطار السابق، سألت جانيت عن مصيرى. كنا ذاهبين إلى إيثاكا، نيويورك – هذا كل ما أخبرونى به – ولكن ماذا سيحدث لى بعد ذلك؟ كيف سيكون شكل البيت المتوفر، وهل سوف أكون خادمة فيه؛ وإذا كان الأمر كذلك، ماذا قيل لأهل البيت هناك عنى؟ فكما ترى يا سيدى، لم أكن أرغب فى أن أوضع فى مكانة زائفة، أو أن يكون متوقعاً منى إخفاء الحقيقة حول ماضى حياتى.

قالت جانيت أن هناك مفاجأة بانتظارى، وبما أنها سر، لذا ليس بإمكانها أن تخبرنى بما هى؛ لكنها مفاجأة طيبة أو هكذا تتمنى أن تكون. وقد أخبرتنى بقدر من المفاجأة وهى أن الأمر فيه رجل، قالت إنه من السادة؛ لكن لأنها كانت معتادة على إطلاق هذه الكلمة على أى شىء له بنطلون ويزيد على مستوى الجرسون، فلم أفهم شيئاً من ذلك.

عندما قلت أى رجل، قالت أنها لا تستطيع أن تخبرنى؛ ولكنه كان صديقاً قديماً لى، أو هكذا قيل لها. وتظاهرت بالحياء، فلم أستطع أن أعرف كلمة أخرى منها.

وعدت بفكرى إلى كل الرجال الذين يمكن أن يكون منهم. لم أكن أعرف كثيرًا من الرجال، يمكن أن تقول أن الفرصة لم تتح لى؛ والشخصان اللذان عرفتهما جيدًا، رغم أن معرفتى بهما لم تطل، كانا ميئين، وأعنى مستر كينير وچيمس مكدرموت. كان هناك جيرميا البائع المتجول، ولكنى لم أكن أظن أنه يمكن أن يقوم بعمل يختص بتوفير بيوت، فلم يبد عليه أبدًا أنه من النوع الذى يحب الحياة المنزلية. هناك أيضًا الذين عملت معهم من قبل، مثل مستر كوتس ومستر هراغى، ولكن من المؤكد أنهما إما ماتا أو عجوزان للغاية. والشخص الوحيد الذى كان يمكن أن أفكر فيه أيضًا يا سيدى هو أنت نفسك. ولا بد أن أعترف أن الفكرة عبرت ذهنى.

وأخيرًا نزلت فى محطة إيثاكا، وأنا مليئة بالقلق، ولكن أيضًا بالأمل. تدفق ناس كثيرون لملاقاة القطار، والجميع يتكلمون فى وقت واحد؛ وضجة الحمالين، والكثير من الأحمال والصناديق التى تحمل وتدفع على العربات، كل ذلك جعل الوقوف هناك ينطوى على مخاطرة. أمسكت بجانب بشدة بينما أشرف المأمور على حمل الأمتعة، ثم قادنا إلى الناحية الأخرى من مبنى المحطة، وهى الناحية البعيدة عن القطارات، حيث بدأ ينظر حوله. وهمهم لعدم وجود ما توقع، ونظر إلى ساعته، وإلى ساعة المحطة؛ ثم نظر فى رسالة أخرجها من جيبه، وبدأ قلبى يغوص فى صدرى. ولكنه عاد ونظر أمامه وابتسم، وقال، ها هو رجلنا، وبالفعل كان هناك رجل يسرع نحونا.

كان رجلاً ضخماً الجثة وأطول من المعدل العادي، لكنه كان هزياً في نفس الوقت، أي أن ذراعيه وساقيه كانا طويلين، لكن وسطه كان أكثر قوة واستدارة. كان له شعر أحمر ولحية حمراء كبيرة، وكان يرتدي بدلة سوداء من أفضل الأنواع التي تلبس في أيام الأحاد والتي يلبسها معظم الرجال الآن، إذا كانوا يشعرون بأى راحة على الإطلاق في الثياب المنتشرة اليوم، وقميصاً أبيض، ولفاعاً داكناً، وقبعة طويلة كان يحملها في يديه، ويمسك بها أمامه وكأنها درع، وهو الأمر الذي جعلني أرى أنه هو أيضاً كان يشعر بالقلق. لم يكن رجلاً رأيته من قبل في حياتي، ولكن عندما وصل إلينا نظر إلى بنظرة متسائلة ثم وقع على ركبتيه أمام قدمي. وأمسك يدي، بالقفاز وكل شيء، وقال: جريس، جريس، هل يمكن أن تسامحيني أبداً؟ والواقع أنه تقريباً قال ذلك فيما يشبه الصياح، وكأنما كان يتمرن عليها وقتاً طويلاً.

جاهدت لأشد يدي منه، معتقدة أنه رجل مجنون، ولكن عندما التفت إلى جانيت لتتقذني وجدتها مغرورة في فيض من دموع التأثير، وكان المأمور ينظر بعيداً وكأنما لم يكن لديه أمل فيما هو أفضل؛ ورأيت أنني وحدي التي كنت في حالة ذهول ولا أفهم شيئاً.

ترك الرجل يدي ووقف. قال بحزن: إنها لا تعرفني. جريس، ألا تعرفيني؟ أنا ما كنت أخطئك في أى مكان.

ونظرت إليه. كان فيه بالفعل بعض الألفة بشكل ما، ولكني لم أستطع أن أفهم سببها. ثم قال: أنا جيمي وولش. وهنا تبينت أنه هو بالفعل.

ثم ذهبنا إلى فندق جديد قريب من محطة القطار، حيث أعد المأمور غرفاً لنا، وتناولنا بعض المرطبات. وكما يمكن أن تتخيل يا سيدى، كان مطلوباً الكثير من الشرح، لأن آخر مرة رأيت فيها جيمى وولش كانت فى محاكمتى بتهمة القتل، عندما كانت شهادته التى أدارت رؤوس القاضى والمحلفين كثيراً ضدى لأننى ألبس ملابس القتيلة.

مستر وولش – لأننى سوف أدعوه هكذا الآن – بدأ يخبرنى أنه فى ذلك الوقت كان يظن أننى مذنب، رغم أنه لم يكن يتمنى ذلك، لأنه كان معجباً بى دائماً، وكان هذا صحيحاً بالفعل؛ لكن عندما مرت السنوات وتقدم فى العمر وأعاد التفكير فى الأمر، وصل إلى قناعة مضادة، وغلبه الشعور بالذنب بسبب الدور الذى لعبه فى إدانتى؛ رغم أنه لم يكن إلا فتى صغيراً فى ذلك الوقت، ولا يضارع المحامين، الذين قادوه إلى قول أشياء لم يفهم عواقبها إلا فيما بعد. وكنت أعزيه وقلت أنه شىء يمكن أن يحدث لأى شخص.

بعد موت مستر كينير، أجبر هو وأبوه على ترك المزرعة، فالملاك الجدد لم يكونوا بحاجة إليهم؛ ثم حصل على وظيفة فى تورنتو، والتى استطاع الحصول عليها بناء على الانطباع الطيب الذى أحدثه كفتى لامع وواعد، فى المحاكمة، وهو ما كتب عنه فى الصحف. وهكذا يمكن أن تقول أنه بدأ حياته المهنية على حسابى. وظل يوفر نقوده لسنوات عديدة، ثم ذهب إلى الولايات، فقد كان رأيه أن الفرصة هناك أكبر ليكون رجلاً عصامياً – فأنت ما تكونه، وليس ما كان عليه أصلاً، وسألت بعض الأسئلة. عمل فى السكك الحديدية، كما ذهب إلى الغرب، وظل يوفر كل

ما يستطيع طوال الوقت، والآن هو يملك مزرعته الخاصة، وحصانين.  
وقد اهتم بذكر الحصانين، حيث كان يعرف كم كنت أحب تشارلى.

وقد تزوج، لكنه الآن أرملة، وليس لديه أطفال؛ ولم يتوقف أبدًا  
عن تعذيب نفسه بما حدث لى بسببه، وكتب مرات عديدة إلى الإصلاحية  
ليرى كيف تسير أحوالى، لكنه لم يكتب لى مباشرة، حيث إنه لم يكن يريد  
أن يضايقنى. وبهذه الطريقة سمع عن العفو عنى، ورتب المسألة مع  
المأمور.

وكانت الذروة أنه توسل إلى أن أعفو عنه، وهو أمر كنت قد  
فعلته دون طلب منه. فلم أكن أشعر أنه يمكننى أن أحمل ضغينة، وقلت له  
إننى بلا شك كنت سأسجن على أية حال، حتى لو لم يذكر ملابس نانسى.  
وعندما انتهينا من الحديث فى كل هذا، وكان يمسك بىدى ويضغط عليها  
طوال الوقت، طلب منى أن أتزوجه. قال رغم أنه ليس مليونيرًا، إلا أنه  
يمكن بكل تأكيد أن يقدم لى بيتًا طيبًا، بكل ما يمكن أن يكون مطلوبًا، فلديه  
بعض النقود المحفوظة فى البنك.

وقد أبدت جانبًا من التردد، رغم أن الحقيقة كانت أننى ليست لى  
أية فرصة أخرى، وسوف يكون من العقوق أن أقول لا، بعد كل هذه  
المتاعب التى تجشمها. قلت أننى لا أريده أن يتزوجنى بدافع من الواجب  
والشعور بالذنب، وأنكر أن هذه هى دوافعه، وادعى أنه كان دائمًا يحمل  
لى مشاعر دافئة، وأننى لم أتغير إطلاقًا عما كنت عليه فى شبابى – وأننى  
ما أزال ذات طلعة بهية، هذا ما قاله. وتذكرت زهور الأقحوان فى بستان  
مستر كينير، وعرفت أنه يفكر فى نفس الشىء.

أصعب شيء بالنسبة لى كان أن أنظر إليه كرجل كامل النضج، فلم أعرفه إلا كصبي الجوكرى الذى كان يلعب على الفلوت فى الليلة السابقة على موت نانسى، وكان يجلس على السور فى اليوم الأول الذى جئت فيه إلى بيت مستر كينير.

وأخيراً، قلت نعم. وكان معه خاتم جاهز، فى صندوق فى جيب جاكته، وغلبته عاطفته بشدة حتى أنه سقط من يده مرتين على مفرش المنضدة قبل أن يضعه فى إصبعى، وكنت قد خلعت قفازى لذلك.

أعدت ترتيبات الزفاف بأسرع ما يمكن، وبقينا فى الفندق فى هذه الأثناء، وكانت المياه الساخنة تحضر إلى الغرفة كل صباح، وبقيت جانبى معى فى غرفتى حيث أن ذلك أكثر لياقة. وقد دفع مستر وولش التكاليف كلها. وأقمنا مراسم بسيطة بحضور قاضى الصلح، وتذكرت خالتي بولين وهى تقول منذ سنوات كثيرة أننى سوف أتزوج بلا شك ممن هو أقل منى، وتعجبت ماذا يمكن أن تفكر الآن، وقد قامت جانبى بدور وصيفة العروس، وبكت.

وكانت لحية مستر وولش كبيرة جداً وحمراء، لكنى أكدت لنفسى أنه يمكن تغييرها بمرور الوقت.

ثلاثون عامًا مرت، منذ كنت أقل من ستة عشر عامًا من العمر، وسرت لأول مرة في الممشى المؤدى إلى بيت مستر كينير. كان ذلك أيضًا في شهر يونيو. أما الآن فأنا أجلس في الفراندة في بيتي الخاص، وعلى مقعدى الهزاز؛ والوقت قرب المغرب، والمشهد أمامى شديد السلام حتى يمكن أن تظنه صورة. شجيرات الورد في مقدمة المنزل في قمة إزهارها - وهى من نوع ليدى هاميلتون، وجميلة جدًا، رغم أنها معرضة لبعض الآفات. وأحسن شيء، كما يقولون، هو أن تعفرها ببعض الزرنيخ، لكنى لا أحب أن يكون شيء كهذا موجودًا في بيتي.

وتزهر الآن الزهور الأخيرة من الفاوانيا، وهى تنويعة من الأبيض والوردى وذات بتلات كثيفة. لا أعرف اسم هذا النوع، كما لم أكن أنا التى زرعتها؛ ويذكرنى عبيرها بصابون الحلاقة الذى كان يستعمله مستر كينير. وتواجه مقدمة البيت الجنوب الغربى، حيث تأتى شمس دافئة وذهبية، رغم أننى لا أجلس فى الشمس مباشرة، فهى ضارة بالبشرة. وفى مثل هذه الأيام، أفكر أن هذا أشبه بالفردوس. رغم أننى فى المعتاد لا أفكر فى نفسى كذاهبة إلى الفردوس.

مضى على زواجى من مستر وولش حوالى السنة، ورغم أنه ليس ما تتخيله معظم الفتيات فى شبابهن، إلا أنه ربما أفضل، فعلى الأقل كلانا يعرف نوع المساومة التى نخوضها. عندما يتزوج الناس فى شبابهم غالبًا ما يتغيرون وهم يكبرون، ولكن لأننا قد كبرنا بالفعل نحن الاثنان فلن تكون هناك فرص لخيبة الأمل. فالرجل الأكبر له شخصية قد تشكلت بالفعل، وليس من المحتمل أن يدخل فى عادات جديدة مثل الشرب أو ما شابه، لأنه لو كان سيلجأ إلى مثل هذا فلا بد أن يكون قد فعل من قبل، أو هذا رأيى، وأرجو أن يثبت الوقت صحة ذلك. وقد حاولت أن أجعل مستر وولش يشذب لحيته بشكل ما، وأن يدخل الباب خارج البيت فقط، وربما فى الوقت المناسب سوف يختفى هذان الشيطان، اللحية والبايب معًا، ولكن الضغط على الرجل ليس مفيدًا، فهو لا يزيدهم إلا عنادًا. ومستر وولش لا يمضغ التوباكو ولا يبصق كما يفعل البعض، وكما كنت دائمًا فأنا أشكر الله على رحمته فى هذه الأمور الصغيرة.

بيتنا هو بيت مزرعة عادى، أبيض اللون، مصاريعه مطاوعة بالأخضر، ولكنه واسع بما يكفى لنا. فيه صالة أمامية بها صف من الخطاطيف لتعليق المعاطف فى الشتاء، رغم أننا فى الغالب نستخدم باب المطبخ، وسلمًا له درابزين بسيط. وعند رأس السلم يوجد صندوق من خشب الأرز لتخزين البطاطين والملاءات. ويوجد فى الطابق العلوى أربعة غرف — واحدة صغيرة معدة لنوم طفل، ثم غرفة النوم الرئيسية، وواحدة أخرى فى حالة وجود ضيوف، رغم أننا لا نتوقع ولا نريد ضيوفًا؛ وغرفة رابعة فارغة فى الوقت الحالى. والغرفتان المفروشتان حاليًا لكل منهما



حامل للحوض، وكل منهما له كليم بيضاوى من الصوف المجدول؛ فاست  
أبغى سجاجيد ثقيلة؛ حيث أن جرها أسفل السلاالم وضربها لتنظيفها مسألة  
صعبة للغاية، وسوف تكون أصعب مع تقدم العمر بى.

توجد صورة مشغولة بغرزة الصليب فوق كل سرير، وقد قمت  
بعمل هذه الصور بنفسى، زهور فى فارة فى غرفة الضيوف، وفاكهة فى  
طبق فى غرفتنا. والغطاء فى غرفة الضيوف مصنوع على نموذج "عجلة  
الأسرار"، أما فى غرفتنا فالغطاء هو "الكوخ الخشبى"؛ وقد اشتريتهما فى  
بيع مخفض السعر، من أناس فشلوا فى الكسب هنا وكانوا ينتقلون إلى  
الغرب؛ ولكنى شعرت بالأسف من أجل المرأة، ومن ثم دفعت أكثر من  
المطلوب. وكانت هناك أشياء كثيرة بحاجة للعناية ليصبح كل شيء مريحاً  
ومتسماً بالحميمية، ذلك أن مستر وولش كان قد بدأ يعتاد حياة العزوبية بعد  
وفاة زوجته الأولى، وأصبحت بعض الأشياء غير مستساغة. كانت كمية  
كبيرة من نسيج العنكبوت ولفافات الأتربة الناعمة يجب مسحها من تحت  
الأسرة، كما كان ينبغى دعك الأرضيات من القذارة والنفايات المتراكمة.

والستائر الصيفية فى غرفتى النوم كلاتهما بيضاء. إننى أحسب  
الستائر البيضاء.

تحت، لدينا ردهة أمامية بها مدفأة، ومطبخ ملحق به خزانة للمؤن  
وأدوات المائدة، ومكان لغسيل الأطباق وحفظها، كل شيء كامل، والطلبة  
موجودة داخل البيت، وهذه ميزة كبرى فى الشتاء. وهناك غرفة طعام،  
لكننا لا نستقبل ضيوفاً فى الغالب لنستخدمها. فى معظم الوقت نأكل على

مائدة المطبخ؛ ولدينا مصباحا كيروسين، والمكان مريح ودافئ ويشعر بالحميمية والألفة. وأستخدم مائدة غرفة الطعام للخياطة، وهي مفيدة جدًا ومريحة في قص النماذج. ولدى الآن ماكينة خياطة، تعمل بعجلة تدار باليد، وهي مثل السحر، ومن المؤكد أنني سعيدة بها جدًا، فهي توفر كثيرًا من الجهد، خاصة في الخياطة البسيطة مثل عمل الستائر وثني أطراف الملاءات. ولا أزال أفضل الخياطة اليدوية الأجمل، رغم أن عيني ليستا كما كانتا في السابق.

وبالإضافة إلى ما وصفته، لدينا المعتاد: حديقة مطبخ، فيها أعشاب وكرنب والخضر الجذرية، وبسلة في الربيع؛ ودجاج وبط، بقرة وحظيرة، وعربة خفيفة وحصانان، تشارلي ونيل، وهما مصدر سعادة كبيرة بالنسبة لى، وصحبة طيبة عندما يكون مستر وولش غير موجود؛ لكن تشارلي يعمل كثيرًا جدًا، فهو حصان الحرث. ويقولون أنه في القريب العاجل ستكون هناك ماكينات تؤدي كل هذه الأعمال، وإذا كان الأمر كذلك فيمكن أن نحول تشارلي المسكين إلى الرعى. فلن أتركه أبدًا يباع ليتحول إلى طعام للكلاب ولا استخراج الصمغ، كما يفعل البعض.

وهناك رجل أجير يساعد في المزرعة، لكنه لا يعيش في المكان، وقد أراد مستر وولش أن يوظف فتاة أيضًا، لكنى قلت أنني أفضل أداء أعمال البيت بنفسى. فلا أريد خادمة تعيش في البيت، حيث أنهن يتطفلن كثيرًا، ويستمنعن من وراء الأبواب، كما أنه من الأسهل كثيرًا بالنسبة لى أن أقوم بالمهمة بشكل صحيح بنفسى من أول مرة، من أن أترك غيرى يؤديها بشكل خاطئ ثم يعيد أداءها.

لدينا قطة اسمها تابی؛ وهى باللون الذى يمكن أن تخمنه، وقديرة فى صيد الفئران، وكلب اسمه ركس، وهو كلب صيد وليس بارعاً، رغم أنه طيب، وهو باللون الجميل جداً البنى المحمر، مثل ثمرة بندق لامعة. وهذه ليست أسماء جديدة ومبتكرة، لكننا لا نريد أن تنتشر عنا سمعة فى المنطقة بأننا شديدي التجديد. ونحن نذهب إلى الكنيسة الميثودية المحلية، والواعظ فيها شخص شديد الحيوية ومغرم ببعض نيران جهنم فى أيام الأحاد؛ ومع ذلك فأنا لا أعتقد أن لديه أى فكرة عما هى جهنم فى الواقع، ليس أكثر مما لدى المجتمعين أنفسهم؛ وهم أرواح جديرة، رغم أنها ضيقة الأفق. ولكننا فكرنا أنه من الأفضل ألا نكشف كثيراً من الماضى، لهم أو لى شخص، فلن يؤدي ذلك إلا إلى الفضول والنميمة، ثم إلى الإشاعات الكاذبة. وقد أشعنا أن مستر وولش هو حبيبي منذ الطفولة، وأنى تزوجت شخصاً آخر، لكننى ترملت، وبما أن زوجة مستر وولش توفيت، فقد دبرنا للقاء ثانية، وللزواج. وهى قصة كان من السهل قبولها، ولها ميزة أنها رومانسية، ولا تسبب ألماً لأحد.

كنيستنا الصغيرة محلية للغاية، وقديمة الطراز؛ لكن فى إيثاكا نفسها طرازات أحدث، كما أن لديهم عددًا من الروحيين هناك، وبعض الوسطاء المشهورين يأتون ويمكثون فى أفضل البيوتات. وأنا لا أذهب إلى أى من هذا، فلا تعرف أبداً ماذا يمكن أن يأتى منها؛ وإذا كنت أريد الاتصال بالموتى فيمكننى أن أفعل ذلك بطريقتى؛ وبالإضافة إلى ذلك، أخشى أن يكون هناك الكثير من الغش والخداع.

رأيت في أبريل أحد الإعلانات عن أحد الوسطاء المشاهير، مع صورة له؛ ورغم أن الصورة كانت شديدة القتامة، إلا أنني فكرت في أن هذا لابد أن يكون جيرميا البائع المتجول؛ وقد كان هو بالفعل، حيث كان لدينا أنا ومستر وولش فرصة للذهاب إلى المدينة لبعض المهمات والمشتريات، ومررت به في الطريق. كان يرتدى ثيابًا أكثر أناقة من أي وقت من قبل، وعاد شعره أسود مرة أخرى ولحيته مهذبة بالطريقة العسكرية، والتي لابد أنها توحى بالنقطة، واسمه الآن مستر جيرالد بريديجز. كان يقوم بنقله جيد جدًا لرجل متميز، ومعروف على مستوى العالم كله، ولكن عقله يرى الحقائق العليا؛ وقد رأني أيضًا، وعرفني، ولمس قبعته في تحية احترام لي، ولكن بحركة خفيفة جدًا حتى لا يلاحظها أحد؛ وغمزة عين خفيفة أيضًا؛ وقد لوحت له بيدي، بخفة، وهي لا تزال داخل القفاز، فأنا ألبس القفاز دائمًا وأنا ذاهبة إلى المدينة. ولحسن الحظ لم يلحظ مستر وولش أيًا من هذه الإيماءات، وإلا لكانت مصدر ضيق بالنسبة له.

إنني لا أتمنى أن يعرف أحد هنا اسمي الحقيقي؛ لكنني أعرف أن أسرارى في أمان مع جيرميا، كما أن أسرارها في أمان معي. وتذكرت الوقت الذي كان يمكن فيه أن أهرب معه، وأصبح غجيرة، أو وسيطة تستبصر الغيب، فقد كان الإغراء بأن أقوم بذلك قويًا حقًا؛ وفي تلك الحالة كان مصيرى سوف يتغير تمامًا. لكن لا يعلم إلا الله ما إذا كان سيصبح أفضل أم أسوأ؛ وقد فعلت الآن كل الهروب الذي يتسع له الوقت في هذه الحياة.

وبشكل عام، نتفق أنا ومستر وولش، وتسير الأمور بيننا على خير ما يرام. ولكن هناك أمر أقلقنى يا سيدى، وبما أننى ليست لى صديقة يمكن أن أثق بها، فأنا أخبرك أنت عن هذا الأمر، وأعلم أنك ستحفظ السر. من حين لآخر يشعر مستر وولش بحزن شديد، ويمسك بيدي ويتأملنى والدموع فى عينيه، ويقول دعينى أفكر فى المعاناة التى سببتها لك.

أقول له أنه لم يكن سببًا فى أية معاناة – إنما هم آخرون الذين سببوا هذه المعاناة، وكذلك سوء حظ ومحاكمة غير عادلة – ولكنه يحب أن يفكر إنه هو السبب فى كل هذا، وأعتقد أنه يمكن أن يدعى أنه السبب فى موت أمى أيضًا إذا أمكنه أن يتوصل إلى ذلك. كما أنه يحب تصور المعاناة أيضًا، ولا شىء ينفع معه إلا أن أقص عليه بعض الأحداث حول حياتى فى الإصلاحية، أو المصحة العقلية فى تورنتو. وكلما وصفت مدى سوء الحساء الذى كان يقدم لنا، وفساد الجبن، وكلما زدت من قدر مضايقات الحراس وكلماتهم الغليظة كلما أحب الحكاية أكثر. إنه يستمع إلى كل ذلك مثل طفل يستمع إلى قصة خيالية، كما لو كانت شيئًا رائعًا، ثم يتوصل إلى أن أخبره بالمزيد. وإذا أضفت من وصف البرد القارس والرعدة التى كانت تتأبى أثناء الليل تحت البطانية الخفيفة، والضرب بالسوط إذا اشتكيت، يشعر بالابتهاج؛ وإذا أضفت التصرفات غير اللائقة التى كان يتصرفها د. بانرلينج معى، والحمامات الباردة عاريات وملفوفات فى ملاءة، والصدريّة المسطحة فى الغرفة المظلمة، يبدو وكأنه وصل إلى النشوة التامة؛ ولكن أحب جزء من القصة إليه عندما كان المسكين جيمس

مكدموت يشدنى فى أنحاء بيت مستر كينير، باحثًا عن سرير لتنفيذ أغراضه الشريرة، ونانسى ومستر كينير راقدان ميتان فى القبو، وأنا أكاد أغيب عن الوعى من الرعب؛ ويلوم نفسه أنه لم يكن هناك لينقذنى.

أنا نفسى أفضل أن أنسى هذا الجزء من حياتى بأسرع ما أستطيع، بدلا من التحويم حوله بهذه الطريقة الجنائزية. حقيقة أننى أحببت الوقت الذى فيه كنت أنت يا سيدى فى الإصلاحية، لأنه كسر رتابة أيامى، التى كانت تسير على وتيرة واحدة لا تتغير. والآن وأنا أفكر فى ذلك الوقت، أرى أنك كنت بنفس توق مستر وولش لسماع كل شىء عن معاناتى ومتاعبى فى الحياة؛ وليس هذا فقط، بل إنك كنت تكتب ذلك أيضًا. وكان يمكننى أن أعرف متى كان اهتمامك يفتر، فنظرتك تشرد؛ ولكنى كنت أشعر بالسرور عندما أستطيع أن آتى بشىء يثير اهتمامك. كانت وجنتاك تحمران، وتبتسم مثل الشمس فى ساعة الردهة فى بيت مسز ألدان پاركينسون، وإذا كانت لديك أذنان مثل أذنى الكلب، فلا بد أنهما كانتا سوف تتفران إلى الأمام، مع لمعان عينيك وتدلى لسانك كما لو كنت وجدت دجاجة برية وسط الشجيرات. كان هذا يشعرنى بأن لى فائدة فى هذا العالم، رغم أننى لم أفهم أبدًا على وجه التحديد ما الذى كنت ترمى إليه بكل هذا.

أما مستر وولش، فبعد أن أخبره ببعض قصص التعذيب والبؤس، يأخذنى بين ذراعيه ويربب على شعرى، ويبدأ فى فك أزرار ثياب نومى، فهذه المشاهد تحدث دائمًا فى الليل؛ ويقول، هل يمكن أن تغفرى لى ذات يوم؟

فى البداية كان ذلك يضايقتى كثيراً، رغم أننى لم أكن أقول ذلك. والواقع أنه لا يفهم حقيقة التسامح إلا قليلون جداً. وليس المجرمون هم الذين يجب أن نغفر لهم؛ بل الضحايا، لأنهم كانوا هم الذين تسببوا فى كل هذه المتاعب. فإذا كانوا أقل ضعفاً وإهمالاً، وأكثر حكمة فى تقدير العواقب، وإذا توقفوا عن التورط فى المتاعب، فكم من المأسى يمكن للعالم أن يتجنبها فى هذه الحالة!

كان قلبى مليئاً بالغضب سنوات كثيرة، بالغضب على مارى هويتتى، وبخاصة على نانسى مونتجومرى؛ بالغضب عليهما معاً، لأنهما قادتنا نفسيهما إلى الموت بهذه الطريقة التى حدثت، وتركتانى أعانى من كل هذا الحمل الثقيل الناتج عما حدث لهما. ولم أجد فى نفسى لفترة طويلة قدرة على الغفران لهما. وكان الأفضل كثيراً لو يغفر مستر وولش لى، بدلاً من أن يكون بهذا العناد ويريد الأمر بالعكس؛ ولكن ربما سوف يأتى الوقت الذى يرى الأمور على وجهها الصحيح.

عندما بدأ ذلك فى البداية، قلت ليس هناك ما أغفره له، وإنه لا يجب أن يقلق على ذلك؛ ولكن لم تكن تلك هى الإجابة التى يريدونها. وأصر على أن أغفر له، وبدا أنه لا يستطيع أن يشعر بالراحة بغير ذلك، ومن أنا لكى أرفض أن أمنحه مثل هذا الشيء البسيط؟

وهكذا، فى كل مرة يحدث ذلك الآن، أقول له أنى أغفر له. أضع يدي على رأسه كما لو كان فى كتاب، وأنظر إلى أعلى بنظرة جليلة مهيبية، ثم أقبله وأبكى قليلاً؛ ثم بعد أن أمنحه الغفران، يعود إلى حالته

العادية في اليوم التالي، يلعب على الفلوت كما لو كان قد عاد صبيًا مرة أخرى وأنا في الخامسة عشرة ونحن بالخارج في البستان نصنع عقود الأبقوان في منزل مستر كينير.

ولكني لا أشعر بأن ذلك عدل، وأنا أغفر له بهذه الطريقة، لأنني أدرك أنني بهذا أكذب. رغم أنني أظن أنها أول كذبة صدرت عني؛ ولكن كما كانت ماري هويتتي تقول إن كذبة بيضاء صغيرة، مثل الكلام عن الملائكة، هي ثمن صغير ندفعه للحصول على السلام والهدوء.

أفكر في ماري هويتتي كثيرًا هذه الأيام، وعندما ألقينا بقشر التفاح من فوق كتفينا؛ وقد حدث كل ذلك بالفعل. كما قالت لي تمامًا، تزوجت من رجل يبدأ اسمه بحرف "ج"؛ وكما قالت أيضًا، كان يجب أن أعبر الماء ثلاث مرات، حيث أنني عبرت الماء مرتين في المعديّة إلى لويستون، ذهابًا وإيابًا، ثم مرة ثالثة في طريقي إلى هنا.

وأحلم أحيانًا بأنني في غرفتي الصغيرة في منزل مستر كينير، قبل كل الرعب والمأساة؛ وأشعر بالأمان هناك، حيث لا أعرف ماذا سيأتي. وأحيانًا أحلم بأنني لا أزال في الإصلاحية؛ وأنني سوف أستيقظ لأجد نفسي محبوسة مرة أخرى في زنزانتني، أرتعش على الحشية القش في صباح شتوي بارد، والحراس يضحكون في الفناء بالخارج.

ولكنني هنا بالفعل، في بيتي الخاص، في مقعدى الخاص، أجلس في الفرانده. أفتح عيني وأغلقهما، وأقرص نفسي، لكنها تظل هي الحقيقة. والآن هناك شيء آخر لم أخبر به أحدًا.



لقد مر عيد ميلادى الخامس والأربعون عندما خرجت من الإصلاحية، وسوف أبلغ السادسة والأربعين فى أقل من شهر، وقد فكرت أننى قد تخطيت فترة القدرة على حمل طفل. لكن إذا لم أكن مخطئة، فإننى حامل الآن فى شهرى الثالث؛ إما أنه ذلك، أو هو التغير الطبيعى الذى يحدث للمرأة. من الصعب أن أصدق، ولكن كانت هناك معجزة فى حياتى بالفعل، فلماذا يدهشنى أن تكون هناك معجزة أخرى؟ مثل هذه الأشياء حكى عنها الإنجيل؛ وربما كان الله يخبئ بعض العوض عن كل ما عانيته فى سن أصغر. ولكن من الممكن أيضاً أن يكون وربما خبيثاً، مثل ذلك الذى قتل أمى المسكينة فى النهاية؛ فرغم أننى أشعر بتقل ما؛ فأنا لم أعان من الغثيان فى الصباح. من الغريب أن تعرف أنك تحمل داخلك إما حياة وإما موتاً، ولكن لا تعرف أيهما. ورغم أن كل هذا يمكن حله باستشارة طبيب، فإننى شديدة التردد فى اتخاذ مثل هذه الخطوة؛ ومن ثم أظن أن كل شيء س يظهر بمرور الوقت.

بينما أجلس بالخارج فى الفراندة فى العصارى؛ أقوم بالخياطة والتطريز فى الغطاء الذى أصنعه. ورغم أننى صنعت كثيراً من الأغطية فى شبابى، فإن هذا الغطاء هو أول غطاء أصنعه لنفسى. والغطاء على نموذج شجرة الفردوس؛ لكنى غيرت التصميم قليلاً ليناسب أفكارى.

لقد فكرت كثيراً فىك وفى تفاحتك يا سيدى، واللغز الذى قدمته لى ذات مرة، أول مرة التقينا فيها. لم أفهمك فى ذلك الوقت، لكن لابد أنك كنت تحاول أن تعلمنى شيئاً، وربما لم أستطع حدسه إلا الآن. فالطريقة التى أفهم بها الأشياء، مثل أن الإنجيل ربما هو فكر الله فى الأصل، لكنه

كتب بأيدي الناس. ومثل كل شيء يكتبه الناس، كالصحف مثلاً، يضعون القصة الأساسية بالطريقة الصحيحة، لكن بعض التفاصيل تكون خطأ.

فنموذج الغطاء اسمه "شجرة الفردوس"، ومن وضعت هذا الاسم لذلك النموذج وضعت اسماً لا تعرف معناه، فالإنجيل لا يقول "أشجار". إنما يقول كانت هناك شجرتان مختلفتان، شجرة الحياة، وشجرة المعرفة؛ ولكنى أعتقد أن هناك شجرة واحدة، وأن ثمرة الحياة وثمره الخير والشر كلها نفس الشيء. وإذا أنت أكلت من هذه الثمرة سوف تموت، وإذا لم تأكل منها فسوف تموت أيضاً؛ ولكن إذا أكلت منها فسوف تكون أقل جهلاً عندما يأتي أوان موتك.

ومثل ذلك الترتيب يبدو أكثر شبيهاً بالحياة فى الواقع.

وأنا لا أقول هذا لأى أحد إلا لك، لأننى أعرف أنها ليست القراءة المتفق عليها.

وفى شجرة فردوسى، أنوى أن أضع إطاراً من الأفاعى المجدولة ببعضها؛ سوف تبدو فى عيون الآخرين مثل أفرع العنب أو مجرد نموذج لإطار، فأنا أنوى أن أجعل العيون صغيرة جداً، ولكنى سأعرف أنها أفاع؛ فبدون وجود أفعى أو اثنتين، سيضيع الجزء الأساسى من القصة. إن بعض من يستخدمون هذا النموذج يصنعون أشجاراً عديدة، أربع أشجار أو أكثر فى مربع أو دائرة، لكننى سوف أصنع شجرة كبيرة واحدة، على خلفية بيضاء. الشجرة نفسها مكونة من مثلثات، بلونين، لون غامق للأوراق، ولون أفتح للثمار؛ وأستخدم اللون القرمزى للأوراق، والأحمر للثمار.

وهناك ألوان كثيرة مشرقة، بالصبغات الكيماوية التي انتشرت الآن، وأعتقد أنه سوف يكون جميلاً جداً.

ولكن ثلاثة من المثلثات فى شجرتى ستكون مختلفة. أحدها سيكون أبيض، من التنورة الداخلية التى لا تزال عندى من ملابس مارى هويتى؛ والآخر سيكون مصفراً باهتاً، من قميص النوم الذى كنت أستخدمه فى السجن والذى رجوت أن أحتفظ به كتذكار عندما غادرت السجن. والثالث سيكون من القطن الفاتح، به وردات بيضاء ووردية، أقصوصة من فستان نانسى الذى كانت ترتديه فى أول يوم ذهبت فيه إلى بيت مستر كينير، والذى ارتديته فى المركب فى طريقى إلى لويستون عندما كنت أهرب.

وسوف أطرز حول كل قطعة من هذه الثلاث بخرزة الريشة، وبخيطة أحمر، لأميزها كجزء من النموذج.  
وهكذا سوف تبقى جميعاً معاً.

## كلمة أخيرة

**المذبذبة** عمل روائي، رغم أنه قائم على أحداث جرت في الواقع. الشخصية الرئيسية فيه، جريس ماركس، كانت من أشهر نساء كندا في أربعينيات القرن التاسع عشر، حيث أدينّت بارتكاب جريمة القتل وهي بعد في السادسة عشرة من عمرها.

حدثت جريمة قتل كينير ومونتجومري في ٢٣ يوليو ١٨٤٣، وانتشرت أخبارها ليس فقط في الصحف الكندية، ولكن أيضاً في صحف الولايات المتحدة وبريطانيا. والتفاصيل شديدة الإثارة: فـجريس ماركس كانت فتاة جميلة إلى درجة غير عادية، كما كانت صغيرة جداً؛ ومدبرة منزل كينير، نانسي مونتجومري، سبق لها أن وضعت طفلاً غير شرعي، وكانت عشيقّة توماس كينير؛ وعن

د تشريحها وجد أنها حامل. هربت جريس ماركس وزميلها الخادم مكرموت إلى الولايات المتحدة سوياً، واعتبرتتهما الصحف حبيبين. وكان اجتماع الجنس والعنف، والتمرد البائس للطبقات الدنيا شديد الجاذبية بالنسبة للصحفيين في ذلك العصر.

عقدت المحاكمة في أوائل نوفمبر. ولم يحكم إلا في قضية قتل كينير: فالمتهمان كلاهما حكم عليهما بالإعدام، مما جعل المحكمة تعتبر أن

نظر قضية نانسي مونجومري غير ضروري. وشنق مكرموت أمام جمع  
غير في ٢١ نوفمبر؛ لكن الرأي حول جريس كان منقسمًا منذ البداية،  
ونتيجة مجهودات محاميها، كينيث ماكنزي، ومجموعة من مقدمي  
الالتماسات من الرجال من علية القوم — والذين ترفعوا دفاعًا عن شبابها  
الغض، وضعف جنسها، وما يفترض فيها من سذاجة — تم تخفيف الحكم  
عليها إلى السجن مدى الحياة، ودخلت الإصلاحية المحلية في كينجستون  
في ١٩ نوفمبر ١٨٤٣.

واستمرت الكتابة عن جريس تظهر في الصحف طوال القرن،  
واستمرت تستقطب الرأي حولها. وأظهرت المواقف التي اتخذت حيالها  
نوعًا من الغموض وعدم الفهم حول طبيعة المرأة: هل كانت جريس  
شيطانة ومغوية، وهي التي حثت على ارتكاب الجريمة، وبذلك تكون هي  
القاتل الحقيقي لنانسي مونجومري، أم أنها كانت ضحية رغم إرادتها،  
أجبرت على الصمت بسبب تهديدات مكرموت وخوفها على حياتها؟  
ومما زاد الطين بلة أنها هي نفسها روت ثلاث روايات مختلفة حول قتل  
مونجومري، بينما روى مكرموت روايتين.

تعرفت على قصة جريس ماركس لأول مرة من خلال كتاب  
سوزانا مودي (1853) *Life in the Clearings*. وكانت سوزانا مودي  
معروفة بكتابها *Roughing It in the Bush*، وهي رواية غير مشجعة عن  
حياة الرواد الأوائل فيما كان معروفًا في ذلك الوقت بكندا العليا، وهي  
أونتاريو اليوم. وكان الجزء الثاني بعنوان *Life in the Clearings*،  
مقصودًا به عرض الجانب الأكثر تحضرًا من "غرب كندا"، كما كانت

تعرف في ذلك الوقت، وتضمن الكتاب وصفًا يدل على الإعجاب لكل من الإصلاحية المحلية في كينجستون، والمصحة العقلية في تورنتو. وكانت مثل هذه المؤسسات العامة تحظى بزيارة الناس كما لو كانت حديقة حيوان. وفي المكانين كليهما، طلبت مودى رؤية النجم الجذاب، جريس ماركس.

وكانت رواية مودى للجريمة هي رواية المتداول الثالث. وفيها تصف جريس بأنها المحرض الرئيسي، منساقًا بحبها لتوماس كينيير وغيرتها من نانسي، وباستخدام وعد بمنح نفسها لمكدموت لتحثه على ارتكاب الجريمة. وتم تصوير مكدموت بأنه مسلوب العقل بسببها، ومن السهل السيطرة عليه. ولا تستطيع مودى مقاومة إغراء الميلودراما الأدبية، ولم يكن تقطيع جسد نانسي إلى أربعة أرباع اختراعها الخالص، وإنما هو تقليد خالص لهاريسون آينزوورث. وكان تأثير رواية ديكنز *أوليفر تويست* — التي كانت مفضلة لدى مودى — واضحًا للغاية بالنسبة لما روته عن العيون التي يغلقها الدم والتي قالت أنها تلاحق جريس ماركس.

وبعد مشاهدتها لجريس ماركس في الإصلاحية بقليل، صادفتها في المصحة العقلية في تورنتو، حيث كانت قد أودعت في جناح مرضى العنف. ورواية مودى الأصيلة عن مشاهداتها هي جديرة بالتصديق بشكل عام، ومن ثم فإن روايتها عن جريس وهي تصرخ أو تثب مرحًا لابد أن تكون صحيحة. ولكن بمجرد نشر كتاب مودى — وبعد قليل من تعيين جوزيف وركمان الطبيب الإنسان كمشرف طبي على المصحة — اعتبرت جريس عاقلة بما يكفي لإعادتها إلى الإصلاحية؛ حيث ترينا السجلات أنها

كانت محل شك في أن تكون قد أصبحت حاملاً في فترة غيابها. وكانت تلك أعراض كاذبة، لكن من في المصحة كان يمكن أن يكون هو الفاعل المفترض؟ كانت أجنحة المصحة معزولة؛ والرجال الوحيدون الذين كان يسهل اتصالهم بالمرضى من النساء كانوا هم الأطباء.

وخلال العقدين التاليين، تظهر جريس في سجلات الإصلاحية من حين لآخر. من المؤكد أنها كانت قادرة على القراءة والكتابة، حيث تصفها مذكرات الأمور بأنها تكتب رسائل. وقد أثرت في عدد كبير من الأشخاص المحترمين - ومنهم رجال دين - حتى عملوا بكل جهدهم بالنيابة عنها، وقدموا العديد من الالتماسات التي تهدف إلى الإفراج عنها، وسعوا إلى الحصول على الرأي الطبي ليدعم قضيتهم. ويقرر اثنان من الكتاب أنها كانت خادمة موثوقاً بها لسنوات عديدة في بيت "المحافظ" - ربما محافظ الإصلاحية - رغم أن سجلات السجن غير الكاملة لا تشير إلى ذلك. ولكن، كان من المعتاد في ذلك الوقت في أمريكا الشمالية تأجير المساجين للعمل اليومي.

وفي ١٨٧٢، منحت جريس ماركس العفو أخيراً؛ وترينا السجلات أنها ذهبت إلى ولاية نيويورك، مصحوبة بالمأمور وابنته، إلى "منزل مقدم لها". ويدعى الكتاب فيما بعد أنها تزوجت هناك، رغم أن الدليل على ذلك ليس موجوداً، وبعد هذا التاريخ، اختفى كل أثر لها. ولا نعرف بوضوح هل كانت حقاً شريكة في قتل نانسي مونتجومري وعشيقة جيمس مكرموت، ولا نعرف أيضاً إذا ما كانت "مجنونة" حقاً

ام أنها مثلت الجنون — كما كان يفعل كثيرون — لنضمن ظروفًا أفضل لنفسها. إن الشخصية الحقيقية لجريس ماركس تبقى لغزًا غامضًا.

ويبدو أن توماس كينير جاء من عائلة اسكتلندية من كينلووتش، بالقرب من كوبار، في "فيفي"، وأنه كان توأم وريث أملاك العائلة؛ الذي كان يكبره بسويغات قليلة. ورغم ذلك، من الغريب أن طبعة من كتاب *Burke's Peerage* تذكر أنه توفي في نفس الوقت تقريبًا الذي ظهر فيه في غرب كندا. وقد ظل منزل كينير في ريتشموند هيل قائمًا حتى أواخر القرن، وكان موضع اهتمام المرتادين للمنطقة لرؤيته. وقد أسست زيارة سايمون جوردان لهذا البيت على رواية أحد هؤلاء. أما مقبرتي توماس كينير ونانسي مونتجومري فهما لا تزالان في الكنيسة المشيخية البروتستانتية في ريتشموند هيل، رغم عدم وجود شاهد عليهما. وقد كتب ويليام هاريسون في ١٩٠٨ قائلاً أن سور العيدان الخشبية المحيط بهما قد أزيل، في وقت تم فيه إزالة كل الأسوار المشابهة حول المقابر. وكذلك اختفت شجرة الورد التي كانت فوق مقبرة نانسي.

**ملاحظات أخرى: تفاصيل حياة السجن والمصحة العقلية مستمدة من السجلات المتاحة. معظم الكلمات في رسالة د. وركمان هي كلماته بالفعل. "د. بانرلينج" يعبر عن الآراء التي نسبت إلى د. ووركمان بعد وفاته، والتي لا يمكن أن تكون هي آراءه نفسه.**

تصميم منزل پاركينسون شديد الشبه بقلعة دوندورن في هاميلتون، أونتاريو. وكان شارع لوت في تورنتو هو اسم جزء من شارع كوين. والتاريخ الاقتصادي للوميسفيل، وطريقة معاملة بنات المصانع، هو



نفس تاريخ لوويل، ماساتشوستس، مع بعض التصرف الحر. مصير ماري هويتى له ما يوازيه في السجلات الطبية لدكتور لانجستاف في ريتشموند هيل. صورتى البورتريه لكل من جريس ماركس وجيمس مكرموت فى بداية الكتاب جاءت من اعترافيهما، المنشور فى جريدة *Star and Transcript*، التى كانت تصدر فى تورنتو.

جنون الروحانيين فى شمال أمريكا بدأ فى ولاية نيويورك فى أربعينيات القرن التاسع عشر، مع "مقارع" أخوات فوكس، واللاتى جنن أصلاً من بيلفيل – حيث كانت سوزانا مودى تقيم فى ذلك الوقت، وحيث تحولت إلى "الروحانية". ورغم أنها سرعان ما اجتذبت عددًا من الدجالين والمشعوذين، فإن الحركة انتشرت سريعًا ووصلت إلى ذروتها فى خمسينيات القرن التاسع عشر، وكانت قوية بشكل خاص فى ولاية نيويورك ومنطقة كينجستون – بيلفيل. وكانت الروحانية نشاطاً شبه دينى للعصور التى سمح فيها للنساء ببعض مظاهر السلطة المشكوك فيها، حيث أن النساء أنفسهن كان يفترض أنهن مجرد قنوات ناقلة لإرادة الروح.

التنويم المغناطيسى (المسمرية) كان قد أدين كإجراء علمى سيئ السمعة فى بدايات القرن التاسع عشر، ولكنه كان يمارس على نطاق واسع عن طريق رجال العروض العامة المشبوهة فى أربعينيات القرن. وبظهور "التنويم العصبى" لجيمس بريد، والذى أطاح بفكرة "التدفق المغناطيسى"، بدأ الاحترام يعود إلى التنويم المغناطيسى، وفى الخمسينيات كان التنويم المغناطيسى قد اكتسب بعض الأتباع من ضمن الأطباء الأوروبيين،

رغم أنه لم يكن بعد قد بلغ القبول الواسع الانتشار كتقنية نفسية والذي سوف يصل إليه في أواخر ذلك القرن.

وكان التوالد السريع للنظريات الجديدة حول الأمراض العقلية أحد مميزات أواسط القرن التاسع عشر، كما انتشرت العيادات والمصحات النفسية، العامة والخاصة. وكان هناك الكثير من الإثارة والفضول بين الأطباء والعلماء والكتاب على السواء، حول ظواهر مثل الذاكرة وفقدان الذاكرة، والمشى أثناء النوم، والهستيريا، ونوبات النوم، والأمراض العصبية، ودلالات الأحلام. وقد انتشر الاهتمام الطبي بالأحلام بشدة حتى أن طبيباً ريفياً مثل د. جيمس لانجستاف كان يسجل أحلام مرضاه. وقد تم وصف "ازدواج الشخصية"، في بدايات القرن؛ وقد تمت مناقشته مناقشة جادة في أربعينيات القرن التاسع عشر، رغم أنه حصل على اهتمام أكثر بكثير في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن. وقد حاولت أن أوسس آراء د. سايمون جوردان على الأفكار المعاصرة التي ربما كانت متاحة له.

وبالطبع أضفت من خيالي أحداثاً تاريخية (كما فعل الكثير من المعلقين على هذه القضية، رغم ادعائهم بأنهم يكتبون التاريخ). ولكني لم أغير أيّاً من الحقائق المعروفة، رغم أن الروايات المكتوبة شديدة التناقض، حتى أن الحقائق التي تعتبر "معروفة" بشكل لا لبس فيه، قليلة للغاية. هل كانت جريس تحلب البقرة، أو تجمع بعض الثوم، عندما ضربت نانسي بالفأس؟ لماذا كان قميص مكدرموت على جثة كينير، ومن أين حصل مكدرموت على القميص — من بائع، أم من صديق بالجيش؟ كيف وصل الكتاب أو المجلة المغطاة بالدم إلى فراش نانسي؟ أي واحد من المحامين

المحتملين ممن يحملون اسم كينيث ماكنزي كان هو القائم بالدفاع؟ وقد حاولت في حالات الشك أن أختار أكثر الاحتمالات معقولة، مع وضع كل الاحتمالات الأخرى في اعتباري. وفي الأماكن التي ظهرت فيها مجرد تلميحات أو فجوات واضحة في السجلات، سمحت لنفسى بالإبداع بحرية.

## شكر وتقدير

أريد أن أشكر بشدة موظفي السجلات والمكتبات، الذين ساعدوا على إيجاد بعض الأجزاء الناقصة، والذين بدون خبرتهم المهنية ما كان يمكن لهذه الرواية أن تكتمل، وهم:

ستيف أونج Dave St. Onge، أمين وثائق إدارة التصحيح بمتحف كندا، كنجستون، أونتاريو؛ ماري لويد Mary Lloyd، أمينة مكتبة لقسم التاريخ المحلي وعلم الأنساب، مكتبة ريتشموند هيل العامة، ريتشموند هيل، أونتاريو؛ كارين بيرجستاينسون Karen Bergsteinsson، أمينة وثائق المراجع بدار وثائق أونتاريو، تورنتو؛ هيثر ماكميلان Heather J. Macmillan، أمين وثائق، قسم الوثائق الحكومية، دار الوثائق القومية الكندية، أوتاوا؛ بتي مور Betty Jo Moore، أمينة وثائق، في دار وثائق تاريخ الصحة النفسية والعقلية، مركز كوين إستريت للصحة العقلية، Queen Street Mental Health Centre، تورنتو؛ آن - ماري لانجلويس Ann-Marie Langlois، وجابرييل إيرنشو Gabrielle Earnshaw، أمينا وثائق الجمعية القانونية لوثق كندا العليا، أوسجود هول، تورنتو؛ كارين تيبيل Karen Teeple، مدير دار وثائق مدينة تورنتو، وجليندا ويليامز

Glenda Williams، استعلامات هذه الدار؛ كين ويلسون Ken Wilson، من أرشيفات الكنيسة المتحدة، جامعة فيكتوريا، تورنتو؛ و.. نيل سمبل Neil Semple، الذى يقوم بكتابة تاريخ المذهب الميثودى فى كندا.

أحب أيضاً أن أشكر أيلين كريستيانسون Aileen Christianson، من جامعة إدينبره، إسكتلنده، وعلى لومسدين Ali Lumsden، اللذين ساعدا على تتبع أصول توماس كينير.

وبالإضافة إلى المواد الأرشيفية المذكورة بعاليه، لجأت إلى صحف العصر، وأهم هذه الصحف:

***Star and Transcript (Toronto);***

***Chronicle and Gazette (Kingston);***

***The Caledonian Mercury (Edinburgh, Scotland);***

***The Times (London, England);***

***British Colonist (Toronto);***

***The Examiner (Toronto);***

***Toronto Mirror;***

***The Rochester Democrat.***

وقد وجدت الكثير من الكتب مفيدة، ولكن بشكل خاص:

**Susanna Moodie, *Life in the Clearings* (1853, reprinted by Macmillan, 1959);**

----- *Letters of a Lifetime*, edited by Ballstadt, Hopkins, and Peterman, University of Toronto Press, 1985;

Chapter IV, Anonymous, in *History of Toronto and County of York, Ontario*, Volume 1, Toronto: C. Blackett Robinson, 1885;

*Beeton's Book of Household Management*, 1859-61, reprinted by Chancellor Press in 1994;

Jacalyn Duffin, *Langstaff: A Nineteenth-Century Medical Life*, University of Toronto Press, 1993;

Ruth McKendry, *Quilts and Other Bed Coverings in the Canadian Tradition*, Key Porter Books, 1979;

Mary Con-way, *300 Years of Canadian Quilts*, Griffin House, 1976;

Marilyn L. Walker, *Ontario's Heritage Quilts*, Stoddart, 1992;

Osborne and Swainson, *Kingston: Building on the Past*, Butternut Press, 1988;

K. B. Brett, *Women's Costume in Early Ontario*, Royal Ontario Museum, University of Toronto, 1966;

*Essays in the History of Canadian Medicine*, edited by Mitchinson and McGinnis, McClelland & Stewart, 1988;

Jeanne Minhinnick, *At Home in Upper Canada*, Clarke, Irwin, 1970;

Marion Macrae and Anthony Adamson, *The Ancestral Roof*, Clarke, Irwin, 1963;

***The City and the Asylum*, Museum of Mental Health Services,  
Toronto, 1993;**

**Henri F. Ellenberger, *The Discovery of the Unconscious*, Harper  
Collins, 1970;**

**Ian Hacking, *Rewriting the Soul*, Princeton University Press, 1995;**

**Adam Crabtree, *From Mesmer to Freud: Magnetic Sleep and the  
Roots of Psychological Healing*, Yale University Press,  
1993;**

**and Ruth Brandon, *The Passion for the Occult in the Nineteenth  
and Twentieth Centuries*, Knopf, 1983.**

قصة جريمتي كينير تم استخدامها من قبل مرتين: الأولى رواية  
كتبها رونالد هاملتون بعنوان *A Master Killing*، (١٩٧٨)، وهي تهتم فقط  
بمطاردة المشتبه فيهما؛ والثانية كتبها مارجريت أتوود للتلفزيون، بعنوان  
*The Servant Girl*, 1974 (أخرجها جورج جوناس)، وقد اعتمدت بشدة  
على رواية سوزانا مودي ولا يمكن أن تعتبر الآن نهائية.

وأخيراً، أود أن أشكر الباحثة الأساسية التي ساعدتني، روث  
أتوود **Ruth Atwood**، وإريكا هيرون **Erica Heron**، التي نقلت نماذج  
الأغطية؛ ومساعدتي ذات القيمة العالية، سارة كوبر **Sarah Cooper**؛  
وكذلك رامساي كوك، وإليانور كوك، وروسالي أبيلا **Ramsay Cook**،  
**Eleanor Cook, and Rosalie Abella**، الذين قرأوا المخطوطة واقترحوا  
اقتراحات بالغة القيمة، ووكلائي: فويبي لارمور وفيفيان شوستر **Phoebe  
Larmore and Vivienne Schuster**، والمحريين **Ellen Seligman, Nan**

**Marly Rusoff, Becky وكذلك كل من ،A. Talese, and Liz Calder;  
؛Shaw, Jeanette Kong, Tania Charzewski, and Heather Sangster  
Jay Macpherson and Jerome H. وڃاى ماڤرسون وڃيرون باڤلى  
Buckley، الذى علمنى تقدير أدب القرن التاسع عشر والإعجاب به؛  
Michael Bradley, Alison Parker, Arthur Gelgoot, وأيضاً كل من  
Gene Goldberg, and Bob Clark; Dr. George Poulakakis, John and  
Christiane O'Keeffe, Joseph Wetmore, Black Creek Pioneer  
Village, and Annex Books; and Rose Tomato.**



## المؤلفة فى سطور

### مارجريت أتوود

- ولدت فى ١٨ نوفمبر ١٩٣٩، أوتاوا، أونتاريو، كندا.
- تأقت تعليمها فى جامعة تورنتو، ١٩٦١، كما التحقت بجامعة هارفارد بكمبريدج، ٦٢-١٩٦٣، ٦٥-١٩٦٧.
- تنقلت فى عدة مدن بكندا، والولايات المتحدة، وإنجلترا، وفرنسا، وإيطاليا، وهى حالياً تعيش فى تورنتو منذ ١٩٩٢.
- عملت محاضرة للغة الإنجليزية فى عدد من الجامعات داخل كندا وخارجها، واستضافتها بعض الجامعات ككاتبة مثل جامعة تورنتو، جامعة ألاباما، جامعة نيويورك، جامعة ماكواري بأستراليا، جامعة سان أنطونيو، بتكساس.
- رئيسة اتحاد كتاب كندا من مايو ١٩٨١ إلى مايو ١٩٨٢، وأيضاً رئيسة المركز الكندى لنادى القلم الدولى، فى الفترة من ١٩٨٤-١٩٨٦.
- متزوجة من الكاتب الكندى جرايم جيبسون، Graeme Gibson، ولديهما ثلاثة أبناء.

- بالإضافة إلى حصول عدد من كتبها على المركز الأول في أفضل الكتب مبيعًا، فقد حصلت على العديد من الجوائز الأدبية، ومنها جائزة بوكر عام ٢٠٠٠، عن روايتها *The Blind Assassin*، جائزة جيلر عام ١٩٩٦، عن المذبذبة *Alias Grace*، جائزة رواية العام من مؤسسة المؤلفين الكنديين عام ١٩٩٣ عن روايتها *The Robber Bride*، وغير ذلك من الجوائز، بالإضافة إلى درجات الشرف من عدد من الجامعات الكندية والأمريكية.
- كتبت مارجريت أتوود العديد من الكتب والمقالات، ولها دواوين شعرية، وروايات، وقصص، وكتب ومقالات في النقد الأدبي، وأعمال للأطفال، وأعمال للتلفزيون.
- من أشهر أعمالها: *The Blind Assassin*، رواية؛ *The Journals of Susanna Moodie*، شعر؛ *Alias Grace*، رواية (وهي التي بين يديك الآن بعنوان "المذبذبة")، *Morning in the Burned House*، قصائد جديدة، *Strange Things*، عن الأدب الكندي.

## المتريمة في سطور

### سحر توفيق

- أديبة ومترجمة
- ولدت في القاهرة، ١٩٥١.
- تخرجت من جامعة الأزهر، ١٩٧٤.
- عملت بالتدريس في وزارة التربية والتعليم ١٩٧٥-٢٠٠٢.
- ١٩٩٤، حصلت على جائزة أركنساس عن الترجمة الإنجليزية عن مجموعة قصصية بعنوان "الجهات الأربع".
- ٢٠٠٣-٢٠٠٤ باحثة بالمدرسة العربية للسينما والتلفزيون على شبكة الإنترنت.
- تعيش الآن في القاهرة مع ولديها إسلام ومحمد عادل الشرفاوي.
- ومن مؤلفاتها: أن تتحدر الشمس (مجموعة قصصية)، طعم الزيتون (رواية)، رحلة السمان (رواية)
- وترجمت أيضاً: فلاحو الباشا، قصص برازيلية (بالاشتراك مع خليل كلفت)، أرض الحبايب بعيدة (بيرم التونسي)، امرأة محاربة.

## المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالمين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

## المشروع القومى للترجمة

أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا	١-
أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو بانيكار	الوثنية والإسلام (ط١)	٢-
شوقى جلال	جودج جيمس	التراث المسروق	٣-
أحمد الحضرى	انجا كاريتنيكوفنا	كيف تتم كتابة السيناريو	٤-
محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا فى غيبوبة	٥-
سعد مصلوح ووفاء كامل فايد	ميلكا إفيثش	اتجاهات البحث اللسانى	٦-
يوسف الأنطكى	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة	٧-
مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلو الحرائق	٨-
محمود محمد عاشور	أندرو. س. جودى	التغيرات البيئية	٩-
محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى	چيرار چينيت	خطاب الحكاية	١٠-
هناء عبد الفتاح	فيسوافا شيمبوريسكا	مختارات شعرية	١١-
أحمد محمود	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	طريق الحرير	١٢-
عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	ديانة الساميين	١٣-
حسن المودن	جان بيلمان نويل	التحليل النفسى للأدب	١٤-
أشرف رفيق عفيفى	إدوارد لوسى سميث	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	١٥-
يأشراف: أحمد عثمان	مارتن برنال	أثنية السوداء (ج١)	١٦-
محمد مصطفى بدوى	فيليب لاركين	مختارات شعرية	١٧-
طلعت شاهين	مختارات	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	١٨-
نعيم عطية	جودج سفيريس	الأعمال الشعرية الكاملة	١٩-
يمنى طريف الخولى وبدوى عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	قصة العلم	٢٠-
ماجدة العنانى	صمد بهرنجى	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	٢١-
سيد أحمد على الناصرى	جون أنتيس	مذكرات رحالة عن المصريين	٢٢-
سعید توفيق	هانز جيورج جادامر	تجلى الجميل	٢٣-
بكر عباس	باتريك بارندر	ظلال المستقبل	٢٤-
إبراهيم الدسوقى شتا	مولانا جلال الدين الرومى	مثنوى	٢٥-
أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	دين مصر العام	٢٦-
يأشراف: جابر عصفور	مجموعة من المؤلفين	التنوع البشرى الخلاق	٢٧-
منى أبو سنة	جون لوك	رسالة فى التسامح	٢٨-
بدر الديب	جيمس ب. كارس	الموت والوجود	٢٩-
أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو بانيكار	الوثنية والإسلام (ط٢)	٣٠-
عبد الستار الطلوجى وعبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	٣١-
مصطفى إبراهيم فهمى	ديفيد روب	الانقراض	٣٢-
أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هويكنز	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	٣٣-
حصه إبراهيم المنيف	روجر آلن	الرواية العربية	٣٤-
خليل كلفت	پول ب. ديكسون	الأسطورة والحدائث	٣٥-
حياة جاسم محمد	والاس مارتن	نظريات السرد الحديثة	٣٦-

جمال عبد الرحيم	بريجيت شيفر	واحة سيوة وموسيقاها	٢٧-
أنور مغيث	ألن تورين	نقد الحدائق	٢٨-
منيرة كروان	بيتر والكوت	الحسد والإغريق	٢٩-
محمد عيد إبراهيم	آن سكستون	قصائد حب	٤٠-
عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية	٤١-
أحمد محمود	بنجامين باربر	عالم ماك	٤٢-
المهدى أخريف	أوكثافيو پاث	اللهب المزدوج	٤٣-
مارلين تادرس	ألدوس هكسلى	بعد عدة أصياف	٤٤-
أحمد محمود	روبرت ديننا وجون فاين	التراث المغفور	٤٥-
محمود السيد على	يابلو تيرودا	عشرون قصيدة حب	٤٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الألبى الحديث (ج١)	٤٧-
ماهر جويجاتى	فرانسوا دوما	حضارة مصر الفرعونية	٤٨-
عبد الوهاب علوب	ه . ت . نوريس	الإسلام فى البلقان	٤٩-
محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	٥٠-
محمد أبو العطا	داريو بيانوبيا و.خ. م. بيناليستى	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	٥١-
لطفى فطيم وعادل دمرdash	ب. نوفاليس وس. روجسيفيتز وروجر بيل	العلاج النفسى التدعىمى	٥٢-
مرسى سعد الدين	أ . ف . ألنجتون	الدراما والتعظيم	٥٣-
محسن مصيلحى	ج . مايكل والتون	المفهوم الإغريقى للمسرح	٥٤-
على يوسف على	جون بولكنجهوم	ما وراء العلم	٥٥-
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	٥٦-
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	٥٧-
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	مسرحيتان	٥٨-
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيهيث	المحبرة (مسرحية)	٥٩-
صبرى محمد عبد الفنى	جوهانز إيتين	التصميم والشكل	٦٠-
بإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميت	موسوعة علم الإنسان	٦١-
محمد خير البقاعى	رولان بارت	لذة النص	٦٢-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الألبى الحديث (ج٢)	٦٣-
رمسيس عوض	ألان وود	برتراند راسل (سيرة حياة)	٦٤-
رمسيس عوض	برتراند راسل	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	٦٥-
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية	٦٦-
المهدى أخريف	فرناندو بيسوا	مختارات شعرية	٦٧-
أشرف الصباغ	فالنتين راسبوتين	نتاشا العجوز وقصص أخرى	٦٨-
أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	٦٩-
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج رودريجت	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	٧٠-
حسين محمود	داريو فو	السيدة لا تصلح إلا للرمى	٧١-
فؤاد مجلى	ت . س . إليوت	السياسى العجوز	٧٢-
حسن ناظم وعلى حاكم	جين ب . تومبكنز	نقد استجابة القارئ	٧٣-
حسن بيومى	ل . ا . سيميونفا	صلاح الدين والمماليك فى مصر	٧٤-

أحمد درويش	أندريه موروا	فن التراجم والسير الذاتية	٧٥-
عبد المقصود عبد الكريم	مجموعة من المؤلفين	چاك لاكان واغواء التطيل النفسى	٧٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الألبى الحديث (ج٢)	٧٧-
أحمد محمود ونورا أمين	رونالد روبرتسون	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	٧٨-
سعيد الغانمى وناصر حلاوى	بوريس أوسبىنسكى	شعرية التأليف	٧٩-
مكارم الغمرى	ألكسندر يوشكين	بوشكين عند «نافورة الدموع»	٨٠-
محمد طارق الشرقاوى	بندكت أندرسن	الجماعات المتخيلة	٨١-
محمود السيد على	ميجيل دى أونامونو	مسرح ميجيل	٨٢-
خالد المعالى	غوتفريد بن	مختارات شعرية	٨٢-
عبد الحميد شيحة	مجموعة من المؤلفين	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	٨٤-
عبد الرازق بركات	صلاح زكى أقطاى	منصور الحلاج (مسرحية)	٨٥-
أحمد فتحى يوسف شتا	جمال مير صادقى	طول الليل (رواية)	٨٦-
ماجدة العنانى	جلال آل أحمد	نون والقلم (رواية)	٨٧-
إبراهيم الدسوقى شتا	جلال آل أحمد	الابتلاء بالتغرب	٨٨-
أحمد زايد ومحمد محبى الدين	أنطوان جيننز	الطريق الثالث	٨٩-
محمد إبراهيم مبروك	بورخيس وآخرون	وسم السيف وقصص أخرى	٩٠-
محمد هناء عبد الفتاح	باريرا لاسوتسكا - بشونباك	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	٩١-
نادية جمال الدين	كارلوس ميجيل	اساليب ومضامين المسرح الإسبانى المعاصر	٩٢-
عبد الوهاب علوب	مايك فيذرستون وسكوت لاش	محدثات العولمة	٩٣-
فوزية العشماوى	صمويل بيكيت	مسرحيتنا الحب الأول والصحة	٩٤-
سرى محمد عبد اللطيف	أنطونيو بويرو بايخو	مختارات من المسرح الإسبانى	٩٥-
إدوار الخراط	نخبة	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	٩٦-
بشير السباعى	فرنان برودل	هوية فرنسا (مج١)	٩٧-
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	٩٨-
إبراهيم قنديل	ديفيد روبنسون	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	٩٩-
إبراهيم فتحى	بول هيرست وجراهام تومبسون	مساطة العولمة	١٠٠-
رشيد بنحو	بيرنار فاليط	النص الروائى: تقنيات ومناهج	١٠١-
عز الدين الكتانى الإدريسى	عبد الكبير الخطيبى	السياسة والتسامح	١٠٢-
محمد بنيس	عبد الوهاب المؤذب	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	١٠٣-
عبد الغفار مكاوى	برتولت بريشت	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	١٠٤-
عبد العزيز شبيل	چيرارچينيت	مدخل إلى النص الجامع	١٠٥-
أشرف على دعور	ماريا خيسوس روبيرامتى	الأدب الأندلسى	١٠٦-
محمد عبد الله الجعيدى	نخبة من الشعراء	مسرد الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	١٠٧-
محمود على مكى	مجموعة من المؤلفين	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	١٠٨-
هاشم أحمد محمد	چون بولوك وعادل درويش	حروب المياه	١٠٩-
منى قطان	حسنة بيجوم	النساء فى العالم النامى	١١٠-
ريهام حسين إبراهيم	فرانسس هيدسون	المرأة والجريمة	١١١-
إكرام يوسف	أرلين علوى ماكليود	الاحتجاج الهادئ	١١٢-

أحمد حسان	سادى پلانت	رأية التمرد	١١٣-
نسيم مجلى	وول شوينكا	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستقع	١١٤-
سمية رمضان	فرچينيا وولف	غرفة تخص المرء وحده	١١٥-
نهاد أحمد سالم	سينثيا نلسون	امرأة مختلفة (درية شفيق)	١١٦-
منى إبراهيم وهالة كمال	ليلى أحمد	المرأة والجنوسة فى الإسلام	١١٧-
ليس النقاش	بث يارون	النهضة النسائية فى مصر	١١٨-
ياشرف: روف عباس	أميرة الأزهرى سنبل	النساء والأسرة وثوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	١١٩-
مجموعة من المترجمين	ليلى أبو لعد	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	١٢٠-
محمد الجندى وإيزابيل كمال	فاطمة موسى	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	١٢١-
منيرة كروان	جوزيف فوجت	نظام العيوبية القديم والنموذج المثالى للإنسان	١٢٢-
أنور محمد إبراهيم	أنيثل ألكسندرو فنالولينا	الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها النولية	١٢٣-
أحمد فؤاد بليغ	چون جراى	الفجر الكانئ: أوهام الرأسمالية العالمية	١٢٤-
سمحة الخولى	سيدرك ثورپ ديلى	التحليل الموسيقى	١٢٥-
عبد الوهاب علوب	فولفانج إيسر	فعل القراءة	١٢٦-
بشير السباعى	صفاء فتحى	إرهاب (مسرحية)	١٢٧-
أميرة حسن نويرة	سوزان باسنيت	الأدب المقارن	١٢٨-
محمد أبو العطا وآخرون	ماريا نولورس أسيس جاروته	الرواية الإسبانية المعاصرة	١٢٩-
شوقى جلال	أندريه جوندر فرانك	الشرق يصعد ثانية	١٣٠-
لويس بقطر	مجموعة من المؤلفين	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	١٣١-
عبد الوهاب علوب	مايك فيذرستون	ثقافة العولمة	١٣٢-
طلعت الشايب	طارق على	الخوف من المرايا (رواية)	١٣٣-
أحمد محمود	بارى ج. كيمب	تشريح حضارة	١٣٤-
ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت	المختار من نقد ت. س. إليوت	١٣٥-
سحر توفيق	كينيث كونو	فلاحو الباشا	١٣٦-
كاميليا صبحى	جوزيف مارى مواريه	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	١٣٧-
وجيه سمعان عبد المسيح	أندريه جلوكسمان	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	١٣٨-
مصطفى ماهر	ريتشارد فاچنر	پارسيفال (مسرحية)	١٣٩-
أمل الجبورى	هربرت ميسن	حيث تلتقى الأنهار	١٤٠-
نعيم عطية	مجموعة من المؤلفين	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	١٤١-
حسن بيومى	أ. م. فورستر	الإسكندرية : تاريخ ودليل	١٤٢-
عدلى السمري	ديرك لايدر	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	١٤٣-
سلامة محمد سليمان	كارلو جولونوى	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	١٤٤-
أحمد حسان	كارلوس فوينتس	موت أرتيميو كروث (رواية)	١٤٥-
على عبدالرؤف البمبى	ميجيل دى ليبس	الورقة الحمراء (رواية)	١٤٦-
عبدالغفار مكارى	تانكريد نورست	مسرحيتان	١٤٧-
على إبراهيم منوفى	إنريكي أندرسون إمبرت	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	١٤٨-
أسامة إسبر	عاطف فضول	النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس	١٤٩-
منيرة كروان	روبرت ج. ليتمان	التجربة الإغريقية	١٥٠-



بشير السباعي	فرنان برودل	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	١٥١-
محمد محمد الخطابي	مجموعة من المؤلفين	عدالة الهنود وقصص أخرى	١٥٢-
فاطمة عبدالله محمود	فيولين فانويك	غرام القراعنة	١٥٣-
خليل كلفت	فيل سليتر	مدرسة فرانكفورت	١٥٤-
أحمد مرسى	نخبة من الشعراء	الشعر الأمريكي المعاصر	١٥٥-
مى التلمساني	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	المدارس الجمالية الكبرى	١٥٦-
عبدالعزيز بقوش	النظامى الكنجوى	خسرو وشيرين	١٥٧-
بشير السباعي	فرنان برودل	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	١٥٨-
إبراهيم فتحى	ديفيد هوكس	الأيدولوجية	١٥٩-
حسين بيوسى	بول إيرليش	آلة الطبيعة	١٦٠-
زيدان عبدالطيم زيدان	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	مسرحيتان من المسرح الإسباني	١٦١-
صلاح عبدالعزيز محجوب	يوحنا الأسيوى	تاريخ الكنيسة	١٦٢-
ياشرف: محمد الجوهري	جوردون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	١٦٣-
نبيل سعد	جان لاكوثير	شامبوليون (حياة من نور)	١٦٤-
سهير المصادفة	أ. ن. أфанاسيفا	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	١٦٥-
محمد محمود أبوغدير	يشعياهو ليتمان	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	١٦٦-
شكرى محمد عياد	رابندرنات طاغور	فى عالم طاغور	١٦٧-
شكرى محمد عياد	مجموعة من المؤلفين	دراسات فى الأدب والثقافة	١٦٨-
شكرى محمد عياد	مجموعة من المؤلفين	إبداعات أدبية	١٦٩-
بسام ياسين رشيد	ميجيل دليبيس	الطريق (رواية)	١٧٠-
هدى حسين	فرانك بيجو	وضع حد (رواية)	١٧١-
محمد محمد الخطابي	نخبة	حجر الشمس (شعر)	١٧٢-
إمام عبد الفتاح إمام	ولتر ت. ستيس	معنى الجمال	١٧٣-
أحمد محمود	إيليس كاشمور	صناعة الثقافة السوداء	١٧٤-
وجيه سمعان عبد المسيح	لورينزو فيلشس	التليفزيون فى الحياة اليومية	١٧٥-
جلال البنا	توم تيتنبرج	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	١٧٦-
حصه إبراهيم المنيف	هنرى تروايا	أنطون تشيخوف	١٧٧-
محمد حمدي إبراهيم	نخبة من الشعراء	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	١٧٨-
إمام عبد الفتاح إمام	أيسوب	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	١٧٩-
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	قصة جاويد (رواية)	١٨٠-
محمد يحيى	فنسنت ب. ليتش	النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الستينيات	١٨١-
ياسين طه حافظ	و.ب. بيتس	العنف والنبوة (شعر)	١٨٢-
فتحى العشرى	رينيه جيلسون	جان كوكتو على شاشة السينما	١٨٣-
دسوقى سعيد	هانز إبتدورفر	القاهرة: حالة لا تنام	١٨٤-
عبد الوهاب غلوب	توماس تومسن	أسفار العهد القديم فى التاريخ	١٨٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ميخائيل إنوود	معجم مصطلحات هيجل	١٨٦-
محمد علاء الدين منصور	بُزدج على	الأرضة (رواية)	١٨٧-
بدر الديب	ألفين كورنان	موت الأدب	١٨٨-

- ١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر      پول دي مان      سعيد الغانمي
- ١٩٠- محاورات كونفوشيوس      كونفوشيوس      محسن سيد فرجاني
- ١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى      الحاج أبو بكر إمام وآخرون      مصطفى حجازي السيد
- ١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)      زين العابدين المراغي      محمود علاوي
- ١٩٣- عامل المنجم (رواية)      بيتر أبراهامز      محمد عبد الواحد محمد
- ١٩٤- مضاربات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث      مجموعة من النقاد      ماهر شفيق فريد
- ١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)      إسماعيل فصيح      محمد علاء الدين منصور
- ١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)      فالنتين راسبوتين      أشرف الصباغ
- ١٩٧- سيرة الفاروق      شمس العلماء شبلي النعماني      جلال السعيد الحفناوي
- ١٩٨- الاتصال الجماهيري      إدوين إمري وآخرون      إبراهيم سلامة إبراهيم
- ١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية      يعقوب لاندوا      جمال أحمد الرقاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
- ٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل      جيرمي سيبروك      فخرى لبيب
- ٢٠١- الجانب الديني للفلسفة      جوزايا رويس      أحمد الأنصاري
- ٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٤)      رينيه ويليك      مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ٢٠٣- الشعر والشاعرية      أطفاف حسين حالي      جلال السعيد الحفناوي
- ٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم      زلمان شاراز      أحمد هويدي
- ٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات      لويجي لوقا كافاللي- سفورزا      أحمد مستجير
- ٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً      جيمس جلايك      علي يوسف علي
- ٢٠٧- ليل أفريقي (رواية)      رامون خوتاسنديز      محمد أبو العطا
- ٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي      دان أوربان      محمد أحمد صالح
- ٢٠٩- السرد والمسرح      مجموعة من المؤلفين      أشرف الصباغ
- ٢١٠- مثنويات حكيم سنائي (شعر)      سنائي الفرزوي      يوسف عبد الفتاح فرج
- ٢١١- فرديناند دوسوسير      جوناثان كلر      محمود حمدي عبد الغنى
- ٢١٢- قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان      مرزيان بن رستم بن شروين      يوسف عبد الفتاح فرج
- ٢١٣- مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر      ريمون فلاور      سيد أحمد علي الناصري
- ٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع      أنتوني جيدنز      محمد محيي الدين
- ٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)      زين العابدين المراغي      محمود علاوي
- ٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم      مجموعة من المؤلفين      أشرف الصباغ
- ٢١٧- مسرحيتان طبيعيتان      صمويل بيكيت وهارولد بينتر      نادية البنهاوي
- ٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)      خوليو كورتاثان      علي إبراهيم منوفي
- ٢١٩- بقايا اليوم (رواية)      كازو إيشجودو      طلعت الشايب
- ٢٢٠- الهيولية في الكون      باري باركر      علي يوسف علي
- ٢٢١- شعرية كفافى      جريجورى جوزدانيس      رفعت سلام
- ٢٢٢- فرانز كافكا      رونالد جراي      نسيم مجلى
- ٢٢٣- العلم في مجتمع حر      باول فيرابند      السيد محمد نقادى
- ٢٢٤- دمار يوغسلافيا      برانكا ماجاس      منى عبدالظاهر إبراهيم
- ٢٢٥- حكاية غريق (رواية)      جابرييل جارتيا ماركيت      السيد عبدالظاهر السيد
- ٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى      ديفيد هربت لورانس      طاهر محمد علي البربري

- ٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر خوسيه مارييا دييث بوركى  
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن جانيت وولف  
٢٢٩- مازق البطل الوحيد نورمان كيجان  
٢٣٠- عن الذباب والفنران والبشر فرانسواز جاكوب  
٢٣١- الترافيل أو الجيل الجديد (مسرحية) خايمي سالوم بيدال  
٢٣٢- ما بعد المعلومات توم ستونير  
٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغريب آرثر هيرمان  
٢٣٤- الإسلام في السودان ج. سينسر تريمنجهام  
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (ج١) مولانا جلال الدين الرومى  
٢٣٦- الولاية ميشيل شودكيفيتش  
٢٣٧- مصر أرض الوادى روبين فيدين  
٢٣٨- العولمة والتحرير تقرير لمنظمة الأكتاد  
٢٣٩- العريبى فى الأدب الإسرائيلى جيلا رامراز - رايوخ  
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار كاي حافظ  
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية) ج. م. كوتزى  
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض وليام إمبسون  
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) ليفى بروفنسال  
٢٤٤- الغليان (رواية) لاورا إسكيبييل  
٢٤٥- نساء مقاتلات إليزابيتا أديس وآخرون  
٢٤٦- مختارات قصصية جابرييل جارتيا ماركيت  
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحدائة فى مصر والتر أرمبرست  
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية) أنطونيو جالا  
٢٤٩- لغة التمزق (شعر) دراجو شتامبوك  
٢٥٠- علم اجتماع العلوم دومنيك فينك  
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جورديون مارشال  
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية مارجو بدران  
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية ل. أ. سيمينوثا  
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة ديف روينسون وجودى جروفز  
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون ديف روينسون وجودى جروفز  
٢٥٦- أقدم لك: ديكارث ديف روينسون وكريس جارات  
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة وليم كلى رايت  
٢٥٨- الفجر سير أنجوس فريزر  
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور نخبة  
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (ج٣) جورديون مارشال  
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود زكى نجيب محمود  
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية) إدواربو مندوثا  
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن چون جرين  
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة هوراس وشلى
- السيد عبدالظاهر عبدالله  
مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن  
أمير إبراهيم العمري  
مصطفى إبراهيم فهمى  
جمال عبدالرحمن  
مصطفى إبراهيم فهمى  
طلعت الشايب  
فؤاد محمد عكرد  
إبراهيم الدسوقي شتا  
أحمد الطيب  
عنايات حسين طلعت  
ياسر محمد جندالله وعيسى مديولى أحمد  
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق  
صلاح محجوب إدريس  
ابتسام عبدالله  
صبرى محمد حسن  
بإشراف: صلاح فضل  
نادية جمال الدين محمد  
توفيق على منصور  
على إبراهيم منوفى  
محمد طارق الشرقاوى  
عبداللطيف عبدالحميد  
رفعت سلام  
ماجدة محسن أباطة  
بإشراف: محمد الجوهري  
على بدران  
حسن بيومى  
إمام عبد الفتاح إمام  
إمام عبد الفتاح إمام  
إمام عبد الفتاح إمام  
محمود سيد أحمد  
عبادة كحيلة  
فاروجان كازانجيان  
بإشراف: محمد الجوهري  
إمام عبد الفتاح إمام  
محمد أبو العطا  
على يوسف على  
لويس عوض

لويس عوض	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	روايات مترجمة	٢٦٥-
عادل عبدالمنعم على	جلال آل أحمد	مدير المدرسة (رواية)	٢٦٦-
بدر الدين عرويكى	ميلان كونديرا	فن الرواية	٢٦٧-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومى	ديوان شمس تبريزى (ج٢)	٢٦٨-
صبرى محمد حسن	وليم جيفور بالجريف	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	٢٦٩-
صبرى محمد حسن	وليم جيفور بالجريف	وسط الجزير العربية وشرقها (ج٢)	٢٧٠-
شوقى جلال	توماس سى. باترسون	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	٢٧١-
إبراهيم سلامة إبراهيم	سى. سى. والترز	الأديرة الأثرية فى مصر	٢٧٢-
عنان الشهاوى	جوان كول	الامول الاجتماعية والثقافية لعمركا عربى فى مصر	٢٧٣-
محمود على مكى	رومولو جاييجوس	السيدة باريارا (رواية)	٢٧٤-
ماهر شفيق فريد	مجموعة من النقاد	ص. س. البوت شاعرًا وناقداً وكاتباً مسرحياً	٢٧٥-
عبدالقادر التمسانى	مجموعة من المؤلفين	فنون السينما	٢٧٦-
أحمد فوزى	براين فورد	الجيئات والصراع من أجل الحياة	٢٧٧-
ظريف عبدالله	إسحاق عظيموف	البدايات	٢٧٨-
طلعت الشايب	ف.س. سوندرز	الحرب الباردة الثقافية	٢٧٩-
سمير عبدالحميد إبراهيم	بريم شند وآخرون	الأم والنصيب وقصص أخرى	٢٨٠-
جلال الحفناوى	عبد الحليم شرر	الفريوس الأعلى (رواية)	٢٨١-
سمير حنا صادق	لويس وولبرت	طبيعة العلم غير الطبيعية	٢٨٢-
على عبد الرؤوف البعبى	خوان رولفو	السهل يحترق وقصص أخرى	٢٨٣-
أحمد عثمان	يوربيديس	هرقل مجنوناً (مسرحية)	٢٨٤-
سمير عبد الحميد إبراهيم	حسن نظامى الدهلوى	رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى	٢٨٥-
محمود علاوى	زين العابدين المراغى	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	٢٨٦-
محمد يحيى وآخرون	أنتونى كنج	الثقافة والعولة والنظام العالمى	٢٨٧-
ماهر البطوطى	ديفيد لودج	الفن الروائى	٢٨٨-
محمد نور الدين عبدالمنعم	أبو نجم أحمد بن قوص	ديوان منوچهرى الدامغانى	٢٨٩-
أحمد زكريا إبراهيم	جورج مونان	علم اللغة والترجمة	٢٩٠-
السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	تاريخ المسرح الإبانى فى القرن العشرين (ج١)	٢٩١-
السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	تاريخ المسرح الإبانى فى القرن العشرين (ج٢)	٢٩٢-
مجدى توفيق وآخرون	روجر آلن	مقدمة للأدب العربى	٢٩٣-
رجاء ياقوت	بوالو	فن الشعر	٢٩٤-
بدر الديب	جوزيف كامبل وييل موريز	سلطان الأسطورة	٢٩٥-
محمد مصطفى بدوى	وليم شكسبير	مكبث (مسرحية)	٢٩٦-
ماجدة محمد أنور	ليونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	فن النحو بين اليونانية والسريانية	٢٩٧-
مصطفى حجازى السيد	نخبة	مأساة العبيد وقصص أخرى	٢٩٨-
هاشم أحمد محمد	جين ماركس	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	٢٩٩-
جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال	لويس عوض	اسطورة بروميسوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج١)	٣٠٠-
جمال الجزيرى و محمد الجندى	لويس عوض	اسطورة بروميسوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج٢)	٣٠١-
إمام عبد الفتاح إمام	جون هيتون وجودى جروفز	أقدم لك: فنجنشتين	٣٠٢-

إمام عبد الفتاح إمام	جين هوب ويورن فان لون	أقدم لك: بوذا	٢٠٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ريوس	أقدم لك: ماركس	٢٠٤-
صلاح عبد الصبور	كروزيو مالابارته	الجلد (رواية)	٢٠٥-
نبيل سعد	جان فرانسوا ليوتار	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	٢٠٦-
محمود مكى	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	أقدم لك: الشعور	٢٠٧-
ممدوح عبد المنعم	ستيف جونز ويورين فان لو	أقدم لك: علم الوراثة	٢٠٨-
جمال الجزيرى	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	أقدم لك: الذهن والمخ	٢٠٩-
محيى الدين مزيد	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	أقدم لك: يونج	٢١٠-
فاطمة إسماعيل	ر.ج كولنجوود	مقال فى المنهج الفلسفى	٢١١-
أسعد حلیم	وليم ديبيويس	روح الشعب الأسود	٢١٢-
محمد عبدالله الجعيدى	خاير بيان	أمثال فلسطينية (شعر)	٢١٣-
هويدا السباعى	جانيس مينيك	مارسيل نوشامب: الفن كعدم	٢١٤-
كاميليا صبحى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	جرامشى فى العالم العربى	٢١٥-
نسيم مجلى	أى. ف. ستون	محاكمة سقراط	٢١٦-
أشرف الصباغ	س. شير لايموفا- س. زنيكين	بلاغ	٢١٧-
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	٢١٨-
حسام نايل	جايترى اسيففاك وكريستوفر نوريس	صور دريدا	٢١٩-
محمد علاء الدين منصور	مؤلف مجهول	لمعة السراج لحضرة التاج	٢٢٠-
ياشراف: صلاح فضل	ليفى برو فنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	٢٢١-
خالد مقلح حمزة	دبليو يوجين كلينباور	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن القربى	٢٢٢-
هانم محمد فوزى	تراث يونانى قديم	فن الساتورا	٢٢٣-
محمود علاوى	أشرف أسدى	اللعب بالنار (رواية)	٢٢٤-
كرستين يوسف	فيليب بوسان	عالم الآثار (رواية)	٢٢٥-
حسن صقر	يورجين هابرماس	المعرفة والمصلحة	٢٢٦-
توفيق على منصور	نخبة	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	٢٢٧-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامى	يوسف وزليخا (شعر)	٢٢٨-
محمد عيد إبراهيم	تد هيوز	رسائل عيد الميلاد (شعر)	٢٢٩-
سامى صلاح	مارفن شيرد	كل شىء عن التمثيل الصامت	٢٣٠-
سامية دياب	ستيفن جراى	عندما جاء السردين وقصص أخرى	٢٣١-
على إبراهيم منوفى	نخبة	شهر العسل وقصص أخرى	٢٣٢-
بكر عباس	نبيل مطر	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	٢٣٣-
مصطفى إبراهيم فهمى	آرثر كلارك	لقطات من المستقبل	٢٣٤-
فتحى العشرى	ناتالى ساروت	عصر الشك: دراسات عن الرواية	٢٣٥-
حسن صابر	نصوص مصرية قديمة	متون الأهرام	٢٣٦-
أحمد الأنصارى	جوزايا رويس	فلسفة الولاء	٢٣٧-
جلال الحفناوى	نخبة	نظرات حائرة وقصص أخرى	٢٣٨-
محمد علاء الدين منصور	إدوارد براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	٢٣٩-
فخرى لبيب	بيرش بيربروجلو	اضطراب فى الشرق الأوسط	٢٤٠-

حسن حلمى	راينر ماريا رلكه	قصائد من رلكه (شعر)	٢٤١-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبدالرحمن الجامى	سلامان وأبسال (شعر)	٢٤٢-
سمير عبد ربه	نادين جورديمر	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	٢٤٣-
سمير عبد ربه	بيتر بالانجيو	الموت فى الشمس (رواية)	٢٤٤-
يوسف عبد الفتاح فرج	يونه ندائى	الركض خلف الزمان (شعر)	٢٤٥-
جمال الجزيرى	رشاد رشدى	سحر مصر	٢٤٦-
بكر الحلو	جان كوككو	الصيبة الطاشون (رواية)	٢٤٧-
عبدالله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كوبريلى	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (ج١)	٢٤٨-
أحمد عمر شاهين	أرثر والدعمون وآخرون	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	٢٤٩-
عطية شحاتة	مجموعة من المؤلفين	بانوراما الحياة السياحية	٢٥٠-
أحمد الانصارى	جوزايا رويس	مبادئ المنطق	٢٥١-
نعيم عطية	قسطنطين كفافيس	قصائد من كفافيس	٢٥٢-
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون دالديونانو	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	٢٥٣-
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالدونانو	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	٢٥٤-
محمود علاوى	حجت مرتجى	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	٢٥٥-
بدر الرفاعى	بول سالم	الميراث المر	٢٥٦-
عمر الفاروق عمر	تيموثى فريك وبيتر غاندى	متون هرمس	٢٥٧-
مصطفى حجازى السيد	نخبة	أمثال الهوسا العامية	٢٥٨-
حبيب الشارونى	أفلاطون	محاورة بارمنيدس	٢٥٩-
ليلى الشربينى	أندريه جاكوب ونويلا ياركان	أنثروبولوجيا اللغة	٢٦٠-
عاطف معتمد وأمال شاو	ألان جرينجر	التصحر: التهديد والمجابهة	٢٦١-
سيد أحمد فتح الله	هاينرش شبورل	تلميذ بابنبرج (رواية)	٢٦٢-
صبرى محمد حسن	ريتشارد جيبسون	حركات التحرير الأفريقية	٢٦٣-
نجلاء أبو عجاج	إسماعيل سراج الدين	حادثة شكسبير	٢٦٤-
محمد أحمد حمد	شارل بودلير	سانم باريس (شعر)	٢٦٥-
مصطفى محمود محمد	كلاريسا بنكولا	نساء يركضن مع الذئاب	٢٦٦-
البراق عبدالهادى رضا	مجموعة من المؤلفين	القلم الجرىء	٢٦٧-
عابد خزندار	جيرالد برنس	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	٢٦٨-
فوزية العشماوى	فوزية العشماوى	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	٢٦٩-
فاطمة عبدالله محمود	كليرلا لويت	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	٢٧٠-
عبدالله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كوبريلى	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (ج٢)	٢٧١-
وحيد السعيد عبدالحميد	وانغ مينغ	عاش الشباب (رواية)	٢٧٢-
على إبراهيم منوفى	أومبرتو إيكو	كيف تعد رسالة دكتوراه	٢٧٣-
حمادة إبراهيم	أندريه شديد	اليوم السادس (رواية)	٢٧٤-
خالد أبو اليزيد	ميلان كونديرا	الخلود (رواية)	٢٧٥-
إدوار الخراط	جان أنوى وآخرون	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	٢٧٦-
محمد علاء الدين منصور	إدوارد براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج٤)	٢٧٧-
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد إقبال	المسافر (شعر)	٢٧٨-

جمال عبدالرحمن	سنيل باث	٢٧٩- ملك في الحديقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جونتر جراس	٢٨٠- حديث عن الخسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادى	بهاء الدين محمد إسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد على بهزادراد	٢٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	چون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازى	٢٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. فى. روبرتس	٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشى	٢٩١- الحافلة الليلية (رواية)
عبداللطيف عبدالحميد	فرناندو دى لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	نوة لويس ماسينيون	٢٩٣- فى قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥- آلام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى نجارى راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفيتش وألن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد المنعم	زياودن ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه
عنان الشهاوى	جوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوبر	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	جينيفر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوف	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر

مجاهد عبدالمنعم مجاهد	رينيه ويليك (ج ٥)	٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث
عبد الرحمن الشيخ	جين هاثواي	٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية
نسيم مجلى	جون مارلو	٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية
الطيب بن رجب	فولتير	٤٢٠-	مكرو ميغاس (قصة فلسفية)
أشرف كيلانى	روى متحدة	٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول
عبدالله عبدالرازق إبراهيم	ثلاثة من الرحالة	٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ١)
وحيد النقاش	نخبة	٤٢٣-	إسرامات الرجل الطيف
محمد علاء الدين منصور	نور الدين عبدالرحمن الجامي	٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)
محمود علاوى	محمود طلوعى	٤٢٥-	من طاووس إلى فرح
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب	نخبة	٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى
ثريا شلبى	باي إنكلان	٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)
محمد أمان صافى	محمد هوتك بن داود خان	٤٢٨-	الخزانة الخفية
إمام عبدالفتاح إمام	ليود سبنسر وأندزجى كروز	٤٢٩-	أقدم لك: هيجل
إمام عبدالفتاح إمام	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	٤٣٠-	أقدم لك: كانط
إمام عبدالفتاح إمام	كريس هوروكس وزوران جفتيك	٤٣١-	أقدم لك: فوكو
إمام عبدالفتاح إمام	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافلى
حمدي الجابرى	ديفيد نوريس وكارل فلنت	٤٣٣-	أقدم لك: جويس
عصام حجازى	يونكان هيث وچودى بورهام	٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية
ناجى رشوان	نيكولاس زيرج	٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة
إمام عبدالفتاح إمام	فردريك كويلستون	٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج ١)
جلال الحفناوى	شبلى النعمانى	٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي
عايدة سيف الدولة	إيمان ضياء الدين بييرس	٤٣٨-	بطلات وضحايا
محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب	صدر الدين عيني	٤٣٩-	موت المرابي (رواية)
محمد طارق الشرقاوى	كرستن بروسناد	٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة
غخري لبيب	أرونداتى روى	٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)
ماهر جويجاتى	فوزية أسعد	٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية
محمد طارق الشرقاوى	كيس فرستينغ	٤٤٣-	الفة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها
صالح علمانى	لاوريت سيجورته	٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة
محمد محمد يونس	پرويز ناتل خانلرى	٤٤٥-	حول وزن الشعر
أحمد محمود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كبير	٤٤٦-	التحالف الأسود
ممدوح عبدالمنعم	ج. پ. ماك إيغوى وأوسكار زاريت	٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم
ممدوح عبدالمنعم	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور
جمال الجزيرى	نخبة	٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية
جمال الجزيرى	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية
إمام عبد الفتاح إمام	ريتشارد أوزبورن ويورن فان لون	٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية
محيى الدين مزيد	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية
حليم طوسون وفؤاد الدهان	جان لوك أرنو	٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة
سوزان خليل	رينيه بريدال	٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية



محمود سيد أحمد	فردريك كوبلستون	٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)
هويدا عزت محمد	مريم جعفرى	٤٥٦- لا تنسنى (رواية)
إمام عبدالفتاح إمام	سوزان مولر أوكين	٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى
جمال عبد الرحمن	مرثيديس غارثيا أرينال	٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون
جلال البنا	توم تيننبرج	٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية
إمام عبدالفتاح إمام	ستوارت هود وليتزا جانستز	٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية
إمام عبدالفتاح إمام	داريان ليدر وجودى جروفز	٤٦١- أقدم لك: لكان
عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى	٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السودان
كمال السيد	ويليام بلوم	٤٦٣- الدولة المارقة
حصه إبراهيم المنيف	مايكل بارنتى	٤٦٤- ديمقراطية للقله
جمال الرفاعى	لويس جنزبيرج	٤٦٥- قصص اليهود
فاطمة عبد الله	فيولين فانويك	٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية
ربيع وهبة	ستيفين ديلى	٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية
أحمد الأنصارى	جوزايا رويس	٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة
مجدى عبدالرازق	نصوص حبشية قديمة	٤٦٩- جلال الملوك
محمد السيد النفة	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية
عبد الله عبد الرزاق إبراهيم	ثلاثة من الرحالة	٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج٢)
سليمان العطار	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	٤٧٢- نون كيخوتى (القسم الأول)
سليمان العطار	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	٤٧٣- نون كيخوتى (القسم الثانى)
سهام عبدالسلام	بام موريس	٤٧٤- الأدب والنسوية
عادل هلال عنانى	فرجينيا دانيلسون	٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم
سحر توفيق	ماريلين بوث	٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى
أشرف كيلانى	هيلدا هوخام	٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين
عبد العزيز حمدى	ليوشيه شنج و لى شى دونج	٤٧٨- الصين والولايات المتحدة
عبد العزيز حمدى	لاوشه	٤٧٩- المقهى (مسرحية)
عبد العزيز حمدى	كو موروا	٤٨٠- تساي ون جى (مسرحية)
رضوان السيد	روى متحدة	٤٨١- بردة النبى
فاطمة عبد الله	روبير جاك تيبو	٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية
أحمد الشامى	سارة چامبل	٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية
رشيد بنحدو	هانسن روبيرت ياوس	٤٨٤- جمالية التلقى
سمير عبدالحميد إبراهيم	نذير أحمد الدهلوى	٤٨٥- التوبة (رواية)
عبدالحليم عبدالغنى رجب	يان أسمن	٤٨٦- الذاكرة الحضارية
سمير عبدالحميد إبراهيم	رفيع الدين المراد أبادى	٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى
محمود رجب	إدموند هُسرل	٤٨٩- هُسرل: الفلسفة علماً دقيقاً
عبد الوهاب علوب	محمد قادرى	٤٩٠- أسمار البيغاء
سمير عبد ربه	نخبة	٤٩١- نصرص قصصية من روائع الأدب الأفريقى
محمد رفعت عواد	جى فارجيت	٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة

محمد صالح الضالع	هارولد بالمر	خطابات إلى طالب الصوتيات	٤٩٣-
شريف الصيفي	نصوص مصرية قديمة	كتاب الموتى: الخروج في النهار	٤٩٤-
حسن عبد ربه المصرى	إدوارد تيفان	اللوبي	٤٩٥-
مجموعة من المترجمين	إكوانو بانولى	الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج١)	٤٩٦-
مصطفى رياض	نادية العلى	العلمانية والنوع والنولة فى الشرق الأوسط	٤٩٧-
أحمد على بدوى	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	٤٩٨-
فيصل بن خضراء	مجموعة من المؤلفين	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	٤٩٩-
طلعت الشايب	تيفز رووكى	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	٥٠٠-
سحر فراج	أرثر جولد هامر	تاريخ النساء فى الغرب (ج١)	٥٠١-
هالة كمال	مجموعة من المؤلفين	أصوات بديلة	٥٠٢-
محمد نور الدين عبدالمنعم	نخبة من الشعراء	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	٥٠٣-
إسماعيل المصدق	مارتن هايدجر	كتابات أساسية (ج١)	٥٠٤-
إسماعيل المصدق	مارتن هايدجر	كتابات أساسية (ج٢)	٥٠٥-
عبد الحميد فهمى الجمال	أن تيلر	ربما كان قديساً (رواية)	٥٠٦-
شوقى فهميم	بيتر شيفر	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	٥٠٧-
عبدالله أحمد إبراهيم	عبدالباقي جلبنارلى	المولوية بعد جلال الدين الرومى	٥٠٨-
قاسم عبده قاسم	أدم صبرة	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المالك	٥٠٩-
عبدالرازق عيد	كارلو جولونى	الأرملة الماكرة (مسرحية)	٥١٠-
عبد الحميد فهمى الجمال	أن تيلر	كوكب مرقع (رواية)	٥١١-
جمال عبد الناصر	تيموثى كوريغان	كتابة النقد السينمائى	٥١٢-
مصطفى إبراهيم فهمى	تيد أنتون	العلم الجسور	٥١٣-
مصطفى بيومى عبد السلام	چونثان كولر	مدخل إلى النظرية الأدبية	٥١٤-
فدوى مالمى دوجلاس	فدوى مالمى دوجلاس	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	٥١٥-
صبرى محمد حسن	أرنولد واشنطن ودونا باوندى	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	٥١٦-
سمير عبد الحميد إبراهيم	نخبة	نقش على الماء وقصص أخرى	٥١٧-
هاشم أحمد محمد	إسحق عظيموف	استكشاف الأرض والكون	٥١٨-
أحمد الأنصارى	جوزايا رويس	محاضرات فى المثالية الحديثة	٥١٩-
أمل الصبان	أحمد يوسف	الولع الفرنسى بمصر من العلم إلى المشرع	٥٢٠-
عبدالوهاب بكر	أرثر جولد سميث	قاموس تراجم مصر الحديثة	٥٢١-
على إبراهيم منوفى	أميركو كاسترو	إسبانيا فى تاريخها	٥٢٢-
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالدونادو	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	٥٢٣-
محمد مصطفى بدوى	وليم شكسبير	الملك لير (مسرحية)	٥٢٤-
نادية رفعت	دنيس جونسون	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	٥٢٥-
محيى الدين مزيد	ستيفن كروول ووليم رانكين	أقدم لك: السياسة البيئية	٥٢٦-
جمال الجزيرى	ديفيد زين ميروفتس ودوبرت كرمب	أقدم لك: كافكا	٥٢٧-
جمال الجزيرى	طارق على وفل إيفانز	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	٥٢٨-
حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى	محمد إقبال	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	٥٢٩-
عمر الفاروق عمر	رينيه جينو	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	٥٣٠-

صفاة فتحي	چاك دريدا	٥٣١- ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟
بشير السباعي	هنري لورنس	٥٣٢- المفامرُ والمستشرق
محمد طارق الشرقاوي	سوزان جاس	٥٣٣- تعلّم اللغة الثانية
حمادة إبراهيم	سيفرين لوبا	٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون
عبدالعزیز بقوش	نظامي الكنجوي	٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)
شوقي جلال	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم
عبدالفار مكاوي	نخبة	٥٣٧- للحب والحرية (شعر)
محمد الحديدي	كيت دانيلز	٥٣٨- النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني
محسن مصيلحي	كاريل تشرشل	٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة
رؤف عباس	السير رونالد ستورس	٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية
مروة رزق	خوان خوسيه مياس	٥٤١- هي تتخيل وهلاوس أخرى
نعيم عطية	نخبة	٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث
وفاء عبدالقادر	باتريك بروجان وكريس جرات	٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية
حمدي الجابري	روبرت هنتشل وآخرون	٥٤٤- أقدم لك: ميلاني كلاين
عزت عامر	فرانسيس كريك	٥٤٥- يا له من سباق محموم
توفيق علي منصور	ت. ب. وايزمان	٥٤٦- ريموس
جمال الجزيري	فيليب تودي وأن كورس	٥٤٧- أقدم لك: بارت
حمدي الجابري	ريتشارد أوزيرن ويورن فان لون	٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع
جمال الجزيري	بول كويلي ولينا جانز	٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات
حمدي الجابري	نيك جروم وبيرو	٥٥٠- أقدم لك: شكسبير
سمحة الخولي	سايمون ماندي	٥٥١- الموسيقى والعولة
علي عبد الرؤف البمبي	ميجيل دي ثريانتس	٥٥٢- قصص مثالية
رجاء ياقوت	دانيال لوفرس	٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر
عبدالسميع عمر زين الدين	عفاف لطفى السيد مارسوه	٥٥٤- مصر في عهد محمد علي
أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي	أناتولي أوتكين	٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن العاشر والعشرين
حمدي الجابري	كريس هوروكس وزوران جيفتك	٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار
إمام عبدالفتاح إمام	ستوارت هود وجراهام كرولي	٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دي ساد
إمام عبدالفتاح إمام	زيودين ساردارويورين فان لون	٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية
عبدالحى أحمد سالم	تشا تشاجي	٥٥٩- الماس الزائف (رواية)
جلال السعيد الحفناوي	محمد إقبال	٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)
جلال السعيد الحفناوي	محمد إقبال	٥٦١- جناح جبريل (شعر)
عزت عامر	كارل ساجان	٥٦٢- بلايين وبلايين
صبري محمدي التهامي	خايننتو بينابينتي	٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)
صبري محمدي التهامي	خايننتو بينابينتي	٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)
أحمد عبدالحميد أحمد	دييورا ج. جيرنر	٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر
علي السيد علي	موريس بيشوب	٥٦٦- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى
إبراهيم سلامة إبراهيم	مايكل رايس	٥٦٧- الوطن المغتصب
عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر	٥٦٨- الأصولي في الرواية

ثائر ديب	هومي بابا	موقع الثقافة	٥٦٩-
يوسف الشاروني	سير روبرت هاي	دول الخليج الفارسي	٥٧٠-
السيد عبد الظاهر	إيميليا دي ثوليتا	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	٥٧١-
كمال السيد	برونو أليوا	الطب في زمن الفراغة	٥٧٢-
جمال الجزيري	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتي	أقدم لك: فرويد	٥٧٣-
علاء الدين السباعي	حسن بيرنيا	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	٥٧٤-
أحمد محمود	نجير وودز	الاقتصاد السياسي للعولمة	٥٧٥-
ناهد العشري محمد	أمريكو كاسترو	فكر ثريانتس	٥٧٦-
محمد قدرى عمارة	كارلو كولودي	مغامرات بينوكيو	٥٧٧-
محمد إبراهيم وعصام عبد الروف	أيومي ميزوكوشي	الجماليات عند كيتس وهنت	٥٧٨-
محيى الدين مزيد	جون ماهر وچودي جرونز	أقدم لك: تشومسكي	٥٧٩-
باشراف: محمد فتحي عبدالهادي	جون فيزد وبول سيترجز	دائرة المعارف الدولية (مج ١)	٥٨٠-
سليم عبد الأمير حمدان	ماريو بوزو	العمق يموتون (رواية)	٥٨١-
سليم عبد الأمير حمدان	هوشنك كلشيري	مرايا على الذات (رواية)	٥٨٢-
سليم عبد الأمير حمدان	أحمد محمود	الجيران (رواية)	٥٨٣-
سليم عبد الأمير حمدان	محمود بولت آبادي	سفر (رواية)	٥٨٤-
سليم عبد الأمير حمدان	هوشنك كلشيري	الأمير احتجاج (رواية)	٥٨٥-
سهام عبد السلام	ليزييث مالكموس وروي آرمن	السينما العربية والأفريقية	٥٨٦-
عبدالعزیز حمدي	مجموعة من المؤلفين	تاريخ تطور الفكر الصيني	٥٨٧-
ماهر جويجاتي	أنيس كابرول	أمنحتوب الثالث	٥٨٨-
عبدالله عبدالرازق إبراهيم	فيلكس بييوا	تمبكت العجبية (رواية)	٥٨٩-
محمود مهدي عبدالله	نخبة	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	٥٩٠-
علي عبدالنواب علي وصلاح رمضان السيد	هوراتيوس	الشاعر والمفكر	٥٩١-
مجدي عبدالحافظ وعلي كورخان	محمد صبري السوربوني	الثورة المصرية (ج١)	٥٩٢-
بكر الحلو	بول فاليري	قصائد ساحرة	٥٩٣-
أمانى فوزي	سوزانا تامارو	القلب السمين (قصة أطفال)	٥٩٤-
مجموعة من المترجمين	إكوانو بانولي	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج٢)	٥٩٥-
إيهاب عبدالرحيم محمد	روبرت ديجارليه وآخرون	الصحة العقلية في العالم	٥٩٦-
جمال عبدالرحمن	خوليو كاروباروخا	مصلعو غرناطة	٥٩٧-
بيومي علي قنديل	دونالد ريدفورد	مصر وكنعان وإسرائيل	٥٩٨-
محمود علاوي	هرداد مهريز	فلسفة الشرق	٥٩٩-
مدحت طه	برنارد لويس	الإسلام في التاريخ	٦٠٠-
أيمن بكر وسمر الشيشكلي	ريان فوت	النسوية والمواطنة	٦٠١-
إيمان عبدالعزيز	جيمس وليامز	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	٦٠٢-
وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي	آرثر أيزابرجر	النقد الثقافي	٦٠٣-
توفيق علي منصور	باتريك ل. أبوت	الكوارث الطبيعية (مج ١)	٦٠٤-
مصطفى إبراهيم فهمي	إرنست زيبروسكي (الصغير)	مخاطر كوكبنا المضطرب	٦٠٥-
محمود إبراهيم السعدني	ريتشارد هاريس	قصة البردي اليوناني في مصر	٦٠٦-

صبرى محمد حسن	هارى سينت فيلبى	٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (ج١)
صبرى محمد حسن	هارى سينت فيلبى	٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (ج٢)
شوقى جلال	أجنر فوج	٦٠٩- الانتخاب الثقافى
على إبراهيم منوفى	رفائيل لويث جوثمان	٦١٠- العمارة المدجنة
فخرى صالح	تيرى إيجلتون	٦١١- النقد والأيدولوجية
محمد محمد يونس	فضل الله بن حامد الحسينى	٦١٢- رسالة النفسية
محمد فريد حجاب	كولن مايكل هول	٦١٣- السياحة والسياسة
منى قطان	فوزية أسعد	٦١٤- بيت الأقصر الكبير (رواية)
محمد رفعت عواد	أليس بسيرينى	٦١٥- عرض الأحداث الترى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩
أحمد محمود	روبرت يانج	٦١٦- أساطير بيضاء
أحمد محمود	هوراس بيك	٦١٧- الفولكلور والبحر
جلال البنا	تشارلز فيلبس	٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة
عايدة الباجورى	ريمون استانبولى	٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس
بشير السباعى	توماش ماستناك	٦٢٠- السلام الصليبي
فؤاد عكود	وليم ى، أدمز	٦٢١- التوبة المعبر الحضارى
أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى	أى تشينغ	٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين
يوسف عبدالفتاح	سعيد قانعى	٦٢٣- نوابر جحا الإيرانية
عمر الفاروق عمر	رينيه جينو	٦٢٤- أزمة العالم الحديث
محمد برادة	جان جينيه	٦٢٥- الجرح السرى
توفيق على منصور	نخبة	٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (ج٢)
عبدالوهاب علوب	نخبة	٦٢٧- حكايات إيرانية
مجدى محمود المليجى	تشارلس داروين	٦٢٨- أصل الأنواع
عزة الخميسى	نيقولاس جويات	٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية
صبرى محمد حسن	أحمد بللو	٦٣٠- سيرتى الذاتية
باشراف: حسن طلب	نخبة	٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر
رانيا محمد	دولورس برامون	٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا
حمادة إبراهيم	نخبة	٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)
مصطفى البهنساوى	روى ماكويد وإسماعيل سراج الدين	٦٣٤- مكتبة الإسكندرية
سمير كريم	جودة عبد الخالق	٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر
سامية محمد جلال	جناب شهاب الدين	٦٣٦- حج بولندا
بدر الرفاعى	ف. روبرت هنتر	٦٣٧- مصر الخديوية
فؤاد عبد المطلب	روبرت بن ورين	٦٣٨- الديمقراطية والشعر
أحمد شافعى	تشارلز سيميك	٦٣٩- فندق الأرق (شعر)
حسن حبشى	الأميرة أناكومينا	٦٤٠- ألكسياد
محمد قدرى عمارة	برتراند رسل	٦٤١- برتراند رسل (مختارات)
ممدوح عبد المنعم	جوناثان ميلر وبورين فان لون	٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور
سمير عبدالحميد إبراهيم	عبد الماجد الدرايبادى	٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)
فتح الله الشيخ	هوارد د. تيرنر	٦٤٤- العلوم عند المسلمين

عبد الوهاب علوب	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	السياسة الخارجية الأمريكية ومصارفها الداخلية	٦٤٥-
عبد الوهاب علوب	سپهر ذبيح	قصة الثورة الإيرانية	٦٤٦-
فتحى العشرى	جون نينه	رسائل من مصر	٦٤٧-
خليل كلفت	بياتريث سارلو	بورخيس	٦٤٨-
سحر يوسف	جى دى موياسان	الخوف وقصص خرافية أخرى	٦٤٩-
عبد الوهاب علوب	روجر أوين	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	٦٥٠-
أمل الصبان	وثائق قديمة	ديلبسب الذى لا نعرفه	٦٥١-
حسن نصر الدين	كلود ترونكر	آلهة مصر القديمة	٦٥٢-
سمير جريس	إيريش كستتر	مدرسة الطفلة (مسرحية)	٦٥٢-
عبد الرحمن الخميسى	نصوص قديمة	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	٦٥٤-
حليم طوسون ومحمود ماهر طه	إيزابيل فرانكو	أساطير وآلهة	٦٥٥-
ممدوح أنبستوى	ألفونسو ساسترى	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	٦٥٦-
خالد عباس	مرثيديس غارثيا أرينال	محاكم التفتيش والموديسكيون	٦٥٧-
صبرى التهامى	خوان رامون خيمينيث	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	٦٥٨-
عبد اللطيف عبد الحليم	نخبة	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	٦٥٩-
هاشم أحمد محمد	ريتشارد فايفيلد	نافذة على أحدث العلوم	٦٦٠-
صبرى التهامى	نخبة	روائع أندلسية إسلامية	٦٦١-
صبرى التهامى	داسو سالدبيار	رحلة إلى الجنور	٦٦٢-
أحمد شافعى	ليوسيل كليفتون	امرأة عادية	٦٦٣-
عصام زكريا	ستيفن كوهان وأنا راى هارك	الرجل على الشاشة	٦٦٤-
هاشم أحمد محمد	بول دافيز	عوالم أخرى	٦٦٥-
جمال عبد الناصر وممته الجبار وجمال جاد الرب	ولفجانج انتش كليمن	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	٦٦٦-
غلى ليله	ألغن جولدرنر	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	٦٦٧-
ليلى الجبالى	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ثقافات العرلة	٦٦٨-
نسيم مجلى	وول شوينكا	ثلاث مسرحيات	٦٦٩-
ماهر البطوطى	جوستاف أدولفو بىكر	أشعار جوستاف أدولفو	٦٧٠-
على عبدالأمير صالح	جيمس بولدوين	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	٦٧١-
إبتهاال سالم	نخبة	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	٦٧٢-
جلال الحفناوى	محمد إقبال	ضرب الكليم (شعر)	٦٧٣-
محمد علاء الدين منصور	آية الله العظمى الخمينى	ديوان الإمام الخمينى	٦٧٤-
ببشراف: محمود إبراهيم السعدنى	مارتن برنال	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	٦٧٥-
ببشراف: محمود إبراهيم السعدنى	مارتن برنال	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	٦٧٦-
أحمد كمال الدين حلمى	إدوارد جرانتفيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، ج٢)	٦٧٧-
أحمد كمال الدين حلمى	إدوارد جرانتفيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، ج٢)	٦٧٨-
توفيق على منصور	وليام شكسبير	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	٦٧٩-
سمير عبد ربه	وول شوينكا	سنوات الطفولة (رواية)	٦٨٠-
أحمد الشيمى	ستانلى فش	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	٦٨١-
صبرى محمد حسن	بن أوكرى	نجوم حنر التجوال الجديد (رواية)	٦٨٢-

صبرى محمد حسن	ت. م. ألوكو	سكين واحد لكل رجل (رواية)	٦٨٣-
رزق أحمد بهنسى	أوراثيو كيروجا	الاعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (ج١)	٦٨٤-
رزق أحمد بهنسى	أوراثيو كيروجا	الاعمال القصصية الكاملة (المحراء) (ج٢)	٦٨٥-
سحر توفيق	ماكسين هونج كنجستون	امرأة محارية (رواية)	٦٨٦-
ماجدة العنانى	فتانة حاج سيد جوادى	محبوبة (رواية)	٦٨٧-
فتح الله الشيخ وأحمد السماحى	فيليب م. نوپر وريتشارد أ. موار	الانفجارات الثلاثة العظمى	٦٨٨-
هناء عبد الفتاح	تالووش روجيفيتش	الملف (مسرحية)	٦٨٩-
رمسيس عوض	(مختارات)	محاكم التفتيش فى فرنسا	٦٩٠-
رمسيس عوض	(مختارات)	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	٦٩١-
حمدى الجابرى	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	أقدم لك: الوجودية	٦٩٢-
جمال الجزيرى	حاتيم برشيت وآخرون	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	٦٩٣-
حمدى الجابرى	جيف كولنر وبييل ماييلين	أقدم لك: دريدا	٦٩٤-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وجودى جروف	أقدم لك: رسل	٦٩٥-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روينسون وأوسكار زاريت	أقدم لك: روسو	٦٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	روبرت ودفين وجودى جروفس	أقدم لك: أرسطو	٦٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	ليود سبنسر وأندريزجى كروز	أقدم لك: عصر التنوير	٦٩٨-
جمال الجزيرى	إيفان وارد وأوسكار زاريت	أقدم لك: التحليل النفسى	٦٩٩-
بسمة عبدالرحمن	ماريو فرجاش	الكاتب وواقعه	٧٠٠-
منى البرنس	وليم رود فيفيان	الذاكرة والحدائق	٧٠١-
محمود علاوى	أحمد وكيليان	الأمثال الفارسية	٧٠٢-
أمين الشواربى	إيوارد جرانتيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	٧٠٣-
محمد علاء الدين منصور وآخرون	مولانا جلال الدين الرومى	فيه ما فيه	٧٠٤-
عبدالحميد مذكور	الإمام الغزالى	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	٧٠٥-
عزت عامر	جونسون ف. يان	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	٧٠٦-
وفاء عبدالقادر	هوارد كاليجل وآخرون	أقدم لك: فالتر بنيامين	٧٠٧-
رحوف عباس	دونالد مالكولم ريد	فراغنة من؟	٧٠٨-
عادل نجيب بشرى	ألفريد أدلر	معنى الحياة	٧٠٩-
دعاء محمد الخطيب	يان هاتشباى وجوموران إليس	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	٧١٠-
هناء عبد الفتاح	ميرزا محمد هادى رسوا	درة التاج	٧١١-
سليمان البستانى	هوميروس	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج١)	٧١٢-
سليمان البستانى	هوميروس	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج٢)	٧١٣-
حنا صاوه	لامنيه	ميراث الترجمة: حديث القلوب	٧١٤-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج١)	٧١٥-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٢)	٧١٦-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٣)	٧١٧-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٤)	٧١٨-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٥)	٧١٩-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٦)	٧٢٠-
مصطفى لبيب عبد الغنى	ه. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	٧٢١-

الصفصافي أحمد القطوري	يشار كمال	الصفحة وقصص أخرى	٧٢٢-
أحمد ثابت	إفرايم نيمنى	تحديات ما بعد الصهيونية	٧٢٣-
عبد الريس	بول روبنسون	اليسار الفرويدي	٧٢٤-
مى مقلد	جون فيتكس	الاضطراب النفسى	٧٢٥-
مروة محمد إبراهيم	غيرمو غوثالبيس بوستو	الموريسكيون فى المغرب	٧٢٦-
وحيد السعيد	باچين	حلم البحر (رواية)	٧٢٧-
أميرة جمعة	موريس أليه	العولة: تدمير العمالة والنمو	٧٢٨-
هويدا عزت	صادق زيباكلام	الثورة الإسلامية فى إيران	٧٢٩-
عزت عامر	أن جاتى	حكايات من السهول الأفريقية	٧٣٠-
محمد قدرى عمارة	مجموعة من المؤلفين	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	٧٣١-
سمير جريس	إنجو شولتسه	قصص بسيطة (رواية)	٧٣٢-
محمد مصطفى بدوى	وليم شيكسبير	مأساة عطيل (مسرحية)	٧٣٣-
أمل الصبان	أحمد يوسف	بونابرت فى الشرق الإسلامى	٧٣٤-
محمود محمد مكي	مايكل كويرسون	فن السيرة فى العربية	٧٣٥-
شعبان مكارى	هوارد زن	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج١)	٧٣٦-
توفيق على منصور	باتريك ل. أبوت	الكوارث الطبيعية (مج٢)	٧٣٧-
محمد عواد	جيرار دى جورج	مشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الثورة الملوكية	٧٣٨-
محمد عواد	جيرار دى جورج	مشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	٧٣٩-
مرفت ياقوت	بارى هندس	خطابات القوة	٧٤٠-
أحمد هيكل	برنارد لويس	الإسلام وأزمة العصر	٧٤١-
رزق بهنسى	خوسيه لاکوادرا	أرض حارة	٧٤٢-
شوقى جلال	روبرت أونجر	الثقافة: منظور داروينى	٧٤٣-
سمير عبد الحميد	محمد إقبال	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	٧٤٤-
محمد أبو زيد	بيك الدنبلى	المآثر السلطانية	٧٤٥-
حسن النعيمى	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	٧٤٦-
إيمان عبد العزيز	تريفور وايتوك	الاستعارة فى لغة السينما	٧٤٧-
سمير كريم	فرانسيس بويل	تدمير النظام العالمى	٧٤٨-
باتسى جمال الدين	ل.ج. كالفيه	إيكولوجيا لغات العالم	٧٤٩-
باشراف: أحمد عثمان	هوميروس	الإلياذة	٧٥٠-
علاء السباعى	نخبة	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	٧٥١-
نمر عارورى	جمال قارصلى	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	٧٥٢-
محسن يوسف	إسماعيل سراج الدين وآخرون	التنمية والقيم	٧٥٢-
عبدالسلام حيدر	أنأ مارى شيمل	الشرق والغرب	٧٥٤-
على إبراهيم منوفى	أندرو ب. ديبكى	تاريخ الشعر الإيبانى خلال القرن العشرين	٧٥٥-
خالد محمد عباس	إنريكى خاردييل بونثيلا	ذات العيون الساحرة	٧٥٦-
آمال الرويى	باتريشيا كرون	تجارة مكة	٧٥٧-
عاطف عبد الحميد	بروس روبنز	الإحساس بالعولة	٧٥٨-
جلال الحقاوى	مولوى سيد محمد	النثر الأردى	٧٥٩-
السيد الأسود	السيد الأسود	الدين والتصور الشعبى للكون	٧٦٠-



فاطمة ناعوت	فيرجينيا وولف	جيوب مثقلة بالحجارة ( )	-٧٦١
عبدالعال صالح	ماريا سوليداد	المسلم عدواً و صديقاً	-٧٦٢
نجوى عمر	أنريكو بيا	الحياة فى مصر	-٧٦٣
حازم محفوظ	غالب الدهلوى	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	-٧٦٤
حازم محفوظ	خواجة الدهلوى	ديوان خواجة الدهلوى (شعر تصوف)	-٧٦٥
غازى برو و خليل أحمد خليل	تيرى هنتش	الشرق المتخيل	-٧٦٦
غازى برو	نسيب سمير الحسينى	الغرب المتخيل	-٧٦٧
محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى	حوار الثقافات	-٧٦٨
رندا النشار و ضياء زاهر	فريدريك هتمان	أدباء أحياء	-٧٦٩
صبرى التهامى	بينيتو بيريث جالدوس	السيدة بيرفيكتا	-٧٧٠
صبرى التهامى	ريكارىو جورالديس	السيد سيجوندو سومبرا	-٧٧١
محسن مصيئى	إليزابيث رايت	بريخت ما بعد الحدأة	-٧٧٢
ياشرف: محمد فتحى عبدالهادى	جون فيزر و يول ستيرجز	دائرة المعارف الدولية (ج٢)	-٧٧٣
حسن عبد ربه المصرى	مجموعة من المؤلفين	الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	-٧٧٤
جلال الحفناوى	نذير أحمد الدهلوى	مرأة العروس	-٧٧٥
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	منظومة مصيبت نامه (مج١)	-٧٧٦
عزت عامر	جيمس إ. ليدسى	الانفجار الأعظم	-٧٧٧
حازم محفوظ	مولانا محمد أحمد و رضا القادرى	صفوة المديح	-٧٧٨
سمير عبدالحميد إبراهيم و سارة تاكاهاشى	نخبة	خيوط العنكبوت و قصص أخرى	-٧٧٩
سمير عبد الحميد إبراهيم	غلام رسول مهر	من أنب الرسائل الهندية حجاز ١٩٢٠	-٧٨٠
نبيلة بدران	هدى بدران	الطريق إلى بكين	-٧٨١
جلال عبد المقصود	مارفن كارلسون	المسرح المسكون	-٧٨٢
طلعت السروجى	فيك جورج و يول ويلدينج	العناية والرعاية الإنسانية	-٧٨٣
جمعة سيد يوسف	ديفيد أ. وولف	الإساءة للطفل	-٧٨٤
سمير حنا صادق	كارل ساجان	تأملات عن تطور نكاه الإنسان	-٧٨٥
سحر توفيق	مارجريت أتوود	المذنبه (رواية)	-٧٨٦

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

---

رقم الإيداع ١١٧٠٨ / ٢٠٠٥





\*\* معرفتي \*\*

تأخذنا مارجریت أتوود فی رحلة عبر الزمن، لندخل إلى دهاليز حياة واحدة من أشهر نساء القرن التاسع عشر فی القارة الأمريكية. جريمة قتل بشعة، شغلت الصحف والرأى العام طويلاً فی كندا والولايات المتحدة، بل وطارت أخبارها والنقاش حولها إلى أوروبا، خاصة بريطانيا، وظلت الصحف تكتب عنها حتى نهايات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؛ فالفتاة التي شاركت فی ارتكاب الجريمة كانت صغيرة جدا، مما أثار نقاشاً طويلاً وانقساماً كبيراً فی الرأى حول دورها الحقيقي فی الجريمة، هل كانت شريكاً فعلياً فی الجريمة؟ هل كانت هي المجرم الحقيقي المحرض على ارتكاب الجريمة؟ وما دلالات ذلك على أنها شيطانة فی صورة آدمية؟ وما الدلالات الأخرى الخاصة بجنس المرأة بشكل عام؟ ثم هناك الرأى الآخر الذى رأى أنها كانت مجرد شخصية ساذجة استطاع الخادم القاتل أن يثير فيها الرعب إلى درجة أنها أطاعت أوامره خوفاً على حياتها.

الغلاف / نسرين كشك

الماثية "رواية" 35



9030100997